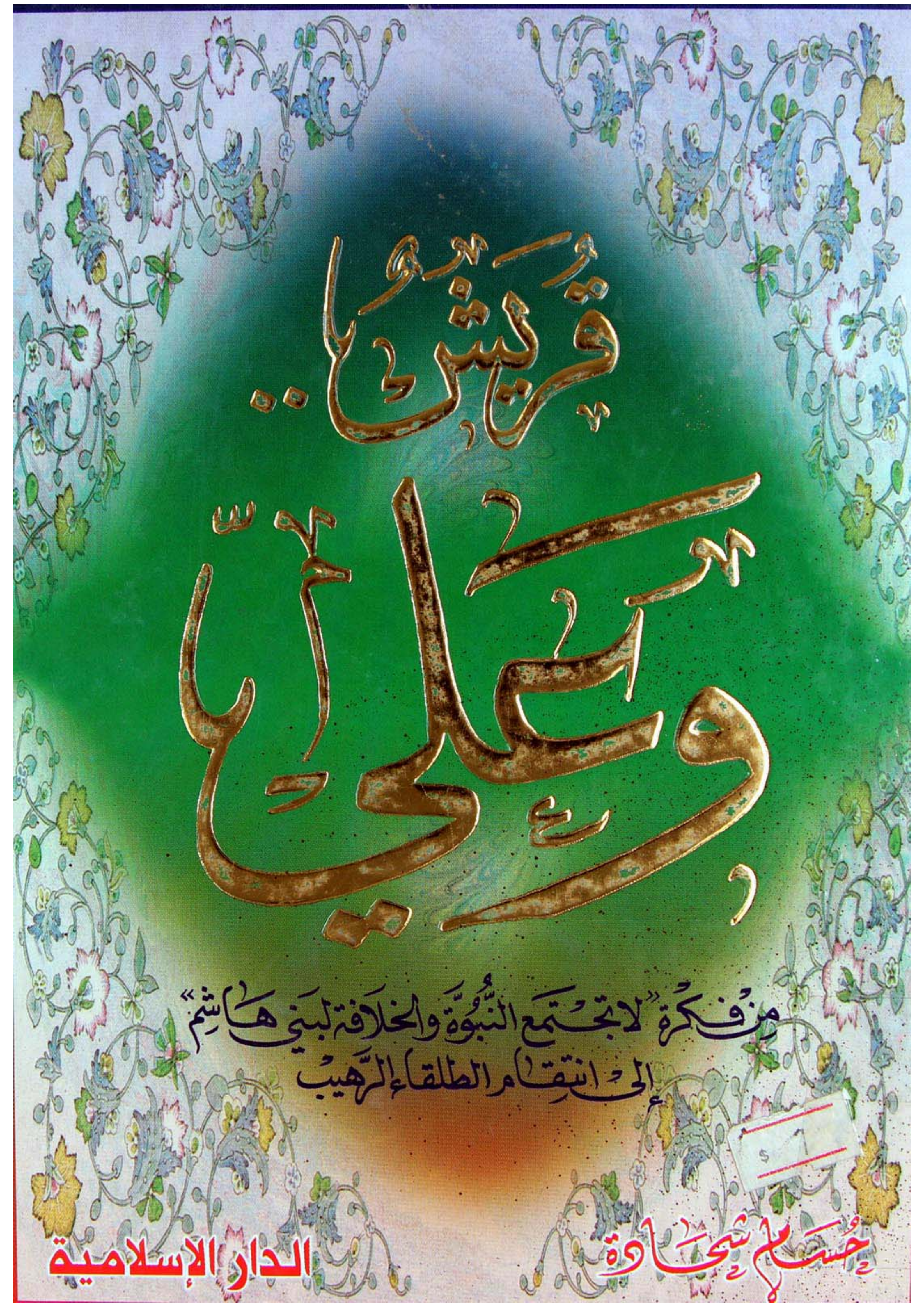


قريش.. وعلي
من فكرة «لا تجتمع النبوة والخلافة لبني هاشم»
إلى انتقام الطلقاء الرهيب
حسام شحادة
الدار الإسلامية



قريش.. وعلي

اسـم الكتاب : قريش... وعلي

تـأليـف : حسام شحادة

النـاشـر : الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع

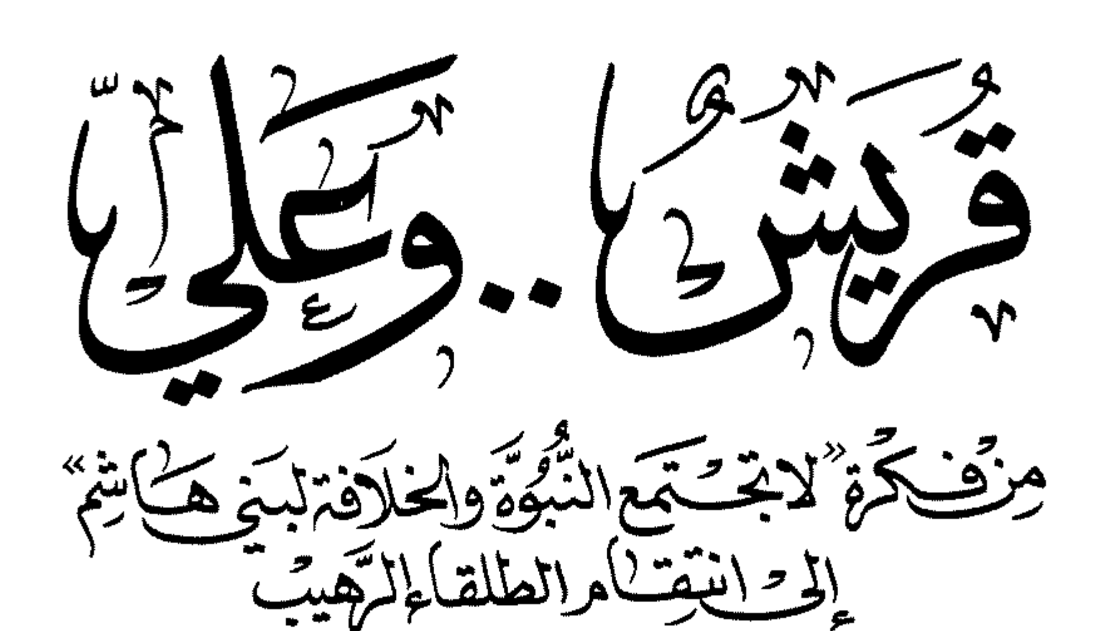
تاريخ الطبع : ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م الطبعة الأولى



حارة حريك - شارع دكاش - مقابل مدرسة الليسيه أميكال مودرن

هاتف: ٠١/٥٥٣٨٦٣ - ٠٣/ ٣٨٩١٦٦ - ص.ب: ١٤/٥٦٨٠

WWW-DARALISLAMIA.COM INFO@DARALISLAMIA.COM



تأليف

حسام شحادة

الدار الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لماذا قال علي بن أبي طالب «**ما لي ولقريش؟! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنّهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم. والله ما تنقمُ منا قريشٌ إلاّ أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا**».

وما الذي حدث حتى يقفَ والي العراق، زياد بن أبيه، بعد حوالي ٣٥ عاما فقط من وفاة الرسولﷺ، على المنبر ليقول على الملأ:

«فوالله لآخذنّ البريء بالسقيم، والمطيعَ بالعاصي، والمُقبلَ بالمدبر، حتى تلينَ لي قناتكم. وحتى يقول القائل: انجُ سعد، فقد قتل سعيد».

وكيف يصل الأمر بـ«خليفة رسول الله»، عبد الملك بن مروان، وفي مكة، أن يعلن بعد ٦٠ عاماً فقط من وفاته:

«ولا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربتُ عنقه».

وكيف وصلت الحال بآل الرسولﷺ إلى الحد الذي وصفه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سأله المنهال بن عمرو«**كيف أمسيتَ يا ابن رسول الله**؟

فقال علي بن الحسين بن علي: **أمسينا كبني اسرائيل في آل فرعون: يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم!**

يا منهال: أمست العربُ تفتخر على العجم بأن محمداً منهم، وأمست قريشٌ تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منها. وأمسينا أهل بيت محمد، ونحن مغصوبون مظلومون مقهورون، مثبورون مُطرّدون! فإنّا لله وإنا إليه راجعون على ما أمسينا فيه يا منهال».

وما هو السبب الذي دفع أحَدَ الناصحين لأن يكتب للزهري، المُحَدّث العَلَم المشهور، فيقول له «إنك آنستَ وحشة الظالم، وسهّلتَ سبيل الغيّ، بدنوّكَ إلى مَن

لم يؤدِّ حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناكَ.

اتخذوكَ قطباً تـدور عليـه رَحـا ظلمهـم وجسـراً يعبـرون عليـه إلـى بلائهـم ومعاصيهم، وسلّما يصعدون فيه إلى ضلالتهم. يُـدخِلون بـك الشـك علـى العلمـاء، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء».

*****

تلك أسئلة مهمة. ويحاول هذا الكتاب الإجابة على جزء منها.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير البشر أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الكرام البَرَرَة، وعلى الشهداء والمجاهدين، وعلى المؤمنين المظلومين المقهورين في كل مكان وزمان...

أما بعد،

إن المتتبع لسيرة الإمام علي بن أبي طالب والباحث في ما جرى في عهده من أحداث هائلة، لا يمكن له ألاّ يلاحظ ذلك الموقف الجماعيّ، الموحّد، الثابت والعنيف الذي اتخذته قبيلة قريش ضدّه. كان حجم العداء القرشيّ لعليّ كبيراً إلى حد مذهل، ولم يقتصر على شخصيات أو عائلات بعينها بل كان سمة عامة للقرشيين جيلاً بعد آخر. والغريب أن بطون قبيلة قريش الكثيرة كانت منذ سالف الأيام تتنافس فيما بينها، وتتصارع وتتنازع، وتختلف وتتباغض، حتى ذاعت أخبار تلك الخصومات وغدت مشهورة. ولذلك كانت تلك الوحدة الفعلية بين أبناء البطون القرشية ضد عليّ بن أبي طالب، واتفاقهم وتآلفهم على حربه وعدائه أمراً لافتاً حقاً. فعندما صار الأمرُ أمرَ عليّ، وضع القرشيون خلافاتهم جانباً، ونحّوها، وانصهروا في جبهة واحدة ضدّه، وشنوا عليه حروباً ضروساً. وفي واقع الحال، لم تنته تلك الخلافات الداخلية القرشية على الإطلاق، بل جُمّدت في سبيل هدف جامع، وعادت إلى الظهور بعد أن نجحت في صراعها ضد عليّ واستتب لها الأمر، وتجلت ذروتها في الصراع الزبيري ـ الأموي بعد وفاة معاوية.

وقد عبّر عليّ مرة عن ذلك الواقع بقوله: **«اللهم إني أستعديك على قريش ومَن أعانهم، فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفأوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنتُ أولى به من غيري»**[1].

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٩٢.

فكان لا بد من العودة الماضي لفهم أسباب ذلك العداء القرشيّ لعليّ. لا بد من العودة إلى الجذور. والأمر يرجع بعيداً.... إلى بدء دعوة النبيﷺ.

قررت قيادات قبيلة قريش في مكة أن ما بدأ به محمدﷺ من دعوة لدين جديد، ما هو إلاّ مناورة يقوم بها بنو هاشم من أجل الانفراد بالمجد والملك والسلطان والشرف، واستبعاد بقية بطون قريش من كل ذلك. وقررت القيادات القرشية أنها لا يمكن أبداً أن تقبل نبياً من بني هاشم، لأن ذلك سيؤدي إلى الإخلال بصيغة التوازن القائمة بين البطون القرشية والمبنية على تقاسم مناصب الشرف والزعامة، وهي لن تسمح بهذا مهما تطلب الأمر. وليس مهماً على الإطلاق إن كان محمدٌ صادقاً أم لا، فذلك ليس الموضوع بنظر الزعامة القرشية، فالمبدأ مرفوضٌ: لا مكان في مكة لنبيّ من بني هاشم، وستفعل قريش كل شيئ، وستسخّر طاقاتها وإمكاناتها كلها لمنع نجاح هذه «الخطة» الهاشمية. ومما كان يزيد من تصميم قريش على موقفها، ويؤكد شكوكها في تحرك النبيﷺ، ما تراه من تأييد غير مشروط يمنحه بنو هاشم لمحمدﷺ وعلى رأسهم عمه أبو طالب، وما يقدمونه له من دعم ماديّ ومعنويّ وحماية.

وبعد أن انتقل النبيﷺ إلى الفترة المدنية من دعوته، وصل صراعه مع قريش إلى ذروته، ودخل طَورَ المجابهة العسكرية المفتوحة. وكانت معركة بدر صدمة هائلة هزت قبيلة قريش حتى أعماقها، وأدت إلى مضاعفة الحقد القرشي على رسول اللهﷺ حتى وصل إلى درجة لا تكاد تصدق من الدناءة. وكان مما فاقم من تلك المشاعر القرشية الدور الباهر الذي لعبه آل الرسول، ممثلين بعليّ وحمزة، في المعركة التي أدت إلى مصرع القيادات القرشية الأعظم والأكبر. وأضافت قريشٌ الأنصارَ من الأوس والخزرج إلى خانة الأعداء الذين لا بد أن يدفعوا ثمن دعمهم لمحمدﷺ وجهادهم معه بكل بسالة. وفي معركة أُحُد التي انتصروا فيها، أظهر القرشيون صوراً بشعة من مظاهر التشفي بقتلى المسلمين انحدرت إلى درجة التمثيل بالجثث بكل خسة. ولا يوجد في التاريخ كله أمثلة تشبه ما فعلته هند بنت عتبة بجثة حمزة بن عبد المطلب حين حاولت بالفعل أن تأكل كبده، فمَضَغته!

وكانت قريشٌ في كل مراحل المسيرة النبوية التي توّجت بهزيمتها التاريخية يوم فتح مكة، ترى علياً بن أبي طالب الذراعَ الضاربة لمحمدﷺ، ذاته الأخرى المقاتلة والصارمة. قال عتبة بن أبي سفيان للحسن بن علي بن أبي طالب «كان أبوك شرّ قريشٍ لقريش! أسفكها لدمائها، وأقطعها لأرحامها. طويل السيف واللسان، يقتلُ الحيّ ويعيبُ الميتَ...»[1]. ورغم أن قريشاً كانت بالطبع تعتبر محمداً ﷺ المسؤولَ الأول عن كل ما جرى، إلاّ أنها بعد أن هُزمت واستسلمت، لم يعد بمقدورها أن تظهر حقيقة مشاعرها نحوه، فاضطرّت لكبتها، خاصة وهي قد بدأت السعيَ للعودة إلى الصدارة، بعباءة الإسلام هذه المرة. فقريشٌ أصبحت تسعى لوراثة «المُلك» الذي صنعه محمدﷺ دون غيرها من المسلمين، ولذلك لم تكن تقدر على أن تنال من رسول اللهﷺ بشخصه، ولكن علياً كان متاحاً. وهذه بالضبط خلفية ذلك الانفجار القرشيّ الرهيب الذي حصل في وجه عليّ. لقد قرر طلقاء قريش أن يكون ثأرهم لدماء آبائهم وإخوانهم موجهاً ضد عليّ بالذات، وعائلته التي هي عائلة النبيﷺ نفسه. فالموتورون القدماء لم ينتهوا، بل تكاثروا، وبقي عليّ أمام أعينهم عدواً أبدياً لا بد من الانتقام منه حين تسمح الظروف.

وهناك حلقة وسيطة، وهي في غاية الأهمية، بين مرحلة أواخر حياة الرسولﷺ، ومرحلة بدء طلقاء قريش انتقامهم الفعلي من عليّ عام ٣٥ للهجرة. وتلك هي الجناح المؤمن من قريش، أي المهاجرون القرشيون. والمؤمنون من قريش كانوا قِلة، ولا يتعدون بضع عشراتٍ ممن صدّقوا محمداًﷺ وهاجروا معه. وكان هؤلاء يتمنون الهداية لقبيلتهم قريشٍ، ولا يرغبون في تطوّر الصراع الذي يخوضه النبيﷺ معها إلى مواجهة حربية مفتوحة. ولما اتجهت الأمور بخلاف رغبتهم، ودخل الرسولﷺ في سلسلة حروب مع قريش، لم يكن لهؤلاء دورٌ مؤثرٌ في مجريات المواجهة الدامية. إلاّ أن الأهمية الاستثنائية لهؤلاء المهاجرين القرشيين ظهرت مباشرة بعد وفاة الرسولﷺ، حين تصدّى هؤلاء لقيادة الدولة من

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٢٨٨.

بعده. ونجحت تلك القلة من المهاجرين القرشيين، اعتماداً على سابقتها في الإيمان بالنبي(ص)، في الحصول على شرعية لقيادتها للأمة من بعده. لقد قرر المهاجرون القرشيون أن أبا بكر، وليس عليّ، هو مَن يجب أن يتولى خلافة رسول الله(ص). فقريشٌ، حسب تعبير عمر بن الخطاب، لا يمكن أن تجتمع على علي بن أبي طالب «للدماء التي عليه»، وبالتالي فإن مصلحة الإسلام تقتضي إبعاد عليّ عن منصب الخلافة، وحصرها في طبقة المهاجرين من أبناء البطون القرشية. وهناك الكثير من المؤشرات التي تدعم الفكرة القائلة بأن عمر كان يعتبر ما قاله النبي(ص) وأعلنه للمسلمين يوم غدير خم من توجيهات بشأن علي بن أبي طالب اجتهاداً من شخصه ورغبة من ذاته، وليس وحياً إلهياً، وبالتالي لا بأس في مخالفته باجتهادٍ آخر إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك.

والذي حصل أن الجناحين القرشيين، المهاجر والطليق، قد تآلفا وتصافيا ووحّدا جهودهما، بعد أن اعترف الطلقاء بخطأ مواقفهم السابقة وسلموا بقيادة المهاجرين، من أجل إبعاد عليّ والأنصار كلياً عن شؤون الحكم والخلافة. وهكذا بدأ الطلقاء من أبناء البطون القرشية رحلة العودة التدريجية إلى مواقع الزعامة والقيادة التي خسروها في أعقاب الانتصار النبوي. وكان مما يسّر عليهم الأمر أن قيادة المهاجرين قررت الاعتماد عليهم كلياً في تثبيت سلطانها في جزيرة العرب أولاً، ومن ثم نشر الإسلام في بلاد جديدة، ثانياً. وفي نهاية حقبة الفتوحات الكبرى، أصبحت قبيلة قريش تشعر أنها قدمت من التضحيات، وحققت من الإنجازات، ما يكفي لكي يعوّضها عن ماضيها الأسود تجاه النبي(ص) ودينه. فلا يحق لعليّ بن أبي طالب، مهما كان دوره في الإسلام عظيماً، ومهما كانت علاقته بالنبي(ص) قريبة، ومهما كانت خصاله وصفاته باهرة، أن ينازع قريشاً شؤونَ الحكم ويتصدى للخلافة. فعمر بن الخطاب رسّخ فكرة ألاّ تجتمع النبوة والخلافة لبني هاشم، وقد ثبت صواب سياسته ونجاحها بالفتوحات العظيمة، ولا يجوز لعليّ أن ينقض ذلك.

فالذي حصل تاريخياً أن المهاجرين القرشيين الذين تولوا الخلافة بعد الرسول(ص)، الخلفاء الثلاثة الأوائل، كانوا جسراً عَبَر عليه طلقاء قريش في سعيهم

إلى الزعامة، التي نالوها أخيراً ممثلين بمعاوية بن أبي سفيان.

ولا شك أن الفرق كبيرٌ بين المهاجرين والطلقاء. فرغم أنه جمَعَهم موقفٌ سلبيٌ مشترك تجاه علي بن أبي طالب، إلاّ أن منطلقاتهم كانت مختلفة. فالمهاجرون مؤمنون صادقون، وحتى لو صدر منهم ما يبدو أنه مخالفةٌ لفعل النبيﷺ أو قوله، فمَرَدّ ذلك اجتهادهم لما يرونه مصلحة الإسلام. وأما الطلقاء، فإيمانهم فيه نظر. وأفعالهم وسلوكهم بعد الإسلام هي التي من شأنها تحكم على حقيقة إيمان كل فرد منهم بنبوّة محمدﷺ. والذي حصل أن الغالبية العظمى من هؤلاء الطلقاء قد تكتلوا وانخرطوا في صراعٍ دام ضدّ آل الرسول بقيادة عليّ بن أبي طالب، وضد أنصاره من الأوس والخزرج. وقد أظهر طلقاء قريش كوامن نفوسهم، وأطلقوا العنان لمشاعرهم المكبوتة، أثناء مراحل ذلك الصراع الهائل.

فالمأساة التاريخية التي حصلت كانت في أن مَن قدّموا أكبر التضحيات في سبيل محمدﷺ ودعوته هم أنفسهم مَن دفعوا ثمن ذلك الموقف الذي وقفوه غالياً. فالطبيعي هو أن يقطفوا ثمار الانتصار النبوي الذي تحقق بفضل جهادهم وبطولاتهم، ولكن الذي حصل هو العكس تماماً: لقد عوقبوا على ماضيهم المشرّف مع الرسولﷺ وانتقم أعداؤهم القدماء منهم.

وعلي بن أبي طالب، وعائلة الرسول بالإجمال، هو النموذج الأبرز على ذلك الظلم الفظيع. ويأتي بعدهم الأنصار من الخزرج والأوس.

فمظلوميّة علي بن أبي طالب قلّ نظيرها في التاريخ البشري. فهو الشهيد أبو الشهداء، يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من حلقات الجهاد والبطولة تنتهي دائماً بالمأساة. لم ترحم سيوف الظالمين هؤلاء الشيوخ الأطهار من ذرية رسول اللهﷺ الذين جللهم وقار الشيب، ولا حتى الفتيان في نضارة العمر ممن حيل بينهم وبين الحياة، بقسوة ووحشية وبطشٍ رهيب. وليس فقط أن عليّاً خسر معركته ضد طلقاء قريش، وخسر الحكمَ والخلافة، ولكن الخسارة استمرّت متواصلة بعد وفاته. فقد طورد أبناؤه وأحفاده وحوصروا، وظلموا وقُهِروا، وشُرّدوا وقُتلوا

جيلاً بعد جيل. وكان منظر رأس الحسين بن عليّ وقد عُلق على أسنة رماح جيش عمر بن سعد بن أبي وقاص، بينما تُساق النساء من ذرية عليّ والرسول سبايا بأمر»الخليفة«يزيد بن معاوية، بعد خمسين عاماً فقط من وفاة الرسولﷺ، يمثل لحظة الذروة في مأساة عليّ التاريخية.

ولم تقف الأمور عند مذبحة كربلاء. فكان الشغل الشاغل، والهم الأكبر، لكل خليفة جديد من بني أمية، وبني العباس من بعدهم، هم هؤلاء الذين بقوا من سلالة عليّ والرسول. صبّ الخلفاء والحكامُ سُعارَهم عليهم، ولم يتركوهم في حالهم حتى عندما كان هؤلاء يجنحون إلى السلم والموادعة.

وبالإضافة إلى آل الرسولﷺ، دفع الأنصار أيضاً ثمناً باهظاً على أيدي طلقاء قريش وأبنائهم، فاستباح الموتورون مدينتهم المنورة مرّتين: الأولى على يد معاوية والثانية على يد ابنه وتلميذه يزيد، تشابهت خلالهما نوعية الفظائع وسمات القتلة.

ولم تقتصر مظلومية عليّ على تلك الوقائع والحوادث التاريخية المأساوية. لقد شنت السلطات الحاكمة حملة فظيعة من التشنيع ضدّه وعمدت إلى محاولة طمس فضائله ومناقبه، ورفع ذكر خصومه وأعدائه. والنتيجة كانت شيوع مقولات وأفكار ذات منبع أمويّ بين عامة المسلمين، تداخلت مع الدين نفسه وصارت من المسلّمات.

فيمكن القول إن مظلومية عليّ مستمرة في شكل ما إلى هذا اليوم.

فالجهل المنتشر حول حقيقة الجهاد العظيم الذي قام به عليّ وحول المعركة الكبرى التي خاضها ضد التجمّع القرشيَ، دفعني إلى القيام بدور المؤرخ لأحداث الفتنة الكبرى. فهذه المعرفة بتطورات الصراع ضرورية من أجل ربط الشخصيات بالأحداث وفهم مواقف كل الجهات بشكل صحيح، وبالتالي فهم التداخلات بين السياسية والدين.

*****

فهذا كتابٌ يتمحور حول عليّ بن أبي طالب‰.

ومن حق الباحث المنصف أن يُبهَرَ بعليّ. فأينما تُولى الأعينُ فثمّ عليّ. ومَن مثلُ عليّ في الفضل والخصال في الإسلام؟

فإن كان على القرابة من رسول الله‰ فهو الأقرب: ابنُ أبي طالب، شقيق عبد الله والد رسول الله من أبيه وأمه، عمّ رسول الله وكافله وحاميه. نشأ رسول الله‰ في بيت أبيه، يأكل من طعامهم ويشرب من مائهم. وهو زوج ابنته فاطمة الزهراء، بضعة رسول الله‰ الطاهرة وسيدة النساء، التي اختصها رسول الله‰ له دون غيره. وهو أبو الذرية الطاهرة من سلالة الرسول‰.

وبسبب هذه الصلة والحميميّة في العلاقة لا عَجَبَ أن يقول الرسول‰ **«إن علياً منّي وأنا منه. وهو وليّ كل مؤمن من بعدي»**[1].

وإن كان على القرب من رسول الله‰، فهو الأقرب: عاش في بيت رسول الله منذ كان طفلاً، وتربى على يديه، فلازَمَه ولم يفارقه يوماً في السراء ولا في الضراء. فشبّ ولم يعرف صَنماً ولم يقرب وثناً، فكان عليٌ امتداداً للشخصية النبوية، حتى أن رسول الله‰ جعل حبّه الدليلَ المفرّقَ بين الإيمان والنفاق، كما جاء في صحيح مسلم عن عليّ أنّه قال:

«والذي فلقَ الحبة وبَرَأ النسمة! إنّه لعهدُ النبيّ الأميّ إليّ أن لا يُحبني إلاّ مؤمن، ولا يُبغضني إلاّ منافق»[2].

وإن كانَ على السبق إلى الإيمان، فهو أول الناس إسلاماً، وأسبقهم إيماناً. دخل دين محمد‰ وهو لما يناهز الحلم. نشأ عليّ في كنف النبوّة، يرى محمداً يعبد ربّه في الليل والنهار، يناجيه ويوحّده ولا يتقرّب لغيره. فعلّمه رسول الله‰ مكارم الأخلاق، وأرضعَه لبانَ النبوّة وأطعمه نفحات الوحي، فكان أول مَن صلّى

---

(١) سنن الترمذي ج٥ ص٢٩٦، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم ج١ كتاب الإيمان ص ٥١. ونفس هذا الحديث ورد في سنن ابن ماجة ج١ ص٤٢ وكذلك في سنن النسائي ج٨ ص١١٧.

خلف رسول الله وأولَ مَن صدّق وآمن. فلم تتلوّث فطرته بشركٍ أو ضلال، ولم يعرف غير نور محمدﷺ.

وإن كان على الفداء والتضحية، فهو قد افتدى رسول اللهﷺ بروحه ليلة الهجرة، ووقاه بنفسه وحماه في كل موقف عصيبٍ تعرّض له.

وإن كان على الجهاد في سبيل الله، فهو صاحب السهم الأكبر: لم يتوقف يوماً عن جهاد الكافرين في مكة وفي المدينة، ولم يكن من مشهدٍ لرسول اللهﷺ إلاّ وكان حامل رايته وقاهر أعدائه.

وإن كان على الشجاعة والبطولة، فهو الأعظم: لم يَهَب أبطالَ العرب ولا فرسانَ اليهود. وتشهد له ساحات الوغى في بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين أنه كان يتقدم حين ينكص الآخرون، ويثبت حين يفر الناس. فلم يبارز أحداً قط إلاّ أرسله بسيفه إلى جهنم، فهو الفارس الذي ما انهزم في واقعة ولا عثر في موضع.

وإن كان على الزهد والتقشف، فهو الذي بقي مخلصاً للتراث النبوي، في الزهد والتواضع في المعيشة حتى وهو خليفة، فحرّم على نفسه أن يأكل الدقيقَ المُنخل!

«عن سويد بن علقمة قال: دخلتُ على عليّ عليه السلام بالكوفة. فإذا بين يديه قعبُ لبنٍ أجدُ ريحَه من شدة حموضته، وفي يده رغيفٌ ترى قشار الشعير على وجهه، وهو يكسره، ويستعين أحياناً بركبته»[1].

وإن كان على الحكمة، فهو صاحبُ فكرٍ تجاوز النطاق الإسلامي إلى الفضاء الإنساني الأرحب. وتكفي الإشارة إلى ما كتبه لمالك الأشتر حين ولاّه مصر موصياً إياه برعيته من مسلمين وأقباط «**وأشعر قلبكَ الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطفَ بهم. ولا تكوننّ عليهم سَبعاً ضارياً تَغتنمُ أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين وإما نظيرٌ لك في الخَلق**»[2]. وهذه العبارة التي قالها عليّ قبل أربعة عشر قرناً

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٠١.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص٣٦٦.

تلخّص كل ما وصلت إليه اجتهادات البشرية من مبادئ المساواة والعدالة وحقوق الإنسان!

وهو الذي وصفه رسول الله ﷺ بقوله **«أنا دارُ الحكمةِ وعليّ بابُها»**[1].

وإن كان على التصميم والإرادة، فهو القائل للخاذلين الذين تهيّبوا مواجهة جيوش الشام الجرارة **«والله لأغزونّهم. ولو لم يبقَ أحدٌ غيري لجاهدتهم»**[2].

وإن كان على العبادة والتقوى، فهو سيّد العابدين وإمام المتقين. وهو الذي كان يذكّر أصحابه دوماً **«ألا عاملٌ لنفسه قبل يوم بؤسه؟ ألا وإنكم في أيام أمَل من ورائه أجَل. فمَن عمل في أيام أمَله قبل حضور أجله فقد نفعَه عملُه، ولم يضرُره أجلُه. ومَن قَصّر في أيام أَمَله قبل حضور أجَله فقد خسر عَمَله وضرّه أجلُه»** وهو الذي كان يصف لهم تغيّر أحوال الإنسان حتى المصير المحتوم **«فهل ينتظرُ أهلُ بَضاضَة الشباب إلاّ حَواني الهَرَم، وأهلُ غَضارَة الصحّة إلاّ نوازلَ السّقم، وأهلُ مدّة البقاء إلاّ آونة الفناء مع قُرب الزّيال وأزوف الانتقال.... فهل دفعت الأقاربُ أو نفعَت النواحبُ وقد غودرَ في مَحلّة الأموَات رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً، قَد هَتكت الهَوامُ جلدَته وأبلت النواهكُ جدّته وعفت العَواصف آثاره ومحا الحدثان مَعالمُه وصارت الأجساد شحِبة بعد بضّتها والعظام نخِرة بعد قوتها...»**[3].

وإن كان على الجدّ والعمل، فهو الذي لم يأنف يوماً عن كسب قوته بيده كغيره من بُسطاء المسلمين. ومن ذلك مثلاً أنه كان قد عمل في سقاية النخيل طوال الليل مقابل أجر من الشعير قبَضَه عند الصباح «فطحَنَ ثلثه. فجعلوا منه شيئاً ليأكلوا يقال له الخزيرة. فلما تمّ إنضاجُه أتى مسكينٌ، فأخرجوا إليه الطعام. ثم عمِلَ الثلثَ

---

(١) سنن الترمذي ج٥ ص٣٠١، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٦٣.

(٣) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٥٩ و ص١٠٥. والبضاضة: رقة الجلد وامتلاؤه. والغضارة: النعمة والخصب. والزيال: المفارقة. والأزوف: القرب. والهوام: الأفاعي. والبضة: الحية والممتلئة.

الثاني فلما تمّ إنضاجُه، أتى يتيمٌ فسألَ فأطعموه. ثم عملَ الثلثَ الباقي فلما تمّ إنضاجُه أتى أسيرٌ من المشركين فأطعموه. وطوَوا يومهم ذلك.»[1].

وإن كان على العلم والفقه، فهو صاحب المقولة الشهيرة «سَلوني قبل أن تفقدوني»[2]. وهو الذي كان يطلب من أصحابه أن يسألوه عن كتاب الله، لأنه ليس من آيةٍ في القرآن إلاّ وقد عرفَ بليلٍ نزلت أم بنهار، وفي سَهلٍ كان ذلك أم جَبل.

وإن كان على الفصاحة والبلاغة، فهو السامق في عُلاه. فقد أعطي بياناً يقصر عنه الفصحاء ولا يبلغه البلغاء. فجاء حديثه وبيانه في خطبه ورسائله آية في الجمال والبلاغة سبقت أبناء عصره وتخطت زمان وجوده. ويكفي ذكر ما قاله الإمام محمد عبده «وليس في أهل هذه اللغة، إلاّ قائلٌ بأن كلام الإمام علي بن أبي طالب هو أشرف الكلام وأبلغه، بعد كلام الله تعالى وكلام نبيّه، وأغزره مادة وأرفعه أسلوباً وأجمعه لجلائل المعاني».

وإن كان على العدل والاستقامة والتمسّك بأهداب الحق، فمَن ذا يمكن أن يصدر عنه ما فعله عليّ مع أخيه عقيل؟!

«إن عقيل بن أبي طالب لزِمَه دَينٌ فقدِمَ على عليّ بن أبي طالب الكوفة. فأنزله وأمرَ ابنه الحسن فكساه. فلما أمسى دعا بعشائه فإذا خبز وملحٌ وبقل. فقال عقيل: ما هو إلاّ ما أرى؟ قال: لا.

قال: فتقضي ديني؟

قال: وكم دينك؟

قال: أربعون ألفاً.

قال: ما هي عندي، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي، فإنه أربعة ألفٍ. أدفعه إليك.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٢٩٦. وأضاف أن الآية القرآنية ﴿ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا﴾ نزلت في تلك المناسبة.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٤٨.

فقال له عقيل: بيوت المال بيدك وأنت تسوفني بعطائك؟!

قال: أتأمرني أن أدفع إليك أموالَ المسلمين وقد ائتمنوني عليها؟!

قال: فإني آتٍ معاوية. فأذِنَ له.

فأتى معاوية. فقال له: يا أبا يزيد كيف تركتَ علياً وأصحابه؟

قال: كأنهم أصحاب محمد إلاّ أني لم أرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيهم. وكأنك وأصحابك ابو سفيان وأصحابه، إلاّ أني لم أرَ أبا سفيان فيكم..

.... وأمرَ له معاوية بخمسين ألف درهم. فأخذها ورجع»[1].

وإن كان على الكرَم، فهو الذي لم تلهه حتى الصلاة لله عن أن يجودَ بما تيسّر! «وقف بعليٍّ سائلٌ وهو راكعٌ في صلاة تطوّع. فنزَعَ خاتمَه فأعطاه السائلَ»[2].

وقد أجادَ أحدُ أصحابه وَصفَه فقال:

«كان والله بعيدَ المدى، شديدَ القوى.

يقول فصلاً ويحكم عدلاً.

يتفجرُ العِلمُ من جوانبه، وتنطقُ الحكمة من نواحيه.

يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنسُ بالليل ووحشتِه.

غزيرُ العبرةِ، طويلُ الفكرة.

يُعجبه من اللباس ما قصُر، ومن الطعام ما خشُن.

كان فينا كأحدِنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبؤنا إذا استفتيناه.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص ٣٢٣. وروى هذه القصة السيوطي في تاريخ الخلفاء ص٢٤٧ نقلاً عن ابن عساكر.

(٢) ورد ذلك في تفسير الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ج٢ ص٢٩٣ في معرض شرحه لسبب نزول الآية **﴿إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومَن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾**. وكذلك ذكر الواحدي في أسباب النزول ص١٣٣. والآية هي رقم ٥٥ـ٥٦ من سورة المائدة.

ونحن والله مع تقريبه أيانا لا نكاد نكلمه هيبة له.

يُعظمُ أهلَ الدين ويقرّبُ المساكين.

لا يطمعُ القويُ في باطِله، ولا ييأس الضعيفُ من عدله...»[1].

تقسيم الكتاب

لقد قسمتُ هذا الكتابَ إلى ثمانية «كتب» تسبقها نبذة عن قبيلة قريش وبطونها.

و«الكتاب الأول» يستعرض **محطات مهمة من السيرة النبوية**. وكان لي هدفان من هذا الاستعراض، الأول منهما إبراز حجم العداء القرشيَ لرسول الله ﷺ وآله وأنصاره، ومقدار الجهد الذي بذلته البطون القرشية في محاولة القضاء على محمد ﷺ ودعوته ودينه. وأيضاً إظهار الحقيقة الموضوعية المتمثلة في أن مساهمة المؤمنين من أصل قرشيّ في نجاح دعوة محمد ﷺ كانت محدودة للغاية. فقد بذل رسول الله ﷺ مجهوداً عظيماً في الدعوة على مدى ثلاثة عشر عاماً ولكن قبيلة قريش بإجمالها رفضته، فلم يؤمن به سوى بضع عشرات من أبنائها. وكان هؤلاء القلة الذين آمنوا بالرسول ﷺ من ذوي الأصول القرشية تشدّهم روابط الدم والقربى إلى عشيرتهم الأم، ولم يكونوا سعداء على الإطلاق بتدهور الأمور بين رسول الله ﷺ وبين قريش إلى حد الحرب والقتال.

والهدف الآخر كان إبراز الدور العظيم، والاستثنائي، الذي لعبه عليّ بن أبي طالب في كل المراحل المهمة من المسيرة النبوية. فلم يكن عليّ مجرد «صحابي» أو مجرد«ابن عم للرسول»، بل كان ذاته الأخرى، المقاتلة والصارمة والضاربة.

وفي «الكتاب الثاني» تناولتُ موضوعاً في غاية الأهمية والحساسية وهو **انتقال السلطة بعد وفاة الرسول** ﷺ وما رافق ذلك من ملابسات وصراع أسفر عن وصول أبي بكر إلى منصب الخلافة. وركزتُ على الدور الجوهري الذي لعبه عمر

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨ ص٢٢٥.

ابن الخطاب الذي كان صانعَ السياسة التي أبعدت عليّ بن أبـي طالـب عـن القيـادة، ورائدها. وشرحتُ كيف صمّم المهاجرون القرشيون علـى ترسـيخ مبـدأ «لا تجتمـع النبوة والخلافة لبني هاشم»، وأصرّوا على تطبيقه بكل حزم. وتطرقتُ فيه إلى حادثـة رزيّة يوم الخميس المذهلة وقيام عمر بن الخطاب بالإعلان عن مـنهج الفصـل بـين الرسول والقرآن بقوله «حَسْبُنا كتاب الله»، بعد أن استعرضـتُ خطابـات وتوجيهـات الرسول ﷺ الشفهية يوم غدير خُم في أعقاب حجة الوداع.

و«الكتاب الثالث» مخصصٌ **لعهد الخليفتين أبي بكـر وعمـر**. وفيـه شـرحتُ كيف تمت عملية إعادة تأهيل طلقاء قريش ودمجهم في دولـة الإسـلام عـن طريـق تكليفهم بالمهمات القيادية في الحَملات العسكرية التـي شـنّها الخليفتـان، لإخضـاع القبائل العربية المتمردة أولاً، وللفتوحـات الكبـرى ثانيـاً. وتطرقـتُ إلـى الإنجـازات والانتصارات الهائلة التي تحققت في زمن عمر بن الخطاب والتي كان له فيها الفضـل الأبرز، مما منحَه هيبة وهالة عظيمة في نفوس المسلمين. وأخيراً استعرضتُ الطريقـة التي اختارها عمر لانتقال الحكم من بعده إلى عثمان، وكيف أن «الشورى» أدّت إلـى خلق مؤسسة كاملة تحرص على إبعاد عليّ بن أبـي طالـب عـن الخلافـة، وبشـكل دائم.

و«الكتاب الرابع» يتناول عهد الخليفة **عثمان بن عفان** الذي تحوّلت فيه سياسـة الحكم وأصبحت «أموية» بحتة، بعد أن كانت «قرشية» عامة. وتعرّضـتُ إلـى حركـة التمرد والثورة على الخليفة والتي بدأت على شكل احتجاجات وشـكاوى مـن قبـل الرعية في الأمصار وعدد من كبار الصحابة ممن تعرضوا للعقـاب القاسـي علـى يـد عثمان. وشرحتُ كيف أدّى تتابع الأحداث إلى مقتل الخليفة الـذي لـم تـدافع عنـه المدينة المنورة، بل تركته يواجه مصيره بعد أن يئس الجميع من إمكانية تخليـه عـن بطانته الأموية الفاسدة. كما تناولتُ بيعة علي بن أبي طالـب بالخلافـة، كيـف تمـت، ومواقف مختلف الأطراف والشخصيات منها.

وأما «الكتاب الخامس» فهو مخصص **لأول فتنة وحرب أهلية فـي الإسـلام**. وفيه تحليل لتحركات أم المؤمنين عائشة وكيف صارت القطبَ الجاذبَ لكل القـوى

المعادية لعليّ بن أبي طالب، وبخاصة الجهاز الإداري في عهد عثمان ومعهم أبناء طلقاء قريش المصممون على خلعه من الخلافة. وتناولت بالتفصيل تسلسل الأحداث، وخروج عليّ من عاصمة الخلافة لمواجهة أعدائه الذين سيطروا على البصرة، والمشاكل التي تغلب عليها لكي يستقطب الكوفة، وانتهاءً بحرب الجمل ومقتل الآلاف من المسلمين، ومن ضمنهم الزبير وطلحة.

و«الكتاب السادس» يتطرق **للحرب الكبرى التي خاضها الإمام عليّ ضد معاوية** وجيوش الشام، والتي كانت ذروتها في معركة صفين. وتناولتُ شخصية معاوية وعناصر الائتلاف الجبّار الذي أقامَه، بالتحليل. وشرحتُ ما أعقب وقف القتال في صفين من حوادث مهمة، وخاصة مؤتمر التحكيم والشقاق الذي حصل داخل جبهة عليّ في العراق، بسبب تمرّد الخوارج الذي اضطر علياً إلى خوض حرب طاحنة ضدهم مما أعاقه عن معاودة الهجوم على الشام. واستعرضتُ التسلسل المأساوي للأحداث وتصدّع الجبهة الداخلية لعليّ وانتقال معاوية إلى المبادرة الهجومية، وسياسة الغارات الوحشية التي شنها، ونجاحه في السيطرة على مصر. وانتهى هذا الكتاب بحادث الاغتيال الذي أودى بحياة الإمام علي.

وأما «الكتاب السابع» فيتناول **الوضع الصعب الذي وجد الخليفة الحسن بن عليّ نفسَه فيه** بعد مقتل والده، والظروف التي أدت إلى قراره مسالمة معاوية والتنازل له عن الخلافة. كما يتناول إكمال معاوية السيطرة على كل بلاد المسلمين بعد تفاهمه مع زياد بن أبيه واستلحاقه له.

وأما «الكتاب الثامن» فهو يصلح أن يُطرح ككتاب مستقل. فهو يختلف عما سبقه بكونه يبتعد عن سرد وتحليل الأحداث التاريخية، ويتخصص في تناول **النتائج التي أسفر عنها الاستئثار الأموي بالحكم، والتأثير السياسي على الدين.**

لقد كانت الدولة الأموية تعرف أن شرعيتها ستبقى مطعوناً بها ما دامت الحقائق الساطعة عن عليّ بن أبي طالب معروفة لدى عامة المسلمين. ولما كان معاوية وخلفاؤه يمتلكون من الذكاء ما يكفي لكي يدركوا أن القوة العسكرية

المجرّدة لا تكفي لتثبيت أركان حكمهم على المدى الطويل، فقد قرروا اللجوء إلى شنّ حملة دعائية ضخمة موجهة ضد شخص عليّ وآل البيت النبوي، وسخروا موارد وطاقات دولتهم الهائلة من أجل ذلك. وتواطأ فقهاء السلاطين، وطلابُ الغنائم، والمتزلفون من أدعياء العلم، مع الجبناء الخانعين، والبسطاء الجاهلين والعامة السلبيين، وتآلفوا جميعاً من أجل إنتاج أفكار تخدم الخط الحاكم، وترويجها ونشرها في بلاد المسلمين. وأسفر ذلك الجهد المركز عن تشويه كبير للأحداث حصلت في صدر الإسلام، بحيث تمت إعادة صياغتها بما يتلاءم مع رغبة الحاكمين وإرادتهم. ورغم أن الدولة الأموية سقطت بعد ٩٠ عاماً من تأسيسها، إلاّ أن الحكام العباسيين الجُدُد، مع رغبتهم في التخلص من تراث أعدائهم الأمويين، سُرعان ما دخلوا في صراع شديد مع منافسيهم من أحفاد عليّ وفاطمة، وأصبح لهذا النزاع أولوية لدى الحكام العباسيين على صراعهم ضد أعدائهم الأمويين الذين تم القضاء عليهم بالفعل. والنتيجة كانت أن قرر الحكام العباسيون المحافظة على معظم المقولات التي تم إنتاجها في العصر الأموي والتي كانت مُصَممة بشكل أو بآخر للدفاع عن الحكام الذين تولوا السلطة عن طريق التقليل من خصال عليّ وفضله، وتمييع مناقبه، ورفع شأن أعدائه وخصومه.

ويتناول هذا الكتاب عشرَ مقولات شائعة بالتحليل والنقد والتفنيد ويعرض أسباب نشوء هذه المقولات ويربطها بأصولها الأموية.

فالفصل الأول مخصصٌ للحديث عن **سياسة معاوية في تشويه سمعة عليّ**، والتي جعلها سياسة رسمية للدولة تكافئ مَن ينفذها وتعاقب مَن يرفضها. وقد أدت هذه التعليمات إلى بدء موجة كبيرة من الكذب واختلاق الأحاديث النبوية وتلفيق الروايات، فأوردتُ على ذلك أمثلة عديدة، ومنها أحاديث فضائل الخلفاء وتلويث سمعة أبي طالب. وقد ساهم عددٌ من كبار المحدثين والإخباريين في نجاح هذه الحملة عن طريق التصرّف في الروايات والأحاديث وإخراجها بشكل معدّل بحيث تنسجم مع الضوابط الأموية، فذكرتُ بعض الشواهد على ذلك من صحيح البخاري.

و«العشرة المُبَشرون بالجنة» مقولة لا تصمد للنقد وليس لها من أساس واضح سوى رغبة مُطلقيها في منح حصانة للصحابة القرشيين الذين عادوا علياً أو حاربوه، عن طريق القول إنه مجرد واحد من ضمن عشرة من الفضلاء الذين ضمنَ رسول الله لهم مكانهم في جنة الخلد، وبالتالي لا يجوز انتقاد أيّ من مواقفهم ولا حتى التساؤل عن صوابيّة كل أعمالهم. وقد أوضحتُ الخلفيات السياسية التي تجعل الخط الأموي يتمسّك بالأسماء الواردة في القائمة.

وكذلك فإن «رفع منزلة أم المؤمنين عائشة» بنت أبي بكر ومنحها مرتبة تفوق غيرها من زوجات النبيﷺ، له ارتباط واضحٌ بالدور الذي لعبته في حرب الجمل. فبسبب عدائها لعليّ، كانت عائشة أثيرة لدى معاوية وخلفائه الأمويين الذين بلا شك لم ترُق لهم مكانة خديجة بنت خويلد وابنتها فاطمة الزهراء لدى رسول اللهﷺ.

ثم شرحتُ نظرية «عدالة كل الصحابة» ومعناها الحقيقي وكيف أنها أوجدت لخدمة معاوية والدفاع عما ارتكبه من كبائر في الإسلام، وقمتُ بتفنيدها مستنداً إلى صحيح السيرة النبوية وصريح آيات القرآن، بالإضافة إلى العقل والمنطق. لقد تم تصميم هذه النظرية بذكاء شديد بحيث خلطت الأبيض والأسود، وجعلت الصحابة الحقيقيين العظماء السابقين ممن فدَوا الإسلام بدمائهم، كمصعب بن عمير وزيد بن حارثة، تماماً كطلقاء قريش ممن حاربوا رسول اللهﷺ إلى أن استسلموا يوم الفتح، في منزلة واحدة.

وخصصتُ فصلاً «لأبي هريرة الدوسي» ألقيتُ فيه الضوء على هذه الشخصية التي تصدّرت الرواية عن رسول اللهﷺ وكيف أن ارتباطاته المشبوهة بمعاوية ومروان بن الحكم هي التي رفعته إلى منصب المحدّث الرسمي لدولة بني أمية بعد أن كافؤوه على نشاطه في خدمتهم. لم يكن لهذا الرجل الذي أسلم في السنة السابعة للهجرة أي دور أو فضل في عهد النبيﷺ ولم يتصل به سوى لفترة قصيرة، كواحد من آلاف المساكين الذين تدفقوا على المدينة في أواخر العهد النبوي، ومع ذلك نجح الأمويون في تحويله إلى المرجع الرئيسي لعامة المسلمين الذين يريدون معرفة أحاديث نبيهم.

وخصصتُ فصلاً «لتنزيه رسول الله‌ﷺ عن ما أشاعوه» بشأنه من مقولات رديئة تحت مسمى أنه «بشرٌ يصيب ويخطئ». وفيه أوضحتُ جذور ذلك التيار من أصحاب المُعتقد الهزيل بشخص رسول الله‌ﷺ الذي لا يرى فيه سوى «مجتهد» في الشؤون التي تتعدى تبليغ القرآن للناس، وبالتالي تجوز معارضته في تلك الأمور على أساس «الاجتهاد والمصلحة». وبذلتُ جهداً في تفنيد تلك الأباطيل والدفاع عن عصمته‌ﷺ.

وخصصتُ فصلاً للحديث عن «عبد الله بن سبأ»، تلك الشخصية الأسطورية التي اخترعها شخصٌ اسمه سيف بن عمر التميمي من أجل تقديم تفسير وهميَ كاذبٍ للأحداث التاريخية العظمى في صدر الإسلام. والهدف من ذلك كان إلقاء اللوم على اليهود وقوى غامضة وتحميلهم مسؤولية الكوارث والحرب الأهلية التي حصلت في صدر الإسلام. وقدمتُ عدداً من الروايات التي بطلها «عبد الله بن سبأ»، وفندتها، موضحاً الأبعاد السياسية من ورائها.

وفصلُ «الأئمة من قريش» يتناول تلك المقولة العنصرية المنسوبة للرسول‌ﷺ والتي صُممَت من أجل تبرير الاستئثار القرشي بشؤون الحكم والقيادة، وكيف أنها فُصّلت على مقاس بني أمية. لقد أمضى رسول الله‌ﷺ ١٣ عاماً يدعو قريشاً في مكة دون أي جدوى، فلم يؤمن به سوى بضع عشرات من أبنائها، وقاومته وآذته وصدته. ورغم ذلك، فقد شاء الحكام أن تكون الخلافةَ حقاً إلهياً خالصاً لقريش، لكي يعطوا أنفسهم شرعية.

ويتبع ذلك بالضرورة فصلٌ عن «طاعة الحاكم» تناولتُ فيه تلك الأحاديث من صحيحي البخاري ومسلم والتي تحثّ المسلمَ على الطاعة المطلقة للأمراء وولاة الأمر مهما ارتكبوا من ظلمٍ وفجور، وتخرِج مَن يخالف ذلك من الدين والملة. وتطرقتُ لعبد الله بن عمر كنموذج ساطع على طاعة الحكام الظالمين من مرتكبي الجرائم.

وأخيراً خصصتُ فصلاً عن «الخلط المقصود بين ما هو سياسي وعسكري وما هو ديني وأخلاقي»، وكيف أن النجاحات في الحروب وميادين القتال لا تعكس

بالضرورة سمواً روحياً أو تديناً رفيعاً لدى قادة الجيوش. ووضحتُ أن هذا الخلط المتعمّد كان أسلوباً أموياً لإضفاء نوع من الشرعية على قيادات دولتهم الذين كانوا ناجحين في المعارك والحروب على الرغم من فساد أخلاقهم وعقيدتهم.

منهاج البحث

حرصتُ على الرجوع مباشرة إلى المصادر الأصيلة في أمهات الكتب المعتمدة لدى أهل الاختصاص والعلم. ولم أذكر أي شيئ في كتابي هذا إلاّ وثقته وأشرتُ إلى مصدره، حتى لو كان من الأخبار الشائعة. وفي الغالب قمتُ بالرجوع إلى أكثر من مصدر للتحقق من صحة ما هو جَدَليّ أو إشكاليّ. وحرصتُ على إثبات النصوص كما وردت في مصادرها بدقة متناهية وبدون تصرّف. وتركتُ للقارئ الفرصة للنظر فيها وفهمها وهي بلغتها القديمة.

وقد قررتُ اعتماد المصادر المعترف بها لدى أهل السنة والجماعة، ولم ألجأ للمصادر الشيعية، إلاّ إذا جاز اعتبار أقوال الإمام علي بن أبي طالب في نهج البلاغة مصدراً شيعياً. وليس ذلك ازدراءً مني للمصادر الشيعية، ولا حَطاً من قدرها، ولكن لأن المصادر السنية هي الأكثر قبولاً لدى أغلب القراء المسلمين، عدا عن كونها الأكثر عدداً والأوسع انتشاراً. وعلى أي حال، فإن الأحداث التاريخية الأساسية بحد ذاتها لا خلاف بشأنها في الأغلب، وإنما يتركز الاختلاف عادة على التفاصيل والتأويل والاستنتاج.

ولا بد من القول هنا أن تاريخ الإسلام المدوّن، هو أغنى تاريخ مكتوب لأية أمة من الأمم. وهو يمتاز عن كل ما عداه بدقته وشموليته، حتى أنه يسجل الحركات واللّفتات واللمحات، فضلاً عن الكلمات والمواقف والحوادث، بدقة متناهية واستيعاب لا نظير له. كما أنه مدعومٌ بكمّ كبير من الآيات القرآنية والنصوص الصريحة والصحيحة، كما لا يوجد في أي تاريخ آخر. إلاّ أنه لا بد من القول أيضاً إن التاريخ المدوّن مثقلٌ بالأباطيل والأكاذيب، بسبب تلاعب الأهواء السياسية والمذهبية فيه. ولذا فإنه في بعض الأحيان يكون الوصول إلى الحقيقة التاريخية

الصافية صعباً، أو حتى متعذراً. والصعوبة لا تأتي فقط من أن هناك روايات متعددة، وأحياناً متعارضة، لأحداث تاريخية مهمة، ولكن أيضاً لأن التفاصيل تأخذ أحياناً أهمية بالغة، خاصّة فيما يتعلّق بأدوار البشر. فلا بد من البحث والتحقيق والمقارنة بين المصادر وتحليل الأخبار وربطها بظروفها الموضوعية من أجل الاستقرار على الخبر الصحيح. ولا بد من الربط بين الوقائع وتسلسلها وتتابعها ودراسة خلفياتها.

ومن البديهي القول أن الأمور التي تتعلّق بالتقييم الموضوعي لأدوار البشر في مراحل تاريخية معيّنة لا تتبع منطق الأبيض/أسود. أي أنه ليس من المطروح إصدار حكم قطعي ثنائي القطبية حول تلك الشخصيات. وليست المسألة هي أن إما أن يكون الشخص شيطانا رجيماً أثيما زنيماً جبانا كافرا خسيساً بلا فضل ولا ايجابيات، أو أن يكون ملاكا طاهراً ورعاً زاهدا بطلا مجاهداً بلا سلبيات!

ولا بد من التأكيد أن الأمر يتعلق بالبشر، بكل ما في أعماقهم من عناصر معقّدة مركّبة، غير مفهومة أحياناً، وعصيّة على التحليل العلمي أحيانا أخرى. ومما يزيد من صعوبة الأمر أن البشر يخضعون حتماً لعوامل وظروف موضوعية محيطة بهم تجعلهم يتقلّبون في مواقفهم ويغيّرون سلوكهم في مراحل معينة في حياتهم. ورغم ذلك فانه في الأغلب يمكن ملاحظة نسَق عام تسير عليه شخصية ما في أطوارها المختلفة.

ولذلك فإن المدخل السليم للتحليل الموضوعي لأحداث تاريخية بما فيها من شخصيات لعبت أدواراً بارزة هو معرفة الوقائع التاريخية كما حصلت فعلاً، وليس كما نتمناها أو نتخيلها نحن.

وخلال عملية التعامل مع الروايات، قمتُ باعتماد الضوابط التالية:

١- لا يجوز التسليم الكامل بصحة كل ما ورد في أي مصدر من مصادر الحديث أوالسيرة أوالتاريخ، مهما بلغ ذلك المصدر من الشهرة والذيوع. ولا ينبغي أن يكون هناك حَرَج في الإشارة إلى ما يعتري بعض جوانب الكتب المشهورة من خلل أو وهن. ولا يعني ذلك بالضرورة قدحاً في مؤلفيها أو أو تهويناً من شأن

الجهود الجبارة التي بذلوها.

٢- إن البحث في أسانيد الروايات، والتركيز فقط على ذلك من أجل اعتمادها لتكون مقياساً وميزاناً نهائياً للحُكم على صحتها، خطأ جسيم، للأسباب التالية:

- سيؤدي ذلك إلى الانغلاق في حدود نصوص قليلة جداً لا تكفي حتى للإحاطة بالتصوّر العام لأحداث السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام. وستضيع بسبب ذلك نصوصٌ صحيحة لم يتيسر لها سندٌ يعرفه المحدثون أو الإخباريون. فالكم الأكبر من الروايات التاريخية التي وردت في أمهات الكتب لا يجوز أن تخضع لمعايير علماء الجرح والتعديل وشيوخ علم الرجال. ولا يجوز إهمال الذاكرة الجمعية للشعوب والأمم والتي استوعبت ووَعَت عدداً كبيراً مما شاع من أخبار، تناقلتها الأجيال وسجلها المؤرخون.

- سيفقد الباحث حرية الحركة والربط والاستنتاج، وسيُحرم من توظيف فهمه الشامل للأجواء والظروف في استخلاص الحقائق والخروج باستنتاجات.

- إن هناك تناقضات صارخة بين مضمون ونصوص الكثير من الروايات المدعومة بأسانيد قوية ومقبولة لدى علماء الرجال. وفي بعض الأحيان يحتوي نفس المصدر على روايات تتعارض وتتناقض.

- إن الضوابط والمعايير التي وضعها علماء الجرح والتعديل لقبول الرواة تتضمن بُعداً مذهبياً واضحاً. فرغم انه لا خلاف على أهمية صفات الصدق والأمانة في النقل لدى رواة الأحاديث والسير والأخبار، إلاّ أن اشتراط أن يكون الراوي من المؤمنين بمقولات ومعتقدات مذهبية معينة، أدّى عملياً إلى ردّ ورفض الكثير من الروايات الصحيحةَ التي يوجدُ في أسانيدها بعضُ مَن لم يرَهُ المحدثون المتعصبون أهلاً للرواية لا بسببٍ يتصل بأمانته وصدقه، بل بسبب عدم اتفاقه مع بعض آرائهم في أمور مذهبية.

٣- من أجل قبول أي خبر أو ترجيح صحة أي راوية، لا بد من توفر شروط أساسية فيها:

- أن تتفق مع العقل والمنطق. وقد أعرضتُ عن الروايات التي تسرد تفاصيل خوارق للطبيعة ومعجزات وتنسبها تارة للرسولﷺ، وتارة للخلفاء وتارة للصحابة وتارة لقادة الجيوش وتارةً لآل البيت. وأيضاً تجاهلتُ الروايات التي فيها إخبارٌ بالغيب ونبوءات لمستقبل الأيام. وبشكل عام، تجاهلتُ الروايات التي يظهر فيها تدخلٌ إلهيّ مباشرٌ في مجريات الأحداث وتفاصيلها. فأنا أؤمن أن الله عز وجل قد وضع قوانين الطبيعة ونواميس الكون التي تجري بمقتضاها الأمور، وهو بالتالي لن يتدخل لينقضها ويلغيها لأن ذلك يفقدها جوهرها ومعناها. وأما رسول اللهﷺ، فليس بحاجة من أجل دعم موقفه وإثبات نبوته، إلى نقض قوانين الطبيعة ومخالفة مبادئ العلم وأسسه. فلا يجوز الاعتماد على الروايات التي تخالف الحقائق العلمية الثابتة. ومهما كان السند قوياً، فإن تلك الروايات لا تعدو كونها أحدَ احتمالين: فهي إما تعكس أجواء الحماسة المحيطة بحَدَث حقيقيّ معيّن مما يدفع الرواة إلى التعبير عن مشاعرهم عن طريق اللجوء إلى المبالَغات والتضخيمات، وهي إما مكذوبة جملة وتفصيلاً لمآرب في نفوس رواتها.

- أن لا تتعارض مع ما هو معلومٌ بالضرورة من أخبار السيرة وأحداث التاريخ. فلا بد من طرح كل نص يحمل تناقضاً مع أحداث ثابتة بصورة قطعية. كما يجب الأخذ بعين الاعتبار الإمكانية التاريخية للحَدَث والتمعّن في الأزمان والتواريخ والبلاد والاسماء.

- أن لا تتعارض مع صريح القرآن وأساسيات الدين. فكتاب الله صحيحٌ كله ولا يتطرق إليه الريب أو الشك. ولذلك يمكن اعتماده معياراً تعرض عليه نصوص الروايات، ويُرَدّ منها ما خالفه، حتى لو كان حديثاً نبوياً، لأن كلام الرسولﷺ يستحيل أن يتعارض مع القرآن أو يناقضه.

٤- هناك فرق بين قبول الروايات التي تتعلق بمجمل سير الأحداث، وبين قبول تفاصيلها. فمن الممكن أن تكون الرواية مقبولة في إطارها العام ولكن بعض تفاصيلها مغلوطة أو مكذوبة. وهذا الأمر يبرز كثيراً عند تناول المعارك والحروب حيث هناك في الأغلب اتفاقٌ على الأحداث والوقائع، مع اختلافٍ في التفاصيل وفي

الأقوال المنسوبة للشخصيات المعنية بتلك الأحداث. والنتيجة أنه من الجائز قبول جزء من رواية ما، وعدم قبول جزء آخر منها. وطبعاً يمكن قبول رواياتٍ من مصدرٍ ما ورفض رواياتٍ أخرى من نفسِ المصدر. فالانتقائية مسموحة، بل ويمكن القول إنها مطلوبة في السّعي من أجل التخلص مما علق بالروايات من شوائب التشويه ورواسب تزييف بعض ذوي الأهواء.

مصادر البحث

في مجال السيرة النبوية، كان المرجع الأساسي هو سيرة ابن اسحاق، كما رواها ابن هشام. وكذلك لجأتُ إلى كتاب المغازي للواقدي الذي هو أفضل ما يتناول غزوات النبي ﷺ وحروبه في الفترة المدنية، ويتخصص بتفاصيلها. وبشكل أقل استعنتُ بالسيرة النبوية كما رواها ابن كثير.

وفي مجال الأحاديث النبوية، فقد كان المرجع دائماً أشهرها وأوثقها، وبخاصة صحيحي البخاري ومسلم، بالإضافة إلى سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وصحيح ابن حبان ومسند أحمد. كما استعنتُ بفتح الباري لابن حجر العسقلاني لملاحظة شروحه على ما أشكلَ من أحاديث صحيح البخاري

وفي مجال تراجم الرجال، لجأتُ إلى أسد الغابة لابن الأثير، والطبقات الكبرى لابن سعد، والإصابة لابن حجر العسقلاني، وسير أعلام النبلاء للذهبي، وتاريخ دمشق لابن عساكر الذي هو عملٌ موسوعيّ ضخم ومفيدٌ.

وفي مجال التاريخ، لجأتُ إلى المصادر الأقدم والأقرب للأحداث. فكان جلّ الاعتماد على أعمال مؤرخي القرن الثالث الهجري. وقمتُ بمراجعة رواية الحدث الواحد، وخاصة ما له أهمية وحساسية، في أكثر من مصدر وملاحظة التقارب أو الاختلاف بينها. فكان المصدر الأساسي هو تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري، الذي هو موسوعة تاريخية عُظمى حَوَت شتى الروايات للأحداث بأسانيدها وتفاصيلها. وكذلك اعتمدتُ على المصدر الموسوعي الآخر وهو البلاذري، وكتابه أنساب الأشراف، وخاصة ما جاء في ترجمة علي بن أبي طالب منه. وأيضاً اعتمدتُ

على كتاب الإمامة والسياسة الذي هو مصدرٌ مهمٌ يركز على مؤسسة الخلافة ذاتها، ولا ينتقص من قيمته ما يثيره البعض من تشكيك في صحّة نسبته إلى ابن قتيبة. وكذلك لجأتُ إلى تاريخ اليعقوبي، وتاريخ المدينة المنورة لابن شبة، والأخبار الطوال للدينوري، وبشكل أقل لجأتُ إلى البداية والنهاية لابن كثير. واستعنتُ بكتاب نصر بن مزاحم، وقعة صفين، فيما يتعلق بأخبار تلك المعركة، وهو كتاب غنيّ بالتفاصيل والصور وبه نفَس ملحمي.

وفي مجال شروح وتفسير القرآن وأسباب نزول الآيات، فقد رجعتُ إلى تفسير الإمام الطبري الذي هو أضخمها وأكثرها جمعاً للروايات، وإلى وتفسير ابن كثير، وإلى تفسير الدر المنثور للسيوطي، وزاد المسير لابن الجوزي، وتفسير القرطبي، وتفسير الشوكاني، وإلى أسباب نزول الآيات للواحدي.

كما لجأتُ إلى إيراد خطب للإمام علي بن أبي طالب كما أوردها حفيده الشريف الرضى في كتابه العظيم نهج البلاغة. ورغم أن البعض يشكك في صحة نسبة نهج البلاغة للإمام عليّ، إلاّ أن ما احتواه الكتاب من روعة البلاغة، وجمال اللغة، وعظيم المعاني والحكم، يجعل من المرجح جداً أن يكون معظم ما فيه، إن لم يكن كله، هو بالفعل من آثار الإمام عليّ. وعلى أية حال، فلم أستعمل نهج البلاغة كمصدر للمادة التاريخية، بل كوسيلة لتحليل الأحداث من خلال عرض مشاعر وأفكار الإمام عليّ. وقد لجأتُ إلى نسخة نهج البلاغة التي هي بشرح وتعليق الإمام المصري محمد عبده.

كما أني لجأتُ إلى شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة، والذي يُعدّ من أنفس الكتب. ففيه نقلَ المؤلف، ابن القرن السادس الهجري، عصارة ما في كتب الأدب والنقد والتاريخ والنسَب والمغازي والسير والفقه والجدل والمناظرة وعلوم الكلام وخلاصة ما اشتملت عليه الرسائل والمتون والشروح والحواشي والتعاليق وروائع الخطب ونوابغ الحكم ودواوين الشعراء.

كما رجعتُ إلى كتب المعاصرين، دون إكثار. ولكن لم أتخذها مصدراً

للأخبار والأحداث، بل وسيلة مساعدة في التحليل والتفكير.

*****

وأتمنى أن يكون هذا الكتاب مفيداً لمن كان يعشق الحقيقة، ولمن وهَبَه الله قلباً متحرراً من قيود التقليد الأعمى، وعقلاً وقاداً وفكراً سديداً.

وأعتذر من القارئ الكريم عن أي هنات أو هفوات أو أخطاء قد تكون حصلت بسبب ضخامة هذا العمل وتشعّبه، وكثرةِ الاعتماد علَى المصادر القديمة، وطول الفترة الزمنية التي تطلبها إنجازه.

حسام شحادة

دبي ـ عمّان

آذار ٢٠٠٥

العرب قبل الإسلام

تتميز جزيرة العرب بخلوها من الموارد والثروات الطبيعية. فلا يوجد فيها ولا حتى نهرٌ واحد. وأكثرها سهول جرداء أو صحراء قاحلة، أو جبال وأودية لا تصلح للزراعة ولا تساعد على الاستقرار وتنظيم الحياة.

ولذلك كان معظم سكانها من البدو الرّحل الذين يُمسون في مكان، ويصبحون في مكان آخر.

وهذا الوضع جعل جزيرة العرب في مأمنٍ من فرض السيطرة عليها من قبل الدولتين العُظميين آنئذ: الرومان والفرس. لأنه ببساطة لا يوجد شيء في جزيرة العرب مما يمكن أن تطمع به الدول العظمى. وكانت الحالة الوحيدة التي تعرض فيها داخل جزيرة العرب إلى هجوم خارجيّ مباشرة هي في عام الفيل، عندما حاول أبرهة الأشرم أن يغزو مكة. ولكن حتى في تلك الحادثة الفريدة كان السبب وراءها هو معنوي وإعلامي، وينحصر في رغبة ذلك الحبشي في تدمير كعبة العرب لدفعهم للقبول بكعبته التي بناها في اليمن، تمهيدا لتحوّلهم إلى المسيحية.

إذن بقيت جزيرة العرب في منأى عن التأثر بمفاهيم وأديان دولة الفرس والرومان. حتى أن اليهود لم يجدوا أفضل من جزيرة العرب للهرب إليها من حكامهم الرومان، فاحتموا بالمدينة وغيرها.

ونتيجة لهذه الظروف نشأت في الجزيرة العربية ظاهرة الدويلات القبلية. فلكل قبيلة حاكم أو هيئة قيادية، ومنطقة نفوذ. وبسبب محدودية الموارد الطبيعية، كان لا بد من أن ينشأ صراعٌ على مصادر الرزق والماء بين القبائل المختلفة. فلجأت القبائل إلى ممارسة الإغارة والسلب ضد بعضها البعض كوسيلة من وسائل العيش غالباً، وأحياناً لفرض السيطرة والسلطان، وأحياناً أخرى للثأر والانتقام. ومما عزز من هذا

السلوك وجعله نمطاً سائداً هو غياب الروادع الدينية والأخلاقية. فلم يكن مستهجناً أن تغير قبيلة على أخرى فتستولي على أموالها وتسبي نساءها وأولادها وتقتل أو تأسر من تقدر عليه من رجالها. وكانت القبيلة المنكوبة تتربص بتلك الغالبة الدوائر، حتى تواتيها الفرصة للثأر... وهكذا الدورة.

ومن الطبيعي أن يكون شعور أفراد كل قبيلة تجاه أبناء قبيلتهم قوياً جداً، بدافعٍ من شعورهم بالحاجة إلى بعضهم البعض للدفاع عن الحياة والكفاح من أجلها... مما كان سبباً قوياً للتعصب القبلي، الذي لا يضعف ولا يلين... فلا بد للفرد من الوقوف إلى جانب ابن قبيلته سواء كان له الحق أو عليه، حتى قال شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

وفي المقابل فإن قبيلته تتحمل عنه كل جناية أو جريمة يرتكبها، وتحميه من كل مَن أراده بسوء. وعلى الرغم مما يتضمنه النظامُ القبائلي من أسس تكافلية بين أبناء العشيرة، إلاّ أنه أيضاً كان مبنياً على جذور طبقية: فالثروة والزعامة تتركّز بأيدي عدد محدود وقليل من أبناء العشيرة، وهؤلاء يتوارثونها أباً عن جَد، في حين يكتفي (أو عليهم أنْ يكتفوا) عامة أفراد القبيلة بأقل القليل. ومن هنا كانت ظاهرة الصعاليك الذين كانوا يتمردون على زعماء القبائل بسبب ما يرونه من ظلم وعسفٍ، حتى داخل العشيرة الواحدة.

ودفع الفقر والجوع وحالات الغزو والقتل، العربَ في جزيرتهم إلى ممارسات غاية في القسوة والشذوذ مثل وأد البنات وقتل الأولاد. وللمغيرة بن شعبة تعبيرٌ بليغ عن أوضاع العرب قبل الإسلام:

«...فما كان أسوأ منا حالاً. وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع. كنا نأكل الخنافس والجعلان والحيات ونرى ذلك طعامنا. وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض. ولا نلبس إلاّ ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً وأن يبغي بعضنا على بعض. وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية، كراهية أن تأكل من طعامه»[1].

---

(١) عن«الصحيح من سيرة النبي الأعظم» ص٤٨ ج١ نقلا عن تاريخ الطبري والبداية والنهاية.

كما وصف علي بن أبي طالب أوضاع العرب بقوله «**... وأنتم معاشر العرب يومئذ على شرّ دين، وفي شرّ دار. مُنيخون على حجارة خشن، وحيات صمّ وشوك مبثوثٍ في البلاد. تشربون الماء الخبيث وتأكلون الطعامَ الخبيث. تسفكون دماءكم، وتقتلون أولادكم وتقطعون أرحامكم. وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل. سبلكم خائفة، والأصنام فيكم منصوبة، ولا يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون**»[1].

*****

ويمكن تلخيص الصفات والخصال التي كان يمتاز بها العربي، أو بتعبير أدق، التي كانت تعتبر أساساً للتمايز والتفاضل بين العرب، على النحو التالي:

- الكرم وحسن الضيافة: وربما يكمن الأساس السوسيولوجي لهذه الخصلة في أن البدوي ينتابه شعورٌ من العجز تجاه قوى الطبيعة القاسية، والصحراء الموحشة، مما يولّد عنده شعوراً بضرورة الضيافة، والبذل. فهو لا يمكنه حمل قوته في سفره الشاق الطويل، الذي يمتد عشرات الأيام... والحل هو الكرم الذي يجب أن يكون من أفضل الخصال في تلك الظروف.

- العصبية القبلية: فانتصار العربي لذوي قرباه وابن عشيرته، ظالماً كان أو مظلوماً، كان يعتبر من الواجبات الأساسية في بيئة مليئة بالقتل والحروب. كانت العصبية القبلية الضيقة هي في الواقع البديل عن الانتماء القومي الأرحب، وكذلك عن الانتماء الوطني ـ أي إلى أرضٍ وبلد.

- الشجاعة: وربما يعود سبب شجاعة العربي هو أنه بحكم بيئته وحياته في الصحراء، بلا حواجز ولا موانع طبيعية أو غيرها يشعر أنه مسؤولٌ عن حماية نفسه والدفاع الفوري عنها، خاصة وهو معرّض للعدوان في أي لحظة وبدون سبب. ولم تكن شجاعة العربي دائماً هي في الاتجاه الإيجابي، فقد كان الكثيرون يتصرفون بمنطق: إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب. فكثيراً ما كانت تتداخل الشجاعة مع البطش والعدوان.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٩٤.

- النجدة والإقدام: ويعود أساس هذه الخصلة إلى اطمئنان العربي أنه غير مسؤول عما يفعل، بل هو منصورٌ من قبل قبيلته على كل حال. وبسبب عمليات الغزو المفاجئ، والغارات، والقتل للثأر، كانت سرعة الإقدام غالباً ما تكون ردات فعل متهورة بلا تروٍّ وخالية من التدبّر والعقلانية. وقلّ بين العرب مَن كان يتصف بالحلم.

- الأنفة والعزة: كان اعتداد العربي بنفسه، ونزوعه إلى الحرية، وقوة إرادته، بالإضافة إلى الفصاحة وقوة البيان من الخصال الشائعة. ومنشأ هذه الصفات هو عدم خضوع العرب إلى سلطةٍ مركزية قوية تهيمن عليهم وتفرض عليهم النظام بالقهر والاذلال.

- الوفاء بالعهد. وهذه الصفة الحميدة تنبع من حقيقة عدم وجود قانون مكتوبٍ ينظم العلاقات بين الناس والقبائل، بل كان التعامل بين الناس يتم على أساس تفاهمات وتعهدات شفهية في الغالب. فكان الالتزام بالعهود والوعود هو السبيل إلى ضمان الحقوق، خاصة مع عدم وجود نظام عقوبات محدد.

عبادة الأصنام

يعتبر العرب أنفسهم سلالة وذرية النبي اسماعيل، ابن النبي ابراهيم (خليل الرحمن). ومعظم أصحاب السير والمغازي والتاريخ أوردوا تسلسلاً لنسب الرسولﷺ إلى النبي ابراهيم، وبعضهم رفعه إلى آدم! ولا يمكن الوثوق طبعاً بدقة هكذا روايات. ولكن انتماء العرب إلى اسماعيل بن ابراهيم أمرٌ متفق عليه بينهم. وهناك أيضاً اتفاقٌ على أن ابراهيم الخليل هو الذي بنى الكعبة، التي أصبحت بيت الله المقدّس عند العرب.

ورغم أن هناك روايات تقول بأن عمرو بن لحي، كبير قبيلة خزاعة، كان هو أول مَن أدخل عبادة الأصنام إلى مكة وذلك عندما أحضر الصنم المُسمى «هُبَل» معه من سَفرةٍ إلى الشام فوضَعَه في الكعبة، إلاّ أن الرواية الأخرى التي التي أوردها ابن اسحاق[1]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٦١.

تبدو أكثر إقناعاً. وتتلخص هذه في أن أبناء النبي اسماعيل وسلالته كثروا حتى ضاقت عليهم مكة، فتفرقوا في أنحاء الجزيرة العربية. فكانوا يأخذون معهم إلى مواطنهم الجديدة حَجَراً من حجارة الحرم، تعظيماً له. فكانوا يضعون الحجر ويطوفون به كطوافهم بالكعبة. وبمرور الأزمان وتعاقب الأجيال صاروا يعبدون الحجارة نفسها، التي كثرت أنواعها حتى استبدلوها بالأصنام. فصار لكل قبيلة صنمٌ أو أكثر تعبده وتتقرب به إلى الله. وطبعاً بقيت فيهم بقايا من دين ابراهيم ومناسكه، كالحج والعمرة، وتعظيم البيت والطواف به، والهَدي والوقوف بعرفة.

ويذكر الرواة أن صراعات عديدة نشبت حول الولاية على الكعبة، بيت الله الحرام. ويذكرون ان تحالفاً من قبيلتي خزاعة وكنانة تمكن من إزاحة بني جرهم عن السيادة على مكة. ولم تلبث قبيلة خزاعة أن انفردت بالسيطرة على الكعبة وأقصت عنها كنانة. وبقي الحال كذاك، يتوارث أشراف خزاعة ولاية البيت إلى أن نجح قصي بن كلاب في هزيمتهم وانفرد لقريش بهذا المجد.

قبيلة قريش

قريشٌ هي تصغير قرش. وهي دابة في البحر.

قال معاوية لابن عباس: لمَ سُمّيت قريشٌ قريشاً؟ قال: لدابة تكون في البحر، تكون أعظم دوابّه، يقال لها القرش، لا تمرّ بشيء من الغث والسمين إلاّ أكلته. قال: فأنشدني في ذلك شيئاً. فأنشده شعر الجمحي إذ يقول:

وقريشٌ هي التي تسكن البحـ ـرَ بها سمّيت قريشٌ قريشا

تأكل الغث والسمين ولا تترك لذي الجنحين ريشا

هكذا في البلاد حيّ قريشٍ يأكلون البلاد أكلاً كميشا

وقريش هم بنو النضر بن كنانة.

وكان قصي بن كلاب هو الذي لمّ شعث قريش وجمعَها من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة وإجلائهم عن البيت وتسليمه إلى قصي. فكان بينهم قتالٌ كثير ودماءٌ غزيرة. ثم تداعوا إلى التحكيم، فتحاكموا إلى يعمر بن عوف. فحكم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع، يشدخه بين قدميه. وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة. وأن يخلى بين قصي وبين مكة والكعبة.

فأجلا خزاعة عن مكة ورجع الحق إلى نصابه. وصار رئيساً لقريش على الإطلاق. وكانت إليه الرفادة والسقاية وهو سنّها، والسدانة والحجابة واللواء. وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة، إذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوها. ولا يعقد لواء ولا عقد نكاح إلاّ بها.

وقد فوّض لابنه الأكبر، عبد الدار، كل صلاحياته: الرفادة والسقاية والحجابة

والندوة واللواء، وذلك لأن إخوته زمن أبيهم كانوا قد شرفوا شرفاً عظيماً، فأحَبّ أن يلحقَ بإخوته في السؤدد. فكان إخوته لا ينافسونه في ذلك.

ثم تشاجر أبناؤهم من بعدهم، واختلفوا، وانقسمت بطون قريش فرقتين:

● فرقة بايعت عبد الدار وحالفتهم. وكان معهم: بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح وبنو عدي.

● فرقة بايعت عبد مناف وحالفوهم، ووضعوا أيديهم عند الحلف في جفنة فيها طيب. ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة. فسموا: حلف المطيبين. ومنهم: بنو أسد بن عبد العزى، بنو زهرة، بنو تيم وبنو الحارث بن فهر.

واعتزل بنو عامر بن لؤي وبنو محارب بن فهر.

ثم اصطلحوا على أن تكون:

الرفادة والسقاية لبني عبد مناف

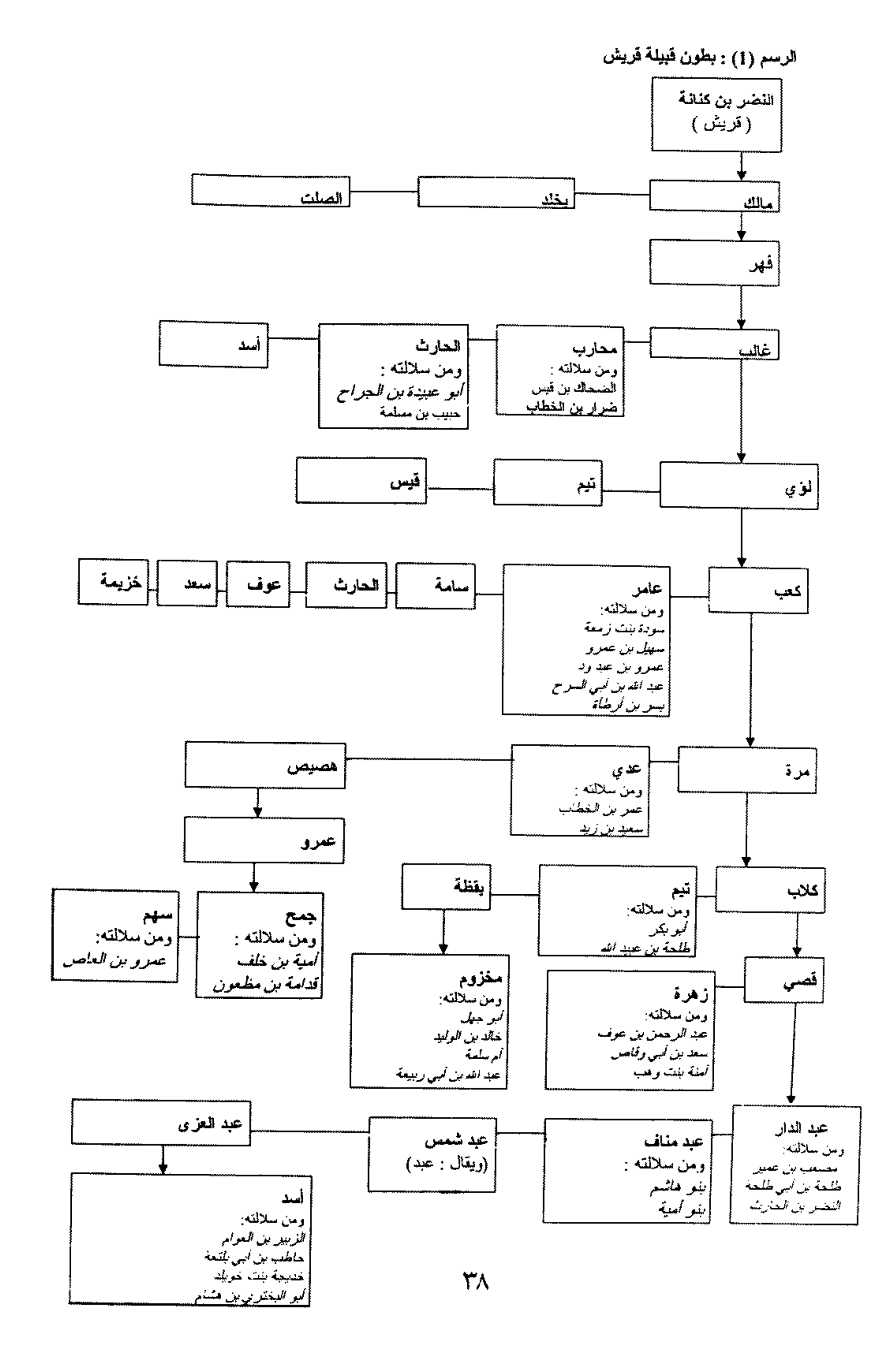
الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار[1].

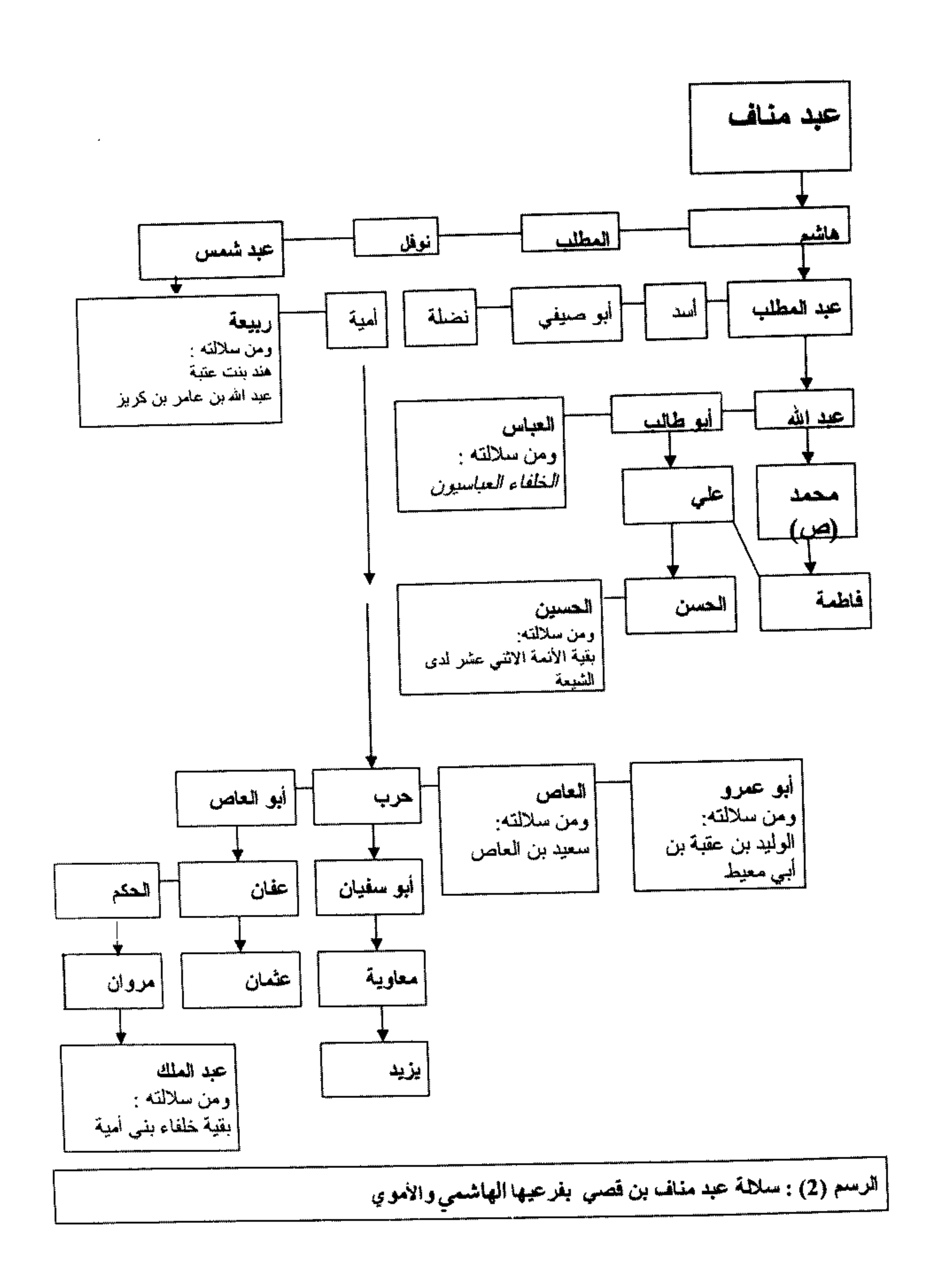
والرسم التوضيحي (١) يظهر تفرعات قبيلة قريش وبطونها، ويوضح الانتماءات العائلية لبعض الشخصيات البارزة في صدر الإسلام. والرسم التوضيحي (٢) يوضح تفرعات بني عبد مناف من قريش، بفرعيهم الهاشمي والأموي.

---

(1) السيرة النبوية لابن كثير، ص ٨٨ ـ ١٠١ ـ ١٠٢ وكذلك ص ١٨٧. والرفادة هي إطعام الحجيج أيام الموسم.

الرسم (1) : بطون قبيلة قريش





الرسم (2) : سلالة عبد مناف بن قصي بفرعيها الهاشمي والأموي

وعند تناول موضوع سادة قريش وأعلامها في الجاهلية، يمكن بسهولة ملاحظة، لدى المؤرخين والإخباريين، نوع من التضخيم والتعظيم لبني عبد مناف ورجالهم، بفرعيهم الهاشمي والأموي.

وهناك مصدران لهذه النزعة الموجودة عند الرواة:

• محبة المسلمين لرسول الله ﷺ وميلهم إلى تأكيد شرف نسَبه، أباً عن جد. ومن هنا التركيز الشديد على زعامة وسؤدد هاشم وعبد المطلب.

• دور الحكام الأمويين، بسلطانهم ونفوذهم، في إعلاء شأن أجدادهم. ومن هنا أخبار سيادة وشرف حرب بن أمية وعتبة بن ربيعة وأبي سفيان.

فهؤلاء كانوا بالفعل زعماء وأشرافاً، ولكن هناك مبالغة في ذلك.

وفي الحقيقة، كانت بطون قريش الأخرى صاحبة حظ كبير من السؤدد أيضاً. وبالأخص يبرز البطن المخزومي من قريش. وقد أفرد ابن أبي الحديد[1] فصلاً للحديث عن بني مخزوم في معرض شرحه لأحد خطابات الإمام علي بن أبي طالب، جاء فيه:

«حظيت مخزومٌ بالأشعار، فانتشر لهم صِيتٌ عظيمٌ بها... وذلك أنه يُضرب بهم المثل في العز والمنعة والجود والشرف».

ومن بني مخزوم كان آل المغيرة يحظون بالرفعة والسمعة، حتى قال الشاعر:

«وإن بني المغيرة من قريشٍ هم الرأس المقدم والسنام»

وقال شاعر آخر يمدح رجلاً من بني عقيل:

«توسّط بيته في آل كعبٍ كبيت بني المغيرة في قريش»

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨ ص ٢٨٥ – ٣٠٩.

وكانوا عشرة إخوة من أبناء المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. وأشهرهم وأعلاهم شأناً إثنان: هشام والوليد.

«كانت قريش وكنانة ومَن والاهم من الناس يؤرخون بثلاثة أشياء: كانوا يقولون: كان ذلك زمن مبنى الكعبة، وكان ذلك من محيئ الفيل، وكان ذلك عام مات هشام بن المغيرة».

وسأل رجلٌ قوماً مسافرين من قريش إلى الشام «مالكم معاشر قريش؟ هكذا أجدبتم أم مات هشام؟ فجعل موت هشام بإزاء الجدب والمحل».

وبعد هشام، برز في قريش اثنان من أبنائه: عمرو (وهو المكنى بأبي الحكم والذي لقبه النبيﷺ بأبي جهل)، والحارث. وذكر عن أبي جهل «كان سيداً أدخلته قريش دار الندوة، فسوّدته وأجلسته فوق الجلة من شيوخ قريش، وهو غلامٌ لم يطر شاربه، وهو أحد مَن سادَ على الصبا».

«وكان الوليد بن المغيرة يجلس بذي المجاز فيحكم بين العرب أيام عكاظ».

والوليد بن المغيرة هو الذي ذكره القرآن مراراً، بسبب تصدّيه وزعامته للقرشيين في معاداتهم للنبيﷺ.

«وكان فارس قريش في الجاهلية هشام بن المغيرة، وأبو لبيد بن عبدة (العامري)، وكان يقال لهشام: فارس البطحاء.

فلما هلكا كان فارسي قريش بعدهما عمرو بن عبد (العامري) المقتول يوم الخندق، وضرار بن الخطاب المحاربي (الفهري)، ثم هبيرة بن أبي وهب وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان».

*****

والنتيجة النهائية لكل خلافات البطون القرشية والتنافس التاريخي فيما بينها كانت تطوّر نوع من القيادة الجماعية لقريش في مكة. وكانت هذه القيادة الجماعية تكفل تقاسماً للشرف والمجد بين بطون قريش. وكانت تضم الشخصيات البارزة

من كل بطن، والتي هي نفسها في الغالب الشخصيات الأكثر غنىً وثراءً. وصارت هذه الصيغة من الحكم الأمثلَ بنظر قريش لأنها تضمن رضى الجميع بما يتم اتخاذه من قرارات وسياسات تراعي مصالحهم ولا تحابي بطناً بذاته على حساب غيره. كان سادة مكة يجتمعون في دار الندوة ليناقشوا ما يستجد من أحداث ويتخذوا القرارات بأسلوب يمكن وصفه بـ «ديمقراطية النخبة القرشية» أو «شورى الأشراف».

عظماء البطون القرشية قبيل وأيام بعثة النبيﷺ[1]:

- من بني عبد شمس/ أمية: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة وسعيد بن العاص. ويليهم الجيل الأصغر سناً: أبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط والحكم بن أبي العاص.
- من بني نوفل بن عبد مناف: المطعم بن عدي وأخوه طعيمة، والحارث بن عامر.
- من بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام والأسود بن المطلب ونوفل بن خويلد
- من بني عبد الدار: النضر بن الحارث وطلحة بن أبي طلحة
- من بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث
- من بني مخزوم: الوليد بن المغيرة، وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) وابنه عكرمة، وأخوه الحارث بن هشام
- من بني جمح: أمية بن خلف، وابنه صفوان، وأخوه أبيّ بن خلف
- من بني فهر: ضرار بن الخطاب.
- من بني سهم: العاص بن وائل، وابنه عمرو، ونبيه بن الحجاج، وأخوه منبه بن الحجاج وعبد الله بن الزبعري
- من بني عامر بن لؤي: سهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود
- من بني هاشم: أبو طالب بن عبد المطلب، وأخوه عبد العزى (أبو لهب). ويليهما الجيل الأصغر سناً: العباس وحمزة.

---

(1) من السيرة النبوية لابن هشام.

الكتاب الأول

النبيُّ.. وعليُّ.. وقريش

أعلُ هُبَل.......

أبو سفيان



نشأة عليّ في حِجر رسول الله

شاءت إرادة الله أن يتولى محمدﷺ تنشئة ابن عمه علي بن أبي طالب من صِغره.

فقد مرّت على قريش سنة فقر مدقع طالت معظم الناس وخاصة أصحاب العيال منهم مثل أبي طالب. فمضى رسول اللهﷺ وعمّه العباس الى أبي طالب وعَرَضا عليه أن يأخذ كلٌ منهما ولداً من أبنائه ليتكفّله فيعيش معه. فأخذ العباس جعفراً، وأخذ الرسول الابن الأصغر: عليّ[1].

كان هذا ترتيباً إلهياً شاء أن يكون عليّ ربيبَ محمد، الذي لم يرزقه الله البنين، فلازَمَه ملازَمَة الولد لأبيه، فعاش معه في بيته، يأكل من طعامه، وينهل من ينبوع خصاله. قال الفضل بن عباس عن عليّ:

«... ما رأيناه زايله يوماً من الدهر منذ كان طفلاً، إلاّ أن يكون في سفر لخديجة. وما رأينا أباً أبرّ بابن منه لعليّ، ولا ابناً أطوعَ لأبٍ من عليّ له»[2].

وقد وصف عليّ عَيشَه مع رسول اللهﷺ بقوله **«وضَعني في حجره وأنا ولد، يضمني الى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويُمسّني جسدَه، ويُشمّني عَرفَه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه. وما وجد لي كذبة في قول، ولاَ خطلة في فعل.... ولقد كنتُ أتبعه اتباعَ الفصيل أثرَ أمّه، يرفع لي كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيتٌ واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللهﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوّة»**[3].

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٥٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٣ ص٢٠٠.

(٣) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٦٤.

ومن الطبيعي أن يكون عليّ أولَ مَن دخل في دين محمدﷺ: «كان أول ذكر من الناس آمن برسول اللهﷺ وصلى معه وصدّق بما جاءه من الله تعالى: عليّ بن أبي طالب.. وهو يومئذ ابن عشر سنين»[1].

وقد أورد ابن كثير والطبري والإمام أحمد وصفاً مؤثراً لتلك الأيام التي بدأ فيها رسول اللهﷺ دعوته. ففي أرض مكة الجافة، وفوق صخورها الصلبة، وهوائها الحار، كان ثلاثة فقط من البشر قد تخلوا عن دين أهلها وهجروا أصنامها وقرروا أن يصلّوا لله الخالق الأحد. وكان هؤلاء هم محمد، علي وخديجة:

«عن يحيى بن عفيف قال: جئتُ زمنَ الجاهلية إلى مكة، فنزلتُ على العباس بن عبد المطلب. فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة،

أقبل شابٌ فرمى ببصره إلى السماء، ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلامٌ فقام عن يمينه، فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركعَ الشابُ فركعَ الغلامُ والمرأة، فرفعَ الشاب فرفعَ الغلامُ والمرأة، فخرَّ الشابُ ساجداً، فسجدا معه.

فقلت: يا عباس، أمرٌ عظيم!

فقال: أمرٌ عظيم.

فقال: أتدري مَن هذا؟

فقلت: لا.

فقال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي.

أتدري مَن الغلام؟

قلت: لا.

قال: هذا علي بن أبي طالب.

أتدري مَن هذه المرأة التي خلفهما؟

قلت: لا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٨٤.

قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي. وهذا حدثني أن ربك،رب السماء والأرض، أمَرَه بهذا الذي تراهم عليه. وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة»[1].

وبقي عليّ مع رسول الله ﷺ طوال حياته، لم يفارقه، إلى أن اختاره الله لجواره. وفي ذلك يقول:

«... ولقد قبض رسول الله ﷺ وإن رأسَه لعلى صدري. ولقد سالت نفسُه في كفّي، فأمررتها على وجهي. ولقد وليتُ غسله والملائكة أعواني، فضجّت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم، يصلّون عليه حتى واريناه في ضريحه....»[2].

سياسة قريش تجاه بدء دعوة الرسول

اتخذت زعامات قريش موقفاً مبدئياً من دعوة النبي ﷺ. فهؤلاء لم يكونوا مستعدين لتغيير نظام القيادة والإدارة في مكة، أبداً. كان التوازن القائم بين بطون قريش الكثيرة يضمن نوعاً من القيادة الجماعية التي تتكون من «أشراف» البطون القرشية. كانت الزعامات القرشية تدرك أن ما يدعو إليه النبي الهاشمي من مساواة بين بني البشر، ومن نهي عن الربا والغصب والظلم، يهدد أسس النظام الطبقي السائد في مكة، والذي ستدافع عنه زعامات قريش بكل ما تملك من قوة.

وبالإضافة إلى العوامل الموضوعية التي تدعو هؤلاء لرفض دعوة محمد ﷺ، فإن التنافس العشائري كان يلعب دوراً أيضا. ويظهر ذلك من قول أبي جهل «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء!

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص ٣٥. وأيضاً تاريخ الطبري ج٢ ص٥٦. وأيضاً مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٢٠٩. وذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٣ ص٢٠٩ نفس الخبر ولكن فيه أن الذي قال ذلك هو عمه أبو طالب، وليس العباس.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٧٣.

فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه»[1].

واضحٌ تماماً أنه مهما فعل محمدﷺ، لن يؤمن به أبو جهل وأضرابه. فالمسألة بنظرهم محسومة وليست بحاجة إلى نقاش أو تفكير: لا مكان بيننا لنبي هاشمي!

الهزء والسخرية:

كان النبيﷺ إذا مرّ بملأ من قريش قالوا «أن فتى عبد المطلب ليكلمُ من السماء»[2].

وجاء في سيرة ابن هشام:

«قال ابن اسحق: ومَرّ رسولُ الله ـ فيما بلغني ـ بالوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف وبأبي جهل بن هشام، فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من أمرهم ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاقَ بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾».

«وأمية بن خلف: كان إذا رأى رسول اللهﷺ هَمَزَه ولمَزَه فأنزل الله تعالى فيه ﴿ويلٌ لكل همزة لمزةَ الذى جمعَ مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذنّ فى الحطمةُ وما أدراكَ ما الحطمةَ نار الله الموقدة﴾».

«والنضر بن الحارث: كان إذا جلسَ رسول اللهﷺ مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذر قريشاً ما أصابَ الأمم الخالية، خَلَفه في مجلسه إذا قامَ، فحدثّهم عن رستم السنديد، وعن آسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمدٌ بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلاّ أساطير الأولين، اكتَتَبَها كما أكتَتبها! فأنزل الله فيه ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ ونزل فيه ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾».

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٨٣ وكذلك السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٣٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٤.

«وأبو جهل بن هشام: لما ذكرَ الله عز وجل شجرة الزقّوم تخويفاً بها لهم، قال: يا معشر قريش! هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوّفكم بها محمد؟ قالوا: لا. قال: عجوة يثرب بالزبد! والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقماً. فأنزلَ الله تعالى فيه ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم﴾ أي ليس كما يقول».

«ومَشى أبيّ بن خلف إلى رسول الله بعظم بالٍ قد ارفتّ. فقال: يا محمد: أنتَ تزعم ان الله يبعث هذا بعدما أرمّ؟! ثم فته بيده، ثمّ نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: نعم انا أقول ذلك. يبعثه الله وإياكَ بعدما تكونان هكذا. ثم يدخلك الله النار. فأنزلَ الله تعالى فيه ﴿وضرب لنا مثلاً ونسىَ خلقهُ قال من يحيى العظامَ وهى رميم﴾»[1].

وفي القرآن الكريم وصفٌ كافٍ لما كان يتعرّض له النبي ﷺ من سخرية:

قال تعالى ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونكَ إلاّ هزواً أهذا الذى يذكر آلهتكم﴾[2].

وقال تعالى ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلاّ هزواً أهذا الذى بعثَ الله رسولا﴾[3].

اتهامه بالسحر والكذب والجنون:

فقد جاء في سيرة ابنِ هشام أن الآيات القرآنية ﴿ذرنى ومَن خلقتُ وحيداً وجعلتُ له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً إنه فكرَ وقدّر فقتلَ كيفَ قدّر ثم قتل كيفَ قدر ثم نظر ثم عبسَ وبَسَر ثم أدبرَ واستكبر فقال إن هذا إلاّ سحرٌ يؤثر إن هذا إلاّ قول البشر﴾، قد نزلت في الوليد بن المغيرة حين جمعَ قريشاً وطلب منهم أن يوحّدوا كلمتهم بشأن ما سيقولونه للعرب في الموسم عن الرسول ﷺ، وقال لهم أن أفضلَ حلّ هو الزعم بأنه ساحر[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٤٠ وص٩ وص ١١ وص١٥. والآيات من سورة الأنعام وسورة الهمزة وسورة الفرقان وسورة القلم وسورة يس.

(٢) آية ٣٦ من سورة الانبياء.

(٣) آية ٤١ من سورة الفرقان.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٩٨ والآيات من سورة المدثر.

وقال تعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فذكّر فما أنت بنعمت ربّك بكاهن ولا مَجْنون أم يقولون شاعر يتربص به ريب المنون﴾[3].

الاستعلاء والغرور:

«والوليد بن المغيرة قال: أينزل على محمد وأترك، وأنا كبير قريش وسيّدها! ويترك أبو مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين! فأنزل الله تعالى فيه، فيما بلغني ﴿وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم إلى قوله تعالى مما يجمعون﴾»[4].

فكيف يقبل عظماء قريش وكبارها، كالوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، أن يصبحوا تابعين للفتى اليتيم، الهادئ والمتواضع؟ ولن يقبل هؤلاء الذين تفيض نفوسهم كبراً واستعلاءً، أن ينزل وحي السماء على الشاب الهاشمي، ويتجاهلهم؟

العناد والمكابرة:

ولما عجز كبار قريش عن محاججة الرسول ﷺ بالمنطق والبينة، لجأووا إلى أسلوب توجيه طلبات وأسئلة تعجيزية له، كانوا يسوقونها على سبيل المكابرة ظناً منهم أنهم يفحمونه بها.

روى ابن كثير أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً ووجهوا سلسلة من الطلبات للرسول ﷺ :

---

(١) آية ٢٥ من سورة فاطر.

(٢) آية ٦ من سورة الحجر.

(٣) آية ٢٩ـ٣٠ من سورة الطور.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٤٠. وهذه آية ٣١ من سورة الزخرف.

«... فَسَل لنا ربك الذي بعثكَ بما بعثكَ به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجرِ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق!

وليبعث لنا مَن قد مضى من آبائنا وليكن فيما يبعث لنا منهم قصيٍ بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول: أحقٌ هو أم باطل؟ فإن فعلتَ ما سألناكَ، وصدّقوكَ، صدّقناكَ وعرفنا به منزلتكَ عند الله وأنه بعثكَ رسولاً كما تقول!

... فسل ربكَ أن يبعثَ لنا ملكاً يصدّقكَ بما تقول، ويراجعنا عنك!

وتسأله فيجعل لنا جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة!

... فأسقط السماء كما زعمتَ أن ربكَ إن شاء فعَل، فإنا لن نؤمن لك إلاّ أن تفعل!

.... وقال قائلهم: لن نؤمن لك إلاّ أن تأتي بالله والملائكة قبيلاً!».

ولما أجابهم رسول الله ﷺ ورفضَ هذه المطاليب قائلاً:

«ما أنا بفاعل. ما أنا بالذي يسأل ربه هذا. وما بُعثتُ إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا بالذي جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

اختتم سفيههم، عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، ذلك الحوار العبثيّ بقوله للرسول ﷺ:

«.... فوالله لا أومن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى منه، وأنا أنظر، حتى تأتيها، وتأتي معكَ بنسخةٍ منشورة، ومعكَ أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول.

وأيم الله! لو فعلتَ ذلكَ لظننتُ أني لا أصدقك!»[1].

الشتم:

وكان العاص بن وائل، من أشد أعداء رسول الله ﷺ. وكان يقول ان محمدا أبتر لا ابن له. جاء في سيرة ابن هشام:

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٨١.

«قال ابن اسحق: وكان العاص بن وائل السهمي ـ فيما بلغني ـ إذا ذكر رسول الله قال: دعوه. فإنما هو رجلٌ أبتر لا عقبَ له. لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه. فأنزل الله في ذلك ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾»[1].

وقام شعراء قريش بوضع القصائد في الهجاء المقذع لشخص الرسولﷺ. ومنهم عمرو بن العاص الذي هجاه بسبعين بيتا من الشعر.

وقررت قريش، بمبادرة من أم جميل بنت حرب بن أمية[2]، حمّالة الحطب، إطلاقَ اسم «مُذمّم» على النبيﷺ، لأن «محمد» يحمل معنى إيجابياً لا تراه قريش يليق بالرسولﷺ!

حماية أبي طالب لرسول الله

«وحَدَبَ على رسول اللهﷺ عمّه أبو طالب، ومنعَه وقامَ دونه. ومضى رسول اللهﷺ على أمر الله، مُظهراً لأمره لا يردّه عنه شيء»[3].

وأبلى أبو طالب بلاءً حسناً وهو يدافع عن محمدﷺ ويردّ عنه ما كان يلحقه من أذى قريش:

«وكان المستهزؤون به، العاص بن وائل السهمي، والحارث بن قيس بن عدي السهمي، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن عبد يغوث الزهري.

وكانوا يوكلون به صبيانهم وعبيدهم فيلقونه بما لا يحب.

حتى إنهم نحروا جزورا بالحزورة، ورسول اللهﷺ قائم يصلي. فأمروا غلاماً لهم فحمل السلى والفرث حتى وضعه بين كتفيه وهو ساجد.

فانصرف فأتى أبا طالب. فقال: كيف موضعي فيكم؟ قال: ما ذاك يا ابن أخي؟ فأخبره بما صنع به.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣٨. وكذلك جاء في أسباب النزول للواحدي ص٣٠٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٩.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٩٣.

فأقبل أبو طالب مشتملاً على السيف يتبعه غلامٌ له، فاخترط سيفه، وقال: والله لا تكلم رجل منكم إلاّ ضربته. ثم أمر غلامه، فأمر بذلك السلى والفرث على وجوههم واحداً واحداً. ثم قالوا: حسبك هذا فينا يا ابن أخينا»[١].

فلما رأت قريشٌ أن الاعتداء الجسدي على رسول الله ﷺ سيقودها إلى قتال مع أبي طالب، وبني هاشم والمطلب معه، قررت انتهاج سبيل آخر.

فشكلت قريش وفداً من أشرافها، ضمّ كلاً من عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، وأبا البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، وأبا جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل.

وقام الوفد القرشيّ رفيع المستوى بزيارات عديدة إلى سيد بني هاشم، وحامي النبي ﷺ والمدافع عنه، أبي طالب. اشتكى الوفد له: «إنّ ابن أخيك سَبَّ آلهتنا وعابَ ديننا وسفّه أحلامنا وضللَ آباءنا». وطلب الوفد من أبي طالب، بكل احترام ورجاء، أن ينهى ابن أخيه عن ذلك.

ولكن أبا طالب لم يفعل شيئاً، وترك محمداً ﷺ يدعو لدينه بحرية، محمياً مصوناً.

ولمّا اشتدّت شكوى الوفد القرشيّ من محمد ﷺ وكثرت ضغوطاتهم على أبي طالب، رأى سيد بني هاشم أن يشرح لابن أخيه تلك المحاولات القرشية وما تتضمنه من تهديدات بأنهم لن يتحملوه أكثر من ذلك. فسأله أبو طالب عن رأيه، فقال رسول الله ﷺ قولته الشهيرة التي خلّدها التاريخ: **«يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمرَ، حتى يظهره الله، أو أهلكَ، ما تركته»**[٢].

وكان موقف أبي طالب الخالد أيضاً: «اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببتَ، فوالله لا أسلمكَ لشيءٍ أبداً».

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٤.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٩٥.

وعاد الوفد القرشيّ لأبي طالب بعرضٍ جديد! التبادل: رجلٌ برجل!

فقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أن زعماء قريش «مشوا إلى أبي طالب حتى دخلوا عليه فقالوا: أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا. وقد رأيتَ هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا.

وجاؤوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا: قد جئناك بفتى قريش: جمالاً ونسَباً ونهادة وشعراً ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة!

قال أبو طالب: والله ما أنصفتموني! تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه! ما هذا بالنصف!...

وغضبوا وقالوا: اصبروا على آلهتكم. إن هذا لشيء يراد. ويقال: المتكلم بهذا عقبة بن أبي معيط. وقالوا: ما نعود إليه أبداً. وما خير من أن يغتال محمد.

فلما كان مساء تلك الليلة، فقد رسول الله، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه. فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب ثم قال: ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية يعني أبا جهل فإنه لم يغب عن شر، إن كان محمد قد قتل. فقال الفتيان: نفعل.

فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال. فقال: يا زيد، أحسستَ ابن أخي؟

قال: نعم. كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: والله لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه.

فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله وهو في بيتٍ عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون فأخبره الخبر.

فجاء رسول الله إلى أبي طالب. فقال: يا ابن أخي أين كنت؟ أكنتَ في خير؟

قال: نعم.

قال: فادخل بيتك. فدخل رسول الله.

فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي فأخذ بيده فوقف بـه علـى أنديـة قـريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟

قالوا: لا.

فأخبرهم الخبر وقال للفتيان اكشفوا عما في أيديكم فكشـفوا فـإذا كـل رجـل منهم معه حديدة صارمة.

فقال: والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم!

فانكسرَ القوم. وكان أشدهم انكساراً أبو جهل»[1].

ولمّا رأى القرشيون مدى جدّية أبي طالب في حماية ابن أخيه وتصميمه علـى ذلك، لم يعد أمامهم سوى تهديده مباشرة بالحرب والقتال!

عاد الوفد القرشيّ إلى أبي طالب وقال له «إنّا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلـم تنهَهُ عنّا. وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنـا، وعيـب آلهتنـا، حتى تكفّه عنّا، أو ننازله وإيّاك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين»[2].

ولكن أبا طالب لم يلِن وقرر الاستمرار في حمايـة رسـول الله ﷺ حتـى لـو سالت دماؤه هو وكل بني هاشم معه!

وبقي الحال على ذلك. وذكر ابن اسحق أن قريشاً ما نالت من رسـول الله ﷺ شيئا يكرهه حتى مات أبو طالب[3] وأنه عند وفاته آذته قريش بما لم تكن تطمع فـي حياة أبي طالب.

وكان يساعد أبا طالب في دفاعه المستمر عن رسول الله ﷺ، أخوه حمزة بـن عبد المطلب. وكان حمزة فارساً معروفاً، وأصغر سناً من أبي طالـب بكثيـر، وبالتـالي

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٠٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٩٤.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٥٧.

أكثر منه قوة وحدّة في مواجهة رجال قريش. ولم يتورّع حمزة حتى عن الاعتداء جسدياً على أبيَ جهل لما بلغه مرة أنه آذى رسول اللهﷺ وألقى عليه القاذورات، فضربه حمزة بقوسه «فَشَجّهُ شَجّة مُنكرة» مما دفع أبا جهل إلى الاعتذار منه «.. أما ترى ما جاء به؟ سَفهَ عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف آباءنا!» فردّ عليه حمزة «ومَن أسفهُ منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله...»[1].

قريشٌ تلجأ للأذى والبطش: الهجرة إلى الحبشة

وصارت الأجواء في مكة رهيبة جداً، فالأذى الذي يلحق بالمسلمين المستضعفين يفوق كل احتمال. كانت قريش تراقب رسول اللهﷺ وتحركاته واجتماعاته ولقاءاته، وترهب كل مَن يتصل به أو تشعر أنه قد يتبعه ويؤمن به. والنص التالي حول أبي ذرِ الغفاري وطريقة دخوله في الإسلام يلقي بعض الضوء على المجازفة الكبيرة لأي شخص أراد لقاء محمدﷺ والاستماع عليه:

وفيما يلي قصة إسلام أبي ذر كما رواها البخاري في صحيحه عن ابن عباس:

«قال أبو ذر: كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبيّ.

فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل كلّمه وأتني بخبره.

فانطلق فلقيه ثم رجع. فقلت: ما عندكَ؟

فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشر.

فقلت له: لم تشفني من الخبر.

فأخذت جراباً وعصاً ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه و أكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد.

فمرّ بي عليّ. فقال: كأنّ الرجلَ غريب؟

قلت: نعم.

---

(١) أسباب نزول الآيات للواحدي ص ١٥١.

قال: فانطلق إلى المنزل. فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره.

فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسألَ عنه وليس أحدٌ يخبرني عنه بشيء.

فمرّ بي عليّ فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟

قلت:لا. قال: انطلق معي.

قال: ما أمركَ؟ وما أقدمكَ هذه البلدة؟

قلت له: إن كتمتَ عليّ أخبرتكَ.

قال: فإني أفعل.

قلت له: بلغنا أنه قد خرج ههنا رجلٌ يزعم أنه نبيّ فأرسلت أخي ليكلّمه فرجعَ ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه.

فقال له: أما إنكَ قد رشدتَ، هذا وجهي إليه فاتبعني، أدخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليكَ قمت إلى الحائط كأنّي أصلح نعلي، وامضِ انت.

فمضى ومضيتُ معه حتى دخل ودخلت معه على النبيﷺ فقلت له: اعرض عليّ الإسلام.

فعَرضَه فأسلمتُ مكاني.

فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك، فإن بلغك ظهورنا فأقبل.

فقلت: والذي بعثكَ بالحق، لأصرخنّ بها بين أظهرهم!

فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال: يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله!

فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فقاموا. فضربت لأموتَ. فأدركني العباس فأكبَّ عليّ ثم أقبلَ عليهم فقال: ويلكم! تقتلون رجلاً من غفار ومتجركم وممرّكم على غفار؟! فأقلعوا عنّي.

فلمّا ان أصبحت الغد رجعتُ فقلتُ مثلما قلتُ بالأمس، فقالوا قوموا إلى هذا

الصابئ. فصنعَ مثلما صنع بالأمس، وأدركني العباس فأكبَّ عليّ فقال مثل مقالته بالأمس.

قال: فكان هذا أول إسلام أبي ذر رحمه الله»[1].

إن هذا النص لافت للنظر حقاً. فقيام عليّ باصطحاب أبي ذر إلى الرسولﷺ في مكة، كانت مهمة في غاية الصعوبة والخطورة! إلى درجة اضطراره إلى التظاهر بإصلاح نعله، والافتراق عن أبي ذر كلما رأى احداً من مشركي قريش، خوفاً على صاحبه من الأذى!

وأما المستضعفون من أتباع محمدﷺ المقيمين في مكة، فكانوا يتعرضون لأهوال العذاب على أيدي طغاة قريش:

- عمار بن ياسر

«قدم والد عمار بن ياسر بن عامر وأخواه الحارث ومالك من اليمن إلى مكة يطلبون أخا لهم. فرجع أخواه وأقام ياسر وحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فزوجه أمة له اسمها سمية بنت خباط، فولدت له عماراً، فأعتقه ابو حذيفة ثم مات أبو حذيفة. فلما جاء الله بالإسلام أسلم عمار وأبواه وأخوه عبد الله»[2].

أخرجهم أبو جهل وعذبهم عذابا أليماً، لكي ينالوا من محمدﷺ. فقاومت سمية فظاعة التعذيب، وأثارت غضب أبي جهلٍ وجنونه حين بصقت في وجهه، فأخذ يطعنها بحربةٍ في فرجها حتى ماتت، ثم مات زوجها ياسر من التعذيب، وتحمّل عمار العذابَ الرهيبَ، حتى انهار أخيراً وقال للجبابرة بلسانه ما يرضيهم.

جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد وصفٌ للعذاب الفظيع الذي كانت قريش توقعه بعمار وأبيه وأمه:

«كان عمار بن ياسر من المستضعفين الذين يعذبون بمكة ليرجع عن دينه.

---

(١) صحيح البخاري باب قصة زمزم ج٤ ص٢٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٤٠٧.

قال محمد بن عمر: والمستضعفون قومٌ لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بأنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم....

كان عمار بن ياسر يعذّب حتى لا يدري ما يقول، و كان صهيب يعذب حتى لا يدري ما يقول، و كان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول، وبلال وعامر بن فهيرة وقوم من المسلمين. وفيهم نزلت هذه الآية: والذين هاجروا في الله من بعد ما فتنوا.....

أخبرني من رأى عمار بن ياسر متجرداً في سراويل. قال: فنظرت إلى ظهره فيه حبطٌ كثير.

فقلت: ما هذا؟

قال: هذا مما كانت تعذبني به قريش في رمضاء مكة...

أحرق المشركون عمارَ بن ياسر بالنار. قال: فكان رسول الله يمر به ويمر يده على رأسه فيقول: يا نار كوني برداً وسلاما على عمار كما كنتِ على ابراهيم...

إن النبي مرّ بعمار وأبي عمار وأمه وهم يعذبون في البطحاء فقال: أبشروا يا آل عمار فإن موعدكم الجنة......

أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى نالَ من رسول الله وذكرَ آلهتهم بخير.

فلما أتى النبي قال: ما وراءك؟

قال: شرٌ يا رسول الله! والله ما تركت حتى نلتُ منكَ وذكرتُ آلهتهم بخير.

قال: فكيف تجد قلبك؟

قال: مطمئنٌ بالإيمان.

قال: فإن عادوا فعُد...

ونزلت فيه الآية: ﴿إلاّ مَن أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان﴾[1].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص ٢٤٨ـ٢٤٩. وكذلك جاء في أسباب النزول للواحدي ص١٩٠.

وقد وصف ابن اسحاق العذابَ الذي كان القرشيون يوقعونه بأتباع محمدﷺ بقوله: «إن كانوا ليضربون أحدهم، ويُجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدّة الضرّ الذي نزل به، حى يعطيهم ما سألوه من الفتنة. حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم.

حتى انّ الجعل ليمرّ بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟

فيقول: نعم. افتداءً منهم مما يبلغون من جهده»[1].

وكان أبو فكيهة مولى لبني عبد الدار «فكان يعذب ليرجع عن دينه فيأبى. وكان قوم من بني عبد الدار يخرجونه نصف النهار في حر شديد في قيد من حديد ويلبس ثيابا ويبطح في الرمضاء ثم يؤتى بالصخرة فتوضع على ظهره حتى لا يعقل»[2].

ورغم أن معظم غضب قريش وأذاها قد انصبّ على المستضعفين من المسلمين، إلاّ أنه حتى بعض أبنائها عريقي النسب لم يسلموا من البطش! فمثلا سعيد بن العاص بن أمية (وكان يدعى أبو أحيحة) سمعَ أن ابنه خالداً قد أسلمَ سراً وتبعَ محمداًﷺ:

«فدعاه، وكلمه أن يدع ما هو عليه.

فقال خالد: لا أدع دين محمدٍ حتى أموت عليه!

فضربه أبو أحيحة بقراعة في يده حتى كسرها على رأسه ثم أمَرَ به إلى الحبس. وضيّقَ عليه، وأجاعَه وأعطشه. حتى لقد مكث في حَرّ مكة ثلاثاً ما يذوق ماء...»[3].

وحتى بعد أن هرب ابنه منه وهاجر مع المسلمين إلى الحبشة، بقي سعيد بن العاص بن أمية غاضباً وحاقداً على محمدﷺ، حتى أنه مرضَ مرة:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٣٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ ص١٢٣.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ ص٩٥.

«... فقال: لئن رفعني الله من مرضي هذا، لا يُعبد إله ابن أبي كبشة ببطن مكة..».

*****

وبالإضافة إلى الأذى الجسدي، كان اغتصاب الحقوق يجري على قدمٍ وساق:

«قال ابن اسحق: والعاص بن وائل السهمي، كان خباب بن الأرت، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، قيناً بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفا عملها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه فقال له: يا خباب أليس يزعم محمدٌ صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟

قال خباب: بلى.

قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقّك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله مني، ولا أعظم حظا في ذلك!

فأنزل الله تعالى فيه ﴿أفرءيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولداً أطلع الغيبَ إلى قوله تعالى ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً﴾»[1].

قريشٌ تلاحق المسلمين حتى في إفريقيا

ونتيجةً لذلك أذنَ الرسول صلى الله عليه وآله لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة. فهاجر منهم ٨٣ رجلاً و١١ امرأة. ولكنّ قريشاً قررت أن تلحقهم إلى إثيوبيا! وحتى لو ذهبوا إلى آخر الأرض لما هدأ بال قريش إلى أن تقضي على الدين الذي أتى به نبيّ بني هاشم!

واختارت قريش ابنها البار والموثوق، عمرو بن العاص، ليكون مندوبَها الرئيسي عند النجاشي من أجل تسليم المسلمين الأوائل الفارّين بدينهم الى الحبشة وعلى رأسهم جعفر ابن أبي طالب، لقريش.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١٠.

وقد سرد ابن اسحق تفاصيل بعثة قريش إلى الحبشة. وفيها يظهر مقدار الخبث والدهاء الذي تمتع به ابن العاص في محاولاته المستميتة للظفر بالمسلمين اللاجئين.

وفي القصة الطويلة يظهر أن قريشاً حرصت على أن يحمل مندوباها: ابن العاص وابن أبي ربيعة، هدايا كثيرة لكل حاشية النجاشي من البطارقة، على أمل أن يقنعوا ملك الحبشة بالاستجابة لطلب وفد قريش وتسليم المسلمين الذين لديه لهم دون أن يسمع منهم أو يكلمهم! وهذا يظهر معرفة مندوبي قريش بطريقة التعامل مع الملوك وكيف يصنع القرار عندهم وتأثير الحاشية، والأهم من ذلك يظهر معرفة المندوبين الأكيدة بضعف موقفهم على الصعيد الأخلاقي وكيف أنهما كانا مدركين لمدى قوة الحجّة لدى المسلمين وسلاسة منطقهم، ولذلك كانا يأملان أن لا يعطي الملك المسلمين فرصة الاستماع إليهم:

«... أيها الملك: إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين آبائهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوا، لا نعرفه نحن ولا أنتَ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم...

ولم يكن شيئ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص مِن أن يسمعَ كلامهم النجاشي...».

ولكن النجاشي خيّب ظنّهم حين قابلهما رغم تأييد البطارقة لوفد قريش:

«... فغضبَ النجاشي ثم قال: لا والله! إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قومٌ جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على مَن سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم...»[1].

وقدّم جعفر بن أبي طالب ذلك العرضَ الرائع، الذي حفظه التاريخ بأحرفٍ من نور، للإسلام ولما جاء به الرسول ﷺ ولموقف طغاة قريش فقال للنجاشي:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٤٨ـ٢٥٢. وكذلك ورد في سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص ٢١٥.

«كنا قوماً أهلَ جاهلية، نعبد الأصنامَ، ونأكل الميتة ونقطع الأرحامَ ونسيء الجوارَ ويأكل القويّ منا الضعيفَ. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلَة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالزكاة والصلاة والصيام....

فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادكَ....».

فقرر النجاشي عدم تسليم المسلمين وردّ ابن العاص وابن أبي ربيعة خائبين.

ولكن عمرو ابن العاص لم ييأس، وجاء بفكرة تنمّ عن فهمٍ عميقٍ من طرفه للمعتقدات المسيحية، وكذلك لموقف الإسلام من الديانات التي سبقته ومن فكرة عبودية الإنسان لله، وقرر أن يضربَ على الوتر الحساس لملك الحبشة المسيحي:

«قال عمرو ابن العاص: والله لآتينّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم!

فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عَبد!

ثم غدا عليه الغد فقال: أيها الملك: إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً! فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فأرسلَ إليهم ليسألهم عنه....

فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول....

فخرجا من عنده مقبوحَين مردوداً عليهما ما جاءا به... ».

وهكذا فشل مسعى قريش، وداهيتها عمرو بن العاص، بسبب الاستبسال الذي أظهره جعفر بن أبي طالب في الدفاع عن دين ابن عمه الرسول، وبسبب حسن أخلاق الملك الحبشيّ المنصف الذي رفضَ التجاوب مع مطالب عظماء قريش، برغم هداياهم وإغراءاتهم، وقدّرَ أن هؤلاء المسلمين المستضعفين أقرب إليه، عقائدياً وأخلاقياً، من عَبَدَة الأصنام في مكة.

شِعبُ أبي طالب

لما شعرت قريشٌ أن جهودها فشلت في إقناع أبي طالب بتسليم محمدﷺ، قررت القيام بتجربة جديدة، وهي الحصار الاقتصادي والاجتماعي، ضد الهاشميين وأبي طالب.

ذكر ابن سعد أن قريشاً كتبت عهداً وميثاقاً فيما بينها موجهاً ضد بني هاشم: «على ألاّ يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم».

وقاموا بتعليق تلك الصحيفة في جوف الكعبة! وكان ذلك في السنة السابعة للبعثة.

فإما أن يرضخ الهاشميون ويسلموا محمداًﷺ للقتل، وإما أن يتراجع محمدﷺ نفسه عن دعوته إن لم يكن خنوعاً منه فإشفاقاً على آله، وإما أن يموت الجميع ذلاً وجوعاً.

«وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم. وانحازَ بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم. وخرج أبو لهب إلى قريشٍ فظاهرَهم على بني هاشم وبني المطلب. وقطعوا عنهم الميرة والمادة، فكانوا لا يخرجون إلاّ من موسمٍ إلى موسم، حتى بلغَهم الجهد وسمعَ أصوات صبيانهم من وراء الشعب»[1].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٠٩.

إذن قرر بنو هاشم، بقيادة أبي طالب وإرادته، تحمل كل هذا العذاب والعزل في سبيل حماية محمدﷺ. وكانوا ينفقون من أموال خديجة بنت خويلد، وأبي طالب، حتى نفذت.

وبلغَ من شدّة ذلك الحصار الرهيب، وحرص قريشٍ على تنفيذه بكلّ صرامة، أنّ أبا جهل قد ضبط ابنَ أخي خديجة بنت خويلد، يحملُ قمحاً يريد توصيله لها في الشِعب (وذاك كان قمحاً لها، أرسلت تطلبه) فاعترضَه ومنعه قائلا: «أتذهب بالطعامِ إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك»[1].

وبلغ الجهد بآل الرسولﷺ أن اضطروا إلى أن يقتاتوا بورق الشجر! وكان صبيتهم يتضورون جوعاً فتعلوا أصواتهم لتصل إلى الحاقدين الشامتين في مكة. ولم يكونوا يقدرون على الخروج من شعب أبي طالب إلاّ في موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة، فكانوا يشترون حينئذ ويبيعون في ظروف بالغة الصعوبة، حيث أن المشركين كانوا يلتقون بكل مَن يأتي إلى مكة أولاً ويعرضون عليه ثمناً مرتفعاً لسلعته مقابل أن لا يبيعها لبني هاشم. ومَن لا يقبل عرضَ قريش من الزائرين كان يتعرض للضغط والتهديد.

وقد عبّر علي بن أبي طالب، في إحدى رسائله إلى معاوية بن أبي سفيان، عن عدوان قبيلة قريش على بني هاشم خاصة، الذين أصرّوا على حماية رسول اللهﷺ بقوله:

«فأرادَ قومنا قتلَ نبينا، واجتياحَ أصلنا، وهمّوا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، ومنعونا العذبَ، وأجلسونا الخوفَ، واضطرّونا إلى جبلٍ وعر، وأوقدوا لنا نار الحرب.

فعَزمَ الله لنا على الذبّ عن حوزته، والرمي من وراء حرمته. مؤمننا يبغي بذلك الأجر، وكافرنا يحامي عن الأصل.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٧.

ومَن أسلمَ من قريش خلوٌ مما نحن فيه، بحلفٍ يمنعه أو عشيرةٍ تقوم دونه، فهو من القتل بمكانٍ آمن»[1].

وكان أبو طالب خلال سنوات الحصار الطويلة كثيراً ما يخاف على حياة النبيﷺ من غدر المشركين وبغيهم. فكان أحياناً يأتي ليوقظ النبي ﷺ من مضجعه في عتمة الليل ويأخذه ليغيّر مكانه، ويطلب من أحد أبنائه أن ينام في محله، كل ذلك على سبيل الاحتياط. وكان أبو طالب يخاطر أيضاً بحياة ابنه عليّ الذي كان يذهب سِراً إلى مكة ليحاول الحصول على ما تيسّر من الطعام من حيث أمكن.

واستمرّ ذلك الحصار الرهيب ثلاث سنوات كاملة يئست قريشٌ خلالها من إمكانية أن يتخلّى أبو طالب وعموم آل الرسول عنه أو أن يسلموه. لقد أوضحَ لهم أبو طالب، وأثبت لهم بنو هاشم، بالقول والفعل، استعدادهم الأكيد للموت من أجل حماية الرسول ﷺ والدفاع عنه.

وتخلت قريشٌ أخيراً عن وثيقة المقاطعة بمبادرة من بعض الرجال الذين تربطهم ببني هاشم علاقة مصاهرة فامتلكوا الجرأة ليقولوا لقومهم إن هذه السياسة عبثية، ولن تفلح، ومن شأنها تلطيخ سمعة قريش بين العرب عن طريق إظهارها بصورة الظالم قاطع الرحم.

الذهاب إلى الطائف

وضاقت الأرض على رسول اللهﷺ، وبلغ الأذى الذي يناله حداً لا يطاق. وصار محمدﷺ مهدداً في حياته في كل لحظة. فبعد أن فقدَ حاميه والمدافع عنه، عمَّه أبا طالب الذي توفي هو وزوجته خديجة في عام واحد أسماه الرسولﷺ عامَ الحزن، صار القرشيون لا يتورعون عن الاعتداء عليه، فمثلاً:

«ان عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجدٌ، حتى كادت عيناه تبرزان»[2].

---

(1) نهج البلاغة بشرح محمد عبده ج٣ ص٣١٩.

(2) سيرة رسول اللهﷺ الرحيق المختوم للمباركفوري ص١٠٧.

وكان القرشيون يرصدون حركاته ويراقبونه ويرسمون المؤآمرات للخلاص منه.

واضطرّ الرسولﷺ إلى الهروب من ذلك الجحيم الذي خلقته له قريش في مكة. ويمّمَ وجهَه نحو الطائف لعلّ أهلها يستجيبون له ولدعوته. ولكنه وللأسف تلقّى أسوأ ردّ ممكن!

وفيما يلي النص كما رواه ابن سعد:

«لما توفي أبو طالب، تناولت قريش من رسول الله واجترؤوا عليه. فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة«وكان ذلك في شوال سنة عشر للبعثة.

«فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلاّ جاءه وكلمه. فلم يجيبوه. وخافوا على أحداثهم.

فقالوا: يا محمد: اخرج من بلدنا والحق بمجابك من الأرض.

وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة، حتى أن رجليَ رسول الله لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه. حتى لقد شجّ في رأسه شجاج.

فانصرف رسول الله راجعاً إلى مكة وهو محزون. لم يستجب له رجلٌ واحد ولا امرأة.

... فأقام بنخلة أياماً، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم -يعني قريشاً- وهم أخرجوك؟

قال: يا زيد إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه.

ثم انتهى إلى حراء فأرسل رجلاً من خزاعة إلى مطعم بن عدي: أدخل في جوارك؟

فقال: نعم. ودعا بنيه وقومَه فقال: تلبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمداً.

فدخلَ رسول الله ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام. فقام

مطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحدٌ منكم.

فانتهى رسول الله إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم بن عدي وولده مطيفون به»[1].

وقد أورد ابن اسحق نص ذلك الدعاء الذي دعا به الرسول العظيم في ذلك الموقف العصيب:

«اللهم إليك أشكو ضعفَ قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.

يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهمني؟ أم إلى عدوّ ملكته أمري؟

إن لم يكن بكَ عليّ غضبٌ فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك.

لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك»[2].

ولا بد من ذكر ملاحظتين حول حادثة ذهاب الرسول صلى الله عليه وآله إلى الطائف:

ـ أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله ثقة بالله وإيماناً بنصره، بشكل يفوق قدرة بني البشر أجمعين! وإن قوله لزيد بن حارثة، في ذلك الموقف العصيب، والدماء تسيل منه وقد تعرّض لإهانةٍ ومذلّةٍ عظيمة، إن الله سينصره، يظهر الروحَ النبوية في أنصع صورها.

ـ إن عدم قدرة النبي صلى الله عليه وآله دخول مكة، وهي بلده، إلاّ بعد أن لجأ إلى المطعم بن عديّ واستجارَ به، يشير إلى مدى قسوة وبطش الإرهاب القرشيّ الموجّه ضد رسول الله صلى الله عليه وآله واتباعه.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢١٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٦٠.

الفرج الإلهي: أنصار الله

«فلما أراد الله عز وجل إظهارَ دينه وإعزاز نبيّه وإنجاز موعده لـه، خـرج رسـول اللهﷺ في الموسم الذي لقيه فيه نفرٌ من الأنصار. فعرضَ نفسَه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً».

فكلمهم رسول اللهﷺ ودعاهم إلى الإسلام، فشرح الله صـدورهم وصـدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم وقالوا له:

«إنّا قد تركنا قومَنا، ولا قـومَ بيـنهم مـن العـداوة والشـر مـا بيـنهم! فعسـى أن يجمعهم الله بك. فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الـذي أجبنـاك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»[1].

وكان هؤلاء ستة رجال من الخزرج وهم: أسعد بن زرارة (أبو أمامـة)، وعـوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عـامر، وجـابر بـن عبـد الله. وكانوا هم النواة الأولى للأنصار.

وعادت هذه المجموعة من الذين آمنوا بنبوّة محمدﷺ إلـى يثـرب، وبـدأوا حركة نشطة بين قومهم يبشرون بالدين الجديد.

وكان أهل يثرب، بحكم جوارهم لليهود وعلاقاتهم معهم، على اطّلاع إلى حـدّ ما على ديانة التوحيد والكتاب الإلهي.

وأثمرت جهود هؤلاء الأنصار الأولين عن نجاحٍ باهر! فبدأ الإسلام ينتشـر بـين أهل يثرب بفرعيهم الخزرجيّ والأوسيّ.

وما أن انقضى العام، حتى أرسل مسلمو يثرب إلى مكة ١٢ رجلاً منهم ليبـايعوا رسول اللهﷺ «بيعة العقبة الأولى». وقد أورد ابن اسحاق نص البيعة:

«... على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنـا، ولا نـأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلكم الجنـة،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٦٦.

وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر».

ويُطلق على محتوى هذه البيعة: بيعة النساء. فهي خلت من أي إشارة إلى الحرب والقتال والسياسة، ولا كان فيها تعهدات بتقديم الحماية للرسولﷺ إذا تعرّض لعدوان. ولم يكن فيها إشارة إلى الاستعداد لمواجهة قريش.

ويبدو جلياً حرص النبيﷺ على التركيز على المبادئ الإيمانية والأخلاقية، وغرسها في نفوس نواة أنصاره من يثرب، وهم الذين كانت تنتظرهم مهمة شاقة في التبشير بدين الله بين بقية قومهم، بالحكمة والموعظة الحسنة.

انتشار الإسلام في يثرب

وأرسل رسول اللهﷺ معهم مصعب بن عمير إلى يثرب.

وأمر الرسولﷺ مصعب بن عمير أن يقرأهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. وقد نزل مصعب عند أبي أمامة، أسعد بن زرارة. وتولى مصعب مهمة الصلاة بمسلمي يثرب، لأن الأوس والخزرج كرهَ بعضهم أن يؤمّه بعض.

وبدأ الثنائي، مصعب بن عمير، وأسعد بن زرارة حملة دعوة فعّالة ودؤوبة. وبذل الرجلان جهداً عظيماً وأظهرا إصراراً فريداً على نشر دين محمدﷺ بين أهل يثرب. ويمكن بكل تأكيد القول بأن هذين الرجلين يعود لهما الفضل الأساسي في انتشار الإسلام في يثرب، مما مهد الطريق وأدّى في النهاية إلى قرار رسول اللهﷺ بالهجرة إليها. وكان الرجلان يكملان بعضهما البعض: فمصعب الذي كان فتى مرفّها من قريش قبل أن يؤمن بدعوة محمدﷺ ويضحّي بكل شيء في سبيله، كان يقوم بدور الداعية والمعلم وهمزة الوصل بين النبيﷺ وأتباعه. وأسعد بن زرارة كان من بني النجار، من الخزرج، وكان بحكم أصوله العائلية ووضعه في يثرب قادراً على الوصول إلى العناصر المهمة والمؤثّرة من أهل يثرب. وهذا بالضبط ما كان يحتاجه مصعب. فبحكم الوضع القبلي السائد في جزيرة العرب، كان إيمان الأشراف والقيادات العشائرية أمراً في غاية الأهمية للدعوة، لأن العامة تميل إلى التقليد واتّباع زعمائها.

وحقق الثنائي مصعب وأسعد إنجازاً مهماً حينما نجحا في إقناع شخصيةٍ مهمة من بني عبد الأشهل،: سعد بن معاذ، بدين الإسلام.

كان سعد بن معاذ سيداً مطاعاً في قومه، فقام لهم وقال: «يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلاّ مسلماً ومسلمة»[1].

واستمر الثنائي مصعب وأسعد، في مواصلة جهودهما بلا كلل، وكانا يحققان نجاحات متلاحقة بين عامة أهل يثرب. ولا بد من الإشارة إلى أن انتشار الإسلام كان أكثر يُسراً وقبولا بين صفوف الفرع الخزرجيّ من أهل يثرب، من الأوسيّ.

بيعة العقبة

وما أن جاء موسم الحج حتى عاد مصعب بن عمير إلى مكة ليعرض على النبيﷺ ما أنجزه من عمل خلال سنة من وجوده في يثرب. وكان مع مصعب هدية ثمينة لرسول اللهﷺ: ٧٣ رجلاً وامرأتان من أهل يثرب (١١من الأوس و٦٢ من الخزرج)، جاؤوا ليبايعوا رسول اللهﷺ فيما أصبح يعرف بـ«بيعة العقبة الآخرة».

ولجأ الأنصار القادمون للتعرّف على نبيّهم ومبايعته، إلى أسلوب التمويه من أجل عدم لفت أنظار القرشيين الذين كانوا يفرضون حصاراً رهيباً على محمدﷺ وكل من يحاول أن يتصل به. وقام المسلمون من أهل يثرب بالتفرّق بين مجاميع المشركين القادمين إلى مكة من أجل الحج، ولم يعلم حتى عبد الله بن أبيّ وجماعته بأن في قومه مَن جاء ليبايع نبي الإسلام. ولمّا جاءته قريشٌ تسأله عن ذلك الخبر، أبدى استغرابه ـ وكان صادقاً ـ وقال لهم أن قومه لا يمكن ان يفعلوا هكذا أمرٍ دون علمه!

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٧٣.

وعُقد الاجتماع السري بين رسول الله ﷺ والمسلمين القادمين ليبايعوه من أهل يثربَ، وذلك في عتمة الليل. وفيما يلي نص ما جرى:

«فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن. ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثم قال: **أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.**

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم! والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا. فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً!

فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان. فقال: يا رسول الله! إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهركَ الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: **بل الدم الدم، والهدم الهدم! أنا منكم وأنتم مني. أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»[1].

إذن اختلفت صيغة البيعة هذه المرة عن تلك في العقبة الأولى. فالآن يطلب الرسول ﷺ من أنصاره الحماية والتعهد بالدفاع عنه ضد كل مَن يريد به أذى. وبينما اقتصرت البيعة الأولى على الأمور الإيمانية والعقائدية، انتقل الرسول ﷺ وأنصاره إلى مواضيع شبه سياسية ولها علاقة بمستقبل الدين. ويظهر ذلك جلياً من خلال سؤال الأنصاري عما سيفعله رسول الله ﷺ عندما يُظهره الله على أعدائه، وتأكيد الرسول ﷺ له بأنه سيتخلّى عن قريش ويصبح امرءً من الأنصار.

وبالتأكيد فإن الأنصار كانوا يدركون أن التعهد بحماية الرسول ﷺ له عواقب عظيمة. لأن قومه القرشيين لن يتركوه وشأنه، وسوف يسعون إلى القضاء على كل مَن ينصره. وكان الأنصار واعين لحجم التضحيات التي سوف يقدمونها في سبيل نصرة النبي ﷺ ودينه. وقد عبّر عن ذلك قائلهم:

«قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري، أخو بني سالم بن عوف، يا معشر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٧٧. والهدم الهدم أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم.

الخزرج! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس! فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً، أسلمتموه، فمن الآن! فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه من نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه! فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف.

فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا؟

قال: الجنة.

قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه.»[1].

ويمكن اعتبار ذلك الاجتماع السري، بيعة العقبة الآخرة، أساس التوجه الاستراتيجي للرسولﷺ للهجرة من مكة. فهو الآن تأكد أخيراً أن هناك من يؤمن بدعوته ويتعهد بنصرته. وصار عليه فقط أن ينتظر لكي تنضج الظروف لاتخاذ قرار الهجرة والمباشرة في تنفيذه. صار الوقت في صالح الرسولﷺ، فأنصاره يتزايدون في يثرب ودينه ينتشر. والقاعدة الصلبة من المؤمنين قدمت بالفعل كل تعهد مطلوب وأظهرت حماساً وإصراراً على السير خلف محمدﷺ إلى النهاية.

وعيّن رسول الله ﷺ اثني عشر «نقيباً» من الأنصار، لكي يتولّوا أمر قيادة الدعوة في يثرب والإشراف على المسلمين فيها. وكان النقباء الاثنا عشر هم:

من الخزرج: أسعد بن زرارة، سعد بن الربيع، عبد الله بن رواحة، رافع بن مالك، البراء بن معرور، عبد الله بن عمرو بن حرام، عبادة بن الصامت، سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو بن خنيس.

ومن الأوس: أسيد بن حضير، سعد بن خيثمة و رفاعة بن عبد المنذر (ويقال: أبو الهيثم بن التيهان).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٨٠

شَبَحُ قريش المخيف

كان شبح قريش مهيمناً على ذلك الاجماع السري. وكان الرسولﷺ والأنصار يخشون اكتشاف جواسيس قريش لأمر ذلك الاجتماع، ومن ردّة فعلها. وبالفعل، فقد حصل أن عملاء قريش اشتمّوا أثر اللقاء وصرخوا ينادون أسيادهم:

«هل لكم في مُذمّم والصباة معه؟ وقد اجتمعوا على حربكم».

وعند ذلك أمرهم الرسولﷺ أن يعودوا مسرعين إلى مضاجعهم.

وفي اليوم التالي، بدأ القرشيون حملة بحث مكثفة عن أتباع محمدﷺ من أهل يثرب. ونجحوا فقط بالقبض على سعد بن عبادة:

«فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به، حيث أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمّته، وكان ذا شعر كثيف».

وكاد القرشيون يفتكون بسعد بن عبادة وهم يعتدون عليه بقيادة سهيل بن عمرو. ولم ينجُ سعد إلاّ بالاعتماد على علاقات قديمة كانت له مع جبير بن مطعم، والحارث بن حرب بن أمية، حيث كان يحمي لهما تجارتهما في يثرب. فأطلق سعد بعد ما ناله من تنكيل.

الرسول يغادر مكة: الهجرة

قرار الإعدام

لمّا أذنَ الرسولﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب، وبدؤوا يهاجرون تباعاً آخذين معهم ما قدروا عليه من متاعهم وأموالهم وعائلاتهم، شعرت قريش أن الأمور قد بدأت تفلت من سيطرتها وأن محمداً قد وجد أخيراً من ينصره ويتبعه ويؤويه، وهم أهل يثرب.

فاجتمعت قبيلة قريش وبحثت هذا الأمر الجلل ورأت أنها لا يمكن أن تدع محمداً وشأنه، ولذا لا بد لها أن تجتثّ محمداً ودعوته مرة واحدة وإلى الأبد، وليكن بعدها ما يكون! فكان القرار الرهيب: قتل محمدﷺ!

وفيما يلي نقلٌ عن ابن سعد «لما رأى المشركون أصحابَ رسول الله قد حملوا الذراري والأطفال إلى الأوس والخزرج عرفوا أنها دار مَنَعَة وقومٌ أهل حلقة وبأس، فخافوا خروجَ رسول الله. فاجتمعوا في دار الندوة ولم يتخلّف أحدٌ من أهلِ الرأي والحجى منهم ليتشاوروا في أمره.....

إلى أن قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلةٍ من قريش غلاماً نهداً جليداً، ثم نعطيه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع»[1].

كانت هذه فكرة شيطانية حقاً. فعلى الرغم من الضعف الذي اعترى بني هاشم بسبب وفاة عميدهم أبي طالب، إلاّ أن تصميم بني هاشم الجماعي على حماية محمدﷺ لم يتغير. وبالتالي كان الحل الذي اقترحه أبو جهل هو الوحيد القادر على إخراج قريش من ورطتها. فلم يكن بإمكان بني هاشم، لوحدهم، مواجهة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص٢٢٧.

قريش بأجمعها. وما دام القاتل غير محدد فلن يكون بإمكان بني هاشم توجيه انتقامهم إلى بطن معيّن من قريش، وبالتالي سيكون عليهم التسليم بالأمر الواقع.

وهكذا فإن قريشاً قررت اللجوء إلى الحَسم المسلّح للقضاء على الدعوة التي فشلت في مواجهتها بالحجة والمنطق. وهذه كانت المرة الأولى في تاريخها التي تتفق فيها قريش على إعدام واحدٍ من أبنائها، وبشكل رسميّ ومدروس، بدون جُرمٍ معلومٍ اقترفه.

ليلة الفداء[1]

عَلِم رسولُ الله ﷺ بخطة قريش ونواياها. فكان لا بد مما ليس منه بدّ. سيهاجر رسول لله ﷺ، أخيراً، من بلده التي فيها ولد وعاش ٥٣ عاماً من عمره. كان ولا شك قراراً صعباً جداً على نفس رسول الله ﷺ. فهو أراد لقومه الهداية والرشاد، ولم يتوقف عن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يوماً واحداً منذ أوحي إليه قبل ١٣ عاماً. وها هو الآن يجد نفسه مضطراً إلى الهرب من بلده طريداً شريداً مُهدداً بالقتل على أيدي قومه هو بالذات. وسيترك مكة بأيدي قريش، ويغادر ونفسه تفيض حسرة وأسى.

ومما زاد من صعوبة الأمور أنه حتى الهرب من مكة والهجرة إلى يثرب، أصبحت مسالة صعبة، إن لم تكن مستحيلة، في ضوء قرار الإعدام التي اتخذته قريش بحقه وشرعت في تنفيذه.

اجتمعت فرقة الإعدام التي شكلتها قريش، وقررت أن تكمن لرسول الله ﷺ قرب بيته، وبدأوا في المراقبة حتى يقتلوه وهو يغادر. والسبب الذي منع كتيبة الموت القرشية من اقتحام بيت النبي ﷺ وقتله هو أن زعماء قريش لم يرغبوا في أن تقول عنهم العرب إنهم تسلقوا الأسوارَ في الليل على الحريم من بنات العم!

---

(1) من السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١٠٨ـ١٠٩. وأيضا طبقات ابن سعد ج١ ص٢٢٨.

وأصبح رسول اللهﷺ بحاجة إلى فدائيّ يقبل أن يفتديه بروحه ونفســه، مـن أجل أن يتمكن من تضليل قريش والانطلاق في رحلة هجرته.

وكان هذا الفدائي موجوداً. كان عليّ بن أبي طالب ربيبـه وابـن عمـه وتلميـذه وتابعه المخلص الذي لم تخالط نفسه لوثات الجاهلية، ولم يعـرف لـه قـدوة وإمامـاً سوى محمدﷺ. ولن يتردد عليّ لحظة واحـدة فـي التضـحية بروحـه فـي سـبيل الرسول الذي كان أول مَن آمن به.

كان القتل هو المصير المحتوم الذي ينتظر مَـن سيضـلل قريشـاً ويمـوّه علـى خروج رسول اللهﷺ من مكة. ولم يكن هيّنـا أبـداً أن يسـلم الرسـولﷺ عليـاً، ناصرَه وابنه الروحي، للموت الزؤام. ولكـن رسـول اللهﷺ كـان يـؤمن أن لـه ربـاً سينصره ولن يخذله لا هو ولا أولياءه المخلصين. فطلب الرسول ﷺ من عليّ أن ينام مكانه في بيته، وعلى فراشه، وأن يرتدي ملابسه حتى يتمكن هـو مـن الخـروج من القرية الظالم أهلها، إلى حيث أنصار الله ينتظرون.

ونفّذ عليّ بكلّ ولاء وطاعة طلبَ الرسولﷺ. لم يفكّر عليّ بنفسه هو، ومـاذا سيكون مصيره حين يكتشفه طغاة قريش، وهو وحيدٌ بينهم. لم يَهَـب علـيّ المـوتَ في سبيل قائده ومعلّمه ونبيّه محمدﷺ. لم يَضَع عليّ خططـاً للنجـاة بنفسـه. ولـم يكن له من هدف سوى نجاة رسول اللهﷺ، ولتكن بعد ذلك إرادة الله.

ونجحت الخطة المرسومة برعاية إلهية. وخرج رسول اللهﷺ من بـين بـراثن وحوش قريش سالماً، وانطلق في مشوار هجرته مع رفيقه في الرحلة أبي بكر.

وصُعِق جبابرة قريش وهم يجدون علياً مكان محمـدﷺ، وصـاروا يلومـون انفسهم علىَ غفلتهم، وتركوا علياً وانصرفوا مسرعين يحاولون اللحاق بالرسول ﷺ قبل أن يصل يثرب.

وبقي عليّ في مكة بضعة أيام أخرى، كان مشغولاً خلالها بتنفيذ تكليـف مهـم آخر من رسول اللهﷺ: أداء الأمانات لأصحابها «وأمَرَه أن يتخلف بعده بمكة، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للنـاس. وكـان رسـول اللهﷺ

ليس بمكة أحدٌ عنده شيئ يخشى عليه إلاّ وضَعَه عنده، لما يُعلم من صدقه وأمانته»[1].

وبعد أن أدّى عليٌ المهمة بالنيابة عن رسول الله ﷺ انطلق مهاجراً إلى يثرب وقد اصطحب معه النساء الهاشميات، الفواطم الثلاث: فاطمة بنت رسول الله، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وابنة عمه فاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب.

رحلة الهجرة

وانطلق رسول الله ﷺ في رحلة هجرته الصعبة، مع رفيقه أبي بكر، الذي استأجر دليلاً للطريق اسمه عبد الله بن أريقط، واصطحب معه مولى له هو عامر بن فهيرة. وسلكوا جميعاً طريقاً صعبة ملتوية من أجل تضليل كتيبة قريش الساعية في الأثر.

وكادت قريشٌ أن تنجح في مسعاها عندما اقتفت الأثر واقتربت من الغار الذي كان يختبئ فيه الرسول ﷺ وهو غار ثور. ونجّا الله رسوله منهم، واستمر في مسيره إلى يثرب حيث كان المهاجرون السابقون والأنصار ينتظرون قدومه بمزيج من مشاعر اللهفة والشوق للرسول ﷺ والقلق والخوف عليه.

قال تعالى: ﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾[2].

وهذه الآية تعبر عن ذلك الموقف الحرج والصعب الذي مرّ به الرسول ﷺ وصاحبه، وعن مدى ثقة النبي ﷺ بنصر الله، وشجاعته الفريدة التي تمثلت بقيامه بشدّ أزر صاحبه أبي بكر والتخفيف عنه، رغم تلك الظروف.

وبعد عدة أيام من المسير في طريق طويل، متعرّج، في رحلةٍ محفوفةٍ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١١١.
(٢) سورة التوبة آية ٤٠.

بالمخاطر، وصل رسول الله ﷺ إلى يثرب، حيث كان الأنصار ينتظرون بشوق ولهفة. وكان فرحهم عظيماً لقرار نبيهم باللجوء إليهم. لقد عرف الأنصار أن رسول الله ﷺ قرر أن يربط مستقبل دعوته ودينه بهم دون غيرهم، وكانوا على أتم استعداد لتقديم كل شيئ في سبيله.

وبعد أن تنافس الأنصار فيما بينهم على مَن يستضيف رسول الله ﷺ، قرر الرسول ﷺ النزول بضيافة أبي أيوب الأنصاري، في داره، وهو من بُسطائهم، ربما ليضع حداً للتنافس أو التحاسد بين وجهاء العائلات الأنصارية. ومكث لدى أبي أيوب حتى انتهى المسلمون من بناء مسجدٍ ومسكنٍ له.

النبي في المدينة

المؤاخاة

كان من أول القرارات التي اتخذها رسول الله ﷺ في المدينة، أن آخى بين أصحابه من مهاجرين وأنصار، أخوين أخوين. وقرر أن يمنح شرف أخوته هو، لعليّ بن أبي طالب.

فقد كان المهاجرون من أصحابه قدموا بلاداً جديدة، وتركوا ديارهم ليحلوا ضيوفاً على قومٍ لا يعرفونهم. فكان لا بد لرسول الله ﷺ أن يوطّد العلاقات بين الفئتين من أتباعه فيجمعهم على أساس العقيدة والإيمان. وفعلياً كان رسول الله ﷺ يطلب من أنصاره من أهل يثرب أن يتكفلوا برعاية القادمين الجُدد من المؤمنين المهاجرين وحدّد لكل منهم، وعلى أساس فردي، مَن من هؤلاء عليه واجب رعايته. وتقبل الأنصار ذلك بكل إخلاص ورحابة صدر، فقاسموا ضيوفَهم أموالهم وبيوتهم، وكانوا عند حُسن ظن النبي ﷺ.

«قال ابن اسحق: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار. فقالـ فيما بلغناـ ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل:

تآخوا في الله أخوين أخوين.

ثم أخذ بيد عليّ ابن أبي طالب فقال: هذا أخي.

فكان رسول الله سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، أخوين»[1].

وروى الترمذي حديث المؤآخاة بطريقته:

«آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء عليّ تدمع عيناه فقال: يا رسول الله آخيتَ بين أصحابك ولم تؤآخِ بيني وبين أحَد؟ فقال له رسول الله ﷺ: أنت أخي في الدنيا والآخرة »[2].

وروى ابن حبان أن رسول الله ﷺ لما آخى بين أصحابه، اثنين اثنين، أبقى علياً من دونهم ثم قال له «**والذي بعثني بالحق! ما أخَّرتكَ إلاّ لنفسي....**»[3].

ولا بد من اعتبار مؤآخاة النبي ﷺ لنفسه مع علي بن أبي طالب[4] حدثاً بالغ الدلالة لكل المسلمين. فشرف أخوة النبي ﷺ لا يعلوه شرف. ومن المؤكد أنّ هكذا موقف يتخذه رسول الله ﷺ، لا يمكن أن يمرّ مرورَ الكرام. فكل المسلمين وقتها من مهاجرين وانصار عرفوا أنّ رسول الله ﷺ بدأ يشير لهم أنه يريد لعليّ دوراً مستقبلياً عظيماً في الإسلام. فالجميع حتماً لاحظوا أنّ رسول الله ﷺ لم يؤآخِ بين نفسه وبين عمّه حمزة مثلا، وهما من نفس الجيل، وآثر عليه ابن عمه، الذي هو من جيل أبنائه! لا شك أنه كانت من وراء ذلك أهدافِ ومقاصد نبوية لم تخفَ على أتباعه آنذاك.

وجاء أيضاً في سيرة ابن هشام أسماء مَن آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار. وهم كما يلي[5]:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ص١٢٩.

(٢) سنن الترمذي ج٥ ص ٣٠٠ حديث ٣٨٠٤ باب مناقب علي بن أبي طالب.

(٣) كتاب الثقات لابن حبان ج١ ص١٤٢.

(٤) ورغم أن مؤآخاة النبي ﷺ لنفسه مع عليّ لم ترد في صحيح البخاري، إلاّ أن الشارح الأبرز لصحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، أثبتها من مصادرها الأخرى وأكد عليها، وردّ على ابن تيمية الذي أنكرها بقوله «هذا ردّ للنص بالقياس »، كما جاء في فتح الباري ج٧ ص٢١١.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١٣٠.

حمزة بن عبد المطلب — مع زيد بن حارثة

جعفر بن أبي طالب(وكان حينها غائبا في الحبشة) — مع معاذ بن جبل

أبو بكر الصدّيق — مع خارجة بن زهير

عمر بن الخطاب[1] — مع عتبان بن مالك

أبو عبيدة عامر بن الجراح[2] — مع سعد بن معاذ

عبد الرحمن بن عوف — مع سعد بن الربيع

الزبير بن العوام — مع سلامة بن سلامة بن وقش

عثمان بن عفان — مع أوس بن ثابت بن المنذر

طلحة بن عبيد الله — مع كعب بن مالك

عمار بن ياسر — مع حذيفة بن اليمان

أبو ذر الغفاري — مع المنذر بن عمرو

سلمان الفارسي — مع أبي الدرداء

مصعب بن عمير — مع أبي أيوب

بلال بن رباح — مع أبي رويحة الخثعمي

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل — مع أبيّ بن كعب

وبعد أن انتهى من توطيد العلاقات الأخوية بين أصحابه، اتجه رسول الله ﷺ إلى وضع أسسٍ للعلاقة المستقبلية مع يهود يثرب. فكتبَ رسول الله ﷺ كتاباً «وادعَ فيه يهودَ وعاهدَهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم». وكان مما ورد في ذلك الكتاب «وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على مَن حاربَ أهلَ هذه الصحيفة. وإن بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم. وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم. وإن اليهود ينفقون مع

---

(١) ذكر البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص٦٩ أن النبي ﷺ آخى بين عمر وعويم بن ساعدة.

(٢) جاء في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص ٩٥٥ أن النبي ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة. وأما ابن حجر فقد ذكر في الإصابة ج٥ ص٢٨ أن الرسول ﷺ آخى بين أبي عبيدة ومحمد بن مسلمة الأوسي. وأكّد البخاري في صحيحه ج٥ ص٨٨ أن عبد الرحمن بن عوف تآخى مع سعد بن الربيع، وأن سلمان تآخى مع أبي الدرداء.

المؤمنين ما داموا محاربين. وإن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم.... وأنه لا تجار قريشٌ ولا مَن نصرَها، وإن بينهم النصر على مَن دهَم يثرب... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.... وإن الله جارٌ لمن برّ واتقى»[1].

وفي هذا النص، يظهر إدراك النبيﷺ للخطر المستقبلي الذي تمثله قريش، وقد تجلى ذلك في حرص النبيﷺ على الإشارة إلى قريش ودَهم يثرب في كتابه.

تاريخ الإسلام كتب يوم بدر

لم تكن معركة بدر حَدثا عادياً أبداً في مسيرة رسول اللهﷺ ودين الإسلام. ولا يمكن على الإطلاق عمل أي مقارنة بين التفاصيل المادية لتلك المعركة، تعداد كلا الجيشين المتحاربين وخسائرهما، وبين الأهمية التاريخية القصوى لذلك الاشتباك العسكري الذي جرى في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة. ليست المسألة هنا أن بضع مئات من الرجال تقاتلوا قرب عين ماء في الصحراء مما أسفر عن مقتل نحو من ثمانين رجلا، أو يزيدون قليلا من الجانبين، فذاك أمر قد حصل مثله كثيرا جداً بين العرب في الجزيرة، بل وسيحصل أكبر منه بما لا يقاس، من ناحية حجم القتال وشراسته والخسائر الناجمة عنه، بعد سنواتٍ قليلة، دون أن يترك مثل التأثير الهائل الذي تركته تلك المعركة.

كانت معركة بدر حَدَثا فاصلاً بين زمنين، وإيذاناً بنهاية حقبة وبدء أخرى. كانت منعطفاً حاسماً دخلته دعوة محمدﷺ في مسيرتها الواثقة نحو الظفر الأكيد. وتنبع الأهمية الاستثنائية لتلك المعركة من أنها أعلنت انهيار مجموعة من الضوابط، والاتفاقات الضمنية، والتفاهمات غير المكتوبة، وفتحت الأبواب على مصاريعها أمام صراع وجود لا يقبل أنصاف الحلول بين رسول اللهﷺ وبين قبيلة قريش.

لقد عبّرت معركة بدر عن تطوّر مهم قد استجدّ وتمثّل في أن محمداﷺ قد انتقل إلى الطور التالي من دعوته، وهو تأسيس مجتمع الإسلام ودولته. لم يعد ممكنا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١٢٨.

التعايش بين قبيلة قريش وابنها «غير البار» الذي أصبح تحدّيه لها يمثّل خطراً داهماً من الناحية المادية المباشرة، تماما كما كانت قريش بالذات تمثّل العائق الأعظم في وجه محمدﷺ الذي يحول بينه وبين إتمام رسالة ربه. كان لا بد من حسم، وهو ما حصل يوم بدر.

ومع انتهاء لهيب المعركة في ذلك اليوم، انتهت وإلى الأبد مجموعة من القيود التي كانت تضبط حركة طرفي الصراع:

- **حُرمة الدم بين بطون قريش وبني هاشم:** رغم كل البُغض الذي حملته صدور القرشيين تجاه محمد ﷺ ودعوته، ورغم كل الشراسة التي واجهته بها والأذى الذي أوقعته عليه، لم تكن حرمة الدم قد استبيحت حتى ذلك الوقت. فلم تكن قريش قد قتلت بشكل مباشر أيا من بني هاشم الذين كانوا هم سَند محمدﷺ الرئيسي وقاعدته التي تحميه وتتيح له هامشا للحركة من خلالها، ولا طبعاً أحداً من أبنائها الآخرين الذين اتبعوه. فكل الذين قتلتهم قريش مباشرة خلال الفترة المكية من دعوة الرسولﷺ كانوا لا يزيدون على بضعة أشخاص، وهؤلاء كانوا من الموالي والمستضعفين، من أمثال ياسر وسمية والديّ عمار. وحتى هذان، قتلهما أشخاص ينتمون إلى البطن القرشيّ الذي كانا من حلفائه والمحسوبين عليه، بني مخزوم. أي أنه حتى في حالة القتل المباشرة هذه، ولأشخاص من الضعفاء، كان يتم المحافظة على قاعدة حرمة الدم بين البطون القرشية! فقتل سمية وياسر، ما دام تم من قبل بني مخزوم بالذات، فلا غبار عليه من وجهة النظر القرشية.

- **بيعة الأنصار لرسول اللهﷺ:** لقد كانت بيعة العقبة، من قبل الأنصار لرسول اللهﷺ، هي في الأساس تعاقدا دفاعياً يلتزم فيه الأنصار بحماية رسول اللهﷺ والدفاع عنه وتمكينه من تبليغ رسالته بينهم. لم يرد حتى ذلك الوقت أي طلب من رسول اللهﷺ للأنصار أن يلتزموا معه بسياسة هجومية ضد قريش أو غيرها، وبالخصوص خارج يثرب. لقد قرر الأنصار يوم بدر أن يمضوا في المسيرة مع محمدﷺ إلى النهاية، مهما تكن التكاليف. أصرّ رسول اللهﷺ على معرفة رأي الأنصار في تلك المهمة الهجومية ضد قبيلة قريش خارج يثرب وكان جوابهم

الحاسم هو الطاعة للرسولﷺ في كل قراراته، أو كما قال متحدثهم «لو خضتَ بنا البحرَ لخضناه معك».

إرهاصات المعركة

كان الصدام بين قبيلة قريش والمسلمين بقيادة رسول اللهﷺ أمراً حتمياً، سيحدث حين تتبلور ظروف وأسباب مباشرة يتسبب بها أي من الطرفين. كانت مسألة وقت ليس إلاّ، قبل أن يأخذ الصراع الذي كان حتى ذاك غير مسلح بُعدَه العسكري المباشر. فالمدينة المنورة تقع على خطوط التجارة بين مكة والشام، وهو أمر بالغ الأهمية لقريش لأنه ببساطة يتهدد مصدر رزقها الرئيسي، ويضعه تحت رحمة عدوها اللدود، محمدﷺ، المنهمك في تأسيس وتوطيد سلطانه هناك.

ومن جهته كان رسول اللهﷺ يدرك أنه من المستحيل عليه أن يتمكن من إداء رسالته، ونشر دينه بين العرب، ما دامت قريش تصرّ على عدائه. لقد سبق لرسول اللهﷺ، لما يئس من إيمان قريش به، أن طالبَ كبارَها بأمرٍ بسيط وعادل جدا، وهو أن «يخلّوا بينه وبين العرب» فرفضوا وأصروا على منعهِ من أخذ أيةً فرصة للدعوة لدينه، حتى بعيدا جدا عنهم.

إذن لم تكن قريش مجموعة مسالمة موادعة، يمكن لرسول اللهﷺ أن يتجاهل وجودها، أو ببساطة أن يتقي شرّها بالابتعاد عنها. كانت قريش تمثّل ثقلاً مالياً ضخماً في الحجاز، بالإضافة إلى وزنها المعنوي الكبير في جزيرة العرب كونها بلد الكعبة. وكانت قريش ظاهرة الشنآن لرسول اللهﷺ ولا تتورع عن استخدام كامل قدراتها في معاداة الدين الجديد. بل إن قريشاً أرسلت إلى أهل يثرب رسالة تهديد صارخة مباشرة بعد هجرته إليهم «إنكم آويتم صاحبنا. وإنا نقسمُ بالله لتقاتلنّه أو لتخرجنّه، أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيحَ نساءكم»[1].

اعتبرَ رسولُ اللهﷺ أن ما أوقعته قريشٌ عليه وعلى أتباعه من ظلم شديدٍ في

---

(١) سيرة رسول اللهﷺ الرحيق المختوم، للمباركفوري ص٢١٤.

مكة، وقيامها باضطرارهم للهجرة وترك ديارهم، وفي حالات كثيرة الاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم في مكة، مبرراً كافياً يجيز له ولأتباعه أن يأخذوا حقهم من الذين ظلموهم عن طريق الاستيلاء على بعض أموالهم وقوافلهم التي يتاجرون بها مع الشام.

وبعد مرور سبعة شهور فقط على قدومه إلى يثرب، بدأ رسول الله ﷺ في تهديد قوافل قريش التجارية. وإلى أن وقعت معركة بدر في رمضان من السنة الثانية للهجرة، كان رسول الله ﷺ قد أرسل أربع سرايا لمحاولة جمع معلومات عن سير عير قريش، أو لاعتراضها. وقادَ بنفسه ثلاث حملات لنفس الغرض.

وما كان يميز هذه المحاولات كلها هو أنها صغيرة الحجم، تضم كل منها بضع عشرات من الرجال، وأنها كانت تقتصر على المهاجرين فقط، دون الأنصار. وفي الأغلب بقيادة أحد من آل بيته. وكانت هذه البعثات كلها تنتهي دون قتال: إما بأن لا تلحق بالقافلة في سيرها، أو بأن تلحق بها ولكن يتم التحاجز بينهم دون أن تشتبك معها. وكانت قوافل قريش دوماً تكون محروسة ببضع عشرات أو مئات من الرجال بقيادة أحد كبار رجالاتها من أمثال أمية بن خلف، أو أبي جهل، أو أبي سفيان[١].

العِير العظيمة

سمع الرسول ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام على رأس قافلة ضخمة «عير عظيمة» لقريش، ومعه ٣٠ رجلاً من قريش، فيهم عمرو بن العاص. فندَبَ رسول الله ﷺ المسلمين للخروج من أجل الاستيلاء على هذه القافلة. ولم يعتقد المسلمون أن حرباً ستقع، فخرج جزء منهم مع الرسول ﷺ وبقي جزء آخر في المدينة. ويبدو أن رسول الله ﷺ قدّر أن حجم هذه الأموال بلغ من الضخامة حَدًا يجعل من احتمالات ردّ فعل حربي لقريش أمراً ممكناً، بل متوقعاً. ولذلك سمَحَ، خلافاً لما كان يحصل قبل ذلك، للأنصار بالخروج معه هذه المرة، ولكنه لم يعلن للمسلمين أنهم خارجون للقتال.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٦ ـ ١١.

فخرج المسلمون مع رسول الله ﷺ، وكانت إبلهم لا تزيد على سبعين بعيراً، مما اضطرهم إلى التعاقب في ركوبها. وحتى رسول الله ﷺ كان يتعاقب الركوب على البعير مع عليّ بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنويّ. وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، يقال لها العقاب، والأخرى مع الأنصار[1].

في هذه الأثناء كان أبو سفيان يقترب من الحجاز قادماً من الشام. وكان أبو سفيان يدرك حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه في حماية أموال قريش. وكان أيضا يمتلك حسّا أمنياً رفيعاً! فهو كان يتحسس الأخبار عن رسول الله ﷺ ويحرص علَى معرفة نواياه وتحركاته. ونجح أبو سفيان في معرفة أخبار الرسول ﷺ وقيامه بانتداب أتباعه للخروج له.

وعلى وجه السرعة، قام أبو سفيان بإرسال الخبر إلى قريش في مكة، مُستنفراً زعماء قومه وداعياً إياهم إلى الخروج الفوري لإنقاذه. وفعلاً لم يتردد القرشيون، فالخروج لملاقاة محمد ﷺ وأتباعه كان يحقق ثلاثة اهداف معا:

١- حماية مصالحهم المالية والتجارية،

٢ - وفرصة ذهبية لإرهاب محمد ﷺ وإذلاله عن طريق إرغامه على التراجع والهزيمة أمام أتباعه، خوفاً من جبروت قريش أو الدخول في مواجهة حربية غير متكافئة مع قريش، لم تكن تشك أنها ستأتي لصالحها،

٣ - وأخيراً إرساء هيبة قريش بين العرب وبعث رسائل لمن يهمه الأمر أن قريشا لن تتهاون مع محمد ﷺ وجماعته الناشئة في يثرب.

إذن تجهز القرشيون بسرعة، وكانوا بين رجلين: إما خارجٌ بنفسه، وإما باعثٌ مكانه رجلا. وخرجت كل قريش للغزو، ولم يتخلف أحد من أشرافها باستثناء أبي لهب، الذي أرسل مكانه العاص بن هشام مقابل دين كان له عنده. وكان عدد مقاتلي قريش الذين خرجوا حوالي الألف.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٢٤ ـ ٢٣٧.

أتى الخبر لرسول اللهﷺ عن قريش ومسيرهم الكبير. وعرف الرسولﷺ أن كل أشراف قريش قد خرجوا، فعبّر عن ذلك بقوله لمن معه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

النبي يستكشف آراء أصحابه

وعَزمَ رسول اللهﷺ على المضي قدُماً وعدم التراجع أمام قريش. ولكنَ قراراً خطيراً كهذا لا بد وأن يستشير أصحابه، وبالتحديد الأنصار، حوله. فالرسولﷺ كان يدرك انه بذلك يضع الأنصارَ في مواجهة دامية مع قبيلة قريش لا يعلم عاقبتها إلاّ الله، فكان يجب أن يكون متأكداً من موافقة الأنصار على ذلك واستعدادهم لبذل التضحيات المطلوبة، وهي ولا شك عظيمة.

فطلبَ رسول اللهﷺ من أصحابه أن يسمعَ آراءهم.

جاء في صحيح البخاري عن ابن مسعود:

«شهدتُ من المقداد بن الأسود مَشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليّ مما عدل به!

أتى النبيﷺ وهو يدعو على المشركين. فقال: لا نقول كما قال قوم موسى اذهب أنت وربّك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك.

فرأيتُ النبيﷺ أشرقَ وجهُه وسرّه»[1].

ولكنّ رأي المقداد، على أهميته، ورغم أنه لاّ شك أدخل السرور في نفس رسول اللهﷺ، لم يكن كافياً. فلا بد من معرفة رأي الأنصار!

جاء في صحيح مسلم «أن رسول اللهﷺ شاورَ حين بلغه إقبال أبي سفيان. قال: فتكلمَ أبو بكر فأعرَضَ عنه، ثم تكلمَ عمرُ فأعرَضَ عنه.

فقام سعد بن عبادة فقال: إيّانا تريد؟ يا رسول الله! والذي نفسي بيده لو أمرتنا

---

(١) صحيح البخاري باب قول الله تعالى إذ تستغيثون ربّكم ج٥ ص٩٣.

أن نخيضها البحرَ لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا.

قال: فندَبَ رسولُ الله الناسَ فانطلقوا حتى نزلوا بدراً....»[1].

الآن فقط، وبعد أن تكلّم زعيم الخزرج، اطمأن الرسولﷺ وقرّت عينه بهذا الموقف التاريخي للأنصار، وتأكد أن بإمكانه أن يمضي قدُماً في المواجهة.

جيش النبي

وكان جيش المسلمين يوم بدر يتكون من ٣١٠ رجلاً يمكن تقسيمهم كما يلي[2]:

- الرسولﷺ وآل بيته من بني هاشم والمطلب وحلفاؤهم ومواليهم: ١٢ رجلاً.
- المهاجرون من قريش وحلفاؤهم ومواليهم: ٦٨ رجلاً. ولا بد من الإشارة إلى أن الغالبية من هؤلاء الـ ٦٨ رجلاً ليسوا من ذوي الأصل القرشي، وإنما من حلفاء وموالي لهم. وأما المهاجرون القرشيون حقاً فلم يكن عددهم يوم بدر يزيد عن ٣١ رجلاً، أي أن نسبتهم لم تتجاوز عُشرَ جيش الرسولﷺ.
- الفرع الأوسيّ من الأنصار وحلفاؤهم ومواليهم: ٦١ رجلا
- الفرع الخزرجيّ من الأنصار وحلفاؤهم ومواليهم: ١٧٠ رجلا

الكِبر والغرور

وبالعودة إلى أبي سفيان وقافلته، فهو قد اتخذ من الاحتياطات ما جعله ينجو بحمله. فقد غيّر مسار القافلة واتخذ طريق البحر وأصبح في مأمن من محمدﷺ

---

(1) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة بدر ص٦٨٨. ولم توضح رواية مسلم هذه ماذا قال أبو بكر ولا عمر.

ومعظم الروايات الأخرى في غير صحيح مسلم تفيد بأن صاحب ذلك القول هو سعد بن معاذ الأنصاري، وليس سعد بن عبادة. وربما حصل خلطٌ بين اسمي زعيمي الأنصار.

(2) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٩١-٣١٦. وورد تلخيص للأعداد في صحيح البخاري باب عدة أصحاب بدر ج٥ ص٩٣ بأن عدد المهاجرين كان نيفا وستين، والأنصار نيفا وأربعين ومائتين.

وأتباعه وصار بإمكانه أن يصل مكة بسلام. فأرسل أبو سفيان إلى رؤوس قريش الآخرين بالأخبار السعيدة بشأن القافلة، وأنهم الآن صار بإمكانهم الرجوع مطمئنين إلى مكة.

أصرّت قريش على موقفها. وقال أبو جهل «والله لا نرجعُ حتى نرِدَ بدراً. فنقيم عليه ثلاثاً. فننحرُ الجُزرَ ونطعِم الطعامَ، ونسقي الخمرَ وتعزف علينا القيان. وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. فامضوا»[1].

وفي رواية أخرى للطبري:

«قال ناسٌ من المشركين: إن العير قد انصرفت فارجعوا.

فقال أبو جهل: الآن إذ برز لكم محمدٌ وأصحابه؟ فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم. وقال: يا قوم لا تقتلوهم بالسلاح، ولكن خذوهم أخذاً فاربطوهم بالحبال»[2].

وأرسلت قريش خبيريها ليقدّرا لها عدد جيش محمدﷺ وتجهيزاته. فذهبا وجالا حول معسكر المسلمين وعايناهم وعادا إلى قريش بوصف دقيق وصادق عن ما رأياه:

«لا مَددَ ولا كمين. القوم ثلاثمائة إن زادوا قليلاً. ومعهم سبعون بعيراً. ومعهم فرسان.

ثم قال: يا معشر قريش! البلايا تحمل المنايا. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع! قومٌ ليست معهم منعَة ولا ملجأ إلاّ سيوفهم! ألا ترونهم خُرساً لا يتكلمون؟ يتلمّظون تلمّظ الأفاعي! والله ما أرى أن يقتل منهم رجلٌ حتى يقتل منّا رجلا! فإذا أصابوا منكم مثل عددهم، فما خيرٌ في العيش بعد ذلك؟ فارتأوا رأيكم!».

وحسب تعبير الثاني منهما:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٣٧.

(٢) تفسير الطبري ج١٠ ص٢٠.

«والله ما رأيتُ جَلَداً ولا عدداً ولا حلقة ولا كراعاً. ولكنـي والله رأيـتُ قومـاً لا يريدون أن يئوبوا إلى أهليهم! قوماً مُستميتين، ليست لهم مَنعة ولا ملجأ إلاّ سـيوفهم، زرق العيون كأنها الحصى تحت الحجف»[1].

وهذا الوصف من مندوبي قريش هو خير تعبير عن الحالة الحقيقية التـي كـان عليها الجيشان المتقابلان. فالجيش القرشـي، المتعـالي، المنـتفخ، المـدجج بـالأموال والسلاح، الذي يضم بصفوفه كل رموز الاستكبار والخيلاء، المدافع عن قـيم الحميـة الجاهلية وسمعة قريش بين العرب ومجدها التليد، يواجـه الآن مجموعـة قليلـة مـن المؤمنين المتحمسين المستعدين للموت في سبيل نصرة نبيهم، والذين لـيس لـديهم الكثير ليخسروه من متاع الدنيا.

وكان للتنافس على الزعامة والصدارة بين كبـار قـريش، وبـالأخص بـين أبـي جهل وعتبة بن ربيعة، دورٌ في دفع القرشيين إلى التمادي في سلوكهم المتعالي تجـاه محمدﷺ وجيشه، والاصرار على تجاهل المخاطر الكامنة فـي المضـي قـدُماً فـي مواجهة عسكرية مفتوحة.

وقد حصلت مزايدات بين الرجلين: فعندما سمع عتبة بن ربيعـة قـول خبيـريّ قريش في المجموعة المحيطـة بمحمـدﷺ، رأى أنـه لـيس فـي مصـلحة قـريش المضيّ في هكذا مواجهة مع هؤلاء، ودعا إلى الرجوع:

«ثم قال عتبة: أنشدكم الله في هذه الوجوه التي كأنهـا المصـابيح، أن تجعلوهـا أنداداً لهذه الوجوه التي كأنها وجوه الحيّـات!.... يـا قـوم أطيعـوني ولا تقـاتلوا هـذا الرجل وأصحابه واعصبوا هذا الأمر برأسي..... ولن تخلصوا إلى قتلهم حتـى يصـيبوا منكم عددهم، مع أني لا آمن أن تكون الدائرة عليكم...».

ولكن هذا الكلام العقلاني الذي صدر عن عتبة، دفع أبـا جهـل إلـى المزايـدة عليه، فاتهمه بالجبن وأشاع ذلك بين الناس:

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٦٢.

«سحرك يا عتبة، وجبنتَ حين التقت حلقتا البطان! الآن تخذل بيننا وتأمرنا بالرجوع؟ لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد».

وكانت ردّة الفعل المتوقعة من رجل كعتبة:

«يا مصفّر إسته، ستعلم أيّنا أجبن وألأم! وستعلم قريشٌ مَن الجبان.....»[1].

واندفع عتبة ليثبت لقريش أنه جديرٌ بالزعامة.

بدء القتال... ودور عليّ

خرج عتاة الكفر من قريش للبراز بين الصفين. ولم يرضوا إلاّ أن يقاتلوا آل الرسول! فإلى آل محمد يتوجّه البغض القرشيّ، والآن حانت الفرصة للقضاء على الذين تحدّوا قريشاً وآلهتّها:

«ثم خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، فدعوا إلى البراز. فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة.

فقالوا: ممن أنتم؟

قالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا إليكم حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد: أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا!

فقال رسول الله ﷺ: قم يا حمزة، قم يا عليّ، قم يا عبيدة.

فبارز عبيدة عتبة، فاختلفا ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه. وبارز حمزة شيبة فقتله مكانه. وبارز عليّ الوليد فقتله مكانه.

ثم كرّا على عتبة فذففا عليه، واحتملا عبيدة فحازوه إلى الرحل.

قيل أن عبيدة كان أسنّ المسلمين يوم بدر فقطعت رجله. فوضع رسول الله ﷺ رأسه على ركبته.

---

(1) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٦٤.

فقال: يا رسول الله: لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق منه بقوله حيث قال:

ونسلمه حتى نصرّع دونه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

وعاد مع رسول الله ﷺ من بدر وتوفي بالصفراء»[1].

وفيهم نزلت الآية القرآنية، فقد جاء في صحيح البخاري:

«عن أبي ذر رضي الله عنه قال: نزلت ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾، في ستة من قريش: علي وحمزة وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة»[2].

إذن بدأت المعركة بتلك الصدمة التي تلقتها قريش بمقتل ثلاثة من كبارها، من بني عبد شمس، على يد آل بيت الرسول ﷺ. كانت تلك المبارزة ضربة معنوية قوية تلقتها جموع قريش، ونصراً مبينا لآل بيت النبي ﷺ، رفع ولا شك من معنويات جيشه، وأزال الهيبة التي كان يشعر بها عامة أفراد جيشه من مواجهة قبيلة قريش، بكل هيلمانها وجبروتها، وهي تفوقهم عددا وعدة بما لا يقارن (ثلاثة أضعاف).

وبدأ القتال، والتحم الجيشان، واستعرت حمّى القتل، وسالت الدماء.

ولعب عليّ بن ابي طالب دوراً بطولياً لا مثيل له في تاريخ حروب العرب من قبل. كان عليّ هو الذراع الضاربة لرسول الله ﷺ. كان هو ذاته الأخرى، المقاتلة. كان يصول ويجول ويواجه رجال قريش فرادى ومجتمعين، يصرعهم واحداً تلو الآخر، ويخوض في دمائهم بلا تردد ودون أي حسابات. فكأنّ علياً كان أداة الانتقام الإلهي من كل أولئك الجبابرة الذين أذاقوا رسول الله ﷺ وأتباعه ألوان العذاب في مكة لسنوات طويلة. صحيحٌ أن علياً كان شاباً يافعاً في العشرينات من عمره، وفي ذروة قوته الجسدية آنذاك، إلاّ أنّ الشجاعة والإقدام والبطولة ليست مرتبطة بالضرورة مع القوة الجسمانية. كان عليّ استثنائياً في كل شيئ ذلك اليوم. لم يخش

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص ٣٥٧.

(٢) صحيح البخاري باب قتل أبي جهل ج٥ ص٩٥. والآية هي رقم ١٩ من سورة الحج.

على نفسه من الهلكة، ولم يراع أي اعتبارات في جهاده لكسر شوكة طغاة قريش.

كانت روح الإيمان تحرّك علياً وتجعله لا يتردد في مواجهة مجاميع القرشيين على ذلك النحو العجيب. إنها ذات الروح التي جعلت علياً يقرر افتداء نبيه ومربّيه محمدﷺ بروحه قبل عام من ذلك الزمن، فينام في فراشه ليمكنه من النجاة، هي الآن تدفعه إلى التصدّي لجبابرة قريش والقضاء عليهم، مُظهراً قوة وتصميماً لا نظير له.

ليس في هذا الوصف لما فَعَله عليّ مبالغة. فقد ذكر أصحاب السير والمغازي أسماء الذين قتلوا من قريش في المعركة، ومَن الذي قتل كلاً منهم من جانب المسلمين. وقد عَدّد ابن اسحق، والواقدي، أسماء ٥٠ شخصاً من قتلى قريش يوم بدر[1]. وكان الذين قتلهم عليّ من هؤلاء، أو اشترك معه آخرون في قتلهم، ٢١ رجلاً!

وهكذا، فإن علياً بن أبي طالب، على الرغم من كونه واحداً من ٣١٠ مقاتلاً في جيش الرسولﷺ، إلاّ أن نصيبه وحده من «دماء قريش» كان حوالي الأربعين بالمائة!

لم يبقَ بطنٌ من بطون قريش إلاّ وفقد بعضاً من كبار رجاله على يد علي بن أبي طالب في ذلك اليوم. لم يوفّر عليّ بني أمية وعبد شمس (فقتل منهم حنظلة بن أبي سفيان، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن سعيد والوليد بن عتبة)، ولا بني مخزوم (فقتل منهم مسعود بن أمية، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة وعبد الله بن المنذر وحاجب بن السائب)، ولا عبد الدار (النضر بن الحارث)، ولا عامر بن لؤي (معاوية بن عامر)، ولا سهم (العاص بن منبه بن الحجاج، وأبا العاص بن قيس) ولا تيم (عمير بن عثمان) ولا جُمح (أوس بن معير) ولا أسد بن عبد العزى (نوفل بن خويلد) ولا غيرهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣١٨_٣٢٣. وقد روى الواقدي في كتاب المغازي ج١ ص١٤٧ ـ ١٥٢ قريباً من ذلك.

وَتَرَهُم كلهم عليٌ، وتركَ في نفوس القرشيين حقداً وبغضاً لن يزول أبداً. كان حقدهم عظيماً هائلاً تنوء بحمله الجبال.

وأيضاً لا بد من الإشارة إلى الدور المهم الذي لعبه حمزة بن عبد المطلب في المعركة. فهو أيضاً قتل بنفسه مجموعة غير قليلة من رجالات قريش. إلاّ أن حمزة كان في الخمسينات من عمره، وبالتالي فإن دوره كان قيادياً أكثر، من ابن أخيه عليٍّ. فهو كان يقوم بدور القائد العسكري الميداني لجيش الرسولﷺ. وهو بحكم دوره ذاك، وبحكم السن، كان ذا نصيبٍ عظيم جداً، أيضاً، من حقد وبغض قريش.

وبالإضافة إلى علي وحمزة، أبدع المؤمنون الذين كانوا مُستضعفين في مكة. فقد أتيحت الفرصة لهؤلاء لينتقموا من الجبابرة ممن أذاقوهم الوان العذاب بلا رحمة. فقاتل عمار بن ياسر وزيد بن حارثة وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وعبد الله بن مسعود ببسالة وإخلاص. ومن هؤلاء تميّز عمار، فقتل اثنين أو ثلاثة من جيش قريش.

وطبعاً كان الأنصار من أهل يثرب أساسَ الجيش وعموده الفقري. وبرز من بين صفوفهم عاصم بن ثابت وأبو أسيد الساعدي وأبو دجانة وسعد بن الربيع وابنا عفراء وسعد بن معاذ.

دور المهاجرين القرشيين يوم بدر كان محدوداً للغاية

فكان غالبية هؤلاء من الذين لم يريدوا مواجهة قريش من الأساس، وبالتالي عارضوا خروج النبيﷺ إلى بدر:

«كرِهَ خروجَ رسول اللهﷺ أقوامٌ من أصحابه إلى بدر. قالوا: نحن قليلٌ، وما الخروج برأي.

حتى كان في ذلك اختلافٌ كثير»[1].

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص١٣١. وأورد الواقدي في موضع آخر «وأبطأ عن النبيﷺ بشرٌ كثيرٌ من أصحابه. كرهوا خروجَه، وكان فيه كلامٌ كثير واختلاف»ج١ ص٢٠٠.

وقد عبّرت الآية القرآنية تعبيراً بليغاً عن هؤلاء ﴿... وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهونَ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾[1].

وعن تفاصيل دور بعض المشهورين منهم:

لم يشهد كلٌّ من طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد المعركة أصلاً. فقد روى ابن الأثير:

«كان رسول الله قد بعث قبل أن يخرج إلى بدر طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان الأخبار ثم رجعا إلى المدينة فقدماها يوم الوقعة ببدر»[2].

ولما رجع طلحة إلى المدينة وعرف نتائج المواجهة، وشاهد أسرى قريش أذلاء بأيدي الأنصار في المدينة، قام بفداء عشرة من هؤلاء الأسرى بماله[3].

وكذلك لم يشهد معركة بدر عثمان بن عفان. ويذكر المحدثون أن السبب كان لأن زوجته رقية، ابنة الرسول ﷺ، كانت مريضة، فبقي عثمان معها في المدينة ليرعاها، ولم يخرج مع الجيش. وعثمان كان هو الأموي الأصل الوحيد الذي كان مُرشحاً ليكون إلى جانب الرسول ﷺ في المعركة.

وأبو بكر لم يكن من رجال الحرب والبطولة، ولم تؤثر عنه أية مواقف مميزة في المعارك، ولم يرد ما يشير إلى أي دور له في القتال. وقد ذكر أصحاب المغازي أن أبا بكر بقي مع النبي ﷺ في العريش الذي أقامه له الأنصار يوم بدر. ومن حيث المبدأ، لم يكن أبو بكر مسروراً لوصول الأزمة بين الرسول ﷺ وقريش حدّ القتال. هو كان يكره حربَ قبيلته قريش، وكان يسعى إلى تفاهمٍ سلميّ معها. وعندما

---

(١) سورة الأنفال آية ٥ـ٦.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج٢ ص ٣٠٧. وفي رواية ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢٥ ص٥٧ أن طلحة وسعيد كانا في تجارة في الشام.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٣١. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢٥ ص١٠٠.

استشار الرسولﷺ أصحابَه بشأن المضي قدُماً في المواجهة، لمّا أتاه خبر خروج قريش، قال له أبو بكر:

«يا رسول الله، إنها والله قريشٌ وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت! والله ما آمنت منذ كفرت. والله لا تسلم عزّها أبداً! ولتقاتلنّك، فاتهب لذلك أهبته، وأعدّ لذلك عُدّته»[1].

وطبعاً لا يمكن اعتبار قول أبي بكر هذا دعماً معنوياً للنبي ﷺ في تلك الظروف الحرجة، وخاصة قوله: «ما ذلّت منذ عزّت»، وبالذات إذا ما قيس بما سمعه النبيﷺ من المقداد وسعد وعموم الأنصار من كلامٍ ينمّ عن روح جهادية عالية «لو خضتَ بنا البحرَ لخُضناه معك»[2].

وحتى عندما انتهت المعركة، استمر أبو بكر في نفس منهاجه، الودّي في جوهره، تجاه قريش. وكان الأسرى القرشيون الذين سقطوا في قبضة المسلمين، يتوقعون المساعدة من قبل أبي بكر للوساطة لدى الرسولﷺ:

«فقالوا: لو بعثنا إلى أبي بكر، فإنه أوصل قريشٍ لأرحامنا»[3] وفعلاً لم يخيّب أبو بكر ظنهم، وذهب إلى النبيﷺ ثلاث مرات، محاولاً في كل منها أن يقنع النبيﷺ بالعفو عنهم والمحافظة على حياتهم.

قال أبو بكر: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! قومُك! فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم. وأبعدهم منك قريب. فامنُن عليهم، مَنّ الله عليك. أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذتَ قوة للمسلمين. فلعلّ الله يُقبل بقلوبهم إليك».

ولما لم يُجبه النبيﷺ أول مرة، حاول أبو بكر مرة أخرى بعدها، فقال للرسول ﷺ:

---

(1) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٤٨.

(2) روى السيوطي في تفسير الدر المنثور ج٣ ص١٦٣ أن سعد بن معاذ الإنصاري قال لرسول اللهﷺ: «... فانظر الذي أحدثَ الله إليكَ فامضِ له. فصِل حبالَ مَن شئتَ واقطع حبالَ مَن شئتَ. وعادِ مَن شئتَ وسالِم مَن شئتَ. وخُذ من أموالنا ما شئتَ».

(3) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص١٠٧.

«هم عترتك وقومك. لاتكن أول مَن يستأصلهم! يهديهم الله خيرٌ من أن تهلكهم»[1].

وأما عبد الرحمن بن عوف فقد كان يتمنى لو أن الرسولﷺ يستمع له ولا يدخل في مواجهة مع قريش من حيث المبدأ. وقد اعترف عبد الرحمن بن عوف بأنه كان هو ومَن معه من المهاجرين القرشيين المقصودين في الآية القرآنية ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ حين قال:

«نزل الإسلامُ بالكُرهِ والشدّة، فوجدنا خيرَ الخيرِ في الكُره! خرجنا مع النبيﷺ من مكة فأسكننا سبخة بين ظهراني حَرّة، فجعل الله لنا في ذلك العُلا والظفر.

وخرجنا مع رسول اللهﷺ إلى بدر على الحال التي ذكر الله ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ـ إلى قوله ـ وهم ينظرون﴾ فجعل الله لنا في ذلك العُلا والظفر.

فوجدنا خيرَ الخير في الكُره»[2].

وموقف عبد الرحمن هذا ينسجم مع شخصيته الرافضة للقتال أصلاً، وهو التاجر الغني صاحب العلاقات الرفيعة مع وجوه قريش.

وعندما أصرّ رسول اللهﷺ على الخروج، ولم يكن لعبد الرحمن أي عذر، خرجَ معه. ولكنه أمضى يوم المعركة مشغولاً بأمر آخر: إنقاذ أحد رموز الكفر والإجرام القرشي من الموت!

وفيما يلي وصفٌ للمحاولة المستميتة التي بذلها عبد الرحمن بن عوف لحماية أمية بن خلف يوم بدر:

جاء في السيرة النبوية لابن هشام أن أمية بن خلف كان صديقاً لعبد الرحمن

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص١٠٨.

(٢) تفسير الدر المنثور للسيوطي ج٣ ص١٦٤.

ابن عوف بمكة، وأنه، ومعه ابنه علي، سلّم نفسَه له حينما هُزمت قريشٌ يوم بدر، وذلك من أجل حمايته ومن بعدها أفتداؤه وتحريره عن طريق ماله الكثير. ولكنّ بلال بن رباح رآه مع عبد الرحمن، فأصرّ على قتل عدو الله، وصرخ بأعلى صوته منادياً الأنصارَ حتى اجتمعوا عليه وقتلوه، رغماً عن إرادة عبد الرحمن الذي بذل جهداً خارقاً في الذود عن أمية، دون جدوى.

وفيما يلي النص عن عبد الرحمن أن أمية قال له :

«... قال: هل لك فيّ، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك؟

قلت: نعم، ها الله ذا. قال: فطرحتُ الأدراع من يدي، وأخذتُ بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجتُ أمشي بهما.

قال ابن هشام: يريد باللبن، أن مَن أسرني افتديتُ منه بإبلٍ كثيرة اللبن.

... قال عبد الرحمن : فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي ـ وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد. فيقول بلال أحدٌ أحد.

فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا!

قلت: أي بلال، أبأسيري!

قال: لا نجوتُ إن نجا!

قلت: استمع يا ابن السوداء!

قال: لا نجوتُ إن نجا! ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصارَ الله! رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا.

قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة وأنا أذبّ عنه. فأخلف رجلٌ السيف، فضرب رجلٌ ابنه فوقع. وصاح أمية صيحة ما سمعتُ مثلها قط.

فقلت: انجُ بنفسك، ولا نجاء بك فوالله ما أغني عنك شيئاً.

فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما.

قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي وفَجَعني بأسيري»[1].

فلولا إصرار بلال على قتل الجبّار الظالم، أمية، الذي كان يعذّبه فوق صخور مكة الملتهبة، ولولا فزعة الشباب المتحمسين من الأنصار، لكان عبد الرحمن قد نجح في مسعاه، ولكانَ جَنّبَ أمية مصيرَه الأسود، الذي كان ولا شك يستحقه.

ويبدو أن عمر بن الخطاب كان رأيه بشأن الخروج لحرب قريش قريباً من رأي أبي بكر، لأن الإمام مسلم في صحيحه ذكر أن النبيﷺ قد أعرض عن كلام كليهما حين استشار أصحابه[2]. لكن عمرَ نفسَه قال فيما بعد، أثناء فترة خلافته، أنه قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة أثناء معركة بدر[3].

ولم يكن ممكناً حتى لصحابيٍّ قديم من الطبقة الأولى أن يتجرّد من المشاعر الإنسانية الطبيعية، وروابط الدم والقربى. فقد روى أصحاب السير[4] أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة قد تأثر كثيراً وانفعل حين رأى أباه عتبة قتيلاً في أعقاب المعركة، فكان «كئيباً وقد تغير لونه»، حتى اضطر الرسولﷺ أن يواسيه ويخفف عنه ويدعو له بالخير.

ولا يعني ذلك أنه لم يساهم المهاجرون على إطلاقهم في الجهاد المباشر يوم بدر. فبعضهم كان فعالاً ومؤثراً. ومن هؤلاء كان الزبير بن العوام الذي قال ابن اسحق أنه قتل اثنين من جيش قريش وهما السائب بن أبي السائب وعبيدة بن سعيد بن العاص.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٤٨. وقد أخرج المباركفوري في سيرة الرحيق المختوم ص٢٤٧ نفس الرواية، وأضاف عليها وصفاً لاستبسال ابن عوف في الدفاع عن أمية «ان عبد الرحمن بن عوف قال لأمية: أبرك. فبَرِكَ. فألقى نفسَهُ عليه، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه. وأصابَ بعضُ السيف رجل عبد الرحمن بن عوف»

(٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة بدر ص٦٨٨.

(٣) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٩٢. وهناك شك بشأن صحة هذه الرواية لأن العاص بن هشام ليس خالَ عمر. فقد ذكر ابن الجوزي في «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» ص١٦ نقلاً عن الزبير بن بكار أن الصحيح هو أن أم عمر هي حنتمة بنت هاشم بن المغيرة.

(٤) مثلاً السيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٤٥٣.

وقريشٌ أيضاً لم تكن راغبة بقتل أبنائها المهاجرين.

وفي الجانب الآخر، لم تكن الزعامات القرشية راغبة في قتال أبناء قريش ممن كانوا مع محمدﷺ. كان القرشيون يريدون المحافظة على حياة أبنائهم المسلمين، وردّهم معهم إلى مكة إلى دينهم القديم. ويبدو هذا واضحاً في قول منبه بن الحجاج قبيل المعركة:

«يا معشر قريش: أنظروا غداً إن لقينا محمداً وأصحابه، فاتقوا على شبانكم وفتيانكم هؤلاء، وعليكم بأهل يثرب، فإنا إن نرجع بهم إلى مكة يبصروا ضلالتهم وما فارقوا من دين آبائهم»[١].

نتائج المعركة

كانت معركة بدر مجزرة حقيقية للصف القيادي الأول في قريش. فقد قتل قادة البطون القرشية ذوو الشرف والمكانة. وكان ذلك أمراً لم يخطر قط ببال قريش، ولم يتصوره أحد. بل كان النقاش بينهم هو حول مدى الصعوبة أو السهولة في القضاء على محمدﷺ ومَن معه، وهل سيأخذونهم أسرى أم سيقتلوهم في الميدان. ولذلك لم يصدّق الكثيرون من أهل مكة أخبار ما جرى ببدر حين وصلتهم أول الأمر، وظنوها كذباً. ومما زاد الطين بلة، أن بعض عظماء قريش وكبارها قتلوا بطريقة مهينة على يد فتية من الأنصار، ممن لا يناظروهم «شرَفاً» ولا مكانة! وذاك مثلاً كان مصير أبي جهلَ الّذي قتله أخوان صغيران في العمر، معاذ ومعوذ ابنا عفراء، قبل أن يجده عبد الله بن مسعود على قيد الحياة وبه رَمَق فيجهز عليه. وتحول «قُليب «بدر إلى مقبرة جماعية لسادة قريش حين ألقيت فيه جثثهم معاً.

وبالإضافة إلى هؤلاء الذين قتلوا، كان هناك عددٌ كبير ممن استسلموا وسقطوا أسرى بيد المسلمين. وكان منهم ذوو مكانة رفيعة: ابنٌ لأبي سفيان، وأخٌ لخالد بن الوليد، وزعيمٌ لبني عامر بن لؤي. وسيق هؤلاء أذلاء مكبلين بالأصفاد إلى يثرب.

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٥٥. وفي رواية أخرى أنه قال «فأبقوا في أنسابكم هؤلاء».

ولن تنسى قريشٌ في يوم من الأيام ما فعله علي بن أبي طالب برجالها يوم بدر. وسوف يصمم القرشيون على جعله يدفع الثمن باهظاً. وسوف تقفُ ضدّه بالإجماع في قادم الأيام، وستحاربه وتثأر منه. وسوف تبقى دماء القرشيين التي سفكها عليّ يوم بدر عنصرَ توحيدٍ وتجميع لكل البطون القرشية ضد عليّ، الذي سيتحوّل إلى عدوها الأبرز بعد وفاة النبيﷺ.

غزوة أُحُد

الموتورون

كانت نتائج حرب بدر قاسية على مشركي مكة. فقريش لا يمكن أن تهدأ حتى تثأر لكرامتها، ولمن قتل من أشرافها.. حتى لقد أعلنوا منع البكاء على قتلاهم، لأن ذلك يذهب الحزن، ويطفئ لهيب الأسى من جهة... ولأنه يدخل السرور على قلوب المسلمين من جهة أخرى...

«لما رجعت قريشٌ إلى مكة قام فيهم أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش: لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة، ولا يبكيهم شاعر. وأظهروا الجلدَ والعزاء، فإنكم إذا نُحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر، أذهب ذلك غيظكم فأكَلّكم ذلك عن عداوة محمد وأصحابه. مع أنه إن بلغ محمدا وأصحابه شمِتوا بكم، فيكون أعظم المصيبتين شماتتهم. ولعلكم تدركون ثأركم.

والدهن والنساء عليّ حرام حتى أغزو محمداً!

فمكثت قريش شهراً لا يبكيهم شاعر، ولا تنوح عليهم نائحة»[1].

ولكنهم عادوا وتراجعوا عن هذا القرار، فسمحوا للنساء بالبكاء، لأن ذلك، حسبما قدّروا، يثير المشاعر، ويذكر الرجال بالعار الذي لحق بهم:

«فناحت قريش على قتلاها شهراً. ولم تبقَ دارٌ بمكة إلاّ فيها نوح. وجزّ النساء

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص١٢١.

شعرَ الرؤوس. وكان يؤتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه فتوقف بين أظهرهم فينوحون حولها. وخرجنَ إلى السكك فسترنَ الستورَ في الأزقة، وقطعنَ الطرق. فخرجنَ ينُحنَ»[1].

وكان على رأس الموتورين أبو سفيان وزوجته هند!

فمن شدة حقد أبي سفيان أنه رفض حتى أن يفتدي بماله ـ كما فعل غيره من القرشيين ـ ابنه عمرو الأسير يوم بدر لأن محمداً صلى الله عليه وآله في تلك الحالة سيكون ليس فقط قتل ابنه بل وأخذ ماله أيضاً! «فقيل لأبي سفيان: افد عَمراً ابنك. قال: أيجمعُ على دمي ومالي؟! قتلوا حنظلة، وأفدي عمراً! دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم»[2].

وقال أبو سفيان لمعاوية بن نوفل، بعد فترة طويلة من يوم بدر:

«والله ما ناحت امرأة من عبد شمس على قتيل لها إلى اليوم، ولا بكّاهنّ شاعر إلاّ نهيته، حتى ندرك ثأرنا من محمد وأصحابه! وإني لأنا الموتور الثائر، قتل ابني حنظلة، وسادة أهل هذا الوادي! أصبح هذا الوادي مقشعراً لفقدهم».

«ومشى نساء قريش إلى هند بنت عتبة فقلنَ: ألا تبكينَ على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟

فقالت: حلقي! أنا أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بنا، ونساء بني الخزرج! لا والله حتى أثأر من محمد وأصحابه. والدهن عليّ حرام إن دخل رأسي حتى نغزو محمداً. والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي بكيتُ. ولكن لا يذهبه إلاّ أن أرى ثأري بعينيّ من قتلة الأحبة.

فمكثت على حالها لا تقرب الدهن، وما قربت فراش أبي سفيان من يوم حلفت حتى كانت وقعة أحد»[3].

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص١٢٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٦٥. وقد نجح أبو سفيان في استرجاع ابنه عمرو عن طريق الغدر بواحد من أهل يثرب الذي كان أتى مكة معتمراً آمناً،وهو سعد بن النعمان، فأوقع به وحبَسه مما دفع أهله في المدينة إلى الطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يطلق سراح ابن أبي سفيان لمبادلته برجلهم، فاستجاب لطلبهم.

(٣) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص١٢٤.

«وكان أبو سفيان، حين رجع إلى مكة، ورجع فلّ قريش من بدر، نذرَ ألاّ يمسّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتى يغزو محمداً.

فخرج في مائتي راكبٍ من قريش لتبرّ يمينه. فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نبيب، من المدينة على بريد أو نحوه.

ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل حتى أتى حيي بن أخطب، فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه. فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم. فاستأذن عليه فأذن له، فسقاه وقراه وبطن له من خبر الناس.

ثم خرج في عقب ليلة حتى أتى أصحابه، فبعث رجالا من قريش فأتوا ناحية منها يقال لها العريض. فحرقوا في أصوار من نخل بها، ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفا له في حرث لهما، فقتلوهما. وانصرفوا راجعين»[1].

ومن الموتورين البارزين أيضا، كان صفوان بن أمية. ومن شدّة حقده على رسول الله صلى الله عليه وآله نجح في إقناع قريبه الشاعر أبي عزة الجمحي، في الانضمام إلى مجهودات قريش في الانتقام من محمد صلى الله عليه وآله عن طريق تأليف الشعر لتحريض القبائل على المسلمين. وكان أبو عزة الجمحي هذا قد سقط أسيرا يوم بدر، فمنّ النبي صلى الله عليه وآله عليه وأطلقه، إشفاقا منه على بناته الخمس، ولكنه اشترط عليه أن لا يظاهر عليه أبدا.

ولكن أبا عزة لم يستطع أن يقاوم إغراءات صفوان المالية، فقد وعده بالغنى، وتعهّد له إن أصابه مكروه أن يتكفّل ببناته الخمس ويضمّهنّ إلى بناته هو شخصيا!

وأرسل صفوان بن أمية رجلا يدعى عمير بن وهب إلى المدينة المنورة في مهمة لاغتيال الرسول صلى الله عليه وآله، بعد أن تعهد له بقضاء ديونه، وكفالة عياله إن هو قتل. وزوده صفوان ببعير وجهزه بسيفٍ مشحوذ مسموم، وبقي في مكة ينتظر الأخبار

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٥٤٠.

السعيدة أن تأتيه بقتل محمدﷺ. وكان يقول لقريش «أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر» ويسأل الركبان «هل حدث بالمدينة من حدث؟ ».

ولكن الرياح لم تأت بما تشتهيه سفن صفوان. فالذي حصل أن المندوب الذي ذهب وفي نيته قتل محمدﷺ انتهى به الأمر إلى الإيمان بدعوته حين رآه في المدينة! وكان لذلك وقع الصاعقة على صفوان «فقدم رجل من المدينة فسأله صفوان عن عمير. فقال: أسلم. فلعنه صفوان ولعنه المشركون بمكة. وقالوا: صبأ عمير. وحلف صفوان ألاّ يكلمه أبدا. وطرح عياله»[1].

وتمّت استعدادات قريش للانتقام

تولى أبو سفيان قيادة قريش في جهدها العظيم للثأر من رسول الله ﷺ. وقد أنفق من أمواله الشخصية مبالغ ضخمة للتجهيز والاستعداد للحرب والثأر من المسلمين حتى نزلت فيه آية قرآنية:

«قال سعيد بن جبير عن قوله تعالى ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾: نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبيﷺ، سوى من استجاب له من العرب»[2].

وقررت قريش أن تتخلى عن تجارتها العظيمة التي كانت في قافلة الشام، لترصد كل ريعها لقتال رسول اللهﷺ.

وأرسلت قريشٌ وفداً من أبنائها الفصيحين، برئاسة عمرو بن العاص، إلى غيرها من العرب، ليدعوهم إلى النصرة والمساعدة «فألبوا العربَ وجمعوها، وبلغوا ثقيفاً فأوعبوا».

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص١٢٧.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص١٥٩. وكذلك ورد في تفسير الطبري وتفسير ابن كثير، وأيضا في تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٣ ص٤٣٩. والآية هي رقم ٣٦ من سورة الأنفال.

وقررت قريش اصطحابَ النساء معها إلى ميدان الحرب، لأنه حسب تعبير صفوان بن أمية «فإنه أقمَنُ أن يُحفظكم ويذكرنكم قتلى بدر، فإن العهد حديث، ونحن قومٌ مستميتونَ لا نريد أن نَرجعَ إلى دارنا حتى ندركَ ثأرَنا أو نموتَ دونه»[1].

فأصبحَ الجيش القرشي جاهزاً للانطلاق، وذلك في شوال من السنة الثالثة للهجرة. وقد وصف ابن كثير خروج قريش المهول:

«فخرجت قريشٌ بحدها وحديدها وجدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة. وخرجوا معهم بالظعن، التماس الحفيظة وألاّ يفرّوا.

وخرج أبو سفيان صخر بن حرب، وهو قائد الناس، ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة

وخرج عكرمة بن أبي جهل بزوجته ابنة عمه: أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة. وخرج عمه الحارث بن هشام بزوجته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة.

وخرج صفوان بن أمية ببزرة بنت مسعود بن عمرو الثقفية

وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج، وهي أم ابنه عبد الله بن عمرو»[2].

وخرج معهم الفتيان بالمعازف، والغلمان بالخمور. وكان جيشهم ثلاثة آلآف مقاتل، بالإضافة إلى الأحابيش الذين استأجرهم أبو سفيان، ومائة رجلٍ من قبيلة ثقيف. وكان معهم ثلاثة آلاف بعير، و٢٠٠ فارس، و٧٠٠ دارع، كلهم بقيادة أبي سفيان، الذي صار زعيم قريش الأول بعد مقتل أشرافها الأكبر سناً يوم بدر.

وبلغ الحقد القرشيّ حداً لا سابقة له، إلى درجة أن قريشاً طرحت فكرة نبش قبر أم رسول الله ﷺ واستخراج رمّتها! وذلك أثناء سير الجيش في الأبواء، وهي

---

(١) هذا الاقتباس وما قبله من كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٠١ـ٢٠٢. وأوعبوا: جمعوا.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٢١. والظعن جمع ظعينة، وهي المرأة ما دامت في هودج.

المنطقة التي دفنت فيها آمنة بن وهب! ولكن أبا سفيان ومَن معه غضّوا الطرف عن هذه الفكرة، كي لا تكون سنّة تؤخذ عليهم، فيلجأ خصومهم من القبائل الأخرى إلى نبش قبور أجدادهم في حالات الانتقام والثأر. وهذا النص:

«.... فتعالوا ننبش قبر أم محمد، فإن النساء عورة. فإن يُصب من نسائكم أحداً قلتم هذه رمّة أمّك! فإن كان بَرّاً بأمّه كما يزعم، فلعمري ليفادينّكم برمّة أمه. وإن لم يظفر بأحد من نسائكم، فلعمري ليفدينّ رمّة أمه بمال كثير إن كان بها بَرّاً. واستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا»[1].

وكانت هند بنت عتبة قد قدّمت وعوداً عظيمة لوحشيّ، وهو غلامٌ لجبير بن مطعم، الذي قتل عمّه طعيمة بن عديّ يوم بدر، أن هو نجح في قتل محمد ﷺ أو عليّ أو حمزة. وكان وحشيّ هذا ماهراً جداً باستخدام الحربة والإصابة بها.

وكان التشكيل العسكري للجيش القرشيّ على النحو التالي:

«واستعملوا خالد بن الوليد على الميمنة، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ولهم مجنّبتان مائتا فرس. وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية ـ ويقال عمرو بن العاص ـ وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة. ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة»[2].

الرسول يخرج لمواجهة قريش

وبلغت أخبار قريش وجمعها وخروجها رسولَ الله ﷺ والمسلمين في المدينة. ويُروى أن عمه العبّاس بن عبد المطلب، الذي كان مع قريش في مكة، كتبَ له رسالة يخبره فيها بمسير قريش ويحذره من حشدها.

وافقَ رسول الله ﷺ على رأي العناصر الأكثر حماساً من أتباعه، الذين

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٠٦.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٢٠.

استبشروا خيراً بقدوم جيش قريش لأن ذلك سيتيح لهم الفرصة للجهاد في سبيل الله. وكان أولئك الذين فاتتهم فرصة المشاركة في القتال يوم بدر الأكثر إصراراً على التوجه لملاقاة جيش قريش خارج المدينة:

«فقال رجالٌ من المسلمين ممن كان فاتهم بدر: يا رسول الله! أخرج بنا إلى اعداء الله.

لا يرون أنا جبنّا عنهم أو ضعفنا».

ويبدو أن حجم الانتصار الهائل يوم بدر، ونجاح المسلمين في القضاء على معظم قيادات قريش بدون خسائر كبيرة، رغم قلة الإمكانيات المادية، كان له دورٌ في دفع الكثير من المسلمين إلى الانقياد وراء عاطفتهم والاندفاع بشكلٍ سريعٍ في المواجهة الحربية التي خططت لها وأرادتها قريش. كان الكثيرون قد آمنوا بأن الله لا بدّ وأن ينصر نبيّه وعباده المؤمنين على عدوهم الكافر، مهما كانت الظروف:

«وقال رجالٌ من أهل السنّ وأهل النية، منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبة، في غيرهم من الأوس والخزرج:

إنا نخشى يا رسول الله أن يظنّ عدوّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جُرأة منهم علينا.

وقد كنتَ يوم بدر في ثلثمائة رجل فظفركَ الله عليهم، ونحن اليوم بشرٌ كثير، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا»[1].

فخرج الرسول ﷺ وجيشه من المدينة، وكانوا نحواً من ألف رجل. وسرعان ما تعرّض رسول الله ﷺ إلى طعنة في الظهر، حينما قرر المنافقون من أتباعه خذلانه والانسحاب راجعين إلى المدينة!

«فقال عبد الله بن أبيّ لمن معه: أطاعهم رسول الله ﷺ وعصاني. والله ما ندري على ما نقتل أنفسنا معه؟! أيها الناس ارجعوا.

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢١٠.

فعزلَ من العسكر ثلاثمائة رجل ممن تبعه، ورجعَ بهم إلى المدينة»[1].

وهكذا فقدَ الرسولﷺ حوالي ثلث جيشه بسبب تأثير ونفوذ الزعيم القبائلي المنافق عبد الله بن أبيّ.

ولكنَ النكوصَ لم يكن من شيمة رسول اللهﷺ. كما أن التراجع بالجيش بعد الانطلاق من المدينة كان أمراً كارثياً بكل المقاييس. ولم يبقَ لرسول اللهﷺ من خيار سوى المضيّ قدماً بمن بقي معه ليواجه الجيش القرشي الذي يبلغ أربعة أضعاف جيشه، مُسَلّماً بإرادة الله.

بدء المواجهة: عليّ يصرعُ أصحابَ لواء قريش

وقبيل بدء المعركة، أظهر أبو سفيان دهاءً سياسياً لافتاً، حينما حاول إثارة الفرقة بين محمدﷺ وأنصاره. فقد:

«أرسل أبو سفيان رسولاً فقال: يا معشر الأوس والخزرج: خلّوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم، فإنه لا حاجة لنا بقتالكم!

فردّوه بما يكره»[2].

روى ابن كثير[3]: فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذنَ الدفوفَ يضربنَ بها خلف الرجال ويُحرضنَ على القتال. فقالت هند فيما تقول:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

وتقول أيضاً:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

---

(١) كتاب «الثقات» لابن حبان ج١ ص٢٢٢ ـ ٢٢٤ .

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص١٩٥.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٣١.

«كان اللـواء أولاً مـع علـي بـن أبـي طالـب. فلمـا رأى رسـول اللهﷺ لـواء المشركين مع عبد الدار قال: نحن أحق بالوفاء منهم. أخذ اللواء مـن علـي بـن أبـي طالب، فدفعه إلى مصعب بن عمير»[1].

وابتدات المعركة بمقتل حامل لواء قريش، وعظيم بني عبـد الـدار، طلحـة بـن أبي طلحة، على يد علي بن أبي طالب:

«وصاح طلحة بن أبي طلحة: مَن يبارز؟
فقال عليّ عليه السلام: هل لكَ في البراز؟
قال طلحة: نعم.

فبرزا بين الصفين ورسول اللهﷺ جالسٌ تحـت الرايـة عليـه درعـان ومغفـرٌ وبَيضة. فالتقيا فبدَرَه عليٌ فضَربَه على رأسه، فمضى السيف حتـى فلـقَ هامتـه حتـى انتهى إلى لحيته

.... فلما قتل طلحة، سُرّ رسول اللهﷺ وأظهر التكبير، وكبرّ المسلمون»[2].

وتتابعَ أقرباء طلحة على حمل راية قريش من بعده، وتتابعَ مقتلهم على التوالي على يد علي! فهكذا وصف ابن هشام كيف قتل أبو سعد بن أبي طلحة:

«..... لما اشتدّ القتال يوم أحُـد، جلـس رسـول اللهﷺ تحـت رايـة الأنصـار. وأرسل رسول اللهﷺ إلى عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: أن قدم الراية.

فتقدم عليّ فقال: أنا أبو الفصم، ويقال: أبو القصم، فيما قال ابن هشام.

فناداه أبو سعد بن أبي طلحة، وهو صاحب لواء المشركين: أن هل لـكَ يـا أبـا القصم في البراز من حاجة؟
قال: نعم.

فبرز بين الصفين، فاختلفا ضربتين فضربه عليّ فصرعه. ثم انصـرفَ عنـه ولـم

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٣٩. لأن مصعب بن عمير هو من بني عبد الدار أيضا.
(٢) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٢٦.

يُجهز عليه. فقال له أصحابه: أفلا أجهزتَ عليه؟ فقال: إنه استقبلني بعورته، فعطفتني عنه الرحم، وعرفتُ أن الله عز وجل قد قتله.

ويقال: إن أبا سعد بن أبي طلحة خرج بين الصفين. فنادى: مَن يبارز برازاً؟ فلم يخرج إليه أحد.

فقال: يا أصحاب محمد: زعمتم أن قتلاكم في الجنة، وأن قتلانا في النار. كذبتم واللات! لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إليَّ بعضكم!

فخرج إليه علي بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين، فضربه عليّ فقتله»[1].

وجاء في تاريخ الطبري:

«لما قتلَ عليّ بن أبي طالب أصحابَ الألوية، أبصرَ رسول الله جماعة من مشركي قريش.

فقال لعلي: احمِل عليهم!

فحملَ عليهم، ففرّقَ جَمعَهم وقتلَ عمر بن عبد الله الجمحي.

ثم أبصرَ رسولُ الله جماعة من مشركي قريش.

فقال لعلي: احمِل عليهم!

فحملَ عليهم ففرّق جَماعتهم وقتل شيبة بن مالك، أحد بني عامر بن لؤي.

فقال جبريل: يا رسول الله: لإن هذه للمواساة. فقال رسول الله: **إنه منّي وأنا منه**. فقال جبريل: وأنا منكما. فسمعوا صوتاً يقول: **لا فتى إلاّ عليّ ولا سَيفَ إلاّ ذو الفقار**»[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٦٧. وقد بقيت هذه من إحدى سمات الإمام عليّ طوال حياته: أن يشيح بوجهه عن عورة خصومه في البراز حين يكشفونها، ويدعهم يفرّون بعارهم، حتى لو كانوا أشدّ الأعداء. فقد ذكر ابن كثير في السيرة النبوية ج٣ ص٤٠ أن عليا كرر نفس الموقف في معركة صفين مع كل من بسر بن أرطأة وعمرو بن العاص، وأن ابن العاص كان يعيّر بها.

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص ١٩٧. ولا شك أن لجوء الرواة إلى الحديث عن سماع صوت جبريل وهو يمتدح عليا، هو تعبير آخر عن حجم بطولة علي في المعركة.

وقتل رجال بني عبد الدار بالتتابع، وهم يحملون لواء قريش الذي ورثوه أباً عن جد، إلى أن سَقط أخيراً على الأرض ولم يجد مَن يرفعه! فقام عبدٌ حبشيٌ لبني عبد الدار يدعى صؤاب برفعه والقتال دونه إلى أن قتل. ومن ثم قامت امرأة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية برفعه لقريش![1].

ولاحَ النصر لجيش الرسول ﷺ:

«... قتل أصحابُ اللواء، وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوون، ونساؤهم يدعون بالويل، بعد ضرب الدفاف والفرح....»[2].

عَبدُ قريشٍ يغتالُ أسدَ الله

كعادته، كان لحمزة بن عبد المطلب بلاءٌ عظيم في ساحة القتال. ورغم أن حمزة كان يلعب دور القائد العام لجيش الرسول ﷺ، إلا أنه كان لا يتردد في خوض المعارك بنفسه وبسيفه مع أشرس الأعداء. وفي بداية المعركة قام حمزة بمبارزة اثنين من المشركين وقتلهما: أرطأة بن عبد شرحبيل وسباع بن عبد العزى.

وبقي كذلك إلى أن قام العبد الحبشي باغتياله غدراً. وقد وصف القاتلُ، وحشيٌ، بنفسه كيف قتل حمزة:

«... فخرجتُ مع الناس، وكنتُ رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذفَ الحبشة قلّما أخطئ بها شيئاً.

فلما التقى الناس خرجتُ أنظر حمزة وأتبصّره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهدّ الناسَ بسيفه هدّا، ما يقوم له شيئ.

فوالله إني لأتهيأ له، أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلمّ إليّ يا ابن مقطعة البظور! فضربَهُ ضربة كأن ما أخطأ رأسه.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٧٢.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٢٩.

وهززتُ حربتي، حتى إذا رضيتُ منها، دفعتها عليه، فوقعت في ثنّته، حتى خرجت من بين رجليه. وذهب لينوء نحوي، فغُلِب. وتركته وإياها حتى مات.

ثم أتيته فأخذتُ حربتي، ثم رجعتُ إلى العسكر فقعدتُ فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة...»[1].

الهزيمة

يبدو أن ما حصلَ كان تراجعاً مؤقتاً للجيش القرشي، نتجَ عن الصدمة المعنوية الكبيرة التي تمثلت بمقتل كل حَمَلة لوائه، واحداً تلو الآخر، في بداية المواجهة. ولكن العناصر القيادية الفاعلة من الجيش القرشي لم تكن قد قالت كلمتها بعد.

وبثاقب بصيرته وحكمته في القيادة، كان الرسولﷺ قد وجّه جيشَه إلى ضرورة الحذر من مباغتات قوات قريش. وقد ثبت أن الذي احتاط له الرسولﷺ، وحرص على تأمينه قبل المعركة، كان بالفعل ذا أهمية قصوى في مجرى الأحداث. يتابع الواقدي:

«وتقدم رسول اللهﷺ إلى الرماة فقال: احموا لنا ظهورَنا. فإنا نخاف أن نؤتى من ورائنا. والزموا أماكنكم لا تبرحوا منه وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم. وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا».

ولكن الطمع في الغنائم، من قبل جيش المسلمين، أدى إلى كارثة. فمن أجل المشاركة في نهب متاع وأموال الجيش القرشي المتراجع، ترك الرماة مواقعهم، خلافاً لأوامر الرسولﷺ:

«فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا، حتى أجهضوهم عن العسكر، ووقعوا ينتهبون العسكر.

قال بعض الرماة لبعض: لمَ تقيمون هنا في غير شيء؟ قد هزم الله العدو،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٦٦. وثنته تعني المنطقة في أسفل بطنه ما بين السرة والعانة. وينوء أي ينهض متثاقلاً. وسباع بن عبد العزى كانت أمه ختانةً بمكة ولذلك قال له حمزة «يا ابن مقطعة البظور».

وهـؤلاء اخـوانكم ينتهبـون عسـكرهم. فـادخلوا عسـكر المشـركين، فـاغنموا مـع اخوانكم...

وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون، وخلّوا الجبل وجعلوا ينتهبون...»[1].

«فلما انصرف الرماة وبقي مَن بقي، نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبـل وقلـة أهله. فكرّ بالخيل، وتبعه عكرمة في الخيل، فانطلقا إلى بعض الرماة فحملـوا علـيهم. فراموا القومَ حتى أصيبوا، ورامى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبله، ثم طـاعنَ بـالرمح حتى انكسر، ثم كسر جفن سيفه فقاتلهم حتى قتل»[2].

وقد روى نسطاس، مولى صفاون بن أمية، الـذي حضـر المعركـة مـع جـيش قريش، تفاصيل ذلك الانقلاب الذي حصل يوم أحد نتيجة انكباب المسـلمين علـى نهب الغنائم:

«ودنا القوم مـن بعضـهم، فـاقتتلوا سـاعة، ثـم إذا أصـحابنا منهزمـون، فـدخل أصحاب محمدٍ عسكرَنا ونحن في الرحال. فأحدقوا بنا، فكنتُ فيمن أسروا.

وانتهبوا العسكر أقبحَ انتهاب. حتى انّ رجلاً منهم قال: أين مال صفوان بن امية؟

فقلت: ما حَمَلَ إلاّ نفقة، هي في الرّحل.

فخرج يسوقني حتى أخرجتها مـن العيبـة خمسـين ومائـة مثقـال. وقـد ولّـى أصحابنا وأيسنا منهم. وانحاش النساء فهن في حجرهن، سِلمٌ لمن أرادهن.

وصار النهب في أيدي الرجال.

فإنّا لعلى ما نحن عليه من الاستسلام إلى أن نظرتُ إلـى الجبـل، فـإذا الخيـل مقبلة، فدخلوا العسكرَ فلم يكن أحدٌ يردّهم. وقد ضيّعت الثغور التي كان بهـا الرمـاة، وجاؤوا إلى النهب، والرماة ينتهبون. وأنا أنظر إليهم متـأبّطي قسـيّهم وجعـابهم. كـل رجل منهم في يديه شيئ قد أخذه.

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٣٠.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٣٢.

فلما دخلت خيلنا دخلت على قوم غارّين آمنين. فوضعوا فيهم السيوف فقتلوا قتلاً ذريعاً. وتفرق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا وأجلوا عن عسكرنا، فرجعنا متاعنا بعد، فما فقدنا منه شيئا. وخلّوا أسرانا، ووجدنا الذهب....»[1].

وأضاف الواقدي واصفاً تأثير الهجوم المباغت والمركز على صفوف المسلمين: «واختلط المسلمون، وصاروا يُقتَلون ويضرب بعضهم بعضاً، ما يشعرون به من العَجَلة والدّهش».

واستغل المشركون الاضطراب الذي أصاب صفوف المسلمين ليشنوا هجوماً مركزاً يستهدف شخص رسول الله ﷺ، ووصلوا إليه بالفعل:

«وقاتلَ مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل. وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ. فرجع إلى قريش فقال: قتلتُ محمداً!

فلما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله ﷺ اللواءَ علي بن أبي طالب، وقاتلَ عليّ بن أبي طالب ورجالٌ من المسلمين.»[2].

وهذا التعبير الوارد في النص الذي أورده ابن هشام «وقاتل علي بن أبي طالب ورجالٌ من المسلمين»، يدل بلا شك على عِظم الدور الذي لعبَه عليّ في تلك الأوقات الصعبة، إلى درجة أن البقية أدرجوا ضِمناً معه بقوله «ورجالٌ من المسلمين»!

وكانت صرخة ابن قمئة «قتلتُ محمداً» نقطة تحوّل في المعركة. فقد صَدّقَ كثيرٌ من المسلمين ذلك، خاصة وأن القتل كان قد استعر بالفعل في صفوفهم. وأسقط في يد الكثيرين منهم، وبدا لهم أن كل شيء قد انهار، فنبيّهم قد قتل وانتصر المشركون!

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٣١. وغارين تعني غافلين.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٦٧.

وقال ابن الجوزي:

«صاحَ الشيطان يوم أحُد: قتل محمد! فقال قومٌ: لئن كان قتل لنعطينّهم بأيدينا. إنهم لعشائرنا وإخواننا. ولو كان محمدٌ حياً لم نُهزم. فترخّصوا في الفرار»[1].

وقد قال عمر بن الخطاب وهو يستذكر تلك الظروف الصعبة «لمّا صاحَ الشيطانُ (قُتِل محمد)، أقبلتُ أرقى في الجبل كأني أُروِيّةٌ»[2].

وقد عبّرت الآية القرآنية عن ذلك الموقف العصيب حين نزلت مؤنّبة المسلمين:

﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم﴾[3].

ووصف ابن كثير الوضع الصعب الذي وجد رسول الله ﷺ نفسه فيه أثناء المعركة بسبب هزيمة وفرار معظم أصحابه:

«فأتى ابن قمئة الحارثي فرمى رسولَ الله ﷺ بحجر فكسرَ أنفه ورباعيته وشَجّه في وجهه فأثقله. وتفرقَ عنه أصحابه، ودخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة. وجعلَ رسولُ الله ﷺ يدعو الناس: إليّ عبادَ الله! إليّ عبادَ الله!»[4].

«وكان أربعةٌ من قريش قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، وعَرَفَهم المشركون بذلك: عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص، وابن قميئة، وأبيّ بن خلف.

ورمى عتبة يومئذ رسولَ الله ﷺ بأربعة أحجار وكسرَ رباعيته ـ أشظى باطنها، اليمنى السفلى، وشُجّ فِيّ وجنتيه حتى غابَ حَلَق المِغفر في وجنته، وأصيبت ركبتاه فجُحِشتا..»[5].

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ج٢ ص٣٥. وتعبير «لنعطينهم بأيدينا» يعني الاستسلام للعدو.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٩٥. والأُروِيّة هي الأنثى من الوعول.

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٣.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٤٤.

(٥) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٤٣.

وأظهر رجالٌ من الأنصار استبسالاً شديداً في الدفاع عن رسول الله ﷺ، فقاتلوا من أجله حتى الموت:

«وقال رسول الله ﷺ حين غَشيَه القوم: مَن رجلٌ يشري لنا نفسه؟

فقام زياد بن السكن في نَفَرٍ خمسةٍ من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً ثم رجلاً، يُقتلون دونه..»[1].

وحتى أم عمارة المازنية لم تتمالك نفسها حين رأت ما حلّ برسول الله ﷺ بعد أن فرّ معظم أصحابه وتركوه هدفاً للقرشيين، لا يدافع عنه سوى عليّ وعددٌ قليل من قومها من الأنصار، فحملت السلاح وباشرت القتال بنفسها، وواجهت بشجاعة نادرة ابن قمئة الذي حاول قتلها فأصابها بجراح. وقد قالت أم عمارة مرة لمن سألتها عن أثر جرحٍ عميق في عاتقها «ابن قمئة، أقمأه الله! لما ولى الناسُ عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجى! فاعترضتُ له أنا ومصعب بن عمير، وأناسٌ ممن ثبَتَ مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان».

وقد روى الواقدي أن رسول الله ﷺ قد عبّر عن امتنانه وتقديره لموقف أم عمارة البطولي، فقال «لمَقامُ نسيبة بنت كعب اليومَ خيرٌ من مقام فلان وفلان»[2].

وتألق أبو دجانة الأنصاري في الذود عن النبي ﷺ «وترّس أبو دجانة دون رسول الله ﷺ بنفسه، يقع النبْل في ظهره وهو منحنٍ عليه»[3].

وخلال كل تلك الظروف الصعبة والرهيبة، لم يفارق عليّ رسولَ الله لحظة واحدة في خضم المعركة. وقد ذكر ابن كثير أن الإمام أحمد روى عن أنس «أن المشركين لما رهقوا النبي ﷺ، وهو في سبعة من الأنصار ورجلٍ من قريش، قال: مَن يردّهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟ فجاء رجُلٌ من الأنصار فقاتَل حتى قتل. فلما

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٧٥.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٦٩. ولم يوضح الراوي مَن هما الذان تم استبدال اسميهما ب «فلان وفلان».

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص٣٩.

رهقوه أيضاً قال: مَن يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟ حتى قُتل السبعة. فقال رسول اللهﷺ: ما أنصفنا أصحابنا»[1].

وبعد أن أوقفَ عليّ والمجموعة الأنصارية التي استشهد معظم افرادها الخطرَ الداهمَ على حياة الرسولﷺ، وصَلَ معه إلى فم الشِعب وقد أصيب بجراح، وبدأ يحاول علاجه:

«فلما انتهى رسول الله إلى فم الشعب، خرج عليّ بن أبي طالب حتى ملأ درقته من المهراس ثم جاء به إلى رسول الله ليشرب منه، فوجد له ريحاً فَعافَه فلم يشرب منه. وغسَلَ عن وجهه الدم وصبّ على رأسه وهو يقول: اشتدّ غضب الله على مَن دَمى وجه نبيّه»[2].

وهكذا فرغم الإصابات، فقد نجا رسول اللهﷺ من الموت.

«وانطلق رسول اللهﷺ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة. فلما رأوه، وضَعَ رجلٌ سهماً في قوسه يرميه. فقال: أنا رسول الله.

ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول اللهﷺ، وفرح رسول اللهﷺ حين رأى أن في أصحابه مَن يمتنع به.

فلما اجتمعوا وفيهم رسول اللهﷺ ذهب عنهم الحزن. فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه. ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا»[3].

يتضح من النص أن الرسولﷺ كان هو الذي يفرّج عن أصحابه الفارّين ويعيد إليهم الروح، بعد أن كانوا قد يئسوا وانهاروا إلى درجة أن بعضهم من الذين هربوا إلى فوق الصخرة قد فكروا في التوبة والعودة إلى حضن قريش: قبيلتهم الأم!

وشيئاً فشيئاً، ومع انتشار خبر نجاة رسول اللهﷺ من الموت، بدأ المسلمون

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٤ ص٢٩. وربما تكون هناك أسباب سياسية دفعت الراوي أنس بن مالك، أو مَن نقل الخبرَ عنه، إلى التعبير عن علي بن أبي طالب بقوله «ورجلٌ من قريش».

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص ٢٠٠.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٤٥.

يجتمعون حوله مرة أخرى. ورغم الخسائر الفادحة في صفوفهم، والإصابات الكثيرة، إلاّ أنه يبدو أن قريشاً قدّرت أنها لن تستطيع أن تستأصل المسلمين عن بكرة أبيهم. اكتفت قريشٌ بذلك الانتصار الضخم وقررت العودة إلى مكة، بعد أن شفت غليل صدورها.

موقف المهاجرين القرشيين يوم أحُد

ذكر الواقدي[1] روايتين توضحان الانفعالَ العاطفي الذي شعر به بعض أصحاب النبيﷺ في بداية المعركة حين رأوا أقرباء لصيقين لهم ضمن الجيش القرشي وقد أظهروا مقداراً كبيراً من العداء تجاه الرسولﷺ والمسلمين، وكيف أن الرسولﷺ طلب منهم، رحمة بهم، عدم قتالهم، فلم تحصل بينهم مواجهة:

«وطلعَ يومئذ عبدُ الرحمن بن أبي بكر على فرس، مُدججاً لا يُرى منه إلاّ عيناه. فقال: مَن يبارِز؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق. فَنَهَضَ إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله: أبارزه؟ وقد جَرّد أبو بكر سيفه. فقال رسول اللهﷺ: شِم سيفك، وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك»

ورُوي عن سعد بن أبي وقاص قوله بشأن أخيه عتبة، الذي كان مُصمّماً على قتل النبيﷺ «ولقد تخرقتُ صفوف المشركين مرتين أطلب أخي لأقتله، ولكن راغ مني رَوَغان الثعلب. فلما كان الثالثة قال لي رسول اللهﷺ: يا عبد الله ما تريدُ؟ تريد أن تقتل نفسك؟

فكففتُ»

ورغم هاتين الروايتين، يمكن القول بشكل عام أنه، كما كان الحال يوم بدر، لم تكن قريشٌ تريد قتل أبنائها الموجودين مع محمدﷺ. وبدورهم، لم يكن المهاجرون القرشيون يريدون سفك دماء أبناء قبيلتهم القرشيين. كانت العداوة الحقيقية محصورة بين قريش والنبي ﷺ وآله من بني هاشم والمطلب بالإضافة إلى أنصاره من الأوس والخزرج.

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٤٥ وص٢٥٧.

وهناك العديد من الشواهد أثناء المعركة تدل على ذلك. ومنها موقف ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري تجاه عمر بن الخطاب.

فقد روى الواقدي أن ضراراً أقبلَ مهاجماً، وهو على فرسه، يلوّحُ برُمحه، وطعَنَ رجلاً من الأنصار بقناته فقتله، وهو عمرو بن معاذ، وقال متفاخراً بفعلته ومستهزئاً بعقيدة الإسلام «لا تعدمن رجلاً زوّجكَ من الحور العين». ولكن ضراراً نفسَه عندما لحقَ بعمر بن الخطاب بعد قليل، وكان في متناول يده، لم يقتله، بل جعله ينجو بنفسه وهو يقول له: «يا ابن الخطاب! إنها نعمة مشكورة. والله ما كنتُ لأقتلك»![1].

مع ملاحظة أن ضراراً هذا كان حريصاً جداً على طلب الأكابر من الأوس والخزرج ليشفي قتلهم غليل صدره، كما هو معلوم.

بل أن ضراراً هذا قال شعرا[2] بعد معركة أحد يعبّر فيه عن التشفّي البالغ على قتلى المسلمين وعن ابتهاجه الشديد لقتل حمزة:

فغودِرَت منهم قتلى مجدلّة ... كالمعز أصرده بالصردح البرد
وحمزة القرم مصروعٌ تطيف به ... ثكلى وقد حُز منه الأنف والكبدُ
كأنه حين يكبو في جديته ... تحت العجاج وفيه ثعلب جسد
حوارٌ ناب وقد ولى صحابته ... كما تولّي النعام الهارب الشرد
وقد تركناهم لطير ملحمة ... وللضباع إلى أجسادهم تفِدُ

فكيف يمكن تفسير أن شخصاً جاهليّا حقوداً موتوراً مثل ضرار، يحرص على سلامة عمر بن الخطاب، رغم أنه كان قادراً على قتله، إلى درجة أن يقول له صراحة إنه لا يريد به أذى؟ لا بد أن الولاء للقبيلة، كان أساس سلوك ضرار، الذي لا يرى في عمر سوى ابناً لقريش.

ولما اشتد القتال وحمي الوطيس لم يلبث معظم المهاجرين القرشيين أن فرّوا،

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٨٢. ومثل ذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢٤ ص٣٩٣.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص ١٥٠.

وصعدوا إلى الصخرة على الجبل. وبسبب شراسة ذلك الهجوم الموجّه ضد شخص رسول الله ﷺ، وما أعقبه من اضطراب في صفوف المسلمين، لم يستطع معظمهم حتى أن يستمعوا إلى نداءات الرسول ﷺ بالثبات.

وجلس هؤلاء على الصخرة، ومعنوياتهم في الحضيض، بعد أن ابتعدوا عن لهيب المعركة:

«انتهى أنسُ بن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم.

فقال: فما يجلسكم؟

قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم استقبلَ القومَ، فقاتلَ حتى قتل.»[1].

ويبدو أنهم بعد أن اعتقدوا أنّ رسول الله ﷺ قتل، أخذوا يفكرون بالاستسلام، والعودة إلى قبيلتهم.

روى الطبري:

«وفشا في الناس أن رسول الله قد قتل.

فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان. يا قوم: إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٧٦. نفس هذه الرواية وردت في تاريخ الطبري ج٢ ص١٩٩ وفيها ذكر عمر وطلحة أيضا. وروى السيوطي في تفسير الدر المنثور ج٢ ص٨٠ اعتراف عمر بن الخطاب بالفرار عن رسول الله ﷺ يوم أحد والصعود إلى الجبل. وذكر ابن حبان في كتاب «الثقات» ج١ ص٢٢٨ نفس الرواية وفيها إسما عمر وطلحة. وروى الواقدي في كتاب المغازي ج١ ص٢٨٠ نفس الرواية وفيها اسم عمر فقط. ووردت نفس الرواية في البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص٣٩ وفيها اسما عمر وطلحة.

قال أنس بن النضر: إن كان محمدٌ قد قتل فإن ربّ محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد. اللهم! إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاءً، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء. ثم شدّ بسيفه فقاتلَ حتى قتل»[1].

واضحٌ أن الحديث في هذا النص يدور عن المهاجرين القرشيين بالتحديد، بدليل: قومكم. فهم فكروا في أخذ الأمان من أبي سفيان حتى يرجعوا إلى حُضن قبيلتهم، لأن الرسولَ قتل!

وذكر ابن كثير أن الآية القرآنية ﴿وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكمُ ومَن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً﴾ قد نزلت في أولئك الرهط من الصحابة الذين قالوا: (إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم)[2].

وذكر السيوطي في تفسير نفس الآية:

«لمّا كان يوم أحد وانهزموا.

قال بعض الناسَ: إن كان محمدٌ قد أصيب، فأعطوهم بأيديكم. إنما هم إخوانكم»[3].

وبقي معظم المهاجرين القرشيين على هذه الحال إلى أن علموا أن رسول اللهﷺ لم يُقتل، بل ما زال ثابتاً في الميدان. وعند ذلك بدأوا بالعودة إليه. ويبدو أنهم قد شعروا بالندم والخجل من موقفهم وتركهم للرسول ﷺ في الوقت العصيب وكيف أن إخوانهم من الأنصار قدموا عدداً ضخماً من الشهداء، بخلافهم.

وتتحدث رواياتٌ عن استبسالٍ أظهره طلحة بن عبيد الله. وقد رَوى طلحة أن إصبعه قد شُلت وهو يتقي النبال عنَ رسول اللهﷺ «وسئل طلحة: يا أبا محمد: ما أصاب إصبعك؟ قال: رَمى مالك بن زهير الجشمي بسهم يريد رسول اللهﷺ،

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص١٩٩. وأيضاً البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص٢٦.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٤٥. والآية هي رقم ١٤٤ من سورة آل عمران.

(٣) تفسير الدر المنثور للسيوطي ج٢ ص٨١ ومثل ذلك رواه الواحدي في أسباب نزول الآيات ص٨٣.

وكان لا تخطئ رميته، فاتقيتُ بيدي عن وجه رسول اللهﷺ فأصاب خنصري، فشُلّتْ فشلّ إصبعه»، وعن قيام سعد بن أبي وقاص برمي السهام التي كان يناوله إياها الرسولﷺ وهو يقول له «إرمِ، فداكَ أبي وأمي»[1]، وكذلك عن قيام أبي عبيدة بن الجراح بانتزاع الحلقتين المعدنيتين التين دخلتا وجه رسول اللهﷺ بأسنانه حتى سقطت ثنيتاه فأصبح أهتماً[2].

وأما الأسوأ موقفاً فهو عثمان بن عفان بلا جدال. فقد فرّ من الميدان، وذلك بإجماع كل المحدثين والمؤرخين وأصحاب المغازي والسير[3].

ولم يكن انهزام عثمان عابراً أو مؤقتاً، أو ناتجاً عن ضغطٍ طارئ ولا ظرفٍ قاهر، بل كان فراراً معيباً، تظهر فيه كل صور الحرص على النفسِ وعدم الرغبة وعدمَ الاستعداد لمواجهة قبيلته قريش. لقد ولّى عثمان، ومعه شخصان آخران من المسلمين الذين آثروا النجاة بأنفسهم، وهربوا حتى وصلوا مكاناً بعيداً جداً، غير مكترثين بما يجري للمسلمين ونبيّهم من ورائهم، يقال له «الأعوص»، حيث أقاموا فيه ثلاث ليال، إلى أن عادوا إلى المدينة، معتذرين، بعد أن عرفوا أن رسول اللهﷺ واتباعه قد نجوا، رغم هزيمتهم.

وبحسن خلقه المعهود، ولإدراكه أنه ليس كل الناس أبطالاً مستعدين للجهاد والتضحية، عفا عنهم النبيﷺ ونزلت بذلك آية قرآنية «ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم».

روى الطبري المزيد من التفاصيل عن الفرار المعيب:

«وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله حتى انتهى بعضهم إلى المنقى دون الأعوص. وفر عثمان بن عفان، وعقبة بن عثمان وسعد بن عثمان رجلان من

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٥٤ وص٢٤١.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص٨٥ وورد مثل هذا ايضاً في السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٧٤. ولكن الواقدي في المغازي ج١ ص٢٤٧ ذكر أن الأثبت هو أن الذي نزع الحلقتين من وجه رسول اللهﷺ كان عقبة بن وهب بن كلدة، وليس أبو عبيدة.

(٣) فقد ذكر ذلك البخاري، مثلا، في صحيحه ج٥ ص١٢٦ باب قول الله تعالى إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم.

الأنصار حتى بلغوا الجلعب - جبلاً بناحية المدينة مما يلي الأعوص - فأقاموا به ثلاثاً ثم رجعوا إلى رسول الله. فزعموا أن رسول الله قال لهم: لقد ذهبتم فيها عريضة»[1].

هذه كلها مواقف وشواهد من يوم المعركة للمشهورين من المهاجرين القرشيين. وهي تدلّ على أن دورهم، في العموم، كان ضئيلاً وهامشياً إذا ما قيس بدور وأهمية الأنصار وآل الرسولﷺ.

ولا يعني ذلك أن كل المهاجرين القرشيين كانوا يُراعون رابطة الدم والقربى أثناء وجودهم مع النبيﷺ في صراعه الدامي مع قريش. فالبعض منهم أظهر صفاءً عقائدياً حقيقياً ومميزاً، وعلى رأس هؤلاء كان مصعب بن عمير، الذي انصهر تماماً مع الأنصار وأصبح واحداً منهم بسبب وجوده بينهم لعدة سنوات كمندوب عن النبيﷺ لنشر الإسلام بينهم. وصَمَد مصعبُ مع رسول اللهﷺ في الأوقات العصيبة وبذل روحَه وهو يدافع عنه. فكانت خسارة رسول اللهﷺ فادحة بفقده.

الخسائر

ومن المهم جداً النظر إلى خسائر المسلمين، وهو ما من شأنه أن يعطي صورة واضحة وحقيقية عمّن كان بالفعل يقاتل قريشاً إلى جانب رسول اللهﷺ، ويصمد معه في الشدائد، ويضحّي في سبيله. فقد ورد في سيرة ابن هشام ذكرُ مَن استشهد من المسلمين في المعركة. وعدد ابن اسحق[2] أسماء ٦٥ شهيدا كلهم من الأنصار باستثناء أربع:

حمزة بن عبد المطلب
عبد الله بن جحش (وهو حليفٌ لبني أمية، من بني أسد بن خزيمة)
مصعب بن عمير (من بني عبد الدار)
شماس بن عثمان (من بني مخزوم)

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٠٣. وكذلك روى ابن كثير في البداية والنهاية ج٤ ص٣٢.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص١١٥ - ١١٩.

أي أنه من المهاجرين القرشيين سقط شهيدان فقط، مقابل ٦١ شهيداً من الأنصار عدّدهم ابن اسحق[1]. وفي هذا أبلغ الدلالة على أن المهاجرين من ذوي النسَب القرشي ـ باستثناء آل الرسول ـ لم يكن لهم دورٌ فعالٌ في الجهاد الحربي الذي خاضه الرسول ﷺ، إلاّ القلة منهم. ولم يكونوا يشكلون هدفاً لقبيلة قريش، إلاّ في حالات نادرة. ولم تكن هناك عداوة شرسة بين المهاجرين وبين قبيلتهم قريش. ويبدو أن قُريشاً كانت تنظر لهم على أنهم أبناؤها الذين ضللهم محمد ولكنهم سيبقون حتماً أبناءً لها.

وإذا كان من الممكن لبعض رواة الأخبار، في فترة متأخرة ولأسباب سياسية، أن يزجّوا بأسماء عدد من المشهورين من المهاجرين القرشيين ويُدخلوهم في مواقف بطولية معينة من أجل التعويض عما بدر منهم من تقصير، فإنه من الصعب عليهم تغيير الحقائق الرئيسية لمجرى الأحداث. فهذا العدد الضخم من الشهداء بين صفوف الأنصار، وحدهم، يؤكد أن دور إخوانهم المهاجرين القرشيين في الجهاد كان هامشياً.

وبالنظر إلى خسائر الجانب القرشي يوم أحُد، فقد سقط من أبناء قبيلة قريش ٢٢ قتيلاً، نصفهم تقريباً من بطن عبد الدار من قريش! والسبب الرئيسي لهذه المقتلة التي تعرض لها بنو عبد الدار، فكانوا وحدهم نصف قتلى قبيلة قريش، هو أن أبا سفيان حرّضهم واستفزّهم قبل المعركة، مما أدى إلى استبسالهم في القتال مما حمّلهم تلك الخسائر الفادحة. «وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرّضهم بذلك على القتال: يا بني عبد الدار! إنكم وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم. وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، فإذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا أو تسلموا لنا الراية. فقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟! ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع.

وذاك الذي أراد أبو سفيان»[2].

---

(١) وأيضاً في رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٢ ص٤٣ـ٤٤ كان مصعب بن عمير وشماس بن عثمان هما الوحيدان من المهاجرين القرشيي الأصل الذين استشهدا من بين ٧٦ شهيداً من جيش المسلمين.

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص١٩٦.

وقد عدد ابن اسحق أسماء القتلى الـ٢٢ من قريش[1] ومَن الذي قام بقتلهم. وحسب ابن اسحق، فإن علياً بن أبي طالب قتل لوحده ٦ من هؤلاء الـ٢٢!

التشفي والتمثيل بالجثث

جاء في سيرة ابن هشام:

«قال ابن اسحاق: ووقعت هند بنت عتبة، كما حدثني صالح بن كيسان، والنسوة اللاتي معها، يُمثّلنَ بالقتلى من أصحاب رسول الله، يجدعنَ الآذان والآنف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدماً وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً، غلام جبير بن مطعم. وبقرت عن كبد حمزة، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها...»[2].

وأما أبو سفيان:

«كان الحليس بن زبان قد مرّ بأبي سفيان بن حرب وهو يضرب في شدق حمزة بزج الرمح وهو يقول: ذق عَقق. فقال الحليس: يا بني كنانة: هذا سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون لحماً. فقال: اكتمها فإنها كانت زلة»[3].

ثم أخذ يتجول ويتعرف على القتلى من الأنصار، برفقة أبي عامر الفاسق الذي كان يعرفه على شخصياتهم واحداً تلو الآخر، ويقول له «هذا سيد بلحارث بن الخزرج... هذا ابن قوقل الشريف في بيت الشرف... هذا من ساداتهم...».

وكذلك صفوان بن أمية: قام بجولة على صفوف القتلى من الأنصار، ليشفي غليل نفسه، فمرّ بواحد منهم، وهو خارجة بن زيد، وكان جريحاً ولا يزال حياً، فقام بقتله ثم مثلَ بجثته![4].

وانتهى يوم أحد الحزين حين صَعدَ أبو سفيان على الجبل ليعلن صرخة النصر على عدوه ويقول:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص١١٩ـ١٢٠. وهناك روايات أخرى تذكر أن الذين قتلهم عليّ كانوا أكثر من ستة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٨٣

(٣) تاريخ الطبري ج٢ ص ٢٠٦. وكذلك البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص ٤٣.

(٤) كتاب المغازي للواقدي ص٢٣٦ وص٢٥٨.

اعلُ هُبل. اعلُ هُبل!

أين ابن أبي كبشة؟

فيجيبه رسول الله ﷺ: الله أعلى وأجل.

فيقول أبو سفيان: لنا العزى ولا عزّى لكم

فيجيبه الرسول ﷺ: الله مولانا ولا مولى لكم.

فيقول أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر. والحرب سجال[1].

إذن انتهت هذه الجولة من المواجهة بانتصار أبي سفيان، الذي قويت عزيمته وزاد إصراره على القضاء المبرم على محمد ﷺ ودينه.

*****

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، ليلملم جراحه، ويواسي المؤمنين من أتباعه على مصابهم.

جاء في صحيح البخاري «لمّا كسرت بيضة النبي ﷺ على رأسه، وأدمي وجهه وكسرت رباعيته، وكان عليّ يختلف بالماء في المجنّ، وكانت فاطمة تغسله. فلمّا رأت الدم يزيد على الماء كثرة عمدت إلى حصير فأحرقتها وألصقتها على جرحه فرقأ الدم»[2].

وهكذا فإنّ علياً، الفارسَ الذي لم يهدأ لحظة واحدة طوالَ ذلك اليوم العصيب، الفارسَ الذي ذبّ عن رسول الله ﷺ وتصدّى لصناديد قريش، يتولى هو أيضاً تضميدَ جراح رسول الله ﷺ ومعالجته، بينما هو نفسه قد أصيب بعدد كبير جداً من طعنات الرماح ولسعات السيوف! وهذا ما دفع رسول الله ﷺ إلى علاجه بدوره. روى القرطبي:

---

(1) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٤٩. وكان أبو سفيان يطلق اسم «ابن أبي كبشة» على الرسول ﷺ من قبيل الاحتقار والازدراء. وكانت أخته أم جميل، حمّالة الحطب، لا تذكر رسول الله ﷺ إلا بقولها «مذمّم»! وورث ابنه معاوية نفس هذا الطبع المنحط في إطلاق الألقاب على العائلة النبوية من قبيل الذم، فكان لا يذكر علي بن أبي طالب إلا بقوله «أبو تراب».

(2) صحيح البخاري ج٤ ص٤٦ باب المجنّ ومن تترّس بترس صاحبه.

«أتي النبي ﷺ بعليّ بن أبي طالب وبه نيفٌ وستون جراحة، من طعنة وضربة ورمية. فجعلَ النبيﷺ يمسحها وهي تلتئم بإذن الله تعالى، كأن لم تكن»[1].

الأحزاب

لم تهدأ نفوس القرشيين بعد أحُد إلاّ قليلاً. فهم لا يرضون إلاّ بالاستئصال الكامل لمحمد ﷺ وآله وأنصاره. وهم يعرفون أن محمدا ﷺ لم يُصَب في مقتل، على الرغم من فقدانه عمّه الغالي وسبعين من خيرة أنصاره، بل تعرّض لنكسة. وكانت قريش تعرف أن محمدا ﷺ ما دام في مَنَعَةٍ في يثرب فإنه ولا شك سيلملم جراحه وسيعود لمواجهتها مرة ثانية.

ولقد وصل الحقد القرشي إلى مستويات مذهلة من التدنّي، إلى حد اللجوء إلى التصفية الجسدية لأيّ من أنصار محمدﷺ، ولو كان فرداً واحداً أسيراً بلا حول ولا قوة، تم أسره بطريق الغدر. وفي هذا السياق من المفيد ذكر ما جرى في يوم الرجيع.

ملحمة الأبطال في يوم الرُجيع

الزمان: في تلك الأيام التي تلت معركة أحد.

جاء وفدٌ من عضل والقارة إلى رسول اللهﷺ وأظهروا الإسلام وطلبوا منه أن يبعث معهم وفداً من أصحابه ليعلّموهم الدين والقرآن.

فأرسل معهم ستة من خيرة أصحابه وهم: مرثد بن أبي مرثد، خالد بن البكير، عاصم بن ثابت[2]، خبيب بن عديّ، زيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق.

فلما وصلوا إلى ماء الرجيع غدروا بهم واستصرخوا عليهم هُذيلاً، وأحاطهم

(١) تفسير القرطبي ج٤ ص٢١٩.

(٢) وكان عاصم بن ثابت الأنصاري قد قتل واحدا من سراة قريش يوم أحد، وهو مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، من بني عبد الدار. وبلغ حقد أم مسافع حد أنها نذرت أن تشرب الخمر في جمجمة عاصم! ورصدت مائة من الإبل لمن يأتيها برأسه، كما ذكر الواقدي في المغازي ج١ ص٢٢٨.

عددٌ هائلٌ من السيوف، طالبين منهم الاستسلام مع الوعد بأنهم لن يؤذوهم وإنما يقصدون الاستفادة بواسطتهم من أهل مكة.

فرفض ثلاثة منهم ذلك وهم عاصم ومرثد وخالد وأبَوا أن يستسلموا، فقاتلوا بشجاعة وبطولة حتى استشهدوا جميعاً. وسقط الثلاثة الآخرون بالأسر، فساقوهم في رحلة طويلة إلى مكة، قتل خلالها عبد الله بن طارق حين حاول الفرار.

وصل الموكب إلى مكة، وفيه الأسيران الأخيران اللذان كانت قريش تنتظرهما على أحرّ من الجمر، فدفعت ثمنهما للمجموعة الخائنة، وبقيا وحيدين لمواجهة حكم الإعدام الذي أرادته قريشٌ نصراً معنوياً وإعلامياً على محمد ودينه وأتباعه. وهذان هما المشهدان الذان أعدتهما قريش للغنيمتين من أتباع محمدٍ ﷺ:

يتجمهر الناس من أشراف قريش وأوباشها حول الأسير المقيّد بالحبال، قبيل تنفيذ حكم القتل.

ويحاول أبو سفيان أن يجعل الأسيرَ يتوسّل أو يبدي ندمَه على اتّباع طريق محمد. هذا الأمر مهم جداً لأبي سفيان. ولذا يطلب من الأسير المقيد أن يتمنى لو أن محمداً مكانه، فيأتيه الجواب المزلزل!

وهذا النص الذي أورده ابن اسحق يصف فيه مقتل زيد بن الدثنة:

«وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له، يقال له نسطاس، إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه. واجتمع رهطٌ من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب.

فقال له أبو سفيان حين قدّم ليقتل: أنشدك يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟

قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالسٌ في أهلي..»[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص ١٥٨.

وأما البطل الآخر الذي ينتظر الموت، فهو محاطٌ أيضاً بطغاة قريش الذين لن يكتفوا بقتله بل سيصلبونه. كان أبو سفيان أيضاً وابنه معاوية يحيطان بالفارس الذي لا يهاب.

ولا شك أن أبا سفيان وابنه معاوية، قد بدأ لديهما الإدراك من تلك اللحظة أن محمدا ﷺ سينتصر في نهاية المطاف حتماً. فكيف يمكن أن يتصور أبو سفيان أنه سيهزم شخصاً له هكذا أتباع! إذ ما الذي يجعل شخصاً لم تبقَ له في الحياة سوى دقائق معدودات يحب محمدا إلى هذا الحد؟ لماذا لا يتوسّل طلباً للنجاة؟!

وهذا النص الذي أورده ابن اسحق:

«ثم خرجوا بخبيب، حتى إذا جاؤوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا.

قالوا: دونك فاركع.

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما. ثم أقبل على القوم فقال:أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طَولت جزعا من القتل لاستكثرتُ من الصلاة.

قال: فكان خبيب بن عدي أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين. قال:

ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه، قال: اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداة ما يصنع بنا. ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً. ثم قتلوه رحمه الله.

فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حضرته يومئذ فيمن حضَرَه مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فَرَقاً من دعوة خبيب. وكانوا يقولون إن الرجل إذا دُعي عليه، فاضطجع لجنبه زالت عنه»[1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص١٥٩.

وقد أورد الواقدي تفاصيل تلك الجريمة الوحشية، والطريقة السادية التي استعملها القرشيون في قتل خبيب:

«ثم دعوا أبناءً من أبناء مَن قتل ببدر، فوجدوهم أربعين غلاماً. فأعطوا كل غلام رُمحاً ثم قالوا: هذا الذي قتل آباءكم.

فطعنوه برماحهم طعناً خفيفاً، فاضطربَ على الخشبة، فانقلبَ، فصار وجهه إلى الكعبة. فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيّه وللمؤمنين!

وكان الذين أجلبوا على قتل خبيب: عكرمة بن أبي جهل، وسعيد بن عبد الله بن قيس، والأخنس بن شريق، وعبيدة بن حكيم بن أمية بن الأوقص السلمي.

وكان عقبة بن الحارث بن عامر، ممن حضر، وكان يقول: والله ما أنا قتلتُ خبيب. إن كنتُ يومئذ لغلاماً صغيراً. ولكنّ رجلاً من بني عبد الدار يقال له أبو ميسرة من عوف بن السبّاق، أخذ بيدي فوضعها على الحربة ثم أمسك بيدي، ثم جعل يطعن بيده حتى قتله...»[1].

وقد أوجعَ ما حصل لخبيب وزيد، والطريقة التي أسِروا فيها وبشاعة قتلهم في مكة، قلبَ رسول الله ﷺ إلى درجة دفعته إلى محاولةَ اغتيال رأس الكفر: أبي سفيان والخلاص منه بأي وسيلة، ليكفّ شرّه عن رسول الله ﷺ ومَن معه. فقد جاء في تاريخ الطبري:

«ولما قتل مَن وجّهَه النبي ﷺ إلى عضل والقارة من أهل الرجيع وبلغ خبرهم رسول الله ﷺ، بعث عمرو بن أمية الضمري إلى مكة مع رجل من الأنصار وأمرهما بقتل أبي سفيان بن حرب.

..... قال عمرو بن أمية: بعثني رسول الله ﷺ بعد قتل خبيب وأصحابه وبعث معي رجلاً من الأنصار وقال: ائتيا أبا سفيان بن حرب فاقتلاه. قال: فخرجتُ أنا

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٣٦١.

وصاحبي....»[1] ثم يتابع الراوي تفاصيل دخولهم مكة واكتشاف قريش لهم ومطاردتهم، ومحاولة الرجلين استخلاص جثمان خبيب بن عدي الذي كانت قريش قد تركته مصلوباً على خشبته، إلى أن عادا إلى المدينة دون إتمام مهمة قتل أبي سفيان.

التآمر اليهودي ـ القرشيّ ضد رسول الله

كان بنو النضير إحدى القبائل اليهودية التي تقطن في يثرب حينما قدمها الرسولﷺ. وكانت بنو النضير ترتبط مع النبيﷺ بعهود ومواثيق. وزارهم الرسولﷺ مرة طالباً منهم المساعدة في دفع دية رجلين. ولكنهم أظهروا الغدر والخيانة، وأرادوا قتل رسول اللهﷺ عن طريق إلقاء صخرة كبيرة على رأسه. فأرسل لهم النبيﷺ إنذاراً بأن يجلو من المدينة فرفضوا، فحاصرهم إلى أن اضطروا للإستسلام على أن يجلو إلى الشمال، ويحملوا معهم أموالهم[2]. فذهب غالبيتهم إلى خيبر، واستقروا عند إخوانهم من اليهود هناك.

وفي خيبر، تشكل وفدٌ عالي المستوى من شيوخ يهود بني النضير، ضمّ كلا من سلام بن أبي الحقيق، حُيي بن أخطب، كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس. وذهب الوفد اليهودي إلى مكة من أجل التفاهم والتنسيق مع الزعامة القرشية، باعتبارها العدو الأقوى والألدّ لمحمدﷺ.

وبدأ التخطيط والتآمر بين اليهود والزعامة القرشية، ممثلة في أبي سفيان، من أجل شنّ حرب كاسحة للقضاء على محمدﷺ ومَن معه.

«قال اليهود لأبي سفيان: جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله.

قال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً. أحَبّ الناس إلينا مَن أعاننا على عداوة محمد.

قال النفر: فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها أنت فيهم، وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها، ثم نحلف بالله جميعا لا يخذل

(1) تاريخ الطبري ج٢ ص٢١٨.

(2) كتاب «الثقات» لابن حبان ج١ ص٢٤٠ ـ ٢٤٣.

بعضنا بعضاً، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل، ما بقي منّا رجل.

ففعلوا. فتحالفوا على ذلك وتعاقدوا»[1].

وهكذا تم التحالف بين بطون قريش وبين وجهاء بني النضير بالأصالة عن انفسهم، وبالنيابة عن يهود المدينة وخيبر وكافة أنحاء الجزيرة العربية.

وعلى هامش الاجتماعات، سأل القرشيون اليهود «يا معشر اليهود! إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد. أفديننا خيرٌ أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خيرٌ من دينه. وأنتم أولى بالحق»[2].

واكتمل التحالف الرهيب

وبعد أن أمّنَ أبو سفيان حُلفاءَ له في الساحة الخلفية لمحمدﷺ، بدأ حملة ضخمة لاستقطاب قبائل العرب لتشاركه في حربه والقضاء المبرم عليه. وإن كان محمدﷺ وأنصاره قد نجوا من الهجوم القرشي الكبير يوم أحد، فلن يتمكنوا هذه المرة من النجاة من جَمعٍ عربيّ هائلٍ يُعِد له أبو سفيان الآن!

وفي شوال من سنة ٥ للهجرة، نجح أبو سفيان في تشكيل التحالف المرعب[3] الذي تكوّن من:

- قبيلة قريش وأحابيشهم ومَن تبعهم من العرب. كانوا أربعة آلاف، بقيادة أبي سفيان. وحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة. واقتادوا معهم ٣٠٠ فرس و١٥٠٠ بعير.
- بنو سليم. وكانوا ٧٠٠ يقودهم سفيان بن عبد شمس[4]، وهو كان حليفاً لحرب بن أمية. وخرجت معهم بنو أسد.

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٤٤٢. وقريبٌ من ذلك رواه الواحدي في أسباب نزول الآيات ص١٠٤

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص ١٩٥.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٦٦.

(٤) وابنه أبو الأعور السلمي سيكون من أهم قيادات جيش معاوية بن أبي سفيان في حربه ضد الإمام عليّ، بعد نحو ٣٠ عاما.

● بنو فزارة، من غطفان. يقودهم عيينة بن حصن. ومعهم ألف بعير.

● بنو أشجع، من غطفان. وهم ٤٠٠ يقودهم مسعود بن رخيلة.

● بنو مرة، من غطفان. وهم ٤٠٠ يقودهم الحارث بن عوف.

وخرج معهم آخرون من بني كنانة وأهل تهامة ونجد.

وكان المجموع الكلي لهؤلاء الأحزاب عشرة آلاف. وكان أبو سفيان هو القائد العام لهم.

ومعهم مَن حالفهم من اليهود الذين عاهدوهم على الغدر بالمسلمين.

وهذا التجمعُ لم تشهد له الجزيرة العربية نظيراً في الحجم من قبل. وهذا التجمع من أغرب التجمعات التي عرفها تاريخ جزيرة العرب أيضا! فقبائل العرب كانت تعبد أصناماً متعددة، وتدين بالولاء لشيوخها الذين لم يجتمعوا طوال التاريخ، حتى يوم غزا أبرهة الحبشي الكعبة، وهي أقدس مقدساتهم، ولكنهم اجتمعوا هذه المرة على عداوة محمدﷺ وآله وأنصاره، والعمل على استئصالهم. وإذا لم يكن مستحيلاً اجتماع العرب مع بعضها، فإن الغريب حقاً هو أن تجتمع العرب مع اليهود، وأن يشكل الجميع جيشاً واحداً له قيادة واحدة![1].

خطة دفاعية مُبتكرة

وكان سلمان الفارسي هو الذي أشار على الرسول ﷺ بحفر الخندق[2]. فقد شاور الرسولﷺ أتباعه لما علم بمسير قريش ومَن معها. وحصل اختلافٌ بين الداعين إلى الخروج لملاقاة الغزاة، وبين الداعين إلى البقاء وانتظارهم داخل المدينة:

«فقال سلمان: يا رسول الله: إنا إذا كنّا بأرض فارس، وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا. فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين»[3].

فأمر الرسولﷺ المسلمين بحفر خندق لإعاقة تقدم الجيوش المهاجمة،

---

(١) عن «المواجهة» لأحمد حسين يعقوب ص١٨٥.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ج٦ ص١٨٣.

(٣) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٥.

على طول الواجهة الأمامية للمدينة، على أن يُترك ظهر المدينة حيث مواطن اليهود بحمايتهم. وخلال بضعة أيام من العمل كان الخندق قد أنجز.

وعادت هذه الفكرة الرائعة، التي لم تعرفها العرب من قبل، على سلمان بتقدير عظيم من كل المسلمين. فقد جاء في تفسير الطبري أنه أثناء حفر الخندق «اختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي. وكان رجلاً قوياً.فقال الأنصار: سلمان منا. وقال المهاجرون: سلمان منا. فقال النبيﷺ: **سلمان منا أهل البيت**»[1].

الموقف الصعب للمسلمين

وصلت الجحافل الجرارة التي يقودها أبو سفيان إلى يثرب وألقت برحالها على أبوابها، وقد حاصرتها، بعد أن فوجئت بالخندق الذي حفره المسلمون. كان الجمع عظيماً ومرعباً. وبدا على المهاجمين تصميمٌ على انتهاز الفرصة والقضاء المبرم على محمدﷺ وأتباعه، مرة واحدة وإلى الأبد.

وأصيب كثيرٌ من الناس في المدينة بانهيار معنوي، حتى قال أحدهم:

«كان محمدٌ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط!

وقال آخرون:

قد كان محمدٌ يعدنا فتح فارس والروم. وقد حُصرنا ها هنا. حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته! ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً»[2].

وقد عبّرت الآية القرآنية عن تلك الظروف العصيبة: ﴿إِذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكمُ وإِذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنوناَ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا﴾[3].

---

(1) تفسيرالطبري ج٢١ ص١٦٢

(2) تفسير الطبري ج١ ص ١٥٨و١٦١

(3) سورة الأحزاب آية ١٠ـ١١

يتضح من النصوص كيف كان الوضع النفسيّ للمسلمين صعباً، وهو ما عبّرت عنه الآية القرآنية أبلغ تعبير ﴿زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾. كان الموقف عصيباً لأقصى حدّ على محمد ﷺ وأتباعه. فهم يرون أمام أعينهم ائتلاف أحزاب القبائل العربية قد اكتمل وجاء بكل قوته إلى معقل رسول الله ﷺ في المدينة بقيادة أبي سفيان وبقية الموتورين من قريش.

كان الحشد رهيباً: عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المدينة، وكلهم إصرارٌ على اجتثاث أصل الدين الجديد، مرة واحدة وإلى الأبد. ففي نظر الكثيرين، جاء الوقت الذي سيدفع فيه الذين نصروا محمداً ﷺ الثمن الباهظ لمواقفهم! وها هي قريشٌ قد جاءت ومعها قبائل العرب، ودارت الدائرة على المسلمين الذين لا طاقة لهم على مواجهة هكذا حشد.

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وجعلت الإنهيار النفسيّ للمسلمين شاملاً، هي موقف اليهود الخيانيّ. فهؤلاء قرروا التحالف مع أبي سفيان وجمعه، واستغلال الفرصة للقضاء على محمد ﷺ ودينه. كانت تلك طعنة في الظهر وجهها اليهود للرسول ﷺ في أسوأ وقت وأحرج موقف. فأيّ أمل يبقى للمسلمين بعد خيانة اليهود لهم؟ حتى ظهرهم أصبح مكشوفاً!

«ودسّ أبو سفيان بن حرب حيي بن أخطب إلى بني قريظة، يسألهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ويكونوا معهم عليه. فأجابوا. واشتد الخوف وعظم البلاء»[1].

وتجدر الإشارة إلى أن القبيلة اليهودية الثانية التي تقطن المدينة، بني قريظة، أبدت بعض التردد في قبول دعوة زعماء بني النضير لخيانة الرسول ﷺ. فالأمر جدّ خطير، ومحمد ﷺ لم يظهر منه أي إخلال بالتعاقدات.

إلاّ أن كعب بن أسد، زعيم بني قريظة، لم يستطع أن يقاوم الإغراء الكبير في القضاء المبرم على محمد ﷺ ودينه دفعة واحدة. فلما قال له حيي بن أخطب أنه

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ج٦ ص١٨٣.

جاءه بكل قبيلة قريش وحلفائها العرب «وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومَن معه»[1]، قرر كعب بن أسد أن لايضيع الفرصة، فنقض عهودَه وبرئ مما كان بينه وبين رسول اللهﷺ.

ولما علم رسول الله ﷺ بهذا الموقف الخياني ليهود بني قريظة، ونقضهم العهود والمواثيق، أراد أن يتأكد من ذلك. فأرسل إليهم سيدي الأنصار: سعد بن معاذ (الأوسيّ)، وسعد بن عبادة (الخزرجيّ):

«فخرجوا حتى أتوهم. فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم. نالوا من رسول اللهﷺ وقالوا: مَن رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد»[2].

بطلُ الإسلام يصرعُ فارسَ قريش الأعظم

«فأقام رسول اللهﷺ والمسلمون على حالهم. والمشركون يحاصرونهم، ولا قتال بينهم.

إلاّ أن فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد ود العامري من بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب الفهري، وكانوا فرسان قريش وشجعانهم، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق. فلما رأوه قالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها!

ثم تيمموا مكاناً ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم، فاقتحمت بهم، وجاوزوا الخندق»[3].

إذن يقوم صناديد قريش بعملية إرهاب وتخويف شديدة للمسلمين. إن ما يقومون به من اقتحام فردي للخندق هو تحدّي مباشرٍ للمسلمين، الذين إذا لم يواجهوه ظهروا بمظهر الجبان الرعديد. إن عدم التصدي لهذا التحدي الصريح من قبل فرسان قريش كان يعني تحطيماً تاما لمعنويات كل المسلمين.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٠١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٠١.

(٣) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٣٣.

ولكن مَن ذا يجرؤ على مواجهة عمرو بن عبد وُد؟ ذلك الفارس الفحل ذو الصيت الشائع والسمعة العالية، والذي كان قد حرّم على نفسه الدهنَ بعد بدر، حتى يثأر من محمدﷺ وصحبه.

وها هو عمرو بن عبد ود يُمعن في إذلال كل أتباع محمدﷺ. ها هو يصرخ وينادي: أين هي جنتكم التي تزعمون أيها الجبناء؟ فقد روى الواقدي أن عَمراً كان يرتجز شعراً يتحدى به المسلمين:

ولقد بُحِحتُ من النداء بجمعهم هل من مبارز

يروي النص:

«خرج عمرو بن عبد ودّ وهو مقنّعٌ بالحديد، فنادى: مَن يبارز؟

فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: أنا لها يا نبي الله!

فقال: إنه عمرو، اجلس.

ثم نادى عمرو: ألا رجلٌ يبرز؟ فجعل يؤنّبهم ويقول: أين جنّتكم التي تزعمون أنه مَن قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟

فقام عليّ رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول الله!

فقال: اجلس.

ثم نادى الثالثة. فقال: فذكر شعرَه.

فقام عليٌّ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله! أنا.

فقال: إنه عمرو!

فقال: وإن كان عمروا!

فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمشى إليه حتى أتى وهو يقول:

لا تعجلنّ فقد أتاك مُجيبُ صوتك غير عاجز

في نيّةٍ وبصيرةٍ والصدق منجى كل فائز

إني لأرجـــو أن أقيـــم عليـــك نائحـة الجنـائـز
مـــن ضـربــةٍ نجــلاء يبقى ذكرها عنـد الهــزاهز

فقال له عمرو: مَن أنت؟

قال: أنا عليّ.

قال: ابن عبد مناف؟

قال: أنا علي بن أبي طالب.

فقال: يا ابن أخي! مِن أعمامك مَن هو أسنّ منك، فإني أكره أن أهريق دمك!

فقال له علي رضي الله عنه: لكنّي ـ والله ـ لا أكره أن أهريق دمك!

فغضب! فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار. ثم أقبل نحو عليّ رضي الله عنه مُغضباً.

واستقبله عليّ بدرقته، فضربه عمرو في درقته فقدّها، وأثبت فيها السيف وأصابَ رأسَه فشجّه. وضَرَبه عليّ رضي الله عنه على حبل عاتقه فسقط، وثار العجـاج، وسـمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير، فعرفنا أن علياً رضي الله عنه قد قتله.....»[1].

وفي رواية القرطبي وصفٌ للتأثير المعنوي الهائل الذي أحدثه قتل عليّ لعمـرو على صناديد قريش الآخرين. فبعد أن كان هؤلاء قد اقتحموا الخندق بنفوسٍ تطفـح كبراً وعتياً واستعلاء، أصبحوا يفرّون هاربين، أذلاء مـدحورين، بعـد أن رأوا كَبيـرَهم يصرعه عليّ أمام أعينهم. بل إنهم ألقوا سلاحهم خلفهم من شدة العجلة:

«فحمي عمرو بن عبد ود. فنزل عن فرسـه فعقـره وصـار نحـو علـيّ. فتنـازلا وتجاولا، وثار النقع بينهما حتى حال دونهما.

فما انجلى النقع حتى رئي عليّ على صدر عمرو يقطع رأسه.

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ج١ ص ٥٢٧، أخرجه من طريق البيهقي عن ابن اسحاق. وكذلك في السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٠٤ وفيها أن علياً خيّر عَمراً لما برز له بين الإسلام أو النزال. وأنه بعد أن قتل عمرو خرجت خيل المشركين منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة. وقد روى الواقدي في كتاب المغـازي ج٢ ص٤٧٠ أن رسول اللهﷺ قد أعطى علياً سيفه، وعمّمه، حين خرج لعمرو، ودعا له: اللهم أعنه عليه! وروى ابـن كثيـر فـي تفسيره ج٣ ص٤٧٩ «إنه لم يبرز إليه أحدٌ. فأمرَ علياً رضي الله عنه فخرجَ إليه. فتجَاولا ساعة فقتلـه علـيّ رضـي الله عنه. فكان علامة على النصر».

فلما رأى أصحابه أنه قد قتله عليٌ، اقتحموا بخيلهم الثغرة، منهزمين هاربين.

.... وألقى عكرمة بن أبي جهل رُمحَه يومئذ وهو منهزمٌ عن عمرو»[1].

في ضوء تلك الظروف، وحراجة ذلك الموقف، كان سلوك عليٍّ، الذي يصنّفه البعض ضمن عداد البطولات الفردية فقط، ذا انعكاس هائلٍ بكل المقاييس على موازين القوى وسير مجريات تلك المعركة.

فإن قيام فرسان قريش، وعمرو بن عبد ود بالتحديد، بتحدّي جموع المسلمين تكراراً كان يهدف إلى تحقيق إذلال نفسيٍّ جماعيٍّ لهم. كان عدم مواجهته يعني بالفعل أن كل أتباع محمد ﷺ قد أصيبوا بالرعب والفزع وتملكهم الجبن! وكان ذلك رَفعاً معنوياً هائلا للقوات المهاجمة. وكان ذلك يعني الإثبات لليهود بأنهم اتخذوا القرار الصائب بوقوفهم إلى جانب الأحزاب، الذين هم الجانب الرابح حتماً.

ولذا يمكن القول أن علياً، حين واجه صنديدَ قريش بلا خوف ولا تردد، وقتله بتلك الطريقة العظيمة، أنقذ رُوحَ الجيش الإسلامي. كان ذلك يحيي في نفوس أتباع محمد ﷺ الإيمان بأن الله لن يخذل نبيه. ومَن الذي يتصدّى لأبطال قريش ويضع نفسه على حافة الهلاك الأكيد؟ إنه ابن عم النبي ﷺ وأقرب الناس إليه. فأي عذر يبقى بعد ذلك لعامة المسلمين بالتقاعس وهم يرون رسولَ الله ﷺ لا يضنّ بآله وخاصته في سبيل الله؟

يئست قريش من الانتصار

وبسبب الصمود البطولي لرسول الله ﷺ وأتباعه المخلصين، أدرك أبو سفيان أن لا أمل له بالنصر.

وانعكس الانهيار المعنوي الذي كان قد أصاب ضعاف النفوس من المسلمين إلى صفوف قريش وحلفائها. لقد مضى ما يقرب من شهر منذ أن ألقت الأحزاب

---

(١) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٣٤.

برحالها حول المدينة، وأصابهم التعب، وبدأ الخلاف يدب بينهم، وتفاقمت الشكوك المتبادلة بين العرب واليهود، فلم يكن أمام أبي سفيان من سبيل سوى اتخاذ القرار الصعب: العودة الخائبة إلى مكة:

«وهبّت ليلة السبت ريحٌ شديدة. فقال أبو سفيان: يا معشر قريش! إنكم والله لستم بدار مقام. لقد هلك الخُفَ والحافر وأجدَبَ الجناب، وأخلفتنا قريظة ولقينا من الريح ما ترون. فارتحلوا فإني مرتحل!

فأصبحت العساكر قد أقشعت كلها»[1].

أبو سفيان يتوعد بالمزيد

ولدى انصرافه وجيوشه عائدين، لم ينسَ أبو سفيان أن يبعث إلى النبي ﷺ، رسالة تنضح حقداً وكبراً واستعلاء، وتحمل الوعيد والتهديد، يذكّره فيها أنه هو شخصياً، أبو سفيان، لم يُهزم على يد النبي ﷺ قطّ، لأنه لم يحضر وقعة بدر، وأنه لن يتوقف عن مطاردته أبداً:

«باسمك اللهم!

لقد علمتَ أني لقيتُ أصحابك بأحياء وأنا في عيرٍ لقريش، فما حصر أصحابك منّا شعرة، ورضوا بمدافعتنا بالراح.

ثم أقبلت في عير قريش حتى لقيت قومي، فلم تلقنا. فأوقعتَ بقومي، ولم أشهدها من وقعة.

ثم غزوتكم في عقر داركم فقتلت وحرقت ـ يعني غزوة السويق ـ ثم غزوتك في جمعنا يوم أحد، فكانت وقعتنا فيكم مثل وقعتكم بنا ببدر.

وإني أحلف باللات والعزّى، لقد سرتُ إليك في جمعنا ومن تألّب إلينا، وإنا نريد ألاّ نعود إليك أبداً حتى نستأصلك. فرأيتك قد كرهتَ لقاءنا، فلزمتم الصياصي، وجعلتَ مضايق وخنادق! فليتَ شعري مَن علمك هذا؟

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ج٦ ص١٨٤.

فإن نرجع عنكم، فلكم منّا يومٌ كيوم أحد. تبقر فيه النساء»[1].

وأجابه رسول الله ﷺ بالكتاب التالي: «**من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب... أما بعد:**

فقديماً غرّك بالله الغرور. أما ما ذكرتَ أنك سرتَ إلينا في جمعكم، وأنك لا تريد ان تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمرٌ الله يحول بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى.

وأما قولك مَن علّمك الذي صنعنا من الخندق، فإن الله ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك. وليأتينّ عليك يومٌ تدافعني بالراح.

وليأتينّ عليك يومٌ أكسر فيه اللات، والعزى، وإساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك».

ودفع اليهود ثمن موقفهم

ارتكب يهود بني قريظة خطأ تاريخياً فظيعاً أثناء الأحداث التي رافقت هجوم الأحزاب العربية على المدينة المنورة. ولعلّ وصف الموقف الخياني ليهود بني قريظة ب «الخطأ» هو تخفيفٌ لحقيقة ما جرى. فاليهود كان لهم عهدٌ وميثاق مع الرسول ﷺ، يضمن لهم حقوقهم، ويصون دينهم وأموالهم، ضمن مجتمع يثرب الذي أصبح يقوده محمد ﷺ. فالرسول ﷺ كان قد اعترف باليهود عقائدياً، كأهل كتاب يمكنهم الاستمرار على دينهم، وسياسياً، كأقلية لها عهد مكتوب يحدد التزاماتها تجاه الأغلبية المسلمة، وواجباتها أيضاً.

وكان اليهود يعرفون تماماً أن محمدا ﷺ لا يمكن ان يخلّ بعقوده وعهوده. وسيرته كانت خير دليل على ذلك. وهو كان يؤكّد دائماً أن الغدر والخيانة من الكبائر في الدين. وعلى الرغم من بُغض الرسول ﷺ للموقف السلبي الذي اتخذه

(1) هذا الخطاب والجواب عليه من كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٤٩٢. وقريبٌ من ذلك رواه المقريزي في «النزاع والتخاصم» ص٥٧. وأحياء: اسم ماء برابغ. والصياصي هي الحصون.

اليهود منه ومن دينه، ورفضهم تصديقه واتباعه، إلاّ أن يهود بني قريظة كانت أمامهم الفرصة للبقاء مصونين في ظل دولة الرسولﷺ، بشرط إظهار الوفاء للدولة النبوية الناشئة واحترام قيادتها وقوانينها.

أضاع اليهود الفرصة الموجودة أمامهم للإثبات، للرسولﷺ ولأهل يثرب، أنهم جديرون بالبقاء معهم في بلادهم كمواطنين صالحين. فما كان عليهم أن يفعلوه هو ببساطة أن لا يتعاونوا مع الغزاة العرب، ولا يسمحوا لهم باقتحام المدينة من جهتهم. وربما كان هناك بينهم من العقلاء من قدّر أن قريشاً لن تنجح في مسعاها لاستئصال محمدﷺ ومَن معه في عقر دارهم، وأن محمداًﷺ قادرٌ على الصمود، وبالتالي ستغادر قريش أخيراً وتتركهم لوحدهم في مواجهة مع الرسولﷺ. ولكن القرار النهائي للقيادة اليهودية كان بالانضمام إلى تحالف الأحزاب الذي تقوده قريش والمشاركة معهم في مهمة القضاء على محمدﷺ ودينه.

وكان ذلك القرار كارثياً في آثاره المستقبلية عليهم.

فهم بذلك الموقف كانوا يعرضون كل الخطط الدفاعية التي دبرها المسلمون، من حفر خندق وتجهيزات، إلى الانهيار التام. فبنو قريظة، وحصونهم، كانوا يشكلون ظهر المسلمين في يثرب. ولذلك كان الأثر المعنويّ لموقف اليهود الخيانيّ عظيما جداً على المسلمين، الذين كادت تنهار معنوياتهم والذين لولا الصمود العظيم لرسول اللهﷺ وبعض أنصاره ومقربيه، ولولا المواجهة البطولية لعلي بن أبي طالب لصنديد قريش، لكان غالبيتهم ربما جنحوا إلى القنوط والاستسلام.

لقد أعمى الحقد العميق على محمدﷺ ودينه بصيرة قيادة اليهود وأذهب حكمتهم، ودفعهم سوء تقديرهم إلى مقامرة حقيقية بمستقبل وجودهم. ولا شكّ أن الجمع العربيّ الهائل الذي جاء بكل خيلائه وضجيجه، كان له دورٌ في قرار اليهود بالانضمام إلى ركبه.

ومما زاد الطين بلة أن موقف اليهود ذلك لم يكن يهدد محمداًﷺ بشخصه ودينه فقط، بل كان من الممكن ان يؤدي إلى إبادة أهل يثرب، الأوس والخزرج، في بلادهم. وهؤلاء كانوا جيراناً لهم منذ سالف الزمان وكانت تجمعهم روابط وعهود

وعلاقات قديمة جداً. كل ذلك أطاح به قرار زعيم اليهود، كعب بن أسد، بنقض العهد مع محمدﷺ. ولما بعث الرسول ﷺ زعماءَ الأنصار من أهل يثرب، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير إلى يهود بني قريظة، وطلبوا منهم أن يرجعوا إلى عهدهم وميثاقهم، قال لهم كعب بن أسد «لا نردّه أبداً! قد قطعته كما قطعت هذا القبال. لقبال نعله»[1].

بل وتمادى اليهود في شتم زعماء الأنصار، وهددوهم بالموت وتبجحوا بأنهم يحسنون القتال:

«إنكم والله ما لقيتم أحداً يحسن القتال. نحن والله نحسن قتالكم! ونالوا من رسول اللهﷺ ومن المسلمين أقبح الكلام».

بل ان اليهود تجاوزوا ذلك ووصلوا إلى حد المشاركة الفعلية في القتال ضد المسلمين، وإن كان ذلك على مستوى منخفض، وبمبادرة من المتطرفين منهم، من أمثال نباش بن قيس وغزّال بن سموأل، الذين قاما بمهاجمة المسلمين في سريتين صغيرتين[2].

*****

بعد انصراف قريش وأحزابها، لم يُضِع رسول اللهﷺ وقتاً وأمر المسلمين بالتوجه فوراً إلى بني قريظة «لا يصلّينّ أحدٌ العصر إلاّ في بني قريظة». وفعلاً أحاطت بهم قوات الرسولﷺ التي ذهبت بقيادة علي بن أبي طالب، الذي بدوره غَرَزَ الراية عند أسفل حصنهم:

«إن عليّ بن أبي طالب صاحَ وهم محاصرون بني قريظة: يا كتيبة الإيمان! وتقدم هو والزبير بن العوام وقال: **والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنّ حصنهم!**»[3].

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٨. والقبال هو زمام ما بين الإصبع الوسطى والتي تليها.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٤٦٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢١٨.

وبعد أن يئس اليهود من الضيق والحصار اضطروا إلى الاستسلام بلا شروط.

وبما أن بني قريظة كانوا حلفاء للأوس في يثرب قبل قدوم الرسولﷺ إليها، فقد ناشدوهم أن يتدخلوا لدى محمدﷺ من أجل المحافظة على حياتهم، والاكتفاء بترحيلهم. وفعلاً تدخل الكثيرون من الأوس وطلبوا من الرسول ﷺ أن يمنّ على اليهود. ولما كان رسول اللهﷺ يرى أن الذنب عظيم، ولا يجوز أن يمرّ دون ردع أو عقاب، لجأ إلى زعيم الأوس، سعد بن معاذ، وجعل له الحكم على اليهود. فرسول اللهﷺ حريصٌ على مراعاة خاطر أنصاره من الأوس، وفي ذات الوقت، لا يريد للخائنين أن يفلتوا دون عقاب شديد. فكان الحل هو سعد بن معاذ. فسعدٌ هو من الشخصيات التي اعتمد عليها الرسولﷺ في بثّ دعوته بين أهل يثرب منذ وقت مبكر جداً، وبالتالي كان رجلاً ذا إيمان قلبيّ لا تشوبه شائبة بدين محمدﷺ، وبالتالي بإمكان الرسول ﷺ أن يعوّل عليه في تقديم الاعتبارات الدينية على القبلية القديمة. وسعدٌ أيضاً كان قد أصيب بسهم يوم الخندق، وكان عندما دعاه الرسولﷺ ليحكم في اليهود يعاني وضعاً صحياً صعباً بسبب مضاعفات الإصابة، وبالتالي هو في أيامه الأخيرة ومقبل على لقاء ربه، ولن تأخذه في الله لومة لائم.

وخيّب سعد بن معاذ آمال اليهود المأسورين، وبعض الذين أشفقوا عليهم من قومه من الأوس، حينما نطق بالحكم الذي أراده الرسولﷺ: يُقتل رجالهم وتسبى نساؤهم.

ونفّذ الحكم، وأعدم رجال بني قريظة، وعددهم ٦٠٠ جميعاً.

ورسول اللهﷺ هو قائد الدولة في نفس الوقت، وبحكم ذلك لم يكن بإمكانه أن يتغاضى عن وجود»طابور خامس«في عاصمته ومقر حكمه. ولم يكن ممكناً تصوّر استمرار وجود اليهود في يثرب بعد ذلك. فرسول اللهﷺ لن يقبل احتمالية تعرّضه للخيانة في المستقبل، على يد أناس غدروا وأحبطوا أتباعه وكادوا يتسببون بدمار دعوته.

وهكذا كانت نهاية غزوة الأحزاب، ورجوع قريش على أدبارها دون تحقيق هدفها، وما حصل لبني قريظة في أعقاب ذلك، من الأمور التي قوّت موقف الرسولﷺ في الجزيرة العربية. فقد ظهر محمدﷺ بمظهر الذي لا يُقهر. ولا يمكن لأحد في جزيرة العرب أن يحشد أكبر مما فعلت قريش، دون أن يفتّ ذلك في عضده.

وكان العقاب الذي تعرّض له اليهود، القتل الجماعي للرجال، وتنفيذه بلا تردد، أعطى النبيﷺ طابعاً «ملوكياً» بين العرب. وصارت أغلب القبائل العربية المنتشرة في ربوع الجزيرة تتعامل مع محمدﷺ كسلطة، كدولة، كقائد، كحاكم، أكثر من أي اعتبار آخر. ومن المؤكد أن «نبوّة» محمد كانت عنصراً أساسياً ساهم في قبول القبائل العربية، التدريجي، بالخضوع لحكم مركزيّ قوي، بعد أزمان طويلة من فترات التشرذم والاستقلال القبلي.

وكانت عزوة الخندق هي آخر مبادرة هجومية لقريش. لقد استنفذت أقصى طاقتها في حرب محمدﷺ، ولم يعد بمقدورها، فعلياً، أن تقوم سوى بمحاولات دفاعية بعد ذلك.

صلح الحديبية

في ذي القعدة من سنة ٦ للهجرة:

«خرج رسول اللهﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومَن لحق به من العرب. وساق معه الهَدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومُعظماً له»[١].

وكان جيش الرسول يضم ١٤٠٠ رجلاً، ونزل في الحديبية، وهي قرية قرب مكة. ويعتبر مسير رسول اللهﷺ إلى مكة، بعد سنة واحدة فقط من حصار

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٨٢.

الأحزاب له يوم الخندق، إنجازاً عظيماً بكل المقاييس. فرسول اللهﷺ لم يستطع فقط أن يتجاوز آثار وتداعيات تلك الأيام العصيبة التي اجتمعت فيها العرب لاستئصاله، بل ها هو يعود بسرعة كبيرة إلى قريش مع أتباعه، قاصدا العمرة.

وعلى الرغم من إعلان الرسولﷺ أن مقاصده من السير إلى مكة كانت دينية محضة، وأنه لا يريد قتالاً ـ وهو بالفعل لم يكن يريد قتالاً ـ إلاّ أن قريشاً لم يكن ليفوتها ما تحمله عودة محمدﷺ هذه من معان ومضامين مهمة. فهذه العودة، وبتلك الطريقة الاستعراضية، تعكس مدى ثقة محمدﷺ بنفسه وبدعوته. وهي إثباتٌ بأن محمداًﷺ ودينه وأتباعه هم بخير، وأن سهمهم في صعود! وبنظر قريش، فإن محمداًﷺ، المستضعف والهارب من جبروتها، يريد الآن أن يقتحم مكة على رأس عدد كبير من مقاتلين غالبيتهم من الخزرج! واعتبرت قريش أن محمداًﷺ يريد أن يرغم أنفها ويحطّ من قدرها بين العرب.

«وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي. فقال: يا رسول الله هذه قريشٌ قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل. قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً.

وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم.

فقال رسول اللهﷺ: **يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟! فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا. وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة.**

ماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»[(1)].

وقرر رسول اللهﷺ إيصال نواياه السلمية إلى قريش، وأنه لا يريد قتالاً.

---

(1) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٣١٣. والعوذ المطافيل هي النوق ذوات اللبن ومعها أولادها، كناية عن النساء معها الأطفال. والسالفة هي صفحة العنق، ويريد بها الموت.

فأرسل إليهم رجلاً من أصحابه تحبّه قريش وتثق به: عثمان بن عفان. فعثمان من بني أمية، وتربطه صلات وثيقة مع أبي سفيان وغيره من زعامات قريش، خاصة وهو رجلٌ تاجرٌ ثريّ. وهو أيضاً لم يشهد معركة بدر وفرّ من الميدان يوم أحد، وبالتالي هو لم يخُض قتالاً ضد قريش قط، وليس بينهم وبينه أي عداوة أو بغضاء.

واستقبلت قريش ابنها عثمان وسمحت له بالدخول إلى مكة على الرحب والسعة، وبضيافة ابن عمه أبان بن سعيد بن العاص. وعرضوا عليه الطواف بالكعبة لو شاء. وقابل عثمان أشرافَ قريش رجلاً رجلاً، وخاطبهم بالمنطق الذي يناسبهم. فقد تكلم معهم بلغة الابن الناصح الحريص على قبيلته:

«بعثني رسول الله إليكم: يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام. تدخلون في الدين كافة، فإن الله مُظهر دينه ومعز نبيّه!

وأخرى تكفون، ويلي هذا منه غيركم، فإن ظفروا بمحمد، فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار: أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس، أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامّون.

إن الحرب قد نهكتكم وأذهبت بالأماثل منكم!

وأخرى: إن رسول الله يخبركم أنه لم يأتِ لقتال أحد، إنما جاء معتمراً، معه الهدي والقلائد ينحره وينصرف»[1].

ومن المؤكد أن جوهر كلام عثمان قد لامس صميم قلوب القرشيين. فابنهم الناصحُ، عثمان، يطلب منهم أن يكونوا واقعيين، لأنهم لن يستطيعوا وقف صعود نجم الرسول ﷺ ودينه، مهما فعلوا. ولذا فمن الأفضل لهم أن يتبعوه من أجل فائدتهم هم أنفسهم، قبل أي شيئ آخر. ولا شك أن ذوي العقول من قريش أدركوا أن ما قاله عثمان هو الحق، ولكن كبرياءهم لم تسمح لهم أن يعترفوا بمحمد ﷺ وبدينه. ولذلك أجابوا عثمان أن يخبر محمدا ﷺ أنه «لن يدخلها عليهم عنوة».

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٦٠١.

ويبدو أن مقام عثمان عند قومه داخل مكة قد طال، ولبثَ لديهم أياماً عديدة، إلى درجة أدّت إلى انبعاث إشاعة في صفوف المسلمين مفادها أن عثمان قد قتل. ولما بلغ هذا الخبر رسولَ الله ﷺ قرر أن لا يتهاون بشأنه. فقتلُ الرسل غدرٌ وفجورٌ لم تألفه العرب من قبل. فأعلن الرسول ﷺ **«لا نبرحُ حتى نناجز القومَ»** ونادى أصحابه وأخذ منهم ما أصبح يعرف ببيعة الرضوان والتي كانت تجديداً لعهد الولاء والطاعة له فيما يأمرهم به.

وسرعان ما جاءت الأخبار الصحيحة بأن عثمان لم يصبه أي أذىً ولم يمسّه سوء. فغيّرَ رسول الله ﷺ نواياه.

وربما كانت إشاعة مقتل عثمان مُفيدة في إظهار مدى التصميم الذي يتمتع به الرسول ﷺ لبلوغ أهدافه. فصحيحٌ أن رسول الله ﷺ لم يأتِ مكة بهدف القتال، إلاّ أنه لن يتردد في ذلك ولن يتقاعس عنه إذا اضطرته قريشٌ لذلك، ورفضت التوصل لتفاهمٍ وترتيباتٍ معه. وطبعاً وصلت أخبار البيعة هذه إلى قيادات قريش في مكة.

وبعد أن تداولت الزعامة القرشية في الأمر من كل نواحيه، توصلت إلى الحل الوسط الذي يمكن أن يقبله الرسول ﷺ: «فقال أهل الرأي منهم: ليس خيرٌ من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا ويرجع قابل. فيقيم ثلاثاً وينحر هَديَه وينصرف. ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا. فأجمعوا على ذلك»[1].

وأرسلت قريش أحد أشرافها، سهيل بن عمرو، ليتفاوض على شروط الصلح مع محمد ﷺ.

«ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: لا أعرف هذا. ولكن أكتب: باسمك اللهم.

فقال رسول الله ﷺ: اكتب: باسمك اللهم. فكتبها.

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٦٠٥.

ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.

فقال سهيل: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيلَ بن عمرو. اصطلحا على:

- وضع الحرب عن الناس عشر سنين. يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.
- على أنه مَن أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم.
- ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه.
- وإن بيننا عيبة مكفوفة. وإنه لا إسلال ولا إغلال.
- وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه. ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.»[1].

تقييم الصلح، ومعارضة قرار الرسول

لقد أعطى اتفاق الحديبية رسولَ الله ﷺ أهمّ ما يريده: السماح لمن شاء من العرب أن يدخل في دينه وفي حلفه. وذلك يعني أن قريشاً تترك الحرية لغيرها من الناس في أن يتبعوا محمداً ﷺ. وهذا بحد ذاته انقلابٌ كبير، لأن إعلامَ قريشٍ كان يصوِّر محمداً ﷺ على أنه ابنٌ عاقٌ من أبنائها خرج عليها، وبالتالي فالصراع هو بين عشيرة كبرى وصعلوكٍ متمرد وعلى العرب طبعاً أن تلفظ المارقَ وتقف مع العشيرة.

واعتراف الزعامة القرشية بحق محمد ﷺ في استقطاب العرب سوف يؤدي إلى خلق مناخٍ جديد تماماً لدعوته، وسيفتح لها آفاقاً رحبة. ورسول الله ﷺ واثقٌ أنه إن رُفع الحرج وزال الضغط والإرهاب وسُمِحَ للناس أن يسمعوا حجته ويتعرفوا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٩٢. وعيبة مكفوفة أي صدور منطوية على ما فيها، لا تبدي عداوة. والإسلال: السرقة الخفية. والإغلال: الخيانة.

على دينه فسوف يؤمنون به ويتبعوه لأنه صاحب دعوة حق تنسجم مع الفطرة السليمة، وبالتالي فإن قريشاً بمرور الوقت ستجد نفسها معزولة تماماً. فليس لقريش ما تدعو إليه الناس وليس لديها ما تقدمه لهم سوى الجمود والتحجّر.

ولذلك يمكن القول أن صلح الحديبية كان فتحاً حقيقياً لمكة، وهزيمة ساحقة للزعامة القرشية، وكان نصراً مؤزراً لدبلوماسية الرسولﷺ التي حصدت الآن ثمار المواجهات المسلحة مع قريش أفضل حصاد.

وأما بشأن موافقة الرسولﷺ على عدم دخول مكة وتأجيل ذلك إلىالعام المقبل، فليس به أي ضرر. فالعمرة كانت طريق الرسولﷺ وواسطته إلى إجبار قريش على المفاوضة والمصالحة، وهي قد أدت دورها بالفعل. كما أن الرجوع دون أدائها سيُظهر رسولَ اللهﷺ أمام العرب بمظهر الحريص على عدم سفك الدماء في الحرم بينما تظهر قريش بمظهر الصادّ عن بيت الله الحرام!

ولكن البند المثير للجدل كان ذلك الذي يقبل فيه رسول اللهﷺ ردّ مَن يأتيه مسلماً من قريش بدون إذن وليّه. وهذا في الواقع يعكس شيئين:

ثقة رسول اللهﷺ بدينه. فمن يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يتخلى عن هذا الإيمان، سواء كان مع محمدﷺ أو بين قريش. وكان في مكة مسلمون مستضعفون يقيمون بين قريش، وزيادة اعداد هؤلاء ربما يكون مفيداً في مستقبل الأيام.

والثاني أن دين محمدﷺ ليس موجهاً لقريش فقط. ولا بأس من التركيز على غيرها من العرب بعد كل ما أبدته قريش من صّدٍ وعداوة.

ولكن يبدو أن هذه المقاصد النبوية كلها، كانت عصيّة على الفهم لدى قطاع معين من المسلمين، وعجزوا عن استيعابها، فظهرت لهؤلاء الأمور وكأن رسول اللهﷺ قبلَ شروطاً مُهينة، وأنه ارتكب خطأً بكل هذا الصلح الذي صنعه. وقد عانى رسول اللهﷺ من هؤلاء، واستخدم كل ثقله لدى المؤمنين لكي يواجه تأثيرهم وينفذ عهده.

فقد عبّر عمر بن الخطاب للرسول(ص) عن معارضته التامة لشروط الصلح الذي عقده النبي مع قريش، معتبراً إياها مجحفة.

وعندما أوضح له الرسول(ص) شخصياً أنه يرى الفائدة فيها وأنه مصرّ عليها، لم يقتنع عمر وأصرّ على مخالفته، إلى درجة جعلت الرسول يذكّره بأنّه نبيّ الله!

ولم يسلّم عمر بن الخطاب ويرضى بحكم الرسول(ص)، بل ذهب محاولاً تحريض الآخرين من المسلمين ضدّ أمر الرسول(ص)، حتى اضطر أبو بكر أيضاً أن يذكّره بأن محمدا نبي! وفيما يلي النص من صحيح مسلم:

«... فجاء عمر بن الخطاب فأتى رسولَ الله(ص) فقال: يا رسول الله: ألسنا على حق وهم على باطل؟

قال: بلى.

قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟

قال: بلى.

قال: ففيمَ نعطِ الدنية في ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟

فقال: يا ابن الخَطاب: إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً.

قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً. فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر: ألسنا على حق وهم على باطل؟

قال: بلى.

قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟

قال: بلى.

قال: ففيم نعطِ الدنيّة في ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟

فقال: يا ابن الخَطاب: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً....»[١].

وأورد الواقدي مزيداً من التفاصيل التي تفيد بأن عمر أخذ يردّ الكلامَ على النبي(ص) مراتٍ عدّة، رغم محاولات أبي بكر وأبي عبيدة تهدئته عن طريق تذكيره

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ص ٦٩١.

أن محمداًﷺ نبيٌ مُرسل. إلى أن اضطرّ النبيﷺ أخيراً أن يذكّر عمر بن الخطاب بالذات بانهياره وهزيمته يوم معركة أحُد، وبمواقف عصيبة أخرى، في معرض جوابه:

«... ثم أقبلَ على عمر. فقال: أنسيتم يوم أحُد؟ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر؟»[1].

وحول نفس الحادثة جاء في تفسير ابن كثير[2] أن النبي وجد معارضة شديدة من قبل جموع المسلمين له إلى درجة أنه أمرهم بان يحلّقوا رؤوسهم، فلم يفعلوا رغم تكرار طلبه ثلاث مرات! فشكا ذلك إلى زوجته أم سلمة التي نصحته أن يبادر بالفعل بنفسه، وأن المسلمين سيتبعونه إذا رأوه فعل ذلك. وهذا ما تم بالفعل.

ولا شك أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون حصل إلا بتحريض من عمر نفسه، الذي يبدو أنه انطلق إلى الآخرين يحرّضهم! وقد ذكر ابن كثير أن عمر قال بعد أن رفض الرسولﷺ رأيه وصدّه أبو بكر «فعملتُ لذلك أعمالا» ولكن عمر لم يوضح تلك الأعمال.

ومما يدعم هذا الاستنتاج ما جاء من أن عمر حاول أن يحرّض أبا جندل بن سهيل بن عمرو على قتل أبيه من أجل إفساد الصلح الذي أبرمه الرسولﷺ، بل إنه تعمّد أن يترك له مقبض السيف متاحاً على أمل أن يتناوله ويقتل أباه، مندوب قريش، وقال له أن دم المشركين دم كلب، ولولا أن أبا جندل رقّ لأبيه لكان حصل ما لا يحمد عقباه بسبب عمر! وفيما يلي النص:

«... وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأردّ إلى

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٦٠٩.

(٢) تفسيرابن كثير ج٤ ص٢١٣. وكذلك وردت الرواية في صحيح البخاري ج٣ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ص٢٥٧ وفيها أن رسول اللهﷺ أجاب عمر بن الخطاب «إني رسول الله وهو ناصري». وفيها قول عمر «ألستَ نبيّ الله حقا؟»وفيها قوله أيضا: «فعملتُ لذلك أعمالا».

المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم.

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل: اصبر واحتسب فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جانبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. قال: ويُدني قائمَ السيف منه. قال: يقول عمر: رجوتُ أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. قال: فضنَّ الرجل بأبيه، ونفذت القضية»[1].

ويبدو أن أبا جندل نفسه، وهو بذلك الوضع الصعب، قد لاحظ، واستهجن، أن عمر بن الخطاب يقوم بنوع من المزايدة الفارغة على رسول الله ﷺ، والنص يظهر ذلك:

«فقال عمر: يا أبا جندل: إن الرجل يقتل أباه في الله. والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله. فرجلٌ برجل!

وأقبل أبو جندل على عمر فقال: مالكَ لا تقتله أنت؟

قال عمر: نهاني رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره.

قال أبو جندل: ما أنت بأحق بطاعة رسول الله منّي!»[2].

فتح خيبر

كانت خيبر من أعظم وأكبر التجمعات اليهودية في الجزيرة العربية، حتى انها أصبحت قلعة حقيقية، فيها المال وفيها الرجال. وقد تابع يهود خيبر بقلق بالغ أنباء مواجهات الرسول ﷺ مع يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وتأثروا بما أصابهم، وتعاطفوا معهم حتى صارت خيبر ملجأ للكثير من اليهود، كما أنها، بخيراتها

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص ٢٩٣.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٦٠٩.

وأموالها، استقطبت اهتمام الكثير من أبناء القبائل العربية المحتاجة والطامعة بأي شيء مما حولها.

ومع الأيام تحولت خيبر إلى قاعدة لمن يتربصون الدوائر بالنبي ﷺ وأتباعه. وصارت أعظم خطر يهدد الإسلام.

وقد أدرك يهود خيبر ومَن لجأ إليهم وتحالف معهم أن المواجهة مع محمد ﷺ ومَن والاه قدرٌ محتومٌ لا مفر منه. فهم يرون في محمد ﷺ ملك العرب المصمم على فرض سلطانه في أنحاء الجزيرة. وقد لاحظوا أن لمحمد ﷺ قدرة عظيمة على تجميع العرب وتوحيدهم تحت رايته، بعد أن ابتدأ بقبيلتي الأوس والخزرج في يثرب. ولا شك أنه قد أرعبتهم مواجهات محمد ﷺ السابقة مع خصومه، لذلك فهم يخشون فكرة شنّ هجوم عليه، مما فرض عليهم فرضاً أن يبقوا في حالة ترقب وقلق حتى يأتي محمد ﷺ وأتباعه لحربهم، فيحاربونه حرباً دفاعية، وهم في حصونهم. واستعداداً لتلك المواجهة الحاسمة رمّموا حصونهم وأصلحوها، واستوردوا السلاح وصنعوه، ووسّعوا دائرة تحالفاتهم مع القبائل، خاصة مع قبيلة غطفان وزعيمها عُيينة بن حصن.

ويقال أنهم جندوا عشرة آلاف مقاتل يتم استعراضهم يومياً. وقدّروا أنهم بهذه العدّة والعدد سيكونون قادرين على الصمود بوجه محمد ﷺ والمسلمين وهزيمتهم إذا جاؤوا.

وكان مَن بقي من اليهود بالمدينة يقولون للمسلمين «لو رأيتم خيبرَ وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم. حصونٌ شامخاتٌ في ذرى الجبال، والماء فيها واتن. إنّ بخيبر لألفُ دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلاّ بهم. فأنتم تطيقون خيبر؟»[1].

وهكذا يظهر أن اليهود أيقنوا بأن محمداً ﷺ قادمٌ إليهم لا محالة. وترقبوا كل يوم قدومه ليواجهوه بما لا قبل له به.

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٦٣٧.

وبعد أن فتح الله على نبيه في صلح الحديبية ذلك الفتح المبين، وحقق انتصاره السياسي، وخلّت بطون قريش بينه وبين العرب، واعترفت به وهي عدوته اللدودة، واعترفت بحقه باستقطاب العرب حوله، عندئذ قدّر النبيﷺ أن الفرصة ملائمة لمواجهة أخطر وأقوى ما تبقى من خصومه، وهم يهود خيبر.

الرسول يتحرك تجاه وكر المؤامرات

وبعد أقل من شهرين من رجوعه من الحديبية، في محرم من السنة السابعة للهجرة، أصدر النبيﷺ أوامره بالتهيؤ لغزو خيبر. وفضل أن يغزو معه الذين خرجوا معه إلى الحديبية. وأعلن أن الغاية من غزو خيبر هي الجهاد، وليست الغنيمة.

وبعد إتمام الاستعدادات، وفي شهر صفر، زحف النبيﷺ نحو خيبر. وفي الطريق علم أن قبائل غطفان الكبيرة قد تحالفت مع اليهود على حربه مقابل تمر خيبر لسنة.

ولما استقر الرسولﷺ في معسكره قرب خيبر، أمر أتباعَه ألاّ يقاتلوا حتى يأذنَ لهم، ونظّم أتباعه وأعطى الرايات. فأعطى راية إلى عليّ، وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سعد بن عبادة[1]. ثم أذِنَ بالقتال. وأمر أن يُركز على الحصن الذي فيه غطفان، من أجل دفعهم إلى التخلي عن اليهود. فضغط المسلمون ضغطاً شديداً على هذا الحصن. وأشيع في غطفان أن مضاربهم وبيوتهم وذرياتهم قد تعرضت للغزو. فانسحبت غطفان من التحالف مع اليهود، وذهبت لتحمي ذراريها من الغزو الموهوم. وبانسحاب غطفان، بدأت الروح المعنوية لأهل خيبر تتضعضع. ولكنهم قاتلوا بكفاءة وشراسة. وهجم الرسولﷺ على الحصون حصناً حصناً فصمدت أمامه. ثم انسحب واتخذ مقراً لقيادته. ثم أخذ يرسل المسلمين على موجات. موجة تذهب بالراية، وموجة ترجع.

جاء في سيرة ابن هشام:

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٦٤٩.

«بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته، وكانت بيضاء، فيما قال ابن هشام، إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يكُ فتح، وقد جَهِد.

ثم بعث الغد عمرَ بن الخطاب فقاتل، ثم رجع ولم يكُ فتح، وقد جَهِد.

فقال رسول الله ﷺ لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار.

قال: يقول سلمة: فدعا رسول الله ﷺ علياً رضوان الله عليه، وهو أرمد، فتفل في عينه ثم قال: خذ هذه الراية، فامضِ بها حتى يفتح الله عليك...... فما رجعَ حتى فتحَ الله على يديه»[1].

عليّ يصرع بطلَ اليهود ويقتحمُ الحصنَ الأكبر

وجاء في صحيح مسلم أن بطل اليهود، مَرحَب، قد تصدى لجيش المسلمين متحدياً، وأنه نجح في قتل عامر بن الأكوع الذي بارزه، وأنه بعد ذلك تدخل علي بن أبي طالب:

«... ثم أرسلني إلى علي، وهو أرمد، فقال: لأعطينّ الراية رجلاً يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله. قال: فأتيتُ علياً فجئتُ به أقوده، وهو أرمد، حتى أتيتُ به رسول الله ﷺ، فبصق في عينيه فبرأ. وأعطاه الراية. وخرج مرحبٌ فقال:

قد علمت خيبر أني مرحبُ   شاكي السلاح بطلٌ مجرّبُ

إذا الحروب أقبلت تلهّبُ

فقال علي:

أنا الذي سمّتني أمي حيدرة   كليث غاباتٍ كريه المنظرة

أوفيهم بالصاع كيل السندرة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٣٠٩.

قال: فضَرَبَ رأسَ مرحبٍ فقتله، ثم كان الفتحُ على يديه»[1].

وفي رواية صحيح البخاري أن رسول اللهﷺ قال «لأعطينّ هـذه الرايـة غـدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله و يحبّه الله ورسوله. قـال: فبـات النـاس يدركون ليلتهم أيّهم يعطاها.

فلمّا أصبح الناس غدوا على رسول اللهﷺ كلهم يرجو أن يعطاها.

فقال: أين علي بن أبي طالب؟

فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه.

قال: فأرسلوا إليه فأتيَ به فبصق رسول اللهﷺ في عينيه ودعا له فبـرأ حتـى كأن لم يكن به وجع. فأعطاه الراية.....»[2].

وهذه النصوص واضحة جلية، وهي تتكامل لتوضـحَ الـدور المحـوري الـذي لعبه عليّ بن أبي طالب في فتح خيبر. فهو الذي تولّى قيادة الحملة التي نجحـت فـي اقتحام الحصن الرئيسي بعدما فشلت كل الحملات الأخرى التي بعثها الرسـولﷺ بقيادة غيره في أن تحقق أي شيء. فعندما طال الحصار، وصمد اليهود، وبـدأ التعـب يدبّ، وروح النكوص تسري بين المسلمين، لجأ رسول اللهﷺ إلـى مـلاذه الأكيـد الذي لم ولن يخذله.

وكعادته، لا يكتفي علي بن أبي طالب بدور القيادة العامة للقوات، وإنما يقوم بنفسه بمهمة الجهاد والمواجهة، ويكون قدوة لمن معه. ولم يكن دوره يوم خيبر مقتصـراً علـى إصدار الأوامر والتعليمات، بل إنه بنفسه تصدّى لبطل اليهود وفارسهم: مرحب.

وهكذا كان عليّ دوماً. فصاحب الهمة الكبيرة يتصدّى للمهمـة الكبيـرة، مهمـا بدت صعبة أو مستحيلة لدى الآخرين.

إذن تضعضعت معنويات اليهود بعـد مصـرع زعـيمهم الفـارس، ليتـابع علـيَ

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ص ٧٠٣.

(٢) صحيح البخاري ج٥ باب غزوة خيبر ص١٧١. وأورد البخاري نفس الحديث أيضا في ج٤ ص٦٥ باب مـا قيـل في لواء النبي وكذلك أورد البخاري نفس الحديث في ج٤ ص٥٨ باب دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة.

ضغطه الفعّال على حصنهم المنيع، إلى أن نجح في اقتحام باب الحصن العظيم.

ولا شك أن موقف عليّ أمام باب حصن خيبر كان فريداً، وينمّ عن قوة عظيمة أظهرها عليّ. وكل الروايات تتحدث عن عدة أشخاص حاولوا حمل ذلك الباب مجتمعين فلم ينجحوا، وهو ذات الباب الذي حمله عليّ وحده أثناء المعركة ليتقي به سهامَ اليهود!

وعن أبي رافع، مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجلٌ من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول عليّ عليه السلام باباً كان عند الحصن، فترّس به عن نفسه. فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ. فلقد رأيتني في نفرٍ سبعةٍ معي، وأنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه»[1].

ولاحت معالم الانهيار

وأظلمت الدنيا في وجه قريش بعد توالي النجاحات النبوية. وبدأ اليأس يغزو نفوسهم. وأسقط في يدهم وصاروا يدركون أن انتصار الرسول ﷺ أمر حتمي، ومسألة وقت ليس إلاّ.

وكان رسول الله ﷺ يدرك ما يدور في خلد قريش، ويعرف أنهم في حالة انهيار معنوي. وكان الرسول ﷺ بسياسته يشجّع في قريش النزعة الاستسلامية، عن طريق ما عرف عنه من تسامح وسموّ خلق. وأرسل محمد ﷺ إلى قريش، ورجالاتها البارزين على نحو خاص، بإشارات عديدة أنه لا ينوي الانتقام منهم على ما اقترفوه من جرائم بحقه وبحق أتباعه. كان محمد ﷺ مهتماً أن يوصل للقرشيين أن في الدين متسَعَاً لهم وأن عباءة الإسلام يمكن أن تضمهم. فكل ما يطلبه منهم هو إعلان الاستسلام للدين الجديد والقبول بنبوته. بل أكثر من ذلك، أوصل الرسول ﷺ للقرشيين رسائل تفيد باستعداده للاستفادة من طاقاتهم وقدراتهم الكبيرة التي

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٣٠٩. وتبدو هناك مبالغة في وصف الرواة لضخامة ذلك الباب الذي حمله عليّ بيده.

كانوا حتى تلك اللحظة يهدرونها في مواجهة خاسرة معه.

وأسفرت تلك السياسة النبوية، مترافقة مع حالة الانهيار المعنوي للقرشيين والتي جعلتهم بلا أمل في المستقبل، عن دخول ثلاثة من أبرز الشخصيات القرشية في الإسلام، وهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، وذلك في سنة ٨ للهجرة، قبل وقت قليل من سير النبيﷺ لفتح مكة.

فلم يكن إسلام خالد بن الوليد وصاحبيه في الحقيقة سوى استسلام للعجز عن إلحاق الهزيمة بالرسولﷺ. كان إسلامهم ناتجاً عن حسابات وتفكير واقعيّ سليم، إدراكاً منهم أن المواجهة مع الرسولﷺ قد حُسِمت وأنّ هزيمة قريش حتمية. وقد ذكر خالد بنفسه هذه الحقيقة وشبّه وضعَهم بعد الحديبية ب «ثعلب في جُحر». وقد اعترف أنه فكّر حتى في الهرب إلى الحبشة أو إلى هرقل، لولا أن أخاه قد أخبره أن الرسولﷺ سيعفو عنه وسيقدّره.

كان هؤلاء الرجال، الشبان الأذكياء والأقوياء، وذوو القدرات والطاقات والمواهب المميزة، لا يريدون أن يربطوا مستقبلهم الشخصي بمصير قريش وقضيتها الخاسرة. فهم رأوا أنهم فعلوا كل شيئ ممكن في جهدهم للقضاء على محمدﷺ ودينه، دون جدوى. لقد صمد محمدﷺ ثلاثة عشر عاماً وهو مُستضعفٌ في مكة لم يتراجع فيها عن دعوته، ثم فرّ بالقلة التي معه إلى قومٍ آخرين آمنوا به ونصروه، وتغلب على كل الصعوبات الهائلة التي واجهته، ونجح في مقاومة تحالف الأحزاب العربية، وغدر اليهود، وخيانات المنافقين، وشأنه في صعود مستمر، وهو لا يتوقف أبداً. فلا بدّ أن الرجلَ نبيّ حقاً، ولا داعي للمكابرة لوقتٍ أطول.

وفيما يلي نصٌ يروي قصة إسلام خالد، ومعه اثنان من كبار قريش، كما وردت على لسانه:

«عن خالد رضي الله عنه قال: لما أراد الله بي ما أراد من الخير، قذف في قلبي الإسلام وحَضَرَني رشدي فقلت: قد شهدتُ هذه المواطن كلها على محمد صلى الله

عليه وسلم. فليس في موطن أشهده إلاّ أنصرفُ وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء وأن محمداً سيظهر.

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية خرجتُ في خيل من المشركين فلقيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان فقمتُ بإزائه وتعرّضتُ له.

فصلى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغيرَ عليهم ثم لم يعزم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطلع على ما في أنفسنا من الهَمّ به. فصلى بأصحابه صلاة العصر: صلاة الخوف. فوقع ذلك منا موقعاً وقلت: الرجل ممنوعٌ، فاعتزلنا وعَدلَ عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين.

فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح قلتُ في نفسي: أي شيء بقي؟ أين أذهب؟ إلى النجاشي؟! فقد اتّبع محمداً وأصحابه عنده آمنون. فأخرجُ إلى هرقل؟! فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية؟! فأقيم في عَجَم؟! فأقيم في داري بما بقي.

فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في عمرة القضيّة، فتغيّبتُ ولم أشهد دخوله. وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية. فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد! فإني لم أرَ أعجبَ من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم عنك. وقال: أين خالد؟ فقلتُ: يأتي الله به. فقال: مثله جهل الإسلام؟! ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين كان خيراً له، ولقدّمناه على غيره. فاستدرك يا أخي! ما قد فاتك من مواطن صالحة.

قال: فلما جاءني كتابه نشطتُ للخروج، وزادني رغبة في الإسلام وسرّني سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عني.

وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجت في بلاد خضراء واسعة. فقلت: إن هذه لرؤيا.

فلما أن قدمتُ المدينة قلت: لأذكرنّها لأبي بكر رضي الله عنه. فقال: مخرجـك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك.

قال: فلما أجمعتُ الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: مَن أصاحبُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فلقيتُ صفوانَ بن أمية فقلتُ: يا أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن كأضراس وقد ظهَر محمدٌ على العرب والعجم. فلو قدمنا على محمد واتّبعناه! فإن شرَف محمد لنا شرف. فأبى أشدّ الإباء فقال: لو لم يبقَ غيري ما اتّبعته أبداً! فافترقنا. وقلت: هذا رجلٌ قتل أخوه وأبوه ببدر. فلقيتُ عكرمة بن أبي جهل فقلتُ له مثل ما قلتُ لصفوان بن أمية. فقال لي مثل ما قال صفوان بن أمية. قلت: فاكتم عليّ. قال: لا أذكره.

فخرجتُ إلى منزلي فأمرتُ براحلتي فخرجتُ بها إلى أن لقيتُ عثمانَ بن طلحة. فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرتُ له ما أرجو. ثم ذكرتُ مَن قتل من آبائه فكرهتُ أن أذكره ثم قلت: وما عليّ؟ وأنا راحلٌ من ساعتي. فذكرتُ له ما صار الأمر إليه. فقلتُ: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحر[1] لو صُبّ فيه ذنوبٌ من ماءٍ لخرج. وقلتُ له نحواً مما قلت لصاحبيّ، فأسرعَ الإجابة.

وقلتُ له: إني غدوتُ اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفج مناخة. قال: فاتّعدتُ أنا وهو بيأجج إن سبَقني أقامَ وإن سبقته أقمتُ عليه. قال: فأدلجنا سَحَراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج. فغدونا حتى انتهينا إلى الهدّة، فنجد عمرو بن العاص بها. قال: مرحباً بالقوم. فقلنا: وبكَ. فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجكَ؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم. قال: وذاك الذي أقدمني.

فاصطحبنا جميعا حتى دخلنا المدينة، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا. فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسُرّ بنا. فلبستُ من صالح ثيابي ثم عمدتُ إلى

---

(١) وأما في كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٧٤٤ فقد ورد أن خالدا استخدم عبارة «والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها».

رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بك فسُرّ بقدومك وهو ينتظركم.

فأسرعنا المشيَ فاطلعتُ عليه، فما زال يتبسّم إليّ حتى وقفتُ عليه فسلّمتُ عليه بالنبوة فردَ عليّ السلام بوجه طلق. فقلت: إني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله. فقال: تعال. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي هداك. قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ أن لا يسلمك إلاّ إلى خير.

قلت: يا رسول الله! إني قد رأيتُ ما كنتُ أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادعُ الله أن يغفرها لي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام يجُبّ ما كان قبله. قلت: يا رسول الله! على ذلك. قال «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلّ ما أوضَعَ فيه من صَدّ عن سبيل الله. قال خالد: وتقدم عثمان وعمرو رضي الله عنهما فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: وكان قدومنا في صفر سنة ثمان. قال: والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه»[1].

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ج١ ص ١٣٨.

فتح مكة

مع اتساع رقعة نفوذ النبيﷺ وتسارع وتيرة الدخول في دينه وسلطانه بين قبائل العرب، نضجت الظروف للفتح الأعظم. فلم يبقَ في مكة سوى الراسخون في الكفر ممن ملأ الحقد الأسود على رسول الله ﷺ وآله، صدورَهم وقلوبهم. وهؤلاء ليس بإمكانهم أن يوقفوا حركة التاريخ ولا أن يحولوا دون أن يدخل العرب في دين الله أفواجاً. لقد انتهى التوازن العسكري بين رسول اللهﷺ وقريش، وصار بإمكان رسول الله ﷺ أن يلحق بقريش هزيمة عسكرية ساحقة متى شاء.

ولكن رسول اللهﷺ كان خيرَ مَن يلتزم بالعهود والمواثيق. ورغم طموحه الشديد إلى العودة الظافرة إلى بلده، للقضاء على أصنامها وطواغيتها، إلاّ أنّ العهد الذي بينه وبين قريش، كان يمنعه من المبادرة إلى الهجوم ما دام العدو يحترم بنود اتفاق الهدنة ويلتزم بها.

واضطر رسول اللهﷺ أن يصبر حتى جاء نقض العهد من جانب العدو! فقد كان الصلح في الحديبية يشمل بنداً يشير إلى أنّ مَن أحبّ من قبائل العرب أن يدخل في عقد رسول اللهﷺ وعهده فله ذلك، ومن أحب منهم أن يدخل في عقد قريش وعهدها، فليدخل. وبناء عليه دخل بنو بكر في عهد قريش، ودخلت قبيلة خزاعة في عهد الرسولﷺ، فكانت هاتان القبيلتان مشمولتين بشروط صلح الحديبية.

والذي حصل أن بني بكر اعتدوا على خزاعة، وقتلوا منهم، بسبب ثأر قديم. وقامت قريش بإمداد بني بكر بالسلاح، وقدمت لهم الدعم، فقاتل قرشيون معهم ضد خزاعة.

وبسبب ذلك العدوان ذهب مندوب خزاعة، عمرو بن سالم، إلى الرسولﷺ في المدينة، مستنجداً به، طالباً منه الوفاء ببنود العهد المبرم، الذي يلزم رسول اللهﷺ بنصرة خزاعة. وعبّر مندوب خزاعة بالشعر عن مطلبه:

يـا ربّ إنـي ناشـدٌ محمـدا　　حـلفَ أبينـا وأبيـه الأتـلـدا
إن قريشاً أخلفـوكَ الموعـدا　　ونقضـوا ميثاقـك المؤكـدا
هـم بيّتونـا بالوتيـر هُـجّدا　　وقتلـونـا ركّعـا وسـجّـدا

إذن نقضت قريش عهد الهدنة مع رسول الله ﷺ ووفّرت لـه السـبب الـذي يريده من أجل التحلل من بنود صلح الحديبية. وللإنصاف ينبغي الإشارة إلى أن قرار قريش بالتدخل في الصـراع بـين بنـي بكـر وخزاعـة ومخالفـة شـروط الهدنـة مـع الرسول ﷺ لم يكن مدروساً على المستوى القيادي لقريش بمكـة، مـن أمثـال أبـي سفيان وسهيل بن عمرو، وإنما كان من عمـل مجموعـات الحمقـى المتهـورين مـن أمثال عكرمة بن أبي جهل، الذين يريدون إيقاع أيّ أذى برسـول الله ﷺ وحلفائـه، في أيّ وقتٍ وبأيّ طريقة، ودون النظر إلى الظروف والعواقب.

وشعر أبو سفيان بخطورة ما جرى. وأدرك أن هذه الحماقـة مـن أبنـاء قـريش ستوفّر لمحمد ﷺ العذر الذي يحتاجه لشنّ حملة ضد قريش. كان أبو سفيان يقـرأ موازين القوى بدقة، ويدرك أنّ قريشاً لم يعد لها طاقـة بحـرب الرسـول ﷺ، وأن مصلحة قريش الاستراتيجية تقتضي عمل أي شيء، مهما كان مؤلماً، من أجل التأكيد على الالتزام بشروط هدنة العشر سنوات، وتقديم أيـة تعويضـات أو اعتـذارات قـد يطلبها محمد ﷺ.

وبسبب ذلك الأمر الجلل، توجّه أبو سفيان بنفسه إلى المدينـة مـن أجـل لقـاء محمد ﷺ «ليشدّ العقدَ ويزيدَ في المدّة». ولكن رسـول الله ﷺ رفـض أن يسـتمع إليه أو يكلمه!

ورغم أن أبا سـفيان حـاول أن يلجـأ إلـى الوسـاطة مـن أجـل الوصـول إلـى الرسول ﷺ، إلاّ أنّ لجوءه إلى ابنته أم حبيبة، زوجة الرسول ﷺ، ثم أبي بكـر، ثـم عمر بن الخطاب، وأخيراً لجوءه إلى عليّ وفاطمة، لم يغـنِ عنـه شـيئاً. فكـل هـؤلاء كانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لـن يوافـق علـى إعطـاء قـريش أيّ أمـل إضـافي للمستقبل. وحينما سأل أبو سفيان علياً وقال لـه: «يـا أبـا الحسـن! إنـي أرى الأمـور

اشتدّت عليّ فانصحني» أجابه عليّ «والله ما أعلم شيئا يُغني عنك شيئاً»[1].

وعاد أبو سفيان بعد غيبة طويلة أمضاها في محاولاته تمديدَ العهد مع رسول الله ﷺ، إلى مكة، أخيراً، وقدْ خاب مسعاه.

وفوجئ أبو سفيان لدى وصوله إلى مكة بإشاعة منتشرة نزلت عليه كالصاعقة:

«وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشدّ التهمة. وقالوا: والله إنا نراه قد صبأ، واتبع محمداً سِراً وكتمَ إسلامَه».

ومن أجلِ نفي هذه الشبهة عنه:

«فلما أصبحَ حَلَقَ رأسه عند الصنمين، إساف ونائلة، وذبح لهما، وجعل يمسح بالدم رؤوسهما ويقول: لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبي! أبرأ لقريش مما اتهموه»[2].

*****

وتجهز رسول الله ﷺ وسار إلى مكة، وحرص على أن يحشد في جيشه أكبر عدد ممكن من الجنود. هو يريد أن يصدم قريشاً نفسياً، ويحطّم معنوياتها بحيث تستسلم وتنهار مقاومتها بلا قتال. كان رسول الله ﷺ يريد أن يكون يوم الفتح مشهوداً في تاريخ الإسلام. لم يكن يريد أن تسيل الدماء في بيت الله، حتى لو كانت دماء ألدّ أعدائه وأعداء الدين من القرشيين.

كانت خطة الرسول ﷺ تقوم على المباغتة والصدمة، وإظهار أقصى درجات الحشد والقدرة.

وسار رسول الله ﷺ بجيشه الذي بلغ عشرة آلاف مقاتل باتجاه مكة. ومضى الجميع حتى أحاطوا بها. وأمر الرسول ﷺ أتباعه بأن يحملوا المشاعل. ورأت قريشٌ عدداً هائلاً منها يقترب من مكة. وأسقط في يدها ولم تدرِ ماذا تفعل وأيقنت أن ساعة الحساب العسير قد أتت.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٣٢.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٧٩٥.

كان رسول الله ﷺ حريصاً جداً على سلمية الفتح الأكبر. وكانت أخلاق النبوة تجعل محمداً ﷺ فوق مستوى البشر، خالياً من الحقد، ولهذا قرر أن يتغاضى عن أبي سفيان وأمثاله من القرشيين، وأن يقبل منهم مُجرّد إعلان الخضوع للإسلام. كان الرسول ﷺ يقبل من الناس الظاهرَ من القول ويترك باطنهم إلى الله، حتى لو كان متيقناً من نفاقهم. هكذا كانت رسالته وسيرته.

ولذلك لم يسمح لنزعات الثأر والانتقام من القرشيين التي بدرت عن بعض أتباعه المخلصين، الذين رأوا في الفتح فرصة لتصفية حساباتهم مع جبابرة قريش، أن تترجم إلى فعل حقيقي. ومثال ذلك ما فعله الرسول ﷺ مع سعد بن عبادة، الزعيم الأنصاري، الذي كان يأمل في إذلال قريش، بل وربما قتل أشرافها. فقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أثناء ذكره لفتح مكة «وكانت راية رسول الله يومئذ مع سعد بن عبادة، فبلغَه عنه في قريش كلام، وتواعدَ لهم. فأخذها منه، فدفعها إلى ابنه قيس بن سعد»[1].

«إسلام» أبي سفيان: جاء في السيرة النبوية لابن هشام أنه لما أحاط جيش المسلمين بمكة، اقتاد العباس بن عبد المطلب أبا سفيان إلى الرسول ﷺ طالباً له الأمان.

«فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله إلا الله؟

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عنّي شيئا بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. أما هذا والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا!

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٥.

فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمدا رسـول الله قبل أن تضرب عنقك.

فشهِدَ شهادة الحق، فأسلم »[1].

والنص حول «إسلام» أبي سفيان هذا، في غاية الوضوح. فهـو قـد دخـل فـي الدين مكرَهاً، خوفاً من حد السيف، لا أكثر. والرسول ﷺ يعلـم ذلـك، وعفـا عنـه بشرط «النطق» بالشهادتين فقط. بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلـك فـي تسـامحه تجـاه عدوّه اللدود، فوافق على طلب عمه العباس:

«يا رسول الله: إن أبا سفيان رجلٌ يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً.

قال: نعم. مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومَن أغلـق بابَـه فهـو آمـن. ومَـن دخل المسجد فهو آمن».

وقررت قريش الاستسلام. فلا جدوى من مقاومة حجافل محمدﷺ.

وأخذ رسول اللهﷺ يكسر أصنام قريش المنصـوبة فـي الكعبـة وهـو يقـول «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا».

ثم جمع رسول اللهﷺ أعـداءه القرشـيين المهـزومين وأعطـاهم درسـاً فـي الأخلاق حفظه التاريخ بأحرف من نور. فقام على باب الكعبة وقال:

«يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليـة وتعظمهـا بالآبـاء. الناس من آدم وآدم من تراب».

ثم تلا عليهم ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ثم قال: يا معشر قريش: ما تَرَونَ أني فاعلٌ فيكم؟

قالوا: خيراً. أخٌ كريم وابن أخ كريم.

قال: **إذهبوا فأنتم الطلقاء»**[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٣٨.

وقد أورد الواقدي نص حوار يظهر فيه أنه حتى في وضعية الذل والهوان التي وجد أبو سفيان فيها نفسه، إلاّ أنه لم يستطع أن يكتم مشاعر الاستكبار الأجوف تجاه أتباع الرسول صلى الله عليه وآله:

«ثم قال أبو سفيان: يا محمد! جئتَ بأوباش الناس، مَن يُعرَفُ ومَن لا يُعرف، إلى عشيرتك وأصلك؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **أنتَ أظلمُ وأفجر! غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه**»[٢].

وكان يزيد بن أبي سفيان من الذين حاولوا المقاومة وأصروا على قتال النبي صلى الله عليه وآله، رغم علمه باستسلام أبيه:

«... يزيد بن أبي سفيان أسر يوم الفتح في باب الخندمة. وكان خرج في نفر من قريش يحاربون ويمنعون من دخول مكة. فقتل منهم قوم وأسر يزيد بن أبي سفيان...»[٣].

ولم يُطق عكرمة ابن أبي جهل ولا صفوان بن أمية أن يدخل محمد صلى الله عليه وآله وأنصاره مكة فاتحين، وتذكّرا كل الجرائم التي اقترفتها أيديهما، فقررا الفرار إلى المجهول!

فأما عكرمة فقد هرب حتى وصل البحر:

«... انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر. فجعل نوتيّ السفينة يقول له: أخلص! فقال: أي شيئ أقول؟ قال: قل: لا إله إلاّ الله. قال عكرمة: ما هربتُ إلاّ من هذا...».

ولكن زوجته أم حكيم ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ورجته أن يؤمّن على حياة

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٧٠.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٨١٦

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٧ ص٢٥٦.

زوجها، فوافق. وعندها ذهبت مسرعة حتى لحقت عكرمة وأخبرته أنها أخذت له أماناً من رسول الله ﷺ فعاد معها حتى دخل على رسول الله ﷺ ونطق أمامه بالشهادتين، فرحّب به الرسول ﷺ وطلب من المسلمين أن لا يسبّوا أباه في محضره حتى لا يؤذوا شعوره.

وكذلك حصل مع صفوان، الذي فرّ حتى وصل منطقة الشعيبة على ساحل البحر الأحمر. فتوسّط له عمير بن وهب لدى رسول الله ﷺ فقال له: «يا رسول الله! سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألاّ تؤمّنه، فأمّنه فداك أبي وأمي! فقال رسول الله ﷺ: قد أمّنته»[1].

فلحقه عمير بن وهب حتى أقنعه بالعودة معه، بعد مماطلة وتردد:

«يا صفوان! فداك أبي وأمي. الله الله في نفسك أن تهلكها. فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به.

قال صفوان: ويحك اغرب عني فلا تكلمني.

قال: أي صفوان: فداك أبي وأمي! أفضل الناس وأبرّ الناس، وأحلم الناس وخير الناس! ابن عمك، عزّه عزّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك!

قال: إني أخافه على نفسي!

قال: هو أحلم من ذاك وأكرم.

فرجع معه»[2].

إذن وافق صفوان على الاستسلام عندما ذكّره الرجل أن»عزّه عزّك وملكه ملكك».

وبلغ تسامح رسول الله ﷺ معه الذروة، حين قبل إعطاءه مهلة أربعة أشهر يبقى خلالها على ملّته دون إكراه أو يدخل الإسلام إن شاء. وفعلاً خرج معه صفوان إلى حنين وهو كافر، وحتى أن رسول الله ﷺ، الفاتح المنتصر، قد استأجر من

---

(١) هذه وما قبله حول عكرمة من كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٨٥١ ـ ٨٥٣

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٥٢.

صفوان هذا بعض السلاح (مائة درع) لتساعد في تجهيز الجيش!

«فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وله سلاحاً. فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك.

فقال: يا أبا أمية: أعِرنا سلاحك هذا نلقَ فيه عدونا غداً.

فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟

قال: بل **عارية ومضمونة، حتى نؤديها إليك**»[(١)].

وتجلت السماحة النبوية في أروع صورها في موقف رسول الله ﷺ من وحشيّ، الذي تولّى بنفسه قتل حمزة واستخرج كبده لكي تلوكه هند، فلم يوقع به أي عقاب سوى طلبه منه ألاّ يُريه وجهه. فقد هرب وحشيّ إلى الطائف وبقي فيها حتى جاء إلى المدينة مع وفد الطائف:

«فدخل عليه فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله.

فقال: أوحشي؟

قال: نعم.

قال: اجلس وحدثني كيف قتلت حمزة.

فلما أخبره قال: قم وغيّب عنّي وجهك. فكان إذا رآه توارى عنه»[(٢)].

المشاعر التي في النفوس

وعلى الرغم من السياسة النبوية المتسامحة، إلاّ أن بعض القرشيين لم يُطِق العيش تحت ظل محمد ﷺ حتى وإن كان البديل هو المنفى البعيد والعزلة. وذلك ما فعله هبيرة بن أبي وهب المخزومي، الذي فرّ إلى قلعة في نجران وبقي فيها إلى مات هناك![(٣)].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٧٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨ ص١٦ نقلا عن الواقدي.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٥٤.

وعلى الرغم من الكرم النبوي الذي تجسّد بالعفو عن أشرس أعدائه، وترك أمر حسابهم إلى رب العالمين، إلاّ أن مشاعر القرشيين، بالإجمال، ودخيلة نفوسهم تجاه الرسولﷺوأنصاره كانت مليئة بالسخط والحزن لما آل إليه حال قريش من انكسار:

«وجاءت الظهر فأمر رسول اللهﷺ بلالاً أن يؤذن بالظهر فوق ظهر الكعبة يومئذ، وقريش فوق رؤوس الجبال، وقد فرّ وجوههم وتغيبوا خوفاً أن يقتلوا. فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من قد أومن.

فلما أذن بلال ورفع صوته كأشد ما يكون، فلما بلغ (أشهد أن محمدا رسول الله)، تقول جويرية بنت أبي جهل: قد لعمري رفع لك ذكرك! أما الصلاة فسنصلي. والله لا نحب من قتل الأحبة أبدا. ولقد كان جاء أبي الذي جاء محمدا من النبوّة فردّها، ولم يرد خلافَ قومه.

وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم.

وقال الحارث بن هشام: واثكلاه! ليتني مت قبل هذا اليوم! أسمع بلالا ينهق فوق الكعبة.

وقال الحكم بن أبي العاص: هذا والله الحدث العظيم! أن يصيح عبد بني جمح على بنيّة أبي طلحة.

قال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخط الله فسيغيره. وإن كان رضاء الله فسيقره.

وقال أبو سفيان: أما أنا فلا أقول شيئا. لو قلتُ شيئا لأخبرته هذه الحصباء»[1].

وأما هند بنت عتبة، فقد عبّرت للرسولﷺ مباشرة عن استنكارها لسماع صوت بلال بن رباح وهو يرفع الأذان فوق الكعبة: «... وزقو؟ هذا العبد الأُسود فوق الكعبة»[2].

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٨٤٦ وورد مثل ذلك في السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٥٧٥.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٧٠ ص١٨٢.

مباشرة بعد فتح مكة، كان على رسول الله ﷺ أن يواجه تحدياً كبيراً، يتمثل في تكتل للقبائل العربية يتكون أساساً من تحالف هوازن وثقيف الضخمتين. فتلك القبائل التي تعيش غير بعيد عن مكة قدّرت أن دورها آت لا محالة. فمحمد ﷺ لا يمكن أن يتوقف، خاصة بعد أن تعبدت أمامه الطريق بفَتح مكة وهدم أصنامها والسيطرة على الكعبة المقدسة.

وكانت قيادة هوازن لا تنظر إلى الجانب النبوي لشخصية محمد ﷺ، بل كانت ترى فقط أن محمداً ﷺ رجلٌ من قريش وسوف يقوم بتوسيع نفوذ قبيلته وقومه على حساب غيرها من القبائل. ولم يكن مالك بن عوف، وغيره من قيادات هوازن وثقيف، مستعدين لإعلان الخضوع لقريش. فهم أندادٌ لقريش وليسوا تبعاً لها. وهوازن وثقيف كانت تتعاون مع قريش فيما مضى، وتتعامل معها، بل وتتحالف وإياها في ظروف معينة، ولكن ليس من منطلق الهيمنة ولا التبعية.

واستعداداً للمواجهة الحاسمة، حشدت القبائل أقصى طاقتها من رجال وسلاح. وقرر مالك بن عوف أن يصطحب جيشُ هوازن معه الأموالَ والنساء والأطفال، حتى تزيد حمية الرجال للقتال. وقرر المبادرة إلى الهجوم، وليس الانتظار لحين قدوم المسلمين. ونصَبَ كميناً محكماً لجيش الرسول ﷺ قرب وادي حنين.

ومن جانبه، قرر رسول الله ﷺ أن يستغل الزَخَم العظيم الذي تحقق له من فتح مكة، وأن يسير بجيوشه لملاقاة هوازن بعد أن بلغته أخبار استعداداتهم وحشوداتهم. وبالإضافة إلى العشرة آلاف رجل الذين فتح بهم مكة، انضمّ ألفان من طلقاء قريش لهم، وسارَ رسول الله ﷺ بالجمع نحو هوازن.

وسقط جيش الرسول ﷺ في الكمين المحكم. وتعرض إلى هجوم مُركز جداً وسريع من قبل خيالة هوازن عندما وصل قرب وادي حنين.

وبسبب الهجوم المباغت فقد المسلمون تركيزهم وزال انتظام صفوفهم. واضطربت الأحوال وبدا أن هوازن في طريقها إلى الظفر. وللأسف فرّ من الميدان

معظم المسلمين، غير مبالين بقيادتهم. واضطر رسول الله ﷺ في الأوقات الصعبة أن يتدبر أمره بالقلة القليلة التي صمدت معه! وهناك إجماع لدى الرواة أن أهل بيت النبي ﷺ قد صمدوا معه في تلك اللحظات: علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب والفضل بن العباس.

روى البخاري عن أبي قتادة في وصفه للمعركة:

«... وانهزم المسلمون وانهزمتُ معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس. فقلتُ له: ما شأنُ الناس؟ قال: أمر الله.....»[1].

إذن تكرر سيناريو يوم أحُد تقريباً، حين انهزم معظم المسلمين وتركوا الرسول ﷺ في الميدان في الموقف العصيب. وقد وصفت الآية القرآنية الوضع ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾.

وبدأ رسول الله ﷺ ينادي المسلمين «أين أيها الناس؟ هلموا إلي! أنا رسول الله. أنا رسول الله. أنا محمد بن عبد الله».

ولما شعر النبي ﷺ بخطورة الأمر قرر أن يلجأ إلى حصنه المنيع، إلى الفدائيين الذين لا يمكن أن يخذلوه: الأنصار، فأخذ ينادي بتحديد أكثر «يا معشر الأنصار: أنا عبد الله ورسوله» وحتى يسمع الأنصار نداءه، أمر عمه العباس أن ينادي بصوته الجهوري «يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة».

وفعلاً لم يكن الأنصار ليخذلوا نبيهم الذي بايعوه طوعاً وهو مستضعف بمكة، فأجابوه «لبيك لبيك» واجتمع منهم عنده مائة وبدأوا القتال بين يديه «وكانت الدعوة أول ما كانت للأنصار، ثم جعلت آخر للخزرج. وكانوا صُبراً عند الحرب». وسرّ النبي ﷺ لاستجابة أنصاره ونظر إليهم بفخر وهم يقاتلون وقال «الآن حمي الوطيس».

---

(١) صحيح البخاري ج٥ ص ١٩٧ باب قول الله تعالى: ويوم حنين إذ أعجبتكم.

واجتمع الأنصار وتكاثروا «فوالله ما راجعه النـاس إلاّ والأسـارى عنـد رسـول اللهﷺ مكتفون»[1].

*****

ووصف ابن اسحق قائدَ هوازن الذي على جَملٍ أحمر وبيده راية سـوداء فـي رأس رمحٍ طويل معه، وكان يمشي أمام هوازن التي تسـير بكليتهـا خلفـه، وكـان إذا أدرك طعنٍ برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحَه لمن وراءه فيتبعوه. فقد جاء فـي سـيرة ابن هشام:

«بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله يصنع ما يصنع، إذ هوى له علي ابن أبي طالب رضوان الله عليه ورجلٌ من الأنصارَ يريدانه. قال: فيأتيـه علـي بن أبي طالب من خلفه، فضرب عرقوبيَ الجمل، فوقعَ على عجزه، ووثب الأنصـاري على الرجل، فضربه ضربة أطنّ قدمه بنصف ساقه، فانجعف عن رحله. قال: واجتلـد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتّفين عند رسول الله..»[2].

وهكذا تكرر سلوك عليّ أيضاً.

فكما كان يوم أحُد كان مشغولاً بمواجهة حَمَلة الألوية والرايـات مـن قـريش، والقضاء عليهم، فهو اليوم مشغول ايضاً بمواجهة حامل راية هـوازن العظمـى، حتـى قضى عليه، فساهم في الانهيار التام لجيش هوازن.

وكما كان عليّ يوم أحد يحوّط رسول اللهﷺ في الموقف العصيب ويقيه بنفسه ويداوي جروحه، فهو الآن أيضاً يقف معه، يحميه ويذبّ عنه ومعه الأنصار المخلصون.

ماذا فعل طلقاء قريش؟

جاء في سيرة ابن هشام «لما انهزم الناس، ورأى مَن كـان مـع رسـول اللهﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجالٌ منهم بما في أنفسهم من الضّغن.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٦٢٥. وكذلك مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٢٠٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص ٧٧.

فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وإن الأزلام لمعه في كنانته.

وصرخ جبلة بن الحنبل ـ وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ: ألا بَطلَ السحرُ اليوم!

وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثأري من محمد (وكان أبوه قتل يوم أحد). اليوم أقتل محمدا»[1].

وليس هذا القول بغريبٍ على أبي سفيان، الذي كانت نفسه تفيض أسىً على ما آلت إليه الأمور. وقد روى ابن عساكر أن أبا سفيان كان يعبّر عن اعتزازه بإمامه وقدوته عتبة بن ربيعة، المقتول كافراً يوم بدر. فقد ردّ أبو سفيان على أحد محاوريه الذي قال له إن «السنّ والشرف» أزريا بعتبة بن ربيعة، فقال له: «كذبتَ. ما ازدادَ سناً إلاّ ازدادَ شرفاً»[2].

المؤلفة قلوبهم

ورغم كل ذلك، فإن الرسول ﷺ كان حريصاً على أن يتألف هؤلاء الطلقاء الذين دخلوا الإسلام كارهين. فأعطاهم من غنائم حنين. وقد ورد في السيرة النبوية لابن هشام[3] أن رسول الله أعطى أبا سفيان بن حرب مئة بعير، وأعطى ابنه معاوية مئة بعير وكذلك أعطى الحارث بن هشام وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وحكيم بن حزام وغيرهم. وأعطى أيضاً عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس.

*****

ومن المفيد التطرّق لشخص عيينة بن حصن قليلاً، لتوضيح مدى تسامح السياسة النبوية. فعيينة هذا كان من زعماء قبيلة غطفان الكبيرة. وكان من قيادات

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٧٥ ـ ٧٦، وورد هذا أيضا في تاريخ الطبري ج٢ ص٣٤٧.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٣ ص٤٣٩.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص ١١٥.

الأحزاب العربية الذين أحضرهم أبو سفيان معه لقتال محمدﷺ وأتباعه يوم الخندق. ونظراً لانعدام المبادئ والأخلاق لدى هذا الشخص، شرع في إجراء مفاوضات مع رسول اللهﷺ لابتزاز المسلمين في تلك الظروف الصعبة. وحاول الضغط على رسول الله من أجل إعطائه نصف تمر يثرب لمدة سنة في مقابل انسحابه وقومه من تجمّع الأحزاب. ولكنّ الرسولﷺ أخذ برأي الأنصار، ممثلين بسعد بن عبادة، في رفض ذلك المطلب الدنيء من عيينة مهما كانت النتيجة.

وتكرر موقف مشابه لعيينة يوم غزوة خيبر. فقد هبّ عيينة وقومه لنصرة اليهود الذين استعانوا بهم لقتال محمدﷺ نظرا لتحالفاتهم القديمة. وهذه المرة دخل عيينة في مفاوضات مع الرسولﷺ من أجل إعطائه نصف تمر خيبر في مقابل انسحابه هو ومن معه وترك اليهود لوحدهم! ولكن الرسولﷺ رفض الابتزاز مرة أخرى، إلى أن انتصر دون الحاجة إلى انسحاب عيينة وقومه.

إذن كان عيينة بن حصن يمتلك كل مقومات المرتزقة المحترفين. لا أخلاق ولا مبادئ. إنما هو القتل للمال.

وقد أثارت سياسة الرسول ﷺ هذه في إعطاء أعدائه ـ دون أوليائه ـ استياءً لدى البعض الذين تساءلوا عن مدى أحقية هؤلاء الرجال بالعطاء، مما اضطر الرسولﷺ أن يوضّح سياسته على النحو التالي:

«إن قائلاً قال لرسول اللهﷺ من أصحابه: يا رسول الله: أعطيتَ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مئة مئة، وتركتَ جعيل بن سراقة الضمري!

فقال رسول اللهﷺ: **أما والذي نفس محمد بيده، لجعيل بن سراقة خيرٌ من طلاع الأرض، كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. ولكني تألفتهما ليسلمَا، ووكلتُ جعيل بن سراقة إلى إسلامه»**[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص ١١٩.

تبوك: حديث المنزلة

وبعد إنجازه للفتح الأعظم، واطمئنان رسول اللهﷺ إلى أن توحيد جزيرة العرب بكافة انحائها أصبح مسألة وقت ليس أكثر، قرر أن يوجّه أنظاره نحو الشمال: حيث بلاد الشام. فأمر المسلمين بالتجهز والاستعداد للسير في حملة عسكرية إلى حدود الشام، الذي كان خاضعا لحكم الامبراطورية البيزنطية.

وأصر الرسولﷺ على المسير رغم الظروف المادية الصعبة التي كان يعاني منها، حتى أن الجيش الذي خرج معه سمّي بجيش العسرة. وكان ذلك الاصرار النبوي يعكس توجيها استراتيجيا للمسلمين من بعده بمواصلة طريق الفتوحات خارج نطاق جزيرة العرب. وهو يريد ان يؤكد أن الاسلام جاء للعالم بأسره، وليس دينا للعرب فقط.

وبخروجه بنفسه إلى تبوك، كان رسول اللهﷺ يرسي بالفعل مبدأ الفتوحات الخارجية، الذي كان قد سنّه قبل فترة غير طويلة حين أرسل جيشا إلى مؤتة، ويقول للعرب المسلمين أن عليهم مواصلة الدرب من بعده. فرسول اللهﷺ بخروجه ذاك كان يعلن لكل العرب أن زمن ما قبل الإسلام قد ولّى وانتهى، وأنه لا مجال بعد توحيد أمة العرب لمواصلة نظام الغزو الداخلي المتبادل بين القبائل داخل نطاق جزيرة العرب. فها هو فضاءٌ رحبٌ واسع يفتحه لهم الرسولﷺ، من شأنه استثمار طاقاتهم، بعد تجميعها وتوحيدها، في جهد مركّز نحو الخارج، نحو الأمم الأخرى.

وخلال الاستعداد للمسير أراد رسول اللهﷺ إيصال رسالة للمسلمين تتعلق بعلي بن أبي طالب، ومنزلته في الإسلام ودوره المستقبلي. فقرر، للمرة الأولى في غزواته وحروبه العديدة، عدم اصطحاب عليّ معه واستخلافه على المدينة المنورة خلال غيابه.

وكان رسول اللهﷺ يعرف حتما أن علياً سوف يستاء من حرمانه فرصة جديدة للجهاد معه، وهو صاحب الباع الأعظم في الجهاد في كل المشاهد. واستغل

رسول الله ﷺ فرصة تساؤل عليّ عن سبب استبقائه في المدينة ليوضح للمؤمنين منزلة عليّ في الإسلام، وموقعه من رسول الله ﷺ. إنها منزلة هارون من موسى.

وفيما يلي نص صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص «أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف علياً. فقال: أتخلّفني في الصبيان والنساء؟ قال: **ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه ليس نبيٌّ بعدي**»[1].

وهذا تعبير في غاية الوضوح من النبيّ ﷺ للدلالة على أن عليّا ليس كغيره من المسلمين. فمنزلة هارون من موسى معروفة تماماً كما ذكرها القرآن على لسان موسى نفسه:

﴿واجعل لى وزيراً من أهلى ۞ هارون أخى ۞ اشدُد به أزرى وأشركه فى أمرى﴾[2].

وأجابه الله ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾[3].

ويقول الله تعالى في موضع آخر على لسان موسى ﴿اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾[4].

وتشبيه رسول الله ﷺ لموضع عليّ منه، بموضع هارون من موسى، هو توجيهٌ صريحٌ منه للمؤمنين بأن يكون عليّ قائدهم وإمامهم من بعده. وهو تمهيد لما سيعلنه رسول الله ﷺ على الملأ بعد فترة قصيرة.

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة تبوك ج٦ ص ٣.

(٢) سورة طه آية ٢٥.

(٣) سورة طه آية ٣٦.

(٤) سورة الأعراف آية ١٤٢.

الكتاب الثاني

وفاة الرسول وانتقال السلطة

«حَسْبُنا كتاب الله...»

عمر بن الخطاب

غدير خُم

رسول الله يعلن ولاية علي بن أبي طالب(عليه السلام)

اختار رسول الله(صلى الله عليه وآله) مناسبة حجة الوداع، وهي حجته الوحيدة، والتي جمعت عشرات الألوف من المسلمين الذين جاؤوا من أنحاء الجزيرة العربية، ليعلن عن توصياته ونواياه فيما يتعلق بمستقبل الحكم والقيادة في دولة الإسلام من بعده.

وفعَلَ الرسول(صلى الله عليه وآله) ذلك بأسلوبٍ لا يحتمل اللبس ولا الغموض:

فالزمان كان مباشرة بعد انتهاء مراسم حجة الوداع، قبل أن ينصرف عموم الناس إلى بلادهم

والمكان يدعى غدير خمّ، قرب مكة.

وفيما يلي بعض الروايات التي ذكرها أئمّة الحديث:

الثقلان

جاء في سنن الترمذي عن زيد بن أرقم «قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) **إنّي تاركٌ فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي. أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[1].

وجاء في سنن الترمذي أيضا«عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله) في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: **يا أيها الناس**

---

(١) سنن الترمذي ج٥ ص٣٢٩ حديث ٣٨٧٦ باب مناقب أهل بيت النبي. وكذلك ذكر ابن كثير في تفسيره ج٤ ص١٢٢ «وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال في خطبته بغدير خم: **إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي. وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**».

إني تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[1].

وجاء في صحيح مسلم في رواية أخرى عن زيد بن أرقم «قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً، بماءٍ يدعى خُمّاً، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر.

ثم قال: **أمّا بعد، ألا أيها الناس! إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وإنا تاركٌ فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه.**

ثم قال: وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي»[2].

وروى النسائي عن سعد بن أبي وقاص «كنا مع رسول الله ﷺ بطريق مكة وهو متوجه إليها، فلما بلغ غدير خم وقف للناس ثم ردّ مَن تبعَه، ولحِقه مَن تخلّف.

فلما اجتمع الناس إليه قال: **أيّها الناس مَن وليّكم؟**

قالوا: الله ورسوله. ثلاثاً.

ثمّ أخذ بيد عليّ فأقامه ثمّ قال: **مَن كان الله ورسوله وليّه فهذا وليّه، اللهم والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه»**[3].

وروى ابن ماجة عن البراء بن عازب نفس الحديث كما يلي «أقبلنا مع رسول الله في حجّته التي حجّ. فنزل في بعض الطريق. فأمَرَ الصلاة جامعة.

فأخذ بيد عليّ فقال: **ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**

قالوا بلى.

---

(1) سنن الترمذي ج٥ ص٣٢٨ حديث ٣٨٧٤ باب مناقب أهل بيت النبي.

(2) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص٩١٥.

(3) الخصائص في فضل علي بن أبي طالب للامام النسائي ص ١٠١.

قال: **ألستُ أولى بكل مؤمن من نفسه؟**

قالوا بلى.

قال: **فهذا وليّ مَن أنا مولاه. اللهم والِ مَن والاه. اللهم عادِ مَن عاداه»**[1].

وروى النسائي أيضاً عن زيد ابن أرقم نفس الحديث بتفصيل أكثر «لمّا رجع النبيﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن فقال: **كأنّي دعيتُ فأجبتُ، وانّي قد تركتُ فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخَر كتاب الله، وعترتي أهل بيتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.** ثم قال: **إنّ الله مولاي وأنا وليّ كل مؤمن.** ثم إنه أخذ بيد علي فقال: **مَن كنتُ وليّه فهذا وليّه.اللهم والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه»**[2].

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم «نزلنا مع رسول اللهﷺ بوادي يقال له وادي خم. فأمَرَ الصلاة فصلاّها بهجير.

قال: فخطبنا وظلل لرسول اللهﷺ بثوب على شجرة سمرة من الشمس.

فقال: **ألستم تعلمون (أولستم تشهدون) أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟**

قالوا: بلى.

قال: **فمن كنتُ مولاه فإن علياً مولاه. اللهم عادِ مَن عاداه ووالِ مَن والاه»**[3].

وفي رواية ثانية للنسائي عن زيد بن أرقم «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟**

قالوا: بلى. نشهد لأنتَ أولى بكل مؤمن من نفسه.

قال: **فإني مَن كنتُ مولاه فهذا مولاه. واخذ بيد عليّ»**[4].

---

(١) سنن ابن ماجة ج١ص٤٣.

(٢) الخصائص في فضل علي بن أبي طالب للامام النسائي ص٩٣.

(٣) مسند أحمد ج٤ ص٣٧٢.

(٤) الخصائص في فضل علي بن أبي طالب للامام النسائي ص٩٥.

وجاء أيضاً في صحيح ابن حبان «عن أبي الطفيل قال قال عليٌ: **أنشدُ الله كل امرئ سمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول يوم غدير خم لمّا قام.**

فقام أناسٌ فشهدوا أنهم سمعوه يقول: ألستم تعلمون أني أولى الناس بالمؤمنين من انفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **من كنتُ مولاه فإن هذا مولاه. اللهم والِ مَن والاه وعادِ من عاداه.**

فخرجتُ وفي نفسي من ذلك شيء فلقيتُ زيد بن أرقم فذكرتُ ذلك له فقال: قد سمعناه من رسول الله يقول ذلك له»[1].

وقد روى ابن كثير[2] حديث الغدير نقلاً عن عدد كبير من المحدثين، منهم أحمد بن حنبل وابنه عبد الله، والنسائي، وأبي بكر الشافعي، وأبي يعلي، وأبي داود الطهوي، والطبراني، وابن عساكر، وعبد الرزاق وابن ماجة. وهؤلاء بدورهم رووا الحديث عن عدد كبير من الصحابة منهم: زيد بن أرقم، وأبو الطفيل، وسعيد بن وهب ورباح بن الحرث وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعميرة بن سعد وزياد بن أبي زياد الأسلمي وحذيفة بن أسيد والبراء بن عازب.

وهذه النصوص كلها بالغة الدلالة والوضوح على رغبة رسول الله ﷺ بتعيين علي بن أبي طالب خليفة له، وقائداً للمسلمين من بعده.

والأسلوب الذي اتبعه الرسول ﷺ، الصلاةُ الجامعةُ، والإمساكُ بيد علي بن أبي طالب، ترديدُ سؤاله للمسلمين مَن مولاكم؟ وتأكيده على أنه أولى بكل مؤمن من نفسه، وأخيراً قولَه الصريح بأن مَن كان الرسول مولاه فعليٌ مولاه، لا يدع مجالا للشك بأن مقصد الرسول ﷺ كان الوصيّة بأن يكون عليّ هو الحاكم والإمام من بعده[3].

---

(1) صحيح ابن حبان ج١٥ ص٣٧٦.

(2) البداية والنهاية ج٧ ص٣٨٦.

(3) ومن الصعب الأخذ بقول البعض بأن معنى «مولاه» الوارد في النص النبوي، هو ببساطة «المحبة»، وبالتالي فإن ما قصده الرسول ﷺ ينحصر في دعوة المسلمين لمودة عليّ وآل بيته!

ومن ناحية منطقية، فليس هناك أي عجَب أو غرابة في هذا التوجّه النبوي. فعليٌّ هو أعظم الناس دوراً في كافة مراحل ومحطات الدعوة النبوية ولا يوازيه في جهاده وإنجازاته أحَد. وهو بالتالي يستحق ذلك الدور المستقبلي الذي قصَدَه النبيﷺ اعتماداً على شخصه وخصاله، ناهيك عن علاقة القربى العائلية اللصيقة والفريدة.

بل إن هناك روايات تفيد بأن آية قرآنية نزلت في تلك المناسبة، منها مثلاً ما ذكره الواحدي:

«عن أبي سعيد الخدري: نزلت هذه الآية ﴿يا أيها النبي بلّغ ما أنزل إليك من ربك﴾ يوم غدير خم ـ في علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[1].

الاستياء القرشي

وكان ما قاله الرسولﷺ وفعله، أمراً خطيراً جداً في أعين القرشيين. فبعد أن هُزموا واستسلموا، ها هم يرون أن محمداً لا يكتفي بقبول الإسلام منهم بل يطالبهم بالخضوع لآله والولاء لهم، وعلى رأسهم عليّ بالذات، ويقول عنهم إنهم الثقل الثاني بعد كتاب الله. وإذا كان الرسولﷺ بسياسته المتسامحة يوم الفتح قد ساهم في تهدئة مخاوفهم وتسكين حدّة عدائهم، إلاّ أنه بتقديمه العلنيّ لعليّ من بعده قد أعاد لهم ذكرياتهم الأليمة وتجربتهم المرة معه. فعليٌّ كان القاتلَ السّفاك بنظرهم، والعدو الذي لا يرحم الذي فتك بعظمائهم وأذل أشرافهم، وتصدّيه للزعامة من بعد محمدﷺ أمرٌ لا يطاق!

وهناك رواياتٌ توضّح مدى الاستياء القرشيّ، والغضب، من الإعلان النبوي بخصوص عليّ. فمثلا روى الإمام القرطبي في تفسيره أن الحارث بن النعمان الفهري:

«لمّا بلغه قول النبيّ ﷺ في عليّ رضي الله عنه (مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه)،

---

(١) أسباب نزول الآيات للواحدي ص١٣٥.

ركب ناقته، فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال: يا محمد! أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله فقبلناه منك.

وأن نصلي خمساً، فقبلناه منك.

ونزكي أموالنا فقبلناه منك.

وأن نصوم شهر رمضان في كل عام، فقبلناه منك.

وأن نحجّ فقبلناه منك.

ثم لم ترضَ بهذا حتى فضلتَ ابنَ عمك علينا! أفهذا شيئٌ منك أم من الله؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله: **والله الذي لا إله إلاّ هو، ما هو إلاّ من الله.**

فولى الحارث وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمدٌ حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو إئتنا بعذاب أليم...»[1].

وإذا كان الحارث بن النعمان قد عبّر علناً، وأمام النبي صلى الله عليه وآله، عن مشاعر قريش تجاه ما يَرَونه محاباة من النبي صلى الله عليه وآله لعليّ خصوصاً وبني هاشم عموماً، فإن غالبيّة القرشيين لم تكن لتجرؤ على التعبير عن حقيقة مشاعرها بشكل مباشر كما فعل النعمان، خاصّة وأن النبي صلى الله عليه وآله موجودٌ بذاته بين أظهرهم، وهو قد انتصر، وعمّ دينه جزيرة العرب بأسرها. ولكنّ آل النبي صلى الله عليه وآله كانوا يشعرون بمدى الحسد الذي تنطوي عليه نفوس قومهم من بقية بطون قريش، ويحسّون بأن هؤلاء يدبّرون أموراً في الخفاء، دونهم. وقد عبّر العباس بن عبد المطلب عن ذلك مرة حين قال للنبي صلى الله عليه وآله «ما لنا إذا رآنا رجالُ قريشٍ وهم في حديثٍ قطعوه وأخذوا في غيره؟»[2].

---

(١) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٧٩.

(٢) كتاب المنمق في أخبار قريش لابن حبيب البغدادي ص٤٠. ومثل ذلك ورد في مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٢٠٧. وفي رواية سنن الترمذي ج٥ ص٣١٨ أن العباس قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو غاضب: «...ما لنا ولقريش؟ إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة، وإذا لقونا لقونا بغير ذلك! فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى احمرّ وجهه ثم قال: والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله...».

رزيّة يوم الخميس

هل وصّى رسول الله قبل موته؟

أجمعت كل مراجع الحديث النبوي على ذكر حادثة حصلت أثناء فترة مرض الرسولﷺ ووفاته. وتتلخّص في أن النبيﷺ أراد أن يكتب وصيته للمسلمين من بعده، حتى لا يضلّوا أبداً، وهو على فراش المرض. ولكنّ عمر بن الخطاب، ومعه جماعة من أتباعه، تدخّل ومنع النبيﷺ من ذلك، وبالتالي حرَمَه، وحَرَم كل المسلمين، من الحصول على وصيّة الرسولﷺ المكتوبة. وكان تدخّل عمر فظّا، فأثار اللغط في البيت، وواجه كل أهل البيت حينما أرادوا تنفيذ طلب الرسولﷺ، بقوله إن النبيﷺ يهجر، وأن القرآن موجود، وهو يكفي بحد ذاته، ولذا لا حاجة لوصايا محمدﷺ.

النصوص

فقد روى البخاري في صحيحه:

«لما اشتدّ بالنبيﷺ وجعه قال: **ائتوني بكتابٍ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده.**

قال عمر: إنّ النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا!

فاختلفوا وكثر اللغط. قال: **قوموا عني! ولا ينبغي عندي التنازع.**

فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه»[1].

وروى البخاري أيضاً:

«لما حُضر رسول اللهﷺ، وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب، قال النبيﷺ: **هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده.**

---

(١) صحيح البخاري باب كتابة العلم ج١ ص ٣٩.

فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع. وعندكم القرآن، فحسبنا كتاب الله!

فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم مَن يقول: قرّبوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم مَن يقول ما قال عمر.

فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبي قال رسول الله ﷺ: قوموا.

قال عبيد الله فكان ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم»[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه:

«لمّا حضر رسول الله ﷺ، وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب، فقال النبي ﷺ: **هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده.**

فقال عمر: إنّ رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله!

فاختلف أهل البيت، فاختصموا. فمنهم مَن يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله كتابا لن تضلّوا بعده، ومنهم مَن يقول ما قال عمر.

فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله، قال رسول الله ﷺ: **قوموا.**

قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرزيّة كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من اختلافهم ولغطهم»[2].

وجاء في صحيح البخاري أيضاً، عن ابن عباس قال:

«يوم الخميس وما يوم الخميس؟! اشتدّ برسول الله وجعه. فقال: **ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً.** فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبيّ تنازع.

(١) صحيح البخاري ج٧ باب قول المريض قوموا عني ص١٥٦. ونفس النص، بالحرف تقريبا، ورد أيضا في صحيح البخاري باب كراهية الخلاف ج٩ ص ١٣٧.

(٢) صحيح مسلم كتاب الوصية ص ٦٢١. ونفس الحديث ورد في مسند أحمد ج١ ص٣٢٥.

فقالوا: ماشأنه أهَجَرَ؟ استفهموه. فذهبوا يردّون عليه.

فقال: **دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه.**

وأوصاهم بثلاث قال: **أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وسكت عن الثالثة، أو قال فنسيتها**»[١].

وجاء في صحيح البخاري أيضا عن ابن عباس قال:

«يوم الخميس وما يوم الخميس! ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى. قلت: يا أبا عباس: ما يوم الخميس؟ قال: اشتدّ برسول الله وجعه. فقال: **ائتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً.**

فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبيّ تنازع.

فقالوا: ماله أهَجَرَ؟ استفهموه.

فقال: ذروني فالذي أنا فيه خيرٌ مما تدعوني إليه.

فأمرهم بثلاث قال: **أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم والثالثة خير. إمّا أن سكت عنها، وإما أن قالها فنسيتها**»[٢].

قال سفيان: هذا من قول سليمان (ويوجد شخص اسمه سليمان الأحول في سَند الحديث).

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى نفس الحادثة:

«عن عمر بن الخطاب قال: كنا عند النبي وبيننا وبين النساء حجاب فقال رسول الله: **اغسلوني بسبع قرب وائتوني بصحيفة ودواة اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبداً.**

---

(١) صحيح البخاري ج٦ ص ١١ باب مرض النبي ووفاته.

(٢) صحيح البخاري ج٤ ص ١٢١ باب إخراج اليهود من جزيرة العرب. وورد الحديث في صحيح البخاري ج٤ باب يقاتل عن أهل الذمة ولا يسترقون ص ٨٥ بنفس الألفاظ تقريبا مع النهاية «ونسيت الثالثة»!

فقال النسوة: ائتوا رسولَ الله بحاجته!

قال عمر: فقلتُ: اسكتنَ فإنكن صواحبه إذا مرض عصرتنَ أعينكن، وإذا صحّ أخذتن بعنقه.

فقال رسول الله: هنّ خيرٌ منكم»[1].

وروى الإمام مسلم كذلك:

«عن ابن عباس أنّه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس! ثم جعل تسيل دموعه، حتى رأيت على خدّيه كأنها نظام اللؤلؤ.

قال: قال رسول الله ﷺ: **ائتوني بالكتف والدواة (أو اللوح والدواة) أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبدا.**

فقالوا: إنّ رسول الله يهجُر»[2].

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس:

«لما حُضر رسول الله ﷺ قال: إئتوني بكتفٍ أكتب لكم فيه كتاباً لا يختلف منكم رجلان بعدي.

فأقبل القومُ في لغطهم.

فقالت المرأة: ويحكم! عَهد رسول الله ﷺ!»[3].

*****

ملاحظات أساسية حول هذه النصوص

لا بد من الإشارة إلى:

* حرص ظاهر من رواة الحديث على تخفيف وطأة ذلك الموقف الرهيب الذي اتخذه عمر بن الخطاب. ففي كل النصوص التي فيها اسم عمر بن الخطاب

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص ٢٤٣. وفي رواية أخرى لابن سعد أن زينب زوج النبي هي التي قالت: ألا تسمعون النبي يعهد إليكم؟! فلغطوا. فقال: قوموا.

(٢) صحيح مسلم كتاب الوصية ص ٦٢١.

(٣) مسند أحمد ج١ ص٢٩٤.

صريحاً، يتم استخدام عبارة «قد غلبه الوجع»، وأما عند ذكر العبارة الحقيقية التي استخدمت في ذلك الموقف «يهجُر»، فتتم نِسبَة القول إلى المجهول «فقالوا». والسبب في ذلك هو ولا شك الإحساس بمدى القبح الذي تنطوي عليه عبارة عمر.

فالهجر في اللغة هو القول السيء. وفي لسان العرب لابن منظور«الهجر«برفع الهاء ـ القبيح من الكلام. والهجر أيضا بمعنى الهذيان. و«الهجر»، بالضم، الاسم من الإهجار وهو الإفحاش. وكذلك إذا كثر الكلام فيما لا ينبغي. وهجر في مرضه بمعنى هذى.

فرواة تلك الحادثة ذهلوا من تصرّف عمر بن الخطاب، وبالأخص استعماله لتلك العبارة الشنيعة بحق الرسولﷺ: يهجر، فقرروا استبدالها بعبارة مخففة: غلبه الوجع، على الرغم من علمهم بأن ذلك لا يغيّر من حقيقة الأمر شيئا.

* موضوع «النسيان»! ففي بعض نصوص الحادثة، يُروى أن النبيﷺ لما يئس من إمكانية كتابة وصيته بسبب معارضة عمر بن الخطاب واللغط الذي أثاره هو وأتباعه، لجأ إلى الوصية الشفهية لمن كان موجوداً. ويُروى أنه أمر بثلاثة أشياء:

إخراج المشركين من جزيرة العرب

إجازة الوفود بنفس ما كان يجيزهم ومعاملتهم بنفس طريقته

وأما الوصية الشفهية الثالثة فذكر الرواة أنهم «نسوها»!

وهذا مما لا يمكن تصديقه. فكلام الرسولﷺ في ذلك الموقف مهمٌ جداً، وبالذات وهو على فراش الموت. وفي آخر عهد المسلمين بنبيّهم لا يُعقل أن الراوي يتذكّر وصيتين فقط وينسى الثالثة. لقد رُوي عن النبي ﷺ أقواله في أدق التفاصيل، وحتى في صغائر الأمور، فكيف يستقيم أن الرواة ينسون آخر كلامه وعهده للمسلمين من بعده وخاصة وهم يسمعونه يؤكّد لهم أنه يريد أن يبلغهم أمراً حاسماً حتى يجنّبهم الضلال والاختلاف من بعده؟

إن ربط ما جرى يوم الخميس من أحداث مؤلمة بحضرة النبيﷺ كان بطلها عمر بن الخطاب وأتباعه، بما جرى بعد وفاته مباشرة من أحداث جسيمة

في سقيفة بني ساعدة، كان بطلها أيضا عمر بن الخطاب وأتباعه، يرجّح أن الوصية الثالثة التي أعلنها النبيﷺ، شفهياً بعد أن مُنِع من كتابتها، كانت تتعلّق بأمور الحكم والقيادة من بعده، وبالتحديد: النص على ولاية عليّ بن أبي طالب وإمامته للمسلمين.

وهذا الاستنتاج ينسجم تماماً مع ما أعلنه النبيﷺ قبل ذلك أمام كل الناس يوم غدير خم.

وبسبب هذا الإعلان النبويّ الصريح، لم يجد الرواة بداً من الادّعاء بأنهم «نسوا «تلك الوصية الثالثة!

* موقفُ مَن كان في البيت. فالحادثة كانت فظيعة بكل المقاييس. فكل ما طلبه النبيﷺ من الحاضرين هو أن يُملي عليهم وصيته الأخيرة. وهذا حقّ طبيعي لكل إنسان وهو على فراش الموت. وليس في هذا الطلب من النبيﷺ ما يستدعي ذلك الغضب والهيجان الذي أظهره عمر بن الخطاب، إلى حد اتهامه له بالهذيان أو الخَرَف. ولم يكن محمدﷺ أول مَن أراد من الناس أن يوصي في أواخر أيامه، وبالتأكيد لن يكون آخرهم.

ولذلك فإن عمر برفضه سماع وصية رسول اللهﷺ أو السماح له بكتابتها، أثار ضجّة كبرى في البيت وسبّب اختلافاً ولغطا عظيماً بين الحاضرين. وإن ما يُروى من أن نساء المنزل أخذنَ يصحنَ «ويحكم! رسول الله يعهد إليكم! ائتوا رسول الله بحاجته! «يشير إلى مدى الاستهجان الذي ساد أوساط أهل الدار لموقف عمر إلى درجة تدخّل النساء. وإن الانقسام والتنازع الذي حصل بين مَن يريدون الاستجابة لأمر الرسولﷺ وإعطائه الفرصة لكتابة ما يريد، وبين مَن يريدون تنفيذ أمر عمر «القولُ ما قالَ عمر»، يشير إلى أن عمر كان يعبّر عن تيّار موجود بالفعل ويتزعّمه، وأن ذلك هو التيّار القرشيّ المعارض لعليّ بن أبي طالب والناقم عليه، والمصمم على فعل كل شيئ من أجل الحيلولة دون وصوله إلى منصب القيادة بعد النبيﷺ.

فعمر لم يكن وحيداً في موقفه، بل كان الناطق باسم ذلك التيار.

• ومن اللافت للنظر أن حادث كتابة الوصية في مرض الوفاة قد تكرر تماماً بعد حوالي سنتين، ولكن مع أبي بكر هذه المرة. ولكن عمر بن الخطاب كان له حينها موقف يختلف تماماً عن موقفه الرافض لكتابة الرسولﷺ لوصيته والذي بلغ حد اتهامه بالهجر:

«كان عثمان يكتب وصية أبي بكر. فأغمي على أبي بكر. فجَعَل عثمانُ يكتب. فكتبَ عمرَ.

فلما أفاق قال: ما كتبتَ؟

قال: كتبتُ عمر.

قال: كتبتَ الذي أردتُ أن آمرك به، ولو كتبتَ نفسك لكنتَ لها أهلاً.

...... رأيتُ عمر وبيده عسيبُ نخلٍ وهو يُجلس الناسَ يقول: اسمعوا لقول خليفة رسول الله.

فجاء مولى لأبي بكر يقال له شديد بصحيفة فقرأها على الناس.

فقال: يقول أبو بكر: اسمعوا وأطيعوا لمن في هذه الصحيفة فوالله ما آلوتكم.

قال قيس: فرأيتُ عمرَ بعد ذلك على المنبر»[1].

وبسهولة يمكن ملاحظة أن أبا بكر كان في حالة صحية حرجة جداً، إلى حد الإغماء، ولكنّ عمر لم يقل عنه إنه يهجر، بل على العكس كان عمر يقول للناس: اسمعوا وأطيعوا لخليفة رسول الله! ولم يقل عمر للناس أن القرآن موجود وهو حسبنا، كما قال للناس لما أراد الرسولﷺ ـ قبل سنتين فقط ـ كتابة وصيته!

بل إن عمر بن الخطاب نفسه، أصرّ على إملاء وصيّته بشأن الحكم من بعده،

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة النميري ج٢ ص ٦٦٧. وأيضاً مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٧٣ـ٧٤. وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٣٩ ص١٨٥ الجزء الأول من الرواية والذي فيه غيبوبة أبي بكر أثناء كتابة عثمان وصيته ثم إفاقته.

وطريقة اختيار الخليفة، وبالتفصيل الدقيق، رغم أنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن طعن. ولم يقل له أحدٌ إنه يهذي، مع العلم أن خنجر القاتل كان قد نفذ إلى أعماق بطنه فكان طبيبه يسقيه اللبن والنبيذ فيخرج من جرحه!

ورغم حالته تلك، أملى عمر وصيته، وكانت مليئة جداً بالتفاصيل، ونفّذت بدقة.

نظرة عمر إلى دور الرسول

● من المهم جداً الإشارة هنا إلى أن موقف عمر هذا، والذي يتلخّص بشعار «حسبنا كتاب الله»، يسنده الكثير من المواقف الأخرى لعمر، التي كلها تثير الشبهة حول طريقة نظرته إلى دور الرسولﷺ في الدين، ومدى إلزامية سنّته وأحكامه. فعلى الرغم من أن عمر كان بلا شك مؤمناً بدين محمد ونبوّته، إلاّ أنه فيما يبدو كان لعمر رأيٌ يخالف ما يجمع عليه فقهاء الإسلام وعلماء الدين ويعتبرونه من الأصول، وهو اعتبار رأي الرسولﷺ وقوله وفعله جزءً أساسياً من صحة الإيمان. فهناك ما يدعو إلى الإعتقاد أن عمر كان يعتبر رأيَ الرسولﷺ اجتهاداً من شخصه وليس بالضرورة مُلزماً بالإتّباع. وبهذا المعنى كان عمر لا يرى أي حَرَج - ولو أمام نفسه - في مخالفة أمر الرسولﷺ، بل وتحدّي إرادته عند اللزوم، على أساس أن الرسولﷺ بشر»يصيب ويخطئ«وأنه من الممكن أن يكون لعمر رأي أفضل منه[1]!

● فكأنّ عمرَ يقيم فصلاً عجيباً بين الرسول والقرآن! وكأنّ عمر يري أن الرسولﷺ اقتصر دوره على تلقّي الوحي الإلهي وتبليغه للناس بطريقة ميكانيكية

(١) روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٤ ص١٣٧ حادثة توضح بجلاء مدى اعتداد عمر برأيه بحضرة النبيﷺ. فالحكم بن كيسان أسَرَه المسلمون وهو في عير لقريش. فلما أحضروه للنبيﷺ أخذ يدعوه إلى الإسلام ويحدثه ويشرح له، فلم يُعجب ذلك عمرَ فتدخل قائلا «علامَ تكلم هذا يا رسول اللهﷺ؟! لا يسلمُ هذا آخرَ الأبد. دعني أضرب عنقه... فجعل النبيﷺ لا يُقبِل على عمر. حتى أسلم الحكم. فقال عمر: فما هو إلاّ أن رأيته قد أسلم حتى أخذني ما تقدم وما تأخر. وقلتُ: كيف أردّ على النبيﷺ أمراً وهو اعلم به مني؟ ثم أقول: إنما أردتُ بذلك النصيحة لله ولرسوله».

محددة، ولا يتجاوز ذلك. ومن هنا فإن سنة الرسولﷺ تصبح مجرّد نصيحة استشارية. ومما يدعم هذا التحليل ما ذكره ابن سعد[1] أن عمر بن الخطاب طلب من الناس أن يأتوه بما عندهم من أحاديث الرسولﷺ المكتوبة، فلما أتوه بها أمر بحرقها! وكان أبو بكر من قبله قد أحرق أحاديث الرسول ﷺ، ولكن الفارق أن أبا بكر قد أحرق ٥٠٠ حديثاً كان قد جمعها هو بنفسه، بينما عمر أحرق الأحاديث التي جمعها كل المسلمين! وأيضا ذكر الذهبي[2] أن عمر ـ بالإضافة إلى حرق ما استطاع جمعه من الناس من أحاديث الرسول ﷺ ـ قد نهى الصحابة حتى عن رواية الأحاديث عن رسول اللهﷺ، بحجة أن ذلك سيشغل الناس عن حفظ القرآن![3].

وروى الإمام الطبري أنه من ضمن ما كان عمر يوصي به عمّاله وهو يرسلهم إلى الأمصار «... جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمدﷺ...»[4].

وذكر ابن حبان أن عمر بن الخطاب، أثناء خلافته، أصدر أمراً صريحاً للصحابة الذاهبين إلى العراق بعدم إشاعة أقوال النبيﷺ وأحاديثه بين المسلمين:

«جوّدوا القرآن وأقلّوا الرواية عن رسول اللهﷺ».

وقد برر ذلك بحرصه على أن يركّز المسلمون على كتاب الله:

«إنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدويّ النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث»[5].

● وكل سيرة عمر تثبت أن نظرته تلك لدور النبيﷺ لم تتغيّر قيد أنملة.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص١٨٨.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٧. وفي ص٥ كلام عائشة عن حرق أبي بكر للأحاديث النبوية بحجة شكّه أن يكون بعضها فيه خطأ من النقل.

(٣) وقد تابع الخليفة الثالث عثمان بن عفان نفس منهج سابقيه. فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٣٩ ص١٨٠ أن عثمان قال وهو على المنبر «لا يحل لأحد يروي حديثا لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر». وذلك يعني المنع الفعلي لرواية الأحاديث، لأن الخليفتين لم يسمحا لأحد برواية أي شيء.

(٤) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٧٣.

(٥) كتاب «المجروحين» لابن حبان ج١ ص٣٦.

فحتى في آخر لحظات حياته، قال عمر لما قيل له أن يستخلف حين طعن».... وإني لئن لا أستخلف فإن رسول اللهﷺ لم يستخلف، وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف»[1]. فيبدو من ظاهر قول عمر هذا، أنه جعل فعل أبي بكر سُنة، وجعل فعل النبيﷺ سُنة، وأعطى نفسه صلاحية اتباع أيَ السنتين، ولم يفرّق بينهما.

*****

وهناك أيضاً ما يشير إلى انسجامٍ في وجهة النظر بين عمر وأبي بكر بشأن دور الرسولﷺ، وإن كانت هذه النظرة إلى حكم الرسولﷺ تأخذ شكلها الفجّ والصارخ لدى عمر.

روى الإمام الذهبي «إن الصدّيق جَمَع الناسَ بعد وفاة نبيّهم فقال: إنكم تحدّثون عن رسول اللهﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ اختلافاً.

فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئا.

فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله. فاستحِلّوا حلاله وحرّموا حرامَه»[2].

وبَرّر الذهبي ذلك بقوله «إن مُراد الصدّيق التثبّت في الأخبار والتحري، لا سدّ باب الرواية».

مع العلم أنه في عهد أبي بكر لم تكن الرواية عن الرسولﷺ قد شاعت وكثرت بين الناس، لحِدث عهده بهم.

كما أنه من الصعب تصديق أن الحرص على سنة النبيﷺ وسيرته ممكن أن يكون سبباً في منع روايتها.

والنتيجة كانت أن أبا بكر قد أكّد مبدأ عمر: حسبنا كتاب الله!

*****

---

(1) صحيح مسلم ص٧١٠ باب الاستخلاف وتركه. وكذلك روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ج١ ص٤١.
(2) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٢.

وكان هذا التيار القرشي صاحب تلك النظرة إلى شخص الرسول ﷺ ودوره، موجوداً في أيام النبي ﷺ ذاته. ولكنه حينها كان في الغالب يتوارى في الظل، ويعمل في الخفاء من وراء ظهره، إلاّ في حالات معيّنة كان فيها عمر بن الخطاب، رائد ذلك التيار وقائده، يعبّر جهاراً عن معارضاته للنبي ﷺ ويعلن عن اجتهاداته المخالفة له. ولكن بسبب تتالي النجاحات النبوية وتصاعد مسيرتها الظافرة، كان ذلك التيار يضطر إلى القبول والتسليم بقرارات النبي ﷺ وسياساته.

«عن عبد الله بن عمرو قال: كنتُ أكتب كل شيئ أسمعه من رسول الله ﷺ، أريد حفظه.

فنَهَتني قريش. وقالوا: أتكتبُ كلّ شيئ تسمعه، ورسولُ الله ﷺ بَشر، يتكلم في الغضب والرضا؟

فأمسكتُ عن الكتاب.

فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بإصبعه إلى فيه فقال: أكتب. فوالذي نفسي بيده، لا يخرج منه إلاّ حق»[1].

وإن ما قاله هؤلاء القرشيون لعبد الله بن عمرو يؤشر على مدى هزالة معتقدهم برسول الله ﷺ. فهو بنظرهم مجرّد بشر، ويمكن أن يحكمه هواه وانفعالاته، وبالتالي ليس من الحكمة أخذ كل ما يقوله دائماً على محمل الإلزام للمسلمين.

وتاريخ عمر بن الخطاب وسيرته، وجرأته على النبي ﷺ، تجعل من المرجّح جداً أن يكون عمر هو الذي قصَدَه عبد الله بن عمرو بقوله «فنهتني قريش».

*****

---

(١) سنن أبي داود ج٢ ص١٧٦.

وفيما يلي استعراضٌ لبعض«اجتهادات»عمر بن الخطاب في مسائل حصلت أيام خلافته، لتضاف إلى ما سبق واتخذه من مواقف أيام الرسولﷺ نفسه:

المتعتان[1] (الحج والنساء):

روى الإمام مسلم عن أبي نضرة قال«كنتُ عند جابر بن عبد الله فأتاه آتٍ فقال: ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين. فقال جابر: فعلناهما مع رسول اللهﷺ ثم نهانا عنهما عمر، فلم نعُد لهما».

وفي رواية أخرى عن جابر بن عبد الله «كنا نستمتع، بالقبضة من التمر والدقيق، الأيام، على عهد رسول اللهﷺ، وأبي بكر، حتى نهى عنه عمر»[2].

فعمرُ حَرّمَ متعة الحج لأنه كره أن يحل الرجل من عمرته، ثم يأتي النساءَ، ثم يهلّ بالحج. فهو قال بشأن متعة الحج: (قد علمتُ أن رسول اللهﷺ فعلها وأصحابه. ولكن كرهتُ أن يظلوا بهنّ معرسين تحت الاراك ثم يلبون بالحج، تقطر رؤوسهم)[3].

وروى الإمام أحمد «عن محمد بن عبد الله بن الحرث بن نوفل بن عبد المطلب أنه سمع سعد بن أبي وقاص والضحاك بن قيس، عام حج معاوية بن أبي سفيان، وهما يذكران التمتع بالعمرة إلى الحج.

فقال الضحاك: لا يصنعِ ذلك إلاّ من جهل أمر الله

فقال سعد: بئسما قلتَ يا ابن أخي!

---

(١) ليس المقصود هنا البحث الفقهي حول موضوع المتعتين، فذلك له مواضعه وأهله. والمراد إثباته هنا هو جرأة عمر بن الخطاب الكبيرة في مجال الأحكام الشرعية.

(٢) صحيح مسلم باب نكاح المتعة ص٥٠٧.

(٣) شرح نهج البلاغة ج١٢ ص١٥٠. ويبدو أن عمر قد أراد استرضاء قريش في ذلك، أو أنه كان يرى رأيهم صواباً. فقد ورد في مسند أحمد ج١ ص٢٥٢عن ابن عباس أنه قال «كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض»وأنه لما أمرهم النبيﷺ بمخالفة ذلك والتمتع بالعمرة «فتعاظم ذلك عندهم! فقالوا: يا رسول الله أي الحل؟ قال: الحل كله».

فقال الضحاك: فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد نهى عن ذلك.

فقال سعد: قد صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه»[1].

وروى الإمام ابن حزم «وقيل لابن عمر في اختياره متعة الحج على الإفراد: إنك تخالف أباك! فقال: أكتابُ الله أحق أن يتبع أم عمر؟»[2].

وقد روى الإمام الطبري أن عمران بن سواد قال لعمر أن من المآخذ عليه:

«... إنك حرّمتَ العمرة في أشهر الحج، ولم يفعل ذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه، وهي حلال.

... إنك حرّمتَ متعة النساء وقد كانت رُخصة من الله نستمتع بقبضة ونفارق عن ثلاث...»[3].

التمييز بين الناس في العطاء

كان رسول الله ﷺ يتبع سياسة التسوية بين الناس في قسمة الأموال. فلم يكن هناك تمييز بين مهاجر وأنصاري، ولا عربي وعجمي، لأن الناس سواسية وحاجات البشر متشابهة.

واستمر الحال كذلك في عهد أبي بكر. ولكن عمر بن الخطاب قرر تغيير تلك السياسة، ووضع بدلاً منها نظام تمايز بين الناس، وقسمهم طبقات حسبما قدّر. فخصّص لزوجات الرسول ﷺ مبالغ ضخمة أكثر من غيرهن، وميز بين زوجات الرسول ﷺ أنفسهن: فميّز عائشة عن غيرها فأعطاها اثني عشر ألفاً، بينما قرر لبقية أمهات المؤمنين عشرة آلاف! وميّز الصحابة المهاجرين القرشيين وأعطاهم أكثر من غيرهم.

وحسب تقسيمات عمر بن الخطاب لأهل العطاء، فإنه ميّز فئة البدريّين من

---

(١) مسند أحمد ج١ ص١٧٤.

(٢) «الأحكام» لابن حزم ج٢ ص١٤٧.

(٣) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٩٠.

المهاجرين وفضّلها على فئة البدريّين من الأنصار! فهو أعطى هؤلاء خمسة آلآف بينما أعطى أولئك أربعة آلآف! ثم تأتي بعد هؤلاء فئة الذين شهدوا الحديبية وفتح مكة، ثم فئة الذين اشتركوا في فتح القادسية واليرموك. ثم فرض لأناس آخرين رواتب خاصة. وفرض لنساء مهاجرات رواتب مختلفة. كما فضل العباس بن عبد المطلب، لأنه عم رسول الله ﷺ، وأعطاه عشرة آلاف، وكان كريماً مع بني هاشم بإجمالهم.

وهناك روايات كثيرة جداً حول تفاصيل توزيع العطاء في عهد عمر، وبعض تفاصيلها تختلف من راو لآخر[1]. ولكنها كلها تتفق على أن عمر كان يميّز بين الرعية في العطاء حسبماً يرغب ويقدّر. والظاهر أن عمر أراد أن يرسي مبدأ التمايز بين الناس حسب الفضل والسابقة في الإسلام، ولكن تحديد مَن يستحق ماذا كان يرجع له وحده ليقرر بشأنه.

إلغاء سهم الخُمس:

كان رسول الله ﷺ قد خصص خُمسَ الخُمس من الغنائم لذوي قرباه[2] وهم بنو عبد المطلب وبنو المطلب، الذكر منهم والأنثى، ويتيم الهاشميين ومسكينهم وابن سبيلهم، وذلك لأن الصدقة محرمة شرعاً على محمد ﷺ وآل محمد ﷺ[3].

وهذه سنة مؤكدة تطبيقا للآية القرآنية ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين﴾[4].

(١) يمكن مراجعة تفاصيل التفاضل في العطاء أيام عمر في: سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢ ص١٨٧، فتوح البلدان للبلاذري ج٣ ص٥٥٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٢١٥، الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٢٩٦، ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص١٣٢-١٣٣.

(٢) وقد روى مسلم في صحيحه ص٦٧٦ باب حكم الفيئ، أن أموال بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله خاصة، وأنه كان ينفق على أهله منها.

(٣) روى مسلم في صحيحه ص٣٧٦ باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وهو بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم «أخذ الحسن بن عليّ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه. فقال رسول الله ﷺ: كخ كِخ. إرمِ بها. أما علمتَ أنا لا نأكل الصدقة».

(٤) سورة الأنفال آية ٤١.

فكان لعمر تفسيره الخاص بذوي القربى. فقريشٌ كلها ذوي قربى، ولا يختص بذلك بنو هاشم! فكان القرار بحرمان بني هاشم وآل البيت من ذلك السهم.

وكان سريان مفعول هذا القرار قد بدأ أيام الخليفة الأول أبي بكر واستمر أيام عمر.

وأعلن الخليفتان تعهدهما بتقديم الطعام لبني هاشم، لا يزيدون عليه![1]

إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم:

هناك آية قرآنية صريحة تخصص للمؤلفة قلوبهم سهماً من الزكاة: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله﴾[2].

وطبّق رسول الله صلى الله عليه وآله بسنته الفعلية هذه السياسة فكان يعطي هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام عن استسلام لا عن قناعة.

وألغى عمر بن الخطاب هذه السياسة وقرر عدم إعطاء المؤلفة قلوبهم، على أساس أن الإسلام أصبح عزيزاً ولا حاجة بالتالي لتأليف قلوب أحد![3]

وقرار عمر الجريء ذلك، يتجاهل حقيقة أن الحكم القرآني فيما يتعلق بسهم المؤلفة قلوبهم لا يتعلق بذات الأشخاص الذين ربما عناهم عمر، وإنما هو يتعلق بالصفة ذاتها. فحالة التأليف بالمال لفئات معينة باقية إلى يوم القيامة، وليست متعلقة بزمن من الأزمان.

وكذلك تناسى عمر أن الإسلام كان عزيزاً بالفعل عندما كان الرسول يعطي المؤلفة قلوبهم. فهو كان يعطيهم بعد فتح مكة وشيوع الإسلام في كل أنحاء جزيرة العرب، ولم يكن به حاجة إلى هؤلاء.

---

(١) سنن أبي داود ج٢ ص٢٣.

(٢) سورة التوبة آية ٦٠.

(٣) روى الإمام البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص٨١ أن عمر بن الخطاب قال لعيينة بن حصن والأقرع بن حابس «إنما كان النبي صلى الله عليه وآله يؤلفكما على الإسلام. فأما الآن فاجهدا جهدكما».

تغيير سنة النبي صلى الله عليه وآله فيما يتعلق بصلاة التراويح:

كان الرسول صلى الله عليه وآله يقوم ليالي رمضان ويؤدي سننها بغير جماعة. واستمر الناس يفعلون مثله في عهد أبي بكر أيضا. فكانوا يصلون منفردين.

ولكن عمر بن الخطاب قرر عام ١٤ للهجرة أن يصلي الناسُ التراويحَ جماعة[1].

روى ابن أبي الحديد عن عمر «إنه خرج ليلة في شهر رمضان والناس أوزاع فقال: إني لأظن لو جمعناهم على قارئ واحد كان أفضل.

فأمرَ أبيّ بن كعب فأمّهم.

ثم خرج ليلة وهم يصلون بصلاته فقال: نعم البدعة هذه! والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون»[2].

تغيير موضع مقام ابراهيم:

قرر عمر تغيير مكان مقام ابراهيم عن الموقع الذي كان حدده له الرسول صلى الله عليه وآله.

فقد ذكر ابن سعد أن عمر «أخّر المقام إلى موضعه اليوم. وكان ملصقاً بالبيت»[3].

*****

---

(١) صحيح مسلم ص٢٦٩ باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح. وأيضا روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص٢٨١ أن عمر «أول من سنّ قيام شهر رمضان وجمع الناس على ذلك وكتب به إلى البلدان وذلك في شهر رمضان سنة ١٤». وروى ذلك أيضا الطبري في تاريخه ج٣ ص٢٧٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص١٥٩. والناس أوزاع: يصلون فرادى، والتي ينامون عنها أفضل: يريد صلاة آخر الليل فإنها خير من صلاة أوله. وكذلك روى ابن الجوزي في مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص٨٥ وفيه أن عمر قال «نعمت البدعة هذه». وكذلك روى اليعقوبي في تاريخه ج٢ ص١٤٠ وفيه أن عمر قال «إن تكن بدعة فما أحسنها من بدعة». وروى ذلك أيضاً الشيخ سيد سابق في «فقه السنة «ص١٥٢ وذكرَ قولَ عمر «نعمت البدعة... «نقلاً عن البخاري وابن خزيمة والبيهقي وغيرهم. وذكر ذلك أيضاً ابن قدامة في «المغني «ج١ ص٧٩٨ وفيه قول عمر «نعمت البدعة... «وقال: أخرجه البخاري.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٢٨٤. وكذلك ورد في تاريخ الطبري ج٣ ص١٩٤ في ذكر أحداث سنة ١٨ للهجرة. وروى ذلك أيضاً ابن حبان في كتاب «الثقات «ج٢ ص٢١٨.

كانت هذه بعض المواقف التي أظهر فيها عمر بن الخطاب جرأة كبيرة على الأحكام الشرعية المستندة إلى الآيات القرآنية والسنة النبوية المؤكدة.

عمر يبرر موقفه

وأيام خلافته، قدم عمر بن الخطاب تفسيره لموقفه في يوم الخميس المشهور تجاه الرسول ﷺ. فقال في حوار مع ابن عباس، وهو يسأله عن عليّ:

«يا عبد الله! عليك جماء البدن إن كتمتنيها! هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟

قلت: نعم.

قال: أيزعم أن رسول الله ﷺ نصّ عليه؟

قلت: نعم. وأزيدك: سألتُ أبي عما يدعيه فقال: صدق.

فقال عمر: لقد كان من رسول الله ﷺ في أمره ذروٌ من قول لا يُثبت حُجة، ولا يقطع عذراً. ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما. ولقد أرادَ في مرضه أن يُصرح باسمه فمنعتُ من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام. لا ورب هذه البنية، لا تجتمع عليه قريش أبداً. ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها.

فعَلمَ رسول الله ﷺ أني علمتُ ما في نفسه، فأمسكَ. وأبى الله إلاّ إمضاء ما حكم»[1].

وقد أورد اليعقوبي نص ذلك الحوار الطويل بين ابن عباس وعمر بن الخطاب أيام ولايته، والذي يبيّن فيه عمر بكل وضوح حقيقة موقفه من عليّ:

«... والله يا ابن عباس إن علياً ابن عمك لأحق الناس بها. ولكن قريشاً لا تحتمله. ولئن وليهم ليأخذنهم بمر الحق لا يجدون عنده رخصة، ولئن فعل لينكثنَ بيعته ثم ليتحاربن»[2].

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٢١.

(2) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٥٩.

وفي رواية أخرى فسرَّ عمر ذلك الموقف بأنه تنفيذ «إرادة الله»! فقد قال لابن عباس عن عليٍّ:

«... ولم أزل أراه واجداً، فيمَ تظنّ موجدته؟

قلت: يا أمير المؤمنين: إنك لتعلمُ.

قال: أظنه لا يزال كئيباً لفوت الخلافة.

قلت: هو ذاك. إنه يزعم أن رسول الله أراد الأمرَ له.

فقال: يا ابن عباس: وأرادَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله الأمرَ له، فكان ماذا إذا لم يُرِد الله تعالى ذلك؟ إن رسول الله صلى الله عليه وآله أراد أمراً، وأراد الله غيرَه، فنفِذ مرادُ الله تعالى ولم يَنفذ مرادُ رسوله.

أوكلما أرادَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله كانَ؟! إنه أراد إسلامَ عمّه، ولم يُرده الله، فلم يُسلم»[1].

والروايات هذه تتكامل ولا تتناقض. وهي توضح فلسفة عمر بكل جلاء.

تخبّط شارحي الحديث النبوي في تفسير موقف عمر

وقد سبّبَ ذلك الموقف الرهيب لعمر تجاه الرسول صلى الله عليه وآله وهو في مرض وفاته، حرجاً حقيقياً بالغاً لكل شارحي الحديث النبوي. فلكي يجدوا عذراً لعمر، قدحوا زناد فكرهم كي يأتوا بتأويلٍ يحفظ ماء الوجه لعمر. فمثلاً، شارح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، أجهدَ نفسه كثيراً حتى وصل لاستنتاجاتٍ عجيبة، يمكن تلخيصها على النحو التالي[2]:

- «وصمم عمر على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك عن غير قصدٍ جازم».

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٧٨.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج٨ ص١٠٢.

-«وقال النووي: اتفق قول العلماء على أن قول عمر (حسبنا كتاب الله)، من قوة فقهه ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب أموراً ربما عجزوا عنها فاستحقوا العقوبة كونها منصوصة».

-«وأراد أن لا ينسد باب الاجتهاد على العلماء».

-«ويحتمل أن يكون أراد التخفيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى ما هو فيه من شدة الكرب».

-«وقامت عنده قرينة بأن الذي أراد كتابته ليس مما يستغنون عنه».

-«خشي أن يجد المنافقون سبيلاً إلى الطعن فيما يكتبه».

واختتم ابن حجر كل تلك التأويلات الواهية بقوله «فكان ذلك سبب توقف عمر. لا إنه تعمّد مخالفة قول النبيﷺ ولا جواز وقوع الغلط عليه. حاشا وكلا».

قول عائشة، ونقيضُه

روى البخاري ومسلم عن عائشة إنكارها أن الرسولﷺ وصّى:

«ذكروا عند عائشة أن علياً رضي الله عنهما كان وصياً.

فقالت: متى أوصي إليه؟ وقد كنتُ مسندته إلى صدري، أو قالت حجري، فدعا بالطست. فلقد انخنث في حجري فما شعرتُ أنه قد مات، فمتى أوصى إليه؟»[1].

وتجدر ملاحظة أن الكلام عن وصاية رسول اللهﷺ لعليّ بن أبي طالب كان متداولاً بين الناس آنذاك ولم يكن بدعة لاحقة، بدليل نفي عائشة له!

وهكذا فإن عائشة كما هو واضح تؤكّد أن الرسولﷺ قد توفي في حجرها،

---

(١) صحيح البخاري باب الوصايا ج٤ ص٣. وروى مسلم في صحيحه كتاب الوصية ص٦٢١ نفس الحديث عن عائشة. وأيضا روى البخاري في باب ما جاء في بيوت ازواج النبيﷺ ج٤ ص٩٩ أن عائشة قالت أن الرسولﷺ توفّي بين «سحري ونحري، وجمع الله بين ريقي وريقه».

وبين سحرها ونحرها. ولا بد من ملاحظة أن كل الروايات التي تذكر هذا قد روتها عائشة بنفسها.

وأما ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد كان أكثر موضوعيةً في نقل الروايات المتعلقة بهذا الأمر من البخاري ومسلم، الذين اعتمدا روايات عائشة فقط. فبعد أن أورد ابن سعد رواية عائشة، ذكر الروايات الأخرى التي تفيد بأن رسول الله قد توفي وهو مسندٌ رأسَه إلى صدر عليّ، مما يناقض كلام عائشة:

«... ولما حضرته الوفاة قال: ادعوا لي أخي. قال: فدُعي له علي. فقال: ادنُ منّي. فدنوتُ منه فاستندَ إليّ فلم يزل مستنداً. وإنه ليكلمني حتى أن بعض ريق النبي ليصيبني ثم نزل برسول الله وثقل في حجري...».

وأورد ابن سعد أن الرسولﷺ توفي ورأسه مستند إلى صدر عليّ أو في حجره عن أكثر من صحابي منهم جابر بن عبد الله وابن عباس. وفيما يلي رواية ابن عباس الذي أصر على إنكار قول عائشة:

«عن أبي غطفان قال: سألتُ ابن عباس: أرأيتَ رسولَ الله توفي ورأسه في حجر أحد؟

قال: توفي وهو لمستندٌ إلى صدر عليّ.

قلت: فإنّ عروة حدثني عن عائشة أنها قالت: توفي رسول الله بين سحري ونحري.

فقال ابن عباس: أتعقل؟ والله لتوفي رسول الله وإنه لمستندٌ إلى صدر عليّ...»[1].

تحليل لمواقف عمر ابن الخطاب في الأيام الأخيرة لحياة الرسول وما تلاها

يجمع كاتبو السيرة النبوية وكل شيوخ الحديث على أن رسول اللهﷺ في أيامه الأخيرة أظهرَ إصراراً شديداً على إنفاذ جيش المسلمين إلى الشام مع استثناء

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص٢٦٣.

عليّ وآل بيته. وأنه ﷺ أمّر على الجيش الذي ضمّ كبار الصحابة بمن فيهم أبي بكر وعمر وعظماء قريش، أسامة بن زيد الذي كان شاباً يافعاً. وتذكر الروايات كلها أنه حصل احتجاجٌ على اختيار أسامة من قبل «البعض» أو «الناس»، مما دفع الرسول ﷺ إلى الإصرار على إنفاذ الجيش بقيادته، ودافعَ عنه وذكّر المسلمين أنهم سبق أن احتجوا أيضاً على قيادة والده للجيش الذي ذهب إلى مؤتة. ومن الملاحظ أن أغلب المؤرّخين وأصحاب السير قد أمسكوا عن ذكر هؤلاء «الناس» ولم يصرّحوا بأسمائهم. فمثلاً جاء في صحيح مسلم «... فطعَنَ الناسُ في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: إن تطعنوا في إمرته، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل...»[1].

ورغم ذلك الإصرار من الرسول ﷺ فقد حصل تلكّؤ وتباطؤ في تنفيذ أمره، مما دفعَه ﷺ، وهو في حالة صحيةٍ صعبة، إلى التشديد على خروج الجميع في البعثة، ولعنِ مَن تخلّف عن الجيش.

وفيما يلي النص الكامل من طبقات ابن سعد:

«... أمر رسولُ الله ﷺ الناسَ بالتهيؤ لغزو الروم. فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل فقد وليتكَ هذا الجيش. فأغِر صباحاً على أهلِ أبنى وحرق عليهم وأسرع السير تسبق الأخبار. فإن ظفرك الله فأقلِل اللبث فيهم وخُذ معك الأدلاء وقدّم العيون والطلائع أمامك.

فلما كان يوم الأربعاء بدئ برسول الله ﷺ فحُمّ وصدع.

فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءه بيده ثم قال: اغزُ باسم الله في سبيل الله فقاتل مَن كفر بالله.

فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي وعسكر بالجرف.

فلم يبقَ أحدٌ من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلاّ انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص ٩٢١.

أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم بن حريش.

فتكلم قومٌ وقالوا: يستعمل هذا الغلامَ على المهاجرين الأولين؟!

فغضب رسولُ الله ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عَصبَ على رأسه عصابة وعليه قطيفة. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد أيها الناس! فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله. وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة. وإن كان من أحب الناس إليّ. وإنهما لمخيلان لكل خير. واستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم...»[1].

وهناك نصٌ آخر يُظهر مدى الإصرار النبوي على خروج ذلك الجيش:

«... وجعل رسول الله ﷺ في مرضه يثقل ويخف، ويؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث حتى قال له أسامة: بأبي أنت وأمي! أتأذنُ لي أن أمكثَ أياماً حتى يشفيك الله تعالى؟

فقال: أخرج وسِر على بركة الله.

فقال: يا رسول الله: إن أنا خرجتُ وأنتَ على هذه الحال، خرجتُ وفي قلبي قرحة منك.

فقال: سر على النصر والعافية.

فقال: يا رسول الله! إني أكره أن أسأل عنك الركبان.

فقال: انفذ لما أمرتك به.

ثم أغمي على رسول الله. وقام أسامة فتجهز للخروج. فلما أفاق رسول الله ﷺ سأل عن أسامة والبعث. فأخبر أنهم يتجهزون.

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٩٠. ويحاول البعض أن يستثني أبا بكر من الذين كانوا في بعث أسامة. ولكن وجود أبي بكر ضمنهم أمرٌ شائع ومعروف. فبالإضافة إلى ابن سعد، ذكر ذلك أيضا كل من اليعقوبي في تاريخه ج٢ ص٧٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ج٨ ص٤٦ وغيرهم كثيرون.

فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة. لعن الله مَن تخلف عنه. وكرّر ذلك»[1].

والذي حصل أنه حينما توفّي الرسول(ص) كان الجيش لا يزال قريباً من المدينة لم يبتعد عنها. لقد حصلت مماطلة حقيقية في تحرك الجيش. إذ كيف يمكن لهذا الجيش الذي عقد له الرسول(ص) لواءه يوم الخميس وأمره بالانطلاق فوراً وشدّد على ذلك، أن يكون لا زال موجوداً على تخوم المدينة بعد أربعة أيام كاملة ـ عندما توفي الرسول(ص) يوم الاثنين ـ من أمر الرسول(ص) له بالانطلاق؟! التفسير الوحيد هو أن العناصر المهمة من الجيش، وخاصة قيادة المهاجرين القرشيين ممثلين بالثلاثي عمر وأبي بكر وأبي عبيدة، كانوا يعرفون أن رسول الله(ص) هو في مرض وفاته (فقد كانت هناك مقدمات لذلك، منها مثلاً ما رواه البخاري بأن الرسول(ص) قال إن عبداً خيّرَه الله بين ما عنده وما عند الله فاختار ما عند الله. ففهم من ذلك أبو بكر أنه يعني نفسه فانخرط في البكاء).

لقد قرر المهاجرون القرشيون أنه لا يجوز لهم أن يكونوا خارج المدينة عندما يموت رسول الله(ص). وهم قدّروا أنه لا بأس في مخالفة رغبة الرسول(ص) وتحدي أوامره، في سبيل الأمر الجلل الذي يتمثل في انتقال السلطة بعد النبي(ص) وموضوع الخلافة.

بنظرهم، كانت أمة العرب التي وحّدها الرسول(ص) لا تستقيم إلاّ بالحكم القرشيّ، وكان مستقبل الحكم القرشيّ كلّه يعتمد على تلك الفترة الحرجة التي ستلي وفاة الرسول(ص). فالغيابُ الجماعيّ لرؤوس المهاجرين القرشيين عن المدينة، من شأنه ولا شك أن ييسّر لعليّ بن أبي طالب تولّي أمر المسلمين بعد الرسول(ص) وإمامتهم والحصول على البيعة العامة، ولن يكون بمقدورهم عند ذلك أن يغيروا الأمر الواقع بعد حصوله، وهو ما كان المهاجرون القرشيون مصممين على منعه بأي وسيلة.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٦٦.

وتجمع الروايات أنه لما ذاع خبر الوفاة كان لعمر ابن الخطاب موقفٌ غريب جداً، حيث أشهَرَ سيفه وأخذ يهدد الناس ويتوعّد كل مَن يقول أن الرسولﷺ مات، وأنه أخذ يقول كلاماً من قبيل الهراء، مثل أنّ الرسول لم يمُت وإنما رفع إلى السماء! وقد أحدثَ عمرُ بسلوكه هذا بلبلة في المدينة. وفيما يلي النص:

«لما توفي رسول الله قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي. وإن رسول الله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات. ووالله ليرجعنّ رسول الله كما رجع موسى، فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات»[1].

واستمر عمر في إثارة الضوضاء واللغَط بين الناس، إلى أن وصل أبو بكر، الذي كان خارج المدينة. «فتلا أبو بكر الآية فهدأ من رَوع عمر». حيث ورد السيرة النبوية لابن هشام عن عمر قوله عن آية ﴿**وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾:

«والله ما هو إلاّ أن سمعتُ أبا بكر تلاها، فعقرتُ حتى وقعتُ إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفتُ أن رسول الله قد مات»[2].

ويقول الكثيرون في تفسيرهم لموقف عمر هذا أنه من شدة حبه للرسولﷺ وتعلّقه به لم يصدّق الخبر الذي وقع عليه كالصاعقة فذهب به الاضطراب والصدمة إلى حد أن يقول ما قال.

ولكن من الصعب تصديق هذا التفسير، للأسباب التالية:

● كان عمر يعلم علم اليقين أن الرسولﷺ في أيامه الأخيرة، وأنه مقبلٌ على ملاقاة ربه. بل إن عمر لعب الدور الأبرز في حرمان الرسولﷺ من كتابة وصيّته

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٢٧٠. ومثل ذلك ورد في سنن الدارمي ج١ ص٣٩ وفيه أن عمر استمر يتكلم حتى «ازبدّ شدقاه مما يوعد». وأيضاً سيرة رسول اللهﷺ الرحيق المختوم للمباركفوري ص٥٣٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٢٧١.

يوم الخميس (قبل ثلاثة أيام فقط) حين أثار اللغط من حولهﷺ، واتّهمه بأنه يهجر وأن القرآن موجود ولا حاجة لوصيّة الرسول. ولذلك لم تكن وفاة الرسولﷺ أمراً مفاجئا لعمر، حتى يذهل ولا يصدّق الخبر!

• هناك إجماعٌ بين كل المؤرخين أن عمر بن الخطاب كان بلا منازع»بطل«اجتماع السقيفة التاريخي الذي حصل في نفس يوم الوفاة، وأنه قام بالدور الأبرز في تنصيب أبي بكر. وقد ألقى خطاباً مدروساً بعناية أمام الأنصار وقام بالدور الأكبر في الجدال والصراع معهم، والذي وصل إلى حد الاشتباك مع سعد بن عبادة، والإصرار الشديد على بيعة أبي بكر، حتى حصل على مبتغاه، فقام وأعلن الخبر لبقية الناس الذين كانوا في الخارج وأمرهم ببيعة أبي بكر. وكل هذا حصل عقب الوفاة مباشرة، مما ينفي أنه كان مذهولاً أو مصعوقاً من هَول الخبر. ومن حق الباحث أن يتساءل: كيف يستقيم أن رجلاً مذهولاً إلى حد عدم تصديق أن الرسولﷺ قد مات، وإلى حد إشهار سيفه على مَن يقول بذلك، يمكن أن يتألّق ويبدع بشكلٍ مذهل في اجتماعٍ عُقد بعدها بدقائق، للتداول في شؤون الحكم والسياسة؟ كيف يمكن لذلك»المصعوق«أن يسوق تلك الحجج ويخوضَ ذلك الصراع الحادّ، بنجاحٍ، في ذلك الإجتماع؟

• لم يروِ أحدٌ أن عمر قد هَرَع إلى بيت الرسولﷺ لكي يراه أو يودّعه أو يشارك في تجهيزه وتكفينه، رغم أن هذا هو السلوك الطبيعي المتوقع من كل مَن فقد عزيزاً.

إن تأمّل الصورة الإجمالية للأحداث التي جرت قبيل وعند وبعيد وفاة الرسولﷺ تقود إلى الاستنتاج بأن موقف عمر ذاك كان سببه رغبته في انتظار التئام عقد قيادة المهاجرين، وبالتحديد انتظار وصول أبي بكر وأبي عبيدة، من أجل ضمان التصرف الجماعيّ المنظم في تلك الظروف الحرجة. لجأ عمر إلى إثارة البلبلة بين المسلمين بشأن نبأ وفاة الرسولﷺ كسباً للوقت، وتغيّر موقفه تماماً بعد وصول رفيقيه، فانتقلوا إلى مرحلة العمل الفوري لتنصيب أبي بكر خليفة لرسول اللهﷺ.

فأفعال عمر في ذلك اليوم كانت كلها منصبة على مسألة القيادة والزعامة بعد الرسولﷺ. ولا شك أنه كان يعطي تلك المسألة الأولوية القصوى في تلك الظروف، بما لا يدع مجالاً لغيرها. كان اهتمام عمر منصَباً على موضوع الحُكم، فتأخرَ كثيراً في الذهاب إلى بيت الرسولﷺ، ولم يذهب للعزاء إلاّ بعد يومين من الوفاة، بعد أن اطمأن أن بيعة أبي بكر قد تمّت. وهناك من الروايات الكثير جداً مما يرجّح أنه حتى عندها، فإنه ذهب وهمّه الأول الحصول على بيعة علي بن أبي طالب وبني هاشم.

بل إنه توجد روايات كثيرة جداً توضح أن قيادة المهاجرين القرشيين، وعلى رأسها عمر بن الخطاب، من شدّة انهماكها بعملية السيطرة على مقاليد الحكم وانشغالها باستتباب الأوضاع لمصلحة الخليفة الجديد، لم يحضروا حتى عملية دفن الرسولﷺ:

«عن عائشة أم المؤمنين قالت: ما علمنا بدفن رسول اللهﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل ليلة الأربعاء»[1].

السبب الحقيقي

إن ما جرى من أحداث لاحقة يدعو إلى القطع بصحة رواية ابن أبي الحديد حول السبب الحقيقي الذي جعل المهاجرين القرشيين يتصرفون على ذلك النحو يوم السقيفة. فقد قال عمر بن الخطاب مرة لعبد الله بن العباس:

---

(١) ورد ذلك في تاريخ الطبري ج٢ ص٤٥٢ نقلا عن ابن اسحاق. والمساحي هي من أدوات الحَفر. وكذلك روى ابن كثير في البداية والنهاية ج٥ ص٢٩١. ورواه كذلك المباركفوري في سيرة الرحيق المختوم ص٥٣٩. وأيضا ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٣٠٥ لكن مع ذكر ليلة الثلاثاء بدل الأربعاء. وأيضا أورد ابن الأثير في أسد الغابة ج٣ ص ٣٤ نفس الخبر مع ذكر ليلة الأربعاء.

وقد برر الإمام القرطبي في تفسيره ج٤ ص٢٢٤ هذا التأخير في دفن الرسولﷺ خلافا لما هو متفق عليه بين المسلمين من أهمية الإسراع في دفن الميت، كما يلي «إنهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة. فنظروا فيها حتى استتب الأمر وانتظم الأمر واستوثقت الحال، واستقرت الخلافة في نصابها. فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعة أخرى عن ملأ منهم ورضا. فكشف الله به الكربة من أهل الردة، وقام به الدين، والحمد لله رب العالمين. ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبيﷺ فنظروا في دفنه وغسلوه وكفنوه. والله أعلم»

«يا عبد الله! أنتم أهل رسول الله وآله وبنو عمه، فما تقول منعَ قومكم منكم؟

قال: لا أدري علتها؟ والله ما أضمرنا لهم إلاّ خيراً.

قال: اللهم غفراً! إن قومكم كرهوا أن يجتمع لكم النبوة والخلافة، فتذهبوا في السماء شمخاً وبذخاً»[1].

وقد ذكر الطبري هذا الحوار بين عمر وابن عباس بتفصيل أكثر:

«.. فقال: يا ابن عباس! أتدري ما منعَ قومَكم منكم بعد محمد؟

فكرهتُ أن أجيبه، فقلتُ: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني.

فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً. فاختارت قريش لأنفسها، فأصابت ووفقت.

... فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عز وجل لها لكان الصواب لها غير مردود ولا محسود

وأما قولك إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فإن الله عز وجل وصف قوما بالكراهية فقال (ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط أعمالهم)

فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس!.... بلغني أنك تقول إنما صرفوها عنا حسداً وظلماً؟

فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين ظلماً، فقد تبيّن للجاهل والحليم. وأما قولك حسداً، فإن إبليس حَسَدَ آدم فنحن ولده المحسودون.

فقال عمر: هيهات! أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلاّ حسداً ما يحول، وضغناً وغشّا ما يزول.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٩.

فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين! لا تصف قلوبَ قومٍ أذهبَ الله عنهم الرجسَ وطهرَهم تطهيراً بالحسد والغشّ، فإن قلبَ رسول اللهﷺ من قلوب بني هاشم.

فقال عمر: إليك عني يا ابن عباس...»[1].

تساؤلٌ مشروع

لماذا لم يصرّ النبي على كتابة وصيته بعد خروج القوم من عنده؟

يبدو أن رسول اللهﷺ قدّر أن هؤلاء القوم الذين وصل بهم التصميم على منعه من الكتابة إلى حد اتهامه مباشرة وفي وجهه بالهجر، لن يرتدعوا عن الطعن والتشكيك في أي كتابٍ قد يخرجه عليّ بن أبي طالب فيما بعد وبه عهدٌ له من النبيﷺ، حتى لو كانَ مكتوباً وعليه شهود. فهؤلاء إما أن يقولوا أن هذا الكتاب ليس صحيحاً بل مكذوبٌ على الرسولﷺ، وإما أن يقولوا إن الرسولﷺ قد كتبه وهو ليس بوعيه بل في حالةٍ من الهجر.

وفي الحالتين لن يتغيّر شيئ. بل إن الاحتمال الثاني أسوأ لأنه من شأنه أن يلقي ظلالاً من الشك في قلوب المسلمين على صلاحية أحكام الرسولﷺ نفسه وربما يفتح المجال للطعن في نبوّته ذاتها.

كما أن وصيّة الرسولﷺ وعهده تفقد معناها وقيمتها إذا تمّت كتابتها بسريّةٍ وكتمان. وهي لا تأخذ قيمتها وتؤدي غرضها إلاّ إذا كانت علنية وعلى رؤوس الأشهاد.

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٨٩

السقيفة

المهاجرون القرشيون.. والأنصار.. وآل النبي

هنالك إجماع بين المؤرخين على أن اجتماع سقيفة بني ساعدة، الذي عُقِدَ مباشرة فور وفاة الرسولﷺ، كان بمبادرة من الأنصار، وأن المهاجرين القرشيين انضمّوا إلى الاجتماع على وجه السرعة ـ ودون دعوة ـ لما علموا بحصوله.

ولكن في حقيقة الأمر لم يكن ذلك الاجتماع الوحيد الذي حصل عقب وفاة الرسولﷺ. فالمهاجرون القرشيون أيضاً كانوا قد تداعوا فيما بينهم على وجه السرعة لدى انتشار نبأ الوفاة، بمبادرةٍ وترتيبٍ من عمر بن الخطاب.

وأما الاجتماع الثالث فكان لبني هاشم وآل الرسولﷺ.

وقد أشار عمر بن الخطاب، فيما بعد، إلى هذه الاجتماعات الثلاثة بقوله«... وإنه قد كان من خبرنا حين توفي الله نبيهﷺ أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنّا عليّ والزبير ومَن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر....»[1].

وتصوّر معظم الروايات أن هدف الأنصار من اجتماعهم كان اختيار خليفةٍ لرسول اللهﷺ من بينهم، وأنهم قد تداولوا الأمرَ، ومالوا إلى انتخاب زعيم الخزرجِ، سعد بن عبادة، كخليفةٍ للمسلمين.

ولكنّ هكذا تصوير لموقف الأنصار وهدفهم، واختزاله بالرغبة بالانفراد بالحكم دون المهاجرين، يمكن التشكيك فيه، وبكل تأكيد.

فمن حيث المبدأ، ليس هناك ما يمنع أن يكون الأنصار مجتمعين عند زعيم الخزرج، سعد بن عبادة، حين ذاع نبأ وفاة الرسولﷺ. فقد كان سعد بن عبادة،

---

(١) صحيح البخاري باب رجم الحبلى من الزنا ج٨ ص٢١٠. وكذلك مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٥٤.

وبإجماع الروايات، مريضاً جداً، إلى حدّ عدم قدرته على النهوض في ذلك الوقت. ومن الطبيعي أن يعوده قومه في مثل تلك الظروف، خاصة وهو كبيرهم وعميدهم. وحصول ذلك الاجتماع على ذلك النحو، لا ينفي طبعا إمكانية ان يكون الأنصار قد أخذوا يتداولون في الشؤون العامة للمسلمين، بعد أن علموا بنبأ الوفاة. وهذا أمر مرجّح جدا. ولا يمكن تصوّر أن الأنصار المجتمعين عند كبيرهم كانوا قادرين على تجنّب النقاش في أمر خلافة الرسولﷺ ومستقبل الإسلام، ودورهم المستقبليّ ومصيرهم هم بالذات.

ولكنّ الاجتماع السياسيّ حقاً كان اجتماع المهاجرين القرشيين حول أبي بكر. فهؤلاء وحدهم كان لهم هدفٌ واضحٌ محددٌ أمام أعينهم. وهناك مؤشراتٌ كثيرة على أنّ قرارهم بأن يكون أبو بكر خليفة لرسول اللهﷺ قد سبق لهم اتخاذه، أو على الأقل التداول بشأنه في أوساطهم. وهذا وحده يفسّر تلك السرعة الهائلة في التصرف والتحرك، والتي أسفرت عن نجاحهم في مسعاهم بعد أن باغتوا الآخرين تماماً. كان المهاجرون سياسيين تماماً في ذلك اليوم المشهود، وكان انهماكهم في موضوع الحكم والسياسة كاملاً.

وبلغ تركيزهم على موضوع خلافة الرسولﷺ، وانشغالهم ببيعة أبي بكر، إلى حدّ أن قادتهم قد أعطوا الأمرَ الأولوية القصوى، حتى على حساب الاهتمام المناسب بوفاة الرسولﷺ ذاتها، وجنازته! ومن ذلك مثلاً أن أبا عبيدة بن الجراح، الذي كان يحفر القبورَ لقريش في مكة، لم يكن متاحاً ولا متواجداً ليقوم بهذه المهمة لرسول اللهﷺ:

«لما أرادوا أن يحفروا لرسول اللهﷺ، وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة، فكان يلحد.

فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما: إذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح. وللآخر: إذهب إلى أبي طلحة. اللهم خِر لرسول اللهﷺ!

فوجد صاحب أبي طاحة أبا طلحة. فجاء به. فلحد لرسول الله ﷺ»[1].

فالظاهر أنه كان مشغولاً جداً مع عمر بن الخطاب في بيعة أبي بكر وتثبيتها.

وأما اجتماع آل الرسول فقد كان من نوع آخر: فهم كانوا مشغولين بمصيبة وفاة عميدهم رسول الله ﷺ، يغمرهم الحزن العميق، وتسيطر عليهم مشاعر الأسى لفراقه. لقد كان اجتماعهم في تلك اللحظات عاطفياً وبعيداً عن السياسة وشؤونها. كانوا مشغولين بتغسيل الرسول ﷺ وتكفينه ودفنه. وهم قرروا أن إكرام جثمان رسول الله ﷺ أهم من كل ما عداه. وذلك الأمر الطبيعي والمتوقع.

ورغم أن علياً والعباس ما كان يفوتهما أهمية مسألة قيادة الدولة من بعد الرسول ﷺ إلاّ أنهما قررا أنه لا يجوز لآل البيت أن يتركوا رسولَ الله ﷺ مُسجّى بينهم، ويذهبوا ليُحكِموا شؤون الخلافة والسياسة، حتى قبل أن يدفنوه! كما أنه من المؤكد أنهما لم يتصوّرا أن المهاجرين سيتصرفون على ذلك النحو الفائق السرعة ويُحكموا الأمور دون وجودهم أو حتى استشارتهم!

وفيما يلي وصفٌ لما كان يحدث في اجتماع بني هاشم:

«إن علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ هم الذين ولوا غسله.

وإن أوس بن خولي، أحد بني عوف بن الخزرج، قال لعلي بن أبي طالب: أنشدك الله يا عليّ! وحظّنا من رسول الله ﷺ؟ وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بدر.

قال (علي): أدخل. فدخل فجلس وحضر غسل رسول الله ﷺ.

فأسنده علي بن أبي طالب إلى صدره. وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه. وكان أسامة بن زيد وشقران مولاه هما اللذان يصبان الماء عليه، وعليّ يغسله وقد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه، لا يفضي بيده إلى رسول

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٢٨٧. وكذلك ورد في مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٢٦٠.

الله ﷺ. وعليّ يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حياً وميتاً! ولم يُرَ من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت»[1].

هكذا كانت الصورة حين قررت قيادة المهاجرين القرشيين، ممثلين بالثلاثي عمر وأبي بكر وأبي عبيدة، التوجه إلى سقيفة بني ساعدة، حيث الأنصار مجتمعين.

خلفيات الخشية الأنصارية

وكانت هناك الكثير من الأسباب التي تدعو الأنصار إلى القلق، بل والقلق الشديد، على مستقبل وضعهم في دولة الإسلام، وما تخبّؤه الأيام لهم من بعد رسول الله ﷺ.

ففي السنة الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ، كان الأنصار يرون أمام أعينهم كيف أن الزعامات القرشية، بعد أن سلّمت بهزيمتها التامة أمام الرسول ﷺ، وأيقنت أن المستقبل كله هو للدين الجديد، بدأت تغيّر من أسلوبها واستراتيجيتها وتسعى إلى دور جديد لها، ضمن المنظومة النبوية، وتحت ظل الإسلام. وكان الأنصار يشعرون أنهم سيكونون حتماً الضحايا لهذا الطموح القرشيّ الجديد، الآخذ في التبلور.

كان الأنصار يلاحظون التقارب الشديد الذي كان قد بدأ يظهر بين جناحي قريش: المهاجر والطليق.

ومن الأمثلة على عودة التعاطف و التواصل بين جناحي قريش المهاجر والطليق، وهو ما كان يثير قلق ومخاوف الأنصار، ما ورد بشان موقف لأبي بكر تجاه شيخ قريش المستسلم أبي سفيان، مما أدى إلى تأنيب الرسول ﷺ له:

«أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال، في نفر.

فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنقِ عدوّ الله مأخذها!

قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريشٍ وسيّدهم؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٢٧٧. وكذلك ورد في مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٢٦٠.

فأتى النبيَّ صلى الله عليه وآله فأخبرَه فقال: يا أبا بكر لعلّكَ أغضبتهم؟ لئن كنتَ أغضبتهم لقد أغضبتَ ربّك!

فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟

قالوا: لا! يغفر الله لك يا أخي»[1].

واضحٌ هنا كيف أن أبا بكر ينظر إلى أبي سفيان بإجلال، إحتراماً لوضعه القبليَ العالي في قريش، وأنه لذلك استنكر كيف أنّ المستضعفين من المسلمين الأوائل يخاطبونه بهذه اللهجة!

ورغم أن موقف الرسول صلى الله عليه وآله كان صريحاً جداً في تأييده لسلمان وصهيب وبلال في نظرتهم لأبي سفيان، وتحذيره أبا بكر من أن يكون أغضبهم، مما دفع أبا بكر إلى الإعتذار، إلاّ أن ذلك لا يغير من حقيقة نظرة أبي بكر للزعيم القرشي، المليئة بالاحترام والتقدير، وهو ما كان الأنصار يلاحظونه بالتأكيد في مواقف أخرى.

وفي مناسبة أقدم من ذلك، أبدى عمر بن الخطاب نوعاً من التفهم لمشاعر عظماء قبيلة قريش، ونصحَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بمراعاتهم، حتى على حساب ضعفاء المؤمنين، لعل ذلك يكون ذا نفع:

«مرّ الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وعنده خباب بن الأرت وصهيب وبلال وعمار. قالوا: يا محمد: رضيتَ بهؤلاء؟ أتريد أن نكون تبعاً لهؤلاء؟..... فقال عمر بن الخطاب: لو فعلتَ ذلك حتى ننظرَ ما الذي يريدون، وإلامَ يصيرون من قولهم؟ فانزلَ الله تعالى هذه الآية ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾. فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب يعتذر من مقالته»[2].

كان الأنصار يشعرون بما يدور في أروقة مدينتهم. ولا شك أنهم بدؤوا يحسّون أن التغيّر الذي حصل، بنظر عموم الأنصار، هو أن قبيلة قريش تسعى الآن

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص ٩٤٨.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص١٤٧.

إلى استئناف دورها القيادي في جزيرة العرب، ولكن بوجوه جديدة. فقد صعد المهاجرون من أبناء قريش إلى الواجهة، وتوارت إلى الظل، مرحلياً على الأقل، القيادات القرشية القديمة التي فقدت عزّها التليد على يد الرسولﷺ، وبفضل الأنصار وجهادهم.

كان الأنصار يدركون كيف ينظر مجتمع مكة، الذي طالما سادته قيم المال والتجارة والشرف الجاهليّ، إليهم. فقد كان الاستعلاء والكبر مستحكماً لدى سادة مكة الذين طالما اعتبروا أهل يثرب مزارعين وضيعين! ولم تأتِ كلمة أبي جهل التي قالها وهو يعاني سكرات الموت يوم بدر «لو أنّ غير أكّار قتلنيَ»[1] من فراغ. فبنظر القرشيين الممتلئين بعقد التعالي والانتفاخ، لم يكن أهل يثرب، الفلاحون البسطاء، أهلاً لأن يمدّوا أبصارهم إلى مواقع الذرى القرشية المشيدة على أمجاد قريش وسمعتها بين العرب، والمؤسسة على الغِنى والبطر والترف.

وتعاظمت مشاعر القرشيين السلبية تجاه أهل يثرب، وتأجّجت لتصبح حقداً كبيراً ملأ صدورهم بفعل الدور الذي لعبه الأنصار في الدفاع عن محمدﷺ والجهاد معه، ضد قريش بالأساس، على مدى اثنتي عشرة سنة، قدّموا خلالها التضحيات من دمائهم وأموالهم حتى حققوا معه الظفر المبين يوم فتح مكة. وما كان القرشيون لينسوا أن جيش الرسولﷺ الذي واجههم يوم بدر وأحد والخندق كان بغالبيته الساحقة من الأنصار من أهل يثرب.

ولم يكن التصالح والتقارب الآخذ بالظهور، بين جناحيّ قبيلة قريش: المهاجر والطليق، ليخفى على عيون الأنصار في المدينة. وكان هذا مثيرا لمخاوف الأنصار وهواجسهم، لأنه يعني أن جهاد الأنصار البطوليّ مع النبيﷺ وتضحياتهم العظيمة، قد يتم تجاوزها وتناسيها، لحساب دور جديد، ومهيمن، لأعدائهم القرشيين، في دولة الإسلام التي بنوا عزّها، هم دون غيرهم!

---

(١) صحيح البخاري ج٥ ص١٠٩ باب قصة غزوة بدر. والأكّار هو الفلاّح أو المزارع.

وهناك ما يشير إلى أن بدايات الخشية الأنصارية من عودة قريش، بثوبها الجديد هذه المرة، المسلم، إلى وضعها القيادي السابق، تعود إلى أيام فتح مكة على يد الرسولﷺ. فقد رود أن بعض الأنصار لم يفهموا حقيقة سياسة الرسولﷺ في تعامله مع أشراف قريش المهزومين، وظنّوا به ميلاً إلى روابط الدم والعصبية والحنين إلى قومه.

فقد ورد في صحيح البخاري أن رجالاً قالوا حين وزّع الرسولﷺ الغنائم يوم حنين، وأعطى الطلقاء منها واستثنى الأنصار، انّه قد حنّ إلى قبيلته! مما اضطر الرسولﷺ إلى أن يجمع الأنصار ويلقي فيهم خطبة عاطفية مؤثّرة:

عن أنس بن مالك «أن ناساً من الأنصار قالوا لرسول اللهﷺ حين أفاء الله على رسولهﷺ من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل. فقالوا يغفر الله لرسول اللهﷺ! يعطي قريشاً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!

قال أنس: فحدّث رسول اللهﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدعُ معهم أحداً غيرهم. فلما اجتمعوا جاءهم رسول اللهﷺ فقال: ما كان حديث بلغني عنكم؟

قال له فقهاؤهم: أما ذوو آرائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا. وأما أناسٌ منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول اللهﷺ! يعطي قريشاً ويترك الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم!

فقال رسول اللهﷺ: إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر. أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فوالله ما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به.

قالوا: بلى يا رسول الله. قد رضينا.

فقال لهم: إنكم سترون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض»[1].

---

(١) صحيح البخاري باب ما كان النبيﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم ج٤ ص١١٤.

والحق أن رسول اللهﷺ كان ينتهج سياسة تصالحية قائمة على أساس تأليف الناس، وبالأخصّ الخصوم والأعداء، ومحاولة تحبيب الإسلام إليهم بالطريقة الوحيدة التي يمكن لهؤلاء أن يتأثروا بها، وهي المنفعة المادية. فكيف يمكن لتلك النفوس التي تفيض حقداً وبُغضاً وكبراً، أن تقبل بالدين الجديد إلاّ عن طريق المال؟ وعن طريق إشعارها بالصفح والغفران، وأن بإمكانها أن تبدأ حياة جديدة في ظل الإسلام. ومن هنا مصطلح «المؤلفة قلوبهم».

ورغم أن الأنصار، كعادتهم دائماً، أطاعوا رسولَ اللهﷺ وسلموا له تسليما، إلاّ أن مخاوفهم وقلقهم تجاه قريشٍ كانت موجودة وملموسة. وهم قبلوا قرارات رسول اللهﷺ لأنهم يؤمنون به، ويثقون أنه لن يتخلى عنهم، وليس لأنهم غيّروا نظرتهم لقريش.

مهاجرو قريش يحاجّون الأنصار

إذن اندفعَ المهاجرون، بقيادة الثلاثي أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، إلى الأنصار المجتمعين في السقيفة. ولمّا همّ عمر بن الخطاب في البدء بالكلام الذي جهّزه مقدماً لهذه المناسبة، أسكته أبو بكر ليتولّى هو شرح موقف المهاجرين. وهناك الكثير من الروايات لخطبة أبي بكر، تتشابه في مضمونها.

فقد روى ابن الأثير أن أبا بكر قال «إن الله قد بعث فينا رسولاً شهيداً على أمته ليعبدوه ويوحدوه. فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والمواساة له والصبر معه على شدّة أذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم. وكل الناس لهم مخالف، زار عليهم. فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنف الناس لهم. فهم أول مَن عَبَدَ الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول. وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بالأمر من بعده، لا ينازعهم إلاّ ظالم.

وانتم معشر الأنصار مَن لا يُنكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم في الإسلام. رضيكم الله أنصاراً لدينه ونبيّه، وجعل إليكم هجرته.

فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم. فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء. لا تفاتون بمشورة، ولا تقضى دونكم الأمور»[1].

وروى البخاري أن أبا بكر قال «ولن يُعرف هذا الأمر إلاّ لهذا الحيّ من قريش! هم أوسط العرب نسَباً وداراً»[2].

وروى ابن أبي الحديد أن أبا بكر قال «.. قد علمتم أن العرب لا تقرّ ولا تطيع إلاّ لامرئ من قريش. هم رهط النبيﷺ. أوسط العرب وشيجة رحم وأوسط الناس داراً وأعرَبُ الناس لساناً وأصبح الناس أوجهاً...»[3].

وروى ابن منظور أن أبا بكر قال «إنما جُبيت العرب عنّا كما جُبيت الرّحَى عن قطبها..... فكنّا وَسَطاً وكانت العرب حوالينا كالرحى وقطبها الذي تدور عليه»[4].

وروى ابن خلدون أن أبا بكر قال للأنصار «نحن أولياء النبي وعشيرته، وأحق الناس بأمره ولا ننازع في ذلك. وأنتم لكم حق السبقة والنصرة. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء»[5].

تطورات الأحداث في ذلك الاجتماع التاريخي

جاء في تاريخ الطبري أن الحباب بن المنذر قال للأنصار بعد أن تكلّم أبو بكر مؤكداً حق المهاجرين من قريش بالإنفراد بالحكم:

«... أبى هؤلاء إلاّ ما سمعتم. فمنا أميرٌ ومنكم أمير!

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن. والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم. ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها مَن كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم، ولنا بذلك على مَن أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين.

---

(١) من كتاب «الأنصار» لطاهر آل عكلة ص ٢٢٠ نقلا عن الكامل في التاريخ.

(٢) صحيح البخاري باب رجم الحبلى من الزنا ج٨ ص٢١١. وكذلك مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٥٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٤٠.

(٤) من كتاب «الأنصار» لطاهر آل عكلة ص ٢٢٥ نقلا عن لسان العرب.

(٥) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص٦٤.

مَن ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مُدلٍ بباطل أو متجانفٌ لإثم أو متورّط في هَلكة...»[1].

ولجأ أبو بكر إلى نقطة الضعف الأنصارية، فقام بتذكيرهم بالخلافات القديمة بين الأوس والخزرج. روى الجاحظ أن أبا بكر قال «نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً من بيت الله، وأمسّهم رحماً برسول الله ﷺ. إنّ هذا الأمر إن تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الأوس، وإن تطاولت له الأوس لم تقصر عنه الخزرج. وقد كان بين الحيّين قتلى لا تنسى، وجرحى لا تداوى. فإن نعَق منكم ناعقٌ فقد جلس بين لحيَي أسد، يضغمه المهاجري، ويجرحه الأنصاري»[2].

وانشقّت صفوف الأنصار في تلك اللحظات الحرجة، وفقدوا تماسكهم! فكان بشير بن سعد هو أول مَن أحدث الخلل في أوساطهم، وذلك عندما وثب فكان أول مَن بايع أبا بكر، حسداً لقومه من الخزرج، وارتضى أن يمارس دور العميل لقريش في أوساط الأنصار[3].

«إن بشير بن سعد (وكان حاسداً لسعد بن عبادة) قال: أيها الأنصار! إنا وإن كنّا ذوي سابقة فإنا لم نُرِد بجهادنا وإسلامنا إلاّ رضى ربنا، وطاعة نبيّنا، ولا ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس ولا نبتغي به عوضاً من الدنيا.

إن محمداً رجلٌ من قريش، وقومه أحق بميراث أمره. وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر. فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم.»[4].

ثم سَبَقَ عمرَ وأبا عبيدة فبايعَ أبا بكر. فتتابع المجتمعون على البيعة.

ولا بد من ملاحظة أن كل هذه الأحداث قد حصلت أثناء الغياب الكامل لآل

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٤٥٧.

(٢) من كتاب «الأنصار» لطاهر آل عكلة ص ٢٢٨ نقلا عن البيان والتبيين

(٣) وقد تابع ابنه النعمان، من بعده، نفس الدرب، وأمضى جلّ حياته عميلا مخلصا لمعاوية وبني أمية الذين ولّوه مناصب مهمة بسبب حاجتهم إلى إظهار أنهم يتمتعون ببعض التأييد في أوساط أنصار الرسول ﷺ.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص١٠.

الرسولﷺ. وكان اندفاع المهاجرين كبيراً جداً باتجاه الحَسم الفوري لموضوع الخلافة لصالح مرشحهم أبي بكر.

وفيما بعد، وصف عمر بن الخطاب الطريقة التي تمت فيها بيعة أبي بكر بأنها «فَلتة، وَقَى الله شرّها»[1] وكان مصمماً على ألاّ تتكرر مرة أخرى أبداً.

وكانت الخطوة التالية هي انتزاع البيعة العامة للخليفة الجديد، وتولى عمر بن الخطاب ذلك، فقامَ على المنبر في صبيحة اليوم التالي للسقيفة وقال لعموم الناس«... وإن الله قد جمعَ أمركم على خيركم، صاحب رسول اللهﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا إليه فبايعوه.

فبايَعَ الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة»[2].

ضغط عسكري أيضاً

وكان هناك ضغط عسكري على الأنصار أثناء اجتماع السقيفة. ويتمثّل ذلك بأن شوارع المدينة كانت تغصّ بأفراد قبيلة أسلم،المتحالفة تاريخياً مع قريش. روى الطبري:

«... إن أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر.

فكان عمر يقول: ما هو إلاّ أن رأيتُ أسلم فأيقنتُ بالنصر.

فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطؤون سعد بن عبادة فقال ناسٌ من أصحاب سعد: اتقوا سعداً لا تطؤوه!

فقال عمر: اقتلوه قتله الله! ثم قام على رأسه فقال: لقد هممتُ أن أطأك حتى تندر عضوك!

فأخذ سعد بلحية عمر فقال: والله لو حصصتَ منه شعرة ما رجعتَ وفي فيكَ واضحة.

---

(1) صحيح البخاري ج٨ ص٢١٠ باب رجم الحبلى من الزنا.

(2) كتاب «الثقات» لابن حبان ج٢ ص١٥٧. وكذلك البداية والنهاية لابن كثير ج٥ ص٢٦٨.

فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر! الرفق ههنا أبلغ. فأعرض عنه عمر.

فقال سعد: أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعتَ منيِ في أقطارها وسككها زئيراً يحجرك وأصحابك. أما والله إذا لألحقنّك بقوم كنتَ فيهم تابعاً غير متبوع! احملوني من هذا المكان. فحملوه فأدخلوه في داره. وترك أياماً ثم بُعث إليه أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك.

فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل وأخضب سنان رمحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي وأقاتلكم بأهل بيتي ومَن أطاعني من قومي. فلا أفعل وأيم الله. لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم، حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسابي.

فلما أتي أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع.

فقال له بشير بن سعد: إنه قد لجّ وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته. فاتركوه فليس تركه بضارّكم، إنما هو رجلٌ واحد.

فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد واستنصحوه لما بدا لهم منه.

فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع معهم ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم. فلم يزل كذلك حتى هلك ابو بكر رحمه الله»[1].

من هذا النص يتضح أن المسألة لم تكن نقاشاً وجدالاً بالحجة والموعظة الحسنة فقط، بل كانت صراعاً سياسياً حقيقياً، ترافق مع التهديد والوعيد والقوة العسكرية المباشرة. واضحٌ كيف أن قبيلة أسلمـ التي شاركت مع قريش في هجومها على يثرب يوم الخندقـ حسمت الموقف لصالح قريش، مما جرّأ عمر بن الخطاب

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٤٥٩. وأما البخاري في صحيحه، باب رجم الحبلى من الزنا، ج٨ ص٢١١، فلم يورد تفاصيل الكلام المتبادل بين عمر بن الخطاب وسعد بن عبادة، واكتفى بذكر قول عمر «... ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة! فقلت: قتل الله سعد بن عبادة... ».

على مهاجمة سعد بن عبادة وتهديده. وواضحٌ كيف اتبع مهاجرو قريش سياسة«فرّق تسُد»مع فرعي الأنصار من الأوس والخزرج بواسطة عميلهم بشير بن سعد.

وإن حدّة موقف سعد بن عبادة مثيرة للإهتمام وجديرة بالتوقف عندها.

تلخيص حجج مهاجري قريش ومناقشتها

بالرجوع إلى النصوص وتطورات اجتماع السقيفة، يمكن تلخيص الحجج التي استند إليها المهاجرون القرشيون في نزاعهم مع الأنصار على النحو التالي:

- إنهم هم كانوا أول مَن آمن بدعوة النبيﷺ وعبَدوا الله قبل الأنصار
- إنهم أهل النبيﷺ وعشيرته، وأولى به وبميراثه
- إن العرب لا تقبل إلاّ بحكم قبيلة قريش، ولن تدين إلاّ لها، لمجدها وشرفها
- إن الأنصار غير مؤهلين للخلافة، نظراً لانقسامهم، والتنازع بين الأوس والخزرج

تلك هي المحاور الأربعة التي استند إليها المهاجرون القرشيون في ادّعائهم بحق الانفراد بالحكم.

فأما الحجة الأولى، فصحيح أنهم كانوا أول مَن آمن بمحمدﷺ وسبقوا الأنصار إلى ذلك. ولكن ذلك أمر طبيعي لأن الرسولﷺ قد بُعث بمكة، وليس بيثرب، ولذلك فمن طبائع الأمور أن ينجح في إقناع البعض من قومه بنبوّته. فمن حُسن حظ القرشيين أن الرسولﷺ بُعث بين أظهرهم، فهم لم يبحثوا عنه ولم يسعوا إليه، بعكس الأنصار الذين بادروا إلى الإيمان بمحمدﷺ رغم أنه بعيد عنهم، في بلد آخر، ورغم أنه ليس من قومهم. وبذلك يكون للأنصار فضل التصديق والإيمان والنصرة أعظم من غيرهم. وليس إيمان بعض القرشيين بمحمدﷺ قبلهم بحجة عليهم. بل يمكن للأنصار أن يلوموا مهاجري قريش ويحتجوا عليهم بقلّة عدد الذين آمنوا بمحمدﷺ من قريش رغم وجوده بينهم لثلاثة عشر عاما. فأبناء قريش الذين صدّقوا بمحمدﷺ كانوا يعدّون بالعشرات

فقط! وبالتالي فإن مساهمة مهاجري قريش فيما أنجزه رسول اللهﷺ من نصر عظيم، توّج بفتح مكة، كانت ضئيلة جدا إذا ما قيست بحجم الدور الذي لعبه الأنصار في المشروع النبويّ.

وأما الحجة الثانية، فصحيح أن المهاجرين هم أهل النبي وعشيرته، ولكن بالمعنى الواسع فقط. فقبيلة قريش تضم مَن ينحدر من الجد الثالث عشر للنبيﷺ! وبالتالي فالقول بأنهم»أهل النبي«ليس دقيقاً البتة، وإنما سيق ذلك على سبيل المحاججة ليس إلاّ. فبنو الحارث بن فهر، أو عدي بن كعب، مثلاً، قرابتهم للنبيﷺ الهاشمي بعيدة جداً، ولا يمكن أن يوصفوا بأنهم أهله. فليس أهل النبيﷺ سوى بني هاشم، وأما غيرهم فليسوا سوى بطون متنافسة من قبيلة كبيرة. ولو كان المهاجرون يبنون دعواهم على أساس القرابة، لكان عليهم أن يسلّموا بأن بني هاشم هم الأولى بالنبيﷺ، ولكان عليهم أن يبايعوا علي بن أبي طالب. ولكن ذلك لم يحصل. بل هم حرصوا على استبعاد أهل النبيﷺ الحقيقيين من الخلافة، وقاتلوا في سبيل ذلك بلا هوادة. فالمهاجرون القرشيون لجأوا إلى موضوع القرابة من النبيﷺ فقط لإفحام الأنصار، ولم يؤمنوا بذلك المبدأ حقاً، ولم يطبقوه.

وأما أن العرب لا تدين إلاّ لقبيلة قريش ولا تقبل بحكم غيرها، فذلك ليس دقيقا. فالعرب إنما دانت وخضعت لفكرة النبوّة ذاتها، وليس لقبيلة قريش. ولم يحصل أبداً أن نجحت قريش في إخضاع قبائل عربية أخرى لحكمها، قبل الإسلام. ولم تكن قريش أكثر قبائل العرب عدداً ولا قوة. وكان من المستحيل تصوّر أن قبائل مثل غطفان وثقيف وهوازن يمكن أن تقبل أن تحكمها قريش، لولا نبوّة محمدﷺ. فالسمع والطاعة هي للنبوّة في الأساس، وقبل أي شيئ آخر.

وأما الأوس والخزرج، وتنافسهم، فصحيح أيضاً. ولكن رسول اللهﷺ جاء ليوحّدهم ويؤآخيهم، ونجح إلى حد بعيد في ذلك. وكان من المتوقع من إخوانهم من المهاجرين الأولين أن يكونوا حريصين على استمرار تلك الأخوّة وتعزيزها، لا أن يلجأوا إلى نقضها عن طريق نكث الجراح القديمة وتضخيمها! والخلافات بين

أبناء القبيلة الواحدة كانت أمرا شائعا جدا، بل إن قبيلة قريش ذاتها هي مثال ساطعٌ على ذلك، فصراعات بطونها وتنافسها في الجاهلية أمر معلوم.

لماذا سلم الأنصار لأبي بكر

قال طاهر آل عكلة:[1]

«كان الموقف في سقيفة بني ساعدة يحتمل نهايتين لا ثالث لهما: أحدهما إصرار الطرفين على موقفهما دون إبداء أي تنازل، مما يؤدي إلى انفجار مروّعٍ أقل ما يقال فيه أنه ينهك الإسلام ويضعفه ويجعله فريسة للقوى التي تحيطه شرقا وغرباً وهي تتوجّس من هذا الدين المتوثب في الجزيرة العربية.

والاحتمال الآخر أن يُبدي أحد الطرفين بعض التنازلات مما يتسبب في انفراج الأزمة، فيضحّي ويقدّم المصلحة الإسلامية العليا، مصلحة الدين، على أي شيئ، حتى على حساب ما يستحق من (المكاسب).

وكل المؤشرات تدل على أن الأنصار هم المؤهلون أكثر لدور الإيثار. فهم اعتادوا على التضحيات الكبيرة في سبيل هذا الدين الذي بُني على جماجم رجالهم وتضحياتهم، أكثر من غيرهم، بكل غالٍ ونفيس.

بينما كان المهاجرون يُظهرون إصراراً شديداً على الاستئثار بالخلافة وحدهم، مهما تطلب الأمر، وكانوا مستعدِين للذهاب إلى آخر الشوط من أجل ذلك. يقول الجاحظ في العثمانية:

«ولو أن الأنصار حين أتاهم أبو بكر فأظهروا الشقاق والخلاف عن الحق وجهلوه، ما كان لهم من دون البَوار مانع».

ولم يغفل المهاجرون عن طبيعة الإيثار الأنصارية وعظيم حرصهم على الإسلام، فلامسوا هذه الأوتار في نفوس الأنصار ليذكروهم أن مستقبل الإسلام

---

(١) عن الأنصار لطاهر آل عكلة، ص٢٢٨ـ٢٢٩، بتصرفٍ قليل.

متوقفٌ على إذعانهم وتسليمهم لهم دون قيد أو شرط... وفي متابعة كلام لأبي بكر وهو يستفز نفوس الأنصار المليئة بالإيمان ـ وهو يعلم ذلك ـ فيستشف فيها الغيرة على الإسلام والحرص على سلامته، فيقول:

«وأنتم أنصار الله وأنتم نصرتم رسول اللهﷺ، ثم أنتم وزراء رسول الله، وإخواننا في كتاب الله، وشركاؤنا في الدين، وفيما كنا من خير. فأنتم أحب الناس إلينا، وأكرمهم علينا، وأحق الناس بالرضا بقضاء الله، والتسليم لما ساق الله إلى إخوانكم من المهاجرين، وأحق الناس ألاّ تحسدوهم. فأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة، وأحق الناس ألاّ يكون انتقاض هذا الدين واختلافه على أيديكم».

ومرة أخرى يثبت أبو بكر براعته في ميدان الصراع في السقيفة وهو يمثل المهاجرين وقريش قبال الأنصار. فقد نفذ إلى أعماق النفوس الأنصارية ليسخّر كل ما تنطوي عليه من إيمان وحب لرسول الله، وحرص على الإسلام، ليجنّد كل تلك المشاعر المتوقدة لإطفاء حماس الأنصار واندفاعهم وراء المطالبة بالخلافة، أو الاشتراك فيها على أقل تقدير. وكذلك استطاع أبو عبيدة أن يشير إلى ذلك حين خاطب الأنصار وهم يتصلبون في الموقف قبال المهاجرين، فقال «يا معشر الأنصار: إنكم أول مَن نصر، فلا تكونوا أول مَن بدّل وغيّر».

وليس من الإفراط أن يقال أن لهذا العامل أكبر الأثر في تراجع الأنصار وتخلية المهاجرين والأمر. وقد لخّص النعمان بن العجلان الأنصاري ذلك بقوله:

ولولا اتقاء الله لم تذهبوا بها ولكن هذا الخير أجمع للصبر

وتظهر أهمية هذا العامل وتأثيره إذا أضيف إليه وصايا النبي للأنصار أن يكون هدفهم حفظ الإسلام مهما كان الثمن. ولا يزال حديث الإثرة يدوّي في أسماع الأنصار وقولهﷺ «يا معشر الأنصار أنتم الشعار، والناس دثار، فلا أوْتينّ من قبلكم».

وينبغي الإضافة أنه لا شك ان الأنصار كانوا يميّزون بين مهاجري قريش

وطلقائها. فبسبب العِشرة، والعيش المشترك، والجهاد الجَماعي تحت راية الرسولﷺ على أساس رابطة العقيدة، تكوّنت ألفة ومودّة وأخوّة بين الأنصار والمهاجرين. ورغم أنه كانت تظهر، وخاصة في فترات المواجهة الحادة والعنيفة بين المسلمين وقبيلة قريش، تمايزات بين الفريقين، حيث كان المهاجرون في الأغلب ينكصون في اللحظات العصيبة عن الذهاب إلى أقصى مدى (وهو سفك الدم) في مواجهة قومهم من قريش، على العكس من الأنصار، إلاّ أن وجود النبيﷺ بشخصه بينهم كان من شأنه تجميعهم وصهرهم في بوتقة واحدة.

وقد استجاب الأنصار في عمومهم لدواعي الإيمان والتضحية الضاربة الجذور في نفوسهم، فقرروا الوثوق بالوعود الجازمة التي أطلقها شيخ المهاجرين القرشيين أبي بكر. فالأنصارُ يَرَونَ صاحبَ النبيﷺ القديم ورفيقه في الغار يؤكد لهم «نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وهذا الأمر بيننا وبينكم نصفين، كقد الابلمة يعني الخوصة»[1]، ونظراً لأن المهاجرين لم يصطحبوا معهم أحداً من طلقاء قريش إلى ذلك الاجتماع في السقيفة، واقتصر حضور قريش قبال الأنصار على الجناح المؤمن منها، فقد ساهم ذلك في تهدئة مخاوف الأنصار في تلك اللحظات. فهم لم يروا أياً من وجوه أشراف قريش وموتوريها المهزومين، وبالتالي كان قبول بيعة أبي بكر أيسرَ على نفوسهم.

المهاجرون وعليّ

كان المهاجرون قد خلقوا أمراً واقعاً بحصولهم على البيعة العامة لأبي بكر قبل أن ينتقلوا إلى الخطوة الثانية، الضرورية، في تحركهم، والموجهة نحو آل الرسولﷺ، وعلى رأسهم عليّ بن أبي طالب.

وقد تصرّف المهاجرون الذين حققوا الخطوة الأولى والأساسية في مساعيهم الرامية إلى تثبيت حكم أبي بكر، وبقيادة واضحة من عمر بن الخطاب وبتخطيطٍ منه،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص١٨٢.

تصرّفا سياسياً محترفاً. وأدركوا أهمية الحصول على ضمان لشرعية فعلهم، وذلك يعني بالضرورة عدم قيام منافسيهم، وبالذات عليّ، بتحرك عَمليّ مضادٍ يتحدى سلطة الخليفة الجديد.

فانتقل المهاجرون للتعامل مع عليّ وآل بيت النبيﷺ:

«فأرسلَ أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة. فقال: ما الرأي؟

قالوا: الرأي أن تلقى العباسَ بن عبد المطلب، فتجعل له في هذا الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده، فتقطعون به ناحية علي بن أبي طالب حجّة لكم على عليّ إذا مالَ معكم...»[1].

وهذا تدبيرٌ في غاية الدهاء، ومصممٌ تماماً ليزرع بذرة الشقاق داخل صفوف بني هاشم! فالعباس هو أكبر بني هاشم سِناً، وهو عَمّ عليّ ويكبره بحوالي الثلاثين عاماً، ولذا تصورَ المخططون أن العباس بحكم تربيته القبليّة لا شك سيرى نفسه مرشحاً لأن يكون في الصدارة، وأن نفسه ستأبى عليه أن ينقاد لابن أخيه الذي يصغره بثلاثين عاما! ومؤكدٌ أن المخططين لو نجحوا في كسب العباس إلى صفّهم، ولو بتقديم تنازلات شكلية له، قد ترضي فيه بعض طموحه، لكانوا قد وجّهوا بذلك ضربة معنوية قاصمة لعليّ الذي سيرى أن عائلته بالذات تتخلى عنه! ولكن العباس خيّب أمل القرشيين ورفض عرض مهاجري قريش بإشراكه معهم في الحكم ـ دون عليّ.

قال أبو بكر للعباس بن عبد المطلب:

«إن الله بعث محمدا نبياً وللمؤمنين وليّا، فمَنّ عليهم بكونه بين أظهرهم، حتى اختار له ما عنده. فخلّى على الناس أموراً ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم مشفقين. فاختاروني عليهم والياً ولأمورهم راعياً...

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٢٤.

وما انفكّ يبلغني عن طاعن يقول الخلاف على عامة المسلمين، يتخذكم لجأ، فتكون حصنه المنيع وخطبه البديع.

فإما دخلتم مع الناس فيما اجتمعوا عليه، وإمّا صرفتموهم عما مالوا إليه.

وقد جئناك ونحن نريد أن لك في هذا الأمر نصيباً يكون لك، ويكون لمَن بعدك من عقبك، إذ كنتَ عم رسول الله....

وقال عمر بن الخطاب: إي والله وأخرى: إنا لم نأتكم لحاجة إليكم، ولكن كرهاً أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم، فيتفاقم الخطب بكم وبهم. فانظروا لأنفسكم...».

وأجاب العباس:

«.... وإن كان هذا الأمر إنما وَجَب لك بالمؤمنين، فما وَجَب إذ كنّا كارهين.

ما أبعد قولك من أنهم طعنوا عليك، من قولك أنهم اختاروك ومالوا إليك.

وما أبعد تسميتك بخليفة رسول الله، من قولك خلّى على الناس أمورهم ليختاروا فاختاروك.

وأما ما قلتَ إنك تجعله لي، فإن كان حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن كان لنا فلم نرضَ ببعضه دون بعض.

وعلى رسلك، فإن رسول الله من شجرة نحن أغصانها، وأنتم جيرانها»[1].

وهذا النص في غاية الوضوح.

ولما فشلت محاولتهم مع العباس، لجأ المهاجرون إلى القوة للحصول على الطاعة وإرهاب الخصم. جاء في الإمامة والسياسة لابن قتيبة أن القيادة الجديدة أرسلت إلى منزل عليّ الذي كان يتواجد فيه بنو هاشم وغيرهم من الذين رفضوا بيعة أبي بكر»....فذهبَ عمرُ إليهم في عصابة فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٢٦.

أسلم..»وأنهم أجبروا الزبيرَ بن العوام وعمومَ بني هاشم على البيعة، باستثناء عليّ الذي أبى، فضغطوا عليه حتى اقتادوه وأرغموه على المثول أمام الخليفة الجديد[1].

وفيما يلي نص الحوار ـ غير المتكافئ ـ الذي دار بين عليّ وزعماء مهاجري قريش:

أولاً: احتجاج عليّ على قريش:

«ثم إن علياً كرم الله وجهه أتي به إلى أبي بكر وهو يقول: انا عبد الله وأخو رسوله.

فقيل له: بايع أبا بكر!

فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم! لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي. أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمدٌ منكم؟ فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة. وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار. نحن أولى برسول الله حياً وميتا، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلاّ فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون».

«فقال له عمر: إنك لستَ متروكاً حتى تبايع.

فقال له عليّ: أحَلبَ حَلباً لك شطرُه؟ واشدُد له اليوم أمرَه يردُده عليك غداً. ثم قال: والله يا عمر! لا أقبل قولك ولا أبايعه.

فقال له أبو بكر: فإن لم تبايع فلا أكرهك».

ثانياً: رد مهاجري قريش:

---

(١) وقد أكّد الطبري في تاريخه ج٢ ص٦٢٠ حادثة اقتحام منزل عليّ في معرض سرده للأمور التي قال أبو بكر أنه ندم عليها، وهو على فراش الموت «... فوددتُ أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيئ، وإن كانوا قد غلقوه على الحرب...».

وهناك روايات أخرى تفيد بأن بني هاشم قد بايعوا فقط حين بايعَ علي، بعد عدة شهور من تنصيب أبي بكر.

تولى أبو عبيدة مهمة طرح بعض المنطق على سلوك المهاجرين، بدلاً من فجاجة عمر.

«فقال أبو عبيدة بن الجراح لعليّ كرم الله وجهه: يا ابن عم! إنك حديثُ السن وهؤلاء مشيخة قومك. ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور. ولا أرى أبا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك. فإنك إن تعش ويطُل بك بقاءٌ فأنتَ لهذا الأمر خليق وبه حقيق، في فضلك ودينك وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسَبك وصهرك».

ثالثاً: جواب عليّ: مواصفات الإمام من أهل البيت:

«فقال عليّ كرم الله وجهه: الله الله يا معشر المهاجرين! لا تخرجوا سلطان محمدٍ في العرب، عن داره وقعر بيته إلى بيوتكم وقعور بيوتكم. ولا تدفعوا أهله عن مقَامه في الناس وحقه. فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به، لأنا أهل البيت. ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه بدين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية.

والله إنه لفينا!

فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا عن سبيل الله بُعداً»[1].

ووصلت الأمور إلى طريق مسدود. فلم يقبل عليّ أن يبايع الخليفة الجديد، ولا المهاجرون اقتنعوا بحجج علِيّ ومنطِقه. وافترقوا على ذلك.

عمر: ولكنّ قريشاً لا تحتمله!

لقد أفصح عمر بن الخطاب، في حوار هادئ وودّي في السنة الأخيرة من خلافته مع عبد الله بن عباس، عن السبب الحقيقي الذي جعله يتصرف على ذلك النحو تجاه عليّ بن أبي طالب:

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٢٩. وكذلك ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص١٢.

«.... والله يا ابن عباس إن علياً ابن عمك لأحقّ الناس بها، ولكن قريشاً لا تحتمله. ولئن وليَهُم ليأخذنهم بمرّ الحق لا يجدون عنده رخصة. ولئن فعل لينكثنّ بيعته، ثم ليتحاربن»[1].

وفي رواية ابن أبي الحديد عن ذلك الحوار بين عمر وابن العباس تفاصيل أوضح. قال عمر له:

«... يا ابن عباس: أتدري ما منعَ الناسَ منكم؟

قال: لا يا أمير المؤمنين.

قال: لكني أدري.

قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: كرهت قريشٌ أن تجتمع لكم النبوة والخلافة، فتجخفوا جخفاً. فنظرت قريشٌ لنفسها فاختارت ووفقت فأصابت».

ولما رد عليه ابن العباس منكراً خلق الكبر لدى بني هاشم، أجابه عمر متهماً بني هاشم بالحقد على قريش!

«على رسلك يا ابن عباس! أبَت قلوبكم يا بني هاشم إلاّ غُشاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول»[2].

فالموضوع إذن هو، باختصار، قريش. وعمر يعلم أن قريشاً لن تقبل بعليّ تحت أي ظرف. وبما أن عمر يعتبر أن من حقه أن يحدد ما هو مناسب لمصلحة المسلمين، فلذلك قرر هو استبعاد عليّ، رغم تسليمه بفضله وأحقيته. فمصلحة المسلمين، المتماهية بنظره مع مصلحة قريش، تقتضي الفصل بين النبوة، التي هي خالصة لبني هاشم، وبين الخلافة، التي يجب أن تكون لبقية بطون قريش. وهكذا كان.

---

١ تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٥٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٥٤. وجخفا: كبرا.

بعد البيعة: ردود أفعال ومواقف

في عصر يوم السقيفة، وبعد أن بدأت تخف حدة التوتر التي نجمت عن أجواء اجتماع السقيفة، التقى القوم وبدأوا يستعرضون ما جرى ويتعاتبون:

«... وقام عبد الرحمن بن عوف فتكلم فقال: يا معشر الأنصار! إنكم وإن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعليّ.

وقام المنذر بن أرقم فقال: ما ندفع فضلَ مَن ذكرتَ. وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد. يعني علي بن أبي طالب»[1].

من هذا الرد الأنصاري يتضح أن الأنصار كان موقفهم نوعاً من ردة فعل منطقية على ما يرونه أمام أعينهم من تصميم قرشيّ جليّ على الانفراد بالحكم واستبعادهم هم، وأهل بيت الرسول، عن القيادة. كان طرحهم»منا أمير ومنكم أمير«دفاعا عن النفس أمام الخطر الكبير الآخذ بالتبلور والمتمثّل بهيمنة قبيلة قريش التي حاربوها مع الرسولﷺ لسنوات طويلة، على مقاليد الأمور، وهي التي لا شك لم تنسَ ثاراتها من الناس الذين قتلوا أبناءها تحت راية الرسولﷺ. وكان إصرار المهاجرين الشديد، بقيادة فعّالة من عمر بن الخطاب، على حسم موضوع خلافة الرسولﷺ وبسرعة مذهلة، وتعيين أبي بكر دون مراعاة حتى أبسط الشكليات، من قبيل الإنتظار لما بعد دفن الرسولﷺ والصلاة عليه، أمراً ولا شك يثير كل المخاوف الكامنة في صدور الأنصار. وقد عبّر المنذر بن أرقم بكل جلاء عن وجهة النظر الحقيقية للأنصار حين قال للمهاجرين القرشيين إنهم لو رشّحوا علياً لما حصل أي نزاع.

وقد عبّر الشاعر الأنصاري النعمان بن العجلان عن موقف الأنصار بقوله[2]:

نصرنا وآوينا النبي ولم نخَف ... صروفَ الليالي والعظيمَ من الأمر

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٢٣. وورد مثل ذلك القول على لسان زيد بن أرقم في رواية شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٣١.

وقلنا لقوم هاجروا قبل: مرحباً وأهلاً وسهلاً قد أمنتم من الفقر
نقاسمكم أموالنا وبيوتنا كقسمة أيسار الجزور على الشطر
ونكفيكم الأمر الذي تكرهونه وكنّا أناساً نذهب العسر باليسر
وقلتم حرامٌ نصب سعد ونصبكم عتيق بن عثمان حلال أبي بكر

ولم يتردد ابن العجلان في إظهار مَيل الأنصار الصريح إلى عليّ وتفضيله على غيره، حين قال:

وأهل أبو بكر لها خير قائم وإن عليّا كان أخلق بالأمر
وإن هوانا في عليّ وإنّه لأ... هلٌ لها ياعمرو من حيث لاتدري
وصيّ النبيّ المصطفى وابن عمه وقاتلُ فرسان الضلالة والكفر

في ظل الأجواء المتوترة، نشط الموتورون من طلقاء قريش واستغلّوا حاجة المهاجرين إلى الاستقواء بهم من خلال وحدة القبيلة، فأظهروا بعض كوامن حقدهم وتحاملهم على الأنصار. فكانوا يحرّضون المهاجرين على الإيقاع بهم، ويهولون من موقفهم في السقيفة.

كان تفرّد المهاجرين القرشيين بالسلطة، وإبعاد الأنصار كلياً عنها، حَدَثاً له قيمته الكبيرة بالنسبة إلى طلقاء قريش الذين بدأوا نشاطاً مكثفاً، داخل الإطار الإسلامي، بهدف التمهيد لإعادة السيطرة على زمام الأمور. وكان الأمويون خاصة، الطامحون إلى إعادة ترتيب وضعهم على المدى البعيد، الأكثر فرحاً بتغييب الأنصار الكامل عن الساحة السياسية والقيادية، لما لذلك من تأثير في تسهيل وصولهم إلى الهدف الذي يسعون له. وكان هؤلاء الأشدّ وطأة على الأنصار.

روى الزبير بن بكار[1] أن أبا سفيان قال «يا معشر قريش! إنه ليس للأنصار أن يتفضّلوا على الناس حتى يقرّوا بفضلنا عليهم! وأيم الله لئن بطروا المعيشة، وكفروا النعمة، لنضربنّهم على الإسلام، كما ضربوا عليه».

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٢٤ ـ ٢٥.

وروى أيضا أن سهيل بن عمرو قال «يا معشر قريش! إن هؤلاء القوم قد سمّاهم الله الأنصار، وأثنى عليهم في القرآن. فلهم بذلك حظ عظيم وشان غالب. وقد دعوا إلى أنفسهم، وإلى عليّ بن أبي طالب، وعليّ في بيته، لو شاء لردّهم. فادعوهم إلى صاحبكم، وإلى تجديد بيعته، فإن أجابوكم وإلاّ قاتلوهم. فوالله إني لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم».

وروى أن عكرمة بن أبي جهل قال «والله لولا قول رسول اللهﷺ: الأئمة من قريش، ما أنكرنا إمرة الأنصار، ولكانوا لها أهلاً. ولكنه قولٌ لا شك فيه ولا خيار. وإن الذي هم فيه من فلتات الأمور ونزغات الشيطان، ما لا يبلغه المنى، ولا يحمله الأمل. أعذروا إلى القوم، فإن أبوا فقاتلوهم. فوالله لو لم يبقَ من قريش كلها إلاّ رجل واحد، لصيّر الله هذا الأمر فيه».

وروى أيضاً أن الحارث بن هشام المخزومي قال «إن تكن الأنصار تبوّأت الدار والإيمان من قبل، ونقلوا رسول اللهﷺ إلى دورهم من دورنا، فآووا ونصروا، ثم ما رضوا حتى قاسمونا الأموال، وكفونا العمل، فإنهم قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه، فإنهم قد خرجوا مما وسموا به! وليس بيننا وبينهم معاتبة إلاّ السيف!».

وأدلى عمرو بن العاص بدلوه، لدى عودته من سفر له، فقال عن الأنصار:

«.... كادوا والله ان يحلوا حبل الإسلام كما قاتلوا عليه، ويخرجوا منه من أدخلوا فيه.

والله لئن كانوا سمعوا قول رسول اللهﷺ «الأئمة من قريش«ثم ادعوها لقد هلكوا وأهلكوا.

وإن كانوا لم يسمعوها فما هم كالمهاجرين، ولا سعد كابي بكر، ولا المدينة كمكة.

ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء، ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة»[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٢٩.

وساهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط في تأجيج مشاعر البغض القرشي للأنصار[1]:

«ثم إن الوليد بن عقبة بن أبي معيط ـ وكان يبغض الأنصار لأنهم أسروا أباه يوم بدر وضربوا عنقه بين يدي رسول الله ـ قام يشتم الأنصار وذكرهم بالهجر.

فقال: إن الأنصار لترى لها من الحق علينا ما لا نراه. والله لئن كانوا آووا فقد عزوا بنا، ولئن كانوا آسوا لقد منّوا علينا. والله ما نستطيع مودتهم، لأنه لا يزال قائل منهم يذكر ذلنا بمكة، وعزنا بالمدينة. ولا ينفكون يعيرون موتانا، ويغيظون أحياءنا... ثم قال:

وقالوا لنا حقٌ عظيمٌ ومنة ... على كل باد من معد وحاضر
فإن يكُ للأنصار فضلٌ فلم تنل ... بحرمته الأنصّار فضل المهاجر
وإن تكن الأنصار آوت وقاسمت ... معايشها من جاء قسمة جازر
فقد أفسدت ما كان منها بمنّها ... وما ذاك فعل الأكرمين الأكابر

وكانت ردود فعل الأنصار على هذا الكلام الصادر عن الموتورين الذين يريدون الاصطياد في المياه العكرة، متوازنة. فعلى الرغم من التهديد السافر، دعا بعضهم إلى تجاهل مثل هذا الكلام، لاسيما أنه صادر عن أمثال أبي سفيان وابن أبي جهل وأضرابهم.

فقام ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا معشر الأنصار! إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش. فأما إذا كان من أهل الدنيا، لاسيما من أقوام كلهم موتور، فلا يكبرن عليكم. إنما الرأي والقول مع الأخيار المهاجرين. فإن تكلمت رجال قريش والذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء، فعند ذلك قولوا ما أحببتم، وإلاّ فأمسكوا.

ولكن حسان بن ثابت كان أكثر انفعالاً، فقال يردّ شعراً:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٣٦.

تنادى سهيلٌ وابن حرب وحارث وعكرمة الشاني لنا ابن أبي جهل
قتلنا أباه، وانتزعنا سلاحَه فأصبح بالبطحا أذلّ من النعل
فأما سهيلٌ فاحواه ابن دخشم أسيراً ذليلا لا يمر ولا يحلي
وصخر بن حرب قد قتلنا رجاله غداة لقا بدر فمرجله يغلي
أولئك رهط من قريش تبايعوا على خطةٍ ليست من الخطط الفضل[1]

المتخلفون عن أبي بكر

ولم يكن عليٌ وبنو هاشم وحدَهم مَن تخلفوا عن بيعة أبي بكر بل كان معهم مجموعة من كبار الصحابة، ذوي الفضل العظيم في الإسلام:

«... وتخلّف عن بيعة أبي بكر قومٌ من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع عليّ بن أبي طالب، منهم: العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب وأبي بن كعب»[2].

ومن بين هؤلاء يمثل خالد بن سعيد حالة فريدة حقاً. فهو ليس قرشيًا فقط، بل وأمويّ أيضاً. وهو من الذين كانوا سباقين للإيمان، ومن أوائل المهاجرين إلى الحبشة. وكان يقول لا أبايع إلاّ علياً، وبقي لفترة طويلة مُصراً على رفضه لبيعة أبي بكر.

وكان خالد يقول لبني هاشم «أنتم الظهر والبطن والشعار دون الدثار، والعصا دون اللحا، فإذا رضيتم رضينا وإذا سخطتم سخطنا..... أما والله يا بني هاشم: إنكم الطوال الشجر، الطيبو الثمر..»[3].

«وبقي خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبا بكر»[4].

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج٦ ص٣١. وابن دخشم هو رجل من الأنصار قام بأسر سهيل بن عمرو العامري يوم بدر، إلى أن افتدي بالمال.

(2) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٢٤.

(3) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٥٩.

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ ص٩٧.

وقد استفزه كلام عمرو بن العاص بالذات بحق الأنصار:

«فغضب للأنصار، وشتم عمرو بن العاص. وقال: يا معشر قريش! إن عَمراً دخل في الإسلام حين لم يجد بُداً من الدخول فيه. فلما لم يستطع أن يكيده بيده، كاده بلسانه. وإن من كيده الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار.

والله ما حاربناهم للدين ولا للدنيا.

لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا، وما بذلنا دماءهم لله فيهم.

وقاسمونا ديارهم وأموالهم، وما فعلنا مثل ذلك بهم.

وآثرونا على الفقر، وحرمناهم على الغنى.

ولقد وصى رسول الله بهم، وعزاهم عن جفوة السلطان.

فأعوذ بالله أن أكون وإياكم الخلف المضيع، والسلطان الجاني»[1].

وقال سلمان الفارسي بعد بيعة أبي بكر:

«أصبتم ذا السن منكم. ولكنكم أخطاتم أهل بيت نبيكم. أما لو جعلتموها فيهم، ما اختلف منكم اثنان، ولأكلتموها رغدا»[2].

ورغم الاستياء الذي شعر به هؤلاء تجاه بيعة أبي بكر، والطريقة التي تمت بها، وإحباطهم بسبب الإقصاء الذي تعرض له آل الرسولﷺ، إلاّ أنهم جميعاً ووجهوا بأمر واقع مفروض. ولم يكن حِسّهم الإسلامي يسمح لهم بتحمّل تبعات النزاع والشقاق الذي سينتج عن الانخراط في سياسة فعالة مناهضة للخليفة الجديد، خاصة في ظل المخاطر الخارجية التي كانت قد بدأتْ تظهرُ لتهددَ مستقبل دولة الإسلام.

وفي نهاية المطاف قام هؤلاء بمبايعة أبي بكر، لإعطائه الفرصة للقيام بالمهمات الجسيمة التي يقتضيها منصبه.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٣٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٤٣.

موقف علي من خلافة أبي بكر

يمكن الرجوع إلى خطابات علي بن أبي طالب أثناء فترة خلافته، بعد أحداث السقيفة بحوالي ٢٥ عاماً، للوقوف على حقيقة نظرته إلى الخليفة الأول وأحداث يوم السقيفة. ويظهر تماماً أن عليّا كان يرى أن أبا بكر قد اغتصب حقه في الخلافة عن وعي وإدراك. وقد أشار لذلك في خطبته الشقشقية الشهيرة

«أما والله لقد تقمصها فلانٌ وإنه ليعلمُ أن مَحَلي منها محلّ القطب من الرحى...... فصبرتُ وفي العين قذى وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهباً...».

وحسبما عبّر عليّ، فان أبا بكر لم يكتفِ بذلك، بل انه أصرّ على الاستمرار في الظلم حتى بعد وفاته:

«حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها الى فلان بعدَه.... فيا عجَباً بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشدّ ما تشطّراً ضرعيها...»[1].

فمن الواضح أن علياً يرى أن أبا بكر وعمر شركاء تماماً في اغتصاب حقه.

وأيضا قال عليّ «.. فوالله ما زلتُ مدفوعاً عن حقي، مُستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيّه حتى يوم الناس هذا»[2].

وقال عليّ لمن سأله كيف دفعته قريش عن الحكم وهو به أحقّ «... فانّها كانت أثرة شحّت عليها نفوس قوم، وسَخَت عنها نفوس آخرين. والحكم الله والمعود إليه القيامة»[3].

وقد أشار الحسن بن عليّ في كتاب له إلى معاوية بن أبي سفيان إلى الأسباب التي جعلت أباه يضحي فيتقبل خلافة الثلاثة من قبله:

«.... ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا، وإن كانوا

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٣٢ ـ ٣٣.
(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٣٩.
(٣) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٠٩.

ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام. وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده...»[1].

وكان عليّ نفسه قد أشار مرة إلى الأسباب التي دفعته إلى قبول خلافة أبي بكر رغم إيمانه بأنه هو من كان يستحقها:

«... فلما مضى ﷺ تنازع المسلمون الأمر من بعده. فوالله ما كان يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا انهم منحّوه عني من بعده.

فما راعني إلاّ انثيال الناس على فلان يبايعونه.

فأمسكتُ بيدي.

حتى رأيتُ راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى مَحق دين محمد ﷺ. فخشيتُ إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم.....»[2].

*****

ومن المؤكّد أن عليًا كان يعتبر عمر بن الخطاب القوة الحقيقية التي تحرّك أبا بكر وتتحكم به، وهو الذي كان عليّ يعتبره ألينَ عريكة وأكثر قرباً لرسول الله ﷺ، وأن أبا بكر لو ترك لنفسه فلربما كان اتخذ مواقف أكثر إيجابية تجاه آل بيت الرسول ﷺ مما حصل فعلاً بتوجيه من عمر. ولذلك كان عليّ يفضّل الكلام مع أبي بكر بمعزل عن عمر (ويبدو انه كان يواجه صعوبة في ذلك لأن عمر لا يفارق أبا بكر أبداً) ومن هنا يمكن فهم ما ورد في صحيح البخاري عندما قرر عليّ أخيراً أن يبايع أبا بكر»... فأرسلَ إلى أبي بكر: أن ائتنا ولا يأتنا أحدٌ معك، كراهية لمحضر

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص٣٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٧ ص١٥١. وراجعة الناس: يعني أهل الردة كمسيلمة وسجاح وطليحة.

عمر، فقال عمر: لا والله لا تدخل عليهم وحدك. فقال أبو بكر: وما عسيتهم أن يفعلوا بي؟ والله لآتينّهم. فدخل عليهم أبو بكر..»[1].

إجمال المواقف

بعد هذا الاستعراض التفصيلي للأحداث يوم السقيفة وما تلاها، يمكن تلخيص المواقف على النحو التالي:

- **موقف المهاجرين القرشيين:** كانوا مع استخلاف أبي بكر قلباً وقالباً، وبقيادة فعّالة من عمر بن الخطاب. وهم عارضوا بكل تصميم حق عليّ بن أبي طالب في الحكم، وكذلك عارضوا أي دور للأنصار في الأمر. وكانوا يرون أنه من أجل من مصلحة الإسلام، يجب أن تكون الخلافة محصورة بهم دون غيرهم. ويُستثنى من بين صفوفهم الزبير بن العوام وخالد بن سعيد الأموي، الذين كان هواهما مع عليّ وبني هاشم.

- **موقف طلقاء قريش:** كانوا أيضاً، وبالإجماع، مع استخلاف أبي بكر[2]. وهؤلاء تميّزوا عن أبناء عمومتهم المهاجرين بأنهم بالغوا في إظهار العداء للأنصار خصوصاً، وأبدوا استعدادهم التام لحمل السلاح إذا اقتضى الأمر. كانوا يرون الخلافة حقا إلهيا خالصاً لقريش. كانوا يرون في تطورات الأحداث الخطوة الأولى نحو عودتهم إلى وضعهم القيادي القديم و«عودة الأمور إلى نصابها». وظهرت في كلامهم وانفعالاتهم روحية الانتقام من محمدﷺ وأنصاره.

- **موقف بني هاشم:** عارضوا، بالإجماع، استخلاف أبي بكر، وكانوا مع عليّ بن أبي طالب بلا مواربة، على أساس أنه وصيّ النبيﷺ وأحق الناس بتراثه.

- **موقف الأنصار:** عارضوا استخلاف أبي بكر، وطالبوا بأن يكونوا شركاء

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ج٥ ص ١٧٧ وجديرٌ بالملاحظة طلب عمر من أبي بكر عدم دخول بيت آل الرسولﷺ وحده، حتى بعد ستة أشهر من وفاة الرسولﷺ، وبدء خلافته!

(٢) ولا يمكن تصديق الروايات التي تتحدث عن غضب أبي سفيان بن حرب من تولية أبي بكر، ورغبته في مبايعة عليّ بن أبي طالب.

في الأمر. وكان عموم الأنصار ميّالين لعليّ بن أبي طالب باعتباره امتداداً لعهد النبيﷺ وحكمه، ولأن شخصه هو الضمانة لهم ضد سيطرة قريش وتعاليها عليهم. انشقّت صفوفهم يوم السقيفة ونجح المهاجرون القرشيون في استقطاب عدد من شخصياتهم، وبالتحديد بشير بن سعد وأسيد بن حضير.

- **المؤمنون الضعفاء الأولون:** كانوا مع استخلاف عليّ بن أبي طالب، ورأوا في استخلاف أبي بكر مخالفةً لسياسة النبيﷺ ووضعاً للأمر في غير نصابه. وكان من أشدّهم بروزاً عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي.

فاطمة: أم أهل ملتين لا يتوارثون؟

مشكلة الحقوق المالية لأهل بيت الرسولعليهم السلام

جاء في صحيح البخاري:

«عن عائشة أن فاطمة عليها السلام، بنت النبيصلى الله عليه وآله، أرسلت الى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول اللهصلى الله عليه وآله مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خُمس خيبر.

فقال أبو بكر: إنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: لا نُورّث. ما تركنا صدقة. إنما يأكل آل محمد في هذا المال. وإني والله لا أغيّر شيئا من صدقة رسول اللهصلى الله عليه وآله عن حالها التي كان عليها في عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله ولأعملنّ فيها بما عمل به رسول اللهصلى الله عليه وآله.

فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئا. فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فهجرته فلم تكلمه حتى توفّيت. وعاشت بعد النبي ستة أشهر. فلما توفّيت دفنها زوجها عليّ ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها...»[(١)].

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد:

«جاءت فاطمة الى أبي بكر تطلب ميراثها، وجاء العباس بن عبد المطّلب يطلب ميراثه، وجاء معهما علي.

فقال أبو بكر: قال رسول الله لا نورّث، ما تركنا صدقة، وما كان النبي يقول فعليّ.

فقال علي: ورث سليمان داوود. وقال زكريا يرثني ويرث من آل يعقوب.

فقال أبو بكر: هو هكذا! وأنت تعلم مثلما أعلم.

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ج٥ ص ١٧٧.

فقال علي: هذا كتاب الله ينطق!

فسكتوا، وانصرفوا»[1].

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري:

«قالت فاطمة لأبي بكر: إن رسول الله جعل لي فدك فأعطني إياها. وشهد لها علي بن أبي طالب.

فسألها شاهداً آخر. فشهدت لها أم أيمن.

فقال: قد علمتِ يا بنت رسول الله أنه لا تجوز إلاّ شهادة رجلين أو رجل وامرأتين. فانصرفت».

وجاء فيه أيضاً أن

«فاطمة بنت رسول الله أتت أبا بكر فقالت له: مَن يَرثكَ إذا متّ؟

قال: ولدي وأهلي.

قالت: فما بالك ورثتَ رسولَ الله دوننا؟!

فقال: يا بنت رسول الله! والله ما ورثتُ أباك ذهباً ولا فضة ولا كذا ولا كذا.

قالت: سهمنا بخيبر وصدقتنا فدك.

فقال: يا بنت رسول الله! سمعتُ رسول الله يقول: إنما هي طعمة أطعمنيها الله حياتي، فإذا مت فهي بين المسلمين»[2].

هذه النصوص الثلاثة من البخاري وابن سعد والبلاذري، تروي ذلك الخلاف الذي حصل بين فاطمة الزهراء، ومعها آل بيت الرسولﷺ، وبين الخليفة الجديد. وكان الذي طالبت به فاطمة الزهراء هو ببساطة حقها في ملكية بعض المزارع من بعد أبيها، وخاصة تلك التي تعرف بـ«فدك».

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص ٣٥.

وهناك إجماع في الروايات على أن فدك كانت ملكاً شخصياً للرسولﷺ، وأنه كان يُنفق منها على آله في سنواته الأخيرة.

وهناك روايتان حول أساس مطالبة فاطمة الزهراء بفدك. أحدها تقول أنها طالبت بها على أساس أن الرسولﷺ كان قد منحَها لها في حياته، والثانية على أساس أنها ميراث لها من أبيها.

ولكن الخليفة رفض مطلب فاطمة الزهراء على الحالتين:

فهو رفض أن يصدّق أن الرسولﷺ قد منح فاطمة فدكاً في حياته، وأصرّ على ضرورة وجود شاهدين رجلين، وبالتالي لم يأخذ بشهادة عليّ وأم أيمن.

وهو أيضاً رفض مبدأ وراثة أموال الرسولﷺ، على أساس أنّ الأنبياء لا يورّثون، وبالتالي فإن فدكاً تصبح لبيت مال المسلمين.

والمفارقة هنا هي أنّ الخليفة الجديد إذا كان رفض ادّعاء فاطمة بملكية فدك على أساس أنها خبرٌ فرديّ ترويه هي، فإنه نفسه قد طبّق ذات المبدأ وجاء «بخبر آحاد» من عنده، ملخّصه أن الرسولﷺ قال له انّ الأنبياء لا يورّثون!

والغريب في الأمر أن حكم الرسولﷺ بأن الأنبياء لا يورّثون، لم يسمع به سوى أبي بكر، ولم يعرف به آل الرسولﷺ على الإطلاق، وعلى رأسهم عليّ وفاطمة! مع العلم طبعا أن آل الرسولﷺ هم المعنيون بالأمر، وبالتالي من باب أولى أن يكونوا أول من يعلم بهذا الحكم، ناهيك عن كونهم الأقرب لرسول اللهﷺ وبالتالي الأعلم بأحكامه على إطلاقها.

وحتى زوجات الرسولﷺ لم يسمعن بحديث عدم توريث الأنبياء! وقد طالبن هنّ أيضا بنصيبهنّ الشرعي من الميراث قبل أن تنهاهنّ عائشة بنت أبي بكر، التي قررت دعم موقف أبيها.

عن ذلك ذكر البخاري عن عائشة «أرسل أزواج النبيﷺ عثمانَ إلى أبي بكر، يسأله ثمنهنّ مما أفاء الله على رسولهﷺ. فكنتُ أنا أردّهنّ. فقلتُ لهنّ: ألا

تتقينَ الله؟ ألم تعلمنَ أن النبيﷺ كان يقول: لا نورّث. ما تركنا صدقة ـ يريد بذلك نفسهـ إنما يأكل آل محمد في هذا المال.

فانتهى أزواج النبيﷺ إلى ما أخبرتهن»[1].

إذن لم تعلم زوجات الرسولﷺ بهذه الفتوى. ولا يستقيم قول عائشة لهنّ «ألم تعلمنَ أن...» لأنه لو كنّ يعلمن ذلك لما طالبنَ به أصلاً. وإنما أتت استجابتهنّ «لأمر» عائشة خضوعاً منهنّ للخليفة الجديد، وابنته، وليس عن اقتناع. ولم يعلم به عثمان بن عفان أيضاً، بدليل أنه قبل القيام بدور المرسال من زوجات الرسولﷺ إلى الخليفة الجديد. ولو علم بهذه الفتوى من الرسولﷺ لقالها لزوجات النبيﷺ ولما قام بهذا الدور.

ومن المستحيل أن يأتي عليّ وفاطمة والعباس، يطالبون ويصرّون، ويجادلون ويناقشون، ويحاولون إقناع أبي بكر بكل الوسائل، من أجل الحصول على حق ليس لهم!

لقد بلغ إصرار الخليفة على موقفه الرافض لمطالب فاطمة الزهراء حداً دفعه إلى إجابة عليّ بقوله «هو هكذا» عندما استشهد عليه بنصوص القرآن الكريم ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾!

ولا يمكن الجزم بشأن سبب تصلّب الخليفة الشديد في موقفه، إلى ذلك الحد المتطرّف.

ربما يكون أبو بكر قد ظنّ أنه فهم من رسول اللهﷺ ما يفيد أن أنبياء الله لا يتوارثون النبوة ولا يورّثونها تلقائياً لأبنائهم، فعمّمها لتشمل التوريث على إطلاقه، بما فيه المال.

---

(١) صحيح البخاري ج٥ ص١١٥ باب حديث بني النضير. وروى مثل ذلك الإمام مالك في كتاب الموطأ ج٢ ص٩٩٣.

وفي سنن أبي داود ج٢ ص٢٥ عن عائشة انها قالت: إن أزواج النبيﷺ حين توفي رسول اللهﷺ أردن ان يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر الصديق فيسألنه ثمنهن من النبيﷺ فقالت لهن عائشة: أليس قد قال رسول اللهﷺ: لا نورث. ما تركنا فهو صدقة.

وربما من الأرجح أن يكون أبو بكر هنا متأثرا بالخلاف الشديد الذي حصل فيما يتعلّق ببيعته، ورفض عليّ وآل الرسولﷺ لها، وبالتالي أراد أن يطبّق نوعا من العقاب عليهم، خاصة وأن تلك المشكلة الخطيرة، والتي تشكّل تهديداً جدّيا لخلافته، كانت حديثة العهد تماماً (أيام قليلة فقط). ولا شك بأن حرمان فاطمة الزهراء وآل الرسولﷺ من فدك، هو عقاب اقتصاديّ شديد لهم، لأنه يعني ببساطة حرمانهم من مصدر رزقهم، وأنهم قد أصبحوا تحت رحمة الخليفة في مأكلهم وملبسهم، يجود عليهم حسبما يراه مناسباً. فالخليفة لا يلتزم تجاه آل الرسولﷺ سوى بإطعامهم، ليس أكثر:

روى أبو داود في سننه[1] أن أبا بكر قال أن النبيﷺ قال: لا نورّث. ما تركنا صدقة. إنما يأكل آل محمد من هذا المال. يعني مال الله، ليس لهم أن يزيدوا على المأكل.

وحتى سهم الخمس قرر الخليفة حرمان آل الرسول منه. فقد روى أبو داود[2] أيضا أن الرسولﷺ كان يقسم الخُمس بين بني هاشم وبني المطلب، وأن أبا بكر لم يكن يعطي قربى رسول اللهﷺ ما كان يعطيهم.

وروى ابن أبي الحديد أن فاطمة حين طالبت أبا بكر أيضا بسهم ذوي القربى الوارد في نص الآية ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى﴾ رفض وقال لها:

«لم يبلغ علمي منه أن هذا السهم من الخمس يُسلم إليكم كاملاً.

قالت: أفلكَ هو ولأقربائكَ؟

قال: لا. بل أنفق عليكم منه وأصرف الباقي في مصالح المسلمين»[3].

ومما يدعم احتمال أن يكون أبو بكر متقصّداً لمعاقبة عليّ وفاطمة هو ذلك

---

(١) سنن أبي داود ج٢ ص٢٣.

(٢) سنن أبي داود ج٢ ص٢٥. ومثل ذلك رواه البيهقي في السنن الكبرى ج٦ ص٣٤٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص٢٣٠.

التساهل الذي بَدَرَ منه في حالة أخرى حصلت أثناء خلافته. فقد روى البخاري أنه لما ورد لأبي بكر أموال من واليه العلاء بن الحضرمي «فقال أبو بكر: مَن كان له على النبيﷺ دَين أو كانت له قبله عِدَة فليأتنا.

قال جابر: فقلتُ: وعَدَني رسول اللهﷺ أن يعطيني هكذا وهكذا وهكذا. فبسطَ يديه ثلاث مرات.

قال جابر: فعدّ في يديّ خمسمائة ثم خمسمائة ثم خمسمائة»[1].

فهنا لم يطلب أبو بكر شهوداً على ادّعاء جابر، فصدّقَ ما قاله اعتماداً على ذمّته فقط، ودفعَ إليه المال بكل بساطة.

*****

وهكذا فإن أبا بكر قرر حرمان آل الرسولﷺ من أي حقوق اقتصادية على الإطلاق. وفي المقابل، تعهّد بأن يشملهم برعايته وأن يكفيهم الحاجة والعَوز.

وقد مارسَ أبو بكر، ومن بعده عمر، هذه السياسة. فلم يُروَ أنهما قد حرَما آل الرسولﷺ العطاءَ، أو أنهما قد أخلاّ بالتزامهما بتقديم متطلبات الحياة لهم.

ولكن لبّ الخلاف كان على الحقوق، وليس على مبالغ مالية بعينها. وطرفا الخلاف كانا يُدركان ذلك.

فالخليفة لا يمانع في أن يكون كريماً تجاه آل الرسولﷺ، وأن يكون سخياً جداً معهم في بعض الأحيان، ما دام الأمر يعود إليه ولقراره، وما دام قادراً على التحكم في ذلك. فالمهم أن لا يكون ذلك حق شرعي مفروضٌ لهم. والمهم أن لا يكون لهم استقلالية اقتصادية تجعلهم قادرين على الإنفاق على مَن شاؤوا من المسلمين أو القيام بأي مبادرات من شأنها أن تبرزهم أو تزيد من نفوذهم في المجتمع.

---

(١) صحيح البخاري باب مَن أمر بإنجاز الوعد ج٣ ص٢٣٦.

وفي المقابل فإن آل الرسولﷺ كانوا يرفضون أن تكون حقوقهم رهناً بمزاج الخليفة، أو بحُسن أخلاقه أو بلطفه. وهم يَرونَ أنه حتى لو كان أبو بكر كريماً معهم الآن، فما الذي يضمن ما سيقرره الخَلفاء في مستقبل الأيام؟ وما الذي يمنع أن يأتي خليفة سيئ الخلق فيمنعهم كل شيء؟

*****

حصل كل ذلك مع علم أبي بكر بقول النبيﷺ «فاطمة بضعة منّي، فمن أغضبها أغضبني»[1] وعلمه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال إن فاطمة «سيدة نساء أهل الجنة»[2].

*****

كان غضب فاطمة الزهراء عظيماً على أبي بكر. ونذرت أن تشكوه إلى الله ورسوله، وهجرته وقاطعته إلى أن توفّيت بعد فترة قصيرة.

وكانت فاطمة الزهراء، بعدما أيقنت أن الخليفة الجديد مصممٌ على منعها ميراثها، قد ذهبت حتى دخلت عليه، ومعه أعضاء قيادته من المهاجرين القرشيين، وألقت فيهم خطبة بليغة، جاء فيها:

«... أفعلى محمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول الله تبارك وتعالى: وورث سليمان داود

وقال الله عز وجل فيما قصّ من خبر يحيى بن زكريا: ربّ هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب

وقال عز ذكره: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله

وقال: يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين

وقال: إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين.

---

(١) صحيح البخاري باب مناقب قرابة رسول الله ج٥ ص٢٦ .

(٢) صحيح البخاري باب علامات النبوة ج٤ ص٢٤٨.

وزعمتم أن لا حق ولا إرثَ لي من أبي ولا رحم بيننا.

أفخصّكم الله بآيةٍ أخرج نبيّه منها؟

أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثون؟

أولستُ أنا وأبي من ملّة واحدة؟

لعلّكم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبيﷺ؟ أفحكمَ الجاهلية تبغون ومَن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

أأغلب على إرثي جوراً وظلما؟

وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»[1].

وقال عليّ بن أبي طالب، مخاطباً رسولَ اللهﷺ، بعد أن انتهى من دفن فاطمة ليلاً والصلاة عليها «... قلّ يا رسول الله عن صفيّتك صبري، ورقّ عنها تجلدي. إلاّ أن لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزّ... فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة. أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهّد إلى ان يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم. وستنبؤك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها. فأحفِها السؤالَ واستخبرها الحالَ. هذا ولم يطل العهدُ، ولم يخلُ منك الذكرُ....»[2].

*****

ومن مآسي التاريخ، أن فدك هذه التي أصرّ أبو بكر وبكل شدّة على رفض منحها لفاطمة الزهراء، لعدم كفاية الشهود كما قال، ورفض تصديق شهادة كل من فاطمة وعليّ، وتمسّك بخبر انفرد به عن أن الأنبياء لا يورثون، وبالتالي فهي ملك لبيت مال المسلمين، قد أصبحت بعد مرور ثلاثين عاماً فقط على وفاة الرسول ملكاً خاصاً لابن واحد من أعتى أعدائه (الحكم بن أبي العاص) وهو مروان، الذي وهبه معاوية فدك ليستمتع بها أمام ناظري آل الرسولﷺ وأبناء فاطمة!

---

(١) بلاغات النساء،لابن طيفور ص ١٧.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٧٩. وهضمها: ظلمها. وإحفاء السؤال: الاستقصاء فيه.

وشاءت إرادة الله أن يبعث حفيداً لمروان بالذات لكي يتجرأ ويعلن أن كل ما جرى باطل وأن لا حق لبني أمية فيها. فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري:

«إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة خطب فقال: إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب. فسألته إياها فاطمة رحمها الله تعالى فقال: ما كان لكِ أن تسأليني وما كان لي أن أعطيك. فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل. ثم ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله. ثم ولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك فصارت لي وللوليد وسليمان. فلما ولي الوليد سألته حصته منها فوهبها لي، وسألتُ سليمانَ حصته منها فوهبها لي. فاستجمعتها فما كان لي من مال أحب إلي منها. فاشهدوا أني قد رددتها إلى ما كانت عليه»[1].

ولكن بني أمية نقضوا قراره من بعده.

ويتكرر نفس الموقف تقريباً بعد أكثر من مائة عام على يد الخليفة العباسي المأمون، الذي أعلن صراحة أن فدك لا بد أن تعود إلى فاطمة مهما طال الزمان.فقد روى البلاذري أيضاً أن المأمون كتب إلى عامله على المدينة برد فدك إلى ولد فاطمة «وقد كان رسول الله أعطى فاطمة بنت رسول الله فدك وتصدق بها عليها، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله. ولم تزل تدعي منه ما هو أولى به من صدق عليه. فرأى أمير المؤمنين أن يردها إلى ورثتها ويسلمها إليهم، تقربا إلى الله تعالى بإقامة حقه وعدله وإلى رسول الله بتنفيذ أمره وصدقته...

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص ٣٧. وروى مثل ذلك أبو داود في سننه ج٢ ص٢٤ باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال.

وورد في تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٢٣ أن معاوية في عام ٤٤ قد مَنحَ فدكاً لمروان بن الحكم «ليغيظَ بذلك آل رسول الله ».

إن فاطمة رضي الله عنها لأولى أن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها. وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارك الطبري مولى أمير المؤمنين يأمره برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله، بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها وما فيها من الرقيق والغلاّت وغير ذلك، وتسليمها إلى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، لتولية أمير المؤمنين إياهما للقيام بها لأهله»

ولكن للأسف، بعد وفاة المأمون تم نقض قراره. أضاف البلاذري «فلما استخلف المتوكل على الله رحمه الله أمر بردها إلى ما كانت عليه قبل المأمون رحمه الله»![1].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص ٣٨.

الكتاب الثالث

الشيخان

«والله لو مَنَعوني عقالاً لقاتلتهُم عليه الله...»

أبو بكر



عهد أبي بكر: إعادة تأهيل طلقاء قريش

إخضاع العرب المتمرّدين على حكم قريش

لم تكن «الردّة» العامة التي أعقبت وفاة الرسولﷺ، وسادت أنحاء واسعة من الجزيرة العربية، في حقيقتها إرتداداً تاماً عن دين الإسلام، وإنما كانت في الأساس تعبيراً عن التمرّد على الحكم القرشيّ. وتجمع المصادر التاريخية أن»المرتدّين«في غالبيتهم، كانت مشكلتهم الرئيسية مع الخليفة القرشيّ الجديد[1]، أبي بكر، تكاد تنحصر في رفض دفع الصدقات التي كانوا يدفعونها في زمن الرسولﷺ. أي أن «الردة» اتخذت منحى اقتصادياً بشكل بارز. وكان «المرتدّون» يقولون إنهم يصلّون ويصومون ويسلّمون بالشهادتين.

قال قرّة بن هبيرة، من بني عامر، لعمرو بن العاص: يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة. فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فسنستمع لكم ونطيع. فأجابه عمرو: «أتوعدنا بالعرب وتخوفنا بها؟ موعدنا حفشُ أمك! أما والله لأوطئنه عليك الخيل»[2].

ولكن هذا طبعاً لا ينفي وجود قطاع معيّن من المتمرّدين وَجَدَ في وفاة محمدﷺ فرصة ذهبية للتحلل من الدين الجديد جملة وتفصيلاً، وخاصة ممن كانت جذور رفضهم لدين الإسلام تعود إلى أيام النبيﷺ ذاته، من شاكلة مسيلمة وطليحة بن خويلد. ويبرز في حالاتٍ كثيرة العامل القبلي بشكل صارخ. فالقبائل

---

(١) رغم أنه ولا شك كانت هناك اعتراضات على شخص أبي بكر. وقد عبّر أحد شعراء المتمردين عن ذلك بقوله:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكر إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

روى ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٧ ص٢١٠

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٧ ص٢١١ نقلاً عن تاريخ الطبري .

العربية الكبيرة كانت كانت تعتبر نبوة محمد ﷺ وسيلة قرشية للسيادة والتميز. ولذلك لجأت إلى «إنتاج» أنبياء منها. وبعض هؤلاء أدرك أهمية الرموز الدينية لأمة العرب، ومنها الكعبة. فقام مسيلمة باتخاذ «حَرَم» له في اليمامة، كبديل عن حرم مكة! ويظهر العامل القبلي في أنصع صوره في حادثة ذلك الرجل الذي سمع من مسيلمة ما لديه من «وَحي»، فاستهجن ما ذكرَهُ مسيلمة من رجز «يا ضفدع ابنة ضفدع. نقي كما تنقين. أعلاكِ في الماء. وأسفلكِ في الطين. لا الشاربَ تمنعين ولا الماء تكدّرين».

فقال له «أشهدُ أنك كذاب وأن محمداً صادق. ولكن كذاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مُضر»[1].

والذي حصل أن الخليفة الجديد لم يميز بين الأصناف المختلفة من المتمردين. لقد مَزَجَ بين الجميع، وخَلط بين مَن تمنعوا عن دفع الصدقة له، وبين مَن عارضوا شخصهُ هو، وبين مَن عارضوا هيمنة قريش، وبين مَن ارتدّوا حقاً عن دين الإسلام وعادوا إلى الأوثان، وبين مَن اتجهوا إلى أنبياء جُدد!

لقد عاملهم جميعاً بنفس الطريقة، وكان يأمر قادته العسكريين بإخضاع «مَن خالفَ»، وبالتالي اعتبر الجميعَ «مُرتدّين». وعقبَ الانتصار عليهم رَسّخت الدولة هذه الصفة حتى شاعت التسمية ونُسِي أن مَن كانوا ارتدّوا عن الدين بالفعل هم الأقلية من بين هؤلاء المتمردين.

وأثبت أبو بكر، أنه رجل دولة حقيقي، ومن الطراز الرفيع. لم ينجرّ أبو بكر إلى بعض الدعوات التي انطلقت من المحيطين به والتي تدعوه إلى التمهّل في قتال المتمرّدين من العرب، على اعتبار أنهم لم يخرجوا من الإسلام حين رفضوا دفع الصدقات. ولم يُعِر أبو بكر أي اهتمام يذكر للأحاديث النبوية التي تحرّم قتل المسلم ما دام ينطق بالشهادتين. والأهم من ذلك كله أنه لم يَخَف من الوضع الصعب الذي

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٥٠٨.

وجد نفسه فيه: فالمسلمون، بقيادته، أصبحوا أقلية عددية في وسط أغلبية من أبناء القبائل المتمرّدة.

لم ينظر أبو بكر لما حدث إلاّ من زاوية واحدة فقط: إن الدولة التي بناها محمدﷺ مهددة بالانهيار والزوال. كان رفض دفع الصدقات، حسبما قدّر أبو بكر، يحمل أبعاداً أكبر بكثير من مجرّد الرغبة في التحلل من عبئٍ ماليّ لهؤلاء. كانت هيبة الدولة على المحكّ. وكانت السلطة الجديدة أمام اختبار مصيري: فالتساهل بشأن المتمرّدين من شأنه في النهاية أن يؤدي إلى القضاء التام على دين الإسلام. كانت المهادنة مع العرب المتمرّدين على حكمه، تعتبر مستحيلة بنظر أبي بكر، لأنها تعني أن القبائل قد عادت بالفعل إلى نظامها السابق لدولة الرسولﷺ، حتى وإن أظهرت إيماناً شكلياً (أو حتى صادقاً) بدينه.

وهناك ما يشير إلى أن تصدّي أبي بكر لمنصب الخليفة بحد ذاته كان إيماناً منه أنه يؤدي رسالته في حفظ دين محمدﷺ، المهدد، عن طريق تثبيت السلطة القرشية. فقد روى ابن أبي الحديد أن أبا بكر قال لرجل استفسر منه عن سبب حرصه على المنصب (الإمارة):

«.... إن الناس دخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً.... وإن رسول اللهﷺ قُبض والناس حديثو عهد بالجاهلية، فخشيتُ أن يفتتنوا. وإن أصحابي حمّلونيها....»[1].

كان أبو بكر مُصيباً تماماً في تقديره، وفي قراره الذي اتخذه بشجاعة نادرة «والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول اللهﷺ لقاتلتهم على منعها»[2]. كان ذلك موقفا تاريخياً عظيماً في ذلك الظرف العصيب. إذن قرر أبو بكر أن يذهب إلى الحرب. هو كان يقاتل في سبيل مستقبل الإسلام، المتماهي بنظره مع مستقبل قريش.

عيّن أبو بكر فارسَ قريش الأبرز، خالد بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ، قائدا

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٤٢ .

(٢) صحيح البخاري ج٩ ص٢٠ باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسِبوا إلى الردة.

عاماً للحملة العسكرية التي قرر إطلاقها في الجزيرة العربية لإخضاع كل الذين تجاسروا على تحدّي السلطة القرشيّة، والتي ترفع شعار الإسلام، التي هو على رأسها.

وكان اختيار خالد بن الوليد لهذه المهمة الجسيمة صائباً تماماً. فخالد كانت له سمعة بين قبائل العرب كقائد صلب وقاس لا يرحم. وكان وجوده على رأس الجيوش سبباً لبعض القبائل لكي تراجِع موقفها من أبي بكر. فمثلا كانت قبيلة طيئ على وشك الانضمام إلى تمرد طليحة الأسدي، إلى جانب قبائل غطفان وعبس وذبيان، لولا أن أبا بكر أرسل إلى طيئ ابنها البار عدي بن حاتم:

«وكان الصديق قد بعث عدي بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم.

فذهب عدي إلى قومه بني طيئ فأمرهم أن يبايعوا الصديق وأن يراجعوا أمر الله.

فقالوا: لا نبايع أبا الفضل أبدا ـ يعنون أبا بكر رضي الله عنه.

فقال: والله ليأتينكم جيشٌ فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا انه أبو الفحل الأكبر!

ولم يزل عدي يفتل لهم في الذروة والغارب، حتى لانوا»[1].

قرر أبو بكر إعطاء أبناء قبيلة قريش الفرصة لكي يعيدوا لأنفسهم بعض الاعتبار الذي فقدوه بسبب مواجهتهم الطويلة، والخاسرة، للرسولﷺ على مدى ٢٣ عاما. كان أبو بكر ولا شك يدرك مدى تطلّع القرشيين إلى الزعامة والسيادة بين العرب. وهو كان أيضا يدرك مدى الشعور بالمهانة الذي يتملّك أبناء قبيلته القرشيين نتيجة تأخرهم الشديد عن اللحاق بدين محمدﷺ، حتى صاروا آخر العرب إسلاماً، رغم أن الرسول من قبيلتهم.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٤٩.

وما قاله أبو بكر ليزيد بن أبي سفيان حين عيّنه قائدا لأحد الجيوش المتجهة إلى الشام يوضّح مدى الفرصة التي كان الخليفة يتيحها لأشراف قريش، إن أحسنوا استغلالها وأجادوا في مهمتهم «... وقد أردتُ أن أبلوكَ وأستخرجكَ من أهلكَ. فانظر كيف أنتَ، وكيف ولايتكَ. وأخبركَ: فإن أحسنتَ زدتكَ وإن أسأتَ عزلتكَ..»[1].

كان أبو بكر في الواقع يدعو القرشيين ليقول لهم، بالفعل وليس بالقول، هذه فرصتكم الأخيرة. إن أردتم أن تعوّضوا ما فاتكم، وتعيدوا بعض شرفكم، فهذا هو الميدان! إن أردتم أن تخلقوا لأنفسكم بعض»الشرعية«لتبرير طموحكم إلى القيادة والريادة، فهلمّوا إليّ: عليكم أن «تحموا» دين محمدﷺ الذي طالما حاربتموه! عليكم أن ترفعوا راية الإسلام التي طالما كرهتم رؤيتها!

استجاب القرشيون لدعوة أبي بكر

هكذا كانت المعادلة، وهكذا فهمها القرشيون. وعلى الرغم من أن القرشيين من أهل مكة أخذهم الحنين إلى الماضي، ماضي ما قبل دخولهم كارهين في دين محمدﷺ، إلاّ أنهم قرروا أن لا يعيدوا خطأ سلوكهم السابق. فأهل الألباب منهم كانوا أذكى من أن يتصوروا أن بإمكان قريش إعادة عجلة الزمان إلى الوراء. فدين محمدﷺ أصبح حقيقة واقعة على أرض الجزيرة، وهو دين الفطرة السليمة، ولا يمكن العودة إلى عهد الأصنام، حتى لو شاءت قريش ذلك.

ولذلك عندما أبدى جمهورٌ كبير من القرشيين في مكة رغبة في الارتداد عن الإسلام[2] لدى سماعهم نبأ وفاة الرسولﷺ، إلى درجة أن والي مكة فرّ وتوارى منهم، تصدّى عقلاؤهم للموقف الحرج وأمروا عامتهم بالثبات على دين محمدﷺ، وعدم الانسياق وراء غريزتهم، النافرة من محمدﷺ ودينه. وكان سهيل بن عمرو بالذات، الذي كان مندوب قريش يوم الحديبية ـ حينما أصرّ على

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٥ ص٢٤٤.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٥ ص٣٠٠.

حذف كلمة «رسول الله» من بنود وديباجة المعاهدة، هو الذي وجّه القرشيين إلى السلوك الواعي العقلاني. فقام خطيباً وقال: «يا معشر قريش! لا تكونوا آخرَ مَن أسلم وأولَ مَن ارتدّ. والله إن هذا الدين ليمتدنّ امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما.... وثبتت قريش على الإسلام»[1].

كان سهيل بن عمرو، وغيره من قادة قريش، يراقبون باهتمام بالغ التطورات التي أعقبت وفاة الرسولﷺ، والتي أسفرت عن وصول أبناء قريش من المهاجرين إلى قمّة هرم دولة النبيّﷺ. وهم تفاءلوا خيراً بتعيين أبي بكر قائداً أعلى للدولة، مع استبعاد آل الرسولﷺ ومعهم الأنصار من الأمر.

فأبو بكر، وإن كان من المسلمين السباقين للإيمان بالرسولﷺ الذين لا يوجد شك في حرصهم على دينه، يمثّل أفضل أمل لهم في المستقبل! فهو لم يُعرف عنه كبير عداء لقريش، وأشرافها وزعمائها. وقريشٌ لم تكن تكنّ له بُغضاً خاصًا، وليس بينها وبينه دماءٌ ولا ثارات.

*****

جاء في السيرة النبوية لابن هشام «وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسبَ قريشٍ لقريش، وأعلمَ قريشٍ بها وبما كان فيها من خير وشر. وكان رجلاً تاجراً، ذا خلقٍ ومعروف. وكان رجالُ قومه يأتونه ويألفونه...»[2].

*****

وأبو بكر كان من أحد البطون الصغيرة من قريش، تيم. ولم تكن هناك أية فرصة لهذا البطن القرشيّ الصغير لأن ينفرد بشؤون الحكم والقيادة دون غيره من البطون القرشية[3]. بل على العكس من ذلك، كان انتماء أبي بكر للبطن التيميّ

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٢ ص٣٧١. وأما حسن غريب في «الردة في الإسلام» ص ١٠٩ فقد أورد نقلا عن سيرة ابن هشام أن سهيل بن عمرو قال عن وفاة الرسولﷺ «إن ذلك لم يزد الإسلام إلاّ قوة. فمن رابنا ضربنا عنقه. فتراجع الناس، وكفّوا عمّا همّوا به».

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨٧.

(٣) إلى درجة أنه حتى والد أبي بكر لم يكن مصدقا أن ابنه أصبح زعيما:

المتواضع، يعني أنّ صيغة التداول القرشيّ على الحكم هي الأرجح. وهكذا تعود الصيغة الجاهلية القديمة لقيادة قريش عن طريق التراضي بين ذوي الشرف من قريش، إلى الحياة من جديد، بثوب إسلاميّ هذه المرّة! فأبو بكر يحتاج إلى سَند وقاعدة ليرسي دعائم سلطته الجديدة، خاصة وهو يواجه الهاشميين من آلَ الرسولﷺ ومعهم الأنصار من أهل المدينة، وكلاهما يمثّلان ثقلاً كبيراً في الإسلام، وكلاهما يطعنان في شرعيّة خلافته. وقريش مرشّحة لتلعب هذا الدور، إذا قبلت الشروط الضرورية.

الحَملات العسكرية

وبدأ أبو بكر حَرْبَه[1]: «عقد أبو بكر الألوية، وبلغ عددها أحد عشر لواءً. وكتب أبو بكر كتاباً لكل أمير...

• ردّة طليحة: أنفذ أبو بكر خالد بن الوليد لقتال طليحة. فقتل خلقاً من أتباعه. وهرب طليحة فلحق بالشام، وبعث بشعر إلى أبي بكر يعتذر إليه، ويراجع الإسلام. فعفا عنه.

• ردّة مسيلمة الكذّاب: كان قد أسلم ثم تنبّأ في العام ١٠ للهجرة. عقد أبو بكر في سبيل مواجهته اللواء لخالد بن الوليد. فخرج مسيلمة فقاتله بمن معه من ربيعة، وغيرها، قتالاً شديداً. وقتل من المسلمين خلقٌ عظيم. ثم قتل مسيلمة في المعركة. وفي القتال مع بني حنيفة، قتل ٦٦٠ رجلاً من المهاجرين والأنصار من المسلمين، ومن بني حنيفة حوالي العشرين ألفاً.

• أما بنو عامر، فكانت تقدّم إلى الردّة رجلا وتؤخّر أخرى، وتنظر ما تصنع أسد وغطفان. ولكنهم عادوا إلى الإسلام بعد هزيمة أهل بزاقة.

«قيل لأبي قحافة، يوم ولي الأمر ابنه، قد ولي ابنك الخلافة. فقرأ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء. ثم قال: لم ولّوه؟ قالوا: لسنّه. قال: أنا أسنّ منه» روى ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١ ص٢٢٢

(١) من كتاب «الردة في الإسلام» لحسن غريب، نقلا عن الكامل في التاريخ، والبداية والنهاية وتاريخ اليعقوبي.

وخالد بن الوليد لم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطيء وسليم وعامر إلاّ أن يأتوه بالذين حرّقوا وعدوا على الإسلام حينما ارتدّوا، فأتوه بهم، فمثّل بهم وحرقهم..

• ردّة أبي الفجاءة السلمي: كان قد جاء إلى أبي بكر يطلب منه السلاح ليقاتل به أهل الردّة فأعطاه. لكنه نكث بعهده وقتل المسلمين في سليم وعامر وهوازن. فأمر به أبو بكر، فأسر، فأحرقه في المدينة مكبّلاً.

• ردة بني تميم: تشاغلت تميم بعضها ببعض. بعضها يسير بالصدقات إلى أبي بكر، وبعضها الآخر يتخلّف منتظراً. وأتتهم سُجاح ـ مدّعية النبوة ـ ثم تابعت سيرها إلى بني حنيفة، فبلغ ذلك مسيلمة، فاجتمعا، واتفقا، وتزوّجا، وتصالحا على غلّة اليمامة. ولما فاجأهم خالد بن الوليد انسحبوا. وبقيت سجاح في تغلب إلى أن نقلهم معاوية إلى الشام، فجاءت معهم وأسلموا وأسلمت. وحَسُن إسلامهم وإسلامها. وانتقلت إلى البصرة وماتت فيها.

• أما فيمن ارتدّ في اليمن، ومنع الزكاة، فقد قاتلهم زياد بن لبيد البياضي، وسبى النعم وسبايا كثيرة. فعارضهم الأشعث بن قيس وانتزع السبايا من أيديهم. ولما انتهى إلى أبي بكر عن ارتداد الأشعث وما فعل، وجّه لزياد بن لبيد عونا. فطلب الأشعث الصلح وأخذ الأمان لعشيرته. فجيء به إلى أبي بكر في وثاق. فمنّ عليه أبو بكر وأطلق سبيله وزوجه أم فروة أخته.

• اجتمعت ربيعة بالبحرين على الردّة، إلاّ قلّة منهم. قضى المسلمون، بقيادة العلاء بن الحضرمي، على المرتدين برا وبحرا، وأكثروا القتل فيهم فما تركوا بها مخبراً، وغنموا وسبوا.

• ارتدّ أهل عمان، إلاّ قلّة منهم. فقاتلهم المسلمون وقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف، وسبوا الذراري وقسموا الأموال، وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر.

• وهكذا حصل مع الذين ارتدّوا من أهل مهرة، وحضرموت، وكندة.

استطاع أبو بكر أن يقضي على الردة في جزيرة العرب. وخلّفت تلك الحروب

الكثير من المآسي في صفوف العرب، المرتدّين خاصّة، من ذبح وقتل وتشريد وسبي. وكان القتلى بعشرات الالآف.

وفي المقابل غدت تلك الحروب مصدراً اقتصادياً مهماً للفئة المنتصرة من العرب.

ويمكن بسهولة ملاحظة مدى العلاقة القوية التي ربطت أبا بكر مع خالد بن الوليد، وحجم الدور الذي كان يلعبه خالد في عهد أبي بكر. كان اعتماد أبي بكر على خالد كبيراً إلى حدّ دفعه عن التغاضي عن كل تجاوزات خالد، وغضّ النظر عن سوء أخلاقه، وبطشه وقسوته. وربما كان أبو بكر، على المستوى الشخصي، يستنكر ما يقوم به خالد من تصرفات «هرقليّة» أثناء حملاته لإخضاع العرب المتمرّدين، ولكنه على الأرجح قدّر أنه ليس من الحكمة التخلّي عن قائده القرشيَّ الفذّ في تلك الظروف. فالنتائج هي الغاية. ولا بأس من إطلاق يد خالد عندئذ. وجيّد أيضا أن يرى العرب بأسَ قريش، ومدى جبروتها، واستعدادها للذهاب إلى آخر الشوط في التمسّك بسيادتها[1].

وقد كان خالد شديد الحرص على أن يعلن العرب خضوعهم لشخص أبي بكر. وهو قد برر لأبي بكر قيامه بقتل مالك بن نويرة رغم شهادة الشهود بأنه مسلمٌ يقيم الصلاة، بقوله أن مالكاً قد صدَر منه أثناء الكلام ما يشير إلى عدم اعترافه بشخص أبي بكر كخليفة «وكان خالد يعتذر في قتله أنه قال وهو يراجعه: ما إخال صاحبكم إلاّ وقد كان يقول كذا وكذا. قال: أو ما تعدّه لكَ صاحباً؟ فقدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه»[2].

*****

---

(١) وقد وصف ابن كثير في البداية والنهاية ج٦ ص٣٥١ بعض أفعال خالد بأعداء الخليفة «... فمنهم من حرقه بالنار، ومنهم من رضّخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من شواهق الجبال. كل هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدّة العرب».

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٥٠٤.

والعلاقة الشخصية لخالد مع أبي بكر وطيدة وقديمة. وقد لعب خالد دورا مفيدا في دعم أبي بكر يوم السقيفة، وبذل جهده في تأييده:

«وكان خالد بن الوليد شيعة لأبي بكر، ومن المنحرفين عن عليّ. فقام خطيبا فقال: أيها الناس! إنا رمينا في بدء هذا الدين بأمر، ثقل علينا والله محمله، وصعب علينا مرتقاه، وكنا كأنا فيه على أوتار. ثم والله ما لبثنا أن خف علينا ثقله وذل لنا صعبه. وعجبنا ممن شك فيه بعد عجبنا ممن آمن به، حتى أمرنا بما كنا ننهى عنه، ونهينا عما كنا نأمر به. ولا والله ما سبقنا إليه بالعقول، ولكنه التوفيق.

ألا وإن الوحي لم ينقطع حتى أحكم، ولم يذهب النبيﷺ فنستبدل بعده نبيا، ولا بعد الوحي وحيا. ونحن اليوم أكثر منا أمس، ونحن أمس خيرٌ منا اليوم. ومَن دخل في هذا الدين كان ثوابه على حسب عمله، ومَن تركه رددناه إليه.

وإنه والله ما صاحبُ الأمر ـ يعني أبا بكر ـ بالمسؤول عنه، ولا المختلف فيه. ولا الخفي الشخص، ولا المغموز القناة»[1].

*****

وكان عكرمة بن أبي جهل هو القائد القرشي الثاني الذي اعتمد عليه أبو بكر في حروبه، حيث تولى الجبهة الجنوبية (اليمن وحضرموت).

*****

وكانت السياسة القرشية للخليفة أبي بكر قد أثارت استياء الأنصار في المدينة، الذين لاحظوا استبعادهم تماما من عملية القيادة وصنع القرار. وقد عبّر ثابت بن قيس بن شماس عن مشاعر الأنصار بقوله «يا معشر قريش: أما كان فينا رجلٌ يصلح لما تصلحون له؟

أما والله ما نحن عُمياً عما نرى، ولا صُماً عما نسمع. ولكن أمَرَنا رسول اللهﷺ بالصبر، فنحن نصبر. وقام حسان فقال:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٢٢.

يا للرجـال لخـلقـة الأطـوار ولمـا أراد القـوم بالأنـصـار
لم يُدخلوا منّـا رئيساً واحـداً يا صاحِ في نقضٍ ولا إمـرار»[1]

بدء حركة الفتوحات الكبرى

«لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أمر أهل الردة، رأى توجيه الجيوش إلى الشام. فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد، ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم. فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب»[2].

وفي ذات الوقت الذي كان فيه أبو بكر يوجه الجيوش إلى الشام، تلقى دعوات من بعض الشخصيات القبلية ذات النفوذ في شمال جزيرة العرب للبدء في الهجوم على الفرس في العراق. وكان رجلٌ من قبيلة ربيعة، المثنى بن حارثة الشيباني، صاحب الدور الأبرز في إقناع الخليفة في بدء حركة فتح العراق.

وبكل المقاييس، كانت موافقة الخليفة على البدء في مهاجمة العراق، في نفس الوقت الذي كانت جيوشه تتجه فيه إلى الشام، مُدهشة حقاً. ولا يمكن تصور أن أبا بكر كان مُدركا تماماً لحجم الانهيار الداخلي الذي يعتري كلا الامبراطوريتين، الرومانية والساسانية. وحتى لو كانت هناك بعض المؤشرات على الضعف الذي ينتاب الأنظمة الإدارية والعسكرية لدولتي الروم والفرس، إلاّ أن المخاطرة في الدخول في حرب على جبهتين تثير نوعاً من الشك في حُسن التقدير الاستراتيجي للخليفة. فالمنطق السليم كان يقتضي التعامل معهما على التوالي، وليس معاً.

وأخذاً بعين الاعتبار أن العرب، كأمة، لم يكن لهم حتى ذلك الوقت تراثٌ يذكر، أو ماض استعماري، في مواجهة أمم اخرى، وشعوب ودول، فإنه ربما يكون من الجائز الحكم أن قرار أبي بكر الدخول في حرب على جبهتين، كان فيه نوع من

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٢٩.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص ١٢٨.

التهور. وهنا لا بد من إدخال عنصر «الإيمان» في تحليل موقف أبي بكر. فهو كان قد شهد الإنجاز النبوي العظيم بأم عينيه، وتابع كافة مراحل جهاد النبيﷺ، منذ كان مُستضعفاً يتحمل الأذى في مكة إلى أن انتهى إلى النصر المبين. فكان أبو بكر يؤمن انه ينفذ المشيئة الإلهية. وكان يؤمن أن الله لا بد أن ينصر دين محمدﷺ من بعده، كما نصر محمداًﷺ من قبل. كان أبو بكر إذن يعتبر نفسه أداة في يد الله الذي أراد لأمة العرب، ودينها الذي جاء به محمدﷺ، أن تسود في الأرض.

المهم أن أبا بكر قبل التحدي: العراق والشام معاً!

«ثم إن المثنى (بن حارثة الشيباني) قدم على أبي بكر فقال له: يا خليفة رسول الله: استعملني على مَن أسلم من قومي، أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس.

فكتب له أبو بكر في ذلك عهدا. فسار حتى نزل خفان، ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا.

ثم إن أبا بكر رضي الله عنه كتب إلى خالد بن الوليد المخزومي يأمره أن يسير إلى العراق. ويقال: بل وجّهه من المدينة.

وكتب أبو بكر إلى المثنى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة له، وتلقّيه.

وكان مذعور بن عدي العجلي قد كتب إلى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه، ويسأله توليته قتال الفرس. فكتب إليه يأمره بأن ينضم إلى خالد، فيقيم معه إذا أقام، ويشخص إذا أشخص.

فلما نزل خالد النباج، لقيه المثنى بن حارثة بها. وأقبل خالد حتى أتى البصرة، وبها سويد بن قطبة الذهلي.»[١].

«وأمرَ أبو بكر خالداً أن يسير إلى أرض العراق.

فسار ومعه المثنى بن حارثة، حتى صار إلى مدينة بانقيا، فافتتحها وسبى من فيها.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ج٢ ص٢٩٥.

ثم صار إلى مدينة كسكر، فافتتحها وسبى مَن فيها.

ثم سار حتى لقي بعض ملوك الأعاجم يقال له جابان، فهزمه وقتل أصحابه.

ثم سار حتى انتهى إلى فرات بادقلي يريد الحيرة، وملكها النعمان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزم النعمان فلحق بالمدائن.

ونزل خالد الخورنق، وسار حتى صيّر الحيرة خلف ظهره، وكانوا على محاربته، ثم دعوا إلى الصلح، فصالحهم على سبعين ألفا، وقيل مائة ألف درهم»[1].

وتابع خالد بن الوليد وذراعه الأيمن، المثنى بن حارثة، غزواتهما في أرض العراق. فتم فتح الأنبار وثم بعدها عين التمر.

وعند ذلك جاء أمر الخليفة إلى خالد بالتوجه إلى الشام لقيادة الجيوش هناك في حربها ضد الرومان.

فسار خالد إلى الشام، وترك المثنى مكانه في القيادة في العراق.

وتوقف النشاط الهجومي العربي في العراق، مؤقتا، ليستأنف بعد بضعة أشهر، في عهد عمر بن الخطاب.

وكان أبو بكر قد عقد[2] ثلاثة ألوية للجيوش المتجهة إلى الشام، وكان قادتها هم:

- خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، إلى دمشق
- شرحبيل بن حسنة، حليف بني جمح، إلى الأردن
- عمرو بن العاص، إلى فلسطين

وقال ابو بكر للأمراء: إن اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وإلاّ فيزيد بن أبي سفيان.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٣١.

(٢) هذه المعلومات مأخوذة من فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص ١٣٠ ـ ١٣٧.

وتدخّل عمر بن الخطاب لدى أبي بكر من اجل عزل خالد بن سعيد[1]. فقام أبو بكر بعزله وعيّن مكانه يزيد بن أبي سفيان وأعطاه لواءه.

وسارت الجيوش الثلاثة إلى الشام من طريقين، وكل جيش منهم ٣٠٠٠ رجل. ولم يزل أبو بكر يرسل إليهم الإمدادات حتى أصبح مجموعهم ٢٤٠٠٠ رجلا.

ولما وصل عمرو بن العاص إلى أول فلسطين كتب لأبي بكر يخبره بكثرة عدد الروم وسعة أرضهم. فأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد، وكان في العراق، يأمره بالمسير إلى الشام، وجعله أميراً على الأمراء في الحرب.

فخلّف خالد بن الوليد المثنى بن حارثة الشيباني مكانه على نواحي الكوفة، وتوجه إلى الشام في ٨٠٠ رجل، وكان ذلك في ربيع الثاني عام ١٣ للهجرة

وكان من ضمن جيش خالد بسر بن أرطأة العامري وحبيب بن مسلمة الفهري[2].

وحقق جيش المسلمين سلسلة متتالية من النجاحات الصغيرة، في وادي العربة ومنطقة دائن قرب غزة. ولما جاء خالد افتتحوا عين التمر، وصندوداء، وسوى، والكوائل، وقرقيسيا، وأرك، ودومة الجندل، وتدمر، وحوران، ومرج راهط حتى وصلت الجيوش إلى غوطة دمشق.

وبعض المناطق كانت تقرر المقاومة فتم فتحها بالقتال عنوة، وبعضها الآخر كان يقرر الاستسلام. وكان خالد يقاتل خليطاً من القبائل العربية المرتدة وأخرى

---

(١) والسبب كان شك عمر في ولائه لأنه كان ممن رفض بيعة أبي بكر، وكان هواه مع عليّ، كما روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٤ ص٩٧ «وأقام خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبا بكر. ثم مر عليه أبو بكر بعد ذلك مظهرا وهو في داره فسلم عليه. فقال له خالد: أتحبّ أن أبايعك؟ فقال أبو بكر: أحب أن تدخل في صلح ما دخل فيه المسلمون. قال: موعدك العشية أبايعك. فجاء وأبو بكر على المنبر فبايعه. وكان رأي أبي بكر فيه حسنا وكان معظما له، فلما بعث أبو بكر الجنود على الشام عقد له المسلمين، وجاء باللواء إلى بيته. فكلم عمر أبا بكر وقال: تولي خالدا وهو القائل ما قال؟ فلم يزل به حتى أرسل أبا أروى الدوسي فقال إن خليفة رسول الله ﷺ يقول لك: اردد إلينا لواءنا. فأخرجه فدفعه إليه وقال: والله ما سرتنا ولايتكم ولا ساءنا عزلكم وإن المليم غيرك»

(٢) وهذان سيكونان من دعائم جبهة معاوية بن أبي سفيان في حروبه ضد الإمام عليّ فيما بعد.

مسيحية بالإضافة إلى العجم. فكانت هناك تجمعات عربية من قبائل كندة، وإياد، وتغلب، وكلب، وغسان وقضاعة، عدا عن الرومان.

ثم تجمعت الجيوش بقيادة خالد وقامت بفتح بصرى الشام. وبعدها فتحت مآب البلقاء.

وفي جمادي الأولى سنة ١٣ للهجرة حدثت معركة هامة، وهي أجنادين. وقد شهدها ١٠٠ ألف من الروم ولكنهم هزموا بشدة مما دفع هرقل، وكان مقيما بحمص، إلى الفرار نحو انطاكية.

وتوفي أبو بكر في جمادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة (بعد شهر من وقعة اجنادين).

دفعت قريشٌ ضريبة الدم واكتسبت الشرعية

ولدى وفاة أبي بكر، كانت قبيلة قريش قد أثبتت بالفعل جدارتها بالدور القيادي الذي كان الخليفة قد أناطها به. لقد انخرطت قريش كليا في سياسة أبي بكر الهجومية، فأبدعت وتألقت أولاً في الحرب ضد «المرتدين» ومن ثم في حركة الفتوحات في الشمال، وبالأخص في القتال ضد الرومان الذي أدّى إلى فتح الشام.

ولم يكن الثمن الذي دفعته قريش يسيراً. لقد دفعت ضريبة الدم وخسرت عددا كبيراً من أبنائها في المعارك. وكان قتلاها من الجناحين: المهاجر والطليق على السواء، ومن كل البطون القرشية.

وفيما يلي استعراض لعددٍ من أبرز الذين قتلوا من أبناء قريش[1]:

من البطن المخزومي: حزن بن أبي وهب، قتل يوم اليمامة. وعكرمة بن أبي جهل وهبار بن سفيان بن عبد الأسد، قتلا في معركة أجنادين. وكذلك سلمة بن هشام بن المغيرة قتل في أجنادين أو مرج الصفر. وقتل عبد الله بن سفيان في معركة اليرموك في عهد عمر.

---

(1) هذه المعلومات مأخوذة من فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص ١٣٠ - ١٣٧، ومن التاريخ الصغير للبخاري ج١ ص٥٩ـ٦٠ ومن طبقات خليفة بن خياط ص ٣٠ـ٦١ ومن الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ و ج٥ ص٤٥٤

من بني سهم: هشام بن العاص بن وائل وسعيد بـن الحـارث، والحـارث بـن الحارث والحجاج بن الحارث، وهؤلاء قتلوا في معركة أجنادين.

من بني عبد شمس وأمية: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، والحكم بن سعيد بـن العاص، وقد قتلا في معركة اليمامة. وخالد بـن سـعيد بـن العـاص، قتـل فـي مـرج الصفر. وعمرو بن سعيد بن العاص بن امية، وأخوه أبـان بـن سـعيد وقـد قـتلا فـي معركة اجنادين، وقيل مرج الصفر وقيل اليرموك.

من بني عامر بن لؤي: أبو جندل بن سهيل بن عمرو، قتل في اليمامة.

من بني عدي بن كعب: زيد بن الخطاب، قتل يوم اليمامة. ونعيم بـن عبـد الله بن النحام وقد قتل يوم أجنادين، وقيل اليرموك.

من بني أسد بن عبد العزى: يزيد بن زمعة بن الأسود، قتل يوم الطائف. وأيضـا قتل السائب بن العوام في اليمامة.

من بني عبد الدار: فراس بن النضر بن الحارث، قتـل يـوم اليرمـوك فـي عهـد عمر.

من بني زهرة: عامر بن أبي وقاص، قتل يوم اليرموك في عهد عمر.

من بني فهر: ضرار بن الخطاب، قتل في اليمامة.

من بني تيم: عمرو بن عثمان، قتل يوم القادسية في عهد عمر.

من بني عبد بن قصي: طليب بن عمير، قتل يوم أجنادين.

ومن بني هاشم: عبد الله بن الزبير بن عبدالمطلب بن هاشم وكذلك الفضل بن العباس، قتلا يوم أجنادين.

عهد عمر بن الخطاب

الاستخلاف

لما مرض أبو بكر وشعر بدنو أجله:

«دعا أبو بكر عثمانَ خالياً.

فقال له: أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين. أما بعد...

ثم أغمي عليه. فذهب عنه.

فكتبَ عثمانُ: أما بعد فإني قد استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطاب. ولم آلكم خيراً منه.

ثم أفاق أبو بكر.فقال إقرأ عليّ. فقرأ عليه.

فكبّر أبو بكر وقال: أراكَ خفتَ أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي؟

قال: نعم.

قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. وأقرها أبو بكر رضي الله عنه من هذا الموضع».

«أشرف أبو بكر على الناس من كنيفه وأسماء بنت عميس ممسكته، موشومة اليدين، وهو يقول: أترضون بمن أستخلفُ عليكم؟ فإني والله ما ألوتُ من جهد الرأي، ولا وليتُ ذا قرابة.

وإني قد استخلفتُ عمر بن الخطاب. فاسمعوا له وأطيعوا».

وأيضا روى الطبري عن قيس:

«رأيتُ عمرَ بن الخطاب وهو يجلس، والناس معه، وبيده جريدة، وهو يقول: أيها الناس: اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله ﷺ. إنه يقول إني لم آلكم نصحاً»[1].

*****

كان قيام عمر بن الخطاب بخلافة أبي بكر في منصب قيادة الدولة أمراً «طبيعياً «ومتوقعاً تماماً. وكان الناس يعرفون أن عمر هو مَن سيخلف أبا بكر:

«... خذ هذا الكتاب واخرج به إلى الناس، وأخبرهم أنه عهدي، وسَلهم عن سمعهم وطاعتهم.

فخرج عمرُ بالكتاب وأعلمَهُم. فقالوا: سمعاً وطاعة.

فقال له رجل: ما في الكتاب يا أبا حفص؟

قال: لا أدري! ولكني أول مَن سمع وأطاع.

قال: لكني والله أدري ما فيه: أمّرتَه عامَ اول، وأمَرَكَ العام»[2].

فالرجلان يتكاملان بشكل نادر الحدوث. وهما شكّلا ثنائيا فعّالاً منذ وقت بعيد. ويمكن بكل تأكيد اعتبار عمر شريكاً كاملاً لأبي بكر أثناء فترة حكمه القصيرة. ففي عهد أبي بكر، كان الدور الذي يقوم به عمر يتجاوز بكثير صفة المستشار للخليفة، أو حتى النائب له.

لم يكن أبو بكر يقطع أمراً إلاّ بعد أن يتداول حوله مع عمر. وكثيراً ما كان عمر يتدخل حتى في القرارات الإدارية والتنفيذية للخليفة أبي بكر، ويُمضي رأيه هو.

ولا يعني ذلك أن أبا بكر كان ضعيفاً. فما اتخذه أبو بكر من قرارات هائلة أثناء فترة خلافته القصيرة يدل على أنه كان صلباً وصاحبَ عزيمة قوية. ولكن عمر كان أقوى.

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٦١٩. وقريب من ذلك ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٢٠٠، وأيضاً في مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٧٣ ـ ٧٤.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٣٨.

وعدا عن ذلك، كان عمر هو المحور الأساسي للحركة السياسية التي أدت إلى إبعاد علي بن أبي طالب عن الخلافة. واتّصف عمر بالجرأة الهائلة في التعبير عن رأيه ومواقفه، حتى أمام الرسولﷺ نفسه. وكان عمر هو الذي قرر أن يكون أبو بكر خليفة الرسولﷺ.

كان عمر بن الخطاب يندفع كالإعصار، فلا شيء يقف في طريقه، ولا شيء يمنعه من أن يقول ما يعتقد أنه الحق بمواجهة أيٍّ كان. وقد كانت له الكلمة العليا في زمن أبي بكر، لأنّ أبا بكر مدينٌ له باستخلافه. وكانت له الكلمة العليا في زمنه لأنه هو الخليفة. وكانت له الكلمة المسموعة في كل بطون قريش، لأنها تعرف أنه وحده منعَ الهاشميين من أن يجمعوا الخلافة والنبوة، ولولاه لجمعوهما. وكانت له الكلمة العليا عند بني أمية بالذات، فهو الذي عين يزيد بن أبي سفيان ومعاوية وثبّتهما على ولاية الشام.

ويمكن اعتبار عهد أبي بكر فترة انتقالية، ضرورية، قبل انتقال السلطة العليا في الدولة إلى عمر. فلم تكن لدى عمر مؤهلات كافية، من خلال تاريخه في الإسلام حتى وفاة الرسولﷺ، لكي يخلف الرسولﷺ مباشرة. فهو أسلم متأخرا نسبياً، ولم يُعرف عنه تميّز ظاهرٌ خلال الفترة النبوية، التي كان خلالها مجرد واحد من المهاجرين القرشيين الآخرين. ولم يكن بمقدوره أن ينافس علياً بن أبي طالب بأي حال. فكان عمر محتاجاً حقاً لأبي بكر لكي يتصدّى للقيادة بعد الرسولﷺ. فأبو بكر أكثر أهلية منه بكثير في المعايير الإسلامية، من ناحية قربه من الرسولﷺ وطول صحبته له.

لم يحدث اعتراضٌ يذكر على تولية عمر، باستثناء ما يرويه الإخباريون من شكوى بعض الصحابة، ويُذكر منهم اسم طلحة بن عبيد الله على وجه الخصوص، لأبي بكر من قسوة عمر وشدّته، لمّا علموا بقرار الخليفة تعيينه من بعده. وتذكر الروايات أنه قيل لأبي بكر إن الناس يخافون من بطش عمر وجبروته وذلك في حياة أبي بكر، فكيف إذا انفرد عمر بالقيادة؟ فردّ أبو بكر بغضب أنه سيلاقي الله

مرتاح الضمير لأنه ولّى خير أمته على عباده، وهو عمر[1].

ولا شك أنه في تلك الأيام التي توفي فيها أبو بكر كانت هناك إنجازات عسكرية مهمة قد تحققت. فقد نجح أبو بكر في القضاء المبرم على كل القبائل العربية التي تمردت عليه، وبلا رحمة. فظهر للجميع أن دولة الرسولﷺ لها أظافر وأنياب، وأن الإسلام ليس مجرد دعوة إيمانية. وبدأت قريش باستعادة مجدها الغابر بين العرب، بفضل أبي بكر وسياسته. وكان يكفي ذكر اسم خالد بن الوليد، ذراع أبي بكر الضاربة، لإشاعة الهلع في صفوف مَن قد يفكر بالتجاسر على الخليفة وسلطانه.

وأطلق أبو بكر حركة الفتوحات في الشمال، والتي بدورها خلقت ديناميكية هائلة في جزيرة العرب، واستقطبت فيها وجمّعت طاقات أمة العرب ووجّهتها في اتجاه حربيّ مركّز. وفي تلك الأجواء التي بدأ فيها العمل لبناء امبراطورية عظمى، لم يكن هناك أي مجال لنزاع داخليّ أو صراع على السلطة. كانت وحدة القيادة واستمراريتها أمرا حيويا للجيوش العربية التي تواجه الأعاجم.

ومن هنا كان عمر. فالجميع يعرفون أنه شريك أبي بكر، وحلوله مكانه يعني ضمان استمرار المنهج والتوجه. وذاك ما كان مطلوباً.

واستهلّ عمرُ عهدَه بخطبة أعلن فيها عزمه على قيادة أمة العرب في طريق النصر:

«قال عمر: إنما مثل العرب مثل جمل آنف اتبع قائده. فلينظر قائده حيث يقود. وأما أنا، فورب الكعبة لأحملنّهم على الطريق»[2].

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٦٢٢ وفيه أن طلحة قال لأبي بكر «.. استخلفتَ على الناس عمرَ وقد رأيتَ ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم؟ وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك...».

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٦٢٢.

المعالم الرئيسية لعهد عمر

أولا: الفتوحات الكبرى

لم يُضِع عمر لحظة واحدة عقب استلامه مقاليد الحكم. انخرط عمر بكليته في حركة الفتوحات التي كانت قد بدأت في زمن أبي بكر. وما أبدع فيه عمر وتميز، كان نجاحه في قيادة أمة العرب وصهر طاقاتها وتجميع قواها وتوجيهها نحو الشمال، إلى حيث توجد دولتا الروم والفرس. لقد أطلق عمر العنان للإبداع الحربي والعسكري لأمة العرب بعد أن عرف كيف يتعامل مع أبناء القبائل وعموم مجتمع الجزيرة العربية.

ولذلك لا بد من إعطاء عمر بن الخطاب الفضل الأعظم في نجاح حركة الفتوحات الكبرى. فعلى الرغم من أنه كان الخليفة الجالس في المدينة، بعيداً جداً عن أرض المعركة والقتال، إلاّ أنه كان يتابع ما يجري بشكلٍ دقيق وتفصيلي مدهش. وعلى الرغم من بدائية وسائل النقل والاتصال، إلاّ أن عمر كان يدير الأمور وكأنه موجود بنفسه على رأس الجيوش و وفي كل الجبهات! فلم يكن دور عمر، كما هو متوقع، يقف عند حدّ وضع السياسات العامة والتوجيهات العريضة لقادته وامرائه، بل كان يتجاوز ذلك بكثير، إلى حد الدخول في أدق التفاصيل للحملات العسكرية التي يأمر بها.

كان يجبر قادته العسكريين على الرجوع إليه في كل كبيرة وصغيرة فيما يتعلق بتطورات الوضع على الجبهات، تحركات العدو، المخاطر والاحتمالات، وكان هو في النهاية الذي يتخذ القرارات التي يتولّى قادته تنفيذها. والنص التالي يظهر مدى انغماس عمر في التفاصيل الميدانية لقواته:

لما كتب له أبو عبيدة يصف الوضع الميداني على ارض الشام بعد معركة أجنادين، أجابه:

«أما بعد...

فابدؤوا بدمشق، فانهدوا لها. فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم.

واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، واهل فلسطين وأهل حمص.

فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب. وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق، فلينزل بدمشق مَن يمسك بها، ودعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل.

فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرا وخلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته...»[1].

فتح الشام

تابعت الجيوش العربية في عهد عمر ما كانت قد بدأته أيام أبي بكر. فرغم التغيير الذي حصل في القيادة العليا للجيوش في الشام، والمتمثل بتعيين أبي عبيدة بن الجراح في المنصب بديلاً لخالد بن الوليد، إلاّ أن أي تغيير لم يطرأ على الاستراتيجية والمنهج.

وفي أعقاب معركة أجنادين الكبيرة، اندفعت الجيوش العربية لتحقق سلسلة طويلة من النجاحات الحربية الأصغر في مختلف أنحاء بلاد الشام[2]. فبقيادة فعالة من شرحبيل بن حسنة، تم فتح مناطق الأردن، ثم طبرية، ثم بيسان، فالجولان. ثم قام شرحبيل أيضاً بفتح مناطق من الساحل الجنوبي، عكا وصور وصفورية.

وبعد ذلك حصلت معارك طاحنة مع الرومان في مرج الصفر وفي فحل، كانت بمثابة مقدمة لفتح دمشق الذي تم في سنة ١٤، بعد أن قامت الجيوش العربية

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٦٢٥.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص١٣٩ وما بعدها.

بمحاصرتها من كل النواحي بقيادة أبي عبيدة ومشاركة كل القادة الآخرين: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل وهاشم بن عتبة، وذي الكلاع، وعياض بن غنم.

وتبع فتح دمشق، فتوحات أخرى على الساحل قام بها يزيد وأخوه معاوية، في صيدا وعرقة وجبيل وبيروت. وبعدها قام أبو عبيدة بفتح بعلبك، ثم حمص وقنسرين ثم حماة. وقامت قوات قادها عبادة بن الصامت بفتح اللاذقية، وأتبعها أبو عبيدة بفتح جبلة وطرطوس.

واستجمع الرومان قواهم في أنحاء سورية وقرروا الدخول في مواجهة حاسمة ضد المسلمين. ففي رجب سنة ١٥ للهجرة وقعت معركة اليرموك. فحشد الروم أعداداً هائلة من المقاتلين (ما بين ١٠٠ ـــ ٢٠٠ ألف حسب الروايات) واجتمعوا قرب نهر اليرموك. وضم أبو عبيدة إليه أطرافه وأمراء الأجناد.

وانتصر المسلمون الذين يُروى أن عددهم كان ٢٤ ألفاً بعد قتال ضارٍ، أسفر عن مقتل عشرات الآلاف من الرومان، وهزيمة بقية قواتهم.

وفقدت قبيلة قريش مجموعة أخرى من أبنائها(١)، منهم:

- عبد الله بن سفيان بن عبد الأسد
- سعيد بن الحارث بن قيس
- سهيل بن عمرو
- عامر بن أبي وقاص
- الحارث بن هشام

وبعد انتهاء معركة اليرموك، لم تبقَ لدى الرومان القدرة على تحدي المسلمين

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ص٨٩ وقد ذكر خليفة أيضا أسماء كل من عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد بين قتلى المسلمين. ولكن هؤلاء الثلاثة ذكرهم البلاذري ضمن قتلى معركة أجنادين التي وقعت قبل سنتين من اليرموك. وأما بشأن سهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٥ ص٤٤٤ انهما ماتا بطاعون عمواس (وليس في معركة اليرموك).

في بلاد الشام، فقد انهارت شوكتهم وعزيمتهم، وصار ما يطمحون إليه ينحصر في وقف الاندفاع العربي شمالاً والمحافظة على مواقعهم إلى الشمال من حلب وأنطاكية.

وفي سنة ١٦ للهجرة، كان فتح بيت المقدس. ورغم أن المدينة كانت ساقطة من الناحية العسكرية، إلاّ أنه كانت لها أهمية وقيمة معنوية كبيرة، إلى درجة ان أهلها من المسيحيين اشترطوا أن يحضر «ملك العرب» بنفسه من أجل أن يقوموا بتسليم مفاتيح مدينتهم سلماً له، بعد أن يقدم لهم التعهدات والضمانات بنفسه للمحافظة عليها.

«... ثم شخص أبو عبيدة، وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فحاصر أهل إيلياء، فسألوه الصلحَ على أن يكون عمر هو يعطيهم ذلك، ويكتب لهم أماناً.

فكتب أبو عبيدة إلى عمر.

فقدم عمر فصالحهم. فأقام أياماً ثم شخص إلى المدينة.»[١].

فإذن أبدى عمر تفهماً للأهمية التاريخية لمدينة القدس، وقرر الاستجابة لطلب رجال الدين النصارى فيها بأن يقابلوا «ملك «العرب، ليعطيهم الأمان بنفسه، فيسلموه المدينة.

وشدّ عمر الرحال إلى الشام في رحلة تاريخية فريدة من نوعها.

فتح العراق وفارس

وقرر عمر بن الخطاب استئناف حركة الفتوحات في العراق. فوجّه أبا عبيد الثقفي[٢] في جيش إلى هناك، وأصدر أمره للمثنى بن حارثة بالسمع والطاعة له.

وحقق أبو عبيد وقواته سلسلة نجاحات صغيرة، ولكن الأمور انتهت بكارثة لسوء الحظ. ففيما يعرف بـ«معركة الجسر» تلقى المسلمون هزيمة قاسية على يد القائد الفارسي رستم (بهمن)، وخسروا عددا كبيرا من قواتهم. وكان السبب على ما

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص٩٣.

(٢) وهو والد المختار بن أبي عبيد الذي قاد ثورة «التوابين «في العراق، التي قامت بالثأر لدماء الإمام الحسين في كربلاء من قتلته، في الستينات من القرن الهجري الأول.

يروى هو الحماسة الزائدة من قائد الحملة، أبي عبيد الثقفي، الذي أصر على قطع النهر، عبر الجسر، والتوجه للضفة الأخرى لملاقاة العدو، فوقع الجيش في مصيدة الفرس، وكانت الهزيمة الكبيرة التي قتل فيها أبو عبيد نفسه. ونجح المثنى بن حارثة في إنقاذ بقايا الجيش والانسحاب.

ودفعت تلك الهزيمة عمر بن الخطاب إلى إيقاف نشاط الفتح في العراق لمدة سنة. قام خلالها بمراجعة خططه الحربية، في ضوء ما كان يحصل على جبهة الشام.

ولما قرر عمر متابعة الفتوحات في العراق، وإرسال جرير بن عبد الله البجلي قائدا جديدا للقوات هناك، وجد صعوبة حقيقية في دفع قبائل العرب لغزو العراق. وبذل مجهودا كبيرا لذلك، وقرر منح حوافز إضافية، من الوعود بزيادة نسبة الغنائم للجيش الذي سيقاتل هناك، وجلّه من قبائل الأزد.

وأثمرت جهود عمر. وحققت القوات العربية نجاحات جديدة في العراق، توّجت في معركة «البويب» حين تجمع حوالي ١٢٠٠٠ من الفرس بقيادة مهران، فدارت معركة شرسة، تألّق خلالها المثنى بن حارثة (الذي استشهد أخوه خلال القتال) وجرير بن عبد الله، وأسفرت عن نصر مبين قتل خلاله مهران وفرّ جيشه.

وبعدها شنّت جيوش المسلمين، التي استعادت الثقة بالنفس، سلسلة أخرى من الغارات على مناطق قريبة سيطرت فيها على مساحات جديدة.

ويبدو انه عند تلك المرحلة قررت القيادة الفارسية وضع حد للخطر العربي الداهم في العراق. وبتكليف من كسرى أنو شروان، بدأ رستم بتجميع وحشد القوات الفارسية في العراق من أجل مواجهة حاسمة. ولاحظت قيادة القوات العربية حجم الاستعدادات والحشودات الفارسية والامدادات التي تصل العدو من الشرق، فكتبت إلى الخليفة بذلك وطلبت منه المدد.

وكان عمر بن الخطاب مصمما على منع تكرار ما حصل يوم الجسر، ومن هنا قرر تعيين قيادة عسكرية جديدة، تتصف بالحكمة والواقعية، وليس بالحماسة الزائدة اوالتهور. ولذلك عيّن عمر سعد بن أبي وقاص كقائد جديد وأرسله إلى العراق

لمواجهة تحدي رستم.

ولا شك أن قرار عمر خوض تلك المعركة الحاسمة، سنة ١٦ للهجرة، كان يستند إلى النجاح الباهر الذي حققته قواته في الشام، التي خاضت معركة اليرموك الحاسمة سنة ١٥ للهجرة. وبعث عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح يأمره بتسيير قوات من الشام لدعم الجيش في العراق، ففعل.

وفي غمرة الاستعدادات لخوض المواجهة الكبرى، توفي المثنى بن حارثة الشيباني، إثر وجع أصابه. وذاك كان خبرا سيئا لسعد، الذي كان يعرف مدى الشعبية التي كان المثنى يحظى بها في أوساط المقاتلين، نظرا لجهاده الطويل المتواصل. وتزوج سعد بن أبي وقاص إمراة المثنى بن حارثة، في رغبة واضحة منه لإظهار وحدة واستمرارية القيادة، وكتقدير لشخص المثنى.

وفي أواخر سنة ١٦ للهجرة، اكتملت استعدادات الفريقين، فحصلت المعركة الطاحنة التي ضمت حوالي ١٢٠ ألفا من قوات الفرس، وعددا غير واضح من القوات العربية، في القادسية.

لم يخض سعد بن أبي وقاص المعركة، بل انتدب مكانه خالد بن عرفطة لقيادة الجيش في الميدان. وبقي سعد في قصر «العذيب «يتابع أخبار القتال الذي استمر ٣ أيام. وكان السبب المعلن لذلك، هو مرض أصابه، نوع من التقرحات. ولكن ربما يكون هو ينفّذ تعليمات عمر بن الخطاب المشددة على ضرورة المحافظة على قيادة الجيش من الهلاك. ومن الممكن أن يكون عمر قد أوصاه ألاّ يعرّض نفسه لخطر مباشر لكي يكون مستعدا للتصرف السليم في حالة لم تسر الأمور كما يشتهي.

المهم أن القتال الضاري أسفر عن انتصارٍ هائل للمسلمين. وقتل رستم وفرّ مَن بقي من جيشه.

وكانت القادسية تعتبر بوابة الفتح الحقيقي لكل العراق. فبعدها تابع المسلمون هجومهم فافتتحوا عدداً كبيراً من القرى والمدن على التوالي، من بينها ساباط والمدائن.

وجمعت القوات الفارسية فلولها من جديد وخاضت معركة كبيرة أخرى ضد المسلمين، الذين قادهم هاشم بن عتبة، في ما يعرف بوقعة «جلولاء»التي قادها خرزاد، شقيق رستم. وكانت معركة ضارية أسفرت عن نصر أخر.

وبذلك ولّت تماما سيطرة الفرس على العراق.

وفي سنة ٢١ للهجرة، وقعت معركة هائلة بين جيش المسلمين الذي أرسله عمر بقيادة النعمان بن مقرن المزني وبين تجمّع كل القوات الفارسية من الري وأصبهان وهمذان ونهاوند التي كانت أرادت غزوَ العرب، في داخل إيران نفسها، وهي ما تعرف بمعركة نهاوند. وقد أسفرت عن نصرٍ صعبٍ للمسلمين، الذين قتل قائدهم النعمان، أدّى إلى انهيار الدولة الساسانية في عُقر دارها.

وتلا تلك المعركة الضخمة سقوط آذربيجان ودينور وسندان وهمذان بأيدي المسلمين.

فتح مصر

وفي سنة ٢٠ للهجرة، أرسل عمر بن الخطاب حملة عسكرية نجحت في فتح مصر وهزيمة الرومان.

وكانت تلك الحملة بقيادة قرشية بحتة، يرأسها عمرو بن العاص (سهم)، ومعه الزبير بن العوام (أسد)، وعمير بن وهب (جمح) وبسر بن أرطأة (عامر بن لؤي) وخارجة بن حذافة.

وكان فتح مصر أسهل نسبياً من فتوحات الشام والعراق، وكان أعنف ما وقع من قتال هو بالاسكندرية وأسفر في النهاية عن استسلام المدافعين. وكان مما سهّل مهمة الجيش العربي هو الحقد العميق الذي كان يشعر به أهل مصر الأصليين من الأقباط تجاه الأسياد من الرومان.

وخلقت تلك الإنجازات العظمى التي حصلت في عهد عمر، هالة من الانبهار لدى المسلمين تجاه الخليفة، إلى درجة دفعت البعض إلى نسب الخوارق

والمعجزات له. فمثلا روى ابن كثير أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر يخبره أن نهر النيل توقف عن الجريان وأن أهل مصر الأصليين أرادوا أن يلقوا في جوفه صبيّة بكرا كأضحية لكي يعاود الجريان فردّ عليه عمر:

«... إني قد بعثتُ إليك بطاقة داخل كتابي. فألقها في النيل.

فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد: فإن كنتَ إنما تجري من قبلك ومن أمركَ فلا تجرِ. فلا حاجة لنا فيك. وإن كنتَ إنما تجري بأمر الله الواحد القهّار وهو الذي يجريك، فنسأل الله تعالى أن يجريك.

فألقى البطاقة في النيل.

فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل...»[1].

ومن ذلك أيضاً

«... وفي غزاة نهاوند، كان عمر بن الخطاب على منبر رسول الله يخطب، فبينا هو يخطب إذ قال: يا سارية الجبل الجبل!

وكان سارية في جيش نهاوند. فقال سارية لما قدم من نهاوند: أحدق بنا العدو، فسمعنا صوتك يا أمير المؤمنين وأنت تقول: يا سارية الجبل الجبل، فانحزنا إلى الجبل، فسلمنا»[2].

*****

إن الفتوحات الكبرى التي حصلت في عهد عمر، بضخامتها وأهميتها التاريخية القصوى، من شأنها أن تحجز لعمر بن الخطاب مكان الصدارة بين الفاتحين العظماء عبر تاريخ البشر كله. فلا توجد أمثلة كثيرة على نجاحاتٍ بهذا المستوى وبهذه الديمومة في التأثير.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١١٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٥٦.

ثانيا: عدم استغلال المنصب

كان عمر حريصاً جداً على عدم الاستفادة الشخصية من منصبه، ورفَضَ بشدة تعيين أيّ من أقربائه المباشرين في مناصب عالية.

«وقال مرة: قد أعياني أهل الكوفة! إن استعملتُ عليهم ليناً استضعفوه، وإن استعملتُ عليهم شديداً شكوه! ولوددتُ أني وجدتُ رجلاً قوياً أميناً أستعمله عليهم.

فقال له رجل: أنا أدلك يا أمير المؤمنين على الرجل القوي الأمين.

قال: مَن هو؟

قال: عبد الله بن عمر.

قال: قاتلك الله! والله ما أردتَ الله بها. لاها الله! لا أستعمله عليها ولا على غيرها.

وأنت فقم فاخرج، فمذ الآن لا أسميك إلاّ المنافق!

فقام الرجل فخرج» [1].

إن هذه السياسة كانت من أهم عوامل نجاح عمر، وكانت تعطيه قوة إضافية. فهو كان مثالاً وقدوة أمام قادته وموظفيه، فلا يستطيعون العيب فيه.

ثالثا: إخضاع الرعية

لقد بلغت قوة عمر بن الخطاب حداً يفوق الوصف. ويمكن بكل تأكيد القول بأن قوة عمر كانت تزيد على ما تمتع بـه كِسرى وهرقل وغيرهم من الملوك والأباطرة في أيام مجدهم. وما يميز قوة عمر عن غيره من الحكام ويجعلها فريدة حقاً، هو أن عمر لم يكن سليلاً لعائلة ملكية، ولم يَرِث مظاهرَ الحكم والرياسة أباً عن جد، كما أنه لم يُحِط نفسَه بالحَرَس والخدَم والمواكب، ولم يُقِم في القصور.

كان جزءٌ كبيرٌ من قوة عمر ينبع من انجازاته وفتوحاته وعَمَله. وكان جزءٌ آخر

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٢٢.

ينبع من خصاله الشخصية: فالزهد الذي مَيز معيشته، وتواضعه في المسكن والملبس، وطرحُه نفسَه كواحد من المسلمين، يصيبه ما يصيبهم ويجري عليه ما يجري عليهم، كل ذلك ضَمن للخليفة مكانة سامقة في نفوس رعيته وجعلهم يتقبلون حكمه وقراراته ويُسلمون بها تسليماً.

وكان عمر من جانبه يحرص على قمع أيّ مظاهر للكبر والخيلاء لدى مَن يرى نفسَه سيداً أو كبيراً. فكان يصرّ على تحطيم كبرياء كلّ مَن شاء، ولم يكن يتحرّج من ذلك أبداً:

«كان عمر جالساً وعنده الدرة، إذ أقبل الجارود العبدي.

فقال رجل: هذا الجارود سيّد ربيعة. فسمعها عمر ومَن حوله، وسمعها الجارود.

فلما دنا منه خَفقه بالدُرّة.

فقال: مالي ولكَ يا أمير المؤمنين؟!

قال: مالي ولكَ؟! أما لقد سمعتها.

قال: وقد سمعتها، فمه؟!

قال: ليخالطنّ قلبك منها شيئ. وأنا أحب أن أطأطئ منك»[1].

وبلغ من قوة عمر بن الخطاب أنه لم يكن يتورّع، وهو خليفة، عن إهانة أي شخص من الرعية وإلحاق العقاب به. وحتى كبار القوم من أمثال أبيّ بن كعب، شيخ الأنصار الجليل الذي كان من أبرز قرّاء القرآن، لم يسلم من أذاه، حين شعر أنه أصبح قطباً جاذباً لجمهور المسلمين:

«عن سليمان بن حنظلة قال: أتينا أبيّ بن كعب لنحدّث إليه. فلما قامَ قمنا ونحن نمشي خلفه.

فرهقنا عمر. فتبعه فضَربَه عمر بالدرّة. فاتقاه بذراعيه فقال: يا أمير المؤمنين: ما نصنع؟

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨ ص٢٣٣.

قال: أو ما ترى فتنة للمتبوع، مذلّة للتابع»[1].

وحتى سعد بن أبي وقاص تعرّض للضّرب على يد عمر:

«إن عمر بن الخطاب أتي بمالٍ فجعلَ يقسمه بين الناس، فأزحموا عليه. فأقبلَ سعد بن أبي وقاص يزاحم الناسَ حتّى خلص إليه. فعلاه عمر بالدرة وقال: إنك أقبلتَ لا تهاب سلطان الله في الأرض فأحببتُ أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك»[2].

وبلغت هيبة عمر في نفوس الرعية مدى عظيماً! فمثلاً روى ابن أبي الحديد:

«إن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا: كلم لنا عمر بن الخطاب فقد والله أخشانا حتى لا نستطيع أن نديم إليه أبصارنا»[3].

«إن حجّاماً كان يقصّ عمرَ بن الخطاب. وكان رجلاً مهيباً.

فتنحنحَ عمرُ. فأحدَثَ الحجام!

فأمَرَ له عمرُ بأربعين درهماً»[4].

فكان عمر شخصية مخيفة. وكان المسلمون يخشونه حقاً ويهابون لقاءه ويتقون غضبه. وقد اشتكى عثمان بن عفان مرة أن الرعية يلومونه على أفعالٍ قام بمثلها عمر ولم يجرؤوا على مراجعته بشأنها:

«... أما والله يا معشر المهاجرين والأنصار، لقد عبتم عليّ أشياء ونقمتم أموراً قد أقررتم لابن الخطاب مثلها.

ولكنه وقمكم وقمعكم. ولم يجترئ أحدٌ يملأ بَصَرَه منه ولا يشير بطرفه إليه...»[5].

---

(١) سنن الدارمي ج١ ص١٣٢. وكذلك روى الذهبي في تذكرة الحفاظ ج١ ص٨ وروى ابن شبة في تاريخ المدينة ج٢ ص٦٩١ نفس الحادثة وفيها أن عمر رأى جمعاً على رجل فسألَ فقيل له: إنه أبيّ كان يحدّث الناس، فضربه عمر بالدرة....

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٢٨٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٩٤.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٢٨٧.

(٥) الإمامة والسياسة ج١ ص٤٦. وقمكم: قهركم. وفي رواية الطبري «...ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه...».

رابعا: السيطرة على الولاة

كان عمر شديدَ التدخل في عمل ولاته، حتى في تفاصيل إداراتهم وطريقة شغلهم. فمثلاً روى ابن أبي الحديد[1] أن عمر سمع أن أبا موسى الأشعري عيّن كاتباً نصرانياً له فبعثَ إليه يأمره بعزله. ولما أجابه أبو موسى بأنه يحتاجه نظراً لمهارته وخبرته، رفضَ عمر وأصرّ على عزله.

وكان عمر يحاسب ولاته بشدة على تصرفاتهم. فمثلاً لما بلغته أخبارٌ عن ثراء عمرو بن العاص في مصر كتب له:

«أما بعد. فإنه بلغني أنه ظهَرَ لك مالٌ من إبل وغنم وخَدَم وغلمان. ولم يكن لك قبله مال ولا ذاك من رزقك، فأنى لك هذا؟ ولقد كان لي من السابقين الأولين مَن هو خيرٌ منك، ولكني استعملتك لغنائك... فاكتب إليّ من أين مالك، وعجّل».

ولمّا ردّ عليه عمرو بن العاص منكراً خيانة الأمانة ومدعياً أن ماله حلال، لم يقتنع عمر وقرر مصادرة نصف أموال عمرو:

«... إنكم معشر الأمراء أكلتم الأموال وأخلدتم إلى الأعذار. فإنما تأكلون النار وتورثون العار. وقد وجهتُ إليك محمدَ بن مسلمة ليشاطركَ على ما في يديك».

فلما حضر محمد بن مسلمة وبدأ بمشاطرة نصف أموال ابن العاص ومصادرته، لم يتمالك نفسَه فعبّر عن سُخطِه الشديد على الخليفة:

«.... لعن الله يوماً كنتُ فيه والياً لابن الخطاب! والله لقد رأيته ورأيت أباه، وإن على كل واحد منهما عباءة قطوانية مؤتزراً بها، ما تبلغ مأبض ركبتيه، وعلى عنق كل واحد منهما حزِمة من حطب! وإنّ العاصَ بن وائل في مزرّرات الديباج...»[2].

وكان عمر يغير ولاته على الأقاليم باستمرار. وكان يحركهم كأحجار الشطرنج.

وكان عمر بن الخطاب يعتبر نفسه مسؤولاً تماماً عن كل أفعال وأعمال ولاته.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٤٤.

هو قال مرة «أيّما عاملٌ لي ظلمَ أحداً فبلغتني مظلمته فلم أغيرها، فأنا ظلمته»[1].

خامسا: عزل وتهميش بني هاشم

يلاحظ أن عمر بن الخطاب حرص على الاستثناء الكامل لآل الرسولﷺ وعموم بني هاشم من تقلّد أي منصبٍ في دولته على مدار سنوات حكمه الطويلة، على الرغم من قيامه المستمر بتغيير ولاّته على الأمصار المختلفة.

ويمكن ملاحظة ذلك من استعراض أسماء عمّال عمر على الأمصار، نقلاً عن تاريخ الطبري[2]:

على مكة: نافع بن عبد الحارث الخزاعي

على الطائف: سفيان بن عبد الله الثقفي

على صنعاء: يعلي بن منية (حليف بني نوفل بن عبد مناف)

على الكوفة: المغيرة بن شعبة على قضاء الكوفة: شريح

على البصرة: أبو موسى الأشعري على قضاء البصرة: كعب بن سور

على مصر: عمرو بن العاص

على حمص: عمير بن سعد

على دمشق: معاوية بن أبي سفيان

على البحرين: عثمان بن أبي العاص الثقفي

على الجند: عبد الله بن أبي ربيعة[3].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٣٠٥.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٠٤. وأما اليعقوبي في تاريخه ج٢ ص ١٦١ فذكر نفس هذه الأسماء تقريبا عندما تعرض إلى عمال عمر لدى وفاته، مع إضافة اسم أبي هريرة على عمان، واسم زياد بن لبيد على «بعض اليمن»وذكر اسم سعد بن أبي وقاص على الكوفة مع اسم المغيرة.

وذكر الطبري أيضاً ص٣٢٧ أن عمر بن الخطاب كان استعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط على عرب الجزيرة.

(٣) وعبد الله بن أبي ربيعة (المخزومي) كان من ضمن موتوري قريش الذين اتفقوا مع أبي سفيان على تخصيص عير قريش العظيمة لحرب الرسولﷺ في أعقاب معركة بدر، مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، كما ذكر ابن هشام في السيرة النبوية ج٣ ص٥٥. وهناك روايات تشير إلى أن عبد الله بن أبي ربيعة كان هو رفيق عمرو بن العاص في رحلته إلى الحبشة لاسترجاع المسلمين من هناك (بالإضافة إلى الروايات التي تذكر اسم عمارة بن الوليد).

ومما يدعم الفكرة القائلة بأن عمر كان متقصّداً في سياسة الإقصاء تجاه بني هاشم وعائلة النبيﷺ، حقيقة أنّه كانت هناك المئات من المناصب التي يمكن أن يولّيها عمر لشخصيات من بني هاشم، ولم يفعل. كان عمر يغيّر ولاته على الأمصار بشكلٍ متكرر، حتى بدون حصول مخالفات ظاهرة لسياسته أو حدوث مشكلات كبيرة تستدعي التغيير. كان عمر يبحث دائماً عن النوعية الأقوى والأفضل من الولاة، فكان ببساطة يعزل العاملَ له بمجرّد أن يجدَ رجلاً غيره ممن يتوسّم فيه صفات ومؤهلات المنصب. وبالإضافة إلى منصب الوالي، كانت هناك الكثير من المناصب الأخرى المهمة في الولايات الكثيرة في دولة عمر. فمثلاً هناك مناصب القضاء وقيادة الجيوش والحملات العسكرية وغيرها من المناصب الإدارية والتنظيمية في الدولة الشاسعة الأطراف. وفي ذات الوقت كان هناك الكثير من شخصيات بني هاشم والمطلب الكفؤة والشابة وخاصة من بني العباس بن عبد المطلب. ولكنّ عمر قرر أن يستبعد بني هاشم كلياً عن أي منصبٍ له أهمية أو قيمة بين الناس. وهذا الأمر يدعو إلى الاعتقاد بأن عمر أراد تهميشهم وإبعادهم عن مراكز النفوذ والقرار، بشكلٍ منهجيّ مدروس. ولا يمكن الافتراض بأن الصدفة وحدها كانت السبب وراء عدم تعيين أي شخص من بني هاشم والمطلب أو أن عمر كان غافلاً عن هذا الأمر. فعمر عيّن رجالاً من معظم بطون قريش وغيرها من القبائل العربية ولا يعقل أن يكون ناسياً لوجود شخصياتٍ من بني هاشم والمطلب عنده في المدينة.

ويلاحظ أن الغالبية العظمى من ولاة عمر وعمّاله كانوا من العناصر التي لم يعرف عنها أي مودّة لآل بيت النبيﷺ. بل وكان جزءٌ منهم من أبناء أشرس أعداء النبيﷺ في مكة! وقد أثبتت الأيام أن تلك العناصر القيادية التي اعتمد عليها عمر في حكمه وفتوحاته لعبت الدور الأبرز والأهم في التكتل القرشي الذي شنّ الحرب ضد آل الرسولﷺ ممثلين بعليّ بن أبي طالب بعد بضعة أعوام. فأهم شخصيات الائتلاف الذي خاضَ الصراعَ ضد عليّ بمراحله المختلفة، سياسياً وعسكرياً وإعلامياً، كان قد سبقَ لهم العمل لدى عمر في فترات معينة، ابتداءً من معاوية وابن العاص والمغيرة بن شعبة ويعلي بن منية، مروراً بالوليدَ بن عقبة وحبيب بن مسلمة

وبسر بن ارطاة، وانتهاءً بأبي هريرة وأبي موسى الأشعري!

سادسا: وحدانية ومركزية القيادة

عزل خالد بن الوليد: وأثبت عمر بن الخطاب أنه القائد الأوحد لأمة العرب، وأنه لا يسمح بنموّ مراكز قوى أو تطوّر ولاءات لأشخاص بعينهم، مهما كانت مناصبهم أو أهمية أدوارهم. وكان القرار الأول الذي اتخذه عمر حين تولى الحكم هو عزل القائد العسكري الأبرز طوال عهد أبي بكر، وهو خالد بن الوليد. كان عمر يرى أن خالدا تضخّم جدا بسبب اعتماد أبي بكر الكامل عليه في قيادة الحملات الحربية، إلى حدّ أصبح فيه في وضع يسمح له بتكوين نوع من الهيمنة الشخصية له على قطاع واسع من المقاتلين.

لم يتردد عمر لحظة واحدة. كان عمر يقول لكل من يعنيه الأمر انه هو الخليفة، وهو القائد والمسؤول، وهو صاحب القرار.

ورغم أنه توجد الكثير من الروايات حول العامل الشخصي في الموضوع، وشعور البغض المتبادل والقديم بين عمر وخالد، إلاّ أن سيرة عمر السابقة واللاحقة تظهر بجلاء أن عمر كان صانعَ سياسات، ورائدَ توجّهات، وصاحبَ رؤيةٍ بعيدة المدى، وأنّ ذلك كان العامل الأبرز في تصرفاته.

ليس هناك شك أن عمر لم يكن لديه أي شعورٍ شخصيّ بالمودّة تجاه خالد، وأنه ربما كان يمقته، ولكن قرار العزل الذي أصدره عمر بحق خالد، ومحاولاته من قبل إقناع أبي بكر بذلك، كان نابعاً من مبدأ حرصَ عليه عمر، وهو وحدانية ومركزية القيادة والقرار في دولة الإسلام، وحصرها في طبقة المهاجرين القرشيين - والخليفة على رأسهم - في المدينة. وكان من رأي عمر أن استمرار صعود نجم خالد يهدد ذلك المبدأ.

كما أن عمر أراد أن يرسي مبدأ مهماً في أذهان العرب، وهو أن هذا الدين إنما ينتصر بإرادة الله، وليس بفضل هذا القائد او ذاك. وهو يقول لرعيته إن الإسلام

سيهزم أعداءه بخالد أو بدون خالد[1].

وكان السلوك الشخصي لخالد، عنجهيته وبطشه ونزواته، مما سهّل، ولا شك، مهمة عمر، وأعطاه مبررات لذلك القرار (رغم أن عمر لم يرَ أنه بحاجة إلى تقديم إيضاحات حول قراره).

ومن المثير فعلاً أن عمر قرر عزل خالد وهو منهمكٌ في قيادة الجيوش في الشام في معارك طاحنة ضد الرومان. لم يرَ عمر أن قرار العزل من شأنه أن يخلق مشاكل تذكر أو أنه يؤثر على سير الخطط العسكرية.

فقد كان الجيش ـ بعد انتصاره الكبير في أجنادين ـ يخوض معارك في فلسطين والأردن، وانتصر في فحل وبيسان، ويستعدّ للتجمّع لحصار دمشق وفتحها. في تلك الظروف وصل كتاب عمر بعزل خالد عن القيادة وتعيين أبي عبيدة بن الجراح قائداً عاماً مكانه:

«... ثم ساروا إلى دمشق وخالد على مقدمة الناس. وقد اجتمعت الروم إلى رجل منهم يقال له باهان بدمشق.

وقد كان عمر قد عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس.

فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم هَزمَ الله الرومَ وأصابَ منهم المسلمون. ودخلت الروم دمشق فغلقوا أبوابها، وخيم المسلمون عليها. فرابطوها حتى فتحت دمشق وأعطوا الجزية.

وقد قدمَ الكتاب إلى أبي عبيدة بإمارته وعزل خالد. فاستحيا أبو عبيدة أن يقرأ خالداً الكتاب حتى فتحت دمشق. وجرى الصلح على يد خالد وكتب الكتاب باسمه...».

وأصر عمر على جعل خالد عبرة لكل قيادات جيشه وعماله، فكان من ضمن كتابه لأبي عبيدة:

---

(١) روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص٢٨٤ ان عمر قال «لأعزلنّ خالد بن الوليد والمثنى، مثنى بني شيبان، حتى يعلما أن الله إنما كان ينصر عباده، وليس إياهما كان ينصر»

«... ثم انزع عمامته عن رأسه، وقاسِمه ماله...»[1].

وبالفعل نفّذ أمر عمر، وصودرت نصف أموال خالد، التي كان عمر يعتبره استولى عليها من فيئ المسلمين بدون وجه حق.

*****

ويدخل في هذا الباب أيضا موقف عمر بن الخطاب من سعد بن عبادة الأنصاري. فعندما تولىّ عمر الخلافة لم ينسَ أبداً لسعد بن عبادة موقفه المتشدد تجاه أبي بكر والهيمنة القرشية، في يوم السقيفة. فكان عمر يعتبر أن الطعن بشرعية الخليفة أمرٌ لا يمكن التساهل بشأنه على الإطلاق. وليس هناك مكانٌ في دولة عمر لمن لا يبايع.

فقد روى ابن أبي الحديد أن سعداً :

«لقيَ عمرَ في خلافته، وهو على فرس، وعمر على بعير

فقال له عمر: هيهات يا سعد!

فقال سعد: هيهات يا عمر!

فقال: أنت صاحبُ مَن أنت صاحبه؟

قال: نعم.أنا ذاك. ثم قال لعمر: والله ما جاورني أحدٌ هو أبغض إلى جوارٍ منك.

قال عمر: فإنه مَن كره جوار رجلٍ انتقل عنه.

فقال له سعد: إني لأرجو أن أخليها لك عاجلاً إلى جوار مَن هو أحبّ إليّ جواراً منك ومن أصحابك.

فلم يلبث سعد بعد ذلك إلاّ قليلا حتى خرج إلى الشام. فمات بحوران. ولم يبايع لأحد: لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما»[2].

والمفارقة هنا أن المدينة المنورة هي بلد سعد بن عبادة ــ أبا عن جد ــ وأن

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص ٦٢٣ ـ ٦٢٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص١٠. ومثله ورد في سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٢٧٧.

عمر بن الخطاب هو الوافد إليها من مكة. وقول عمر لسعد أن يخرج منها هو في الواقع انعكاسٌ لموازين القوى المائلة حتماً لصالح الخليفة. وإن شخصاً سيداً في قومه بحجم سعد بن عبادة لا يمكن تصوّره سهلَ المقادة حتى يخرج من بلده بسهولة، فلا بد أن عمر قد مارس عليه إرهاباً حقيقياً اضطره إلى القبول بالنفي. ولا فرق في الحقيقة بين أن يكون سعد بن عبادة قد قرر بإرادته ترك وطنه والانتقال إلى المنفى كراهية لعمر وخوفاً من جبروته، أو أن يكون عمر قد ضغط عليه حتى أجبره على الرحيل إلى المنفى. كانت النتيجة واحدة لسعد بن عبادة وهي الموت منفياً عن بلاده، وحيداً في الشام، مغضوباً عليه من قبل الحاكم.

سابعا: بُعد النظر في التخطيط

من المفيد التأمّل في النصوص التالية حول الرسائل المتبادلة بين عمر وقائده العسكري في العراق، سعد بن أبي وقاص، والتي حصلت في أعقاب النجاحات الكبرى في معارك القادسية وجلولاء:

«وكتب سعدٌ إلى عمر بن الخطاب يخبر بفتح الله على المسلمين.

فكتبَ إليه عمر: أن قف مكانك ولا تطلب غير ذلك!

فكتبَ إليه سعد: إنما هي سرية أدركناها، والأرض بين أيدينا!

فكتبَ إليه عمر: أقم مكانكَ ولا تتبعهم، وأعدّ للمسلمين دارَ هجرةٍ ومنزلَ جهاد. ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً.

فنزل سعد بالأنبار فاجتووها، وأصابهم بها الحمى فكتبَ إلى عمر يخبره بذلك.

فكتبَ إلى سعد: إنه لا يصلح العرب إلاّ حيث يصلح البعير والشاء في منابت العشب! فانظر فلاةً إلى جنب بحرٍ فأنزلِ المسلمين بها واجعلها دارَ هجرة.

.... فبعثَ سعدٌ عثمانَ بن حنيف فارتادَ لهم موضع الكوفة اليوم، فنزلها سعدٌ بالناس وخطّ منزلها واختطّ فيها للناس الخطط....

ثم كتبَ عمر إلى سعد: أن ابعث إلى أرض الهند (يريد البصرة) جنداً لينزلوها.

فبعثَ إليها سعدٌ عتبة بن غزوان في ثمانمائة رجلٍ حتى نزلها، وهو الذي بصر البصرة واختط المنازل....»[1].

وكتب عمر لسعد بن أبي وقاص «أما بعد..

فقد بلغني كتابكَ تذكر أن الناس سألوكَ ان تقسم بينهم ما أفاء الله عليك.

فإذا أتاك كتابي فانظر ما أجلبَ عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم فاقسمه بينهم بعد الخمس.

واترك الأرضَ والأنهارَ لعمّالها، ليكونَ ذلك أعطيات المسلمين. فإنكَ إن قسمتها بين مَن حضر، لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء»[2].

هذه النصوص تظهر مدى اهتمام عمر بالنواحي الاستراتيجية بعيدة المدى:

فهو أولاً يقول لقائده بأن لا ينجرّ، بسبب الانفعال، إلى اندفاعٍ سريعٍ غير محسوبٍ في ملاحقة العدو

وهو يأمره بأن يخلقَ مراكز استيطانٍ للعرب من أجل اتخاذها قواعدَ استعدادٍ وتجهيزٍ وانطلاقٍ لمزيد من الحَملات في المستقبل

وهو يحدد له مواصفات المناطق التي عليه اتخاذها لاستيطان الجيوش العربية.

وهو أيضاً يأمره بأن يوجه جزءاً من القوات العربية إلى جنوب العراق، لاستيطان البصرة الواقعة على طرف خليج فارس، وعدم الاكتفاء بالمنطقة المركزية الوسطى من بلاد الرافدين.

وهو أخيراً ينهاه بشدّة عن توزيع الأراضي المفتتحة كغنائم حرب على قواته. فعلى المقاتلين أن يكتفوا بالغنائم المنقولة وليس لهم أن يستولوا أيضاً على مصادر الثروة كالأراضي الزراعية المنتجة التي لا بدّ أن تبقى بيد أصحابها من أجل ضمان استمرار تدفق الدخل على بيت مال المسلمين بشكل دائم.

---

(١) كتاب «الثقات» لابن حبان ج٢ ص٢١٢.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ج٢ ص٣٢٦.

وفي ذات السياق تندرج تعليمات عمر لقائده في مصر عمرو بن العاص. فعندما نجحت قوات المسلمين في فتح الاسكندرية وغنمت فيها الكثير من الأموال والسبايا، تلقى ابن العاص عرضاً من صاحب الاسكندرية بأن يقوم هو وقومه بدفع الجزية للمسلمين بشكل دائم في مقابل أن يقوم المسلمون بردّ السبايا. فقام عمرو بمخاطبة الخليفة طالباً توجيهاته. فكتب إليه عمر:

«... ولعمري لجزيةٌ قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين، أحبّ إليّ من فيئ يقسم ثم كأنه لم يكن.

فاعرض على صاحب الاسكندرية أن يعطيكَ الجزية...»[1].

هذه كانت أمثلة على التفكير بعيد النظر، والاستراتيجي الذي ميز عمر، والذي يدل على رجل دولةٍ يبني إمبراطورية لتبقى.

موقف عليّ من عمر

من المؤكد أنه كان لدى عليّ اعتقادٌ جازم باشتراك أبي بكر وعمر في اغتصاب حقّه في الخلافة.

ورغم ذلك فقد قرر عليّ أن سياسة الفتوحات الكبرى التي بدأها الخليفة الأول، وقرر عمرُ أن يتابعها بكل زخم وتركيز، تقتضي منه أن يتغاضى عن أي طموحٍ شخصيٍ له وأن يؤجّل مطالبته بما يراه حقا خالصا له إلى إشعارٍ آخر. فظروف الإسلام لا تسمح بأي تنازعٍ أو شقاق، خاصة على المستوى القيادي في الدولة.

لم تؤثر عن عليّ أية معارضة فعلية لخلافة عمر. وهو أيضا لم يكن يمتلك المقوّمات والركائز المادية التي تجعله قادرا على تحدّي سلطان عمر، حتى لو أراد.

ومما سهّل مهمّة عليّ، وجعل قبوله الواقعي لعمر وخلافته ممكناً، ما أبداه عمر من حرصٍ على مصالح المسلمين وأموالهم. فهو، مثل سابقِه، لم يتدنّس بالشهوات،

---

(١) كتاب «الثقات» لابن حبان ج٢ ص٢٢١.

بل اتصف بالزهد والتواضع في المعيشة والتعفف عن المغانم والثروات، رغم وفرتها في عهده.

فبالنسبة لعليّ، ما دام الظلم واقعاً على شخصه هو، دون غيره من المسلمين، فسيحتمل ويضحّي. وما دام الخليفة يقوم بواجباته كما ينبغي، يضطلع بأعباء الجهاد والفتوحات، يجمّع أمة العرب ويوحدها، يقيم الحدود، ويعلي من شأن دين محمدﷺ، فلا بأس بعد ذلك من استئثاره بالمنصب الأعلى، ولو على حسابه هو.

وبناء على منهجه المعلن من تفضيل مصلحة المسلمين على مصلحته الخاصة، فانّه بعد أن بايع عليّ عمرَ، أصبح يعترف به كحاكم أعلى للمسلمين وكمسؤول عن الرعيّة، ولم يألُ جهداً في النصح له، وعلى ذلك يفهم قوله لعمر عندما استشاره في الخروج الى غزو الروم بنفسه:

«إنّك متى تسر الى هذا العدوّ بنفسك فتلقهم بشخصك فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم. ليس بعدك مرجع يرجعون اليه. فابعث اليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فان أظهر الله فذلك ما تحبّ، وان تكن الأخرى كنتَ رِدءً للناس ومثابة للمسلمين»[1].

وكذلك أجابه في مناسبة أخرى بشأن الخروج لحرب الفرس، حين بلغَه اجتماع أهل الري وأصبهان وهمذان ونهاوند وتصميمهم على غزو العرب وقائدهم عمر:

«... فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب، واصلهم دونكَ نارَ الحرب، فانّك إن شخصتَ من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكونَ ما تدع وراءك من العورات أهمّ اليك مما بين يديك. انّ الأعاجم ان ينظروا اليك غداً يقولوا هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك..»[2].

---

(١) نهج البلاغة بشرح محمد عبده ج٢ ص١٨١.

(٢) نهج البلاغة بشرح محمد عبده ج٢ ص١٨٨. وقد روى ابن حبان في كتاب «الثقات» ج٢ ص٢٢٦ نفس الرواية، وفيها إضافة بأن عمر سرّه جداً جواب عليّ فأخذ يقول «الله أكبر الله أكبر! هذا رأي هذا رأي!...»

وتبدو رواية نصر بن مزاحم من أفضل ما يعبر عن موقف عليّ من الخليفتين أبي بكر وعمر:

«أما بعد. فإن الله بعث النبيﷺ فأنقذ به من الضلالة، ونعش به من الهلكة، وجمع به بعد الفرقة.

ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه.

ثم استخلف الناسُ أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمرَ. وأحسَنا السيرة، وعَدلا في الأمة.

وقد وجَدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا، ونحن آل الرسول وأحق بالأمر.

فغفرنا ذلك لهما...»[1].

بل إن علياً ذهب إلى أبعد من ذلك في قبوله للخليفة عمر، فوافق على تزويجه ابنته أم كلثوم.

وبعد كل تلك الإنجازات التي حصلت في عهده، وعلى يديه، لعلّ عمر شعر أنه أدّى واجبه تجاه دين محمد وأمة العرب على أكمل وجه، فدعا بحرارة:

«... ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهم! كبرت سنّي وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيّع ولا مفرّط»[2].

شورى عمر: يا ابن سميّة، ما أنتَ وتأميرُ قريش لأنفسها؟

اغتيال عمر

تجاوزت خلافة عمر بن الخطاب العشرَ سنين، إلى أن اغتيل في عام ٢٣ للهجرة.

«وكان عمر لا يأذن لصبيّ قد احتلم في دخول المدينة. حتى كتب المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاماً صنعاً عنده، ويستأذنه في دخول المدينة

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص٢٠١.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٣٣٤.

ويقول: إن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس: إنه حَدادٌ نقاشٌ نجار.

فأذِنَ له أن يرسل به إلى المدينة.

وضرب عليه المغيرة مائة درهم في كل شهر.

فجاء إلى عمر يوماً يشتكي إليه الخراج. فقال له عمر: ماذا تحسن من الأعمال؟

فعَدّ له الأعمال التي يحسن.

فقال له: ليس خراجك بكثير في كنه عملك.

(وفي رواية اخرى أن عمر جهر له بكلام غليظ)

... وإن العبد انصرف ساخطاً يتذمّر.

فلبثَ أياماً ثم مرّ بعمر فدعاه. فقال: قد حُدثتُ انك تقول لو أشاءُ لصنعتُ رحاً تطحن بالريح؟

فالتفتَ العبدُ عابساً ساخطاً إلى عمر، ومع عمر رهط من الناس، فقال: لأصنعنّ لك رحاً يتحدث الناسُ بها!

فلما ولى، أقبل عمرُ على الرهط فقال: ألا تسمعون إلى العبد! ما أظنه إلاّ أوعدني آنفاً.

فلبث ليالي، ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين نص به. فوسطه. فكمَنَ في زاوية من زوايا المسجد في غلس السحر. فلم يزل هناك حتى جاء عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر كما كان يفعل. فلما دنا منه وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات، إحداهن تحت السرة قد خرقت الصفاق ـ وهي التي قتلته ـ ثم انحاز إلى أهل المسجد فطعن فيهم من يليه حتى طعن ستة عشر رجلاً سوى عمر.

ثم انتحر بخنجره»[1].

*****

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج١٢ ص١٨٥. ونفس الرواية ذكرها ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص٣٤٥.

ورغم الطابع الفردي لعملية الاغتيال هذه، والتي يبدو أنها نفذت بسبب غضب الصانع الفارسي من رفض الخليفة إنصافه من ظلم المغيرة بن شعبة له، إلاّ أنه يمكن القول أن هذه الحادثة تشير إلى بداية شعور بالاضطهاد والظلم على أيدي العرب، سيجتاح أهلَ البلاد المفتتحة وبالأخص ايران، وسوف يتفاقم ويأخذ شكل «الشعوبية» فيما بعد. وقد أورد ابن سعد ما يفيد أن شكوى أبي لؤلؤة من اضطهاد المغيرة كانت على ما يبدو «قمة جبل الجليد» وأن أبا لؤلؤة كان قد تراكمت في نفسه مشاعر الحقد على كل أمة العرب بسبب ما يراه من ظلم أوقعوه على شعوب البلاد المفتتحة وما كانوا يمارسونه من سَبي للنساء والذراري. فقد ذكر أن أبا لؤلؤة كان وهو في المدينة:

«إذا نظر إلى السبي الصغار، يأتي فيمسح رؤوسهم، ويبكي، ويقول: إن العرب أكلت كبدي»[1].

وكانت أفضل طريقة للإنتقام بنظره هي قتل رأس العرب كلهم!

عمر يبتكر شورى النخبة القرشية

كل الدلائل تشير إلى أن عمر بن الخطاب كان ينوي تعيين أبي عبيدة بن الجراح خليفة من بعده. وذلك منطقي. فأبو عبيدة يكمل ثلاثي المهاجرين، الفعّال، الذي نجح في إقصاء عليّ، والأنصار، عن القيادة. وكان لعمر وأبي بكر وأبي عبيدة الدور الأبرز يوم السقيفة.

وقد صرّح عمر بن الخطاب بنفسه بذلك بعدما طعن «... قيل لعمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين: لو عهدتَ؟

قال: لو أدركتُ أبا عبيدة بن الجرّاح لولّيته...»[2].

ولكن لسوء حظ عمر، كان أبو عبيدة قد توفي بالشام، بطاعون عمواس.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٣٤٦.

(٢) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ج٣ ص٨٨٧ وكذلك ورد في تاريخ الطبري ج٣ ص٢٩٢. وكذلك في الإمامة والسياسة ج١ ص٤٢.

ولذلك كان لا بد لعمر من تهيئة ترتيبات جديدة، غير نواياه الأصلية. ومن هنا كانت الشورى.

ويمكن تلخيص طريقة «الشورى» التي وضعها عمر بن الخطاب لاختيار الخليفة من بعده على النحو التالي[1]:

سمّى عمرُ ستة أشخاص ليكون الخليفة القادم من بينهم. وهؤلاء الستة هم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله.

وقد ذكر عمرُ أن السبب الذي دفعه إلى تسمية هؤلاء بالذات هو أن «رسول الله توفي وهو عنهم راضٍ». وفي رواية أخرى «هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله أنهم من أهل الجنة».

وفي إحدى الروايات للطبري أن عمر قال إنه يستثني سعيد بن زيد بسبب قرابته منه.

وذكرت رواية لابن قتيبة أن عائشة كانت اقترحت على عمر بن الخطاب أن يستخلف أحداً من بعده «وأن لا يدعَ الناسَ من بعده هَملاً».

وأعطى عمر هؤلاء الرجال مهلة ثلاثة أيام للتداول فيما بينهم والاتفاق على شخص الخليفة الجديد.

وأمَرَ عمرُ أبا طلحة الأنصاري أن يكون هو و ٥٠ رجلاً جاهزين لقتل جماعة الشورى إذا مرت الأيام الثلاثة دون أن يتفقوا.

وأمَرَ عمرُ أن يصلّي في الناس صُهَيبٌ، لأنه مولى «ولا ينازعهم الأمر»، إلى أن يتم الاتفاق على الخليفة.

ووضع عمر حلاً لكافة الاحتمالات:

---

(١) يمكن مراجعة الروايات في الإمامة والسياسة ج١ ص٤٢، وتاريخ الطبري ج٣ ص٢٩٢ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص١٩٠.

فإذا اتفقت المجموعة على شخص، وخالفَ أحدُهم أو اثنان منهم فستضرَبُ أعناق المخالفين.

وأما إذا انقسم الستة مجموعتين كل واحدة اختارت رجلاً، فإن الجهة التي فيها عبد الرحمن بن عوف هي التي يمضي حكمها، كما ذكر اليعقوبي.

وفي رواية لابن عساكر أن عمر أمر بأن يبايعوا مَن يبايعه عبد الرحمن بن عوف، وبضرب عنق مَن يخالف ذلك.

وفي رواية لابن قتيبة أن عمر قرر في حالة التعادل أن يكون ابنه عبد الله هو الحكم في الاختيار، دون أن يكون هو نفسه مرشحاً. ولتضرب أعناق المجموعة الأخرى إن خالفت.

وفي رواية للطبري انه إذا لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، يمضي حكم المجموعة التي فيها عبد الرحمن بن عوف. ومَن يُخالف يُقتل.

وفي رواية ابن قتيبة أن عمر أوصى أن يحضر اجتماع الشورى كل من: شيوخ الأنصار، والحسن بن علي وعبد الله بن عباس، ولكن دون أن يكون لهم من الأمر شيء.

وأجمعت الروايات أن طلحة بن عبيد الله كان غائباً خارج المدينة في ذلك الوقت.

وكما يظهر من إجمالي الروايات، ومما حصل فعلاً في الاجتماع، فإن عمر بن الخطاب قد أوكلَ بالفعل إلى عبد الرحمن بن عوف، حصراً، مهمة اختيار الخليفة الجديد.

*****

وهناك ما يشير إلى أن عمر بن الخطاب كان يعرف أن عثمان سيكون هو اختيار قريش الأكيد.

فمثلا روى ابن شبة «عن خارجة بن مضرب: حججتُ مع عمر رضي الله عنه، فسمعتُ الحادي يحدو: إن الأمير بعده عثمان»[1] ولم يُروَ أن عمر اعترض على ذلك.

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ج٣ ص٩٣٣.

وهو أيضا روى أن عمر بن الخطاب سأل حذيفة بن اليمان، أثناء أحد مواسم الحج، عمن قد يختاره الناس من بعده فقال له: رأيتُ الناس أسندوا أمرهم إلى عثمان رضي الله عنه[1].

وبحكم خبرته ومعرفته بهم، فإن عمر كان يعرف يقيناً أن هناك أربعة على الأقل، من الخمسة الآخرين الذين وضعهم في لجنة الشورى، لن يختاروا علياً أبداً. فالزبير فقط يمكن أن يميل إلى ابن خاله علي، وأما البقية فمن المتوقع أن يتفاهموا على اختيار أحدهم. ومن المتوقع أن يقوم هؤلاء بتعيين أكبرهم سناً، وهو عثمان، لأن ذلك سيتيح استمرار صيغة التداول القرشي لمنصب الخليفة.

فالظاهر أن هذه الخطة التي وضعها عمر لاختيار خليفته لم تكن في حقيقتها تعدو كونها إجراءات شكلية لإضفاء الشرعية على عثمان، وإبعاد عليّ والهاشميين عنها.

ولكن أهمية «شورى «عمر كانت تفوق موضوع اختيار خليفة مباشر له. فعمر قد حدّد الرجالَ واختار مَن يحق له أن يكون خليفة في مستقبل الأيام. فالمرشحون الذين انتقاهم عمر سيعتبرون أنفسهم دون غيرهم طبقة الحُكم والخلافة. وإذا لم تصل الخلافة أحدَهم الآن، فدوره قادم، بشرط المحافظة على مبدأ عدم اجتماع النبوة والخلافة لبني هاشم، ممثلين بعليّ.

موقف علي من الشورى

وَرَدَ عن عليّ ما يشير إلى أنه كان يستنكر ما ابتدعه عمر بن الخطاب من أسلوب لانتقال السلطة، حيث قال:

«.. فصبرتُ على طول المدة وشدّة المحنة، حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى! متى اعترض الرّيب فيّ مع الأول منهم

---

(١) وروى ذلك أيضا ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص٣٦٣. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٣٩ ص١٨٦.

حتى صِرتُ أقرنُ إلى هذه النظائر...»[1].

ورغم ذلك لم يكن لعليّ من خيار سوى التعامل مع شورى عمر، رغم تشاؤمه من مثل هذه الترتيبات المثيرة لريبته. ومنذ اللحظة التي أعلن فيها عمر عن ترتيباته للشورى وطريقة اختيار الخليفة، عرف أنه سيكون الخاسر حتماً، وعبّر عن ذلك لعمّه العباس حين قال له:

«... عُدلت عنا!

فقال: وما علمكَ؟

قال: قرَنَ بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن. فسعدٌ لا يخالف عبدَ الرحمن. وعبدُ الرحمن صهر عثمان لا يختلفون. فيوليها عبدُ الرحمن عثمانَ أو يوليها عثمانُ عبدَ الرحمن. فلو كان الاخران معي لم ينفعاني»[2].

فهل كان عليّ يملك خيار رفض «الشورى «هذه؟ هل كان قادراً على إعلان بُطلانها وانسحابه منها؟

لقد أحكم عمرُ الموضوعَ، ورسم خطوطه بكل دقة وإتقان. فلا مجال أمام عليّ البتة لأن «يخالف «ما عليه»المسلمون». وأي اعتراضٍ من عليّ سيُظهره أمام العامة بمظهر المارق المفارق للجماعة والرافض لشورى كِبار الصحابة. وقد نجح عمر بالفعل، بسبب نجاحاته في الحكم، في جعل سيرته وقراراته، أمام الناس، حجة شرعية بذاتها حتى لو لم يكن لها أساس من الدين!

وحتى لو شاء عليٌ الانسحاب من لجنة الشورى هذه، فماذا سيحقق حينئذٍ؟ هل سيمنع هؤلاء من المضي قدُماً وتعيين أحدهم؟ الجواب هو بالنفي.

فماذا سيفعل عليّ إذن؟ هل سيدعو إلى نفسه؟ هل سيقف في الجامع ويطالب المسلمين ببيعته؟ هو لا يقدر على ذلك، وحتى لو قدر عليه، فإن علياً لا يمكن أن

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٣٤.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٩٢.

يغامر بشقّ أمة محمدﷺ، حتى لو كان ثمن ذلك على حسابه هو بالذات، مرة أخرى.

ماذا جرى في اجتماع الشورى؟

ورد في صحيح البخاري:

«إن الرهط الذين ولأهم عمر اجتمعوا فتشاوروا. قال لهم عبد الرحمن: لستُ بالذي أنافسكم على هذا الأمر ولكنكم إن شئتم اخترتُ لكم منكم. فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن[1].

فلما ولوا عبد الرحمن أمرَهم فمالَ الناسُ على عبد الرحمن حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه. ومالَ الناسُ على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي حتى إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها فبايعنا عثمان.

قال المسور: طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل فضرب الباب حتى استيقظتُ فقال: أراكَ نائماً! فوالله ما اكتحلتُ هذه الليلة بكبير نوم! انطلق فادعُ الزبيرَ وسعداً. فدعوتهما له. فشاورهما

ثم دعاني فقال: ادعُ لي علياً. فدعوته. فناجاه حتى ابهار الليل ثم قام عليّ من عنده وهو على طمع. وقد كان عبد الرحمن يخشى من عليّ شيئا.

ثم قال: ادعُ لي عثمانَ فدعوته فناجاه حتى فرّق بينهما المؤذنُ بالصبح.

فلما صلى للناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسلَ إلى مَن كان حاضراً من المهاجرين والأنصار وأرسل إلى أمراء الأجناد وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر.

---

(١) وأما الإمام الطبري في تاريخه ج٣ ص٢٩٥ فقد روى أن عبد الرحمن حين عرض على بقية أهل الشورى أن يتنازل هو في مقابل حصوله على حق اختيار الخليفة الجديد من بينهم، وافق الآخرون بحماس، وخاصة عثمان، بينما توجّس عليّ من ذلك فطلب من عبد الرحمن أن يعطيه عهد الله «لتؤثرنّ الحق ولا تتبع الهوى ولا تخصّ ذا رحم ولا تألو الأمة «ففعل.

فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد يا علي: إني قد نظرتُ في أمر الناس فلم أرَهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلاً!

فقال: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده. فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون»[1].

وهناك عدة ملاحظات لافتة للنظر بشأن رواية البخاري هذه:

- تحولَ الأمرُ في حقيقته إلى عملية تعيين للخليفة الجديد، تولاّها عبد الرحمن بن عوف لوحده، بعد أن تنازل عن الترشّح للمنصب.

- كان تركيز عبد الرحمن منصبًا على عليّ بن أبي طالب لأنه، حسب تعبير البخاري، «كان يخشى من عليّ شيئا». ويبدو جليّا حرص عبد الرحمن على خداع عليّ من أجل ضمان استمرار قبوله المشاركة في هذه العملية «الانتخابية» كلها. وعلى الأرجح أن عبد الرحمن قد وعد علياً باختياره، وهو ما عبّر عنه البخاري بقوله «ثم قام عليّ من عنده وهو على طمع»، حتى لا ينسحب عليّ من هذه الشكليات جملة وتفصيلاً، وبالتالي يطعن في شرعية العملية من أصلها، وهو ما لم يكن عبد الرحمن والآخرون يريدونه.

- حرِصَ عبد الرحمن على إعلان قراره بتعيين عثمان بن عفان بطريقة تجعل من المستحيل على عليّ بن أبي طالب أن يعارض أو يناقش! فبالإضافة إلى وجهاء المهاجرين وأهل المدينة، كانت القيادة العسكرية للجيوش مدعوة أيضاً «أمراء الأجناد «لحضور تنصيب الخليفة الجديد.

- وجّه عبد الرحمن خطابه إلى عليّ بالذات «أما بعدُ يا علي»، واستخدم فيه لغة التهديد الصريح «فلا تجعلنّ على نفسك سبيلا «في حال قيام عليّ برفض تعيين عثمان. والتعبير الذي استعمله عبد الرحمن يعني أن علياً مهدّد بالهلاك الفعليّ إن هو أبدى أي معارضة، على أساس أنه سيكون مارقاً على الجماعة،

---

(١) صحيح البخاري ج٨ ص١٢٣ باب كيف يبايع الإمام الناس.

مفرّقا لصفوف المسلمين!

كان عثمان إذن خيار قريش الأول، ومحل إجماعها. وعندما يقول ابن عوف أنه قد شاور «الناسَ» فلم يجدهم يعدلون بعثمان، فهو يقصد قريشاً بالتحديد. وسوف يثبت عثمان، بالفعل لا بالقول، أنه ابن قريش البار. فحتى موالي قبيلة قريش ستنال نصيبها من التميّز على يديه!

«كان عثمان قد جعل لموالي قريش طعمة خمسة دنانير لكل رجل وكل حول.... ولم يجعلها عثمان لأحد من الموالي إلاّ موالي قريش»[1].

وكان عثمانُ معشوقَ قريش وحبيبها، حتى لقد ذهب حب القرشيين له مضرب المثل!

روى ابن عساكر[2] «كان عثمان في قريش محبباً، يوصون إليه ويعظمونه. وإن كانت المرأة من الصرب لترقص صبيها وهي تقول:

أحبّك والرحمن حبّ قريشٍ عثمان

وكل الدلائل تشير إلى أن اتّفاقا قد تم بين ابن عوف وبين عثمان في تلك الليلة من أجل تداول الخلافة بينهما([3])، على أن يتولاّها عثمان الآن بحكم كونه الأكبر سناً ومن ثم يعهد بها إلى ابن عوف من بعده. والنص التالي يوضح نية عثمان تولية ابن عوف من بعده لو سارت الأمور بشكل طبيعي:

«وروي أن عثمان اعتلّ عِلّة اشتدّت به، فدعا حمران بن أبان وكتب عهداً لِمَن بعدَه وترك موضع الاسم ثم كتب بيده: عبد الرحمن بن عوف. وربطه وبعث به إلى أم حبيبة بنت أبي سفيان.

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص ٩٨٩.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص٢٥١.

(٣) والعلاقة بين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وثيقة جدا وموغلة في القدم. فعدا عن النسب، ورد في كتاب «المنمق في أخبار قريش» لمحمد بن حبيب البغدادي ص١٤٩ أن كلا منهما كان موجوداً مع أبيه عندما خرجوا معاً إلى اليمن في تجارة وتعرضوا خلالها لمشكلة مع بني جذيمة قتل خلالها عوف والفاكه بن المغيرة، بينما نجا عبد الرحمن وعثمان وأبوه عفان.

فقرأه حمران في الطريق فأتى عبد الرحمن فأخبره فقال عبد الرحمن وغضب غضباً شديداً: أستعمله علانية ويستعملني سراً!

ونما الخبر وانتشر بذلك في المدينة. وغضب بنو أمية، فدعا عثمان بحمران مولاه فضربه مائة سوط وسيّره إلى البصرة. فكان سبب العداوة بينه وبين عبد الرحمن بن عوف.

ووجّه له عبد الرحمن بن عوف بابنه وقال له: قل له: والله لقد بايعتك وإن فيّ ثلاث خصال أفضلك بهن: أني حضرتُ بدراً ولم تحضرها، وحضرتُ بيعة الرضوان ولم تحضرها، وثبتَ يوم أحد وانهزمتَ!

فلما أدّى ابنه الرسالة إلى عثمان قال له قل له: أما غيبتي عن بدر فإني أقمتُ على بيت رسول الله فضرب لي رسول الله سهمي وأجري. وأما بيعة الرضوان فقد صفق لي رسول الله بيمينه على شماله، فشمال رسول الله خيرٌ من أيمانكم. وأما يوم أحد فقد كان ما ذكرتَ إلاّ أن الله قد عفا عنّي.

ولقد فعلنا أفعالاً، أغفرها الله أم لا»[1].

مع ملاحظة أن هذه الحادثة حصلت عام ٣٢ للهجرة.

وعارضت الأقلية تعيين عثمان

ولقي اختيار عثمان اعتراضاً من قبل الأقلّية المتمسكة بالشرعية النبويّة الخالصة، لا شرعية قريش، ومنهم المقداد بن عمرو الذي ألقى خطبة مؤثرة، فيما يلي نصها:

«ومال قومٌ مع علي بن أبي طالب. وتحاملوا في القول على عثمان. فروى بعضهم قال: دخلتُ مسجدَ رسول الله فرأيتُ رجلاً جاثياً على ركبتيه يتلهّف تلهّف من كأن الدنيا كانت له فسلبها، وهو يقول:

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦٩. وقد أورد الذهبي في سير أعلام النبلاء ج١ ص٨٨ رواية كتابة عثمان لعهده من بعده لعبد الرحمن ولكن دون الجزء الذي يشير إلى غضب عبد الرحمن من استعماله سرا.

واعجباً لقريش! ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم، وفيهم أول المؤمنين وابن عم رسول الله: أعلم الناس وأفقههم في دين الله وأعظمهم بلاءً في الإسلام وأبصرهم بالطريق وأهداهم للصراط المستقيم. والله لقد زوَوها عن الهادي المهتدي الطاهر النقي، وما أرادوا إصلاحا للأمة ولا صواباً في المذهب ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة فبُعداً وسُحقاً للقوم الظالمين.

فدنوتُ منه فقلت: مَن أنت يرحمك الله؟

فقال: أنا المقداد بن عمرو، وهذا الرجل علي بن أبي طالب.

قال فقلت: ألا تقوم بهذا الأمر فأعينك عليه؟

فقال: يا ابن أخي! إن هذا الأمر لا يجري فيه الرجل ولا الرجلان»[1].

وروى البلاذري «أن عمار بن ياسر قال: إن الله أعزنا بدينه وأكرمنا بنبيّه، فأنّى تصرفون الأمر عن أهل بيت نبيّكم؟ فقال رجلٌ من بني مخزوم: يا ابن سميّة! ما أنتَ وإمرة قريش؟!»[2]

وروى الطبري مزيداً من التفاصيل حول الجدال الذي دار في لحظات ما قبل إعلان عبد الرحمن عن تسميته للخليفة الجديد، ما بين مناصري عليّ، وبين رموز البطون القرشية:

«.... فقال عمار: إن أردتَ ألاّ يختلف المسلمون فبايع علياً.
فقال المقداد: صدَق عمار. إن بايعتَ علياً قلنا سمعنا وأطعنا.
قال ابن أبي سرح: إن أردتَ ألاّ تختلف قريشٌ فبايع عثمان.
فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صدق. إن بايعتَ عثمانَ قلنا سمعنا وأطعنا.
فشتمَ عمارُ ابنَ أبي سرح وقال: متى كنتَ تنصح المسلمين؟

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٦٣. وأيضا روى الطبري ج٣ ص٢٩٨ «فقال المقداد: ما رأيتُ مثل ما أوتي أهل هذا البيت بعد نبيّهم. إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلا ما أقول ان أحدا أعلم ولا أقضى منه بالعدل. أما والله لو أجد عليه اعوانا. فقال عبد الرحمن: يا مقداد اتق الله، فإني خائف عليك الفتنة».

(٢) ترجمة علي بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري ص١٤٢.

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية.

فقال عمار: أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيّه وأعزنا بدينه، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟

فقال رجلٌ من بني مخزوم: لقد عدوتَ طوركَ يا ابن سمية! وما أنتَ وتأميرُ قريشٍ لأنفسها؟»[1].

وينبغي ملاحظة أن عبد الله بن أبي ربيعة (المخزومي)، الذي كان من أشد المتحمسين لعثمان، كان يشغل منصب أمير الجند في عهد عمر، أي أنه كان بمثابة القائد العام للجيوش آنذاك!

ولا يخفى ما يحمله ذلك المنصب من ثقل هائل.

وتهديد عبد الله بن أبي ربيعة بأن السمع والطاعة لن يكون إلاّ لاختيار عثمان، مفهومٌ تماماً ومتوقع! فهو لا ريب لم ينسَ ما حدث يوم فتح مكة، قبل ١٥ عاماً، حين كان قاب قوسين أو أدنى أن يلقى حتفه، على يد عليّ بن أبي طالب، بالذات:

فقد كان ابن أبي ربيعة مع الحارث بن هشام، إدراكاً منهما لحجم العداء الذي يميزهما تجاه النبيﷺ وتاريخهما الأسود معه، قاما، في حركة يأس واضح، بالاستجارة بأم هانئ بنت أبي طالب، فأخذتها الشفقة بهما ففعلت. وكان عليّ وقتها يبحث عنهما شاهراً سيفه، وحين وجدهما عند أخته همّ بقتلهما لولا أنها تدخلت ومنعته. ثم ذكرت ذلك للرسولﷺ فقال لها إن علياً كان يحق له قتلهما، ولكنه أكرمها وقال «قد أجَرنا مَن أجرتِ»[2].

والكلام الذي تفوّه به عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن أبي ربيعة وغيرهما من طلقاء قريش واستخدامهم لعبارات من قبيل «لقد عَدوتَ طورك يا ابن سمية» وكلامهم عن «إمرة قريش» يوضح بجلاء كيف كان القرشيون ينظرون إلى

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٩٧. وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٣٩ ص١٩١ قول عبد الله بن أبي ربيعة.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١ ص٤٩٦.

موضوع الخلافة: مسألة داخلية صرفة، تتفق عليها بطون قريش، ولا يجوز لغيرهم أن يحشرَ أنفه فيما لا يعنيه!

كما أن مقدار الحماسة الكبيرة التي أبداها الطلقاء لتأييد شخص عثمان بالذات، لافتٌ حقاً.

موقف عليّ بعد تعيين عثمان

كان عليّ يرى أن عبد الرحمن بن عوف قد حَرَمَه من حقه في الخلافة وحابى عثمان، الذي هو صهره. وقد أشار لذلك في خطبته الشقشقية».. ومالَ الآخرُ لصِهره...»[1].

وحينما قرر ابن عوف اعلان بيعة عثمان قال عليّ كلمة خالدة:

«**لقد علمتم أني أحقّ الناس بها من غيري. ووالله لأسلّمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جورٌ الاّ عليّ خاصّة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه**»[2].

وقال عليّ لعبد الرحمن حينما بايع عثمان «**حَبَوته حَبو دهر! ليس هذا أولَ يوم تظاهرتم فيه علينا. فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون. والله ما وليتَ عثمانَ إلاّ ليردّ الأمرَ اليك. والله كل يوم هو في شأن**»[3].

«قال عليّ: **إن الناس ينظرون إلى قريش. وقريشٌ تنظر إلى بيتها فتقول: إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا. وما كانت في غيرهم من قريش، تداولتموها بينكم**»[4].

ومن المفيد عرض النص الشامل الذي أورده ابن قتيبة والذي يوضح موقف علي

---

(١) عبد الرحمن بن عوف كان متزوجا أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، أخت الوليد بن عقبة لأبيه وأمه، وهي أيضا أخت عثمان بن عفان لأمّه.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٩٥.

(٣) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٩٧.

(٤) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٩٨.

من شورى عمر التي أسفرت عن اختيار عثمان، والذي قاله وهو خليفة في الكوفة:

«... فجعلها عمر شورى وجعلني سادسَ ستة. فما كانوا لولاية أحدٍ منهم بأكره منهم لولايتي، لأنهم كانوا يسمعونني وأنا أحاجّ أبا بكر فأقول: يا معشرَ قريش انا أحق بهذا الأمر منكم ما كان منا مَن يقرأ القرآن ويعرف السنة. فخشوا إن وليتُ عليهم أن لا يكون لهم في هذا الأمر نصيب. فبايعوا إجماعَ رجل واحدٍ حتى صرفوا الأمر عني لعثمان. فأخرجوني منها رجاء أن يتداولوها حين يئسوا ان ينالوها. ثم قالوا لي: هلمّ فبايع عثمان وإلاّ جاهدناك. فبايعتُ مُستكرهاً وصبرتُ مُحتسباً.

وقال قائلهم: إنك يا ابن أبي طالب على الأمر لحريص! قلتُ لهم: أنتم أحرص. أما أنا إذا طلبتُ ميراثَ ابن أبي وحقه، وأنتم إذا دخلتم بيني وبينه وتضربون وجهي دونه.

اللهم! إني أستعين بك على قريش فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي وفضلي، واجتمعوا على منازعتي حقاً كنتُ أولى به منهم فسلبونيه ثم قالوا: إصبر كمداً وعِش متأسفاً..»[1].

*****

وبايع عليّ عثمان. ولكنه لن يعترف به كإمام وقائد شرعي، وإنما كحاكم فعلي! ولذا لم يكن يرى نفسه ملزَماً بما يصدر عن عثمان منْ أحكام أو مواقف فقهية، فمثلاً روى البخاري:

«سمعتُ عثمانَ وعلياً بين مكة والمدينة، وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما، فلما رأى ذلك عليّ أهلّ بهما جميعا قائلا: لبّيك عمرةً وحجّة معا.

فقال عثمان: تراني أنهى الناسَ عن شيئ وتفعله أنت؟

فقال عليّ: لم أكن لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحدٍ من الناس»[2].

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٧٦.

(٢) صحيح البخاري ج٢ باب التمتع والاقران من كتاب الحج.

الكتاب الرابع

عثمان

«لا أخلعُ قميصاً ألبَسَنيه الله...»

عثمان بن عفان



عثمان

التاسيس لمملكة بني أمية

كان اختيار عثمان لمنصب الخلافة هو الحدث الأكثر أهمية بالنسبة إلى الحزب الأموي الطامح والمصمم على العودة إلى صدارة الأمور، مما حمل العجوزَ أبا سفيان على التعبير عن فرحه بهذا الحدث المثير، واستشراف مستقبل الخلافة. فقال في مجلس أموي حميم: «أفيكم أحدٌ من غيركم؟ وقد كان عمي.

قالوا: لا.

قال: يا بني أمية! تلقفوها! فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما زلتُ أرجوها لكم. ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة»[1].

وفي رواية ابن أبي الحديد أن أبا سفيان قال: «... تداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار..» وفي رواية أخرى أنه قال «... ثم رجعت إلى منازلها، واستقر الأمر قراره، فتلقفوها تلقف الكرة»[2].

وفي رواية ابن عساكر أن أبا سفيان قال: «اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية. والملك ملك غاصبية. واجعل أوتاد الأرض لبني أمية»[3].

جريمة بدون عقاب

كانت أول قضية واجهت عثمان وتطلبت منه قراراً هي ما حصل من عبيد الله ابن عمر بن الخطاب[4].

---

(١) من كتاب «الأنصار» ص٢٧٠ لطاهر آل عكلة نقلا عن مروج الذهب للمسعودي.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٤٥. وقريبٌ من ذلك رواه المقريزي في «النزاع والتخاصم» ص٥٩.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٣ ص٤٧١.

(٤) وعبيد الله هذا كانت أخلاقه فاسدة منذ صغره. وقد أقام عليه أبوه عمر حد الخمر، كما ورد في كتاب المنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي ص٣٩٥.

اندفع عبيد الله بن عمر للثأر من عدد من الأشخاص الذين اعتقد أنهم ساعدوا أبا لؤلؤة في قتل والده. وبدون أي تمحيص أو تدقيق أو تحقيق «فأتى الهرمزانَ فقتله، فلمّا عضّه السيف قال لا اله الاّ الله»[1].

ثم أتى جفينة، وكان نصرانياً من أهل الحيرة.. فقتله.

ثم أتى منزل أبي لؤلؤة فقتل ابنته الصغيرة.

واضحٌ تماماً أن عبيد الله بن عمر ارتكب جريمة بشعة تمثّلت بقتل ثلاثة أشخاص من بينهم طفلة، دون وجه حق. وكون الهرمزان قال لا اله إلاّ الله بعدما ضربه عبيد الله بالسيف، يدل على أنّه كان مسلماً حقّا. وإلاّ فلماذا ينطق بالشهادة وهو على مشارف الموت؟ وحتى لو كان القتلى غير مسلمين، فليس في الدين ما يبرر قتل الناس على المظنّة. وليس في الشرع ما يدعو لقتل الأطفال.

ماذا فعل الخليفة الجديد تجاه القاتل؟

روى ابن الأثير: «قال عمرو بن العاص: قتل عمرُ أمس ويقتل ابنه اليوم! أبعد الله الهرمزان وجفينة...

وقال عثمان للمسلمين: من وليّ الهرمزان؟

قالوا: أنتَ.

قال: قد عفوتُ عن عبيد الله ...»[2].

وروى الطبري: «فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق.

فقال عليّ: أرى أن تقتله.

فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٠٣. وكذلك روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص٣٥٦.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص ٣٤٣.

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين: ان الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان. إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

قال عثمان: أنا وليّهم. وقد جعلتها دية. واحتملتها في مالي»[١].

«وأكثرَ الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيد الله بن عمر. فصعد عثمان المنبر فخطب الناس وقال: ألا إني وليّ دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر. فقام المقداد بن عمرو فقال: إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله. فقال: فننظر وتنظرون. ثم أخرج عثمانُ عبيدَ الله بن عمر من المدينة إلى الكوفة، فأنزله داراً»[٢].

إذن قام عثمان بالعفو عن عبيد الله وأبلغ ذلك للمسلمين، ثم أرسله الى الكوفة.

لم يرَ الخليفة أي داعٍ حقيقي لتطبيق حكم الشرع، لأن المقتولين هم ببساطة من الموالي، وهؤلاء طبعاً بعُرف الارستقراطية القرشية مجرّد رعايا في خدمتها. والمؤكّد أن هذا التصرّف لاقى رفضاً من علي بن أبي طالب، الذي يرى أنه يجب التزام المبدأ الرسولي في أن لا فرق بين عربي وعجمي إلاّ بالتقوى. وقد أجمع المؤرخون أن عليّا أشار على عثمان بقتل عبيد الله ورفض تعطيل حد من حدود الله، ولكن عثمان رفض.

روى ابن الأثير:

«... ولم يزل عبيد الله كذلك حياً حتى قتل عثمان وولي عليّ الخلافة وكان رأيه أن يقتل عبيد الله. فأراد قتله فهرب منه إلى معاوية وشهد معه صفين، وكان على الخيل. فقتل في بعض أيام صفين»[٣].

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٠٢. وروى ابن سعد مثل ذلك في الطبقات الكبرى ج٥ ص١٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦٣.

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص ٣٤٣.

عثمانُ يبدأ بتغيير سياسة عمر

ورث عثمان عن عمر دولة شاسعة مترامية الأطراف. فعلى الرغم من أن الفتوحات الكبرى لم تكن قد اكتملت بعد، إلاّ أن الفعل الأساسي كان قد حصل، والحسم قد تم بالفعل، ولم يبق سوى إكمال العمل.

فالقوة الفارسية قد دُمّرت ودخل العرب إيران كفاتحين، ولم يعد لبقايا النظام الساساني القديم سوى تجمعات غير كبيرة في مناطق متباعدة، وغير قادرة على تشكيل تهديد جدّي وحقيقي للقوة العربية الساحقة. كانت الأرضية لإكمال الفتح وإنجاز السيطرة التامة على كل أنحاء إيران قد وضعت على يد عمر بن الخطاب.

وكانت سوريا الكبرى قد سقطت بالفعل في أيدي العرب، وكان قد بدأ ينشأ نوع من التوازن في بلاد الشام بين القوة العربية وبين الروم البيزنطيين الذين كانوا قد بدأوا يسلمون بالخسارة ولا يطمحون سوى إلى المحافظة على مواقعهم إلى الشمال من سوريا. وكذلك كان العرب قد بدأوا بتوطيد أركان حكمهم في مصر.

إذن كان التحدي الحقيقي أمام الخليفة عثمان يتمثل في تأصيل وتجذير السيطرة العربية على الأقاليم المفتتحة، بالإضافة إلى متابعة الحملات العسكرية لإخضاع ما تبقى من مناطق خارج السيطرة في تلك الأقاليم، وخاصة فارس.

كانت الفتوحات التي حصلت في عهد عمر إنجازاً عظيماً هائلا بكل المقاييس. وكانت مهمة «هضم» تلك البلاد وجعلها جزءً من الفضاء العربي، ليست بالسهلة أبدا. فتلك بلاد كان فيها نظام إداري واقتصادي قديم جدا وفاعل، ولم يكن العرب معتادين على أمور حضارية ومَدَنية بذاك الحجم.

ولذلك فإن مهمة الولاة العرب لتلك الأقاليم كانت في غاية الأهمية والصعوبة أيضاً. فمطلوبٌ من الوالي أن يحسن إدارة شؤون الجيوش العربية الفاتحة التي بدأت تستقر وتستوطن في البلاد المفتتحة،

وعليه أيضا أن يتبنّى سياسة مدروسة تجاه أهل البلاد الأصليين بما يضمن

ولاءهم للحكام الجدد وبما يكفل استمرار إنتاجية تلك الأراضي الشاسعة وما تعود به من فوائد اقتصادية هائلة

واخيرا عليه أن يتأكد من الجاهزية العسكرية الدائمة للتجمعات العربية لمواجهة أية تحديات أو تهديدات قد تشكلها بقايا الأنظمة الرومانية أو الساسانية في الشام أو العراق أو مصر أو فارس.

ولكن عثمان بن عفان أظهر سوء سياسة وسوء تقدير قل نظيرهما. لم يكن عثمان على مستوى التحدي الحضاري الكبير الذي كان ماثلا أمام قيادة أمة العرب.

بدأ عثمان في تغيير سياسة عمر بن الخطاب فيما يتعلق بحكام الولايات. فعلى الرغم من أن عمر حافظ على وضع قيادي، بشكل عام للقرشيين في دولته، إلاّ أنه كان يخضعهم إلى متابعة ومراقبة حثيثة ودائمة. كان عمر يحاسب عماله على سياستهم، وكانت له طرق أخرى في الحصول على معلومات عن وضع ولاياته، غير الولاة. كان عمر يعزل العمال، وينقلهم ويستبدلهم، يهمّشهم ثم يعيد تفعيلهم حين يرى الوقت مناسبا. ولم يقم عمر أبدا بتعيين أقرباء له في مناصب قيادية في الدولة.

كان ولاة عمر يخشونه حقا، وكانوا يهابون شَبَحَهُ المخيّم عليهم، رغم بعد المسافة عن العاصمة. لم يُتِح عمر بسياسته تلك، المجالَ لولاته لكي يصنعوا ولاءً شخصيا لهم في المناطق التي كانوا يديرونها.

وكان الرعية، من عامة العرب ومقاتلي الجيوش وأفراد القبائل التي استوطنت في الأقاليم، يشعرون أن أمامهم طريقا مفتوحا إلى القائد الأعلى، عمر، يستطيعون أن يسلكوه ليوصلوا صوتهم، شكاويهم، ومطالبهم إليه. وبالتالي لم يكن هناك شعور بين الناس أن من واجبهم التزلّف للوالي. ففي نهاية الأمر، كان الوالي هو والي عمر، وينفّذ سياسة عمر لا سياسته هو. فإن كان الوصول إلى عمر متاحاً، وإذا كان عمر، وهذا الأهم، مستعدا للسماع واتخاذ الاجراءات، فما الحاجة إلى النفاق للوالي أو الولاء الشخصي له؟

بدأ عثمان بتغيير سياسة عمر تلك، كلها!

كانت البداية في القرارات المالية: تقديم عطايا مالية هائلة، وغير مبررة، لأقربائه. وتبع ذلك ما هو أخطر: تعيين أقربائه اللصيقين، وخاصة من بني أمية، في كل المناصب القيادية العليا في الدولة.

فقد اعتبر عثمان أن إغداق الأموال على أقربائه من بني أمية «صلة رحم»!

ذكر ابن سعد أن عثمان قال: «أيها الناس! إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامهما. وإني تأولتُ فيه صلة رحمي»[1].

ويبدو أن كلامه عن «صلة الرحم» لم يقنع أحداً، فلجأ عثمان بغضبٍ واضح إلى تفسير موقفه من تعيين أقاربه في كل المناصب العليا في الدولة:

«دعا عثمان رضي الله عنه ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم عمار.

فقال: إني سائلكم، أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قريشاً على سائر الناس، ويؤثر بني هاشم على سائر قريش؟

فسكت القوم.

فقال: لو أن مفاتيح الجنة في يدي لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم! والله لأعطينهم ولأستعملنهم على رغم أنف من رغم»[2].

وهنا يجب ملاحظة أن أقرباءه أولئك الذين ولأهم قيادة الدولة، ليسوا كغيرهم من المسلمين! فقد كانوا جميعا من العناصر التي لا تمتلك أية شرعية إسلامية على الإطلاق. بل على العكس، هم كلهم من الذين كان لهم أسوأ تاريخ مع رسول الله ﷺ، ومن أشرس أعدائه!

إذن كان اعتقاد أبي سفيان واقعياً إلى حد كبير عندما اعتبر انتخاب ابن عمه

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٦٦.

(٢) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٩٩. وروى ذلك أيضا الإمام احمد في مسنده ج١ ص٦٢. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٣٩ ص٢٥٢.

عثمان بداية لدولة أموية سوف يؤول الأمر فيها إلى صبيان بني أمية. فسواء اتفق عثمان مع المخطط الأموي أم لم يتفق، فثقة أبي سفيان كبيرة في مَن يعرف من أبنائه وبني عمومته في ترويض عثمان، إن هو أبدى بعض التحفّظ والممانعة في الانسياق وراء تحقيق الأحلام الأموية. وذلك الذي حدث. فقد تمكن الاتجاه الأموي من شلّ الخليفة والاستحواذ على القرار بشكل كامل والعبث بكل مقدرات المسلمين»[1].

بنو أمية يُحكِمون السيطرة على دولة الإسلام

١ـ مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية: المستشار والوزير الأول

كان أبوه صاحبَ سِجلّ أسودٍ كالح مع رسول الله ﷺ.

ذكر ابن اسحاق أسماء كل من أبي لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية وعقبة بن أبي معيط وعدي بن حمراء الثقفي وابن الأصداء الهذلي على أنهم كانوا أسوأ جيران لرسول الله في مكة وأنهم كانوا يؤذونه في بيته «فكان أحدهم ـ فيما ذكر لي ـ يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلّي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له. حتى اتّخذ رسول الله حجرا يستتر به منهم إذا صلّى. فكان رسول الله إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف على بابه ثم يقول: يا بني عبد مناف، أيّ جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق.»[2].

وكان رسول الله قد أمر بنفي الحكم ابن أبي العاص وولده إلى الطائف، لأنه لا يريد أن يساكنه هذا الشخص، نظرا لتاريخه الطويل في إيذاء الرسول ﷺ وبأسفل الطرق وأكثرها انحطاطا «كان يمرّ خلف رسول الله فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه، واذا صلّى قام خلفه فأشار بأصابعه»[3].

---

(١) عن «الأنصار» لطاهر آل عكلة ص٢٧٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٥٧.

(٣) «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم، نقلا عن أنساب الأشراف للبلاذري، وعن المسعودي وابن

وقال ابن الأثير عنه:

«... وهو طريد رسول اللهﷺ. نفاه من المدينة إلى الطائف، وخرج معه ابنه مروان...

... فقيل: كان يتسمع سر رسول اللهﷺ ويطلع عليه من باب بيته...

... وقيل: كان يحكي رسول اللهﷺ في مشيته وبعض حركاته. وكان النبيﷺ يتكفأ في مشيته فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج في مشيته...

... وقد روي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها. إلاّ أن الأمر المقطوع به أن النبيﷺ، مع حلمه وإغضائه على ما يكره، ما فعل به ذلك إلاّ لأمر عظيم

ولم يزل منفياً حياة النبيﷺ. فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليردّه إلى المدينة فقال: ما كنتُ لأحلّ عقدة عقدها رسول اللهﷺ. وكذلك عمر.

فلما ولي عثمان رضي الله عنه ردّه...»[1].

إذن كان من أول الأشياء التي فعلها الخليفة الثالث حين استلم السلطة أنه قام بردّ عمّه الحكم بن أبي العاص وبنيه الى المدينة، في مخالفة صارخة لأمر الرسولﷺ ورغبته، مع أنه كان قد كلم أبا بكر فيهم بعد وفاة الرسولﷺ، وسأله ردّهم، إلاّ أنه رفض إيواء طرداء رسول الله، ومع أنه قد حاول مرة أخرى مع عمر الذي رفض واتخذ الموقف نفسه.

ولم يكتفِ عثمان بردّه بل أغدق عليه من النعم!

أعثم واليعقوبي.

وأما الذهبي، في سير أعلام النبلاء ص١٠٨ ج٢، فقد روى «نفاه النبيﷺ إلى الطائف، لكونه حكاه في مشيته وفي بعض حركاته، فسبّه وطرده، فنزل بوادي مج (الطائف). ونقم جماعة على أمير المؤمنين عثمان كونه عطف على عمه الحكم، وآواه وأقدمه المدينة، ووصله بمئة ألف».

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٢ ص٣٤. وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٥٧ ص٢٤٤ أن الحسن بن عليّ قال مرة لمروان بن الحكم أثناء مشادة بينهما «فوالله لقد لعن الله أباك على لسان نبيّهﷺ وأنت في صلبه».

وفيما يلي النص «وكتب عثمان إلى الحكم بن أبي العاص أن يقدم عليه، وقد كان طريد رسول الله. وقد كان عثمان لما ولي أبو بكر اجتمع هو وقوم من بني أمية إلى أبي بكر فسألوه في الحكم فلم يأذن له. فلما ولي عمر فعلوا ذلك فلم يأذن له. فأنكر الناس إذنه له وقال بعضهم: رأيتُ الحكم بن أبي العاص يوم قدم المدينة عليه فزر خلق، وهو يسوق تيساً، حتى دخل دار عثمان، والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال مَن معه، ثم خرج وعليه جُبّة خزّ وطيلسان»[1].

وكان ذلك أمراً عجيباً. ولم يكن معروفاً لدى عامة المسلمين على أي أساس أباح «خليفة رسول الله» لنفسه أن يردّ واحداً من أعدى أعداء الرسولﷺ الى مدينته! وليس هذا فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى حد تكريمه والاحتفاء به!

كان عثمان يعرف أن الحكم يستحق أقصى العقوبة جزاء على ما كان يقترفه بحق الرسولﷺ من جرائم، وأنه لولا أن محمداًﷺ رسول مبعوثٌ من الله ويفوق مستوى البشر في الرفعة والسمو عن الضغائن لما كان اكتفى بنفي ذلك الشخص. لم يظهرالخليفة أيّ تقدير من داخله لمشاعر الرسولﷺ. فقد كان يعرف كم عانى وكم تحمّل بسبب هذا الشخص وأمثاله. وكان يُفترض بالخليفة أن يوالي مَن والى الرسولﷺ ويعادي مَن يعاديه، وهذا ما يتوقعه كل المسلمين[2].

وكان من حق الجميع أن يتساءلوا عما كان يدور في دخيلة نفس الحكم بن أبي العاص، وبنيه، أثناء السنوات الطويلة التي أمضاها منفياً معزولاً بأمر الرسولﷺ. وطبعاً كان منطقياً الاستنتاج أنه كان يراكم حقداً على حقد، وبُغضاً

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦٤.

(٢) وقد قدم عثمان تبريره لردّ الحكم هذا امام كبار الصحابة على أساس أنه قد تاب! وان أبا بكر وعمر لو كان لهما قرابة مثله لفعلا نفس الشيء! وادّعى أخيرا أنه يعطيه من ماله الخاص. جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص ١٠٩٢«ونقمتم عليّ إيوائي الحكم بن أبي العاص. وإن رسول الله قد كان يقبل توبة الكافر، وإن الحكم تاب فقبلت توبته. ولعمري أنه لو كانت ثمت لأبي بكر وعمر مثل رحمه بي لآوياه. ونقمتم عليّ أني وصلته بمالي. والله ما هو إلاّ مالي».

على بغض، للرسول ﷺ. ولم يكن ممكناً أن يصدّق عاقل أن الحكم بن أبي العاص انقلب الى صدّيق حتى يجود عليه الخليفة بالخزّ والطيلسان! وكان ممكناً للمسلم أن يتصوّر أن الحكم بن أبي العاص قد قال لنفسه أنه أخيراً انتصر على محمد ﷺ بعودته الظافرة تلك!

وأغدق عثمان الأموالَ على عمّه الحكم، فأعطاه صدقات قضاعة البالغة ثلاثمائة ألف دينار! وابن عمه الحارث بن الحكم بن أبي العاص كان له أيضاً نصيبٌ من أعطيات عثمان. فقد منحه إبلاً للصدقة! ومنح عثمانُ سعيدَ بن العاص مائة ألف درهم![1]

وامتدّ كرم الخليفة الحاتمي الى ابن عمه مروان! فكتب الى عبد الله بن أبي السرح يأمره بتقديم خمس غنائم افريقيا الى مروان بن الحكم بعد أن زوّجه ابنته![2]

«وزوّج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد، وأمَرَ له بستمائة ألف درهم وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة»[3].

وكان عثمان يقوم باستلاف الأموال من بيت مال المسلمين دون أن يقوم بقضائها. وقد وزّع مرّة سفطاً من الحليّ كان في بيت المال على بعض أهل بيته، فأثار غضب الصحابة عليه مما دفعه إلى القول: «هذا مال الله! أعطيه مَن شئتُ وأمنعه مَن شئتُ»[4].

ولا شك أن الكثير من المسلمين كانوا يراقبون تصرفات عثمان باستهجان وعَجَب، ولا يدرون لماذا يقوم الخليفة بتوزيع أموال المسلمين على العائلة الأموية بلا مراعاة لمبادئ العدل.

---

(١) «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم ص٩٨ـ٩٩ نقلا عن البلاذري واليعقوبي.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦٦. وأيضاً تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٨٧. وكذلك ذكر عدنان ملحم في «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» ص٩٨ نقلا عن البلاذري وابن سعد والإمامة والسياسة والعقد الفريد.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦٨. وروى الطبري ج٣ ص٣٨٢ أن عثمان أعطى عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفا.

(٤) «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم ص١٠١ نقلا عن البلاذري.

ومتابعة لسيرة عثمان مع آل أبي العاص، فقد تحوّل مروان بن الحكم بن ابي العاص، الى ما يقرب من رئيس وزراء فعلي للدولة الاسلامية! وقد استنكر عليّ بن أبي طالب، وغيره من كبار الصحابة، وضع مروان الجديد. وحاولوا ثني عثمان عن استعمال بطانة السوء، وخاصة مروان، دون جدوى. قال له علي بن أبي طالب في أحد المواقف «أما رضيتَ من مروان ولا رضي منك الأ بتحرّفك عن دينك وعن عقلك. مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به.

والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه... أذهبتَ شرفك وغلبتَ على أمرك»[1].

لقد استغنى عثمان عن الاستعانة بكبار الصحابة من سكان المدينة، واكتفى بمروان بن الحكم الذي جعله مستشاره وكاتم سرّه ووزيره. ولم يعد عثمان يستشير إلاّ خاصته من بني أمية ولا يستمع إلاّ لهم.

وانتقل عثمان إلى مرحلة جديدة وحاسمة في بنائه لمملكة بني أمية: تعيينهم في المناصب العليا في الأقاليم الرئيسية لدولة الإسلام: العراق (بولايتيه الكوفة والبصرة، وامتدادهما في بلاد فارس) والشام ومصر، حيث تتركز كل مصادر الثروة والقوة.

٢ـ الخليفة يولّي الفاسق: ابن أبي مُعيط

ففي الكوفة قام عثمان بتعيين الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي (وهو أيضاً أخوه لأمّه) في منصب الحاكم عام ٢٤ للهجرة بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص. وبقي الوليد في ذلك المنصب حتى عام ٣٠ للهجرة.

وكان أبوه، عقبة بن أبي معيط، معروفاً بين كل المسلمين بشدّة عدائه لرسول الله ﷺ وإيذائه له في مكة إلى درجة فاقت الآخرين من سادة قريش في مكة. وكان من حدّة عدائه للرسول ﷺ أنه قد أمر بإعدامه هو وبضعة أشخاص من بين أسرى قريش يوم بدر، ونفّذ الحُكم.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٩٧.

جاء في سيرة ابن هشام:

«وأبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وعقبة بن أبي معيط، وكانا متصافيين، حَسَناً ما بينهما. فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله(ص) وسمع منه. فبلغ ذلك أبيًا فأتى عقبة فقال: ألم يبلغني انك جالستَ محمدا وسمعتَ منه؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلّمك ـ واستغلظ من اليمين ـ إن أنتَ جلستَ إليه أو سمعتَ منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه!

ففعل ذلك عدو الله عتبة بن أبي معيط لعنه الله.

فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا إلى قوله تعالى للإنسان خذولا﴾[1].

وأما الوليد نفسه، كما أبوه، فكانت سيرته أيضاً من أسوأ ما يكون!

هناك إجماعٌ بين المفسّرين أن الآية القرآنية ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[2] نزلت فيه.

وفيما يلي ملخص ما ورد في تفسير ابن كثير[3].

فقد اتفق الحارث بن ضرار الخزاعي، بعد أن وفد على الرسول(ص) ودخل الإسلام، مع الرسول(ص) على أن يعود إلى قومه ـ بني المصطلق ـ ليجمع صدقاتهم، وأن يرسل الرسول(ص) إليه مَن يقبضها منه. وفعلا جمع القوم صدقاتهم وأخذ الحارث ينتظر مندوبَ الرسول(ص)، بلا جدوى. وأخيرا قرر أن يذهب بنفسه إلى الرسول(ص) ليعطيه الصدقات وليسأله عن السبب الذي جعله لا يرسل إليه أحداً كما اتفقا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١٤.

(٢) الآية ٦ من سورة الحجرات. وقد ذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص١١٧ أن الآية نزلت في الوليد.

(٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٢٤. وذكر ذلك أيضا الواحدي في أسباب النزول ص٢٦١ وفيه أيضا أن الوليد كان بينه وبين بني المصطلق عداوة قديمة.

ولكن في الواقع فإن الرسولﷺ قد قام بالفعل بإرسال مندوبه إلى بني المصطلق، وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط. ولكن الوليد هذا أتى الكذب على رسول اللهﷺ فعاد وأخبره ـ كذباً ـ أنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتله. فغضب الرسولﷺ وقرر أن يرسل بعثا عسكرياً إلى الحارث.

ولحسن الحظ لاقت بعثة الرسولﷺ الحارثَ متجهاً إلى رسول اللهﷺ مع صدقاته. فثبت كذب الوليد، ونزلت الآية تحكم عليه بالفسق وسوء النية، وتأكد رسول اللهﷺ أن الوليد هذا لا يستحق تلك الفرصة التي منحها له لكي يُصبح له قيمة في مجتمع الإسلام بدلاً من أن يظل موسوماً برداءة أبيه.

وأيضا ذكر الواحدي»إن قوله تعالى (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً؟ لا يستوون) نزلت في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي قال له: أنا أحَدّ منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك.

فقال له عليّ: اسكت فإنما أنت فاسق. فنزلت الآية»[1].

وأثار قرار عثمان بتعيين الوليد بن عقبة والياً على الكوفة استياءً عاماً، إذ كان معروفاً بفسقه وفجوره وشربه للخمور. وقد ازدادت صورته سوءً بعد توليه إدارة شؤون الكوفة، فعُرف بتقريب صديقه النصراني أبي زبيد، الذي أنزله في دار الضيافة بالقرب من منزله، وأدخله المسجد برغم نصرانيته، وأقام له الموائد الشهرية التي تتصدرها الخمور. وتمادى الوليد في تجاوزاته، فأدخل أحد السَحَرة إلى المسجد ليقيم ألعابه، مما أثار الناس عليه، حتى وصل الخبر إلى المدينة[2].

وقد أقام عثمان عليه الحد ـ بعد أن حاول أن ينافح عنه ويدافع ويجادل[3] ـ لما شرب الخمر في حضور سُمّاره وشهد عليه الشهود. وقد بلغ به التهتك أنه صلى

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٢٣٦. وكذلك ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٦٣ ص٢٣٥.

(٢) ملخص مما رواه البلاذري، نقلا عن «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» ص ١٣٤ لعدنان ملحم.

(٣) ويروى أن الخليفة ضرب الذين شهدوا على الوليد بشرب الخمر لأول مرة. ذكر ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٧ ص٢٣٣ وفيه ان الناس قالوا لعثمان لما ضرب الرجل الذي شهد «عطلت الحدود وضربت الشهود».

بالمسلمين الصبحَ أربعَ ركعات وهو مخمور. فلما نبّهوه قال: هل أزيدكم؟[1] وقد اضطروا أن ينزعوا خاتمه من يده، وهو لا يدري من كثرة الشرب، كدليل يحملونه لعثمان على سُكره. والذي نفّذ به حد الجلد هو علي بن أبي طالب بالذات (يبدو أن الآخرين هابوا أن يضربوه مراعاة لعثمان).

روى ابن أبي الحديد التفاصيل:

«.... فشربَ بالكوفة، وقام ليصلي بهم الصبحَ في المسجد الجامع.

فصلى بهم أربعَ ركعات!

ثم التفتَ إليهم فقال: أزيدكم؟

وتقيأ في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته في الصلاة:

علق القلب ربابا بعدما شابت وشابا

.... فجاءا يوماً ولم يحضر الوليد الصلاة، فسألا عنه، فتلطفا حتى علما أنه يشرب، فاقتحما الدار فوجداه يقيئ. فاحتملاه وهو سكران حتى وضعاه على سريره، وأخذا خاتمه من يده....

.... خرج رهط من أهل الكوفة إلى عثمان في أمر الوليد.

فقال: أكلما غضب رجلٌ على اميره رماه بالباطل؟! لئن أصبحتُ لأنكلنّ بكم.

فاستجاروا بعائشة.

.... إن الشهادة لما تمت قال عثمان لعليّ: دونك ابن عمك، فأقِم عليه الحد...»[2].

(١) هذه الحادثة مذكورة في كل كتب التاريخ. مثلاً: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٨٤، وأيضاً ذكرها الشيخ سيد سابق في «فقه السنة» ص١٧٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٧ ص٢٣٠ ـ ٢٣٤.

واشتهرت حادثة صلاة الوليد بن عقبة بالناس وهو سكران وذاعت. وأصبحت مثار تندّر حتى قال الشاعر[1]:

نادى وقد تمّت صلاتهم ... أأزيدكم؟ ثملاً وما يدري

ليزيدهم خمساً ولو فعلوا ... لأتت صلاتهم على العشر

٣- واستبدل الخليفة امويا بأموي آخر

وفي عام ٣٠ للهجرة قام عثمان باستبدال الوليد بن عقبة في منصب والي الكوفة بسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية.

وكان سعيد بن العاص هذا قد نشأ في حجر عثمان.

هو صاحب مقولة: إنما هذا السواد بستان قريش! في الكوفة.

جاء في ترجمته:

وقبض رسول الله ﷺ وسعيد بن العاص ابنَ تسع سنين.

كان أبوه العاص بن سعيد قد قتل كافراً في يوم بدر، قتله عليّ بن أبي طالب.

ولما عزل عثمان الوليدَ بن عقبة عن ولاية الكوفة، استعمل مكانه سعيدَ بن العاص:

«فلما قدم الكوفة قدمِها شاباً مُترفاً ليست له سابقة.

فقال: لا أصعد المنبر حتى يُطهر! فأمر به فغسل.

ثم صعد المنبر فخطب أهل الكوفة وتكلم بكلام قصر بهم فيه ونسَبهم إلى الشقاق والخلاف. فقال: إنما هذا السواد بستانٌ لأغيلمةٍ من قريش»[2].

وعبّر شاعرٌ عن رأي الناس في التعيين الجديد[3]:

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٣ ص٢٢٠.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٣٢. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢١ ص١١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٧ ص٢٤٢.

فَرَرتُ من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ فزعوا فباروا
يلينا من قريش كل عامٍ أميرٌ محدث أو مستشار
لنا نارٌ تحرقنا فنخشى وليس لهم ـ ولا يخشون ـ نار

ومن المؤكد أن هذا التعيين الجديد سبّب خيبة أمل شديدة في أوساط الكوفيين. فما يرونه أمامهم هو مجرد تغيير في الاسم، لا في المضمون. فالوالي الجديد يشترك مع الوليد في المعالم الرئيسية: فكلاهما من أقرباء الخليفة من العائلة الأموية. وكلاهما ابنٌ لواحد من أشرس أعداء رسول الله ﷺ ممن قتلهم علي بن أبي طالب يوم بدر. وكلاهما رمزٌ لقريش وسلطانها.

وبعد كل تلك المشاكل والفضائح التي سببها الوليد بن عقبة في الكوفة، كان من المتوقع أن يعين الخليفة والياً له خبرة واستقامة لإصلاح الضرر. ولكن عثمان لم يفعل، وفضل تعيين قريبه الشاب في ذلك المنصب الحساس.

٤ـ الخليفة يصِلُ رحِمه على حساب البصرة

وفي البصرة عيّن عثمان عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس (هو ابن خاله ومن عائلته ـ من بني عبد شمس). والياً على البصرة عام ٢٩ للهجرة بعد أن عزل أبا موسى الأشعري. وولاّه أيضاً بلادَ فارس بعد عثمان ابن أبي العاص[١].

ولد عبد الله بن عامر في مكة في السنة الرابعة للهجرة، وولاّه عثمان البصرة وهو في الخامسة والعشرين من عمره. وكتب عثمان إلى أبي موسى الأشعري أنه لم يعزله عن منصبه لعجز أو خيانة «ولكني أردتُ أن أصل قرابة عبد الله بن عامر»[٢].

«وعزل أبا موسى الأشعري وولّى مكانه عبد الله بن عامر بن كريز وهو يومئذ

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص١٩١.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٤٥. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٣٢ ص٨٢.

ابن خمس وعشرين سنة. فلما بلغ أبا موسى ولاية عبد الله بن عامر قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه ثم قال: قد جاءكم غلامٌ كثير العمات والخالات والجدات في قريش، يفيض عليكم المال فيضاً»[1].

«وهو أول مَن لبس الخز بالبصرة. لبسَ جُبة دكناء فقال الناس: لبس الأميرُ جلد دُب، فلبسَ جُبة حمراء»[2].

وقد ذكر البغدادي حادثة طريفة يظهر منها مدى الاستهتار الأموي بولاية أمر الناس في ظل عثمان:

«استأذن عامر بن كريز عثمان في زيارة ابنه عبد الله في البصرة، فأذن له. فشخص إليه.

فلما صعد عبد الله المنبر وكان خطيباً، أخذ عامر يذكر نفسه وجعل يقول لمن يليه: أترونَ أميركم هذا؟ مِن هذا خرَج، وأشارَ إلى متاعه!

فلم يدعه عبد الله يقيم، وأحسنَ جهازه وسَرّحَه إلى المدينة خوفَ الفضيحة»[3].

٥- عثمان يعيّن المرتد القديمَ حاكماً لمصر

وفي مصر عيّن عثمان عبدالله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري، وهو أخوه من الرضاعة، حاكماً لمصر بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص عام ٢٥ للهجرة[4].

جاء في السيرة النبوية عن ابن أبي السرح«أنه قد كان أسلم، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فارتدّ مشركاً راجعاً إلى قريش»[5]، فكان يقول لهم: «اني

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٦٦.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص١٩١.

(٣) كتاب المنمق في اخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي ص٣٩٠.

(٤) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص١٧٣.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٤٤.

أصرفُ محمداً حيث أريد. كان يُملي عليّ (عزيزٌ حكيمٌ) فأقول (عليمٌ حكيمٌ)».

وفي رواية أخرى أنه قال: «أنا أقول كما يقول محمد وآتي بمثل ما يأتي به».

وفيه أنزلت الآية (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) وذلك حين دعاه رسول الله ﷺ ليكتب له آية خلق الإنسان حيث قال: «لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، ولئن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال. وارتدّ عن الإسلام»[1].

وروى الواقدي أن ابن أبي السرح ارتدّ ورجع ليقول لقريش«ما كان يعلّمه إلاّ ابن قمّطة، عبدٌ نصرانيٌ. قد كنتُ أكتب له فأحوّلُ ما أردتُ. فأنزل الله عز وجل ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشرٌ لسان الذي يلحدون إليه أعجميٌ وهذا لسانٌ عربيٌ مبينٌ﴾»[2].

وذكر ابن الأثير «فلما كان يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بقتله وقتل عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، ففر عبد الله بن سعد الى عثمان بن عفان فغيّبه عثمان، حتى أتى به رسول الله ﷺ بعدما اطمئن أهل مكة فاستأمنه له، فصمتَ رسول الله ﷺ طويلاً، ثم قال نعم.

فلما انصرف عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله: ما صَمَتّ إلاّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجلٌ من الأنصار: فهلاّ أومأت اليّ يا رسول الله؟ فقال: إن النبيّ لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين»[3].

وكذلك جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد «إن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابن أبي سرح يوم الفتح... وكان رجلٌ من الأنصار قد نذر إن رأى ابن أبي سرح أن يقتله فجاء عثمانُ وكان أخاه من الرضاعة فشفع له إلى النبي ﷺ وقد أخذ الأنصاري بقائم السيف ينتظر النبي متى يومئ إليه أن يقتله، فشفع له عثمان حتى تركه. ثم قال رسول الله ﷺ للأنصاري: هلاّ وفّيتَ بنذرك؟ فقال: يا رسول الله! وضعتُ يدي على قائم السيف أنتظر متى تومئ فأقتله.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٤٨.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٧٤ والآية رقم ١٠٣ من سورة النحل.

(٣) ابن الأثير في أسد الغابة ج ص١٧٣. وكذلك ورد في الاصابة لابن حجر ج٤ ص ٩٥.

فقال النبي ﷺ: الإيماء خيانة، ليس لنبي أن يومئ»[1].

فرغم هذه الخلفية الحافلة لابن أبي السرح، لم يرَ الخليفة بأساً في تعيينه في منصب رفيع جداً وحساس.

ومن المشروع تماماً التفكير في وقع ذلك الخبر على عامة المسلمين؟

٦ـ ومعاوية يتضخم بفضل عثمان

وفي الشام، وسّع عثمان ولاية وصلاحيات ابن عمه معاوية بن أبي سفيان. فبعد أن كان عمر بن الخطاب قد أقر معاوية على مدينة دمشق، أو «بعض الشام» بتعبير بعض المؤرخين، وكان قد عيّن عمير بن سعد على حمص، جاء عثمان فجمع له عثمان «الشامات» كلها: دمشق وحمص والجزيرة والأردن وفلسطين!

وكان موضوع ولاة عثمان، وبالأخص معاوية، من الأمور التي يلح عليّ بن أبي طالب على عثمان بشأنها ويطالبه بعزل هؤلاء. وكان عثمان يحتج بأنه يصل رحمه وقرابته، وبأن عمر بن الخطاب كان قد ولّى معاوية. وفيما يلي الحوار:

«... قال عليّ: سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل مَن ولّى فإنما يطأ على صماخه. إن بلغه عنه حرفٌ جَلَبَه ثم بلغ به أقصى الغاية. وأنت لا تفعل. ضعفتَ ورفقتَ على أقربائك.

قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً!

فقال علي:: لعمري أن رحمهم مني لقريبة. ولكن الفضل في غيرهم.

قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولّى معاوية خلافته كلها؟ فقد وليته.

فقال علي: أنشدك الله! هل تعلم أن معاوية كان أخوفَ من عمر، من يرفأ، غلام عمر، منه؟

قال: نعم.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٤١.

قال عليّ: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها. فيقول للناس: هذا أمر عثمان. فيبلغك ولا تغير على معاوية»[1].

*****

الدولة الأموية قامت بالفعل

وفي السنوات الأخيرة من حكم عثمان تحوّل الأمر من المواربة إلى العلانية! ولم يتورّع مروان بن الحكم نفسه عن قولها علانية: إنه المُلك الأمويّ الصريح!

فقد قال مروان أمام وفود أهل الكوفة والبصرة ومصر إلى المدينة عام ٣٥ للهجرة:

«جئتم تريدون أن تنزعوا مُلكنا من أيدينا. أخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرّنّ عليكم أمر يسؤكم. ولا تحمدوا غبّه. ارجعوا إلى منازلكم: فوالله ما نحن مغلوبين على ما بأيدينا»[2].

ولذلك كله، فمن الممكن جداً أت تكون رواية ابن أبي الحديد صحيحة:

«قال أبو سفيان في أيام عثمان، وقد مرّ بقبر حمزة، وضربّه برجله وقال: يا أبا عمارة: إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به»[3].

وعندما قتل عثمان، كان قد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل، بفضل ما أرسى لها من جذور في الأرض، وبخاصّة في الشام، وبفضل ما مكّن للمبادئ الأموية المجافية لروح الاسلام، من اقامة الملك الوراثي والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع مما، أحدث خلخلة في الروح الاسلامي العام. فرجال عثمان وأعمدة حكمه كانوا

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٧٧.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٩٣.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص١٣٦. وفي رواية المقريزي، ص٨٧ من النزاع والتخاصم، إضافة على لسان أبي سفيان «وكنا أحق به من تيم وعدي».

كلهم من العناصر التي لها عداؤها القديم لرسول الله ﷺ، أو أبناء هؤلاء. وكانوا من أقربائه اللصيقين من العائلة الأموية، وبعضهم كان بلا أي خبرة إدارية سابقة.

كان الأمويون على أتم استعداد وجاهزية لاهتبال الفرصة الذهبية التي يوفرها لهم الخليفة عثمان. فتحت الأبواب أمامهم وأشرعت للوصول إلى قمة الهرم ومفاصل الحكم والإدارة في الدولة، ولم يكونوا في وارد إضاعة هذه الفرصة الثمينة التي ربما لا تتكرر. وكانت القيادات الأموية من العناصر الشابة، الذكية والقوية، تعلم أن شيخها لن يدوم لها طويلاً. فعثمان رجلٌ عجوز وبالتالي ينبغي التصرف بسرعة وتركيز من أجل تحقيق أكبر قدر من الاستفادة من الموارد اللامحدودة والهائلة التي تتدفق على خزينة الدولة، والتي أصبحت فعلياً بين أيديهم. ونجح الأمويون، وبالأخص معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم، في السيطرة تماماً على أجهزة الحكم في الدولة: الإدارية والتنظيمية والعسكرية، وقاموا ببناء شبكة واسعة من «قيادات الصف الثاني «المرتبطة مصلحياً وعضوياً بهم، لتعمل معهم وفي خدمتهم. وفي كل بلاد المسلمين، أوجدَ الأمويون طبقة تدين لهم بالولاء ولا ترى مستقبلها إلا معهم ولا تعرف رؤساء لها سواهم.

*****

وإزاء سياسة عثمان هذه تجاه أقربائه، يجدُ الباحثُ نفسَه مضطراً لإجراء مقارنة بينه وبين الخليفتين الذين سبقاه.

فأبو بكر قال «إن رسول الله ﷺ قال: مَن ولي من أمر المسلمين شيئاً، فأمّرَ عليهم أحداً محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم. ومَن أعطى أحداً حمى الله فقد انتهك في حِمى الله شيئاً بغير حقه فعليه لعنة الله أو قال تبرأت منه ذمةَ الله عز وجل»[1].

تلك كانت سياسة أبي بكر، بالقول والفعل. وكذلك كان عمر بن الخطاب.

فالبَون شاسعٌ، والفارق هائل بين سياسة الشيخين، وسياسة الخليفة الثالث.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٦.

ظهور الشكوى من سياسة عثمان

كبار أصحاب الرسول يتصدون لعثمان

تصدّى عددٌ من كبار صحابة الرسولﷺ، ذوي الماضي الإسلامي العريق والبارز، لعثمان بن عفان. كانت شخصيات معروفة وذات مكانة عالية في الإسلام، ممن تمتلك مؤهلات شرعية مرموقة ترى أمام أعينها مدى الانحراف عن السياسة النبوية الذي كان الخليفة يمارسه. وبدأت الضغوطات على عثمان على شكل نصائح، وملاحظات وطلبات من أجل التوقف عن تطبيق سياسة الانفراد والهيمنة الأموية على الدولة.

ويمكن تمييز نوعين من ردود الفعل من جانب عثمان:

فبالنسبة لكبار الصحابة من ذوي النسَب القرشيّ، كانت ردود فعل الخليفة تتراوح ما بين الاستجابة الجزئية لبعض المطالب، وبين الإعراض والتجاهل. وفي بعض المواقف التي استجاب فيها عثمان لمطالب كبار الصحابة، وبالأخصّ علي بن أبي طالب، كانت استجابته شكلية دائما، ولم تمسّ جوهر سياسته وتوجهاته.

وفيما يتعلق بعلي بن أبي طالب بالذات، فقد كانت علاقته في معظم الأوقات متوترة مع الخليفة عثمان، نظرا لما كان يراه من فساد سياسته وحكمه، وإصراره على مجابهة عثمان مباشرةً. وكان عثمان لا يستسيغ ذلك ولا يطيقه إلاّ على مضض. وقد روى ابن عساكر أن علياً قال لعمّه العباس الذي حاول أن يتدخّل ليلطّف الأجواء بينهما:

«... فأمّا أداهنُ أن لا يُقامَ بكتاب الله، فلم أكن لأفعل»[1].

ولكن عثمان، مع امتعاضه وغضبه، لم يكن ليستطيع أن يوقع عقاباً مباشراً بعليّ، عدا عن تهميشه وتجاهله. وروى ابن عساكر أيضاً أن الناس كانوا يأتون علياً

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص٢٦٤.

ليشكوا إليه ولاة عثمان، فكتب عليّ صحيفة وأرسلها إلى عثمان فردّها ولم يستجب. وألقى ابن شبة مزيداً من الضوء على العلاقات المتوترة بين عليّ والخليفة عثمان، وكيف أن عثمان كان يقول بأن الطاعنين عليه «يتخذون علياً عضداً» ويعتبرونه «كهفاً» لهم، وكيف أن الأوساط المحيطة بعثمان كانت ذات موقف شديد العداء لعليّ، فيصفونه بـ«أبي تراب»[1] ويتهمونه بأنه «رأس الطعن» على الخليفة.

وهذا السلوكُ الفاعلُ والقوي، من عليّ تجاه عثمان يختلف عن سلوكه تجاه الخليفتين أبي بكر وعمر. فلم يُروَ أنه كان يجابههما بانتقادات حادة فيما يتعلق بالشؤون العامة.

وأما بالنسبة للصحابة من ذوي الأصول المتواضعة، الموالي وذوي الأصول غير القرشية، أظهر عثمان مقداراً كبيراً من البطش والقسوة! وتجاوز عثمان الحدود وراح يوقع عقاباً مالياً، جسدياً عنيفاً على الذين واجهوه وأعلنوا رفضهم لمنهاجه، وصل إلى حد الموت!

ومن أشهر الحوادث التي ميزت عهد عثمان، تلك التي حصلت لأبي ذر الغفاري، عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر.

أبو ذر الغفاري: صراعهُ مع عثمان ومعاوية ونفيُه ووفاته

كان أبو ذرّ من الشخصيات المميزة فعلاً في ميزان الشرعية الإسلامية. فقد كان له فضلٌ لا يتوفر لغيره، وهو فضل السعي الذاتي للحقيقة والإيمان. فهو كان من قبيلة غفار، البعيدة عن مكة، ولكنه كان يمتلك نفساً تسعى للحقيقة وتتوق للوصول إلى سبيل الهداية. كانت نفس أبي ذر تأبى وتستنكر ما شاع بين الناس في الجاهلية من شرك وضلال. ولذلك فعندما سمع من بعض الحجاج أن هناك رجلاً يقول إنه نبيّ في مكة، أثاره ذلك إلى حد أنه أرسل أخاه إلى مكة ليأتيه بخبره. ولما عادَ لم يشفِ

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٤٤ـ١٠٤٨. و«أبو تراب» هو اللقب الذي سيعتمده معاوية بن أبي سفيان وجماعته لوصف علي بن أبي طالب وشتمه.

غليل روحه الظامئة إلى الحق، فشدّ الرحال إلى مكة ووصلها في أحلك الظروف سواداً على رسول الله(ص)، حين كان يعاني الأمرّين من جبّاري قريش. فأخذ يبحث عن النبي(ص)، وهو غريبٌ في مكة، إلى أن التقى صدفةً بعليّ بن أبي طالب الذي أخذه حتى أتى النبي(ص) فسمع منه وآمنَ به فوراً. وكانت أهم خصال أبي ذر هي الزهد والصدق، ولذلك ليس غريباً أن يصفه الرسول(ص) ويمدحه على النحو التالي:

«عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسول الله(ص) يقول: ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»[1].

هاجم أبو ذر سياسات عثمان المالية. فهو كان يؤمن أنه يطبّق وصايا رسول الله(ص) له[2]. وقد روى البخاري[3] أنه كان يمرّ على «الملأ من قريش» وهو بهيئة خشنة، فيهددهم بالعذاب في النار يوم القيامة لأنهم من كانزي الأموال ويقول عنهم «إنهم لا يعقلون شيئاً»، فكانوا يكرهون كلامه.

وقد أورد ابن شبة النميري حواراً عاصفاً بين أبي ذر والخليفة عثمان اتهم خلاله أبو ذر الخليفة ومَن معه بأنهم انحرفوا عن عهد رسول الله(ص) و«أصابوا من الدنيا»[4].

ولم يكن ذلك الإصرار من أبي ذر على تبليغ حديث النبي(ص)، مهما كان الثمن باهظاً، غريباً عليه. فهو قال: «أمرنا رسول الله(ص) أن لا يغلبونا على ثلاث: أن نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونعلّم الناس السُنن»[5] وهذا ما كان يفعله أبو ذر

---

(١) سنن ابن ماجه ج١ ص٥٥.

(٢) روى الذهبي في سير أعلام النبلاء ج٢ ص ٦٢ أن أبا ذر قال «بايعني رسول الله(ص) خمساً، وواثقني سبعاً، وأشهد الله عليّ سبعاً: ألا أخاف في الله لومة لائم».

(٣) صحيح البخاري باب ما أدى زكاته فليس بكنز ج٢ ص١٣٣.

(٤) وكذلك روى الذهبي في سير أعلام النبلاء ج٢ ص٦٨ـ٦٩ تفاصيل عن نفي عثمان لأبي ذر إلى الشام بعد ذلك الحوار الذي لجأ خلاله عثمان إلى الاستشهاد بمستشاره كعب الأحبار ليؤكد أنه ليس على المسلم أكثر من دفع الزكاة، بينما أصر أبو ذر على أنه لا يجوز للمسلم أن يكتنز المال وأنه قال لكعب الأحبار بحضرة الخليفة: يا ابن اليهودية. وأن عثمان كان يهين أبا ذر عن طريق تركه فترة طويلة ينتظر على بابه لدى استدعائه.

(٥) سنن الدارمي ج١ ص١٣٦.

ومستعد أن يضحّي في سبيله.

كان أبو ذر مصمماً على مواجهة عثمان وبطانته وحاشيه، ومهاجمتهم وفضح انحرافهم أمام عامة المسلمين.

ولا شك أن السلوك الشخصي لعثمان، وثراءه الفاحش، وما عُرف عنه من استمتاعه بمباهج ونِعم الحياة، كان مما يثير أعصاب أبي ذر ويزيد من عزيمته. روى عبيد الله بن عامر «كنتُ أفطر مع عثمان في شهر رمضان، فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر. قد رأيتُ على مائدة عثمان الدرمك الجيد، وصغار الضأن كل ليلة. وما رأيتُ عمر قط أكل من الدقيق منخولاً ولا أكل من الغنم إلاّ مسانّها»[1].

وبناء على تلك المواجهة، قرر عثمان أن يطرده إلى الشام، عند معاوية.

فلما وصل أبو ذر إلى الشام «أخذ بقلوب الناس، فأبكى عيونهم وأوغر صدورهم. وكان فيما يقول: لا يبقين في بيت أحدٍ منكم دينارٌ ولا درهم ولا تِبرٌ ولا فضة، إلاّ شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لغريم».

واستشعر معاوية بالخطر الداهم من وجود رجل مثل هذا الصحابي الجليل، وبهذه الأفكار، عنده في الشام. وبحكم طريقة تفكيره المعهودة، حاول معاوية أن يستكشف إمكانية رشوة أبي ذر، أو إيقاعه بإغراء مالي لكي يفضحه بين الناس ويؤآخذه عليه:

«فبعث إليه معاوية رضي الله عنه جنح الليل بألف دينار. أراد أن يخالف فعله قوله وسريرته علانيته.

فلما جاءه الرسول قسم الألف فلم يصبح عنده منها دينار ولا درهم.

فلما أصبح معاوية رضي الله عنه دعا الرسولَ فقال له: انطلق إلى أبي ذر فقل له: أنقذ لي جسدي من عذاب معاوية، أنقذ الله جسدك من النار، فإنه أرسلني إلى غيرك فأخطاتُ بك.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٣٠.

فقال له أبو ذر: اقرأ على معاوية السلام وقل له: يقول لك أبو ذر ما أصبح عندنا من دنانيرك دينارٌ واحد. فإن آخذتنا بها فأنظرنا ثلاث ليال نجمعها لك.

فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله وسريرته تصدق علانيته كتب إلى عثمان رضي الله عنه: إن كان لك بالشام حاجة فأرسل إلى أبي ذر، فإنه قد أوغر صدور الناس عليك.

فكتب إليه عثمان رضي الله عنه: أن الحق بي»[1].

وفي رواية ثانية أن معاوية كتب لعثمان «إن كان لك في الشام حاجة فأخرج أبا ذر منه، فإنه قد نفل الناس[2] عندي»

وفعلاً قام معاوية بإرسال أبي ذر على وجه السرعة إلى المدينة حيث استقبله عثمان بشكل عدائي ودار بينهما حوار قال فيه أبو ذر:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ إلى آخر الآية. فأمَرَه عثمان رضي الله عنه أن يخرج إلى الربذة فخرج»[3].

وهكذا قرر الخليفة أن يتخلّص من مشكلة أبي ذر، جذرياً. لم يعد عثمان يطيق وجود أبي ذر في عاصمته، ولا في أي مكان مأهولٍ من دولته، فكان قرار النفي القاسي، إلى مكانٍ موحشٍ مقفر، حيث لن يجدَ أبو ذر مَنْ يستمع إليه من المسلمين لكي «يفسده» بكلامه المتواصل عن الظلم والفساد الّذي غدا سمةً بارزةً لحكم عثمان. ففي الربذة، لمن سيتحدث أبو ذر حول وصايا النبيﷺ بالعدل بين الناس، والزهد والورع؟ ولأن أبا ذر لم تكن له قاعدة قبلية تحميه، لم يتورّع الخليفة عن اتخاذ أقسى العقوبة بحقه، ربما ليجعله عبرةً لمن يعتبر!

كان قرار عثمان هو بالفعل حكم بالموت، ببطء، على أبي ذر.

وأصدر عثمان أوامره بأن لا يخرج أحدٌ لوداع أبي ذر عند مسيره إلى منفاه

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص ١٠٤١.

(٢) نفل الناس أي أفسدهم.

(٣) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص ١٠٣٥.

الموحش. ولكنّ علياً بن أبي طالب تحدّى قرار عثمان وخرج لوداع أبي ذر، هو وولداه الحسن والحسين، ومعهم عمار بن ياسر. وقال له عليّ عندما ودّعه لمّا نفاه عثمان إلى الربذة:

«يا أبا ذرّ، انّك غضبتَ لله، فارجُ مَن غضبتَ له. انّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك. فاترُك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه. فما أحوجهم الى ما مَنعتهم، وما أغناك عما منعوك. وستعلمُ مَن الرابح غداً، والأكثر حسّداً. ولو أن السموات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتّقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً. ولا يؤنسنّك الاّ الحقّ ولا يوحشنّك إلاّ الباطل. فلو قبلتَ دنياهم لأحبّوك، ولو قرضتَ منها لأمنوك»[1].

وبقي أبو ذر مخلصاً في ولائه لعلي بن أبي طالب وداعياً إلى ولايته حتى آخر لحظة في حياته. فقد روى ابن أبي الحديد عن أبي رافع:

«أتيتُ أبا ذر بالربذة أودعه، فلما أردتُ الانصرافَ قال لي ولأناس معي: ستكون فتنة. فاتقوا الله. وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب، فاتبعوه. فإني سمعتُ رسول اللهﷺ يقول له: أنت أول مَن آمن بي وأول مَن يصافحني يوم القيامة. وأنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل. وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين. وأنت أخي ووزيري، وخيرُ مَن أترك بعدي، تقضي ديني وتنجز موعدي»[2].

ولم يلبث أبو ذر في الربذة طويلاً، فمات هناك وحيداً.

عبدالله بن مسعود: خلافه مع عثمان وابن أبي مُعيط وعقابُه

وعبد الله بن مسعود هو أيضاً من الشخصيات الإسلامية البارزة، بامتياز. فقد كان من السباقين الأولين للإيمان بمحمدﷺ في الفترة المكية من دعوته. وبلغ من

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص١٧٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٣ ص٢٢٨.

شدة حماسه للدين الذي آمَنَ به أنه كان أولَ مَن أصرّ على الجَهر بقراءة القرآن على مسامع جبابرة قريش في مكة، فناله أذىً شديداً جراء ذلك.

وابن مسعود كان من الضعفاء في مكة، فهو ذو أصلٍ متواضع، من هُذيل.

جاء في سيرة ابن هشام:

«كان أول مَن جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط. فمن رجلٌ يسمعهموه؟

فقال عبد الله بن مسعود: أنا.

قالوا: إنا نخشاهم عليك. إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دعوني فإن الله سيمنعني.

قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقامَ في الضحى، وقريشٌ في أنديتها، حتى قام عند المقام. ثم قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم) رافعاً بها صوته (الرحمن علّم القرآن) قال: ثم استقبلها يقرؤها.

قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟

قال: ثم قالوا: إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد.

فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ.

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه. فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك.

فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغدينهم بمثلها غدا. قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون»[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٣٢.

وذكر البخاري أنه من كثرة دخوله وخروجه هو وأمه من وإلى بيت النبي ﷺ ظنّه أبو موسى الأشعري من أهل البيت: «قدمتُ أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حينا ما نرى إلاّ أنّ عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيت النبي ﷺ! لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ»[1].

وبدأ الخلاف بين ابن مسعود والخليفة مع قدوم واليه، الفاسق المستهتر، الوليد بن عقبة، إلى الكوفة.

فقد كان ابن مسعود على بيت مال المسلمين في الكوفة (وكان عمر قد ولاّه ذلك) حتى بعث عثمان الوليدَ بن عقبة والياً عليها. فلم يحتمل ابن مسعود عبث الوليد بأموال المسلمين التي اعتبرها أمانة في عنقه.

فقد اقترض الوليدُ مالاً من بيت المال وتأخّر في إرجاعه فطالبه بردّه.

فكتب الوليد إلى عثمان: إنه يعيبك ويطعن عليك.

فكتب عثمان إلى ابن مسعود يقول له «إنما أنت خازنٌ لنا، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال.

فألقى ابن مسعود مفاتيح بيت مال المسلمين وقال: كنتُ أظن أني خازن للمسلمين، فأما إذا كنتُ خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك».

فكتب عثمان للوليد أن يرسله إلى المدينة. ولما وصل ابن مسعود للمدينة تعرّض لعقاب جسدي (ضرب) من قبل الخليفة[2].

«فأمَرَ به عثمانُ، فجُرّ برجله حتى كُسِر له ضلعان»[3].

وكانت العلاقة بين ابن مسعود والوليد في غاية السوء، على الدوام، نظراً لما يراه ابن مسعود من فسق الوليد وفجوره. وقد روى ابن عساكر أن ابن مسعود مرةً،

---

(١) صحيح البخاري باب مناقب عبد الله بن مسعود ج٥ ص٣٥.

(٢) عن «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى»لعدنان ملحم ص١٢٩ نقلا عن البلاذري واليعقوبي.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٧١.

والوليد وال، قد قام فصلّى بالناس لما رأى من تأخر الوليد عن واجب القيام بالصلاة. فغضب الولَيد لما علم وقال لابن مسعود:

«ما حملك على ما صنعتَ؟ أجاءك من أمير المؤمنين أمرٌ أم ابتدعتَ الذي صنعتَ؟

قال: لم يأتنا من أمير المؤمنين أمر. ومعاذ الله أن أكونَ ابتدعتُ. أبى الله ورسوله أن ننتظرك بصلاتنا ونتبع حاجتك»[1].

وجاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري «إن الوليد بن عقبة كتب إلى عثمان رضي الله عنه يبغضه على ابن مسعود وإن عثمان رضي الله عنه سيره من الكوفة إلى المدينة وحرَمَه عطاءه ثلاث سنين»[2].

واستمر هذا العقاب القاسي إلى أن شارف ابن مسعود على الموت. عندها فقط رقّ قلب الخليفة فذهب يعوده عارضاً عليه عطاءه الذي حرمه منه لسنوات طويلة، ولكنه تلقى صفعة مؤلمة من ابن مسعود، صاحب النفس الأَبية:

«لما بلغ عثمان أن عبد الله مريض، حمل إليه عطاءه خمسة عشر ألفاً، وكان عطاء البدريين خمسة آلاف. فدخل عليه عثمان رضي الله عنه فقال: كيف تجدك؟

قال: مردود إلى مولاي الحق.

قال: يرحمك الله. كأنها ظنة، هذا عطاؤك خمسة عشر ألفا فاقبضه.

قال: منعتنيه إذ كان ينفعني! فأنا آخذه منك يوم القيامة.

فانصرف ولم يقبل عطاءه»[3].

وقد بلغ من شدة كره ابن مسعود للخليفة وشعوره بالظلم أنه أوصى ألاّ يصلي عليه عثمان! فجاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري:

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٣ ص٢٤٠.

(٢) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٤٩. وذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص١٦١ أن عثمان حرم ابن مسعود عطاءه لمدة سنتين وأن الزبير ذهب إلى عثمان وطالبه بعطاء ابن مسعود بعد موته وقال له « أعطني عطاء عبد الله. فأهل عبد الله أحق به من بيت المال».

(٣) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٥١.

«أوصى عبد الله إلى الزبير وأمَرَه ألاَّ يصلّي عليه عثمان.

فلما مات عجّله.

وانتهى عثمان رضي الله عنه إلى القبر حين رفعوا أيديهم من التراب.

فقال: يا زبيرا لم لم تؤذِن أمير المؤمنين ولم تعلمه؟

قال الزبير: إنما كرامة الميت تعجيله.

فقال عثمان رضي الله عنه: فعلتَ هذا عمداً، لم يكن بك تعجيله. لولا أن تكون سنة لنبشته حتى أصلي عليه. فقال الزبير: ما كنتَ تصل إلى ذاك. وتفرقا»[1].

وواضح من النص كيف أن الخليفة شعر بإهانة عظيمة بسبب وصية ابن مسعود إلى حد انه فكر بإخراجه من القبر ليصلي عليه ثم يعاد دفنه!

وكان مما فاقم من كره ابن مسعود لعثمان وسياساته، ما سبق وقرره عثمان من إحراق مصحفه بالعراق، واعتماد المصحف الذي أوكل مهمة نسخه لزيد بن ثابت، الذي اعتبره ابن مسعود غير مؤهل البتة لهكذا مهمة.

فقد كان ابن مسعود من أبرز المتعمقين بالقرآن، قراءته وتلاوته وأسباب نزوله وعلومه.

جاء في سنن الترمذي «عن عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة»[2].

وبعد وفاة الرسول ﷺ، أصبح ابن مسعود عَلَماً يلجأ إليه عامة المسلمين، من أهل العراق خاصةً، ليتعلموا القرآن. وكان ابن مسعود قد كتب المصحف، بنفسه ويده، كما سمعه من رسول الله ﷺ. وكان فخوراً جداً بمصحفه الذي كان يعتني به

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٥٠. وروى خليفة بن خياط في طبقاته ص٤٧ أن الزبير بن العوام هو الذي صلى على ابن مسعود بعد وفاته. وروى اليعقوبي ج٢ ص١٧١ مثل هذه الرواية ولكن فيها أن الذي صلى على ابن مسعود ودفنه كان عمار بن ياسر.

(٢) سنن الترمذي باب مناقب عبد الله بن مسعود ج٥ ص ٣٣٨ رقم ٣٨٩٨.

كثيراً ويعلمه للناس في العراق مع شروحاته لأسباب نزول الآيات وسيرة النبيﷺ.

ولذلك كان غضب ابن مسعود شديداً بسبب حرق مصحفه هو، واعتماد مصحف زيد بن ثابت «قيل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما لك لا تقرأ على قراءة فلان؟ فقال: لقد قرأتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة فقال لي: لقد أحسنت، وإن الذي يسألوني أن أقرأ على قراءته في صلب رجل كافر»[1].

فعبد الله بن مسعود لم يصدّق أن عثمان يختار زيد بن ثابت بالذات لهكذا مهمة حساسة! فرسول اللهﷺ كان أكبر من زيد بأربعين سنة على الأقل[2]، وبالتالي لم يكن زيد، بنظر ابن مسعود، قد خالط رسول اللهﷺ بما يكفي لكي يختاره عثمان من بين بقية الصحابة الأكبر، والأعلم بالقرآن منه. فقد جاء في سيرة ابن هشام أن زيداً كان حَدثا صغيراً يوم أحد، حتى أن رسول اللهﷺ لم يُجزه لكي يكون في الجيش. وبالتالي فإن زيداً كان عمره حوالي ٣٣ عاما فقط في بداية عهد عثمان، على افتراض أن عمره يوم أحد كان ١٣ عاماً.

وهكذا كانت نهاية عبد الله بن مسعود، محزنةً، وإن كانت أقلّ ماساويةً من نهاية أبي ذر. وبنظر الكثيرين فأن الخليفة كان يتحمل بشكلٍ أو بآخر، مسؤولية كل ما جرى لآبن مسعود.

ما حصل لعمار بن ياسر على أيدي الخليفة عثمان

وعمار بن ياسر من المشهورين في السبق للإسلام، هو ووالداه. وكانوا من المستضعفين في مكة، من حلفاء بني مخزوم. وبعد دخولهم في الإسلام تعرّضوا لتعذيب فظيع على أيدي جبابرة قريش، وبني مخزوم بالأخص، مما أدى إلى اسشهادَ أبويه الذين قتلا وهما تحت التعذيب من أبي جهل وأضرابه. وأما عمار فقد عذبه القرشيون حتى اضطرّوه أن يشتم محمداًﷺ لكي ينقذ نفسه من الموت. وقد

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص ١٠٠٦.

(٢) ذكر البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص١٠٦ أن زيد بن ثابت شهد الخندق وكان ابن خمس عشرة.

أقرّه النبيﷺ على ذلك وقال له إنه ما دام قلبه مطمئنٌ بالإيمان فلا بأس أن يقول للجبابرة ما يرضيهم. فالرسولﷺ كان يحبّه، وكان يؤلمه جداً ما يتعرّض له عمار من فعلٍ وحشيٍ بسبب إيمانه.

ونتيجة لتاريخه المجيد والمشرّف منذ بدء دعوة الإسلام في مكة، كان النبيﷺ يحتفظ لعمار بمودّة خاصّة، صادرة من أعماق نفسه الكريمة التي كانت لا ترى في عمار ذلك المولى المستضعف ذي الأصل المتواضع، بل نموذجاً للمسلم المثالي، ويظهر ذلك حتى في اللغة التي كان يستعملها النبيﷺ في وصف عمار، فمثلاً:

«جاء عمار بن ياسر يستأذن على النبيﷺ فقال: ائذنوا له. مرحباً بالطيب المطيب»[1].

وكذلك روى المحدثون نبوءة الرسولﷺ بحق عمار:

عن أبي سعيد الخدري، متحدثاً عن اشتغال المسلمين ببناء المسجد «... كنا ننقل لبن المسجد لبنة لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين. فمرّ به النبيﷺ ومسح عن وجهه الغبار، وقال: ويح عمار! تقتله الفئة الباغية. عمار يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النار»[2].

و«عن أم سلمة أن رسول اللهﷺ قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية»[3].

وبعد انتصار النبيﷺ، بقي عمار كارهاً لعظماء قريش ووجوهها، وإلى آخر يومٍ في حياته. كان كلما رأى الطلقاء من وجهاء بطون قريش يتذكر أمه وأباه وكل المستضعفين من أمثاله الذين كانوا يعانون على أيدي هؤلاء الجبابرة.

وكان عمار متمسكاً بشخص رسول اللهﷺ، وآله من بعده. وتمثّل ذلك في

---

(١) سنن الترمذي ص ٣٣٢ ج٥ باب مناقب عمار بن ياسر حديث٣٨٨٨.

(٢) صحيح البخاري باب مسح الغبار عن الناس ج٤ ص ٢٥.

(٣) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة ص١٠٨٩. وكذلك روى مسلم نفس الحديث عن أبي سعيد الخدري.وهذا الحديث ورد أيضاً في سنن الترمذي باب مناقب عمار بن ياسر ج٥ ص ٣٣٢ رقم ٣٨٨٨ عن أبي هريرة وعن أم سلمة وعن أبي اليسر وعن عبد الله بن عمرو وعن حذيفة.

ولائه العظيم لعليّ بن أبي طالب من بعده. كان عليّ بنظر عمار امتداداً حقيقياً للنبيﷺ وحكمه، وضمانةً. كان عمار يشمئزّ من الحكم القرشي ويرى في عليّ الضمانة الوحيدة دون عودة الوجوه القديمة إلى الصدارة، بقناعٍ جديدٍ.

وعثمان بن عفان، بنظر عمار، هو رمز قريش في حلّتها الجديدة. واختيار قريشٍ لعثمان خليفةً كان اعتداءً على حقّ عليٍ وإبعاداً مقصوداً لآل الرسولﷺ عن مقاليدَ الحكم التي يستحقونها.

جاء في الإمامة والسياسة:

«اجتمع ناسٌ من أصحاب النبيﷺ، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه.

وما كان من هِبته خمس افريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين.

وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة: داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته.

وبنيان مروان القصور بذي خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله.

وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسولﷺ ولا تجربة لهم بالأمور.

وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه.

وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم.

وما كان من الحِمى الذي حَمى حول المدينة.

وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبيﷺ، ثم لا يغزون ولا يذبون.

وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وإنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفتين من قبله بالدرة والخيزران.

ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب بيد عثمان. وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود. وكانوا عشرة.

فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب بيد عمار، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقي وحده. فمضى حتى جاء دار عثمان فاستأذن عليه، فأذِنَ له في يوم شاتٍ.

فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية.

فدفع إليه الكتاب. فقرأه. فقال له: أنت كتبتَ هذا الكتاب؟

قال: نعم.

قال: ومَن كان معك؟

قال: كان معي نفر تفرقوا فرَقاً منك.

قال: مَن هم؟

قال: لا أخبرك بهم.

قال: فلِمَ اجترأتَ عليَّ من بينهم؟

فقال مروان: يا أمير المؤمنين! إن هذا العبد الأسود (يعني عمارا) قد جرأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكلتَ به من وراءه.

قال عثمان: اضربوه.

فضربوه وضرَبَه عثمانُ معهم حتى فتقوا بطنه. فغشي عليه، فجرّوه حتى طرحوه على باب الدار.

فأمرت به أم سلمة زوج النبيﷺ فأدخل منزلها»[1].

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ٥٠.

«إن عثمان، إذ صبّ جام غضبه على عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر، بعد حدث نفي أبي ذر، إنما مزّق أواصر التكافل التي كانت بين الصحابة، وتطاول بشكل خطير على سابقتهم وحصانتهم وهالتهم كقادة وأئمة طبيعيين للمؤمنين. وبذلك بالذات، كان ينسف أسس شرعيته.

صحيح أنه لم يكن يجرؤ على النيل من صحابيين أكثر نفوذاً وسابقة، من أمثال عليّ وطلحة والزبير، وأنه اختار عناصر ضعيفة، ولكن الأثر الناجم عن ذلك كان شديداً وعاد عليه باستياء واستنكار جسم الصحابة وجمهور المسلمين على حد سواء. زد على ذلك بأن تلك الأفعال كانت تعتبر بمثابة أعمال تعسفية، اعتباطية، أعمال جور، خارجة عن تقاليد الإسلام وآدابه السياسية. عقلية ملكية، محاباة الأقارب، تبديد مال الجماعة، استبداد.

هذه المآخذ والمطاعن الأساسية الموجهة ضد عثمان، نجدها مختصرة في هذه الواقعة التي نرى فيها الاحتجاجَ يستدعي القمعَ، والقمعُ يستدعي مزيداً من الاعتراض المتعاظم»[1].

الأمصار تشكو سياسة عثمان

تزايدت الانتقادات لسياسة عثمان في شتى الأقطار. ولما كثرت المطاعن على الخليفة وعماله بشكل خاص، بدأت تظهر محاولات لوقف تلك السياسات ورفع المظالم بطريقة شرعية، وهي مخاطبة الخليفة مباشرة وتجاوز ولاته الذين كانوا هم من أسباب الشكوى.

قلاقل في مصر

هناك ما يشير إلى أن السياسة القاسية، والمرتكزة فقط على جمع الضرائب الباهظة من أهل البلد، التي اتبعها والي عثمان، عبد الله بن أبي السرح، كانت تحظى برضى وإعجاب الخليفة. فبعد أن عزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر

---

(١) من «الفتنة» لهشام جعيط، ص٧٧.

وعيّن عليها ابن أبي السرح، صبّ هذا الوالي كل جهده وطاقته في انتزاع الأموال، بكل الوسائل، بحق وبغير وجه حق، من أهل البلد، دون مراعاة لظروفهم وأحوالهم. ويبدو أن ابن أبي السرح كان همّه أن يثبتَ لسيّده ووليّ نعمته، عثمان، أنه اتخذَ قراراً صائباً حين ولاّه، بدليل تدفّق الأموال التي يجبيها الوالي ويرسل جزءً كبيراً منها إلى العاصمة.

وبالفعل، فقد بدأ عثمان يرى أن الأموال التي ترد من الاقليم المصري، على يد واليه الجديد، تصل إلى أضعاف تلك التي كان يرسلها ابن العاص. وأثار ذلك إعجاب الخليفة وأرضاه، إلى حد أنه قرر أن يبلّغ ابن العاص بالتغيرات التي تحصل من بعده، وكيف أن واليه الجديد أكثر نفعاً منه، فقال له:

«يا عمرو: أرى تلك اللقاح قد دَرّت من بعدك!

فقال عمرو: إنما دَرّت لهلاك فصالها، وإنها قد هزلت

وفي رواية أخرى أن عمراً أجابَه: إنكم أعجفتم أولادها»[1].

وليس هذا الجواب البليغ بمستغرب من شخصٍ كعمرو، وهو لا يخلو من الصواب. فرغم أنه من الممكن جدا أن يكون عمرو أثناء ولايته ينتهب جزءً من أموال الخراج والغنائم لنفسه، إلاّ أنه أصاب كبد الحقيقة حين أخبر عثمان أن سياسة المبالغة في الضرائب والجباية التي يطبّقها ابن أبي السرح تكاد تؤدّي إلى هلاك أهل البلد من كثرة كدحهم لدفع ما يفرضه الوالي.

كانت شكاوى المصريين من واليهم، ابن أبي السرح، عديدة. فهو اعتدى على الذين ينتقدون سياسته ويوصلون أخبار فساده إلى الخليفة. ورغم أن عثمان كتب إليه يدعوه إلى عدم ظلم الناس، إلاّ أنه أبى، وضرب الذين اشتكوه، حتى انه قتل احدهم!

وأخذ عليه الناس إخلاله بمواقيت الصلاة، وتحامله على المسلمين، وأهل الذمة، واستئثاره بالغنائم، وأنه كان يفعل كل ذلك باسم الخليفة عثمان[2].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٩ ص٣٧.

(٢) عن تاريخ الطبري ج٣ ص٤٠٧. ويبدو أنه كانت تجاوزات ابن أبي السرح في سياسته في مصر فاحشةً وهائلة

«كتب أهل مصر إلى عثمان: من الملأ المسلمين إلى الخليفة المبتلى. أما بعد. فالحمد لله الذي أنعم علينا وعليك. واتخذ علينا فيما آتاك الحجة.

وإنا نذكرك الله في مواقع السحاب فإن الله تعالى قال في كتابه ﴿أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾: أن تحل ما شئتَ منه بقولك وتحرم ما شئتَ منه بقولك.

ونذكرك الله في الحدود: أن تعطلها في القريب وتقيمها في البعيد، فإن سنة الله واحدة.

ونذكرك الله في أقوام أخذ الله ميثاقهم على طاعة ليكونوا شهداء على خلقه. نصحوا لك فاغتششت نصيحتهم، وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم. وقال الله في كتابه ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾.

فنذكرك الله وننهاك عن المعصية، فإنك تدعي علينا الطاعة وكتاب الله ينطق: لا طاعة لمن عصى الله. فإن تعطِ الله الطاعة نؤازرك ونوقرك وإن تأبَ فقد علمنا أنك تريد هلكتنا وهلكتك. فمن يمنعنا من الله إن عصيناه وأطعناك، وأنت العبد الميت المحاسب والله الخالق البارئ المصور الذي لا يموت»[1].

إذن هناك ثلاثة أسباب للشكوى في هذا الكتاب من أهل مصر:

(١) السياسة المالية وتوزيع الأموال

(٢) الانتقائية في تطبيق الحدود الشرعية

(٣) العقوبات الظالمة المطبقة بحق الكثيرين من الناس الصالحين، وخاصة النفي.

وقد أجابهم الخليفة بكتاب عام، لا يحتوى إلا على التأكيد على طاعة أولي الأمر والتشديد على الوفاء بالبيعة والتحذير من الفرقة والفتنة.

إلى درجة أن الطبري أعلن أنه «كره ذكرها» حفاظاً على سمعة الخليفة عثمان! فالطبري قال في ج٣ ص٣٩١ «وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسير المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خشب أموراً كثيرة، منها ما قد تقدم ذكره، ومنها ما أعرضتُ عن ذكره كراهةً مني ذكره لبشاعته».

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص ١١٢٠.

واستمر عثمان في دعمه لواليه ابن أبي السرح.

غليانٌ في العراق

وأما في العراق، فهناك أدلة على أن السياسة الاقتصادية لولاة عثمان كانت محل نقمة وسببا لغضب عامة المسلمين. يبدو أنه كان هناك توجه واضح للاستئثار بالأراضي والمزارع العراقية من قبل الطبقة الأموية الحاكمة واتباعها. ومن المؤكد أنه لم يكن هناك رضى من الناس عما يرونه من نهب للخيرات تمارسها بطانة الولاة الأمويين.

وتنبغي الإشارة إلى قرار اقتصادي مهم اتخذه عثمان، يتعلق بالسياسة المتبعة بشأن أراضي البلاد المفتتحة، وكان له تأثير على العرب المقيمين في العراق خاصة. فقد قرر عثمان السماح لمن كان يمتلك أراض في الحجاز أو اليمن باستبدالها بأراض في البلاد المفتتحة، بعد أن يتنازل لبيت المال عنها. وبما أن عددا كبيرا من أبناء قبيلة قريش، بمن فيهم صحابة كبار، وزعماء قبائل أخرى، يمانية وقيسية، كانوا يمتلكون اراض كثيرة في الحجاز واليمن، بعضها موروث، وبعضها مكتسب عن طريق التجارة، وبعضها نصيبهم من الغنائم من أيام الرسولﷺ والخليفتين من بعده (مثلا في منطقة خيبر)، وبعضها من هبات وأعطيات عثمان بن عفان، فقد فتح الخليفة أمامهم آفاقاً هائلة للغنى والثراء الفاحش. فالأراضي في داخل الجزيرة العربية كانت في أغلبها فقيرة وغير منتجة، ولا تقارن أبدا بالأراضي الغنية والخصبة في بلاد الرافدين، حيث البساتين والغابات في ضفاف الفرات ودجلة.

وقام عدد كبير من القرشيين والزعماء القبائليين باستغلال قرار الخليفة إلى الحد الأقصى. فتملكوا مساحات شاسعة من أراضي «السواد» في الكوفة وغيرها من المنطق العراقية. وأصبح عدد من الصحابة من أمثال طلحة بن عبيد الله[1] والزبير بن العوام من كبار الأثرياء والرأسماليين الذين تنهال عليهم الأموال من تلك الممتلكات

(١) روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢٥ ص١٠٢ أن طلحة بن عبيد الله كان يغلّ من العراق ما بين أربعمائة إلى خمسمائة ألف درهم!.

الجديدة في العراق. وهناك روايات كثيرة جدا تصف مدى الغنى الفاحش الذي صاروا يرفلون فيه، حتى وهم يقيمون في المدينة المنورة، دون الحاجة إلى الإقامة في العراق. وطبعاً كان لبني أمية، من أمثال مروان بن الحكم، وللقرشيين بشكل عام، نصيب الأسد من هذه الامتيازات.

ومن الطبيعي أن تكون تلك التطورات مثار سخط وغضب لدى قطاع عريض من العرب المقيمين في الكوفة خاصة، منذ فترة طويلة، من أيام الفتح الأول. فأبناء القبائل العربية هناك كانوا يعتبرون أنفسهم، هم دون غيرهم، مَن قاموا بخوض القتال ضد جيوش الفرس حتى حققوا النصر والفتح، بعد أن قدموا التضحيات الجسام في سبيل ذلك. كانوا يرون أنهم بسيوفهم وحوافر خيلهم، ودماء إخوانهم وآبائهم، هزموا جيوش فارس في القادسية ونهاوند. وهم الآن يرون القرشيين يسيرون باتجاه خطير جداً، ومضرّ بمصالهم، وهو الهيمنة على ثروات العراق الاستئثار بها، دونهم. فالأموال تجبى من أراضي العراق وترسل إلى كبار الأثرياء القرشيين في المدينة المنورة.

وربما كان عدد من سكان العراق العرب لا يمانعون أن يستفيد من الثروات الناتجة عن الفتوحات أشخاص ذوو ماض إسلامي مجيد، ممن صحبوا رسول الله ﷺ وخاضوا الجهاد معه. ولكن لا شك أن قيام أبناء قبيلة قريش، والبطن الأموي خاصة، ممن ليست لهم سابقة ولا فضل في الإسلام، أو ممن امضوا جلّ حياتهم في عداء رسول الله ﷺ، بانتزاع الملكيات الضخمة في العراق دون وجه حق ولا أهلية، كان يسبب للمقاتلين المستقرين في العراق ألما وأسى عظيما. فهم يرون «حقهم «يضيع أمام أعينهم، وكان لا بد لذلك ان يؤدي إلى حركة رفض وتمرد، خاصة وأن الخليفة لا يفعل شيئا ليوقف تلك الموجة، بل كان هو مسببها والمروّج لها.

الكوفة تضطرب

ذكر ابن سعد عن سياسة الوالي سعيد بن العاص «ثم انصرف سعيد بن العاص إلى الكوفة فأضرَّ بأهلها إضراراً شديدا»[1].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٣٢.

وكانت المقولة الشهيرة لسعيد بن العاص في بداية حكمه للكوفة «إنما هذا السواد بستانٌ لأغيلمة من قريش» قد أثارت استياءً شديداً لدى الكوفيين. ولا شك أن ذلك تراكمَ وازدادَ مع التطبيق العملي لتلك السياسة «القرشية».

بعد فترةٍ قصيرةٍ من وصوله إلى الكوفة، بعد تعيينه والياً، كتب سعيد بن العاص تقريراً إلى عثمان حولَ تقييمه لأوضاع أهلها وأحوالها، جاء فيه «إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف فيهم والبيوتات والسابقة والقدمة. والغالبُ على تلك البلاد روادفُ رَدَفت، وأعرابٌ لحقت»[1].

هكذا رأى الوالي الأمويّ حال الكوفة: علا فيها شأن الأوباش، الذين عبّر عنهم بـ«روادف ردفت وأعراب لحقت»، وهي بالتالي بحاجة إلى سياسةٍ أشدّ لتعيد الأمور إلى نصابها! فكان لا بد له من وضع حدّ لأولئك «العامة» الذين صاروا «يتطاولون» على أسيادهم القرشيين.

وهكذا كانت سياسته.

وبمرور الوقت أصبح الجو متوتراً في الكوفة إلى درجة أن مجرد كلام تفوّه به أحد الفتيان من أتباع الوالي سعيد بن العاص كان سببا في مشكلة كبرى كادت تثير قتالاً أهليا! والقصة كما يرويها الطبري[2] ضمن أحداث سنة ٣٣ هي أن عبد الرحمن بن خنيس، وهو حَدَث، قد قال لسعيد بن العاص، وهو في مجلس عام:

«والله لوددتُ أن هذا الملطاط لك، يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة».

وأثارت هذه العبارة، وليس معروفاً إن كان الغلام قالها من تلقاء نفسه تزلفاً للحاكم، أم أن الحاكم أوحى له ليقول ذلك كي يجس النبض إن قام بالفعل بالاستيلاء على تلك الأطيان، هيجانا كبيراً من قبل عدد كبير من الكوفيين الذين قالوا «يتمنى له من سوادنا!» ثم انهالوا عليه ضرباً هو وأبوه، حتى كادوا يقتلوهما.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢١ ص١٢١.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٦١.

ولما حاول سعيد بن العاص تهدئة الأمور مؤكدا للناس أنها مجرد كلمات تفوه بها غلامٌ جاهل، رفضوا ذلك وقالوا له «أنت والله أمرته بها!»ولحسن حظ سعيد بن العاص أن الفتى وأباه بقيا على قيد الحياة وأمكن بالتالي تجنب الاقتتال القبلي الذي كان سينشب، والذي كان سعيد بن العاص ولا شك سيعتبر طرفا فيه.

وقد وصلت تداعيات الأمر إلى عثمان بن عفان الذي رتّب مع سعيد بن العاص، وقرر نفي كبار الناقمين على الوالي، بعيدا عن ديارهم وقومهم، إلى الشام، حيث معاوية ينتظرهم لتأديبهم! وفعلا أرسلوا هناك، وكان فيهم مالك الأشتر وصعصعة بن صوحان وكميل، والذين سيشتهرون بعد سنين قليلة بأنهم من أهم شخصيات شيعة عليّ، والرافضين لعثمان وحكمه، ومن بعده معاوية وحزبه.

والكلام المتبادل بين معاوية والزعماء المنفيين العراقيين مثيرٌ فعلاً. فلما قرّعهم معاوية وامتدح قبيلة قريش متعالياً عليهم قائلا لهم «بلغني أنكم ذممتم قريشاً، ونقمتم على الولاة فيها، ولولا قريشٌ لكنتم أذلة»، ردّ عليه صعصعة «وأما قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية وإن غيرها من العرب لأكثر منها كان وأمنع».

فأجابه معاوية «... إن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلاّ بالله وحده. لم تكن بأكثر العرب ولا أشدها، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً وأمحضهم أنسابا وأكملهم مروءة. ولم يمتنعوا في الجاهلية ـ والناس يأكل بعضهم بعضا ـ إلاّ بالله، فبوّأهم حَرَماً آمنا يتخطف الناس من حولهم.

هل تعرفون عربا او عَجَماً، أو سوداً أو حمراً، إلاّ وقد أصابهم الدهر في بلدهم وحرمهم، إلاّ ما كان من قريش. فإنه لم يُردهم أحدٌ من الناس بكيد إلاّ جعل الله خدّه الأسفل، حتى أراد الله تعالى أن يستنقذ من أكرمه باتباع دينه من هوان الدنيا، وسوء مرد الاخرة. فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحابا، وكان خيارهم قريشاً. ثم بنى هذا المُلك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، فلا يصلح الأمر إلاّ بهم...»[1].

---

(١) النص من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص١٣١.

إذن تحوّل السجال إلى موضوع قريش، وهيمنتها واستئثارها وتسلطها الذي يمثله عثمان ومعاوية، ورفض غيرهم من أبناء القبائل العربية لهذا الوضع، لأنها ترى نفسها ضحّت بدماء أبنائها من أجل مجد العرب ودين الإسلام، وبالتالي ليس هناك أي سبب يبرر تعالي هؤلاء الحكام القرشيين عليهم، وخصوصا أولئك الذي لا ماض إسلامي لهم!

ويبدو أن كلام هؤلاء بشأن قريش قد أغاظ معاوية جدا، فقرر إرسالهم إلى القرشي الذي يستطيع إقناعهم، بالقوة: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد! وعبد الرحمن كان حاكم حمص القوي، الذي استقبلهم، بكل عجرفته القرشية المتعالية بقوله «يا بني الشيطان! لا مرحبا بكم ولا أهلا!... يا معشر مَن لا أعرفُ أعربٌ هم أم عَجَم! أتراكم تقولون لي ما قلتم لمعاوية؟ أنا ابن خالد بن الوليد!... والله يا ابن صوحان لأطيرنّ بك طيرة بعيدة المهوى...» ومارس عليهم إذلالا جسديا وإرهاباً معنوياً «... فأقاموا عنده شهراً، كلما ركب أمشاهم معه، ويقول لصعصعة: يا ابن الخطيئة! إن مَن لم يصلحه الخير أصلحه الشر...» حتى أجبرهم أخيراً على إعلان التوبة أمامه.

والبصرة ليست سعيدة

فقد كانت البصرة قد شهدت في عهد عثمان نموا كبيرا، نتج أساسا عن تزايد حركة الفتوحات في ايران، والتي لعبت البصرة فيها دورا كبيرا، فاق دور جارتها الأهم: الكوفة.

ففي ظل ولاية أبي موسى الأشعري تمكن مقاتلة البصرة من فتح اقليم الاحواز، وفتح قم، وقاشان وأصبهان والمساهمة مع مقاتلة جبهة البحرين في فتح أجزاء من اقليم فارس. وأسفر ذلك عن غنائم كثيرة ساعدت على اجتذاب أعداد جديدة من المقاتلين العرب، وأدى ذلك إلى زيادة عدد سكان البصرة.

وفي ولاية عبد الله بن عامر ازدادت أهمية البصرة الإدارية، واتسعت مهامها العسكرية في المنطقة الواقعة شرق خليج فارس، مما أدى إلى زيادة هجرة قبائل عبد القيس والأزد إليها، وبالتالي تضخمت اعداد السكان فيها، وتمكن مقاتلوها من

فتح اقليم فارس وكرمان وسجستان وخراسان. وازدادت موارد البصرة كثيرا وأخذت المدينة تنمو بسرعة، فاستوطن فيها تجار وأصحاب مهن من العرب والأعاجم.

ورغم ذلك كله فقد كانت بوادر التذمّر والرفض لسياسة عثمان وواليه، عبد الله بن عامر، موجودة في البصرة، فقد تذاكرَ مجموعة من أهل البصرة أعمالَ عثمان. وأرسلوا أحد النسّاك إليه، ويدعى عامر بن عبد قيس التميمي، ليكلمه في مآخذ الناس عليه. فوصل المدينة ودعا الخليفة «لتقوى الله». فغضب الخليفة بشدة، وزجَرَه واتهمه بأنه «لا يدري أين الله»:

«اجتمع ناسٌ من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع. فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه ويخبره بأحداثه....

فأتاه فدخل عليه فقال له: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبتَ أمورا عظاماً. فاتّقِ الله عز وجل وتب إليه.

قال عثمانُ: انظر إلى هذا! فإن النَاس يزعمون انه قارئ، ثم يجيء فيكلمني في المحقرات. فوالله ما يدري أين الله!

قال عامر: أنا لا أدري أين الله؟!

قال: نعم! والله ما تدري أين الله.

قال عامر: بلى والله إني لأدري أن الله لك بالمرصاد»[1]. وقيل إن عثمان نفاه إلى الشام[2].

وهناك إشارات تدل على أن سياسة عثمان وولاته في التركيز على الفتوحات الجديدة والمتواصلة، خاصة في إيران، أدت إلى نوع من الإنهاك لمقاتلي القبائل العربية. فعلى الرغم من أن الفتوحات كانت تؤدي إلى غنائم ضخمة جدا، وهو ما كان يحفّز أبناء قبائل العرب على الانخراط في «الجهاد» الذي غدا مصدر الدخل

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٧٣.

(٢) أشار إلى ذلك عدنان ملحم في ص١٤٤ من «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» نقلا عن البلاذري.

الرئيسي للدولة الإسلامية كلها منذ أيام عمر، إلاّ أن ذلك كان لـه ثمنـه المتمثـل فـي ضرورة المحافظة على تواجد عسكري عربـي فـي المنـاطق المفتتحـة، أو «الثغـور». وكان ذلك يعني وجود حاميات مقاتلة عربية في أعمـاق إيـران. ومـن المحتمـل أن يكون المقاتلون العرب واجهوا صعوبات فـي التـأقلم مـع طبيعـة المنـاطق الايرانيـة المختلفة عن جزيرة العرب تماما. وربمـا كـان المقـاتلون غيـر مرتـاحين لوجـودهم ضمن بيئة محلية معادية لهم. وكان علـى والـي البصـرة أن يـنظم مسـألة الحاميـات العربية داخل بلاد فارس، أعـدادها ومواقعهـا، وخطـوط الامـداد والاتصـال، وأيضـا التبديل الدوري للأفراد في تلك الثغور. وبالاجمال، كان المقاتلون الموكلـون بمهمـة السيطرة على مناطق داخل ايران، يستبدلون مرة واحدة كـل ٤ سـنوات. وهـذه فتـرة طويلة جدا بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يتوقون للعودة إلى أهلهم وقبائلهم في البصـرة. وهذه ستكون إحدى مصادر الشكوى التـي سـيعبّر عنهـا بـالقول «تجمّـر البعـوث». ويبدو أن عبد الله بن عـامر كـان ينـتهج سياسـة متعمـدة فـي المبالغـة فـي النشـاط العسكري وإطالة مدة إقامة العسكر في المناطق المفتتحة.

والمدينة غاضبة

النص التالي يلقي الضوء على مشاعر الكثيرين من سكان العاصمة تجاه الخليفة:

«فقام إليه رجلٌ من المهاجرين فقال لـه: يـا عثمـان، أرأيـتَ مـا حميـتَ مـن الحمى: ﴿آللهُ أذِنَ لكم أم على الله تفترون﴾ (يونس ٥٩)؟

فقال عثمان: إنه قد حَمى الحِمى قبلي عمرُ لإبل الصدقة. وإنما زادت فزدت.

فقام عمرو بن العاص فقال: يا عثمان: إنك ركبتَ بالناس نهابير من الأمر فتـب إلى الله يتوبوا.

فرفع عثمان يديه وقال: توبوا من كل ذنب. اللهم إني أول تائبٍ إليك.

ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا عثمان! ما بال هؤلاء النفـر مـن أهـل المدينـة يأخذون العطايا ولا يغزون في سبيل الله؟! وإنما هذا المال لمن غزا فيه وقاتـل عليـه، إلاّ مَن كان من هذه الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام.

فقال عثمان: فأستغفر الله وأتوب إليه. ثم قال: يا أهل المدينة! مَن كان له منكم ضرعٌ فليلحق بضرعه، ومَن كان له زرع فليلحق بزرعه، فإنا والله لا نعطي مال الله إلاّ لمن غزا في سبيله، إلاّ مَن كان من هذه الشيوخ من الصحابة.

قال: فما بال هذا القاعد الشارب لا تقيم عليه الحد (يعني الوليد بن عقبة)؟

فقال عثمان لعليّ: دونك ابن عمك فأقم عليه الحد»[1].

وفي مناسبة أخرى سيتحدث عبد الرحمن بن عديس البلوي، وهو أحد المتهمين الرئيسيين بقتل عثمان، عن أسباب ثورتهم «فذكر ما صنع ابن سعد بمصر، وذكرَ تحاملاً منه على المسلمين، وذكر استئثارا منه في غنائم المسلمين. فإذا قيل له في ذلك، قال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ. ثم ذكروا أشياء مما أحدث في المدينة وما خالف به صاحبيه»[2].

ويمكن القول إن استياء أهل المدينة من الخليفة يرجع إلى السياسة القرشية العامة، والأموية الخاصة، التي كان ينتهجها عثمان، والتي أخذت ترجمتها العملية في تهميش عموم الأنصار وإبعادهم عن مراكز التأثير والقرار. وكان ما يرونه من فساد مالي وإداري، وانحراف عن مبادئ العدالة، والتمييز في تطبيق الحدود الشرعية، مما يفاقم من المشاعر السلبيّة لأهل مدينة الرسول تجاه عثمان.

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ٥٢.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٠٧.

الثورة على عثمان

اجتماع القمة بين عثمان وعمّاله

لما كثرت المطاعن على عثمان وسياسته، دعا عمّاله الرئيسيين وأركانَ حكمه إلى اجتماع عام لتدارس الأمور واستشارتهم فيما يفعل:

«فقدِم عليه ابن أبي سرح من مصر، ومعاوية من الشام، وعبد الله بن عامر من البصرة، وسعيد بن العاص من الكوفة.

فقال لهم عثمان: يا بني أمية! أنتم بطانتي دون ظاهري. وقد أكثرَ الناسُ شكايتي حتى تناولني بها البعيد، وآذاني بها القريب. فأشيروا عليّ.

فأشار عبد الله بن عامر ـ وكان امرءً سخياً ـ فقال: يا أمير المؤمنين. إن الناس إنما يرضيهم ما أسخطهم. وهي هذه الأموال، فأعطِهم منها، تستل بذلك سخائم صدورهم وضغائن قلوبهم وضبابها.

ثم تكلم ابن أبي سرح فقال: يا أمير المؤمنين. إن لك عليهم حقاً ولهم عليك حقاً. فأعطِهم حقهم عليك وخذهم بحقك عليهم. واتبع سنة الذين قبلك يجتمعوا عليك بالرضى.

ثم تكلم سعيد بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين. إن الناس قد أمروا وجموا حتى كبرت كبراهم. فابعثهم جيوشا وجمّرهم في المغازي، حتى تكون دبرة دابة أحدهم أهم إليه من التفكر في أمر الأمة.

ثم تكلم معاوية فقال: يا أمير المؤمنين: إنك قد بلغتَ من صلتنا ما يبلغه كريم قوم من صلة قوم. حملتنا على رقاب الناس وجعلتنا أوتاد الأرض.فليكفِكَ كل رجل مِنا مصرَهُ. وسأكفيكَ الشامَ. فلن تؤتى من الشام أبدا.

فأخذ عثمان بقول معاوية ورد عماله إلى أمصارهم»[1].

فكانت نتيجة مباحثات عثمان مع قياداته العليا قراراً منه بمزيد من التشدد تجاه رعيته:

«فردّ عثمان عماله على أعمالهم. وأمرَهم بالتضييق على مَن قِبلهم. وأمَرهم بتجمير الناس في البعوث. وعزَمَ على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه»[2].

ومن المؤكد أن البطانة الأموية للخليفة، مروان بن الحكم بالذات، كان لها الدور الأبرز في إقناع عثمان بأن الاستجابة لمطالبات عامة الرعية أنما هو ضعفٌ لا يليق بالخليفة بل إنه سيؤدي إلى المزيد من المطالب، وأن الأنسب هو مزيدٌ من الشدّة والحزم والمزيد من التفويض والصلاحيات لولاته ذاتهم، بعد تجديد الثقة بهم.

الكوفة تنتفض وتخلع والي عثمان

لقد روى ابن سعد بعض تفاصيل التمرد الشعبي في الكوفة والذي أدى إلى خلع الوالي سعيد بن العاص في أواخر عهد عثمان:

«ورَحَلَ من الكوفة إلى عثمان مالك الأشتر ويزيد بن مكفف وثابت بن قيس وكميل بن زياد النخعي وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان والحارث بن عبد الله الأعور وجندب بن زهير وأبو زينب الأزديان وأصغر بن قيس الحارثي، يسألونه عزلَ سعيد بن العاص عنهم.

ورحل سعيدٌ وافداً على عثمان فوافقهم عنده.

فأبى عثمان أن يعزله وأمره أن يرجع إلى عمله.

فخرج الأشتر من ليلته في نفر من أصحابه، فسارَ عشرَ ليال إلى الكوفة، فاستولى عليها وصعد المنبر فقال:

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٩٦. وقريبٌ من ذلك ورد في تاريخ ابن خلدون ج٢ ص١٤٣.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٧٤.

هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش! والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم، وفيؤكم وفيء آبائكم.

فمَن كان يرى لله عليه حقاً فلينهض إلى الجرعة. فخرج الناس فعسكروا في الجرعة، وهي بين الكوفة والحيرة.

وأقبل سعيد بن العاص حتى نزل العذيب.

فدعا الأشتر يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كنانة العبدي، وكانا محربين، فعقد لكل واحد منهما خمسمائة فارس.

وقال لهما: سيرا إلى سعيد بن العاص، فأزعجاه وألحقاه بصاحبه، فإن أبى فاضربا عنقه وإتياني برأسه.

فأتياه فقالا له: ارحل إلى صاحبك.

فقال: إبلي انضاء أعلفها أياماً، ونقدِم المصرَ فنشتري حوائجنا ونتزود، ثم أرتحِل.

فقالا: لا والله! ولا ساعة! لترتحلنَ أو لنضربنَ عنقك.

فلما رأى الجد منهما ارتحل لاحقاً بعثمان.

وأتيا الأشتر فأخبراه. وانصرف الأشتر من معسكره إلى الكوفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

والله يا أهل الكوفة ما غضبتُ إلاّ لله ولكم. وقد ألحقنا هذا الرجل بصاحبه. وقد وليتُ أبا موسى الأشعري صلاتكم وثغركم، وحذيفة بن اليمان على فيئكم.

ثم نزل وقال: يا أبا موسى اصعد

فقال ابو موسى: ما كنتُ لأفعل. ولكن هلمّوا فبايعوا لأمير المؤمنين عثمان، وجددوا له البيعة في أعناقكم. فأجابه الناس إلى ذلك، فقبل ولايتهم. وجدّد البيعة لعثمان في رقابهم. وكتب إلى عثمان بما صنع، فأعجب ذلك عثمان وسرّه.

....، وكان الذي صنع أهل الكوفة بسعيد بن العاص أول وهن دخل على عثمان حين اجترئ عليه. ولم يزل أبو موسى والياً لعثمان على الكوفة حتى قتل عثمان»[١].

ولا شك أن نجاح المتمردين في السيطرة على الكوفة، وخلع واليها الأموي، يشير إلى مدى التدهور الذي وصلت إليه الأمور فيها. فلا يمكن تصوّر أن مجموعة محدودة النفوذ، أو بدون قاعدة اجتماعية صلبة، تنجح في خلع والٍ راسخٍ في منصبه منذ سنوات طويلة، ومدعومٍ مباشرة من الخليفة. وهذا النص يبرز الشخصية القيادية لمالك الأشتَر والدور المهم الذي لعبه في تطورات الأحداث: فهو الذي يأخذ المبادرة في منع والي عثمان من العودة للكوفة وهو الذي يختار والياً بديلاً.

ودور مالك الأشتر سوف يستمر في التعاظم في قادم الأيام: فهو سيكون من قيادات الثوار التي حاصرت عثمان قبيل مقتله، وهو سيكون من أهم قيادات الخليفة علي بن أبي طالب السياسية والعسكرية والمقربين له.

كما يلاحظ أيضاً حرص الوالي الذي عينه المتمردون، أبي موسى الأشعري، على إعلان الطاعة للخليفة عثمان وقيامه بتجديد البيعة العامة له، واستجابة الناس لذلك. فالتمرد الذي حصل في الكوفة لم يكن انشقاقاً عن جَسَد الأمة، ولا رفضاً لمؤسسة الخلافة. كان ما جرى هو تصويبٌ لأوضاع تدهورت وساءت، ولسياسة انحرفت وفشلت، بعد أن طفح الكيل بعموم الكوفيين بسبب رفض الخليفة، أوْ عجزه، عن اتخاذ أي إجراء تجاه واليه المرفوض. ورغم ذلك، فإن ابن سعد مصيبٌ تماماً في وصفه لما جرى بأنه «أول وهن دخل على عثمان»، لأن قيام الكوفة بفرض إرادتها على الخليفة قد يصير مثلاً يُحتذى في أماكن أخرى. ولا يغير من حقيقة الأمر تظاهُر عثمان بقبول والي الكوفة الجديد وبيعته.

وربما كان عثمان يفكر في طريقة لإعادة فرض واليه المخلوع، من أجل

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٣٣.

استعادة هيبته في الكوفة. ومن المرجح أن يكون الخليفة قد بدأ مداولات مع مستشاريه حول ما ينبغي عمله لمعاقبة هؤلاء الذين أصروا على تحديهم له، وبالأخص مالك الأشتر ومجموعته. فعثمان لا شك يذكر أن قيادات مجموعة الأشتر قد سبق له عقابهم وإذلالهم قبل حوالي سنة، وعلى يد معاوية وعبد الرحمن بن خالد، بسبب صراعهم الأول مع سعيد بن العاص. وهم الآن قد عادوا ثانية، أكثر تصميماً وقوة. ولا بد من أسلوبٍ آخر معهم.

ولكن التطورات المتسارعة لم تمهل عثمان ليفعل أي شيئ. إذ سرعان ما تعرض إلى ما هو أخطر بكثير: تمرّد ضخمٌ اجتاح عاصمته وصار يهدده في منصبه وحياته.

الهجوم على عثمان

كان الأمر في البداية أشبه بمسيرة منظمة، احتجاجية، ومسلحة. في موسم الحج من عام ٣٥، كان من ضمن الوفود التي أمّت المدينة المنورة لأداء المناسك مجموعاتٌ من الذين جاؤوا وقد قرروا أن يستغلوا الموسم بهدف الاحتجاج المباشر على ما يَرَونه سياسات منحرفة للخليفة. وهؤلاء المحتجون كانوا من عدة أمصار، البصرة، الكوفة ومصر[1]. كان هؤلاء أساساً من الذين طفح بهم الكَيل ولم يقدروا على الاستمرار في تحمّل ما اعتبروه ظلماً صارخاً وفساداً مفضوحاً يمارسه الجهاز الحاكم. وكان البارزون منهم قد سبق وتعرّضوا إلى عقوباتٍ بشكل أو بآخر على يد ولاة عثمان.

وبدأ هؤلاء الثوار العمل بحذر وعلى مراحل. ومن المرجح أن هدفهم لم يكن قتل عثمان ولا حتى خلعه، بل تقديم مطالبهم وعرض مطاعنهم والطلب منه بحزم أن يغير سياسته. وعلى الرغم من أن وفد المحتجين لم يكن سلمياً، إلاّ أنه يمكن القول أنه لم تكن هناك نية مسبقة باستخدام القوة ضد الخليفة.

---

(١) ومن السخافة حقاً الحديث عن مؤامرة يهودية مركزية قامت بالتخطيط للثورة على عثمان، كما تقول روايات سيف بن عمر عن عبد الله بن سبأ. وذلك طبعاً لا يمنع حصول تنسيق عَمَلي في المدينة بين أوساط المتمردين القادمين من أمصار متعددة.

يمكن تلخيص التهم والمطالب التي عرضها الثوار على النحو التالي:

- مواضيع تتعلق بالسياسات المحلية المتبعة في الأقاليم

وقف ممارسات الولاة القمعية وظلمهم

وقف اجراءات النفي والطرد بحق «أفاضلهم».

عزل ولاتهم، وخاصة ابن أبي السرح في مصر، واستبدالهم بأشخاص يفضلونهم

- مواضيع تتعلق بالسياسات العامة على مستوى الدولة .

وقف ابتزاز ونهب بيت المال.

ضرورة تطبيق العدالة في العطاء، وإنصاف الفئات المحرومة.

وقف تعيين أقرباء عثمان وأبناء عائلته على الأعمال

رفض الاعتداء على صحابة ذوي فضل وسابقة ومعاقبتهم[1].

وهنا لا بد من القول إن المطالب التي عَرَضها المتمردون تعبيرٌ حقيقيٌ عن روحية الإسلام الصافية. وبغضّ النظر عن صفاء نواياهم أو مدى صدقهم، فأن طروحاتهم كانت إسلامية تماماً. ولا يمكن لأحد أن يجادل في حق الرعية في وجود ولاة صالحين لإدارة الدولة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ضرورة المحافظة على المال العام. والذي يشكو منه هؤلاء المتمردون من مظالم كان حقيقياً وملموساً. وفي كل المفاوضات اللاحقة التي جرت مع الخليفة، كان عثمان إعتذارياً في خطابه معهم ولم يكن يجادل في صوابية مطالبهم من حيث المبدأ.

فباختصار كان المتمردون يطالبون بالإصلاح، وبتعديل المسيرة، والعودة إلى زمن الزهد والعدل. وكانوا باحتجاجهم القوي ذاك يعلنون أنهم لن يقبلوا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه.

---

(١) روى الطبري في تاريخه ج٣ ص٤٠٨ أن الثوار قالوا لعثمان وهو محاصر «إنك ضربتَ رجالاً من أصحاب النبيﷺ وغيرهم حين يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحق».
كما أثار بعض الثوار موضوع حرق المصاحف في الأمصار، ما عدا نسخة عثمان.

وبدأت المرحلة الأولى من التمرد: السلميّة. وقد دامت لمدة شهر. وكانت فترة طلب حسابات، وعرض مطالبات، وشرح تظلمات، ومناظرات ونقاشات ومفاوضات ووساطات، انتهت في الآخر إلى موافقة عثمان على طلبات الوفود وتوصل الطرفان إلى اتفاق مكتوب.

لم يُظهر كبار الصحابة ولا أهل المدينة انحيازاً واضحاً إلى أحد الفريقين، بل لعبوا دور الوسيط بين الخليفة والمحتجين وكانوا كفلاء للاتفاق، وأبرزهم عليّ.

وكان عثمان يعلم أن علياً بن أبي طالب هو الشخص الأكثر قبولاً لدى أوساط المحتجين، وأنه الذي يمكن أن يمارس نفوذه لديهم فيردعهم عن إلحاق الأذى بالخليفة. ولذلك كان عثمان يلجأ إليه، وبإلحاح، لكي يخرج إليهم ويتفاهم معهم.

عثمان يستجيب: اتفاقٌ مكتوب

«فلما رأى عثمان ما رأى، جاء علياً، فدخل عليه بيته فقال: يا ابن عم! إنه ليس لي مترك، وإن قرابتي قريبة، ولي حقٌ عظيمٌ عليك. وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وهم مصبحي. وانا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك. فأنا أحب أن تركب إليهم فتردّهم عنّي فإني لا أحب أن يدخلوا عليّ، فإن ذلك جرأة منهم عليّ، وليسمع بذلك غيرهم.

فقال: عليّ: علامَ أردّهم؟

قال: على أن أصير إلى ما أشرتَ به عليّ ورأيته لي. ولستُ أخرج من يديك»(١).

وبعد هذا الطلب المباشر من الخليفة، استعمل عليٌّ ثقله كله، وبذل جهدَه مع المتمردين من أجل التوصّل إلى تفاهم يُنهي المشكلة. ونجح عليٌّ في مسعاه.

والنص التالي يوضح شروط الاتفاق الذي توصل إليه علي بن أبي طالب لحل الأزمة مع الثوار:

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٩٣.

«فأصلح عليّ بينهم، وكتبوا كتابا اشترطوا فيه خمساً:

أن المنفي يُقلب

وأن المحروم يُعطى

وأن الفيئ يوفر

وان يُعدل في القسم

وأن يُستعمل أولو القوة والأمانة»[1].

وتتحدث روايات أخرى عن «العمل بكتاب الله وسنة نبيه» و«أن يؤمن الخائف» و«رفع المظالم» و«أن لا تجمّر البعوث» وكذلك «ألاّ يأخذ أهل المدينة عطاءً، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله».

واعترف عثمان بأخطائه وتعهد بالإقلاع عن سياسته السابقة بعد سجالات طويلة. وبدوره أخذ عثمان على المحتجين شرطاً: «ألاّ يشقوا عصاً ولا يفارقوا جماعةً، ما قام لهم بشرطهم»[2].

والصحابة كانوا الشهود والكفلاء للإتفاق.

فإذن وافق المحتجون على الاستمرار بالاعتراف بسلطة الخليفة وقبولهم لوعد التغيير. وفي المقابل أعلن عثمان توبته علانيةً وعلى المنبر:

«فقام فحمد الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس!

فوالله ما عابَ مَن عابَ منكم شيئاً أجهله وما جئتُ شيئاً إلاّ وأنا أعرفه.

ولكني منّتني نفسي وكذّبتني، وضلّ عني رشدي.

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١١٣٧. وكذلك وردت هذه الشروط الخمسة في تاريخ خليفة بن خياط ص١٢٥.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٩١.

ولقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مَن زلّ فليتب، ومَن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة. إن مَن تمادى في الجور كان أبعد من الطريق.

فأنا أول مَن اتعظ. أستغفر الله مما فعلتُ. وأتوب إليه.

فمثلي نزَعَ وتاب»[1].

ورجع المحتجون إلى أمصارهم. وبدت الأزمة وكأنها انتهت.

انهيار الاتفاق

ولكن مروان بن الحكم استغل موقعه من الخليفة ليفسد كل شيء!

فهو، بعد أن بدا له أن الخطر قد زال برجوع الثوار، بدأ في تنفيذ سياسة انتقامية كان يراها ضرورية من أجل الحفاظ على استقرار الحكم الأموي. فمروان لا يرضى بأن يمرّ هذا الأمر مرور الكرام. فهؤلاء تمرّدوا على الخليفة ولا بد أن يعاقبوا، إن لم يكن في المدينة على يد عثمان، ففي غيرها من الأمصار وعلى يد غيره من الحكام. فبنظر مروان، إن تركَ هؤلاء بلا عقاب، فسوف تزيد جرأتهم وسوف يرفعون من سقف مطالباتهم في قادم الأيام، وسوف يجرؤ غيرهم.

وبدأ مروان العمل.

فكانت الخطوة الأولى بنظره هي نزع الشرعية عن الثوار ومطالبهم. وذلك يتم عن طريق الإعلان أن كل ما أثاروه من قضايا هو باطل وغير صحيح! وبالتالي إنكار أن الخليفة قدم تنازلات أو أقر بأخطائه.

ونجح مروان في إقناع عثمان بأن يقوم على الملأ فيعلن ذلك:

«جاءه مروان فقال له: تكلم وأعلم الناسَ أن أهل مصر قد رجعوا، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً. فإن خطبتك تسير في البلاد قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم، فيأتيكَ مَن لا تستطيع دفعَه

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٩٦.

فأبى عثمان أن يخرج. فلم يزل به مروان حتى خرج فجلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمراً، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم»[1].

ولم يكتفِ مروان بتلك الخطوة، التي هي مضرّة جدا بمصداقية الخليفة أمام الناس،فانتقلَ إلى ما هو أهم وأخطر! أصدر مروان أوامره، مستغلاً ضعف عثمان وثقته به، إلى ابن أبي السرح في مصر بقتل هؤلاء الثوار حالما يصلون أرض مصر! أصدرَ الأمرَ باسم عثمان وطبع الكتابَ بخاتم الخليفة وأرسله على وجه السرعة مع غلامٍ إلى مصر ليسبق الوفد المصري العائد.

وفيما يلي نصٌّ جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري نقلا عن سعيد بن المسيب:

«جاء أهل مصر يشكون ابن أبي سرح، فكتب إليه عثمانُ رضي الله عنه كتاباً يتهدده فيه، فأبى أن يقبل ما نهاه عنه عثمان رضي الله عنه وضرب بعضَ مَن أتاه من قبل عثمان من أهل مصر يتظلم منه فقتله.

فخرج من أهل مصر سبعمائة إلى المدينة، فنزلوا المسجدَ، وشكوا إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع ابن ابي سرح بهم.

فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان رضي الله عنه بكلام شديد. وأرسلت إليه عائشة فقالت: قد تقدم إليك أصحاب محمد، وسألوك عزلَ هذا الرجل فأبيتَ إلاَّ واحدة فهذا قد قتل منهم رجلا فاقضِهم من عاملك. ودخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وكان متكلم القوم ـ فقال: إنما سألوك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا عنه دماً فاعزله عنهم واقضِ بينهم، وإن وَجَب عليه حق فأنصفهم منه.

فقال لهم: اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه. فأشار الناس عليهم بمحمد بن أبي بكر فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبي بكر.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٩٥.

فكتب عهده وولاه وخرج معه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وبين ابن أبي سرح.

فخرج محمد ومَن كان معه، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط خبطا كأنه رجل يَطلب أو يُطلب.

فقال له أصحاب محمد: ما قصتك وما شانك؟ كأنك هاربٌ أو طالب.

فقال: انا غلام أمير المؤمنين. وجّهَني إلى عامل مصر.

قال له رجل: هذا عامل مصر معنا.

قال: ليس هذا أريد.

واخبروا بأمره محمد بن أبي بكر، فبعث في طلبه رجالاً فأخذوه فجاؤوا به إليه.

فقال له: يا غلام مَن أنت؟

فأقبل مرة يقول غلام أمير المؤمنين ومرة يقول غلام مروان. حتى عرفه رجل أنه لعثمان.

فقال له محمد: إلى مَن أرسِلتَ؟

قال: إلى عامل مصر.

قال: بماذا؟

قال: برسالة.

قال: أمعك كتاب؟

قال: لا.

ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً. وكانت معه إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل. فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح.

فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه: إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحتل لقتلهم، وأبطل كتابه وقرّ على عملك حتى يأتيك رأي في ذلك. واحبس مَن يجيء إلي يتظلم منك ليأتيك رأي في ذلك إن شاء الله تعالى.

قال: فلما قرأوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة. وختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه ودفع الكتاب إلى رجل منهم فقدم المدينة.

فجمعوا طلحة والزبير وعلياً وسعداً ومَن كان من أصحاب رسول الله ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم واخبروهم بقصة الغلام وأقرأوهم الكتاب. فلم يبقَ أحدٌ من أهل المدينة إلاّ حنق على عثمان. وزاد ذلك مَن كان غضب لابن مسعود وأبي ذر وعمار حنقاً وغيظاً.

وقام أصحاب محمد فلحقوا بمنازلهم.

وحاصر الناس عثمان وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ببني تميم وغيره وأعانه على ذلك طلحة بن عبيد الله. وكانت عائشة رضي الله عنها تقبحه كثيراً.

فلما رأى ذلك علي، بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب النبي كلهم بدري. ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والبعير والغلام.

فقال له علي: هذا الغلام غلامك؟

قال: نعم.

قال: فالبعير بعيرك؟

قال: نعم.

قال: وأنت كتبتَ هذا الكتاب؟

قال: لا! وحلف بالله: ما كتبتُ هذا الكتاب ولا أمرتُ به ولا وجهتُ هذا الغلام إلى مصر.

فأما الخط فعرفوا انه خط مروان. وشكوا في أمر عثمان رضي الله عنه، وسألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى ـ وكان مروان عنده في الدار ـ فخرج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من عنده غِضاباً وشكوا في أمره. وعلموا أنه لا يحلف بباطل.

إلاّ أن قوماً قالوا: لا يبرأ عثمان من قلوبنا إلاّ أن يدفع إلينا مروان حتى نثخنه، ونعرف حال الكتاب. فكيف يُؤمَرُ بقتل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله

وسلم بغير حق؟ فإن يكن عثمان كتبَه عزلناه وإن يكن مروان كتبه على لسان عثمان، نظرنا ما يكون منا في أمر مروان.

ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه القتل. وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء»[1].

وفي رواية الطبري أنه لما أجابهم عثمان بأنه لا يدري مَن الذي كتب الكتاب باسمه، لم يقتنعوا بذلك فقالوا له:

«أفيجترأ عليك، فيبعث غلامك، وجمل من صدقات المسلمين، وينقش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام، وأنتَ لا تعلم؟!»[2].

ولا عجبَ من موقف مروان ذاك. فهو كان يدرك أن أي تفاهمٍ بين الخليفة والثائرين سيكون حتماً على حسابه هو بالذات، وأضرابه من بني أمية. ولا يمكن لمروان أن يسمح بذلك. فالخليفة، بنظره، مُلكٌ لبني أمية، وهو ليس لديه استعداد لأن «يفقده»!

والنص التالي لابن كثير يدل على أن بطانة الخليفة كانت من الأسباب الرئيسية للتمرد، وأن إقصاء الفاسدين الذين وضعهم عثمان في أعلى المناصب كان على قمة مطالب الثوار القادمين من الأمصار والتي تلاقت مع مطالب الأنصار الذين كانوا يعانون في مدينتهم بالذات من أسوأ صور التمييز ضدهم:

«أول مَن اجترأ على عثمان بالنطق السيئ جبلة بن عمرو الساعدي، مرَّ به عثمان وهو في نادي قومه، وفي يد جبلة جامعة. فلما مرّ عثمان سلم فردّ القومُ. فقال جبلة: لِمَ تردّون عليه؟ رجلٌ قال كذا وكذا. ثم أقبل على عثمان فقال: والله لأطرحنَّ هذه الجامعة في عنقك أو لتتركنّ بطانتك هذه.

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٤ ص١١٦٠. ونفس هذا النص بالحرف تقريبا جاء في الإمامة والسياسة ج١ ص٥٦. وكذلك روى ابن حبان في كتاب «الثقات» ج٢ ص٢٥٩ . وأيضاً رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء ص١٨٨ـ١٨٩. وروى ابن حجر العسقلاني في الإصابة ج٤ ص٣٧٩ نفس القصة باختصار.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٠٨.

فقال عثمان: أي بطانة؟ فوالله لا أتخير الناس.

فقال: مروان تخيّرته، ومعاوية تخيّرته، وعبد الله بن عامر بن كريز تخيّرته، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح تخيرته. منهم مَن نزل القرآن بذمّه، وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه.

قال: فانصرف عثمان. فما زال الناس مجترئين عليه إلى هذا اليوم»[1].

كما أن مروان كان يعرف أن نجاح وساطة الصحابة، وعليّ بالذات، بين الخليفة والمتمردين، سيكون شؤماً عليه. فقد كان عليّ يلح على عثمان ويضغط عليه لكي يتخلّص من طغام بني أميّة الذين اتخذهم بطانة فاستغلّوا سلطانه وتحكّموا برقاب المسلمين، وخاصة مستشاره المؤتمن مروان. وقال له عندما حاصره الثوار:

«... فلا تكوننّ لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السنّ وتقضّي العمر...»[2].

وأمام مطالبات الثوار له بأن يخلعَ نفسه من الحكم، لأنه غير صالح لأن يكون خليفة ولأنهم عجزوا عن التوصّل إلى حلٍ مقبول معه، أعلن عثمانُ موقفه النهائي، وهو أن الخلافة منحةٌ إلهيةٌ له ولن يتنازل عنها أبداً:

«قالوا: فليس مثلكَ يلي. اخلع نفسك من هذا الأمر، كما خلعك الله منه.

قال: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل»[3].

وعثمان أعلن موقفه هذا رغم أن الثوار قالوا له مباشرة أنهم أصبحوا الآن يستحلون دمه إن لم يعزل نفسه:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٩٧ . وورد ذلك أيضا بنصّه في تاريخ الطبري ج٣ ص٤٠٠.

(٢) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج٢ ص٢١٢.

(٣) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٠٧. وفيما بعد، سوف يقوم أنصار معاوية باختراع أحاديث نبوية وتفصيلها لتتناسب مع قول عثمان هذا. فمثلاً جاء في سنن ابن ماجة ج١ ص٤١ «عن عائشة، قالت: قال رسول الله: يا عثمان: إن ولاّك الله هذا الأمر يوما، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمّصك الله فلا تخلعه. يقول ذلك ثلاث مرات. قال النعمان: فقلت لعائشة: ما منعكِ أن تعلمي الناس بهذا؟ قالت: أنسيته.».

«فقد والله أحلّ الله دمك ونقضتَ العهدَ والميثاق»[1].

التخلي عن عثمان

كان واضحاً أن أهل المدينة ـ والأنصار خصوصاً ـ قرروا التخلّي عن الخليفة. لقد تملّك الناسَ شعورٌ من اليأس من إمكانية إصلاح سياسة عثمان. كان هناك شعور جَمعيّ بأن الخليفة لا يعدو كونه ألعوبة بأيدي بني أمية الذين يسيّرون كل شيء في الدولة، وأن نجاح محاولات التغيير يعتمد على مدى استعداد الخليفة للاستغناء عن بطانته الفاسدة. ولم يكن عثمان ليوافق على التخلي عن أقربائه الأمويين لعدة أسباب: فهو أولا يحبهم من ناحية فطرية، وحتى حين كان بمكة مع الرسولﷺ وبعدها في المدينة، لم تتدهور علاقته مع قومه وبقي الودّ موجوداً حتى في ذروة فترات الصراع النبوي مع قريش بقيادة بني أمية. وكذلك فإن عثمان بسياسته المنحازة لعائلته قد أغضب عليه كبار الصحابة الذين كانوا يرون أنه قد مالَ عن سياسة أبي بكر وعمر والتي كانت قائمة على أسس قرشية عامة، وانحرف بها لتصبح سياسة عائلية أموية محضة.

وكمثال للإشارة إلى غضب كبار الصحابة على عثمان وخذلانهم له، روى ابن سعد[2] أن أصحاب النبيﷺ كانوا قد خذلوا عثماناً، وأنه لو قام بعضهم فحثا في وجوه الثوار التراب لانصرفوا خاسرين!

وبما أن الأنصار وبني هاشم هم حتماً في المعسكر المعارض لسياسة الخليفة، فإن عثمان في حقيقة الأمر لم يكن يملك عملياً خيار الاستغناء عن بطانته الأموية. فبدون عائلته، على ماذا يتكئ عثمان في حكمه؟

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٩١.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٧١. بل إن هناك الكثير من الروايات في المصادر التاريخية تشير إلى أن طلحة والزبير كانا يؤلّبان الثوار على عثمان وأنهما كانا يدعوان الثوار إلى التشدد في حصار عثمان! (فمثلاً ورد في الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٥٧ أن طلحة دعا الثوار إلى قطع الماء عن عثمان أثناء حصاره). إلاّ أنه من الصعب تصديق تلك الروايات.

وفيما بعد، لخّص علي بن أبي طالب موقفه من عثمان بقوله: «لو أمرتُ به لكنتُ قاتلاً، أو نهيتُ عنه لكنتُ ناصراً... وأنا جامعٌ لكم أمره: استأثرَ فأساءَ الأثرة، وجَزِعتم فأسأتم الجَزَع، ولله حكمٌ واقع في المستأثِر والجازع»[1].

ويعبّر هذا الموقف السلبي من عثمان عن إحباط شديد من جانب عليّ تجاه سياسات الخليفة على مدى سنين طويلة، وعجزه عن التأثير الإيجابي عليه. ولا شك أن الإخلال بالإتفاق الذي توسّط به من طرف عثمان جعل علياً يرفع يديه تماماً ويعتزل الأمرَ. فعليٌ كان يعتقد أن عثمان أودى به سوء عمله، ويظهر ذلك من قوله: استأثر فأساء الاثرة.

وبعد أن يئس الناسُ تماماً من وعود الخليفة العجوز لم يعد هناك سوى واحد من احتمالين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وتجنب القتل: إمّا أن يعزل الخليفة نفسه، أو يسلّم مروان بن الحكم. هذان كانا المطلبين الأخيرين للثوار ولم يكن ممكناً التنازل فيهما.

ولم تكن أعداد الثوار القادمين من الأمصار بالغة الضخامة. ومن المرجح أنه لو كانت لعثمان أدنى قاعدة من التأييد في داخل المدينة لكان بالإمكان صدّ الثوار وردّهم عن الخليفة. ولكن المدينة تركت عثمان يواجه مصيره وحيداً. ونظر أهلها إليه نظرة هي مزيج من التشفي (بالحاكم الظالم) والشفقة (على الرجل العجوز) واللامبالاة (أودى به سوء عمله). وقد ذكر ابن سعد أن أعداد الثوار كانت على النحو التالي «كان المصريون الذين حصروا عثمان ستمائة، رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي وعمرو بن الحمق الخزاعي. والذين قدوما من الكوفة مائتين، رأسهم مالك الأشتر النخعي. والذين قدموا من البصرة مائة رجل رأسهم حكيم بن جبلة العبدي»[2].

ولم يتعاطف مع عثمان في محنته وحصاره من أهل المدينة إلاّ أربعة نفر هم:

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٦٢.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعدج٣ ص٧١.

زيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك وأبو أسيد الساعدي[1].

قال زيد بن ثابت «يا معشر الأنصار: إنكم نصرتم الله ونبيه، فانصروا خليفته.

فقال سهل بن حنيف: يا زيد، أشبعكَ عثمانُ من عضدان المدينة!

فقال زيد: لا تقتلوا الشيخَ ودعوه حتى يموت، فما أقرب أجله.

فقال الحجاج بن غزية الأنصاري، أحد بني النجار: والله لو لم يبقَ من عمره إلاّ بين الظهر والعصر لتقربنا به إلى الله!»[2].

وهؤلاء الذين تعاطفوا مع عثمان كانوا في الواقع من القلّة من أهل المدينة الذين استفادوا من عثمان وحُكمه. فزيد بن ثابت مثلاً كان على علاقة ممتازة مع عثمان إلى درجة أن عثمان قد عهد له بمهمة في غاية الخطورة، وهي نسخ المصحف. وكان اختيار عثمان لزيد، على صغر سنّه ومنزلته في الإسلام، قد أثار غضب القاريء الشهير عبد الله بن مسعود الذي قال «يا معشر المسلمين! أأعزَلُ عن نسخ كتاب المصاحف فيولاّها رجلٌ والله لقد أسلمتُ وإنه لفي صُلب رجل كافر»[3].

ومما يؤيد ما ذهب إليه سهل بن حنيف أن عثمان كان قد «أشبع» زيد بن ثابت، ما ذكره الطبري أن عثمان بن عفان كان قد ولّى زيد بن ثابت الديوان وبيت المال، وما ذكره أحمد بن حنبل عن قتادة «إن زيد بن ثابت ترك ذهباً وفضة كسر بالفؤوس»[4].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص ١٤٣. وورد هذا أيضاً في كتاب «الأنصار» لطاهر آل عكلة ص ٣٠١، نقلا عن الكامل في التاريخ لابن الأثير.

(٢) من كتاب «الأنصار» لطاهر آل عكلة ص ٣٠٢، نقلا عن أنساب الأشراف للبلاذري

وفي رواية تاريخ الطبري ج٣ ص٤٥٢ أن أبا أيوب الأنصاري هو الذي قال لزيد بن ثابت «ما تنصره إلاّ أنه أكثر لك من العضدان!».

(٣) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٠٥.

(٤) كتاب العلل لاحمد بن حنبل ج٢ ص٥ وتاريخ الطبري ج٣ ص٤٥٢.

ويمكن إضافة أسماء كل من النعمان بن بشير و مسلمة بن مخلد إلى تيار «العثمانية «الصغير بين الأنصار.

ولم يكن للعثمانية هؤلاء دَورٌ فعال في الدفاع الفعلي عن عثمان. فهم حاولوا إقناع الثوار بالكف عن الخليفة، وإقناع أهل المدينة بعدم التعاطف معهم. ولم يتجاوزوا ذلك إلى خطوات عملية لحماية عثمان.

فالمدينة المنورة، بالإجمال، بقيت تراقب الخليفة وما يتعرّض له من تهديد خطير، دون أن تبدي حراكاً، ودون أي جهدٍ يُذكر للدفاع عنه أو حمايته. وحتى عندما قام الثوار بإنزال عثمان عن المنبر وشتموه وطردوه من مسجد رسول الله ﷺ وحصروه في بيته لأكثر من أربعين يوماً، لم تقم المدينة بأي شيئ عمليّ للتخفيف من محنته.

وعندما قتل عثمان لم يكن معه سوى نفرٍ قليلٍ من بطانته من بني أمية.

عثمان يطلب النجدة

وقد أرسل عثمان يستنجد بمعاوية في الشام كيّ يهبّ لنجدته. جاء في الإمامة والسياسة لابن قتيبة:

«وكتب إلى أهل الشام عامة، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة: أما بعد، فإني في قوم طال فيهم مقامي واستعجلوا القدر فيّ. وقد خيّروني بين أن يحملوني على شارفٍ من الإبل إلى دخل (جزيرة في اليمن)، وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كسانيّ، وبين أن أقيدهم ممن قتلتُ. ومَن كان على سلطان يخطئ ويصيب. فيا غوثاه يا غوثاه! ولا أمير عليكم دوني. فالعَجَل العَجَل يا معاوية! وأدرك ثم أدرك، وما أراك تدرك»[1].

والكثير من المصادر التاريخية تشير إلى أن معاوية قد تباطأ في نجدة عثمان، وتلمح إلى أنه بشكل أو بآخر تواطأ من أجل أن يقتل عثمان وتحمله مسؤولية ترك

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ٥٤.

الخليفة يواجه مصيره دون مَدَد. ولكن ذلك ليس صحيحاً. بل على العكس، فالأرجح أن مبادرة معاوية بإرسال نجدة عسكرية لإنقاذ الخليفة كانت في الواقع القشة التي قصمت ظهر البعير والتي عجّلت في قيام الثوار بقتل عثمان. جاء في الإمامة والسياسة لابن قتيبة أن الخبر قد جاء إلى الثوار أثناء حصار عثمان «إن معاوية قد بعث من الشام يزيد بن أسيد، مَدَداً لعثمان، في أربعة آلاف من خيل الشام. فاصنعوا ما أنتم صانعون وإلاّ فانصرفوا»[1].

الثوار تحت ضغط زمني

وهكذا فإن الثوار أصبحوا تحت ضغط شديد لكي ينتهوا من الأمر الذي هم بشأنه. فلم يعُد أمامهم متسع مفتوح من الوقت لكي يتصرفوا. فجنود معاوية قادمون في الطريق، وعليهم اتخاذ قرار: يجب على عثمان أن يستسلم، وبأي طريقة كانت، ويقبل بعزل نفسه عن منصبه وبسرعة، وإلاّ كان عليهم مواجهة الجنود القادمين من الشام. ولو وصل جنود معاوية فهم حتماً قادرون على حماية عثمان وعندها يكون قد أسقط بيد الثوار وخاب كل جهدهم. فمعنى ذلك انه ليس فقط سيستمر عثمان في منصبه وسياسته رغماً عن أنف الجميع، ولكن أيضاً سوف تتعزز مكانة معاوية وترتفع إلى عنان السماء في دولة عثمان! كيف لا وهو عندها سيكون الحامي للخليفة والضامن لاستمرار حكمه! وبذلك سيكون سعي الثوار قد ارتد معكوساً عليهم، وهذا ما لا يستطيعون تحمله!

عملية القتل

ومضى على حصار عثمان في داره ٤٩ يوماً حسب أغلب الروايات، وسبقتها الفترة التي لم يكن فيها عثمان محصوراً. وهذه فترة ماراثونية مُنهكة جداً بكل تأكيد: منهكة للثوار أنفسهم، ولعثمان، وللصحابة الموجودين في المدينة ولكل سكانها

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ٥٧. ولكن ابن الأثير في أسد الغابة ج١ ص٣٥٧ ذكر أن الذي أرسله معاوية مددا لعثمان هو حبيب بن مسلمة الفهري، في أربعة آلاف، عادوا إلى الشام بعد أن وصلوا وادي القرى، لمّا بلغهم مقتل عثمان.

أيضاً. إذن وصلت الجموع الثائرة إلى نقطة اللاعودة في صراعها مع عثمان. وكان القتل هو النتيجة الطبيعية للموقف كله.

وتوجد روايات كثيرة حول تفاصيل عملية القتل، ومَن الذين باشروا بتنفيذها فعلا.

وساهم بعض الكارهين لعثمان من أهل المدينة في تهيئة الأجواء أمام الثوار لاقتحام دار عثمان لتنفيذ عملية القتل: «وجاء رفاعة بن رافع بن مالك الأنصاري ثم الزرقي، بنار في حطب، فأشعلها في أحد البابين فاحترق وسقط، وفتح الناس الباب الآخر، واقتحموا الدار»[1].

وتكاد الروايات تجمع على مسؤولية الثوار المصريين عن تنفيذ عملية القتل. ولكن هناك تضارب حول أسماء الأشخاص الذين اقتحموا دار عثمان وقتلوه. وكثير من الروايات تذكر دخول محمد بن أبي بكر عليه وإمساكه بلحيته وقوله له أنه لم يُغنِ عنه معاوية ولا ابن أبي السرح ولا مروان ولا ابن عامر، وأن عثمان ذكّره بأبيه وقال له أنه لو رآه في هذا الموقف لساءه ذلك جداً، فاستحى محمد وخرج ليترك المجال لغيره لينفّذ المهمة. وبالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، تذكر الروايات أسماء: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وابن هذان الأصبحي وغيرهم.

وفي ظل تلك الفوضى العارمة، وحمّى القتل المستعرة، يصعب تحديد الذين قاموا بتسديد الطعنات إلى جسد عثمان العجوز، ولكن الأرجح أن يكونوا من بين هؤلاء الأشخاص المعروفين بحماسهم وتشددهم تجاه عثمان.

وليس مهماً في الحقيقة أن تتم الإشارة إلى اسم معين كمسؤول عن قتل عثمان، لأن ظروف تلك الحادثة تجعل المسؤولية جماعية إلى أقصى حد. فما تمّ ليس حادث اغتيال فردي وإنما نتيجة هياج عام وغليان تراكم حتى انفجر. ومن

---

(١) من كتاب «الأنصار» لطاهر آل عكلة ص ٣٠٢، نقلا عن أنساب الأشراف للبلاذري.
ورفاعة بن رافع بن مالك كان أبوه من النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة. وجاء في ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير ج٢ ص١٧٨ أنه شهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان والمشاهد كلها مع الرسولﷺ.
وفي رواية تاريخ الطبري ج٣ ص ٤١٤ أن رفاعة بن رافع ضرب مروان بن الحكم وصرعَه وتركه بعد أن ظن أنه قتله.

المستبعد أن يكون هناك مَن بين الثوار من لم ينفذ صبره بعد ذلك الحصار الطويل والمفاوضات المضنية، بلا طائل[1].

وتذكر الروايات بعض التفاصيل الدرامية في ذلك الموقف العصيب. وبعضها يشير إلى دفاع زوجة الخليفة، نائلة بنت الفرافصة، عنه دون جدوى، مما أدى إلى قطع أصابع يدها. وبعضها الآخر يشير إلى أن الخليفة كان يقرأ القرآن حين قتل «فسالَ الدمُ على المصحف»! وكان قتل عثمان في ١٨ من ذي الحجة سنة ٣٥.

ملاحظة حول مروان

ومن المدهش جداً أن مروان بن الحكم قد نجا من القتل!

وليس هناك أي تفسير مقنع يمنع الثوار من قتل مروان. وعلى الرغم من أن بعض الروايات تشير إلى أن مروان تعرّض للضرب والاعتداء حتى أغشي عليه، إلاّ أن ذلك مستبعد تماماً. فرأس مروان كان من المطالب الرئيسية للثوار، والذي بسببه ربما فقد عثمان حياته. فكيف يمتنع الثوار عن قتل مروان إذن؟ لقد قاموا بقتل رأس الدولة، وشيخ بني أمية، ولم يبالوا بكونه خليفة للمسلمين، فما الذي يمكن أن ينالهم من جراء إضافة مروان إلى جانب عثمان كضحية لهذه الثورة؟

فالأرجح إذن أن مروان بن الحكم قد فرّ من المدينة المنورة بطريقة ما، لما شعر باقتراب أجل عثمان ولمَسَ تصميمَ الثوار على قتله. وليس تصرفٌ كهذا بغريب على شخص بلا مبادئ كمروان.

نهاية عثمان

وقد بلغ من شدة تخلّي أهل المدينة المنورة عن عثمان أن دفنه أصبح مشكلة بالنسبة لهم! وقد بقيت جثته عدة أيام بلا دفن إلى أن تدخلت ابنة عمه، زوجة الرسول ﷺ، من أجل أن يدفن، حيث تولى دفنه أربعة أشخاص فقط، وفي الليل،

---

(١) يمكن مراجعة تفاصيل الروايات في تاريخ الطبري ج٣ ص٤١١ـ٤٢٥ وكذلك في تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٧٦، وفي الإمامة والسياسة ج١ ص٦٣ وفي تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ج٤ ص١٢٣٠ وفي تاريخ خليفة بن خياط ص١٢٩.

ومنعَهم بعض الأنصار أن يدفنوه في مقبرة المسلمين في البقيع!

«جاءت أم حبيبة بنت أبي سفيان فوقفت على باب المسجد فقالت: لتخلّن بيني وبين دفن هذا الرجل أو لأكشفنّ ستر رسول الله، فخلوها.... فانتهوا به إلى البقيع، فمنعهم من دفنه جبلة بن عمرو الساعدي. فانطلقوا إلى حش كوكب ومعهم عائشة بنت عثمان، معها مصباح في حق. فصلى عليه مسور بن مخرمة ثم حفروا له، فلما دلوه صاحت بنته، فلم يضعوا على لحده لبناً، وأهالوا عليه التراب وانصرفوا»[١].

ووردت نفس الرواية في الإمامة والسياسة لابن قتيبة[٢] وفيها أن رجالاً من الأنصار منهم جبلة بن عمرو الساعدي الأنصاري قالوا: لا والله لا تدفنوه في بقيع رسول الله ولا نترككم تصلون عليه«والأشخاص الذين تولوا دفن عثمان هم جبير بن مطعم وأبو الجهم بن حذيفة والمسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير.

وهكذا كانت نهاية الخليفة الثالث. مأساويةً وفظيعة.

كان قتل عثمان حدثاً جللاً في عالم الإسلام. فهو كان الخليفة الشرعي، رمز وحدة أمة العرب، وقائدها.

بيعة عليّ

كان التوافد على عليّ من أجل البيعة عفوياً من أهل المدينة بسبب خطورة الأوضاع. كان حركة جماهيرية شبه استفتائية دون تشاورٍ مسبق:

«لما قتل عثمان جاء الناس كلهم إلى عليّ يهرعون، أصحاب محمد وغيرهم، كلهم يقول: أمير المؤمنين عليّ. حتى دخلوا عليه داره. فقالوا: نبايعك، فمدّ يدك. فأنت أحق بها. فقال عليّ: ليس ذاك إليكم. إنما ذاك إلى أهل بدر. فمن رضي به

(١) تاريخ المدينة لابن شبة النميري ج١ ص١١٢. وورد في تاريخ الطبري ج٢ ص٤٣٨ أن جثة عثمان بقيت لثلاثة أيام إلى أن دُفن في حش كوكب وهو مكان من ضواحي المدينة كانت اليهود تدفن فيه موتاهم.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٦٥ .

أهل بدر فهو خليفة. فلم يبقَ أحدٌ إلاّ أتى علياً فقالوا: ما نرى أحداً أحق بها منك. فمُدّ يدكَ نبايعك»[1].

إذن يصرّ عليّ على الشرعية، المتمثلة بنظره في أهل السبق في الإسلام ونصرة الرسول والجهاد في سبيل الله، أو حسب تعبيره: أهل بدر. ولكن كان هناك شعورٌ جماعيٌ في المدينة بأن الأمة لا يجوز أبداً أن تبقى بدون إمام. كان شغور منصب الخليفة ـ ولو لفترة قصيرة ـ يمثل تهديداً خطيراً لوحدة أمة العرب التي أنجزها رسول الله ﷺ ووطّدها الخلفاء من بعده. وقد عبر ابن قتيبة عن ذلك بقوله أن الناسَ «كلّمَ بعضهم بعضاً فقالوا: يمضي قتل عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله، ولا يسمعون انه بويع لأحد بعده. فيثور كل رجل منهم في ناحية، فلا نأمن أن يكون في ذلك الفساد. فارجعوا إلى عليّ فلا تتركوه حتى يبايع. فيسير مع قتل عثمان بيعة عليّ، فيطمئن الناس ويسكنون»[2].

وحسب رواية ابن كثير «وقد امتنعَ عليّ من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرّر قولهم له. وفرّ منهم إلى حائط بني عمرو بن مبذول. وأغلقَ بابَه فجاءَ الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه. وجاؤوا معهم بطلحة والزبير. فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير. ولم يزالوا به حتى أجابَ»[3].

قرر عليّ التجاوب مع نداء الجماهير الخائفة. وهو بقراره ذلك كان يلغي المبدأ الذي أرساه عمر بن الخطاب في حصر شؤون الخلافة في مجموعة ضيقة من الصحابة القرشيين واستثناء جمهور المسلمين، سواء من الترشيح أو الترشّح. وهو

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٤ ص٣٢. ومثل ذلك روى ابن حبان في كتاب «الثقات» ج٢ ص٢٦٧. وأيضاً رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء ص١٩١. وأما في الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٦٥ فقد ورد «فقام الناس فأتوا علياً في داره. فقالوا: نبايعك. فمدّ يدك. لا بد من أمير، فأنت أحق بها. فقال: ليس ذلك إليكم. إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر. فمن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة. فنجتمع وننظر في هذا الأمر. فانصرفوا عنه».
ولكن من المستبعد أن يكون عليّ قد أضاف «أهل الشورى» إلى أهل بدر كمصدر للشرعية. فهو لم يعترف بشورى عمر ولم يتعامل معها إلاّ مرغماً.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٦٦.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٥٣.

بذلك يقبل أن تكون شرعية حكمه قائمة في الأساس على إجماع أهل المدينة: جمهور الأنصار.

هل كان عليّ طالبا للحكم؟

نعم ولا شك في ذلك!

ولكن سيرته اللاحقة تثبت أن ذلك لم يكن لأسباب شخصية. وقد قال عليّ مرّة«... اللهم انّك تعلم أنّه لم يكن منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيئ من فضول الحطام، ولكن لنردَ المعالمَ من دينك، ونظهر الإصلاحَ في بلادك. فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطّلة من حدودك. اللهم إنّي أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني الاّ رسول الله بالصّلاة. وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلّهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويذهب بها دون المقاطع، ولا المعطّل للسنّة فيهلك الأمّة»[1].

ولم يكن تمنّع عليّ عن القبول الفوري للبيعة إلاّ تعبيراً منه عن جسامة المهمة التي تنتظره. فهو كان يحمل نوايا إصلاح كبيرة جداً، وتتطلّب من جمهور المسلمين قبول تضحيات لا شك عظيمة. فكأنه بتمنّعه ذاك أراد أن يقيم نوعاً من الحجة على الناس، لكي يعرفوا أنهم باختيارهم علياً، أخيراً، لا بد لهم من قبول قيادته وتوجيهاته مهما كانت مؤلمة. فهو يريد أن يقول لهم: أنتم الذين اخترتموني، وعليكم تنفيذ تعهداتكم الضمنية بالوفاء لي.

موقف كبار الصحابة

هناك تضاربٌ في الروايات حول بيعة كبار الصحابة، والقرشيين منهم خاصة، لعليّ. والأرجح أن يكون أبرزهم قد بايعوه بالفعل، ولكن عن غير رغبةٍ منهم، بل

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص١٧٨.

ربما بضغطٍ أو نوع من الإكراه من جانب الثوار.

فبشأن طلحة والزبير: على الرغم من أن المصادر التاريخية متضاربة حول بيعتهما وكيف تمّت، إلاّ أن الأرجح أنهما بايعا علياً مكرهَين[1]، وإن كان من المستبعد أن يكون عليٌ قد أمرَ بذلك، إلاّ أنه ولا شك كان يدرك أنهما إنما يبايعان كارهين، وقبلَ ذلك منهما لأنه لا سبيل آخر في تلك الظروف، ولأن الشكليات مهمة أيضاً وخاصة ضرورة الظهور بنوع من الوحدة من قبل صحابة الرسولﷺ.

وسوف يصرّ عليّ لاحقاً على إلزامية بيعته في أعناق الرجلين، وسوف يحتج عليهما ببيعتهما له على الملأ ولن يقبل منهما ادعاءهما بأنهما بايعا مُكرَهين. فعليّ يعتبر أنه لا يجوز نكث البيعة بعد حصولها، بغضّ النظر عن الاقتناع الشخصي للرجل المبايع وموقفه من الخليفة.

فقد كتب عليّ إلى طلحة والزبير قبيل معركة الجمل «فإن كنتما قد بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية. وإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا إلى الله من قريب»[2].

وقال أيضا عن الزبير بالتحديد:

«يزعم أنه قد بايع بيده، ولم يبايع بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة، وادّعى الوليجة فليأتِ عليها بأمر يعرف، وإلاّ فليدخل فيما خرج منه»[3].

وعليّ نفسه كانت سيرته مثالاً أكيداً على هذا المبدأ: فهو قد بايعَ الخلفاءَ قبله عن غير اقتناع منه ولا رغبة. وعندما أشار معاوية بن أبي سفيان مرة، في معرض القدح، إلى أن علياً كان يبايع الخلفاء قبله مُكرهاً، لم ينفِ عليّ ذلك بالتحديد:

«وقلتَ أني كنتُ أقاد كما يقاد الجملُ المخشوش حتى أبايع. ولعمر الله لقد

---

(١) فمثلا روى الذهبي في سير أعلام النبلاء ج١ ص٣٥ «كان طلحة أولَ مَن بايع. أرهقه قتلة عثمان، وأحضروه حتى بايع».

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٩٠.

(٣) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٤٠. والوليجة هي ما يضمر في القلب ويكتم.

أردتَ أن تذمّ فمدحت، وأن تفضحَ فافتضحت! وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً، ما لم يكن شاكّا في دينه ولا مرتاباً بيقينه. وهذه حجّتي إلى غيرك قصدها...»[1].

وقد كان قاومَ الضغوط الكبيرة التي تعرّضَ لها ليبايع أبا بكر بعد السقيفة، واستمر على موقفه ذاك فترة طويلة. ولكنه بعد أن بايعَ اعتبر أن البيعة قيدٌ ملزمٌ في عنقه يستحيل الخروج عليه. وكذلك تكرر مع عمر وعثمان. لم يشق عليّ عصا الطاعة ولم يدعُ إلى ثورة، وقرر اعتبار وحدة جماعة المسلمين فوق كل اعتبار. كان الشعور الداخلي بالظلم والغبن الذي تعرّض له نوعاً من التضحية التي يقدم عليها عليّ من أجل مصلحة دين محمدﷺ وأمة العرب التي وحّدها. ولا شك أن علياً كان يذكر أن عدداً مهماً من كبار شخصيات الصحابة قد تخلفوا عن بيعة أبي بكر في أول الأمر، وعارضوا تنصيبه خليفة، ولكنهم اضطروا إلى القبول به والاعتراف بسلطته لاحقاً، بعد أن حصل على بيعة عامة من المسلمين، في المدينة. إن غياب كل بني هاشم، وعلى رأسهم عليّ والعباس، بالإضافة إلى شخصيات من عيار أبيّ بن كعب، وعمار بن ياسر، وسعد بن عبادة، وأبي ذر الغفاري، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، لم ينقض بيعة أبي بكر ولم يمنعه من ممارسة سلطته.

وكان عليّ يؤمن أن هذا هو السلوك الواجب اتباعه من قبل الصحابة لأنه لا يمكن أبداً حصول إجماع على شخص الخليفة على صعيد الاقتناع الشخصي لكل الناس. ولا بد أن يوجد من بين الناس مَن يعتقد أن شخصاً آخر أولى من الخليفة في منصبه، فما العمل؟

الحل بنظر عليّ هو أن مَن يمنح الشرعية هم غالبية أهل المدينة المنورة والمهاجرين، وذلك قد حصل بالفعل في حالته. مع ملاحظة أن علياً هنا يخالف منهج عمر بن الخطاب في حصر الأمر في شورى بضعة أشخاص من المهاجرين

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص٣٣٤.

القرشيين واستثناء الأنصار من ذلك تماماً.

ذكر الطبري[1] عدة روايات عن طلحة والزبير كلها تؤكد أنهما قد بايعا علياً بالفعل، ولكنها تتناقض حول طريقة تلك البيعة. فبعضها يشير إلى انهما كانا من أوائل مَن بايعه من الناس طواعية واختياراً، وبعضها الآخر يشير إلى أنهما أجبرا على البيعة من قبل مالك الأشتر ومَن معه من الثوار. والرواية الأخيرة هي الأصح.

ولكن لا يمكن اعتبار طلحة والزبير معفيين من اللوم ولا بريئين من مسؤولية التمرد على الخليفة وإشعال الحرب الأهلية الأولى في الإسلام بعد بضعة شهور، حتى وإن تعرضا لضغوط لكي يبايعا! لأنه ببساطة كان ممكناً لهما أن يعتذرا من عليّ عن عدم البيعة، ولم يكن عليّ ليكرههما عليها بالقوة. فمثلاً يروي الطبري أن كلاً من سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وعلى انفراد، قد رفضا بيعة عليّ وقالا له: «لا نبايع حتى يبايع الناس» وأنه تركهما ولم يجبرهما على البيعة. ولا يخفى أن سعد بن أبي وقاص هو نظيرٌ لطلحة والزبير، وكان ممكناً لهما أن يفعلا مثله، بدلاً من نكث البيعة العلنية لاحقاً.

واللافت أن سعداً وابن عمر، وهما لم يبايعا علياً في الأصل، لم يشتركا مباشرة في قتاله وحربه وفضّلا الاعتزال فيما بعد، بعكس الزبير وطلحة الذين قررا نكث بيعتهما وشنّا عليه حرباً ضروساً.

ولن ينفي الزبير ولا طلحة، حينما يواجههم الناس في البصرة بعد بضعة شهور بإلزامية بيعتهم لعليّ، أنهما بالفعل قد بايعاه، ولكنهما سيتعذّران أنهما بايعا مجبَرين «وقال الزبير: بايعنا علياً والسيف على أعناقنا. حيث تواثب الناس بالبيعة إليه دون مشورتنا».

«قال طلحة: دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس... وخفنا أن نرد بيعته فنقتل، فبايعناه كارهين»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص ٤٥١.

(٢) هذان الاقتباسان من الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٨١ و ص٨٨

وموقف سعد بن أبي وقاص من بيعة عليّ يثير الدهشة فعلاً، ولا يمكن تفسيره سوى بالتزام سعد الراسخ بالموقف القرشيّ المبدئيّ الرافض قطعياً لوصول عليّ إلى منصب الخلافة، تحت أي ظرفٍ من الظروف! وقد أشار عليّ فيما بعد إلى الضغينة التي يكنها سعدٌ له في صدره حين قال في خطبةٍ له مشهورة «... فصغى رجلٌ منهم لضِغنه...»[1].

فسعدٌ هو الأعلمُ بحقّ عليّ وفضله، وهو بالذات روى بعضاً من أهم فضائل عليّ بن أبي طالب المشهورة. وقد روى أئمة الحديث أن سعداً هو الذي شهدَ في مواقف عدة، أحدها أمام معاوية بن أبي سفيان، أن النبيﷺ قال إن منزلة عليّ منه كمنزلة هارون من موسى يوم تبوك، وأنه امتدحه وأعطاه الراية يوم خيبر، وأن آية المباهلة نزلت في عليّ وزوجته وابنيه، وأن الرسولﷺ قد أمسك بيد عليّ أمام المسلمين يوم غدير خم وقال: مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه.

فكيف امتنع سعدٌ عن بيعة عليّ ونصرته بعد كل ما رواه؟

فحتى على افتراض أن سعداً كان مستاءً لمقتل عثمان بتلك الطريقة العنيفة، فلا شأن لعليّ بذلك. وسعدٌ كان يعرف أن علياً ليس مسؤولاً عن سوء سياسة عثمان التي أدّت إلى الثورة عليه.

لقد اتخذ سعدٌ موقف الحياد السلبي خلال كل الصراع الطويل الذي خاضه عليّ ضد خصومه الكثر. وكان موقفه هذا، في النهاية، نصرة فعلية لمعاوية ـ وهو ابن هند وأبي سفيان ـ لأنّه ببساطة ساوى بين الطرفين من ناحية أخلاقية، وذلك غاية ما كانَ يطمح اليه معاوية!

لقد أجادَ معاوية استغلال موقف سعد. فمعروفٌ أن سعداً كان من طبقة أوائل المؤمنين بدعوة محمدﷺ، ومجرّد أن يتخاذل عن نصرة عليّ، وأن يتقوقع في بيته لسنواتٍ طويلة، يعني أن لديه ميلاً نفسيا ظاهراً نحو معسكر طلقاء قريش ضد معسكرٍ عليّ وأهل الرسولﷺ والأنصار.

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٣٥.

وإن ذلك الطلب التعجيزي لسعد من عليّ حين دعاه إلى نصرته:

«قال سعد: أعطني سَيفاً يعرف المسلمَ من الكافر حتى أقاتلَ به معك!»[1].

يعني أن سعداً أبلغ علياً أنه لن يؤيده أبداً[2].

*****

وبالإضافة إلى سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، كان هناك مَن شاركهم في الموقف من الصحابة من أمثال أسامة بن زيد، مع اختلاف السبب الكامن وراء هذا الموقف من بيعة عليّ. فأسامة بن زيد برّر لعليّ تقاعسه عنه بأنه قد عاهدَ اللهَ أن لا يشهر سيفه بوجه إنسانٍ يقول (لا إله إلاّ الله) أبداً، بعد ذلك الموقف الذي حصلَ معه أيام الرسولﷺ حينما قتلَ رجلاً من المشركين نطقَ بالشهادتين في آخر لحظة قبل قتله، فلامَه الرسولﷺ على ذلك بشدة وكررَ قوله له «هلاّ شققتَ عن قلبه؟».

واتخذ محمد بن مسلمة موقفاً مشابهاً، وقال لعلي حين نادى في الناس للخروج إلى العراق بعد بضعة شهور «إن رسول اللهﷺ أمرني أن أقاتل بسيفي ما قوتل به المشركون، فإذا قوتل أهل الصلاة ضربتُ به صخر أحُدٍ حتى ينكسر، وقد كسرته بالأمس»[3].

وهؤلاء جميعاً سيؤسسون لتيار «اعتزال الفتنة»، وهو التيار الذي سينتهي به الأمر في نهاية المطاف إلى القبول بخلافة الغلبة والقهر، بعدما أسفرت الفتنة والصراع عن انفراد معاوية والأمويين بالسلطة.

*****

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٤٣. روى مثل ذلك ابن حبان في كتاب «الثقات» ج٢ ص٢٧٠.

(٢) ويبدو أن سعدا قد ورّث الحقد على آل بيت الرسولﷺ لابنه عمر، الذي أصبح فيما بعد قائدا للجيش الأموي الذي ارتكب مذبحة كربلاء بحق آل بيت النبوة.

(٣) الأخبار الطوال للدينوري ص١٤٣.

وقد تجاهل عليّ هؤلاء «المتوقفين» جميعاً، وقبلَ الخلافة رغم علمه الأكيد بأن شرعيته مبتورة وناقصة حسب منهاج عمر بن الخطاب في قيادة أمة الإسلام.

موقف طلقاء قريش

وأما الطلقاء وزعماء قبيلة قريش، فقد كان خير تعبير عن موقفهم من بيعة عليّ ما قاله عبد الله بن سعد بن أبي السرح لما وصله الخبر:

«فطلعَ عليه راكبٌ. فقال: يا عبد الله ما وراءك؟ خبّرنا بخبر الناس.

قال: قتلَ المسلمون عثمان.

فقال عبد الله بن سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون.

يا عبد الله: ثم صنعوا ماذا؟

قال: ثم بايعوا ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب.

قال عبد الله بن سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال له الرجل: كأن ولاية علي عدلت عندكَ قتلَ عثمان؟

قال: أجل»[1].

وموقف هؤلاء كان متوقعاً، وليس فيه أي مفاجأة.

موقف أهل المدينة: الأنصار مع عليّ

وأبدت المدينة المنورة حماسة وبهجة لاختيار علي بن أبي طالب خليفة. فعلى سبيل المثال:

«وقام قومٌ من الأنصار فتكلموا. وكان أول مَن تكلم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، وكان خطيب الأنصار، فقال: والله يا أمير المؤمنين لئن كانوا تقدموك في الولاية فما تقدموك في الدين، ولئن كانوا سبقوك أمس فقد لحقتهم اليوم. ولقد كانوا وكنتَ. لا يخفى موضعك ولا يجهل مكانك. يحتاجون إليك فيما لا يعلمون، وما احتجتَ إلى أحدٍ مع علمك.

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٩ ص٤١.

ثم قام خزيمة بن ثابت الأنصاري، وهو ذو الشهادتين، فقال: يا أمير المؤمنين! ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك، ولا كان المنقلب إلاّ إليك. ولئن صدقنا أنفسنا فيك، فلأنتَ أقدم الناس إيماناً وأعلم الناس بالله، وأولى المؤمنين برسول الله. لكَ ما لهم، وليس لهم ما لك[(١)].

وقال رفاعة بن رافع الأنصاري «... وقد بايعناك ولم نألُ، وقد خالفك مَن أنتَ خيرٌ منه وأرضى، فمُرنا بأمركَ».

وقال الحجاج بن غزية الأنصاري «... يا معشر الأنصار! أنصروا أمير المؤمنين ثانيةً، كما نصرتم رسول الله ﷺ. وإن الآخرة لشبيهة بالأولى...»[(٢)].

وقد بقي الأنصار مخلصين لعلي حتى النهاية، وكانوا معه بغالبيتهم الساحقة. روى اليعقوبي:

«وكان مع علي يوم صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، وممن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجرين والأنصار أربعمائة رجل. ولم يكن مع معاوية من الأنصار إلاّ النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد»[(٣)].

وأما الثوار من أهل الأمصار الذين كان حضورهم كثيفاً في المدينة، فلم يكن دورهم مباشراً في عملية انتخاب وبيعة عليٍ. فعلى الرغم من أن شخص عليٍ كان يناسبهم تماماً، إلاّ أنهم كانوا يُسَلمون بأن ليس في مقدورهم أن يمنحوا الشرعية للخليفة. وكانوا يعرفون أن أهل المدينة وحدهم هم الذين يقدرون على منح

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٧٩. وخزيمة بن ثابت هو من كبار الصحابة، وشهد أحدا ومؤتة كما جاء في سير أعلام النبلاء للذهبي. وقد قبل رسول الله شهادته عن شهادة رجلين كما روى البخاري في صحيحه ج٦ باب سورة الأحزاب ص٢٢.

وقد أصبح من كبار قادة جيش الإمام علي واستشهد معه في معركة صفين.

(٢) قول رفاعة والحجاج من أسد الغابة لابن الأثير ج٢ ص١٧٩. ومثل ذلك روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص١٧٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٨٨. وورد في تاريخ خليفة بن خياط ص١٤٨ أنه كان مع علي ٨٠٠ رجل ممن شهدوا بيعة الرضوان واستشهد منهم ٦٣ في المعركة. ومن المحتمل أن تكون هذه الأرقام مبالغاً فيها، خاصة وأن الفارق الزمني بين معركة بدر ويوم الحديبية وصفين يزيد على ٣٠ عاما، ولكن السياق العام للروايات صحيح.

الشرعية أو حجبها. ولذلك انحصر دورهم في الضغط على معارضي بيعة عليّ، بعد أن انتخبته المدينة.

ولكن التيار العثماني، الصغير، من الأنصار، وكما هو متوقع، لم يكن سعيداً بوصول عليّ للخلافة. فهؤلاء القلة الذين كانوا قد استفادوا من عهد عثمان كانوا يشعرون أن امتيازاتهم ستزول على يد عليّ. فقد روى ابن عساكر:

«لما بويع عليّ بن أبي طالب، بلغَه عن حسان بن ثابت وكعب بن مالك[1] والنعمان بن بشير، وكانوا عثمانية، أنهم يقدّمون بني أمية على بني هاشم ويقولون: الشام خيرٌ من المدينة».

وقد حصل جدالٌ بينهم وبين عليّ، أسفر في النهاية عن قرار عليّ بطردهم من المدينة:

«أخرجوا، فلا تجاوروني في بلدٍ أنا فيه.

فخرجوا من يومهم فساروا حتى أتوا معاوية، فقال لهم: لكم الكفاية. فأعطى حسانَ بن ثابت ألف دينار وكعبَ بن مالك ألف دينار وولى النعمان بن بشير حمص، ثم نقله إلى الكوفة بعد»[2].

وقد كان حسان بن ثابت، الشاعر، هو صاحب القصيدة المشهورة التي يحث فيها أهلَ الشام ومعاوية على الثأر لعثمان والطلب بدمه:

لتسمعنّ وشيكاً في ديارهم   الله أكبر واثارات عثمانا

وقد كان معاوية كثيرا ما يردد بيتاً من الشعر فيه اتهامٌ لعليّ بقتل عثمان، حتى كاد يتخذه شعاراً:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني   ما كان شأن عليٍّ وابن عفانا

(١) وكعب بن مالك هذا كان من الثلاثة الذين تخلفوا عن الرسولﷺ يوم تبوك، فنزلت فيهم الآية القرآنية. ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٥٠ ص١٨٠.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٥٠ ص١٧٨.

ومن الأنصار القليلين الذين امتنعوا عن بيعة علي كان زيد بن ثابت. واكن ذلك متوقعاً لأن زيد بن ثابت كان من رجال عثمان المقربين، وهو كان قد رَفَعَ ذِكرَه حين كلفه بنسخ المصحف، وأغدقَ عليه الأموال وولاّه بيت المال.

ولكن الأنصار، في إجمالهم، كانوا يعتبرون مآل الخلافة إلى عليّ عودة للحق على نصابه. واجتماعهم على عليّ، رغم مخالفة قريش ومَن والاها، كان بنظرهم أمراً يشابه اجتماعهم في السابق حول رسول الله ﷺ حين عاداه نفس أولئك الذين اجتمعوا ضدّه اليوم، وآباؤهم. وقد عبّر قيس بن سعد بن عبادة عن ذلك في معرض ردّه على «الأنصاري الخائن» «النعمان بن بشير»[1]، أثناء معركة صفين حين خاطبه الأخير معاتباً له وللأنصار بسبب نصرتهم لعلي:

«إن النعمان بن بشير الأنصاري وقف بين الصفين فقال: يا قيس بن سعد: اما أنصفكم مَن دعاكم إلى ما رضي لنفسه؟ إنكم يا معشر الأنصار أخطأتم في خذل عثمان يوم الدار، وقتلكم أنصاره يوم الجمل، وإقحامكم على اهل الشام بصفين. فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم علياً كان هذا بهذا. ولكنكم خذلتم حقاً ونصرتم باطلاً ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس حتى أشعلتم الحرب ودعوتم إلى البراز، فقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً إلى برازكم، غير أنكاس عن حربكم. ثم لم ينزل بعليّ أمرٌ قط إلاّ هونتم عليه المصيبة، ووعدتموه الظفر. وقد والله أخلفتموه، وهان عليكم بأسكم وما كنتم لتخلوا به انفسكم، من شدتكم في الحرب، وقدرتكم على عدوكم. وقد اصبحتم أذلاء على أهل الشام، لا يرون حربكم شيئا وأنتم اكثر منهم عددا ومَدَداً. وقد والله كاثروكم بالقلة، فكيف لو كانوا مثلكم في الكثرة؟ والله لا تزالون أذلاء في الحرب بعدها ابداً، إلاّ أن يكون معكم أهل الشام. وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم، نحن أحسن بقية وأقرب إلى الظفر، فاتقوا الله في البقية.

---

(١) الذي كان أبوه أول من شقّ الصف الأنصاري يوم السقيفة، وانحاز للقرشيين، حين وثب فبايع أبا بكر.

فضحك قيس وقال: والله ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذا المقام. اما المنصف المحق فلا ينصح أخاه من غش نفسه، وأنت والله الغاش لنفسه، المبطل فيم انتصح غيره. أما ذكركَ عثمانَ فإن كان الإيجاز يكفيك فخذه: قتلَ عثمانَ مَن لستَ خيراً منه، وخذله مَن هو خيرٌ منك.

وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث.

وأما معاوية فلو أن العرب اجتمعت على بيعته لقاتلتهم الأنصار!

وأما قولك: إنا لسنا كالناس، فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله، نتقي السيوف بوجوهنا، والرماح بنحورنا حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون.

ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلاّ طليقا أعرابياً أو يمانيا مستدرجا؟

وانظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه؟

ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وغير صويحبك؟ ولستما والله بدريين ولا عقبيين ولا أحديين ولا لكما سابقة في الإسلام ولا آية في القرآن»[1].

وبالفعل، فقد كان كل الأنصار ووجوههم موجودين مع عليّ يوم صفّين. ومن أبرز هؤلاء الصحابة الأنصار، بالإضافة إلى قيس بن سعد وخزيمة بن ثابت وثابت بن قيس بن شماس، كان أبو مسعود الأنصاري وأبو سعيد الخدري، وأبو أمامة الصدى ين عجلان، وأبو أيوب الأنصاري، وعثمان بن حنيف، وسهل بن حنيف، وسعد بن الحارث، وأبو عمرة بشير بن عمرو وغيرهم. وبعض هؤلاء استشهد في المعركة مع عليّ[2].

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٣١.

(٢) من كتاب المحبر لابن حبيب البغدادي ص٢٩٠. وذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص١٠٣ أن خزيمة بن ثابت وأبا فضالة الأنصاري استشهدا مع عليّ في صفين.

وبدوره كان عليّ يكنّ حباً عظيما للأنصار. فجَعلهم خاصته ومقربيه، واعتمدَ عليهم في القيادة والإدارة، وعيّن منهم في مناصب رئيسية في حكومته. وقد وصفهم مرة لأصحابه في الكوفة فقال:

«... وما كانوا يوم أعطوا رسول الله ﷺ أن يمنعوه ومَن معه من المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلاّ قبيلتين، قريباً مولدهما، وما هما بأقدم العرب ميلاداً، ولا بأكثرهم عدداً.

فلما آووا النبي ﷺ وأصحابه، ونصروا الله ودينه، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فتحالفت عليهم اليهود، وغزتهم القبائل قبيلة بعد قبيلة، فتجردوا لنصرة دين الله، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل، وما بينهم وبين اليهود من الحلف، ونصبوا لأهل نجدٍ وتهامة وأهل مكة واليمامة، وأهل الحزن والسهل، وأقاموا قناة الدين، وصبروا تحت حماس الجلاد، حتى دانت لرسول الله ﷺ العرب، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله عز وجل إليه..»[1].

*****

ولم ينسَ الحكام الأمويون أبدا للأنصار مواقفهم المشهودة، سواء منها الخاذلة لعثمان والمبتهجة للخلاص منه، أو الناصرة لعليّ بن أبي طالب والموالية له. فمثلاً:

«قدمَ عبد الملك المدينة وهو غضبانٌ على أهلها، فصلى بهم صلاة الصبح، فقرأ بهم في الركعة الأولى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) ـــ آية ١ من سورة محمد ـ و(إذا زلزلت) وقرأ في الركعة الثانية سورة الفتح و(إذا جاء نصر الله). ثم خرج وعليه جبة خز. وكنا بين يديه نسمعه عابساً قد حفت به الحراب، وأهل المدينة يسبحون.

فقال: يا أهل المدينة! مالكم تسبحون كأنكم أنكرتم دخولنا المسجد؟ أما والله لو قتلتكم في نواحيها لرأيتكم حلالا! الحمد لله الذي أذلكم بعد عزكم ووضعكم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٨٩

بعد ارتفاعكم، وانزل بكم بأسَه الذي لا يرده عن القوم المجرمين. إنما مثلكم كمثل القرية التي ضرب الله مثلها: قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.....

وقام ابن مصقلة فقال: يا أهل المدينة! شاهت الوجوه. أنتم والله أخبث الناس أنفساً وأخبث حجراً ومدرا»[1].

*****

موقف الأمصار من بيعة عليّ

خلال الأشهر الأولى التي تلت مقتل عثمان، نجح عليّ في الحصول على الاعتراف به في معظم الأمصار:

فالبصرة قبلت الوالي الجديد لعليّ: عثمان بن حنيف الأنصاري، دون أي مشاكل، بعد أن تركها والي عثمان عبد الله بن عامر. وجديرٌ بالذكر أن والي عثمان، ابن عامر، حاول جسّ نبض أهل البصرة فيما لو حاول إعلان العصيان على الخليفة الجديد ولكنه تلقى جواباً سلبياً جعله يقرر المغادرة إلى الحجاز:

«وبلغ أهلَ البصرة قتل عثمان. فقام ابن عامر فصعد المنبر فخطب وقال: إن خليفتكم قتل مظلوماً، وبيعته في أعناقكم، ونصرته ميتاً كنصرته حياً، واليوم ما كان أمس. وقد بايع الناس علياً، ونحن طالبون بدم عثمان، فأعدوا للحرب عدتها!

فقال له حارثة بن قدامة: يا ابن عامر: إنك لم تملكنا عنوة. وقد قتل عثمان بحضرة المهاجرين والأنصار وبايع الناس علياً، فإن أقرّكَ أطعناك، وإن عزلكَ عصيناك».

واستقبلت اليمن واليها الجديد المرسل من قبل علي، عبيد الله بن عباس، وأعطته البيعة: «وأما عبيد الله بن عباس فإنه خرج منطلقاً إلى اليمن، لم يعانده أحد ولم يصدّه عنها صادّ، حتى دخلها فضبطها لعلي».

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص ١٠٨٧.

وفرّ واليها القديم يعلي بن منية إلى مكة بعد أن انتهب بيت مالها.

والكوفة اعترفت بعليّ وبايعته بعد أن قام عليّ بتثبيت أبـي موسـى الأشـعري، وهو الوالي الذي كانت قد اختارته وفرضته على عثمان. وكـان تعيـين علـيّ لـه بنـاءً على نصيحة مالك الأشتر الذي قال له إن أهل الكوفة به راضون.

فأخذ أبو موسى بيعة أهل الكوفة لعليّ وكتب له «أما بعد، فقد قـرأتُ كتابـكَ، ودعوتُ من قبلي المسلمين، فسمعوا وأطاعوا»[1].

ومصر قبلت والي عليّ، قيس بن سعد بن عبادة، ودانت له، رغـم وجـود نـواة من المتربّصين ذوي النزعة العثمانية، الذين بقوا معتزلين ولكن مسالمين.

وأما مكة فهي وكر قريشٍ وأصلها، وكما هو متوقع فلـم تبـايع عليـاً. وزاد مـن نفور مكة التلقائي من عليّ، تأثيرُ عائشة ودعوتها المعادية له. كان موقف أهـل مكـة، القرشيون، من بيعة علي بن أبي طالب، هو الرفض التام، بالإجماع، منذ البداية:

«لما بايع الناس علياً، كتبَ إلى خالد بن العاص بن هشـام بـن المغيـرة يـؤمره على مكة، وأمَرَه بأخذ البيعة له.

فأبى أهل مكة أن يبايعوا علياً.

فأخذ فتى من قريش يقال له عبد الله بـن الوليـد الصـحيفة فمضَـغها وألقاهـا، فوطئت في سقاية زمزم»[2].

وكان ثقل مكة وأهميتها معنوية فقط. فلـيس فيهـا مـن الإمكانـات الماديـة مـا يجعلها ذات قيمة اقتصادية أو عسكرية هامة.

ولن يتمكن عليّ من الحصول على بيعـة مكـة إلاّ بعـد انتصـاره فـي معركـة الجمل، فعيّن عليها ابن عمه قثم بن العباس.

---

(١) هذه الاقتباسات الثلاثة من كتاب «الثقات» لابن حبان ج٢ ص٢٧٤.

(٢) عن «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم ص١٨٥ نقلا عن أنساب الأشراف للبلاذري.

وبقيت الشام، حيث معاوية بن أبي سفيان، هي العقبة الكأداء في وجه عليّ.

فقد أرسلَ له عليّ مبعوثاً يطلب البيعة. وكان نصّ كتاب عليّ له:

«من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان:

أما بعد. فقد علمتَ إعذاري فيكم، وإعراضي عنكم حتى كان ما لا بدّ منه ولا دفعَ له. والحديث طويل والكلام كثير. وقد أدبرَ ما أدبرَ وأقبلَ ما أقبلَ. فبايع مَن قِبلك وأقبل عليّ في وفدٍ من أصحابكَ»[1].

ولكن معاوية أمسكه لفترة من الزمن، ثم أطلقه عائداً بلا أي جواب!

فأرسل عليّ والياً جديداً إلى الشام، وهو سهل بن حنيف الأنصاري، ولكن لم يسمح له معاوية حتى بالوصول إلى الشام، فردّه جنوده إلى المدينة حين وصل إلى تبوك.

وهناك مؤشرات أن معاوية بدأ مبكراً على ما يبدو في تهيئة جنوده وتحريضهم فيما يتعلق بمقتل عثمان، ربما تحضيراً منه وتوقعا لما سيأتي لاحقاً.

إذن ظلّ معاوية متربّصاً، متجاهلاً الخليفة الجديد بهدوء. وهذا عمل انشقاقيّ بالضرورة.

ولكن لم تكن لمعاوية الصفة الشرعية للقيام بأية مبادرة. فهو مجرد والٍ بدون ماضٍ إسلامي. وكان على الحلبة قادة آخرون أكثر منه تمثيلاً بكثير.

كان معاوية ينتظر أن تكونَ الحركة الاعتراضية الأولى ضد عليّ صادرةً من غيره، من أوساط الصحابة ذوي الشرعية. وهذا ما كان.

تلخيص المواقف من بيعة عليّ

بعد هذا الاستعراض، يمكن تلخيص المواقف من بيعة على النحو التالي:

- موقف المهاجرين القرشيين وأبنائهم: عارض مَن بقي حياً من كبار الصحابة

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص٣٩٨.

القرشيين تولي عليّ بن أبي طالب الخلافة. ومن بين أعضاء لجنة الشورى السداسية التي عينها عمر بن الخطاب، كان لا يزال منهم على قيد الحياة ثلاثة ـ بالإضافة إلى عليّ نفسه. اختار طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام الاستجابة لضغط الثوار فبايعا علياً بالخلافة علناً. ورفضَ ثالثهما، سعد بن أبي وقاص، أن يبايع علياً، واختار موقفاً سلبياً وقرر أن يعتزلَ الأمر، ولم يُكرهه عليّ على بيعته رغم قدرته على ذلك.

كان هؤلاء يرون أنفسهم أنداداً لعليّ، الذي أصبح بنظرهم خليفة للغوغاء والمتمردين والرعاع من الذين لا يكنون الودّ لقبيلة قريش. وكانوا يرون أنه كان ينبغي احترام منهج عمر في حصر حق اختيار الخليفة بهم وحدهم دون غيرهم.

واتخذ عبد الله بن عمر بن الخطاب موقفاً مشابهاً لسعد.

وشذ عن موقف هؤلاء ابنان لاثنين من كبار الصحابة القرشيين: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، اللذين كانا من أشد العناصر المؤيدة لعليّ بن أبي طالب حماساً.

- موقف أبناء طلقاء قريش وقيادة الجهاز الإداري في عهد عثمان بن عفان: كان هؤلاء، وبالإجماع، ضد تولي عليّ لمنصب الخليفة. كان هؤلاء يعرفون أن امتيازاتهم ووضعهم ومستقبلهم ستضيع كلها على يد عليّ. وكانوا مصممين على منع حدوث ذلك بأي ثمن. وبدأوا يعدّون العدة لإعلان التمرد ومواجهة الخليفة الجديد، ولكنهم كانوا بحاجة إلى أمرين: قيادة مركزية توحد صفوفهم، وواجهة شرعية تغطي تحركهم. وسرعان ما وجدوا مطلبيهم في شخص معاوية بن أبي سفيان، وأم المؤمنين عائشة، على التوالي.

- موقف الأنصار: كانوا مسرورين جداً بوصول عليّ بن أبي طالب، أخيراً، إلى منصب الخليفة. كانوا يعتبرونه امتداداً لعهد النبيﷺ وحكمه وكان شخصه يناسبهم تماماً لأنه سوف ينهي، أو يقلل كثيراً من سيطرة قريش على مقاليد الأمور وتعاليها عليهم، وسوف يعيد إليهم اعتبارهم ودورهم المحوري في دولة الإسلام، بعدما عانوه من تهميش. وقرر عموم الأنصار ربط مصيرهم بمصير عليّ.

ولكن كانت هناك أقلية صغيرة من بينهم ارتبطت بمصالح معينة مع عثمان بن عفان وحكمه فعارضت تولي عليّ الخلافة. ومن أشهرهم النعمان بن بشير وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت.

- المؤمنون الضعفاء السباقون: كانوا مع خلافة عليّ بن أبي طالب بدون تردد. وكان ممن بقي على قيد الحياة من هؤلاء عمار بن ياسر وخباب بن الأرت[1].

وشذ ابنٌ لأحد أبرز الصحابة الموالي، وهو، أسامة بن زيد بن حارثة، فقرر الاعتزال.

ويمكن بسهولة ملاحظة التشابه الكبير في مواقف مختلف الفئات بين ما حصل يوم اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر قبل ٢٤ عاماً، وبين ما حصل عقب مقتل عثمان وبيعة عليّ. فالمواقف تكررت تقريباً.

وأما بشأن الأمصار، فصحيحٌ أن علياً قد حصلَ على اعترافها ـ باستثناء الشام ـ بسلطته وخلافته، ولكن كانت سيطرة عليّ على الأقاليم سطحية أو شبهَ اسميّة. لقد رمّم عليّ ما يشبه سلطاناً خليفياً، مترنحاً ومتذبذباً. إن الأكثرية معه حقّاً، لكنها معه بطريقة عرجاء ومرتجّة. فلم تكن لعليّ في الأمصار المختلفة قاعدة إدارية يستند إليها في حكمه. لقد ورث دولة عثمان، ورجالَ عثمان، ونظامَ عثمان، وكان عليّ مصمماً على أن يغيّرَ كل ذلك ويبدأ من جديد.

وبالتالي لا يمكن تصديق رواية سيف بن عمر أن علياً، بعد بيعته بفترة قصيرة، قد عزم على اجتياح الشام ومعه مئات من أهل المدينة، وأنه أرسل إلى ولاته في مصر والكوفة والبصرة يطلب منهم أن يتجهزوا للسير لمعاوية.»[2].

---

(١) شهد خباب صفين وعمره ٧٣ عاماً، وتوفي بعد العودة إلى العراق، فصلى عيه عليّ ودفنه في الكوفة. ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص١٦٧.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٦٥.

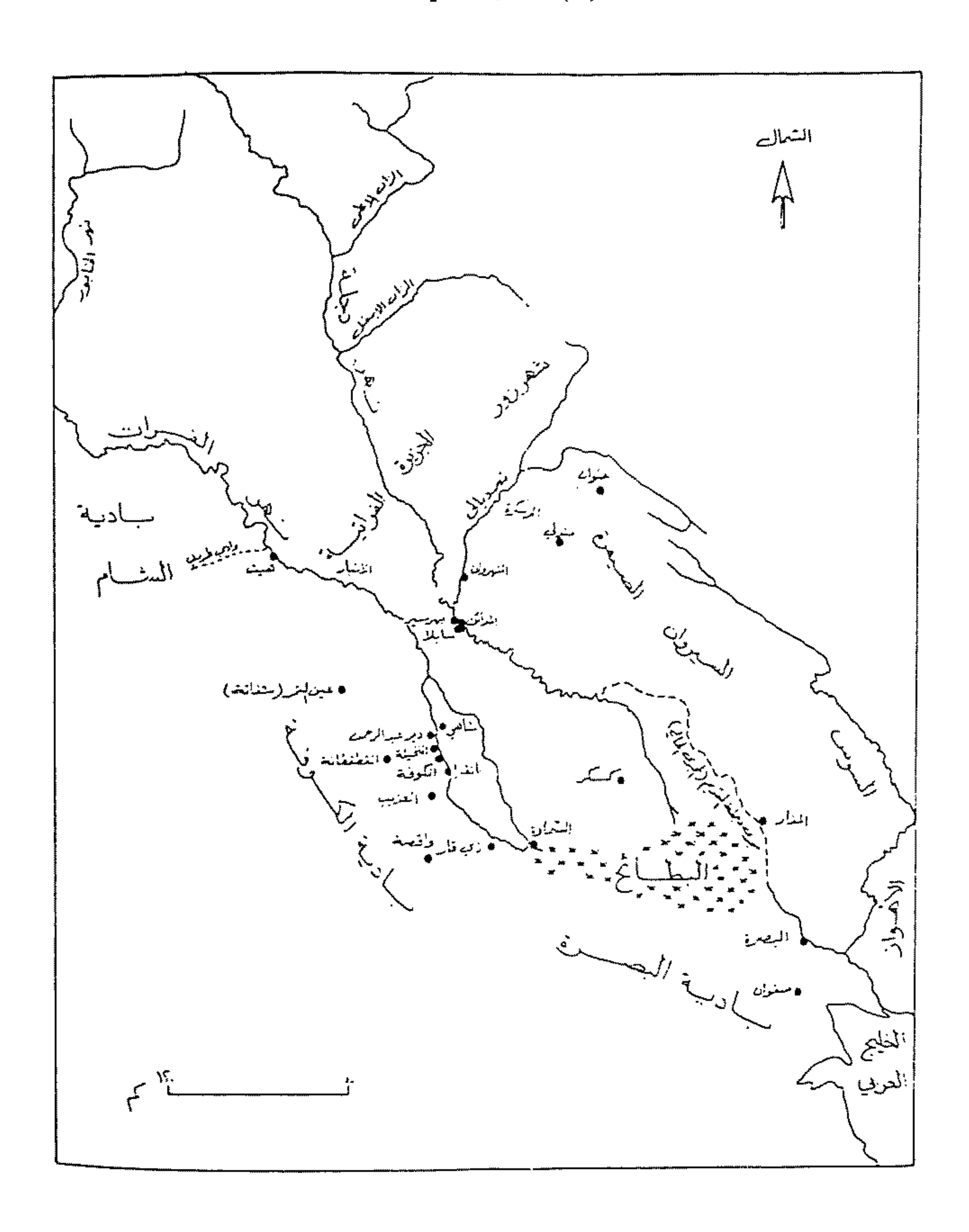
الكتاب الخامس

حرب الجمل

«ليتَ هذه انطبقت على هذه
إن تم الأمر لصاحبك...»

أم المؤمنين عائشة

خارطة (٢): العراق في زمن الفتنة



حرب الجمل

لم يكن ممكناً تصوّر أن يمرّ حدثٌ جللٌ بقدر قتل خليفة المسلمين دون تداعيات وعواقب خطيرة. كان من المؤكد أن مشاكل كبيرة جداً ستندلع، لأن عثمان كان يترأس دولة مترامية الأطراف، وقد رسّخ فيها جهازاً إدارياً وعسكرياً قوياً عمادُه أقرباؤه من بني أمية.

وكان الهدوء الظاهر الذي أعقب بيعة عليّ في المدينة مجرّد سكون مؤقت ناتج عن الترقب لما ستستقر عليه الأمور بعد التطورات الأخيرة. ولكن السماء كانت ملبدة بالغيوم، والعواصف تموج تحت السطح. والانفجار كان مسألة وقت ليس إلاّ.

ولكن المفاجأة كانت في الجهة التي صدرت منها المبادرة! فأولُ تحركٍ لم يأتِ من الأقاليم، ولا من رجالات عثمان. لقد صدر إعلان التمرد والانشقاقُ من زوجة الرسولﷺ، وابنة الخليفة الأول، أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر.

عائشة: إعطاء الشرعية للتمرد

لعبت أم المؤنين عائشة بنت أبي بكر دوراً محورياً في أول فتنة واقتتال داخليّ وحربٍ أهلية في الإسلام، وهي ما تعرف بحرب الجمل. ولذا فإن الحديث عن شخصيةِ عائشة وخلفيتها ضروري للغاية.

فلا شك أن عائشة كانت تتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الفطنة والذكاء. وهي كانت على مستوىً عالٍ من الإلمام بعلوم اللغة والأدبِ والشّعر وتاريخ العرب. وفي أواخر عمرها أصبحت عالمةً فقيهة ومفتية يرجع إليها كثير من الصحابة والتابعين فيما يشكل عليهم من مواضيع الفقه والأحكام. وقد تصدّت عائشة للرواية عن النبيﷺ، خاصةً وقد طال بها العمر كثيراً، فكانت من أكثر الذين رووا أحاديث عن الرسولﷺ.

وكانت عائشة أكثر من غيرها من نساء النبيﷺ إدراكاً ووعياً للجهد السياسي الهائل الذي كان يبذله الرسولﷺ. فخلال الفترة التي كان فيها النبيﷺ متزوجاً من عائشة، كان في ذات الوقت يبني دولته، ويقوم بدور الرئيس فيها. كانت عائشة تشاهد الرسولﷺ بأم عينيها وهو يستقبل وفود القبائل، وهو يرسل البعوث، وهو يجهز الجيوش، وهو يعيّن الولاة، وهو يعقد التحالفات، وهو يبرم العهود.

ولذا يمكن القول أن البعد السياسي في شخصية عائشة يعود في جذوره إلى الفترة النبوية. آمنت عائشة أن دين محمدﷺ لم يكن مجرّد دعوة إيمانية محضة، وأنه لا يكفي للمسلم أن يكون مؤمناً بالغيبيات وعقيدة النبيﷺ، بل لا بدّ من ربط ذلك كله بدورٍ سياسي دنيوي.

وبخلاف زوجات النبيﷺ الأخريات، اللواتي ارتضينَ أن يكنّ بلا دورٍ سياسيٍ يُذكر والاكتفاء بالبقاء على ذكرى رسول اللهﷺ وعهده من بعده، كانت عائشة ذات همّة عالية. فهي لم ترضَ إلاّ أن يكونَ لها دور مهمٌ وكلمةٌ مسموعةٌ بين المسلمين، وخاصّةً حين تأصّلت أسباب النزاع والشقاق بينهم وبدأت نذر الحرب الأهلية تلوح في الأفق. وربما كانت عائشة تشعر بنوعٍ من المسؤولية تجاه «أبنائها» وبأنّ عليها واجباً في رعايتهم وتوجيههم إلى ما تراه خيراً لدين محمدﷺ ودولته من بعده.

وبحكم كونها ابنة أبي بكر، صاحب النبيﷺ القديم وشيخ المهاجرين القرشيين، فلا شك أنها كانت قريبةً مما كان يدور في أوساط المهاجرين القرشيين وعقلهم المدبر عمر ين الخطاب، من وراء الكواليس أحياناً، من تداولٍ ونقاشٍ حول شؤون الحكم والقيادة من بعد النبيﷺ، وخاصةً في السنتين الأخيرتين من حياتهﷺ.

ومن المؤكد ان عائشة تابعت بكل تركيز واهتمام ذلك الصراع على السلطة الذي حصل بعد وفاة الرسولﷺ وفرحت لنجاح أبيها وعمر في مسعاهما في الوصول إلى الحكم وإرساء مبدأ التداول القرشي للخلافة. ومن المرجح أن تكون قد لعبت دوراً لمساعدتهما في ذلك.

البُعد الشخصي في موقف عائشة(١)

والعامل الشخصي له دور. فمن المؤكد أن عائشة لم يكن لديها أي شعور بالودّ تجاه أهل الرسولﷺ كافّة، وخديجة وفاطمة وعلي وذريّتهم، خاصّة. فمشاعرها الذاتية، النافرة من عليّ، ساهمت أيضاً في صقل إرادتها وعزمها على التمرد.

وقد روى المحدثون ما يوضح تلك الغيرة المَرَضيّة التي كانت تشعر بها عائشة تجاه خديجة، وهي متوفية منذ سنوات عديدة. وربما فاقمَ من حدة موقفها تجاه خديجة بالتحديد، ما كانت تراه من حب الرسولﷺ لابنته منها: فاطمة. كما كانت عائشة تعرف بالتأكيد مدى حب الرسولﷺ لعليّ والخصال المجتمعة فيه والتي تجعله يفوق كل الآخرين بمن فيهم أبوها. وكانت تدرك أن علياً قد طرَحَ نفسَه، وطرحَهُ آخرون، كمنافس لأبيها عند توليه الخلافة، وأنه كان بما يمتلكه من فضل وثقل في الإسلام يمثل عنصرَ تشكيك رئيسيّ، إن لم يكن الوحيد، في شرعية خلافة أبيها.

كما أن عليّ بن أبي طالب، بمواقفه القديمة من عائشة، لم يقدم لها ما يساعدها على التخلص من عقدتها النفسية نحوه. فعندما حصلت حادثة الإفك، كان لعليّ رأيٌ لا يمكن أن يُمحى من ذاكرتها. فقد روى البخاري أن رسول اللهﷺ لمّا كثر كلام الناس وإشاعاتهم وشبهاتهم حول عائشة وشرفها، صار متضايقاً جداً من الأمر إلى حد أنه أرسلَ عائشة إلى بيت أبيها إلى أن يأتيه الوحي بشأنها. وخلال ذلك استشار علياً بشأنها، فقال له «يا رسول الله! لم يضيّق الله عليك. والنساء سواها كثير»(٢).

فلم يكن حقد عائشة على شخص عليّ أمراً طارئاً استجدّ بعد مقتل عثمان، بل كان يعود إلى سنين طويلة. وكان عليّ يعرف أنها تبغضه هو خاصّة. وقد عبّر عن ذلك مرة بقوله «... وأمّا فلانة فأدركها رأي النساء، وضغنٌ غلا في صدرها

(١) للمزيد حول شخصية عائشة يمكن مراجعة فصل «تعظيم منزلة أم المؤمنين عائشة» من هذا الكتاب.

(٢) صحيح البخاري ج٥ باب حديث الإفك ص١٥١. وبلغ حقدها على عليّ إلى درجة أنها لا تطيق مجرّد ذكر اسمه كما ورد في صحيح البخاري باب مرض النبي ووفاته ج٦ ص ١٤.

كمَرجل القين، ولو دُعيَت لتنالَ من غيري ما أتت إليّ لم تفعل، ولها بعدُ حرمتها الأولى. والحساب على الله تعالى»[1].

ردة فعل عائشة على بيعة عليّ

روى البلاذري:

«إن الناس لما بايعوا علياً بالمدينة بلغ عائشة أن الناس بايعوا لطلحة.

فقالت: إيه ذا الإصبع لله أنت! لقد وجدوك لها محشا.

وأقبلت جذلة مسرورة حتى إذا انتهت إلى سرف استقبلها عبيد بن مسلمة فسألته عن الخبر.

قال: قتلَ الناسُ عثمان.

قالت: نعم. ثم صنعوا ماذا؟

قال: خيراً. حارت بهم الأمور إلى خير محار. بايعوا ابنَ عم نبيهم علياً. فقالت: أوفعلوها؟! وددتُ أن هذه انطبقت على هذه إن تمت الأمور لصاحبك الذي ذكرتَ.

فقال لها: ولِمَ؟ والله ما أرى اليوم في الأرض مثله. فلمَ تكرهين سلطانه؟

فلم ترجع إليه جواباً ورجعت إلى مكة فأتت الحجر فاستترت فيه وجعلت تقول: إنا عتبنا على عثمان في أمور سميناها له ووقفناه عليها، فتابَ منها واستغفرَ ربه فقبل المسلمون منه ولم يجدوا من ذلك بداً. فوثب عليه مَن إصبعٌ من أصابع عثمان خيرٌ منه فقتله. فقتل والله وقد ماصوه كما يُماص الثوب الرحيض، وصفوه كما يصفى القلب»[2].

وما يلفت النظر في قولها هو «أوفعلوها»، فكأن الناس ارتكبوا محرماً ببيعة علي! وهي تتمنى لو أن السماء انطبقت على الأرض إن كان عليّ تولّى خلافة المسلمين.

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص١٩٩.

(٢) ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص٢١٨ .

وهذا النص يشير أيضاً إلى أن موقفها السلبي من خلافة عليّ كان منذ اليوم الأول لبيعته، ولم يكن ناتجاً عن تطورات لاحقة.

طلحة والزبير

كان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من المهاجرين الأولين الذين شهدوا الإنجاز النبوي منذ بداياته إلى نهايته. وهما أصغر سناً من الرسولﷺ وأبي بكر، وبالتالي هما من نفس جيل عليّ بن أبي طالب تقريباً.

وينتمي طلحة إلى البطن التيميّ من قريش، نفس بطن أبي بكر، ويبدو أنه بالتالي كان يعتبر نفسه وريثاً طبيعياً للخليفة الأول. ورغم انه لم يشهد بدراً، إلاّ أنه شهد أحُداً، وتوجد عدّة روايات تفيد أنه أبلى بلاءً حَسَناً يومها. وكان تحالفه مع ابنة عمه عائشة أمراً طبيعياً جداً. فهو كان من المتحمسين لمنهج أبي بكرٍ الإقصائيَ تجاه عليّ وبني هاشم.

وأما الزبير فهو من بطن أسد بن عبد العزى من قريش. وهو يمتّ بصلة القرابة إلى الرسولﷺ من جهة الأم. فهو ابن صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، وهو بالتالي ابن عَمّة النبيﷺ وعليّ. وكان الزبير مشهوراً بالشجاعة والفروسية.

كان لنظام الشورى الذي ابتكره عمر بن الخطاب عواقب بعيدة المدى. فهو لم يؤدّ فقط إلى النتيجة المباشرة المتمثلة باختيار عثمان خليفة عقب عمر، ولكنه أيضاً أدّى إلى أن هؤلاء الأشخاص الذين أدخلهم عمر في لجنة الشورى تلك، أصبحوا فجأة يرون أنفسهم أنداداً لعلي!

ولمَ لا؟ فهما قد رأيا بأم العين كيف عُيّن شخصٌ مثل عثمان ـ مع الفارق الهائل في الخصال والفضل في الإسلام إذا ما قورن بعليّ ـ خليفة من قبل قريش. فمن الطبيعي أن كلاً من الزبير وطلحة كان يشعر في قرارة نفسه أنه ليس أقل شأناً من عثمان. وإذا كانا كلاهما يعرفان تماماً أنهما بعيدان كثيراً عن مؤهلات عليّ الشرعية، فكذلك كان عثمان؟!

فبالنسبة لطلحة والزبير، أصبح الموضوع الآن هو الدفاع عن المبدأ الذي

اعتمَدَه عمرُ وأقرّته قريش: الخلافة في قريش ولكنها لا تجوز لبني هاشم! وما دام الأمر كذلك فهما يريان نفسيهما أهلاً للحكم. فالخلافة أصبحت غنيمة سائغة بحاجة فقط لمن يتقدم ويأخذها من المهاجرين، وسيجد قريشاً خلفه حتماً، ما دام الخصمُ هو عليّ!

ومن المهم هنا ملاحظة مدى التأثير الذي تركته فكرة عمر بشأن الشورى.

ففيما يتعلّق بالزبير بن العوام، هناك إجماعٌ بين كل المصادر التاريخية على أنه كان من ضمن المسلمين الذين رفضوا تعيين أبي بكر خليفة وأصرّوا على أحقّية عليّ بن أبي طالب بها. وكان ممن التجؤوا إلى بيت عليّ وفاطمة ورفضوا بيعة الخليفة الجديد[1]. أي أن الزبير كان محسوباً على عليّ وآل البيت، ولم يكن يتصور نفسه غير تابع مطيع له. إلى أن جاء عمر بن الخطاب ليقول للزبير: انهض، فلستَ دون عليّ بشيء، ولكَ أن تساميه وتعلو عليه!

هكذا ولّد عمر بقراره ذاك مؤسسة كاملة تتولّى التأكد من عدم وصول الخلافة لعليّ!

وسوف يقول طلحة بن عبيد الله مباشرة لعليّ إنه نقضَ بيعته وتمرّد عليه استناداً إلى قانون عمر بن الخطاب، الذي أصبح مقدساً بنظره، وسوف يحتج عليه به:

«... كنا في الشورى ستة. فمات اثنان.

وقد كرهناكَ. ونحن ثلاثة....»[2].

قرار عائشة

إذن قررت أم المؤمنين أن الأمور وصلت إلى درجة لا يمكن قبولها من الانحراف عن منهاج أبيها وعمر بن الخطاب، وبالتالي هي لنْ تسمح لعليّ بن أبي طالب بأن ينقض المبدأ الذي أرساه أبوها وعمر. فالخلافة لقريش والنبوة لبني هاشم.

---

(١) فمثلاً روى البيهقي في السنن الكبرى ج٨ ص١٥٢ أن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف ومحمد بن مسلمة قاموا بكسر سيف الزبير من شدة غضبه بسبب بيعة أبي بكر!

(٢) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٩٥.

ذلك هو الأساس، وقد أثبتت الانتصارات والفتوحات صواب ذلك بنظر أم المؤمنين. وهي مستعدّة لفعل كل شيئ في سبيل استرجاع ذلك المبدأ، حتى لو كان في ذلك هتكٌ للستر الذي ضربه عليها رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان المحيطون بالخليفة عليّ بن أبي طالب، الخليط المتمرّد من ابناء قبائل عربية عديدة بعيدة عن قريش وتراثها، مما يزيد في تصميم عائشة على الذهاب إلى آخر الشوط في تصدّيها للوضع القائم الجديد من أجل تغييره.

كانت عائشة تدرك أن ما تقوم به من تمرّد وانشقاق أمر غير مسبوق في الإسلام، خاصةً وانه يصدر عن امرأة. فلم يسبق في تاريخ العرب أن تزعّمت النساء وتصدّينَ للقيادة والريادة. فتلك شؤون الرجال ولم تكن النساء عند العرب سوى «عيبةٍ» يجب صونها و «حرمةٍ» يجب حفظها.

وكانت عائشة، وكل الذين شايعوها وساروا تحت لوائها، يعلمون أن بروز أم المؤمنين على مسرح الأحداث، وظهورها بشخصها في الأمصار البعيدة عن المدينة المنورة أمام المسلمين العاديين طالبةً منهم العون والنصرة، من شأنه أن يثير أقصى درجات البلبلة والصدمة والذهول لديهم. فلا شك أن عامة المسلمين سيعتبرون أن أمراً «هائلاً وفظيعاً» قد جرى، مما دفع أم المؤمنين، زوجة الرسول صلى الله عليه وآله وحَرَمه، إلى الخروجِ والانغماس في الصراع. وسيكون من الصعب على عامة المسلمين أن يتركوا «ثقلَ رسول الله» دون أن يجيبوها.

فشلت عائشة في استدراج بقية أمهات المؤمنين إلى حركتها

وكانت عائشة قد حاولت جرّ بقية أزواج النبي صلى الله عليه وآله إلى حركتها المعادية للخليفة عليّ بن أبي طالب. فأرسلت إليهنّ ودعتهنّ إلى الانضمام إليها في التمرد عليه. واستجابت لها من بينهن، وكما هو متوقع، حفصة بنت عمر التي أرادت الرحيل معها[1] لولا أن أخاها عبد الله بن عمر، الذي كان مصمماً على موقفه السلبي من كل ما

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٧٢.

يجري، تدخّل ومنعها من ذلك. وأما بقية الزوجات فقد عارضنَ بشدة تمرّد عائشة، بل وأرسلنَ إليها وطالبنها بالقرار في بيتها احتراماً لرسول الله ﷺ وعهده. ومن بينهنّ كانت أم سلمة الأكثر غضباً على عائشة وكتبت إليها تذكرها بالمنزلة العظيمة التي يتمتع بها علي بن أبي طالب في الإسلام، وبأن خروجها الى البصرة خطأ لا يجوز أن يصدر عن زوجة للرسول ﷺ، كما دعت أم سلمة المسلمين الى «تقوى الله، وان كنتم تابعتم علياً فارضوا به، فوالله ما عرف زمانكم خيراً منه».

وورد في الإمامة والسياسة لابن قتيبة نص رسالة طويلة بعثتها أم سلمة إلى عائشة لما بلغها أنها تنوي الخروج على عليّ والشخوص إلى البصرة طلبت منها فيها عدم هتك حجاب رسول الله وترك عهده[1].

ولم تكتفِ أم سلمة بذلك بل إنها، بعد ذلك، قالت لعليّ حين كان يستعد للخروج إلى العراق«يا أمير المؤمنين! لولا أن أعصي الله عز وجل، وإنك لا تقبله مني، لخرجت معك. وهذا ابني عمر والله لهو أعز عليّ من نفسي يخرج معك فيشهد مشاهدك»[2].

خروج طلحة والزبير من المدينة

مكث الزبير وطلحة في المدينة المنورة لبضعة أشهر بعد بيعة علي بن أبي طالب. فقد أسقط في أيديهما لأن علياً قد بويع بالفعل، والتحرك العملي ضده أمرٌ صعبٌ ويحتاج إلى مال ورجال وحشد وتخطيط، مما لم يكن متاحاً لهما على الفور. فكان لا بد من فترة استكشافية للعهد الجديد وتوجهاته، لعلهما ينجحا في التفاهم مع عليّ على ترتيب معين يحافظ على وضعهما ويضمن مستقبلهما.

ولكن يبدو أنّ الأمور لم تكن تسير كما رغبا. فالزبير وطلحة قد أغضبهما قيام عليّ في أول عهده بتغيير سنة الخلفاء من قبله وقراره المساواة بين المسلمين في قسمة الأموال، فقال لهما:

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ٤٧١.

«.. وأمّا ما ذكرتما من أمر الأسوة فانّ ذلك أمر لـم أحكـم أنـا فيـه برأيـي، ولا وليته هوى منّي. بل وجدتُ أنا وأنتما ما جاء به رسول اللهﷺ قـد فـرغ منـه، فلـم أحتج إليكما فيما فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه، فليس لكمـا والله عنـدي ولا لغيركما في هذا عتبى..»[1].

ولا عجبَ من غضب الزبير ورفضه لقرار علـيّ، فهـو كـان مـن كبـار الأثريـاء والرأسماليين وأصحاب المصالح. فمثلاً روى البخاري أنه خلّف في تركتـه خمسـين ألف ألف ومائتي ألف[2]. فلا يمكن للزبير أن يقبل بسياسة التسوية بـين النـاس التـي قررها عليّ، وهو الذي كان قد انتفخَ علواً وتميّزاً، وكانت وتنهال عليه عطايا بني أميـة أيام عثمان بلا حساب. فمثلا قدِم الزبير مرةً الكوفة فأعطاه واليها الأمـوي سـعيد بـن العاص ٧٠٠ ألف درهم،فأخذها، فقال له الوالي «لو كان فـي بيـت المـال أكثـر منهـا لبعثتُ بها إليك»[3]. وأعطاه عثمان مرةً ٦٠٠ ألفِ من مال أصبهان.

وكان حال طلحة مثل ذلك، بل وأكثر.

ويبدو أن الرجلين قد بذلا محاولةً أخيـرةً للتفـاهم مـع علـيّ بـن أبـي طالـب والتوصل إلى صيغةٍ مقبولةٍ تضمن لهما استمرار وضعهما العـالي والمتميـز، ولكنهمـا فشلا. فقد وردت رِوايات تشير إلى أن طلحة والزبير كانا يريدان مناصـب عاليـة فـي دولة عليّ وأنهما قد طالباه بتوليتهما، ولكنه رفض:

«... فلما استبان لهما أن علياً غيرُ مولّيهما شيئا أظهرا الشـكاة......فـانتهى قولهمـا إلى عليّ.

فدعا عبدَ الله بن عباس، وكان استوزره، فقال له: بلغكَ قول هذين الرجلين؟

قال: نعم بلغني قولهما.

قال: فما ترى؟

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٨١.

(٢) صحيح البخاري ج٣ باب فرض الخمس باب بركة الغازي في ماله حيا وميتا.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢١ ص١٢٣.

قال: أرى أنهما أحبا الولاية. فولّ البصرة الزبير، وولّ طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان.

فضحك عليّ ثم قال: ويحك! إن العراقين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع، ويضربا الضعيف بالبلاء، ويقويا على القوي بالسلطان.

ولو كنتُ مستعملا أحداً لضرّه ونفعه لاستعملتُ معاوية على الشام. ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي»[1].

وكان فشل الرجلين في التوصل إلى تفاهمٍ مع عليّ يقوم على أساس صيغةٍ من الحكم الجماعي وتقاسم المناصب، قد قوى لديهما القناعة بأن القطيعة مع عليّ وحكمه ستكون نهائية. فكل ما صدر عن عليّ حتى الآن لا يسرهما. فإلى جانب رفضه منحهما أي تميز، فهما يريان أن علياً أصبح أقرب إلى «الغوغاء والأعراب «الذين داهموا المدينة، منه إلى كبار الصحابة! ولم يعد الوضع في المدينة يطاق بالنسبة إليهما، فقررا وضع عليّ أمام مسؤولياته كخليفة وطالباه بتطبق الحدود على القاتلين.

روى ابن كثير:

«ولما استقر أمر بيعة عليّ، دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة رضي الله عنهم، وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان.

فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مددٌ وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا.

فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان رضي الله عنه.

فقال لهما: مهلاً عليّ حتى أنظر في هذا الأمر»[2].

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٧١. وحسب رواية ابن كثير في البداية والنهاية ج٧ ص ٢٥٣ إن طلحة والزبير «سألاه ان يؤمرهما على البصرة والكوفة. فقال لهما: بل تكونا عندي أستأنس بكما».

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٢٥٥.

ويبدو أن ذلك الطلب الذي تقدما به لعليّ، رغم علمهما بعدم إمكانيته من الناحية العَملية، كان بمثابة «الإعذار » لعليّ أمام نفسيهما على الأقل، قبيل شروعهما في تنفيذ مشروعهما الانشقاقي.

وعندئذ طلب الزبير وطلحة من عليّ السماح لهما بالخروج إلى مكة «من أجل أداء العمرة». فوافق عليّ.

لماذا سمح عليّ لطلحة والزبير بالخروج من المدينة تحت ذريعة العمرة؟ ألم يكن مدركاً للخطر؟

الجواب هو أنهما قد بايعاه بالفعل. وأن البيعة بالذات في منظومة عليّ الإسلامية هي العقد الذي يربط الخليفة بالمسلمين نهائياً. فعليّ نفسه قد تأخر ستة أشهر عن بيعة أبي بكر، ثم بايع عن غير رغبة ولا اقتناع. ولكنه بعدما فعل كان ملتزماً بعهده، بكلمته وبفعله. وبالتالي لم يكن وارداً أبداً بنظره أنه يمكن لصحابيين الإخلال ببيعتهما فيتراجعان عنها وينقلبان عليه، ويُصبحا من الناكثين. كان عليّ يتوقع منهما سلوكاً على نفس الدرجة من المسؤولية. وقد عبّر عليّ مرة عن ذلك بقوله «وبايعني طلحة والزبير، ثم نكثا بيعتي، وألبا الناس عليّ. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وخلافهما عَلَيّ. والله إنهما ليعلمان أني لستُ بدون رجلٍ ممن قد مضى»[1].

كان عليّ ولا شك يعرف شعورهما نحوه:

«... انّ هؤلاء قد تمالأوا على سخطة إمارتي... وانّما طلبوا هذه الدنيا حسَداً لمن أفاءها الله عليه فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها...»[2].

بل كان عليّ يعتبر طلحة من الكارهين لعثمان والمحرّضين عليه ولكنّه انقلب للمطالبة بدمه كذبا وبغياً:

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٩٦.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٢٠.

«... والله ما استعجلَ متجرداً للطلب بدم عثمان إلاّ خوفاً من أن يطالب بدمه لأنه مظنّته.. فأرادَ أن يغالط بما أجلبَ فيه ليلبسَ الأمر ويقع الشك. ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث:

لئن كان ابن عفان ظالماً ـ كما كان يزعم ـ لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه وأن ينابذ ناصريه.

ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه والمعذّرين فيه.

ولئن كان في شكٍ من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد جانباً ويدع الناس معه.

فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمرٍ لم يعرف بابه، ولم تسلم معاذيره»[1].

ولا بد من القول أن علياً، كخليفة عادل، لم يكن ليسمح لنفسه بأن يُحاسبَ الناسَ على نواياهم وما أضمرت قلوبهم. فحتى لو كان متأكداً من نية الغدر لدى طلحة والزبير، فالفعل لم يقع بعد وبالتالي عليه أن يقبلَ ما يقوله الرجلان بلسانهما، إلى أن يصدر منهما خلاف ذلك.

وأصبحت مكة وكراً للكارهين ولاية عليّ.

كانت عائشة قد أصبحت قطباً جاذباً لكل هؤلاء الذين يعارضون الخليفة الجديد، وخاصة أفراد الأسرة الأموية من أمثال مروان بن الحكم، وعمال عثمان مثل عبد الله بن عامر بن كريز الذي كان والي عثمان على البصرة، ونائبه عبد الله بن عامر الحضرمي، ووالي اليمن السابق يعلي بن منيه الذي امتاز بولائه الشديد لعثمان. وهؤلاء قاموا بتمويل حركة عائشة.

ولما كان موقف أهل مكة، القرشيون، من بيعة علي بن أبي طالب، هو الرفض وبالإجماع، منذ البداية، فقد فكانت مكة هي الحاضنة الطبيعية، والاختيار التلقائي لعائشة.

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٢٤.

ومجيء طلحة والزبير إلى مكة بعد بضعة أشهر من مقتل عثمان كان حاسماً. لأنهما رجلان ويمكنهما قيادة الرجال والقتال. ويمكن لأحدهما أن يطرح نفسه كبديل لعليّ والترشّح للخلافة.

وهذا الثالوث كان بإمكانه أن يوازن هيبة عليّ ونفوذه. ولكن عائشة كانت هي روح الحركة والناطقة باسمها وكانت تملك سلطة تحكيمية ووزناً معنويا كبيراً.

وهكذا اكتملت العناصر الأساسية من أجل القيام بتمرّد حقيقيّ وفعال ضد عليّ: فعنصر الشرعية قد وُجد بتحالف زوجة للرسول ﷺ، وابنة للخليفة الأول أبي بكر، مع اثنين من كبار الصحابة القرشيين ممن كانا من ضمن قائمة عمر بن الخطاب للمؤهلين للحُكم. وعنصر المال والرجال سيتولاه رجالات عثمان والقيادات الأموية القوية التي التفّت حول الثالوث وصارت تضبط إيقاع تحركاته.

روى ابن سعد أن عبد الله بن عامر بن كريز لمّا بلغه مقتل عثمان «حَملَ ما في بيت المال، واستخلفَ على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي ثم شخصَ إلى مكة». ولما قابل هناك طلحة والزبير قال لهما «ائتوا البصرة، فإن لي بها صنائع. وهي أرض الأموال وبها عدد الرجال»[1].

«صار طلحة والزبير إلى مكة، وابن عامر بها بحرّ الدنيا، قد قدم من البصرة، وبها يعلي بن منية ـ وهي أمه، وأبوه امية تميمي ـ ومعه مالٌ كثير قدم به من اليمن، وزيادة على اربعمئة بعير[2].

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص٤٨. وكذلك جاء في ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص ٢٢٠ «دعا عبد الله بن عامر بن كريز طلحة والزبير إلى البصرة وأشار عليهما بها. وقال: إن لي بها صنائع». وأيضا ذكر ذلك ابن الأثير في أسد الغابة ج٣ ص١٩٢.

(٢) في رواية ابن كثير في البداية والنهاية ج٧ ص٢٥٧ أن يعلي بن منية قدم ٦٠٠ بعير و ٦٠٠ ألف درهم. ويعلي بن منيه هذا كان هو بالذات سببا في محاولة اغتيال تعرض لها عثمان بن عفان في السابق نتيجة لظلمه للناس. فقد جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٢٨ أن رجلا أراد قتل عثمان بالخنجر فكمن له ولكنه فشل في محاولته وقبض عليه، ولما سأله عثمان عن السبب الذي دفعه لذلك أجابه «ظلمني عاملك باليمن» فأمر به عثمان فبقي في الحبس حتى مات.

وتظهر كل الروايات التي تتناول تلك الأحداث مدى التأثير الذي كانت القيادات الأموية ورجال عهد عثمان يتمتعون به في تحديد حركة الثالوث وتوجهاته. فكأنّ هؤلاء يقولون لأم المؤمنين وللصحابيين الكبيرين: لا تقلقوا! فنحن سنكفيكم التخطيط والتنظيم والحشد والتحضير، وما عليكم سوى الانقياد لنا لأننا نعرف كيف نواجه الخليفة الجديد الذي تولى المنصب بعد ربع قرنٍ من العزل والتهميش.

الموضوعات التي طرَحَها الثالوث كمبرّر للانقسام والتمرّد على عليّ

قالت عائشة في معرض إجابتها لمن سألها عن أسباب قدومها إلى البصرة:

«إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل، غزوا حرم رسول الله ﷺ، وأحدثوا فيه الأحداث...

مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين، بلا ترة ولا عذر

فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام...

وأقاموا في دار قومٍ كانوا كارهين لمقامهم...

فخرجتُ في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم ان يأتوا في إصلاح هذا...».

وأكد الزبير بن العوام ما قالته عائشة. وبعد أن عبّر عن ازدراء شديد «للغوغاء ونزاع القبائل ومَن ظاهرهم من الأعراب والعبيد«أضاف سبباً جوهرياً للتمرّد:

«نُنهِضُ الناسَ فيُدرَكُ بهذا الدم لئلاَ يبطل.

فإن إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبداً.

إذا لم يُفطم الناس عن أمثالها لم يبقَ إمامٌ إلاّ قتله هذا الضرب...»[1].

إذن يمكن تلخيص الأسباب بأن المدينة في أيدي غوغاء الأمصار، وبدو نهّابين وعبيد آبقين. وأن النظام العام والاجتماعي مهدد. وأن هؤلاء الناس الخارجين على

(١) قول عائشة والزبير من تاريخ الطبري ج٣ ص٤٧٨ـ٤٧٩.

المجتمع هم الذين ارتكبوا جريمة القتل بعدما حصلوا من عثمان على وعد بالتراجع عن سياساته السابقة، وبالتالي فإن عثمان قتل مظلوماً، وهم يطالبون بالقصاص.

وبالإضافة إلى ذلك فإن التساهل في موضوع قتل الخليفة من قبل هؤلاء من شأنه زعزعة مؤسسة الخلافة ذاتها، ويهدد مستقبلها، ويشرّع للتمرّد، وهذا ما لا يجوز.

أعداء عليّ يسيرون إلى البصرة

«فاجتمعوا عند عائشة فأداروا الرأي فقالوا: نسير إلى المدينة فنقاتل علياً.

فقال بعضهم: ليس لكم بأهل المدينة طاقة.

قالوا: فنسير إلى الشام فيه الرجال والأموال، وأهل الشام شيعة لعثمان، فنطلب بدمه ونجد على ذلك أعواناً وأنصارا ومشايعين.

فقال قائل منهم: هناك معاوية. وهو والي الشام والمطاع به. ولن تنالوا ما تريدون. وهو أولى منكم بما تحاولون لأنه ابن عم الرجل.

فقال بعضهم: نسير إلى العراق، فلطلحة بالكوفة شيعة، وللزبير بالبصرة مَن يهواه ويميل إليه.

فاجتمعوا على المسير إلى البصرة وأشار عليهم عبد الله بن عامر بذلك، وأعطاهم مالاً كثيراً قواهم به. وأعطاهم يعلي بن منية التميمي مالاً كثيرا وإبلاً.

فخرجوا في تسعمائة رجل من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس حتى كانوا ثلاثة آلاف رجل»[(١)].

وكان الموتور العجوز، العدو القديم للنبيﷺ، صفوان بن أمية من أشدّ المحرّضين ضد عليّ في مكة. وكان من المتحمسين جداً للخروج مع عائشة وصحبها إلى البصرة، إلاّ أنه توفي[(٢)].

---

(١) ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص٢٢٢. وكذلك ورد في البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٢٥٨ أنهم كانوا ثلاثة آلاف، منهم ألف فارس، وعائشة تحمل في هودج على جمل اسمه عسكر.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٤٤٩.

وفي هذا القرار بالمسير إلى البصرة، تظهر بوضوح بصمات ربيب عثمان وقريبه وواليه على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز. فهو الذي أقنعهم بالتوجه إلى هناك اعتماداً منه على نفوذه السابق وشبكة علاقاته في تلك المدينة. ويلاحظ أيضاً أنهم لم يتوجهوا إلى الشام. فعلى الرغم من معرفة الجميع بمتانة القاعدة العثمانية في الشام، إلاّ أنهم أيضاً أدركوا أن الشام قد تحولت في السنوات الأخيرة إلى إقطاعية خالصة لمعاوية بن أبي سفيان. وعلى الرغم من فرحة معاوية الشديدة بأنباء تمرّد أمّ المؤمنين ومعها طلحة والزبير، إلاّ أنه لم يكن ليسمح بوجود مركز ثقل مهم أو قطب جاذب في عقر داره وقاعدة حكمه. فمعاوية مستعدّ للتعاون والانخراط في المشروع الانشقاقي، ولكنه لن يسمح أن يكون ذلك على حساب نفوذه أو مركزه كحاكم مطلق في إقليمه.

ورغم الاتحاد والتآلف الظاهر بين طلحة والزبير، إلاّ أنه في الحقيقة كان بينهما تنافس على الزعامة. فأكثر ما يجمعهما كانت كراهية خلافة عليّ. وكان ذلك يؤجل خلافاتهما الكامنة. ولو قدر لهما الظفر يوم الجمل، لربما كان الصراع بينهما قد تفجّر إلى العلن:

«فلما حضر وقت الصلاة، تنازع طلحة والزبير، وجذب كل واحد منهما صاحبه، حتى فات وقت الصلاة. وصاح الناس: الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد! فقالت عائشة: يصلي محمد بن طلحة يوماً وعبد الله بن الزبير يوماً. فاصطلحوا على ذلك»[1].

البصرة تشعر بما هو آتٍ

وقام طلحة والزبير، بمشورةٍ ونصحٍ من ابن عامر، بمراسلة الزعماء القبائليين في البصرة وهم: كعب بن سور، شيخ اليمانية، والمنذر بن ربيعة زعيم ربيعة، والأحنف بن قيس زعيم مضر. وكانت كتبهم إليهم متشابهة وتتلخص في أن عثمان بن عفان قد قتل مظلوماً وفيها دعوة لهم أن «يغضبوا لعثمان».

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٨١.

وأحدثت كتبهم تلك جدلاً داخلياً في البصرة. وكان هناك شعور بين أبناء القبائل العربية، غير القرشية، في البصرة بأنهم يُستدرجون ليصبحوا وقوداً لخلافات وصراعاتٍ قرشية داخلية، لا ناقة لهم فيها ولا جمل:

«فقالوا: مالنا ولهذا الحي من قريش؟ أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد أن دخلنا فيه؟ ويدخلونا في الشرك بعدما خرجنا منه؟ قتلوا عثمان، وبايعوا علياً. لهم ما لهم وعليهم ما عليهم»[١].

وكانت ردود الزعماء القبائليين لطلحة والزبير سلبية إزاء تحركهم، فلم يعدوهم بشيء، وأظهروا عدم اقتناع بدعواهم.

ورغم ذلك فقد قرر الثالوث المضيّ قدماً في مسيرهم إلى البصرة. فهم قدّروا أن حضورهم بأشخاصهم في البصرة سيغيّر الموقف لصالحهم، وسيضطرّ الزعماء القبائليون هناك إلى قبولهم، خاصة مع وجود «حَرَم «رسول الله بينهم.

والي عليّ يتصدّى للثالوث

فوجئ عثمان بن حنيف[٢]، والي البصرة المعيّن من قِبَل عليّ، بمسير هؤلاء القوم من مكة وقدومهم عليه بهذا العدد الضخم (يختلف المؤرخون حول عدد الذين ساروا من مكة إلى البصرة وتراوحت تقديراتهم ما بين ٦٠٠ إلى ٣٠٠٠ رجل). وقرر أن يستشير رعيته في هذا الخطب الجلل وكيف يتصرفون إزاء قدوم أم المؤمنين وصحابة كبار إلى البصرة في جمعٍ مقاتل. وفيما يلي سرد من الإمامة والسياسة لابن قتيبة:

«قام عثمان بن حنيف عامل البصرة لعلي بن أبي طالب فقال: يا أيها الناس! إنما بايعتم الله (يد الله فوق أيديهم ومَن نكث فإنما ينكث على نفسه ومَن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما). والله لو علم عليّ أن أحداً أحق بهذا الأمر منه

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٨٠

(٢) جاء في الإصابة لابن حجر ص٣٧٢ ج٤ أنه شهد بدرا وأحد، وكذلك أخوه سهل الذي استخلفه عليّ على المدينة وحضر المشاهد كلها مع الرسولﷺ.

ما قبله. ولو بايع الناسُ غيرَه لبايع مَن بايعوا وأطاع مَن ولوا. وما به إلى أحدٍ من صحابة رسول الله حاجة و وما بأحد عنه غنى. ولقد شاركهم في محاسنهم وما شاركوه في محاسنه. ولقد بايعه هذانٍ الرجلان وما يريدان الله، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع، والرضاع قبل الولادة، والولادة قبل الحمل، وطلبا ثواب الله من العباد. وقد زعما أنهما بايعا مُستكرَهَين. فإن كانا استكرها قبل بيعتهما كانا رجلين من عرض قريش، لهما أن يقولا ولا يأمرا. ألا وإن الهدي ما كانت عليه العامة، والعامة على بيعة عليٍّ، فما ترون أيها الناس؟

فقام حكم بن جبلة العبدي فقال: نرى إن دخلا علينا قاتلناهما وإن وقفا تلقيناهما. والله ما أبالي ان أقاتلهما وحدي، وإن كنتُ أحب الحياة، وما أخشى في طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً ولا سوء منقلب إلى بعث. وإنها لدعوة قتيلها شهيد وحيّها فائز. والتعجيل على الله قبل الأجر خيرٌ من التأخير في الدنبا. وهذه ربيعة معك»[1].

وتظهر من هذا النص الحماسة الكبيرة التي أظهرها والي عليّ في جهوده الحثيثة لحشد الناس من خلفه لمواجهة الخطر الداهم. وكلماته تشير إلى مدى الولاء الشخصي الذي يكنّه عثمان بن حنيف لعليّ. كما يلاحظ أنه لجأ إلى التأكيد على إلزامية البيعة في عنق الزبير وطلحة سواءً حصلت طوعاً أم كرهاً. فهو يذكّر الناس بأن البيعة عهدٌ وميثاق لا يجوز نقضه.

وليست حماسة حكيم بن جبلة في تأييد والي عليّ وتأكيده الاستعداد للمواجهة أمراً مُستغرباً. فهو كان من العناصر الرئيسية في حركة التمرد على عثمان.

فلما اقترب الجمعُ القادم من الحجاز من البصرة، أرسل عثمان بن حنيف مندوبيه: عمران بن الحصين، صاحب رسول الله ﷺ، وأبا الأسود الدؤلي إلى أم المؤمنين ليستفسرا منها عن أسباب قدومها:

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٨٣

«يا أم المؤمنين! ما هذا المسير؟ أمعكِ به من رسول الله عهد؟

قالت: قتل عثمان مظلوماً. غضبنا لكم من السوط والعصى، ولا نغضب لعثمان من القتل؟

فقال أبو الأسود: وما أنتِ من عصانا وسيفنا وسوطنا؟

فقالت: يا أبا الأسود بلغنيَ أن عثمان بن حنيف يريد قتالي.

قال: نعم والله»[1].

عائشة تفصح عن الهدف النهائي

تجاهلت عائشة موقف والي البصرة وواصلت مسيرها مع أتباعها إليها حتى دخلوها، وسط استغراب واستهجان الناس لذلك. وألقت خطبة جديدة عامة كررت فيها ما قالته لأبي الأسود ولكنها أضافت هنا شرطاً افصح عن حقيقة موقفها:

«اصطفّ لها الناس في الطريق. يقولون: يا أم المؤمنين! ما الذي أخرجكِ من بيتك؟ فلما أكثروا عليها، تكلمت بلسان طلق، وكانت من أبلغ الناس، فحمدت الله وأثنت عليه

ثم قالت: أيها الناس: والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يُستحل دمه. ولقد قتل مظلوماً. غضبنا لكم من السوط والعصى، ولا نغضب لعثمان من القتل؟ وإن من الرأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان، فيقتلوا به. ثم يردّ هذا الأمر شورى، على ما جعله عمر بن الخطاب.»[2].

إذن أعلنت عائشة أن تحركها يهدف في حقيقته ليس فقط إلى»الطلب بدم عثمان«بل يتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد: خلع عليّ بن أبي طالب من الخلافة، وإعادتها إلى رجال قريش يتداولونها.

واستعملت عائشة كل ما لها من وزن معنوي عند عامة المسلمين، كونها حرم

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٨٤

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٨٧

رسول الله، من أجل حشد جماهير البصرة إلى جانبها. وقد تمادت في ذلك إلى حد الإلحاح الشخصي على الزعماء العشائريين الذي يصل حدّ الإحراج «وقعَدَ أيضاً عنهم كعب بن سور في أهل بيته، حتى أتته عائشة،في منزله،[1] فأجابها. وقال: أكرهُ ألاَ أجيبَ أمي».

ونجحت في تحييد الزعيم التميمي، الأحنف بن قيس، فاعتزل القتال واتخذ موقف الحياد عندما وقعت المعركة بين عليّ وعائشة[2].

صراعٌ، فمفاوضات، فهدنة مؤقتة

وكان من الطبيعي أن والي عليّ المخلص لن يبقى ساكناً وهو يرى هؤلاء الخصوم دائبين على استقطاب الناس وإخراجهم من طاعته:

«ونادى عثمانُ بن حنيف في الناس فتسلحوا.

وأقبل طلحة والزبير وعائشة حتى دخلوا المربد مما يلي بني سليم.

وجاء أهل البصرة مع عثمان ركباناً ومشاة.

فخطب طلحة فقال: إن عثمان بن عفان كان من أهل السابقة والفضيلة من المهاجرين الأولين. وأحدث أحداثاً نقمناها عليه فباينناه ونافرناه، ثم اعتب حين استعتبناه. فعدا عليه امرؤ ابتز هذه الأمة أمرَها بغير رضا ولا مشورة فقتله. وساعده على ذلك رجالٌ غيرُ أبرار ولا أتقياء، فقتلوه بريئا تائبا مسلماً. فنحن ندعوكم إلى الطلب بدمه فإنه الخليفة المظلوم.

وتكلم الزبير بنحو من هذا الكلام.

فاختلف الناس. فقال قائلون: نطقا بالحق.

وقال آخرون: كذبا. وهما كانا أشد الناس على عثمان! وارتفعت الأصوات.

وأتي بعائشة على جملها في هودجها فقالت: صَه صَه. فخطبت بلسان ذلق

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص١٤٤.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج١ ص٥٥.

وصوت جهوري فأسكت لها الناس. فقالت: إن عثمان خليفتكم قتل مظلوماً بعد أن تاب إلى ربه وخرج من ذنبه. والله ما بلغ من فعله ما يستحل به دمه، فينبغي في الحق أن يؤخذ قتلته فيقتلوا به ويجعل الأمر شورى.

فقال قائلون: صدَقَت.

وقال آخرون: كذبَت.

حتى تضاربوا بالنعال. وتمايزوا فصاروا فرقتين: فرقة مع عائشة وأصحابها، وفرقة مع ابن حنيف.

... وتأهبوا إلى القتال فانتهوا إلى الزابوقة... فزحف إليهم عثمانُ بن حنيف فقاتلهم أشد قتال. فكثرت منهم القتلى وفشَت فيهم الجراح.

ثم إن الناس تداعوا إلى الصلح فكتبوا بينهم كتابا بالموادعة إلى قدوم عليّ:

على أن لا يعرض بعضهم لبعض في سوق ولا مشرعة

وإن لعثمان بن حنيف دار الإمارة وبيت المال والمسجد

وإن طلحة والزبير ينزلان ومَن معهما حيث شاؤوا.

ثم انصرف الناس وألقوا السلاح»[1].

وحسب رواية البلاذري هذه، فإن كتاب الصلح قد تم على أساس انتظار قدوم عليّ من المدينة.

ولا بدّ أيضاً من ملاحظة ذلك الاتهام الصريح والمباشر الذي وجهه طلحة إلى عليّ بقتل عثمان. وهذا الاتهام سيكون هو صلب دعاية معاوية بن أبي سفيان في صراعه اللاحق ضد عليّ.

ولكن الطبري قد أورد نفس الرواية هذه تقريباً، مع اختلاف يتعلق بأساس كتاب الصلح، الذي جعله إرسال مندوبٍ من البصرة إلى المدينة ليسأل أهلها ويتأكد

---

(١) ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص٢٢٧. والجزء الأخير من الرواية المتعلق بكتاب الصلح أخرجه أيضاً خليفة بن خياط في تاريخه ص١٣٧.

فيما إذا كان الزبير وطلحة قد بايعا علياً مكرهين، كما يؤكّدا، ام طائعين. وهذا نص كتاب الصلح:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومَن معهما من المؤمنين والمسلمين، وعثمان بن حنيف ومَن معه من المؤمنين والمسلمين:

أن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده.

وان طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما.

حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم، كعب بن سور من المدينة.

ولا يضار واحد من الفريقين الآخر في مسجدٍ ولا سوق ولا طريق ولا فرصة. بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب.

فإن رَجَعَ بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته وإن شاء دخل معهما.

وإن رجع بأنهما لم يُكرها فالأمر أمر عثمان. فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة عليّ، وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما.

والمؤمنون أعوان الفالح منهما»[1].

وسواء كان الصلح قد تم بين الفريقين على أساس انتظار قدوم عليّ، أم على أساس انتظار معرفة الحقيقة حول بيعة الزبير وطلحة، فإن ذلك لا يغيّر من مجرى الأحداث شيئاً. فالحقيقة أن ذلك الصلح كان عبارة عن هدنة مؤقتة بين الطرفين، أملتها ظروف الصدمة والمواجهة. لقد فشل كل من الطرفين في إقناع الآخر بتغيير موقفه وقناعاته سلمياً، وبالتالي كان لا بد من فسحةٍ من الوقت تتيح لكليهما التقاط الأنفاس وتجميع الصفوف تمهيداً للإنتقال إلى الخطّوة التالية، وهي الحسم، لمصلحة أحدهما. فلم يكن ممكناً لذلك الصلح أن يدومَ، أو يكون حقيقياً.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٨٤.

وقد أورد الطبري أن ذلك الخلاف قد انتقل بدوره إلى المدينة المنورة، التي كان عليّ قد غادرها بالفعل. فعندما سأل كعب بن سور أهلها عن كيفية بيعة طلحة والزبير، أجابه بعض الناس، أسامة بن زيد بالتحديد، أنهما قد أكرها على البيعة بالفعل، مما أثار غضب غيره من الصحابة عليه، وخاصة سهل بن حنيف، فحصل اهتياجٌ، مما دفع صهيب بن سنان وأبا أيوب ومحمد بن مسلمة للتدخل وتهدئة الخواطر وحماية أسامة من الأذى.

الثالوث يسيطر على البصرة

لم يكن بإمكان الثالوث أن يجلسوا بهدوء وادعين في البصرة انتظاراً لقدوم عليّ بن أبي طالب من المدينة. فهم لم يدخلوا كل هذه المغامرة ويقودوا كل هذا التحرك من أجل أن ينتهي بهم المطاف إلى جدال كلاميّ ومحاجَجَة، كانوا يعرفون أنهم سيخسرونها، مع عليّ. فلو كانوا يريدون «النقاش» مع عليّ بن أبي طالب من أجل «إقناعه» برأيهم لكان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك في المدينة، دون الحاجة إلى إعلان الانشقاق وحشد القوات.

فقرروا أن يسيروا إلى آخر الشوط، وأن يأخذوا المبادرة بأنفسهم لكسر الجمود القائم:

«فمكث عثمان بن حنيف في دار الإمارة أياماً.

ثم إن طلحة والزبير ومروان بن الحكم أتوه نصف الليل في جماعة معهم، في ليلة مظلمة سوداء مطيرة، وعثمان نائم. فقتلوا أربعين رجلا من الحَرَس.

فخرج عثمان بن حنيف فشدّ عليه مروان فأسره وقتل أصحابه. فأخذه مروان فنتفَ لحيتهُ ورأسَه وحاجبيه»[1].

والسبب الذي جعل المهاجمين يوفرون دم عثمان بن حنيف هو أنهم خافوا أن يقوم أخوه، سهل بن حنيف، وهو والي عليّ في المدينة، بالانتقام من أقربائهم هناك إن هم قتلوه، فاكتفوا بتعذيبه وإهانته.

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ٨٩

وهكذا قام الزبير وطلحة بالإيقاع بوالي عليّ على البصرة. وباشرا على الفور في تمكين سيطرتهما على المدينة:

«فأصبحَ طلحة والزبير وبيت المال والحرس في أيديهما».

وأثار الغدر بعثمان بن حنيف استياء الكثيرين من أهل البصرة الذين طالبوا بإطلاقه وإرجاعه إلى دار الإمارة. ولكن الثالوث قال لهؤلاء، على لسان عبد الله بن الزبير «لا نرزقكم من هذا الطعام ولا نخلي سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع علياً»[1].

وأثارت هذه التطورات غضب الكثيرين، ومخاوف آخرين في البصرة. وهذا الكلام الذي قاله رجلٌ من قبيلة عبد القيس لطلحة والزبير يظهر رد فعل قطاع مهم من أهل البصرة:

«يا معشر المهاجرين: أنتم أول مَن أجاب رسول الله ﷺ، فكان لكم بذلك فضل.

ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم.

فلما توفي رسول الله ﷺ بايعتم رجلاً منكم. والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك، فرضينا واتبعناكم. فجعل الله عز وجل للمسلمين في إمارته بركة. ثم مات رضي الله عنه.

واستخلف عليكم رجلاً منكم. فلم تشاورونا في ذلك. فرضينا وسلمنا.

فلما توفي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر. فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منا.

ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئا، فقتلتموه، عن غير مشورة منا.

ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا.

فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟ هل استأثرَ بفيءٍ؟ أو عمِلَ بغير الحق؟ أو عمل شيئا تنكرونه فنكون معكم عليه؟ وإلاّ فما هذا؟».

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٩١.

ومن اللافت للنظر، تكرار الرجل عبارات «عن غير مشورة منا» و«ما استأمرتمونا في شيء» التي تشير بكل وضوح إلى شعور قطاع مهم من القبائل العربية أنهم بدأوا يستخدمون وقوداً لصراعاتٍ داخل أجنحة قبيلة قريش، لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

وطبعاً لم يَرُق كلام الرجل، وخاصة الجزء الأخير الذي أشار فيه إلى عدم وجود أي سبب مقنع لدى الثالوث للخروج على عليّ، للزبير وطلحة، الذين لم يريدا لهكذا تساؤلات أن تنتشر بين الناس، فكان لا بد من الحسم تجاه تلك المبادرات:

«فلما كان الغد، وثبوا عليه وعلى مَن كان معه، فقتلوا سبعين رجلاً»[1].

بدأ الثالوث بترسيخ سلطانه في البصرة، فنجحوا في استقطاب جزء مهم من القبائل العربية في البصرة. وكان عدم وجود قطب منافس لهم على الساحة البصرية، مما يسهل مهمتهم، خاصة مع وجود «حَرَم» رسول الله معهم.

وكان لا بد لهم من تصفية الجهات التي لا زالت ملتزمة بعهدها لعليّ بن أبي طالب.

وعلى الرغم من معرفتهم بأن قتلة عثمان الحقيقيين كانوا في أغلبيتهم من الثوار الذين قدموا من مصر، وبدرجة أقل الكوفة، إلا أن الثالوث شنّ حملة عسكرية قاسية في البصرة، بحجة القضاء على »قتلة عثمان«. ورغم أنه لا شك أنه كان بينهم بعض مَن شاركوا في التمرد على عثمان، إلاّ أن الغالبية العظمى من الذين استهدفتهم حملة الثالوث كانوا من أنصار عليّ بن أبي طالب، ومن الرافضين لسلطة الثالوث.

ومن الجانب الآخر يبرز اسم شخصين ممن خاضوا الصراع. الأول هو حكيم بن جبلة الذي كان يُحرّض الناس ضد الثالوث إلى درجة توجيه الشتائم المباشرة لعائشة، والذي طالب الزبيرَ باحترام الاتفاق وإطلاق عثمان بن حنيف، ومن ثم قاتل

---

(1) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٨٧.

ببسالة شديدة إلى أن قتل. والآخر هو حرقوص بن زهير الذي كان الناجي الوحيد من المذبحة التي تعرض لها المعارضون للثالوث. وكان ذلك لأسباب قبلية بحتة، فقد قررت قبيلته أن تحميه وتدافع عنه:

«ونادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة: ألا مَن كان فيهم من قبائلكم أحدٌ ممن غزا المدينة فليأتنا بهم. فجيء بهم كما يجاء بالكلاب. فقتلوا. فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعا إلاّ حرقوص بن زهير، فإن بني سعد منعوه»[1].

وأسفرت تلك المقتلة عن مصرع المئات (٦٠٠ شخص حسب الطبري) من أهل البصرة، من قبائل شتى. ولكن وقعها على قبيلتي عبد القيس، وبدرجة أقل بكر بن وائل، كان كبيراً. وأدى ذلك إلى خروج معظم القبيلتين من البصرة، إنتظاراً لوصول عليّ بن أبي طالب للانضمام إليه. وكان ذلك في أواخر ربيع الآخر من سنة ٣٦ للهجرة.

ولما شعر الثالوث أنهم نجحوا في هدفهم المرحليّ، السيطرة على البصرة، بدأوا في تحركات كشفت حقيقة مراميهم التي تتجاوز كثيرا ما كانوا يعلنونه من الطلب بدم عثمان.

فهم كتبوا رسالة إلى معاوية بالشام يخبرونه فيها بنجاحاتهم، وأرسلوا أيضا إلى الكوفة، وإلى اليمامة وإلى المدينة المنورة:

«وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إلاّ نهضتم بمثل ما نهضنا به، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا».

وهكذا يظهر أن الثالوث قد بدأ العمل الفعّال لتقويض خلافة عليّ بن أبي طالب في كل مكان.

وكان هناك تركيز على الكوفة من قبل عائشة «فكتبت إلى رجالٍ بأسمائهم».

وهكذا بدأ الصراع على الكوفة.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٨٨.

عليّ يتجه إلى العراق

لما وصلته أخبار تحالف عائشة وطلحة والزبير وقرارهم نقض بيعته والتمرد عليه وبدء تحركهم العملي في استنفار الناس ضده، قرر عليّ أن ذلك مما لا يمكن السكوت عنه. فعَزَمَ عليّ أن يسير بنفسه إلى الثالوث المتمرد ليواجههم بشخصه في مكة. لم تكن الأمور حتى تلك اللحظة قد اتخذت منحىً حربياً بعد، وعليّ كان لا يزال يتصرف على أساس قدرته على ضبط الأمر سلماً عن طريق إقامة الحجة على خصومه. فهو قدّر أنه بوجوده بشخصه، وجهاً لوجه، أمام طلحة والزبير من شأنه أن يحبط تحركهما في مهده لأنهما، وهما صحابيان كبيران، لن يستطيعا إنكار بيعتهما العلنية لعليّ وسوف لن يتمكنا من الاستمرار في مشروعهما الانشقاقي لأنهما سيؤثران في النهاية مصلحة أمة الإسلام ولو كان ذلك على حساب مشاعرهما الذاتية.

تجهز عليّ وجمعَ أهله وخاصته وسار إلى مكة. وخرج معه بضع مئاتٍ من أنصاره من أهل المدينة.

ولكن أخبار التطورات المتلاحقة بلغت علياً لما وصل إلى الربذة. فالثالوث غادر مكة باتجاه البصرة، ومعهم كل رموز عهد عثمان من أقربائه الأمويين وولاته السابقين وزعماء بطون قريش.

تغيرت خطط عليّ عندها، فلم يتابع المسير إلى مكة، وعسكرَ في الربذة وأخذ يدرس الاحتمالات الممكنة. كان قرار الثالوث بالمسير إلى العراق خطيراً جداً بنظره. فليس هناك من تفسير الآن سوى أن الثالوث قد قرروا القطيعة النهائية مع الخليفة. وتحركهم ذاك يوضح تماماً سعيهم إلى امتلاك قوة مادية حقيقية تمكنهم من تحدي سلطانه عملياً والخروج من دائرة الشرعية، شرعيةً الصحبة والسبق في الإسلام، إلى دائرة الصراع السياسي المبني على موازين القوى، قوى الجيوش والرجال والأموال.

قرر عليّ اللحاق بهم إلى البصرة. وبدأ مسيره الطويل إلى العراق.

كانت مسيرة عليّ إلى البصرة بطيئة جداً واتخذت طريقاً متعرجاً. فمن الربذة

إلى الثعلبية فالآساد إلى أن وصل ذي قار. ويبدو أن علياً كان يسير إلى البصرة واضعاً الكوفة نصب عينيه. كان بإمكانه أن يسير إلى البصرة بشكلٍ أسرع ومباشر، ولكنه آثر ذلك البطء ربما من أجل التأكد من كسب الكوفة إلى جانبه. وكان طوال مسيره منخرطاً في مراسلات مكثفة مع الكوفة وأهلها. وهو وإن كان لم يتجه إلى الكوفة مباشرة إلاّ أنه اقترب منها كثيراً واستقر بذي قار التي لا تبعد عنها إلاّ قليلا.

ويلغت أخبار ما جرى في البصرة علياً وهو في مسيره إلى العراق. وكانت تلك الأخبار بالغة الخطورة والأهمية بالنسبة له. فسيطرة خصومه على البصرة والإطاحة بعامله عليها، تعني أنه أصبح للثالوث قاعدة يمكنهم الارتكاز إليها في أية مواجهة محتملة مع علي. ففي البصرة أعدادٌ كبيرة من الرجال، وكمّ مهمّ من الأموال والعتاد.

وهكذا فإن علياً يرى أن الأمور قد خرجت عن نطاق المقارعة بالحجة والبرهان، والبيان والإقناع، واتخذت منحى تصاعدياً ينذر بشرّ مستطير. فالآن تملك عائشة والزبير وطلحة قوة مادية حقيقية تضعهم في موقع يتيح لهم تحدي سلطان عليّ بالفعل، بالقوة المادية، وليس فقط اعتماداً على ثقلهم في الموازين الشرعية والإسلامية. لا شك أن علياً كان يدرك أنه حتى لو وصل البصرة الآن، وأقام الحجة على خصومه، ووضّح موقفه من مقتل عثمان بكل جلاء، فإن ذلك لن يكون كافياً لإرغام خصومه على العودة إلى سلطانه وبيعته. فماذا سيفعل عليّ إن أصرّ خصومه على موقفهم، ومعهم ما يكفي من القوة لتحدّيه؟ وماذا سيفعل إن وضعوا شروطا تعجيزيةّ؟

كان لا بد لعليّ من امتلاك قوة تسانده وتقوّي موقفه تجاه خصومه. قوة كبيرة مؤثّرة، يمكنه استعمالها إذا لزم الأمر.

كان الذين خرجوا مع عليّ من الحجاز بضع مئات، أغلبهم من الأنصار من أهل المدينة. وهم بالتالي لا يشكلون قوة عسكرية يُعتدّ بها، ولن يكونوا أبداً نداً للقوات العربية المستوطنة في البصرة، الضخمة، والمتأقلمة تماماً مع أوضاع القتال والغزو من خلال تاريخها الحافل مع الفرس.

ولذلك كلّه كان لا بدّ لعليّ أن يكسب تأييد الكوفة. فبما أن البصرة سقطت تحت سيطرة الثالوث، وبما أن الشام تحت إمرة معاوية، وبما أن مصر واليمن بعيدان عن مسرح الأحداث، وبما أن الحجاز ليس بمقدورها أن تشكّل قوة عسكرية فاعلة، لم تبقَ غير الكوفة أمام عليّ لكي يوجّه أنظاره إليها. كان لزاماً على عليّ أن يكسب الكوفة إلى جانبه. وكانت عواقب الفشل في استمالة الكوفة وخيمة جداً على مستقبل خلافته.

والكوفة هي عاصمة العراق الحقيقية. وفيها كان التجمع العربي الضخم الذي كان صاحب الباع الأكبر في تحطيم امبراطورية فارس. وللدلالة على مدى أهمية الكوفة داخل الإطار الإسلامي آنذاك يكفي الإشارة إلى ما خاطب به عمر بن الخطاب أهل الكوفة مرة «أنتم رأس العرب وجمجمتها، وسهمي الذي أرمي به إن أتاني شيئ من ههنا وههنا...».

وكان نجاح عليّ في استقطاب الكوفة أمراً منطقياً ومتوقعاً. فقد كانت الكوفة مصدر القلاقل المهمة التي هزّت حكم عثمان بن عفان، ومنبعاً لأفكار ومشاعر الرفض للهيمنة الأموية خاصة، والقرشية عامة. ولم ينجح ولاة عثمان، الوليد وسعيد، في إدارتهم لشؤون الكوفة، ولكنهم نجحوا في زرع بذور التمرّد ضد الحكم الأموي، عن طريق سياسة الاستعلاء القرشي، البارز والبيّن، التي طبّقت، وخاصة على يد سعيد، تجاه عموم أهل الكوفة.

وعلى هذا الأساس نظر الكثيرون إلى عليّ كنقيض لقريش وسياستها. فعلى الرغم من كون عليّ، من حيث النسَب، من صميم قبيلة قريش، إلاّ أنّ انتماءه إلى البيت النبويّ وعلاقته القريبة جدا مع النبيﷺ تجعله مؤهلاً، بشكل فريد، لكي ينال إجماعاً من عامة المسلمين، خاصة إذا ما أضيف إلى ذلك جهاده العظيم مع النبيﷺ وخصاله الشخصية وما عرف عنه من العدل والزهد. وكان مما يجعله مرشحاً مفضلاً للكوفة هو إجماع قريش على معاداته.

وبالإضافة إلى العامل القبليّ، ونفور غالبية أهل الكوفة من قبيلة قريش

وممثليها، كان هناك العامل الديني. فقد كانت الكوفة تضم تجمعات ذات صبغة دينية صرفة، أفرادها متدينون مخلصون متمسكون بكتاب الله وأحكام الدين، وهم الذين عرفوا بـ«القرّاء» نظراً إلى اشتهارهم بقراءة القرآن وتلاوته وحفظه. وهؤلاء كانوا أصلاً من تلاميذ «المعلمين» البارزين، عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري. وكان ابن مسعود بالتحديد مختصًا بالعلوم القرآنية، وكان يفتخر بمدى علمه بأسباب نزول الآيات وتأويلها، وكان له مصحفه المشهور، قبل أن يقوم عثمان بحرقه. وكان يعقد حلقات لتعليم القرآن للراغبين من أهل الكوفة، الذين كان الكثيرون منهم توّاقين إلى تعلّم «كلام الله» على يد صحابيّ من السبّاقين إلى الإيمان، كابن مسعود.

كانت تلك الأوساط هي التي نمَت وكبرت لتصبح ذات ثقل نوعيّ في الكوفة. كانوا أشخاصاً متعلّقين بالروح الدينية التي جاء بها النبيﷺ، وبصفاء العقيدة والضمير الإسلامي. وكان القرآن الذي بين أيديهم هو بنظرهم المقدّس والإلهي، والطريق إلى الله.

وبنظر هؤلاء، كان السلوك غير الأخلاقي، أو بعبارة أخرى غير الملتزم بتعاليم الدين، الذي أظهره ولاة عثمان، وخاصة الوليد بن عقبة، كمثل شرب الخمر والخلاعة، أو الاستهتار بشأن الصلاة، يُعتبر من الجرائم التي لا تغتفر. وهذا النوع من السلوك الشائن أثار لدى أوساط القراء تساؤلات جدّية حول مدى شرعية عثمان نفسه. ولم يكن سلوك عثمان يساعد هؤلاء القراء في إقناع أنفسهم أن هناك فارقاً بين الخليفة وبين ولاته الفاسقين. فعثمان يدعم ولاته بقوة، ولا يلجأ لمحاسبتهم إلاّ مضطراً، وبعد شكاوى عديدة، ومماطلة.

كان شخص علي بن أبي طالب يناسب أوساط القراء تماماً، خاصة مع ما عُرف عنه من زهدٍ حقيقي وورعٍ وتقوى. فهو بنظرهم نقيض عثمان وولاته وعشيرته.

فالكوفة، باختصار، كانت تتوق إلى التغيير وتسعى إليه. وكانت الأرضية في الكوفة مهيّأة لتقبّل عليّ واحتضانه.

وبدأ علي، وهو في طريقه من الحجاز إلى العراق، بإرسال مندوبيه إلى الكوفة،

لكي يدرسوا أوضاعها، ولحثّ أهلها على نصرة الخليفة في مواجهته للثالوث المتمرّد.

مشكلة غير متوقعة لعليّ: أبو موسى الأشعري

ولكنّ علياً اصطدم، على غير توقع، بعقبة كأداء. مشكلة حقيقية، وهي موقف أبي موسى الأشعري في الكوفة. فقد كان أبو موسى هو الوالي الذي فرضته الكوفة على عثمان كبديل لسعيد بن العاص الذي خلعته.

وكان عليٌّ قد أقرّه على ولاية الكوفة لمّا بويع. وقد برّر ذلك القرار فيما بعد بقوله:

«... والله ما كان عندي بمؤتمن ولا ناصح. ولقد أردتُ عزله فأتاني الأشتر فسألني أن أقرّه، وذكر أن أهل الكوفة به راضون. فأقررته»[1].

وكان أبو موسى يحظى باحترام واسع في أوساط الكوفيين، ويتمتع بنفوذ معنوي مهم. وبحكم كونه يمانياً، فقد كان مقرباً من القبائل اليمانية القوية والكبيرة في الكوفة، وكان يُنظر له بشكل أو بآخر على أنه يمثل مصالح الجانب القحطاني[2] من أمة العرب. ويمكن تلخيص أسباب وضعية أبي موسى المميزة في الكوفة على النحو التالي: فهو صحابيّ حقيقي وله احتكاك مع النبيﷺ، وهو ليس قرشياً، وله ماضٍ جيد في حركة الفتوحات أثناء ولايته على البصرة، وأخيراً خصاله الشخصية والعلمِ الذي كان ينشره بين الناس.

وفي مواجهة دعوات عليّ لأهل الكوفة بالنصرة والتأييد، كان أبو موسى يقول للناس:«يا أهل الكوفة: أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب، يأوي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف. أيها الناس: إن الفتنة إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت تبينت، وإن هذه الفتنة الباقرة لا يدرى من أين تأتي ولا من أين تؤتى. شيموا

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٤ ص١٠.

(٢) وهناك رواية تقول أن عليا، في أعقاب صفين، حين سمّى عبد الله بن عباس كممثل عنه في مؤتمر التحكيم في مواجهة عمرو بن العاص، احتجّ عليه البعض وأصرّوا على اختيار أبي موسى لأنه «لا يحكم فينا مُضريان».

سيوفكم وانزعوا أسنة رماحكم، واقطعوا أوتار قِسِيّكم. والزموا قعور البيوت. أيها الناس: إن النائم في الفتنة خير من القائم. والقائم خير من الساعي»[١].

لم يكن هناك شيئ أسوأ يمكن أن يحدث في الكوفة، بالنسبة لعليّ، من شيوع هكذا أفكار بين أهلها. فما طرَحَه أبو موسى كان ببساطة دعوة للكوفة وأهلها باتخاذ موقف السلبيّة التامة تجاه ما يجري من أحداث متسارعة في العالم العربي ـ الإسلاميّ. كان طرح أبي موسى، لو قدّر له أن ينفّذ، نداء إلى الكوفة بأن تنأى بنفسها وتنعزل عن جسد الأمة. كان طرحه غير واقعيّ ولا سياسيّ على الإطلاق. فمن الناحية الموضوعية البحتة، لم يكن ممكناً لمَصر مركزيّ في عالم العرب، بحجم وأهمية الكوفة، أن يبقى خارج سياق الأحداث. فما كان يتبلور له تأثيرٌ مباشر على»امبراطورية«العرب كلها، بشتّى أقطارها. وليست الكوفة بلدة صغيرة في ناحية نائية في العراق حتى يمكن أن يتجاهلها عليّ، أو غير عليّ ممن انخرط في الصراع على الحكم والخلافة، ولم تكن الكوفة نفسها لتسمح بأن يتمّ تجاهلها. فما كان ينادي به أبو موسى ـ اللاموقف ـ كان هو المستحيل بعينه.

وقد عبّر رجلٌ من أهل الكوفة، اسمه عبد خير الخيواني، عن ذلك خير تعبير في معرض جدال له مع أبي موسى: «يا أبا موسى: هل كان هذان الرجلان، يعني طلحة والزبير، ممن بايع علياً؟ قال: نعم. قال: هل أحدث حدثاً يحل به نقض بيعته؟ قال: لا أدري! قال: لا دريتَ! فإنا تاركوك حتى تدري. يا أبا موسى: هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التي تزعم إنما هي فتنة؟ إنما بقي أربع قرون: عليّ بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة أخرى بالحجاز لا يُجبى بها فيئ ولا يقاتل بها عدو»[٢].

واللافت للنظر حقاً، هو الشراسة التي دافع بها أبو موسى عن أفكاره ودعوته. كان أبو موسى يقاتل بالفعل في سبيل ثني الكوفيين عن التجاوب مع طلب النصرة

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٤٥.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٠٠.

من عليّ. وإذا كان من المفهوم وجود تيار«اعتزال الفتنة»بين قطاعات من الصحابة والمتدينين، فإن أبا موسى كان مختلفاً عن غيره من «المعتزلين». فهؤلاء كانوا سلبيين في كل شيئ. لم يشاركوا في الصراع ولم يتدخلوا في مجريات الأحداث، واكتفوا بالجلوس في بيوتهم (سعد بن أبي وقاص، مثلا)، على الحياد. ولكنّ أبا موسى لم يرغب في الجلوس ببيته، بل أظهر إصراراً غريباً على تحدّي طلب الخليفة، وقام بمجهودٍ هائل في أوساط الكوفيين لإقناعهم برفض دعوة عليّ. كان أبو موسى يناظر ويجادل ويتصرف كمن يؤدي مهمة مقدسة. ومهمته هي منع الناس من الانجرار وراء دعوات «الفتنة».

لقد رفض أبو موسى الاستجابة لكتاب علي الذي أرسله إليه من الربذة يدعوه فيه إلى نصرته هو وأهل الكوفة. بل وتبادل السباب مع مندوبي عليّ، محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر، فعادا لعليّ بخبره.

فأرسل إليه عليّ هاشم بن عتبة هذه المرة، فلم يستجب وزاد في تصلبه، بل وهدد هاشماً بالسجن!

وأثار ذلك كله غضب عليّ الشديد، مما دفعه إلى إرسال كتابٍ قاسٍ شديد اللهجة إلى أبي موسى، هدّده فيه، وخيّره بين العزل أو التعاون:

«أما بعد: فقد بلغني عنك قولٌ هو لك وعليك.

فإذا قدم رسولي عليكَ فارفع ذيلكَ، واشدُد مئزركَ، واخرج من حجركَ، واندب مَن معكَ.

فإن حققتَ فانفذ، وإن تفشلتَ فابعد.

وأيم الله لتؤتينَّ حيث أنتَ، ولا تترك حتى يخاطَ زبدكَ بخاثركَ، وذائبكَ بجامدكَ، وحتى تعجل عن قعدتكَ، وتحذر من أمامكَ كحذركَ من خلفكَ.....

فاعقِل عقلكَ، واملك أمركَ وخذ نصيبكَ وحظكَ.

فإن كرهتَ فتنحَّ إلى غير رحبٍ، ولا في نجاةٍ.

فبالحريّ لتكفينَّ وأنت نائم حتى لا يقال أين فلان.

والله إنه لحقٌ مع مُحِقٍ، وما نبالي ما صنعَ الملحدون. والسلام»[1].

منبع أفكار أبي موسى

من المفيد التساؤل: لماذا جاء أبو موسى بهذه الأفكار، ومن أي مصدرٍ نبعت؟

بالتأمل في تفاصيل الروايات التي أوردها ابن أبي الحديد حول جدالات أبي موسى مع مندوبي عليّ وأهل الكوفة، يمكن الاستنتاج أن أبا موسى كانت تحركه ثلاثة أفكار رئيسية:

- استنكار مقتل الخليفة عثمان من حيث المبدأ، ورفض التمرد على شرعية مؤسسة الخلافة ذاتها. قال أبو موسى لمحمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر:

«... والله إن بيعة عثمان لفي عنق عليّ وعنقي وأعناقكما. ولو أردنا قتالاً ما كنا لنبدأ بأحدٍ قبل قتلة عثمان».

- استنكار مبدأ الاقتتال الداخلي بين المسلمين مهما كانت الأسباب. فهو قال لأهل الكوفة:

«الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد، فجمعنا بعد الفرقة، وجعلنا إخوة متحابين بعد العداوة، وحَرّم علينا دماءنا و أموالنا.... إن علياً إنما يستنفركم لقتال أمكم عائشة وطلحة والزبير حواري رسول الله ومَن معهم من المسلمين».

بالإضافة إلى الأحاديث النبوية الكثيرة التي رواها بشأن تحريم الفتنة.

- اعتبار الصراع المندلع على الحُكم بين عليّ والثالوث، مشكلة داخلية قرشية، ينبغي حلها سلماً بين أطراف الصراع دون جرّ بقية المسلمين إلى مهاوي الردى:

«.... وخلّوا قريشاً ترتق فتقها، وترأب صدعها. فإن فعلت فلأنفسها ما فعلت، وإن أبَت فعلى أنفسها ما جَنت، سَمنُها في أديمها»[2].

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص٣٨٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٤ ص١٥. وقريبٌ من ذلك ورد في تاريخ ابن خلدون ج٢ ص١٥٩.

تطوّرٌ حاسم: عليّ يكسب الكوفة

واضطرّ عليّ أخيراً إلى إرسال شخصيتين تتمتعان بثقلٍ معنويّ كبير، لمواجهة أبي موسى وما يقوم به من دور تثبيطيّ في الكوفة: حفيدُ النبيﷺ ابنه الحسن، وصحابيٌ عريق من الصف الأول، عمار بن ياسر. روى الدينوري:

«فساروا حتى دخلوا الكوفة، وأبو موسى يومئذ بالكوفة، وهو جالسٌ في المسجد، والناس محتوشوه...

فانتهى الحسن بن علي وعمار رضي الله عنهما إلى المسجد الأعظم وقد اجتمع عالم من الناس على أبي موسى...

فقال له الحسن: أخرج عن مسجدنا وامضِ حيث شئتَ!

ثم صعد الحسن المنبر، وعمار صعد معه، فاستنفرا الناس.

فقام حجر بن عدي الكندي، وكان من أفاضل أهل الكوفة، فقال: انفروا خفافاً وثقالاً رحمكم الله.

فأجابه الناس من كل وجه: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين. نحن خارجون على اليسر والعسر والشدة والرخاء. فلما أصبحوا من الغد خرجوا مستعدين.

فأحصاهم الحسن فكانوا تسعة آلاف وستمائة وخمسين رجلا. فوافوا علياً بذي قار»[1].

وقد أورد ابن أبي الحديد تفاصيل الخطبة المؤثرة التي ألقاها الحسن بن عليّ في جموع أهل الكوفة، والتي أسفرت اخيراً عن إقناعهم بنبذ أبي موسى والاستجابة لنداء عليّ:

«... أيها الناس: إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله، وإلى أفقه مَن تفقه من المسلمين، وأعدل من تعدلون، وأفضل مَن تفضلون، وأوفى مَن تبايعون.

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٤٥.

مَن لم يعبه القرآن ولم تجهله السنة ولم تقعد به السابقة. إلى مَن قرّبه الله تعالى إلى رسوله قرابتين: قرابة الدين وقرابة الرحم. إلى مَن سبق الناسَ إلى كل مأثرة. إلى مَن كفى الله به رسوله والناس متخاذلون. فقرب منه وهم متباعدون. وصلى معه وهم مشركون. وقاتل معه وهم منهزمون. وبارز معه وهم مُحجمون. وصدقه وهم يكذبون. إلى مَن لم ترد له رواية ولا تكفأ له سابقة.

وهو يسألكم النصر ويدعوكم إلى الحق ويأمركم بالمسير إليه، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه، ومثلوا بعماله وانتهبوا بيت ماله.

فاشخصوا إليه رحمكم الله»[1].

وفي رواية اخرى ان الحسن قال عن طلحة والزبير ومَن معهم «ثم نكثَ منهم ناكثون بلا حَدَث أحدثه ولا خلاف أتاه، حسَداً له وبغياً عليه»).

وقد وردت نفس الرواية في تاريخ الطبري وفيها أيضا أن علياً عزلَ أبا موسى الأشعري لما بلغه أنه ظاهر الغل والشنآن، وعيّن مكانه قرظة بن كعب الأنصاري أميراً على الكوفة، وأرسل كتاباً إلى أبي موسى يهدده فيه بالعواقب الوخيمة إن هو تحدى أمرَ العزل واستمرّ في تثبيط الناس عن الإمام. وذكر الطبري أن عدد الذين استجابوا لنداء عليّ وخرجوا إليه من الكوفة حتى وافوه بذي قار بلغ اثني عشر ألفاً مقسمين إلى أسباع[2].

واستقبل عليّ وهو بذي قار القوات القادمة من الكوفة بسرور بالغٍ. وألقى فيهم خطبة امتدحهم فيها لتاريخهم الجهادي المشرف، ثم حرص على توضيح هدفه وأسباب تحركه لهم، وأكد أن الحرب ضد إخوانهم البصريين ليست هدفه، وأنه سيحرص على دخول المتمردين في طاعته سلماً:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٤ ص١٢.
(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥١٢.

يا أهل الكوفة! أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم، وفَضَضتم جموعَهم حتى صارت إليكم مواريثهم، فأغنيتم حوزتكم، وأعنتم الناس على عدوهم.

وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة. فإن يرجعوا فذاك ما نريد. وإن يلجّوا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدأونا بظلم. ولن ندعَ أمراً فيه صلاحٌ إلاّ آثرناه على ما فيه الفساد»[1].

قبل القتال: حيرة البصرة المأساوية

وصل علي بقواته إلى طرف البصرة في منطقة الزاوية، وكان أعداؤه قد تمركزوا في منطقة الفرضة.

وقد وجد عليّ لدى وصوله قبيلتين كبيرتين من أهل البصرة في انتظاره بلهفة وشوق: عبد القيس وبكر بن وائل، وهما اللتان كانتا قد عارضتا سيطرة الثالوث على البصرة وخسرتا جزءً من أبنائهما في المقتلة التي نفذها الثالوث ضد «قتلة عثمان».

وأحدث وصول الخليفة بقواته اضطراباً إضافياً لأهل البصرة، المضطربين أصلاً من جراء كل هؤلاء القادمين الجُدد الذين نقلوا إلى مدينتهم كل عواقب الأحداث الجسام التي حدثت في المدينة قبل بضعة أشهر. كان البصريون يرون أن الأمور قد سارت نحو الهاوية وأن الوضع قد غدا الآن على شفير الانهيار التام.

وعليّ قد أتاهم على رأس جيشٍ من إخوانهم من أهل الكوفة. وفي مدينتهم توجد بالفعل زوجة الرسولﷺ واثنان من كبار صحابته. وأسقط في يد أهل البصرة، فغدوا عاجزين عن اتخاذ موقف موحّد مما يجري.

وانقسمت قبائل البصرة. فقسمٌ منها، وبالأخص عبد القيس وبكر بن وائل، انحازت بالكامل إلى جبهة عليّ وانضمت لجيشه. وقسمٌ آخر، وبالأخص الأزد، انحازت بالكامل إلى معسكر الثالوث وأصرّت على حماية «حَرَم رسول الله» مهما

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٠٢.

كلّف الأمر. وقسمٌ ثالثٌ من القبائل انقسمت صفوفها ما بين مؤيدٍ لعليّ ومؤيدٍ لعائشة وما بين داعٍ لاعتزال الفريقين.

ويروي الطبري تفاصيل نقاش بين عليّ بن أبي طالب والزعيم التميمي الأحنف بن قيس أخبره فيه الأحنف أنه، هو شخصياً مع أبنائه وعائلته، مستعدٌ للانضمام إليه فوراً ولكنه غير قادرٍ على إقناع كل قبيلته على الانضمام معه، ولذلك هو يطلب السماح من عليّ عن عدم القتال معه في مقابل وعد منه بأن يقوم بإقناع قومه بالابتعاد عن معسكر الثالوث، أو حسب تعبيره «إن شئتَ أتيتكَ وإن شئت كففتُ عنك أربعة آلاف سيف». ولما وافق عليّ على طلبه، قام الأحنف بالفعل بالطلب من قبيلته الاعتزال وعدم القتال مع عائشة. وأورد الطبري أيضا تفاصيل حوارٍ بين الأحنف وبين زعيمٍ آخر من تميم، هلال بن وكيع، أصرّ خلاله الأخير على القتال مع «أم المؤمنين». وفي نهاية المطاف فإن قبيلة تميم الكبيرة انحاز جزءٌ كبير منها، بنو سعد بالأخص، إلى رأي الأحنف واعتزلوا الفريقين وخرجوا إلى منطقة وادي السباع، وانحاز جزءٌ آخر منها، وبالأخص بنو حنظلة، إلى رأي هلال بن وكيع فقاتلوا مع عائشة.

كان الوضع معقداً، والقرار صعباً. فوجود زوجة النبيﷺ بينهم ودعوتها لهم له رمزيةٌ كبيرة. فكيف يستطيع الرجلُ العربي، المسلمُ، أن يتخلى عن «شرَف» رسول الله، الذي تمثله حَرَمُه التي أتت من بلاد بعيدة لتستجير بهم وتستنهضهم؟ وقد أورد الطبري جوابَ زعماء بني عدي على دعوة عمران بن الحصين لهم بالاعتزال وترك الثالوث «فرفعَ شيوخُ الحيّ رؤوسَهم إليه فقالوا: إنا لا ندَع ثِقلَ رسول اللهﷺ لشيئ أبداً»[1].

محاولات اللحظات الأخيرة

وقبيل بدء القتال، بذل عليّ محاولة أخيرة مع طلحة والزبير، على أمل أن يصحو ضميرهما، فيتراجعا في اللحظة الأخيرة. فأرسل عبد الله بن عباس وأوصاه أن

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص ٥١٣ ـ ٥١٦.

يركّز جهده على التفاهم مع الزبير،لأنه كان يرى أن معدن الزبير أفضل من غيره من أهل التجمّع المعارض، لصلة القرابة، وكان يأمل أن يردّه ضميره الى الحق. ولأنه كان يعتبر طلحة متغطرساً متكبراً، وذلك جليّ في قوله لابن عباس:

«لا تلقين طلحة! فإنك ان تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعبَ ويقول هو الذلول! ولكن القَ الزبيرَ فإنه ألينَ عريكة، فقل له يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق! فما عدا مما بدا؟»[1].

وقد كتب عليّ محاولاً اقناع طلحة والزبير بالرجوع إلى الطاعة:

«فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما، فانّ الآن أعظم أمركما العار، من قبل أن يجتمع العار والنار. والسلام»[2].

وأيضاً:

«.... لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً!

إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا...»[3].

وكتب إلى عائشة:

«أما بعد: فإنك خرجتِ غاضبة لله ولرسوله، تطلبين أمراً كان عنكِ موضوعاً. ما بالُ النساء والحرب والإصلاحَ بين الناس؟

تطالبين بدم عثمان؟ ولعمري لمَن عرّضكِ للبلاء، وحملكِ على المعصية، أعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان.

وما غَضبتِ حتى أغضبت، وما هجتِ حتى هيّجت.

فاتقِ الله وارجعي إلى بيتكِ»[4].

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٦٢.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص٣٨٣.

(٣) تاريخ الطبري ج٣ ص٥١٤.

(٤) الامامة والسياسة لابن قتيبة، ج١ ص٩٠.

وهذه المراسلات والمحاولات من قبل عليّ تنسجم تماماً مع عادة عليّ ودأبه في كل حروبه. فهو كان دائماً حريصاً على إعطاء خصومه فرصة للتراجع السلمي، أو بحسب التعبير القديم «الإعذار إليهم».

وفي الحقيقة فإن علياً لم يكن يعرض شيئاً على خصومه سوى الدخول في الطاعة. وهذا المنهج الثابت سيبقى أهم ما يميز علياً في صراعه الأكبر ضد معاوية. فعليّ لم يكن رجل مساومات. فهو كان يرى أن الحق معه، وبالتالي لا يجوز له أن يداهن في الحق عن طريق تقديم تنازلات لمن هم على ضلالة.

وجاءه الجواب النهائي من طلحة والزبير:

«.... أما أنتَ فلستَ راضياً دون دخولنا في طاعتك. ولسنا بداخلين فيها أبدا. فاقضِ ما أنتَ قاضٍ».

وقال له طلحة:

«.... فاعتزِل هذا الأمرَ، ونجعله شورى بين المسلمين....».

وكتبت له عائشة:

«جلّ الأمرُ عن العتاب. والسلام»[1].

فلما يئس عليّ تماماً من إمكانية إقناع طلحة والزبير بالتراجع، دعا عليهما:

«... اللهم انهما قطعاني وظلماني، فاحلل ما عقدا ولا تحكم لهما ما أبرما وأرهما المساءة فيما أمّلا وعمِلا..»[2].

وبدأ عليّ بالشحن النفسي لقواته وأنصاره:

فهو أولاً وصف الفسادَ الذي أحدثه أصحاب الجمل في الأرض:

«فقدموا على عمالي وخزّان بيت مال المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٩١ـ٩٥.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص١٨٣.

مَصرٍ كلهم في طاعتي وعلى بيعتي، فشتّتوا كلمتهم، وأفسدوا عليّ جماعتهم. ووثبوا على شيعتي فقتلوا طائفة منهم غدراً، وطائفة عضّوا على أسيافهم فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين»[1].

ومن ثم استنكر عليّ بشدّة قيام طلحة والزبير باستغلال زوجة الرسول ﷺ لأغراضهما السياسية ولتفريق المسلين وإحداث الفتنة:

«.. فخرجوا يجرّون حُرمة رسول الله ﷺ كما تجرّ الأمَة عند شرائها، متوجّهين بها الى البصرة. فحَبَسا نساءهما في بيوتهما، وأبرزا حبيسَ رسول الله ﷺ لهما ولغيرهما في جيش ما منهم رجلٌ الاّ وقد أعطاني الطّاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكرَه.

فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها. فقتلوا طائفة صبراً، وطائفة غدرا...»[2].

وأعاد التأكيد لقواته على شرعية وأخلاقية موقفه:

«... والله ما أنكروا عليّ شيئاً منكراً، ولا استأثرتُ بمالٍ، ولا مِلتُ بهوىً.

وإنهم يطلبون حقاً تركوه، ودماً سفكوه، ولقد ولوه دوني، وإن كنتُ شريكهم في الإنكار لما أنكروه، وما تبعة عثمان إلاّ عندهم.

بايعوني ونكثوا بيعتي وما استبانوا فيّ حتى يعرفوا جوري من عدلي.

وإني لراضٍ بحجة الله عليهم، وعلمه فيهم.

وإني مع هذا لداعيهم ومعذرٌ إليهم فإن قبلوه فالتوبة مقبولة والحق أولى ما انصرف إليه.

وإن أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من باطلٍ وناصراً»[3].

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده،ج٢ ص٢٩٣.
(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٢٢.
(٣) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص٦١.

وتواجه الجيشان الشقيقان.

ومارست عائشة دور القائد العام للقوات المتمردة على عليّ.

وعندما دعاها عليّ «إن الله قد أمركِ أن تقري في بيتك فاتقي الله وارجعي. ويقول لطلحة والزبير: خبأتما نساءكما وأبرزتما زوجة رسول الله واستفززتماها«ردّت عليه عائشة بخطبة حماسية ألقتها في قواتها قبيل المعركة:

«وأتي بالجمل فأبرز وعليه عائشة في هودجها وقد ألبسَت درعاً، وضُربَت على هودجها صفائح الحديد... فخطبت عائشة الناس فقالت: إنا كنا نقمنا على عثمان رحمه الله ضرب السيوط وإمرة بني أمية وموقع السحابة المحماة. وإنكم استعتبتموه فأعتبكم من ذلك كله. فلما مُصتموه كما يُماص الثوب الرحيض، عدوتم عليه فركبتم منه الفقر الثلاث: سفك الدم الحرام في البلد الحرام في الشهر الحرام. وأيم الله لقد كان من أحصنكم فرجاً وأتقاكم لله»[1].

وبدأ القتل، وسالت الدماء.

«ثم إن علياً أمَرَ ابنه، محمد بن الحنفية. فقال: تقدم برايتك. وكان معه الراية العظمى، فتقدمَ بها وقد لاث أهل البصرة بعبد الله بن الزبير وقلدوه الأمر.

فتقدمَ محمدٌ بالراية فاستقبله أهل البصرة بالقنا والسيوف. فوقف بالراية فتناولها منه عليّ رضي الله عنه، وحَمَلَ وحَمَلَ معه الناسُ. ثم ناولها ابنه محمدا.

واشتد القتال وحميت الحرب. وانكشف الناس عن الجمل. وقتل كعب بن سور، وثبتت الأزد وضبة. فقاتلوا قتالاً شديدا......».

الجَمَلُ الرّمز

ومع استعار حمّى القتال تحوّل جمل عائشة إلى رمز لقوات أهل البصرة. فمهما سقط من قتلى في صفوفهم، كان البقية يرون الجمل الأحمر منتصباً، وبداخل

(١) ترجمة علي بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري ص ٢٣٩.

هَودَجِهِ أم المؤمنين تستثيرهم وتناشدهم الصمودَ، فيثوبون إليه ويأبون الاستسلام. كانوا يتحلقون حول الجمل ويدافعون عنه بكل حميّة وحماس. كان الفوج تلو الفوج من أهل البصرة يسقطون صرعى وهم يمسكون بخطام الجمل مستبسلين في حمايته «فقتل يومئذٍ سبعون رجلاً، كلهم يأخذ بخطام الجمل».

ورغم أن المعركة أخذت تميل بشدة لمصلحة عليّ وقواته، ورغم الانهيار الذي حصل في صفوف قوات طلحة والزبير، إلاّ أن علياً استنتج أنه ما دام ذلك الجمل قائماً فلن يتوقف المدافعون عن القتال حتى يُبادوا عن آخرهم. فأمَرَ عليّ قواته بالتركيز على إسقاط ذلك الجمل بأي وسيلة:

«وكثرت النبل في الهودج حتى صار كالقنفذ. وكان الجمل مجففاً والهودج مطبق بصفائح الحديد

وصَبَرَ الفريقان بعضُهم لبعض، حتى كثرت القتلى وثار القتام، وطلت الألوية والرايات.

وحَمَلَ عليّ بنفسه وقاتلَ حتى انثنى سيفه.

وخرج فارس أهل البصرة عمرو بن الأشرف، لا يخرج إليه أحَدٌ من أصحاب عليّ إلاّ قتله، وهو يرتجز ويقول:

يا أمنا يا خيرَ أمّ نعلمُ	والأمّ تغذو ولدها وترحمُ
ألا ترينَ كم جوادٍ يُكلمُ	وتختلي هامته والمعصمُ

... ولما رأى عليّ لوثَ أهل البصرة بالجمل، وأنهم كلما كشفوا عنه عادوا فلاثوا به، قال لعمار وسعيد بن قيس وقيس بن سعد بن عبادة والأشتر وابن بديل ومحمد بن أبي بكر وأشباههم من حماة أصحابه: إن هؤلاء لا يزالون يقاتلون ما دام هذا الجمل نصب أعينهم، ولو قد عُقِر فسقط لم تثبت لهم ثابتة.

فقصدوا بذوي الجد من أصحابه قصد الجمل حتى كشفوا أهل البصرة عنه. وأفضى إليه رجلٌ من مُراد الكوفة يقال له: أعين بن ضبيعة، فكشف عرقوبه بالسيف،

فسقط وله رغاءٌ فغرقَ في القتلى. ومالَ الهودجُ بعائشة»[1].

وفعلاً فإن سقوط الجمل كان إيذاناً بانتهاء المعركة، واستسلام قوات عائشة.

نتائج القتال

وأسفرت المعركة عن مقتل طلحة بن عبيد الله، ومعه ابنه محمد، والزبير بن العوام. وهناك شبه إجماع بين المصادر التاريخية[2] على روايتين حول كيفية مقتل الرجلين.

ففيما يتعلّق بالزبير، تذكر الروايات أنه انسحب من المعركة في اللحظات الأخيرة، عندما اجتمع معه عليّ بن أبي طالب، وهما بين الصفين، وذكّره بأن رسول الله ﷺ قد قال له: لتقاتلنّه وأنتَ له ظالم![3] وبعضها يقول أنه أرادَ الرجوعَ لما عرف أن عمار بن ياسر موجودٌ في جيش عليّ، لأن الرسول ﷺ قال عنه: تقتله الفئة الباغية!

وتقول الروايات أن الزبير عندما انسحب، لحق به عمرو بن جرموز التميمي حتى قتله وهو يصلّي! وذلك لأنه «أتى بحرمة رسول الله يسوقها، فهتكَ عنها حجابَ رسول الله، وسترَ حرمته. ثم أسلمها وانصرف».

وأما طلحة، فتقول الروايات أن مروان بن الحكم رماه بسهم أثناء المعركة فقتله! وأن ذلك كان ثأراً من مروان لدم عثمان الذي يحمّله لطلحة![4]

ولكن هذه الروايات غير صحيحة، لأنها ببساطة خارجة عن سياق الأحداث. هي روايات مفتلعة ومقحمة على مجريات الأمور. والأكيد أن سبب تكرارها في عدة مصادر هو أن لكل صاحب هوى هدف منها:

فبعض الرواة كان يهدف إلى تبييض صفحة طلحة والزبير ومحاولة تبرئتهما

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص١٥٠.

(٢) يمكن على سبيل المثال مراجعة تاريخ اليعقوبي ج١ ص١٨٣. وكذلك تاريخ خليفة بن خياط ص١٣٨ـــ١٣٩. وأيضا الامامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٩٠ـ٩٧.

(٣) مثلا: سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٥٩.

(٤) مثلا: الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٣٨، وكذلك سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٣٦.

من مسؤولية المعركة والقتلى، عن طريق القول بأنهما قد عرفا الحق وأرادا أن يتراجعا عن موقفهما، ولكن الأمور خرجت من أيديهما. وبالتالي يكون المسؤول عن الكارثة هم غيرهم من الذين أصروا على القتال من عامة الناس! أو حتى «السبئيون» كما تذهب روايات سيف بن عمر!

وأما البعض الآخر من الرواة، فهدفهم كان إبراز صحّة موقف الإمام عليّ، وأن الشيخين قد اعترفا بذلك وأرادا التراجعَ. وكان هؤلاء يهدفون أيضاً إلى تلطيخ موقف مروان بن الحكم، بالإضافة إلى إبراز مسؤولية طلحة في التحريض على عثمان، وليس عليّ.

وهذه آراءٌ سقيمة، وتحليلٌ هزيل لمجرى سير الأحداث. لأن الزبير كان يعرف منذ البدء أن عماراً هو مع عليّ، فذلك أمرٌ مشهور، يعرفه الناس حتى في الأقاليم البعيدة، فلا يصحّ أنه يتفاجئ بذلك. ولا يمكن للزبير أن يكون «ناسياً» لحديث رسول الله ﷺ له بشأن عليّ، وهو الذي كان منخرطاً في التجهيز لحربه على مدى شهور طويلة. لو كان حديث الرسول ﷺ للزبير يتعلّق بمسألة فقهية بسيطة أو بشخص لا علاقة له بأحداث الصراع الدامي ضد عليّ بالذات، لكان يمكن أن يكون غائباً عن ذهن الزبير إلى أن ذكّره به عليّ وهما بين الصفّين. ولكن أن يكون الزبير ناسياً لحديث بهذه الدرجة من المباشرة والصراحة، فذاك المستحيل.

وأما سمعة مروان بن الحكم ومواقفه، فهي ليست بحاجة إلى المزيد من التلطيخ! فهي ملوثة بما فيه الكفاية. وإن في سيرته قبل حرب الجمل وبعدها من المثالب والعيوب، ما يُغني كارهيه عن الحاجة إلى تحميله مسؤولية قتل طلحة وإضافتها إلى سجلّه. إذ لا يمكن تصوّر أن مروان يقتل قائد الجموع المعادية لعليّ في المعركة.

ألم يكن مروان يدرك أن قتل طلحة يمكن أن يؤدي إلى انهيار في جبهته، التي هو جزءٌ أساسيّ منها؟ أم هل إن مروان يريد النصرَ لعليّ؟ وإن كان حقاً أنّ

مروان يعتبر طلحة قاتلاً لعثمان، فلماذا ينتظر إلى احتدام القتال ضدّ عليّ حتى يقتله؟ ولِمَ لم يقتله قبل ذلك، في مكة مثلا؟

المهم أن الرجلين قتلا، وتوقفت المقاومة بعد انهيار هودج عائشة.

وطبّق عليّ سياسة التسامح تجاه أعدائه المهزومين: «ثم نادى منادي عليّ: ألا لا يُجهز على جريح، ولا يتبع مول، ولا يطعن في وجه مُدبر. ومَن ألقى السلاحَ فهو آمن. ومَن أغلق بابه فهو آمِن. ثمّ آمَنَ الأسودَ والأحمرَ»[1].

ويمكن ملاحظة معالم المدرسة النبوية في سياسة التسامح التي اتبعها عليّ تجاه أعدائه المهزومين. فهو قد طبّق نفسَ سياسة رسول الله ﷺ يوم فتح مكة تجاه ألدّ أعدائه، فأعرضَ عنهم ولم ينتقم منهم. فرغم كُرهه الشديد لمروان بن الحكم، إلى درجة أنه رفض قبول بيعته حين أحضروه مستسلَماً: «.. لا حاجة لي في بيعته. إنها كفّ يهودية. لو بايعني بكفّه لغَدَر بسبّته...»[2] إلاّ أنه أطلقه ولم يحبسه.

وجهز عليّ موكباً كبيراً وحملَ عليه عائشة وأرسلها إلى المدينة المنورة، يقودها أخوها محمد بن أبي بكر.

ورغم كل ما أحدثوه من فساد، فانّ علياً ما كان راغباً بأن يرى خصومَه قتلى. وشعر بالأسى والحزن على المصير الذي آلَ إليه رفاقه القدامى من أصحاب محمد ﷺ. فقال حينما رأى طلحة صريعاً على أرض المعركة:

«لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً. أماً والله لقد كنتُ أكره أن تكون قريشٌ قتلى تحت بطون الكواكب..»[3].

أثر المعركة على أهل البصرة

وقد تركت معركة الجمل آثاراً بعيدة المدى على المعسكر العراقي. لقد كانت مقتلة داخلية بين العراقيين من أبناء القبائل العربية في البصرة والكوفة. وعلى الرغم

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٨٣.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٩٣.

(٣) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٩٣.

من أن علياً خرج منها منتصراً، إلاّ أنه كان انتصاراً مُـراً، مليئـا بالـدماء ويحمـل بـذور شقاق فظيعة. كان انتصارا لعليّ على جزء مهم من أنصاره وجنوده!

لقد عانت بعض قبائل البصرة خسائر فادحة في القتلى من أبنائها، مما ولّد بـلا شك شعوراً بالحقد والمرارة تجاه كل ما جرى.

فمثلاً جاء في تاريخ خليفة بن خياط أن عدد القتلى من أهل البصرة من قبيلـة الأزد فقط بلغ ٢٥٠٠ رجل، ومن بني ضبة ٨٠٠ رجل[1]. وذلك يعني أن هناك قبائـل كاملة قد حلّت بها كوارث رهيبة. وذكر خليفة أن العدد الاجمالي للقتلى في المعركـة بلغ عشرين ألفاً حسب رواية، وسبعة آلآف حسب أخرى.

وورد في تاريخ الطبري أن عدد قتلى المعركة كـان عشـرة آلاف: نصـفهم مـن أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة. وذكر بعض تفاصيل خسائر العشائر: من الأزد ٢٠٠٠، ومن بني ضبة ١٠٠٠ ومن تميم ٥٠٠ ومن قيس ٥٠٠ ومن بكر بن وائل ٥٠٠ رجل[2].

ووردت تقديرات أخرى للحصيلة الإجمالية لقتلى حـرب الجمـل[3] : حسـب تاريخ اليعقوبي نيفاً و ثلاثون ألفا. وحسب الطبقـات الكبـرى لابـن سـعد كـان عـدد القتلى ثلاثة عشر ألفاً.

وذكر المسعودي أن عدد القتلى الإجمالي كان أربعة عشر ألفاً، منهم ألـفٌ مـن أصحاب عليّ، ومنهم ٤ آلآف من الأزد، وألف ومائة من ضبة[4].

ورغم أن النسبة الكبرى من قتلى يوم الجمل كانـت مـن ابنـاء القبائـل العربيـة المستوطنة في البصرة، إلاّ أنّ قبيلة قريش خسرت عـدداً مـن أبنائهـا الـذين خاضـوا

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص١٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٤٢. وأما اليعقوبي فذكر في تاريخه ج٢ ص ١٨٢ أن القتلى مـن الأزد كـانوا ٢٧٠٠ ومـن ضبة ٢٠٠٠ رجل.

(٣) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٤٣. والطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٣٢. وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٨٣.

(٤) التنبيه والإشراف للمسعودي ص٢٥٦.

المعركة، موحّدين ضد عليّ بن أبي طالب. وقد عدد خليفة[1] أسماء ٣٠ قتيلا من كل بطون قريش الذين سقطوا صرعى.

أثر حرب الجمل على مستقبل الصراع

وبالرغم من شعور المرارة والنقمة الذي ملأ صدور الكثيرين من أهل العراق بسبب حجم الخسائر بينهم، إلاّ أنه كان لحرب الجمل نتيجة مباشرة: وهي إظهار مدى حزم عليّ فيما يتعلق بموضوع شرعيته، وإظهار عزمه الأكيد على السير في الطريق إلى النهاية من أجل تثبيت حكمه والقضاء على الخارجين عليه.

رأى أهل العراق أن الخليفة الجديد لم يتردد لحظة في مواجهة أم المؤمنين ومعها اثنين من الصحابة الكبار، وأن حرص الخليفة على حقن الدماء لم يمنعه من القتال في سبيل قضيته. وبعد حرب الجمل، حزم المترددون أمرهم[2]، وزال الشعور باللايقين الذي ميّز الأشهر التي سبقت المعركة. فها هو عليّ بينهم بنفسه ليقودهم، وبدا لكل العراقيين أن المستقبل مع عليّ، فانقادوا له وقرروا المضيّ معه وخلفه. وسوف يستمر هذا الإيمان الجماعي بحتمية انتصار عليّ والشرعية إلى أن يبدأ بالتهاوي في أعقاب معركة صفين.

وأرسلت حرب الجمل رسالة أخرى إلى كل أنصار النظام القديم في العراق، ممن كانوا مرتبطين بحكم عثمان وولاته وإدارته، بأنّ زمانهم قد مضى وأنّ لا مجال أمامهم سوى الخضوع لسلطان عليّ. لقد تحطمت الروح المعنوية لهؤلاء، وفقدوا ثقتهم بقدرتهم على تحدّي عليّ، إلى درجة دفعت أحد أركان حكم عثمان الرئيسيين، عبد الله بن عامر بن كريز، إلى فقدان الأمل في القدرة على حرب عليّ في المستقبل، وبالتالي قرر الهروب بجلده إلى الشام دون أن يأتي معاوية لينضم إلى صفوفه، خوفاً من يوم آخر كالجمل! روى صاحب الإمامة والسياسة أن

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص١٤٠.

(٢) فمثلا: الأحنف بن قيس، زعيم تميم في البصرة، كان اعتزل القتال يوم الجمل، بينما شارك مع عليّ في صفّين. ذكر ذلك ابن الأثير في أسد الغابة ج١ ص٥٥.

«عبد الله بن عامر لحق بالشام، ولم يأتِ معاوية، وخاف يوماً كيوم الجمل.

فبعث إليه معاوية أن يأتيه وألحّ عليه.

فكتب ابن عامر: أما بعد، فإني أخبرك أني أقحمتُ طلحة والزبير إلى البصرة، وأنا أقول: إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها. وإن فرّ الناسُ لم يفرّ الزبير، وإن غدر الناس لم يغدر مروان. فغضبت عائشة ورجع الزبير وقتل مروان طلحة. وذهب مالي بما فيه، والناس أشباه واليوم كأمس. فإن أتبعتني هواي وإلاّ أرتحل عنك والسلام»[1].

وسوف يبذل معاوية جهداً في رفع معنويات ابن عامر واقناعه بالقدرة على مواصلة الصراع ضد عليّ حتى انضمّ إلى صفوفه. ولم يغِب عن ذهن معاوية تذكير ابن عامر أنه لن يرى يوماً هنيئا واحدا في ظل عليّ، الذي لا شك لن ينساه!

وقد كان معاوية وجماعته مدركين لحجم المصيبة التي حلّت بأهل العراق نتيجة حرب الجمل. فخطب عمرو بن العاص في أهل الشام، لما بلغهم مسير عليّ والعراقيين يريدون دخول الشام، لكي يهوّن عليهم الأمر ويرفع من معنوياتهم:

«إن صناديد الكوفة والبصرة قد تفانوا يوم الجمل، ولم يبقَ مع عليّ إلاّ شرذمة قليلة من الناس، ممن قتل، وقد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تطلوه.

وكتب إلى أجناد الشام فحضروا وعقدت الألوية والرايات للأمراء، وتهيأ أهل الشام وتأهبوا وخرجوا أيضا نحو الفرات من ناحية صفين»[2].

وعلى الرغم من أن علياً نجح في تجاوز هذا الشعور بالمرارة عن طريق سياسته المتسامحة تجاه المهزومين وسرعة ضمهم إلى صفوف جيشه، إلاّ أن ذلك الشعور كان يطفو بين مناسبة وأخرى ويتمثل في نوع من التقاعس والتخاذل عن الاستجابة إلى مناشدات عليّ المتكررة للعراقيين، وبالذات في مرحلة ما بعد صفين.

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٠٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٢٨٢.

وقد روى الطبري أنه عندما سعى عليّ إلى معاودة الهجوم على أهل الشام في أعقاب معركة صفين ومؤتمر التحكيم، لم ينجح واليه على البصرة عبد الله بن عباس في حشد سوى ٣٢٠٠ مقاتل من أهل البصرة، في مقابل ٦٥ ألفاً حشدهم علي من أهل الكوفة!

ووفرت نتائج حرب الجمل ذخيرة دعائية مهمة لمعاوية. ولم يتوانَ عن البدء بالمتاجرة بدماء الزبير وطلحة وإهانة أم المؤمنين على يد علي! جاء في إحدى رسائله لعليّ:

«... ثم ما كان منكَ بعدما كان، من قتلكَ شيخيَّ المسلمين أبي محمد طلحة وأبي عبد الله الزبير، وهما من الموعودين بالجنة، والمبشرُ قاتلُ أحدهما بالنار في الآخرة. هذا إلى تشريدكَ بأم المؤمنين عائشة وإحلالها محل الهون، متبذلة بين أيدي العراب وفَسَقة أهل الكوفة. فمن بين مشهرٍ لها، وبين شامتٍ بها، وبين ساخرٍ منها...»[1].

المسؤولية التاريخية

ولا بد من التعرض للمسؤولية التاريخية عما جرى يوم الجمل. فلا يمكن تجاهل ما حصل لأن الخسائر كانت فادحة، وقد نتج عن تلك الحرب أعداد هائلة من الأيتام والأرامل والثكلى والمشرّدين والمحطّمين، ونتج عنها خراب ودمار في البلاد والعباد. وقد ولّدت تلك الحرب أحقاداً لا تندثر بين الناس. وكانت معركة الجمل أول حرب أهلية في الإسلام، وفيها شَهَرَ العرب المسلمون سيوفهم على بعضهم البعض، بعد أن كانوا لا يشهرونها إلاّ على أعدائهم من الأعاجم من أبناء الأمم الأخرى.

ولأن الأشخاص المعنيين بهذه الفتنة لهمّ ثقلٌ كبير في المعايير الإسلامية، فقد برز اتجاهٌ قوي، تولى الترويج له كثيرٌ من المنظّرين المتعاطفين مع الحكام

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٧ ص٢٥٢.

والسلاطين على مرّ العصور، يميل إلى التهوين من شأن ما حصل، بل ويدعو إلى النهي عن «الخوض» في هذه المسائل! والسبب هو تلك الصورة التي روّجوا لها عن أبطال ذلك الصراع: «المبشّرين بالجنة»، الزّهاد في الدنيا، أصحاب الورع والعدول جميعاً. ولذلك كان صعباً على هؤلاء تفسير ما أحدثته أم المؤمنين عائشة والصحابيين الكبيرين طلحة والزبير من فعل يمكن وصفه بالإفساد في الأرض وزرع أسس الشقاق في أمة محمدﷺ. ومثالٌ على ذلك الاتجاه ما قاله ابن العربي[1] عن عائشة وما فعلته يوم الجمل بأنها «كانت مجتهدة، مصيبة، مثابة فيما تأولت، مأجورة فيما فعلت. إذ كل مجتهدٍ في الأحكام مصيب». فكأن هذا الاتجاه يريد أن يقول أن كل ما جرى هو عبارة عنْ «خطأ فقهي»، لا أكثر ولا أقل!

فهل يمكن افتراض البراءة وحُسن النية في تصرّف عائشة والزبير وطلحة؟

لا يمكن اعتبار خروج الثالوث، على الإمام عليّ محاولة بريئة للإصلاح. بل كان له هدفٌ جوهري: القضاء على خلافة عليٍّ، من أجل الاستمرار في مسلسل تداول الخلافة بين بطون قبيلة قريش، مع استثناء الفرع الهاشمي منها ـ وبالتحديد عليّ ـ تماماً.

وهم كانوا يدركون أن هذا مشروعٌ عالٍ وهدف كبيرٌ جداً، وأنه لن يتمَ دون حربٍ وقتال، وكانوا مستعدَين للتضحية بكلّ شيئ في سبيل ذلك الهدف الكبير. فهم حين قرروا الخروج كانوا ينوون شنّ الحرب وكانوا يتوقعون سقوط خسائر من طرفهم، كما في كل الحروب، ولكنهم رأوا ذلك ثمناً لا بد من دفعه في سبيل قضيتهم الكبيرة. فمثلاً روى الطبري أن عبد الله بن الزبير، أثناء الاستعدادات للمسير إلى البصرة، قد طلبَ من أخويه الشقيقين البقاء في مكة وعدم الخروج فقال «يا عروة: أقم! ويا منذر: أقم». ولما سأله أبوه عن سبب طلبه ذاك أجابه «... ولا تعرّض أسماءَ للثكلِ من بين نسائك»[2].

---

(١) ورد ذلك في تفسير القرطبي لسورة الأحزاب آية ٣٣.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٧٨.

من المؤكد أن عائشة والزبير وطلحة كانوا يمتلكون من الخبرة السياسية ما يكفي لكي يجعلهم مُدركين بأنهم بتمرّدهم ذاك يهددون مؤسسة الخلافة ذاتها. الظاهر أنهم كانوا يعرفون ذلك ولكنهم رأوا أن استعادة مبدأ تداول الخلافة بين البطون القرشية بقيادة المهاجرين تستحق هذه التضحية والمغامرة. هم كانوا يرون أن علياً كان يقوم بإلغاء وسحق ذلك المبدأ، الناجح والصحيح بنظرهم، وأنه في طريقه أخيراً إلى تأسيس حكم هاشميّ يجمع بين مَجدَي النبوّة والخلافة، وسوف يُبعِد قريشاً ويهمّشها. وذلك بنظرهم مُضِرٌ ولا يجوز.

وربما كانت عائشة تشعر بنوعٍ من المسؤولية تجاه «أبنائها «وبأنّ عليها واجباً في رعايتهم وتوجيههم إلى ما تراه خيراً لدين محمدﷺ ودولته من بعده. وربما يكون هناك شعورٌ مشابهٌ لدى الزبير وطلحة، كونهما صحابيين كبيرين، تجاه عامة المسلمين في ضرورة التصدّي للإنحراف الخطير الذي يؤسس له عليّ.

ولكن إذا كان من الممكن أن يكون الثلاثة قد أقنعوا أنفسهم أنهم يقومون بما عليهم من واجبٍ ومسؤولية بحكم وضعهم في الإسلام، إلاّ أنه كان عليهم أن يدركوا أنهم كان يتم استغلالهم من قبل طبقة الطلقاء وأعضاء الجهاز الأموي الحاكم في جهدهم للحفاظ على مزاياهم ووضعهم في الدولة، عن طريق مواجهة الخليفة الجديد. كان الطلقاء والجهاز الأموي مستعدّين لخوض حرب وجودٍ لا هوادة فيها ضد عليّ، ولكنهم كانوا بحاجة ماسّة إلى واجهة وغطاء شرعيّ يستعملونه في تلك الحرب التي بدأوا يجهزون لها. ولذا التفّ هؤلاء حول عائشة والزبير وطلحة ووضعوهم في الصدارة ورفعوهم إلى الواجهة. لقد تولى هؤلاء التخطيط والتمويل والتنظيم لحركة الثلاثة، وكانوا عنصر تحفيزٍ شديدٍ لهم، لإعلان التمرّد.

وقد قبل الثلاثة عن طيب خاطر تلك «المساعدات» التطوّعية الكبيرة التي قدمها الطلقاء والجهاز الأموي. ويبدو أن عائشة والزبير وطلحة قدّروا أن بإمكانهم إبقاء صراعهم مع عليّ ضمن نطاق طبقة كبار الصحابة من ذوي الشرعية. وربما ظنوا أن هزيمة عليّ من شأنها أن تعيد الخلافة تلقائياً إلى طبقة كبار المهاجرين القرشيين. ولكن تقديرهم كان خاطئاً، وظنهم كان وهماً. فقد كان الطلقاء والجهاز

الأموي بلغوا في عهد عثمان من القوة حداً يجعلهم قادرين على فرض برنامجهم وسياستهم سواء رضي كبار الصحابة وأم المؤمنين أم لم يرضوا. لقد وصف معاوية بن أبي سفيان، قبل سنة من هذه الأحداث، كبار الصحابة بأنهم «كالشامة السوداء في الثور الأبيض «معبراً عن وضعهم بين عامة المسلمين. وكان دقيقاً في وصفه ذاك. كان على أم المؤمنين والزبير وطلحة أن يدركوا أن هزيمة عليّ لن تؤدي إلاّ إلى صعود نجم الطلقاء والجهاز الأموي. وذلك تماماً ما حصل في نهاية المطاف.

عليّ والثائرون

وفي المقابل، تجب الإشارة إلى أن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب لم يبعد نفسه بما فيه الكفاية عن أوساط الثائرين القادمين من الأمصار والذين كان قاتلوا عثمان من بينهم. لقد بَدا عليّ قريباً جداً منهم، فلم يبعدهم عنه، وكانوا من الدائرة المحيطة به، وهذا ما مكّنَ خصومه الكثر من القول إنه متورّطٌ بقتل عثمان عن طريق الإيعاز بذلك إلى أتباعه هؤلاء. وعلى أقل تقدير إنه زعيم القتلة والغوغاء.

وبالتدقيق في سيرة الإمام علي، يمكن التأكيد على أنه لم يصدر عنه، طوال فترة حكمه، ما يشير إلى أي جدية في اتخاذ أي خطوات عقابية تجاه مجمل الثائرين على عثمان. فلم يقم بأي إجراءات عملية لمحاسبتهم.

ويلاحظ أن علياً قام، عن علمٍ وإرادة، بتعيين عدد من الأشخاص المتهمين بقتل عثمان في مناصب مهمة في حكومته، واعتمد عليهم في إدارته. وكان الثائرون يرون في سياسة الخليفة عليّ تلك إقراراً منه لهم على تصرفاتهم.

وهناك بعض الإشارات إلى أن علياً كانت لديه النية في إجراء نوع من المحاكمة للأشخاص الضالعين مباشرة بقتل عثمان، ولكن حسب الأصول الشرعية تماماً، وأولها أن يتقدم ذوو عثمان بطلب له، بوصفه الخليفة المسؤول، بالقصاص من هؤلاء الذين قتلوا عثمان بدون قاضٍ ولا محكمة. وهذا ما لم يحصل. والمحكمة بنظر عليّ يجب أن تقوم على الأدلة والقرائن والشهود، وأن يتم تحديد كل متهم بذاته.

وظهر من عليّ ما يشير إلى تهوينه من موضوع قتل عثمان بجملته. فالأمر هامشيّ بنظره وليس له الأولوية، ولا بأس بتأجيل النظر فيه إلى ما بعد أن تستتب أموره في الحكم.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أنه كان هناك ارتباط عاطفيّ وثيقٌ لمجمل الثائرين على عثمان بشخص عليّ بن أبي طالب. فمثلاً روى نصر بن مزاحم[1] نصاً يعبّر فيه عمرو بن الحمق الخزاعي، وهو من المتهمين بقتل عثمان، عن أسباب ولائه لعليّ بأسلوب عاطفيّ أخّاذ. فقال له أثناء الاستعداد للسير إلى صفين«إني والله يا أمير المؤمنين ما أجَبتكَ ولا بايعتكَ على قرابةٍ بيني وبينك، ولا إرادة مال تؤتينيه، ولا التماس سلطان يُرفع ذكري به. ولكن أجبتك لخصال خمس: أنك ابن عم رسول الله ﷺ وأول مَن آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد ﷺ، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ﷺ، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد. فلو أني كلفتُ نقلَ الجبال الرواسي، ونزحَ البحور الطوامي، حتى يأتي على يومي في أمرٍ أقوى به وليّكَ، وأوهن به عدوّك، ما رأيتُ أني قد أديتُ فيه كل الذي يحق عليّ من حقك».

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم، ص١٠٣.

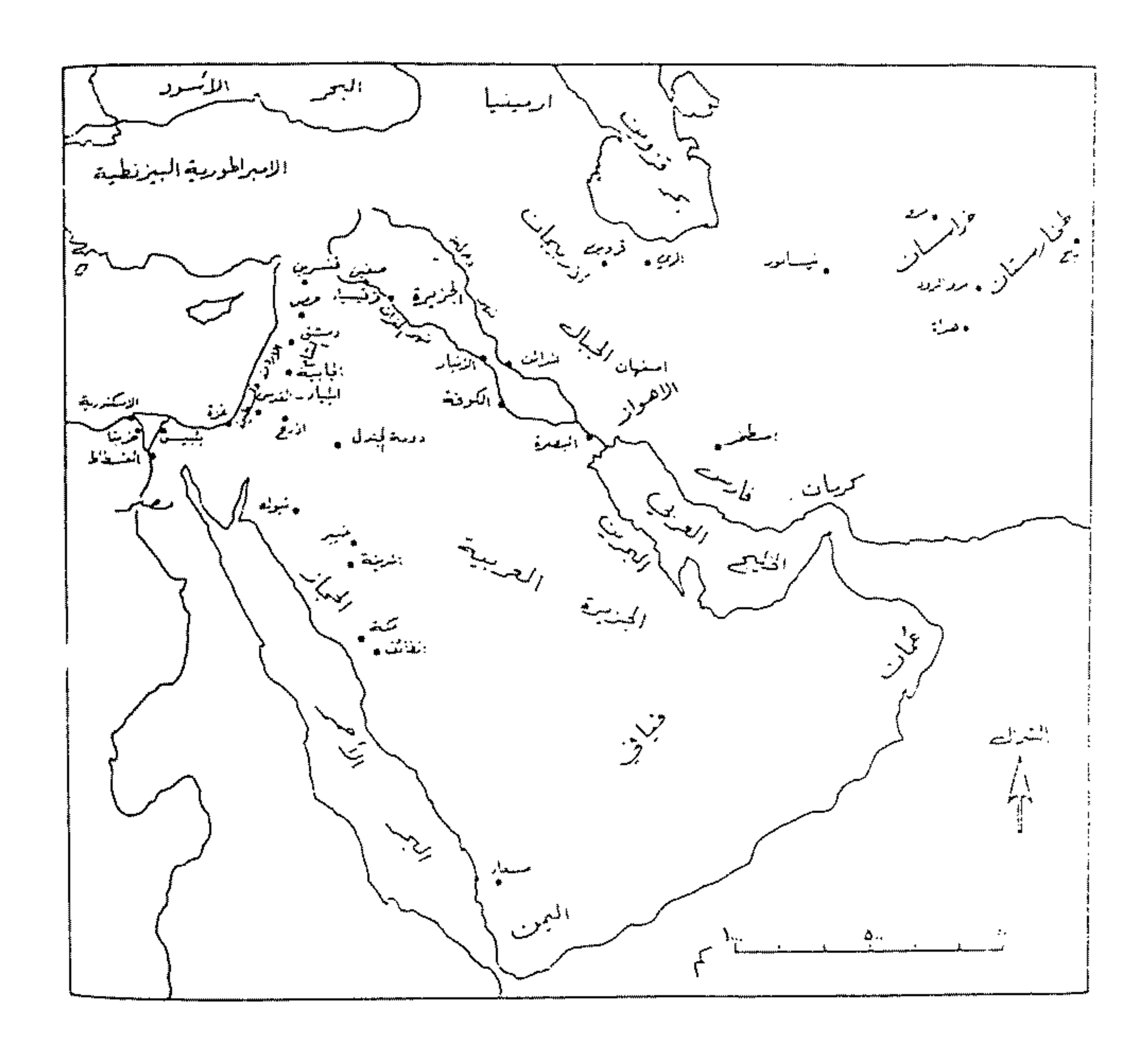
الكتاب السادس

صفين والخوارج

«مَن طلبَ الباطلَ فأصابَهُ
ومَن طلبَ الحقَّ فأخطأه...»

علي بن أبي طالب

خارطة (١): الدولة الإسلامية في زمن الفتنة



معاوية

إن في الشام مئة ألف سيفٍ لا يعرفون عليّا ولا قرابته

شخصية معاوية

إن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، هو الشخصية المحورية الثانية في كل أحداث الفتنة الكبرى التي جرت ما بين ٣٦ و٤١ للهجرة، بالإضافة طبعاً إلى الشخص المحوري الأول: علي بن أبي طالب. فلا بد من إلقاء الضوء على خلفيات هذه الشخصية ومراحل صعودها المدهش.

نشأ معاوية وهو يرى نفسه سليلاً لمجد أبي سفيان وحرب وأمية، وامتداداً لعزّ قريش بين العرب. وكثيراً ما عبّر معاوية، وهو خليفة، عن اعتزازه الشديد بأبيه، وقد قال مرة لابنه يزيد «... وإن كان أبو سفيان ما علمتُ لثقيل الحلم، يقظان الرأي، عازب الهوى، طويل الأناة، بعيد القعر، وما سوّدته قريش إلاّ لفضله»[1]. وغالباً ما كان معاوية يصف أباه بأنه كان «أكرم قريش وأشرفها»[2] أو «سيد قريش». أي أن معاوية، وهو خليفة، كان يعتبر مجد الحكم والزعامة ليس أمراً جديداً عليه، بل هو شأنٌ طبيعي وصله عن طريق أبيه وأجداده، مع الفارق طبعاً، لأن أبا سفيان كان بنظر معاوية، سيد قريش، بينما هو الآن أصبح سيد العرب.

وبحكم انتمائه للفرع الأموي من بني عبد مناف، فقد شبّ يشعر، كأبيه وأجداده، بحساسية بالغة، تصل إلى حد الحقد الأعمى، تجاه أي تميّز قد يناله الفرع الهاشمي من بني عبد مناف. وتروي كتب التراث تفاصيل كثيرة عن التنافس

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨ ص١٣٠.

(٢) على الرغم من حرص أبي سفيان على مظاهر «الشرف» الجاهلية، ومنها إغاثة الملهوف، إلاّ أن الكرم، بمعنى البذل والعطاء النابع من النفس، لم يكن أبدا من خصاله الحقيقية، ولا كانت نفسه تجود بشيء إلاّ إن كان وراء ذلك هدف ومنفعة:

«كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين. فأتاه يتيم فسأله شيئا فقرعه بعصا، فأنزل الله تعالى (أرأيت الذي يكذّب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم)». ذكر ذلك الواحدي في أسباب النزول ص٣٠٦.

والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، جيلاً بعد آخر.

ورغم أن الفرعين، الهاشمي والأموي، هما أبناء عم، ويتحدّران كلاهما من عبد مناف، إلاّ أنه لم يكن غريباً في ذلك الوقت أن تكون الخصومات بين الأقرباء أشدّ حدّة، وأعمق أثراً، من الخصومات بين البطون المتباعدة في نسَبها. فالأخيرة كانت في الغالب تزول بزوال أسبابها المباشرة، بعكس خلافات أبناء العمومة التي كانت تتميز بالطابع الشخصي.

ويمكن القول أن بني أمية وعبد شمس، كانوا في الجاهلية أكثر عددا[1] وثراءً من بني هاشم، وأنهم بالتالي كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر أهلية للزعامة والصدارة منهم. مع العلم بأن بني هاشم كانوا معروفين بحسن الأخلاق أكثر، وتجلّى ذلك بحلف «الفضول» الذي تمّ بمبادرة من بني هاشم، وضمّ معهم بني المطلب وزهرة وتيم، والذي كان هدفه نصرة المظلوم في مكة، ولم يشارك بنو أمية/ عبد شمس في هذا الحلف.

بالتالي لم يكن بنو أمية في وارد أن يسمحوا بأن ينال بنو هاشم تميزاً عظيماً، بحجم النبوة. وقرروا، ممثلين في أبي سفيان خاصة، أن ذلك لا يُطاق، ولن يكونَ، تحت أي ظرف. فبنو أمية لم ينظروا إلى دعوة محمدﷺ في مكة إلاّ على أنها محاولة جديدة من أبناء عمومتهم الهاشميين للإنفراد بالمجد والشرف والصدارة، وهذا ما لم يكن بمقدورهم أن يتساهلوا بشأنه.

ويميل معاوية، وهو خليفة، إلى اعتبار الفترة النبوية التي كان فيها محمدﷺ يقود بالفعل العرب والمسلمين، وخاصة بعد فتح مكة سنة ٨ للهجرة إلى حين وفاة

---

(١) وقد ذكر الإمام عليّ مرة مقارنة بين بني هاشم وبني أمية في جوابه لرجل سأله عن قريش «... وأما بنو عبد شمس فأبعدها رأيا، وأمنعها لما وراء ظهورها. وأما نحن فأبذل لما في أيدينا، وأسمح عند الموت بنفوسنا. وهم أكثر وأمكر وأنكر، ونحن أفصح وأنصح وأصبح». وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لكلام عليّ (ج١٨ ص٣٠٩) انه «أراد كثرة بني عبد شمس، فبالكثرة تمنع ما وراء ظهورها. وكان بنو هاشم أقل عددا من بني شمس، إلاّ أن كل واحد منهم على انفراده أشجع وأسمح بنفسه عند الموت من كل واحد على انفراده من بني عبد شمس».

الرسولﷺ سنة ١١ للهجرة، استثناءً طارئاً نجح فيه بنو هاشم في الانفراد بمجد النبوة والحكم معاً، وفي تنحية منافسيهم من بني أمية جانباً.

وهو يعتبر أن وصوله للحكم سنة ٤١ للهجرة تتويجٌ للجهود المتواصلة التي بذلها بنو أمية من أجل استعادة مجدهم الغابر، والتي بدأت مباشرة بعد وفاة الرسولﷺ.

ومن المفيد في هذا السياق عرض الرسالتين اللتين تبادلهما محمد بن أبي بكر ومعاوية بن أبي سفيان سنة ٣٨ للهجرة:

نص رسالة محمد بن أبي بكر إلى معاوية:

«من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر!

سلامٌ على أهل طاعة الله، ممن هو سِلمٌ لأهل ولاية الله، أما بعد..

فإن الله بجلاله وقدرته وعظمته، خلق خلقه بلا ضعف كان منه، ولا حاجة به إلى خلقه. لكنه خلقهم عبيداً وجعل منهم شقيا وسعيداً، وغَوِيّا ورشيداً. ثم اختارهم بعلمه واصطفاهم بقدرته. فانتحلَ منهم وانتجبَ محمدا ﷺ فبعثه رسولاً وهادياً ودليلاً، وبشيراً ونذيراً، وسراجاً مُنيراً. فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فكان أولَ مَن أجابَ وأنابَ، وأوفق وأسلم وسلم، أخوه وابن عمه عليّ بن أبي طالب. فصدّقه بالغيب المكتوم وآثَرَه على كل حميم، ووقاه كل هَول، وواساه بنفسه في كل حال. وحاربَ حربَه، وسالمَ سِلمَه، حتى برز سابقاً لا نظيرَ له ممن اتبعه، ولا مشاركَ له في فضله.

وقد أراكَ تساميه وأنتَ أنتَ، وهُوَ هُوَ: السابق المبرّز في كل خير، أطيب الناس ذرّية، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم. أخوه الشاري بنفسه يوم مؤتة، وعمّه سيد الشهداء يوم أحد، وأبوه الذّابّ عن رسول اللهﷺ. وأنت اللعين ابن اللعين. لم تزل أنتَ وأبوك تبغيان لدين الله ورسوله الغوائل، وتحالفان عليه القبائل وتبذلان فيه المال وتحالفان فيه الرجال.

على ذلك مات أبوكَ، وعليه خلفته. والشاهد عليك مَن تـؤوي وتلحـي مـن رؤوس أهل النفاق وبقية الأحزاب وذوي الشناءة لرسول اللهﷺ وأهل بيته.

والشاهد لعليّ سبقه القديم وفضله المبين، أنصار الـدين الـذين ذكـروا فـي القرآن فهم حوله عصائب وبجنبيه كتائب. يرجون الفضل في اتباعه ويخافون الشقاق في خلافه.

فكيف تعدل نفسك بعليّ وهوكان أول الناس لـه اتباعـاً وآخـرهم بـه عهـداً، يُشركه في أمره ويُطلعه على سرّه، وأنتَ عدوّه وابن عدوّه؟!

فتمتع في باطلك، وليمددكَ عمرو في غوايتك، فكأن قد انقضى أجلك، ووَهَى كيدك. فستتبين لمن تكون العاقبة!

واعلم أنك يا معاوية إنما تكائد ربّك الذي قد أمنـتَ كيـدَه ومكـرَه، ويئسـتَ من روحه، وهو لك بالمرصاد وأنتَ منه في غرور. وبالله ورسوله وأهـل بيتـه عنـك الغنى. والسلام على مَن تاب وأناب».

رسالة معاوية الجوابية إلى محمد بن أبي بكر:

من معاوية بن أبي سفيان إلى محمد بن أبي بكر، الزاري على أبيه!

سلامٌ على مَن اتبع الهدى وتزود التقوى

أما بعد. فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله، ومـا اصـطفى لـه رسـوله، مـع كلام لفقته وصنعته لرأيك فيه تضعيف ولك فيه تعنيف.

ذكرتَ حقَ ابن أبـي طالـب وسـوابقه وقرابتـه مـن رسـول الله ونصـرته إيـاه. وأحتججتَ عليّ بفضل غيرك لا بفضلك. فأحمد إلهـاً صـرَفَ عنـكَ ذلـك الفضـل وجعله لغيرك.

فقد كنا وأبوك معنا في حياةٍ من نبينا، نرى حق ابن أبي طالب لنا لازماً، وفضله علينا مبرزاً. فلما اختار الله لنبيه ماً عنده، وأتمّ له وعدَه، وأفلج حجته وأظهـر دعوتـه، قبضَه الله إليه. فكان أبوك ـ وهو صـدّيقه ـ وعمـر ـ وهـو فاروقـه ـ أول مَـن أنزلـه

منزلته عندهما. فدعواه إلى أنفسهما فبايع لهما. لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما، حتى مضيا وانقضى أمرهما. ثم قام عثمان ثالثاً يسير بسيرتهما ويهتدي بهديهما. فعبته أنتَ وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي. وظهرتما له بالسوء وبطنتما حتى بلغتما فيه مناكما.

فخذ يا ابن أبي بكر حذرك، وقِس شبرَك بفترك، تقصر عن أن تسامي أو توازي مَن يزن الجبالَ حلمُه، ويفصلُ بين أهل الشك علمه ولا تلين على قسرٍ قناته: أبوكَ مهّد مهادَه، وثنا لمُلكه وسادَه.

فإن كان ما نحن فيه صوابا فأبوك أوله، وإن كان خطأ فأبوك أسسه ونحن شركاؤه. اقتدينا وفعله احتذينا.

ولولا ما سبقنا إليه أبوك، وأنه لم يَرَه موضعاً للأمر، ما خالفنا عليّ بن أبي طالب ولسلمنا إليه. ولكنا رأينا أباك فعل أمراً اتبعناه واقتفونا أثره. فعِب أباك ما بدا لك، أو دَع.

والسلام على مَن أجاب ورد غوايته وأناب»[1].

واضحٌ تماماً أن معاوية يعتبر أبا بكر وعمر هما اللذان وضعا الأسس لمُلكه، حين نجحا في إبعاد المرشح الطبيعي للخلافة وهو علي بن أبي طالب. ومعاوية يلفت نظر ابن أبي بكر إلى أن الصراع الذي يخوضه سنة ٣٨ للهجرة ضد عليّ، هو في الحقيقة امتدادٌ طبيعي للصراع ـ غير المسلح ـ الذي جرى يوم السقيفة سنة ١١ للهجرة، حين قرر أبو بكر وعمر منع بني هاشم من تولّي حكم المسلمين بعد محمدﷺ.

فبنظر معاوية، هو ببساطة يتابع سياسة قررتها قريش، ونفّذها وأرسى دعائمها المهاجرون، بأن بني هاشم لن يجمعوا بين النبوة والملك. وما دام الحكم هو لقريش وحدها، دون بني هاشم، فلا ضير في أن ينبري معاوية لينتزعه لنفسه، لأنه ابن سيد

(١) الرسالتان من ترجمة عليّ بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري ص٣٩٤ـ ٣٩٦. وكذلك وردتا في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٣ ص١٨٨ـ١٩٠.

قريش القديم. وهو يعتبر أن بني أمية قد «عوقبوا «بما يكفي عن طريق تسليمهم بقيادة البطنين الضعيفين من قريش، تيم وعدي، طوال اثني عشر عاماً من حكم أبي بكر وعمر.

وفي معرض ردّه على ابن أبي بكر، الذي ذكّره بتاريخه، وأبيه، العدائيّ تجاه الرسولﷺ ودعوته، لم ينفِ معاوية ذلك، ولم ينفِ لعنه وأباه من قبل الرسولﷺ، ولم يجادل بشأن خِصال عليّ وأهليته، قام فقط بإعلامه بأنه ينفّذ سياسة قريش التي كان أبوه رائدها.

وكان معاوية يدرك ولا شكّ مدى ضعف أهليته الإسلامية. فمعروف عن أبيه أنه كان أشرسَ أعداء النبيﷺ. وكان معاوية يعلم أن رسول اللهﷺ قد لعن أباه مع غيره من طغاة قريش من شدّة ما أصابه من ألم يوم أحُد بسبب قتلهم لعمّه حمزة، رفيق دربه ونصيره، وتمثيلهم بجثمانه. روى ابن عساكر عن ابن عمر قال: «قال رسول اللهﷺ يوم أحد: اللهم العن أبا سفيان. اللهم العن الحارث (بن هشام). اللهم العن صفوان بن أمية»[1].

وأبو سفيان موصوفٌ في القرآن بأنه من أئمة الكفر «نزلت الآية ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر﴾ في أبي سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد وهم الذين هموا بإخراج الرسول»[2].

ولكن الزمان تغيّر. ولم يعد معاوية مضطرا، خاصة بعد صفين، إلى المداراة. فالرسولﷺ توفي قبل أكثر من ربع قرن، وهناك حقائق على الأرض صَنعها الخلفاء الثلاثة. ولم تعد الخصال الإيمانية ولا الشرعية الإسلامية تكفي لتحديد مصير الحكم والقيادة. وإذا كان أبو سفيان وقريش، قد فشلوا في المواجهة الطويلة الدامية

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١١ ص٤٩٤.

(2) أسباب النزول للواحدي ص١٦٣. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢٣ ص٤٣٩ وفيها ذكر أبي جهل وعتبة بن ربيعة أيضا.

مع محمدﷺ وبني هاشم والأنصار، فإن الأوان قد آن لمعاوية وقريش، أن يردّوا الصاع وينجحوا في الصراع، الدامي أيضا، ضد عليّ وبني هاشم والأنصار.

رهان معاوية الخاسر

وبالعودة إلى نشأة معاوية، فهو لم يُظهر تمايزاً عن أبيه، طوال كل تلك السنين التي أمضاها في حروبه الضارية ضد رسول اللهﷺ، وبقي معه إلى النهاية، حتى أحاط بهم جيش النبيﷺ فاستسلم أبو سفيان ودخل الدين الجديد مكرهاً، ومعه ابناؤه، يزيد ومعاوية وعتبة. ولذلك يمكن بالفعل مؤآخذة معاوية على جرائر أبي سفيان. فهو أصبح رجلاً ناضجاً واعياً، ومع ذلك استمرّ في ولائه لأبيه وسَيره على نهجه (كان قد تجاوز الثلاثين عاماً من عمره عند فتح مكة). وهناك رواياتٌ عدّة حول استعمال أبي سفيان لابنه معاوية في ترتيباته وتحضيراته الكثيرة أثناء صراعه الطويل مع النبيﷺ. فيمكن اعتبارمعاوية شريكاً لأبيه في كل مواقفه.

وإذا كان مُمكناً فهمُ دوافع أبي سفيان في سعيه للمحافظة على وضعه القيادي في مكة، بحكم سنّه ومرتبته، إلاّ أن إحجام معاوية، الشاب، عن اللحاق بدعوة محمدﷺ، بما تحمله من آفاق للإصلاح والتغيير، يشير إلى ولاء، غريبٍ فعلاً، من الشاب معاوية، لتلك المنظومة البالية من القيم القرشية.

كانت أمام معاوية الكثير من الفرص للانضمام إلى الدين الجديد، ولم يفعل.

ضحّى مصعب بن عمير بمجده وثرائه، ووضعه في بني عبد الدار، في مكة في سبيل الرسولﷺ ودينه.

ورأى معاوية خاله، أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة[1]، وهو يترك أباه، وقريشاً،

---

(١) ويبدو أن معاوية كان يشارك أمّه رأيها في أخيها الذي انضمّ مبكرا إلى ركب محمدﷺ وترك أباه! قالت هند تهجو أخاها أبا حذيفة:

فما شكرت أباً ربّاك من صغر ... حتى شببتَ شبابا غير محجون

الأحول الأعثم المشؤوم طائرهُ ... أبو حذيفة شرّ الناس في الدين

روى ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٧٠ ص١٧٦.

وعز بني عبد شمس، لينضم إلى محمدﷺ ودينه.

رأى معاوية الكثير من الأمثلة على الشباب الساعين إلى الحقيقة، ولكنه لم يتأثر بكل ذلك.

بل إن أخته، رملة، لم تتمسك بأبيها، فكانت من بين المهاجرات إلى الحبشة، مع زوجها المؤمن.

إذن تمسّك معاوية بأبيه حتى الرمق الأخير. وبالتالي كان من أصحاب الرهانات الخاسرة. فوجد معاوية نفسَه من «الطلقاء»، وهم الذين مَنّ عليهم عدوهم، محمدﷺ، فعفا عنهم مقابل إعلانهم الخضوع والاستسلام. وهكذا انقلب الزمان على معاوية، الشريف القرشيّ، الذي وجد نفسه مفضولاً امام أناس كان يعتبرهم من الحثالات الوضيعين! ولم يَعُد معاوية بقادر حتى أن يسامي أشخاصاً من أمثال بلال بن رباح وعمار بن ياسر، الذين أصبح لهما، بسبب السبق في الإيمان، وضعية معنوية رفيعة في منظومة الإسلام النبوي.

ولكن رسول اللهﷺ اتبع سياسة تجميعية للعرب بعد الفتح العظيم. ومن هنا كان «المؤلفة قلوبهم» الذين قرر رسول اللهﷺ أن يتألفهم بالمال لعله يفيد في جعلهم يعتقدون بالفعل بنبوّته.

وبالاضافة إلى العطايا المالية للزعماء القرشيين، قرر النبيﷺ أن يستفيد من القدرات الشخصية للنابهين من أبنائهم، وتسخيرها في خدمة الإسلام. ومن هنا كان معاوية، الشاب الذكي اللامع، من ضمن مجموعة من أبناء زعماء قريش الذين قرر رسول اللهﷺ أن يختارهم ليستفيد من مؤهلاتهم وقدراتهم العقلية والعلمية، ولكي يدمجهم بالتدريج في منظومة الإسلام. وقرر رسول اللهﷺ أن يستعملهم في مراسلاته التي أصبحت كثيرة جداً، مع القبائل العديدة في أنحاء الجزيرة العربية حول الأمور المالية والإدارية.

وهكـذا فـإن معاويـة وجـد الفرصـة ليكـون مـن ضـمن الـذين يحتكـون بالنبيﷺ.

قال هشام جعيط «إن هذا الشاب، ذا الذكاء والحساسية البـالغين، مـا كـان فـي مستطاعه أن لا يحس، بحكم هذا القرب من الرسـول، بالجاذبيـة والإعجـاب الـذين يشعر بهما كل فكر وقّاد حين يجاور عقلاً رفيعاً. ولا شك أن هذا السياسي بتوجهـه، قد راح يفهم، ميدانياً، الجُهدَ التوحيدي والتشييدي الكبيرالذي كان يجري أمام عينيـه، والبنية الداخلية لشبكات الولاء والسابقة في الإسلام، وربما الإشـعاع الروحـي الـذي كان يفيض من الشخصية النبوية»[1].

عقيدة معاوية

ورغم ذلك، إلاّ أنه من المشـروع التسـاؤل عـن حقيقـة عقيـدة معاويـة، بعـد الإسلام، وإلى أن صار خليفة. فعلى الرغم من حـرص معاويـة، أثنـاء حكمـه، علـى الالتـزام بشـعائر الإسـلام مـن صـلاة وصـيام وحـج، وبإظهـار التـوقير لشـخص الرسولﷺ ودينه، إلاّ أنه يمكن الشك في حقيقة إيمان معاويـة. فالمرسـوم الـذي أصدره الخليفة معاوية بشأن إلزام ولاته وزعماء الأمصار بشتم العائلة النبويـة، ممثلـة بعلي بن أبي طالب، على المنابر، لا يمكن أن يصدر مـن شـخص مـؤمن حقـاً بنبـوة محمدﷺ. فعملية الفصـل التعسـفي بـين الرسـول، وآلـه، لا تتفـق مـع النصـوص الشرعية الداعية بكل صراحة إلى تعظيم آل البيـت، ولا مـع تـاريخ الإسـلام النبـوي، الذي لعب فيه آل الرسولﷺ الدور الرئيسي في حماية دعـوة الإسـلام، وتمكينهـا من الصمود، حتى الانتصار.

وحسب تعبير هشام جعيط «سوف يميل معاويـة، لأن هـذا كـان يوافقـه، إلـى وضع النبي فـوق الاعتبـارات العشـائرية والعائليـة، وإلـى إبـراز خصوصـية رسـالته الاعجازية وطابعها الشخصي جداً. فالنبيّ للجميع. إنه ملكٌ مشترك. فلا يستطيع أحـدٌ

(١) من «الفتنة» لهشام جعيط ص ١٧٨.

أن يدّعيه لنفسه باسم الأواصر الدموية الضيقة. لكن قريشاً بمجملها، يمكنها ادعاء ذلك، أكثر من سواها، لأنها قبيلة الله»[1].

ومن الممكن أن يكون معاوية، حتى وهو خليفة المسلمين، متاثراً بعقيدة أبيه.

والأرجح أن يكون أبو سفيان من«الزنادقة» في قريش في الجاهلية. وهم الملحدون الذين لا يؤمنون بشيء بعد الموت والقائلون ببقاء الدهر. وقد عدّه البغدادي في مقدمة زنادقة قريش بالإضافة إلى عقبة بن أبي معيط والوليد ين المغيرة والعاص بن وائل وأبيّ بن خلف والنضر بن الحارث[2] وهؤلاء لم يكونوا يدافعون عن الأصنام إلاّ بحكم الحميّة وحفاظاً على النظام القائم في مكة الذي يضمن لهم المصالح المادية. وفي حقيقتهم لم يكونوا يؤمنون أن الأوثان تضرّ أو تنفع.

فأبو سفيان، كان أذكى بكثير من أن يؤمن بعبادة أصنام مصنوعة من خشب أو حجارة. وعلى الرغم من أنه كان قاد كل حروب قريش على محمدﷺ حاملاً راية الأصنام، إلاّ أن ذلك كله كان بهدف المحافظة على الامتيازات ونظام الهيمنة القرشي. ولم تكن صرخة النصر التي أطلقها أبو سفيان يوم أحد «أعلُ هُبل» إلاّ تعبيراً عن انتصار القوى القرشية الرافضة للتغيير، الساعية للمحافظة على مكاسبها الموروثة، أكثر منها إيماناً من أعماق أبي سفيان بذلك الصنم الكبير!

*****

وعندما انفرد معاوية بالحكم، سوف يصرّ دائما على إبراز دور «الإرادة الإلهية» في ذلك، ويلبسها مرات مع نبوءات نبوية. كل ذلك من أجل تعزيز عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، بطريقة مشوهة، لدى الرعية المسلمين:

فهو قال إن رسول اللهﷺ قال له «يا معاوية: إن مَلكتَ فأحسن»[3].

---

(١) من «الفتنة» لهشام جعيط ص ١٧٨.

(٢) كتاب المنمق في اخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي ص٣١٢.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٢٢، نقلا عن البيهقي.

وقد روى معاوية حديثاً «مسرحياً»، يتلخص محتواه في أن الرسولﷺ قد بشّر بأن معاوية وجماعته سيظهرون على مَن خالفهم! وكان دائماً يجد من عبيد المال وخدم السلاطين من يؤيّد أيّ خبرٍ يرويه، وبل ويزايد عليه فيه!

فمثلاً جاء في صحيح البخاري عن معاوية:

«سمعتُ النبيﷺ يقول: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك.

قال عمير: فقال مالك بن يخامر قال معاذ: وهم بالشأم.

فقال معاوية: هذا مالكٌ يزعم أنه سمع معاذاً يقول وهم بالشأم»[1].

والملفت للنظر هو ذلك التابع الرخيص الذي يتنطّع ليضيفَ بهاراته إلى ما قاله سيّده معاوية: وهم بالشام!

*****

وفي حالةٍ نادرة، أفلتت من معاوية عبارات تنمّ عن نوع من الاستهزاء بكلام للنبيﷺ:

«... ذلك أن النعمان بن بشير الأنصاري جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية. فشكوا إليه فقرهم، وقالوا: لقد صدق رسول اللهﷺ في قوله لنا: ستلقون بعدي أثرة. فقد لقيناهم.

قال معاوية: فماذا قال لكم؟

قالوا: قال لنا: فاصبروا حتى تردوا عليّ الحوض.

قال: فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقونه غداً عند الحوض كما أخبركم.

وحَرَمَهم ولم يُعطِهم شيئا»[2].

---

(١) صحيح البخاري ج٤ ص ٥٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٣٢. ونقل ابن أبي الحديد في ج٢ ص٦٥ عن شيخه أبي القاسم البلخي قوله إن معاوية وعمرو بن العاص كانا ملحدين.

وفي حالة أخرى لم يتردد معاوية في مخالفة فعل بيّن للرسولﷺ، حتى في موضوع العبادات، البعيد عن السياسة وشؤونها. فقد روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل:

«رأيتُ معاوية يطوف بالبيت، عن يساره عبد الله بن عباس، وأنا أتلوهما في ظهورهما، أسمع كلامهما.

فطفق معاوية يستلم ركن الحجر. فقال له ابن عباس: إن رسول اللهﷺ لم يستلم هذين الركنين!

فيقول معاوية: دعني منك يا ابن عباس! فإنه ليس منها شيئ مهجور.

فطفق ابن عباس لا يزيده كلما وضع يده على شيئ من الركنين قال له ذلك»[1].

ويبدو أن قريشاً كانت تفعل ذلك قبل الإسلام، فرغب معاوية بمتابعة سنتها.

وفي أواخر عهده، وبعد أن توطّدت أركان حكمه وسلطانه، عبّر معاوية لبعض أوليائه وخاصّته، عن أقوالٍ فيها كفرٌ بمحمدﷺ ونبوته. فلما نصحه المغيرة بن شعبة بأن يصل رحم بني هاشم لأنه لم يعد لديهم شيئ يخافه، وحتى يبقى له ذكرٌ حَسَن، ردّ عليه:

«هيهات هيهات! أيّ ذكرٍ أرجو بقاءه؟

مَلَكَ أخو تيمٍ فعدلَ وفعلَ ما فعل، فما عدا أن هلكَ حتى هلكَ ذكره، إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر.

ثم ملكَ أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلكَ حتى هلكَ ذكره، إلاّ أن يقول قائل: عمر.

وإن ابن أبي كبشة ليُصاح به كل يومٍ خمس مرات (أشهد أن محمدا رسول الله)!

---

(١) مسند أحمد ج١ ص٢٤٦.

فأيّ عملي يبقى؟ وأيّ ذكرٍ يدوم بعد هذا لا أبا لك؟ لا والله إلاّ دفناً دفناً»[1].

«وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب (أخبار الملوك) أن معاوية سمع المؤذّن يقول (أشهد أن لا إله إلاّ الله)، فقالها ثلاثا. فقال: (أشهد أن محمدا رسول الله)! فقال: لله أبوكَ يا ابن عبد الله! لقد كنتَ عالي الهمّة. ما رضيتَ لنفسكَ إلاّ أن يُقرن اسمكَ باسم رب العالمين»[2].

معاوية في ظل عمر

قال هشام جعيط عن سياسة أبي بكر وعمر[3] «لقد أراد هذان الخليفتان، بالأخصّ عمر، أن يُخرجا الجيل الأموي الجديد من الظلّ والرداءة، من خلال تكليفه بمهمات قيادية. ومثال ذلك، يزيد بن أبي سفيان، الأخ الأكبر لمعاوية، الذي شارك مشاركة فعّالة وبارزة في فتح الشام، والذي عيّنه عمر والياً على هذا المصر بالذات سنة ١٨ هجرية، وكلّف يزيد معاوية ببعض المسؤوليات القيادية، لا سيما الاستيلاء على قيسارية، إحدى المدن القلائل التي أخذت عنوة. بعد عدّة أشهر، مات يزيد واستبدله عمر بأخيه. ولم يكن ذلك من جانب عمر مجرّد اهتمام بربط الارستقراطية القرشية على نحو أفضل بالإسلام، بل كان نوعاً من إضفاء الاعتبار والتقدير عليها لأنها كانت حقّا قد تألّقت وبرّزت في فتح الشام، سواء كانت من أمية أم من مخزوم أم من بطون أخرى، ولأنّ شبابها كان دفع ضريبة دم في معركة اليرموك الحاسمة (١٥ هجرية)....لقد عرف عمر كقائد شعب، وقائد حقيقي للعرب، مع نزعة قومية، كيف يطبّق استراتيجية عربية مجمّعة، وكيف يمحو الردة والصراعات القديمة بين القرشيين...

وفي الشام كان ميالاً الى تعيين قرشيين: أولاً من كبار الصحابة مثل أبي عبيدة، ثم رجالا ذوي قيمة، لكن دون ماضٍ اسلامي مرموق. لقد كانت الشام المختبر الذي

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٥ ص١٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٠ ص١٠١.

(٣) «الفتنة» لهشام جعيط ص ١٧٦ـ١٧٩.

جرى فيه اختبار صدق الانضواء القرشي في الاسلام، صدق اولئك الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام منذ أمدٍ بعيد، كما صدق المنضوين في الساعة الأخيرة على حد سواء: من خالد بن سعيد بن العاص إلى خالد بن الوليد إلى عمرو ابن العاص إلى يزيد وإلى معاوية....

وعلى هذا النحو، تغوص جذور ارتقاء معاوية في ظروف فتح الشام بالذات بقدر ما تغوص في سياسة عمر المقننة أو المخططة. ومما سهّل ارتقاء معاوية موت أو تغيّب القرشيين من أهل السابقة، بسبب الحرب، وانفتاح أمصار أخرى أمام الفتح (مصر)، والضربة القاضية التي أصابت صفوفهم من جراء طاعون عمواس (١٧ـــ١٨ هجرية). فقد مات من جرائه خالد بن سعيد بن العاص وخالد ابن الوليد وأبو عبيدة ابن الجراح ويزيد وسواهم، وانتقل عمرو ابن العاص من فلسطين الى مصر. وبالتالي بقي معاوية، وقد نجا من كل هذا، في موقع ممتاز ليخلف شقيقه، بقدر ما كان قد أثبت قيمته».

وقال مؤكداً على الدور الذي لعبه عمر بن الخطاب في إعادة تأهيل أرستقراطية قريش بعد هزيمتها:

«كان معاوية يرتجف أمام عمر، ولم يكن في السباق المحموم على الفتوحات الذي كان يحرّك قبائل كل الجزيرة العربية، ويزعزع الممالك والامبراطوريات، ويقيم مكانها النظام الاسلامي الجديد، مكانٌ للارستقراطية القرشية والأموية الأ ما كان يمنحه عمر لها، بشكل أبوي. فعندما أظهر رجلٌ عظيم من رجالات الحرب والاسلام، مثل خالد ابن الوليد، العجبَ بنفسه، نظرا لمزاياه القتالية، لم يتردد عمر في ضرب عنجهيته وعزله...».

لقد فهم أبو سفيان حجم المصيبة التي أصابته بانتصار الرسول ﷺ وأنصاره، وهزيمته المدوّية هو وقريش كلها. وعرف أبو سفيان أن الدنيا تغيّرت ولا يمكن العودة إلى الوراء، وأن تأخّره هو وقومه عن اللحاق بركب الرسول ﷺ، إلى أن دخلوه مرغمين، قد أدّى إلى ضياع «الشرف» الذي كان أبو سفيان يدّعيه لنفسه،

وأدّى أيضاً إلى أن مَن يعتبرهم أقل منه «شرفا» قد أصبحوا ذوي الفضل الأعلى في ظل منظومة الدين الجديد الذي بناه الرسولﷺ، وبالتالي أصبح لا أمل له هو وقومه في أي مكان في المجتمع الجديد إلاّ عن طريق الانصياع لمن يعتبرهم هو دونه في «الشرف»، واتباعهم إلى أن تحين الفرصة التي تمكنه هو وقومه من النهوض من جديد وبالتالي الانتقام من محمد ونقض الانتصار الذي صنعه.

فكان أبو سفيان نفسه، برغم عنجهيته وفخره، يصانع عمرَ بن الخطاب وينافقه. فقد روى ابن شبة حادثتين يظهر فيهما أبو سفيان أقصى درجات الطاعة والولاء لعمر:

«أتى عمر رضي الله عنه على أبي سفيان رضي الله عنه وهو يبني له، قد أضرّ بالطريق.

فقال: يا أبا سفيان! انزع بناءك هذا فإنه قد أضرّ بالطريق.

فقال: نعم وكرامة يا أمير المؤمنين...»

وأيضا:

«خرج عمر رضي الله عنه ومعه أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه، فمرّ بلبنٍ في الطريق، فأمر أبا سفيان أن ينحّيه.

فجعلَ ينحّيه...»[1].

وفي السنة السابعة عشرة للهجرة، كان طاعون عمواس. وذلك كان كارثة بكل المقاييس. فمات بسببه حوالي ٢٥ ألفا من المسلمين بالشام، ومن بينهم كل القيادة الفعلية للجيوش: أبو عبيدة، معاذ بن جبل، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ويزيد بن أبي سفيان.

ونجا عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان من ذلك الطاعون الرهيب. فأمر

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٢ ص٦٨٦.

عمرو بن العاص الناسَ بالتفرّق في الجبال إلى أن تزول آثار الوباء، وفرّ هو بنفسه إلى مصر. واستخلف يزيد وهو في الرمق الأخير أخاه معاوية على عمله ـ ولاية دمشق ـ فأقرّه عمر في ذلك المنصب.

فقال أبو سفيان لابنه معاوية عندما ولأه عمر «يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة. وقد ولّوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم، فانّك تجري إلى أمد فنافس فيه، فإن بلغته أورثته عقبك»[1].

وقالت له أمه كما يروي ابن عساكر أيضاً «والله يا بني، إنه لقلّ ما ولدت حرّةٌ مثلك، وقد استنهضكَ هذا الرجل فاعمل بموافقته، أحببتَ ذلك أم كرهتَ».

وقد نفّذ معاوية تعاليم أبيه وأمه، فكان شديد الطاعة والولاء لعمر بن الخطاب، حتى أن الامام علي وصَفه مرة بأنه «كان أطوعَ لعمر من بنانه» في معرض ردّه على عثمان حين قال له عثمان أن عمر هو الذي استعمل معاوية. ويقصد عليّ أن معاوية أصبح فرعوناً في ظلّ سياسة الخليفة عثمان الذي تركه بلا حسيبٍ ولا رقيبٍ يتصرّف بالشام كما يشاء ـ بعكس عمر الذي كان يراقب عمّاله ويتابعهم.

وقد ذكر ابن شبة رواية توضح مدى الهلع الذي كان يجتاح معاوية من عمر بن الخطاب، والحرص الذي كان يبديه على استرضائه، إلى درجة تقترب به من الذل! فعندما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام على جمله»... ولقيه معاوية رضي الله عنه على برذون، فنزل. ومشى معه.

وتغافل عنه عمر رضي الله عنه.

فقيل له: يا أمير المؤمنين: جهدتَ الرجلَ. إنه بادن.

فقال: دعه.

حتى بلغ من ذلك ما أراد. ثم أمَرَه فركب»[2].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج٧٠ ص١٨٦.

(٢) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ج٣ ص ٨٢٦. والبرذون هو دابة من أفخر وسائل الركوب في ذلك الوقت.

فمعاوية هنا ينزل، ويسير على قدميه ماشياً، خلف عمر بن الخطاب الذي هو على جمله، لمسافة طويلة جداً حتى يناله الجهد والتعب الشديد، دون أن يبدي أي اعتراض، إلى أن يتطوّع أحدهم ليذكّر عمر أن يرأف به ويراعي بدانته!

وطوال سنوات حكم عمر بن الخطاب، كانت أمه هند وأبوه أبو سفيان شديدي الحرص على الاستمرار في رعاية ولدهما، وأملهما، معاوية وإسداء النصائح المخلصة له بما يمكنه من المحافظة على منصبه المهم في ولاية دمشق. وقد بلغ حرص هند عليه إلى حد أنها لما سمعت مرة أن أبا سفيان، وكان طلقها، قد ذهب لزيارة معاوية في الشام خافت أن يتهوّر معاوية فيعطي أباه مالاً كثيرا فيجلب عليه غضب عمر، فذهبت إليه مسرعة، فلما رآها قادمة من بلادٍ بعيدة:

«... قال: ما أقدمكِ أي أمه؟

قالت: النظر إليك أي بني. إنه عمر! وإنما يعمل لله. وقد أتاك أبوك فخشيتُ أن تخرج إليه من كل شيء ـ وأهل ذلك هو ـ فلا يعلم الناس من أين أعطيته، فيؤنّبوك ويؤنّبك عمر فلا تستقيلها أبداً...»[1].

وهكذا فإن هنداً تتحمل المشقة وعناء السفر لكي تتأكد أن ابنها الحبيب لن يرتكب زلّة قد تطيح بمستقبله السياسي. وقد كان عند حسن ظنّها فلم يعطِ أباه سوى مائة دينار وكسوة. وفعلاً حصل ما توقعته هند، فسأل عمر أبا سفيان لدى عودته عما أعطاه معاوية، فأخبره، فلم يعلّق.

ويمكن ملاحظة نوع من التساهل من طرف عمر تجاه ابنيّ أبي سفيان، يزيد ومعاوية من بعده، فيما يتعلّق بأخلاقهما ومسلكهما الشخصي. فمهما برع ابنا أبي سفيان في المداهنة والتزلّف للخليفة وإظهار التمسّك بحرفية تعليماته وأوامره، إلاّ أنه لا يمكن التصديق بأن شخصاً من طراز عمر يمكن أن يخدع أو يضلل ببساطة. وهناك ما يكفي من الإشارات على أن عمر كان بالفعل يعرف أن يزيداً، ومن بعده

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٨٧. وروى ذلك أيضا ابن عساكر في تاريخ دمشق ج ٧٠ ص١٨٥.

معاوية، كانا لا يتصفان، على الصعيد الشخصي، بالزهد والورع والتقشّف الذي كان عمر يطالب به قوّاده ويحاسبهم عليه.

«بلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل ألوان الطعام. فقال لمولى له يقال له يرفأ: إذا علمتَ أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني. فلما حضر عشاؤه أعلمَه.

فأتاه عمر رضي الله عنه فاستأذن فأذن له. فدخل فقرب عشاءه.

فجاء بثريد لحم، فأكل عمر رضي الله عنه منها. ثم قرّب شواءً فبسط يزيد يده وكفّ عمر رضي الله عنه يده.

ثم قال: الله يا يزيد بن أبي سفيان! أطعامٌ بعد الطعام؟!...».

وأيضا:

«إن عمر رضي الله عنه غزا إلى الشام وعليها يزيد بن أبي سفيان فدعاه إلى طعامه.

فإذا بيتٌ مستور. فوضع عمر رضي الله عنه طيلسانه ثم طفق بتلك الستور يقطعها.

وأخذ الآخر يقول: أعوذ بالله من غضب الله وغضب أمير المؤمنين!

فقال: ويحك! أتلبس الحيطان ما لو ألبسته قوماً من الناس لسترهم من الحر والقر؟!»[1].

من هذين الاقتباسين يظهر جليا أن عمر كان يعلم بإسراف يزيد بن أبي سفيان في ملذات الطعام، واتخاذه الأقمشة وزخارف الحيطان. ولكن لم يُروَ أن عمر قد طبّق أي عقاب بحقه، باستثناء اللوم والزجر.

ومن المثير مقارنة موقف عمر تجاه يزيد، بموقفه من والٍ آخر له كان قد

(١) هذا الاقتباس وما قبله من تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص٨٣٢ والخبر الذي بعده عن عياض بن غنم هو من نفس المصدر ص٨١٧

استعمله على الشام أيضاً. فعندما بلغه أن عياض بن غنم الفهري قد اتّخذ مظاهر الأبّهة استدعاه إلى المدينة وعاقبه بشدة: أجبره أن يرعى ثلاثمائة شاة لمدة شهرين كاملين! إلى درجة أن عياضاً أخذ يحاول إرسال الوساطات لطلب ودّ عمر إلى أن سامحه، بعد أن حطّ من كبريائه.

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك التساهل من طرف عمر تجاه معاوية ما رواه الذهبي عن الصحابي عبادة بن الصامت الذي كان عمر بعثه إلى الشام لتعليم الناس القرآن:

«إن عبادة أنكر على معاوية شيئا. فقال: لا أساكنك بأرض. فرحل إلى المدينة.

قال له عمر: ما أقدمك؟

فأخبره بفعل معاوية.

فقال له: إرحل إلى مكانك. فقبّح الله أرضاً لستَ فيها وأمثالك. فلا إمرة له عليك»[1].

وهنا يكتفي عمر بإعادة الصحابيّ إلى الشام مع استثنائه ـ هو وحده ـ من إمرة وسلطان معاوية، دون أن يتجاوز ذلك إلى إيقاع أي عقاب بمعاوية على ما بدر منه تجاه عبادة.

وروى الإمام مالك رواية أخرى تفيد أن الصحابي أبا الدرداء قد أنكر على معاوية ممارسة نوع من الربا، عن طريق بيع الذهب بأكثر من وزنه:

«فقال أبو الدرداء: سمعتُ رسولَ الله ﷺ ينهى عن مثل هذا، إلاّ مثلاً بمثل.

فقال له معاوية: ما أرى بمثل هذا بأساً!

فقال أبو الدرداء: مَن يعذرني من معاوية؟ أنا أخبره عن رسول الله ﷺ، ويخبرني عن رأيه! لا أساكنك بأرضٍ أنت بها.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢ ص٧.

ثم قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب. فذكر ذلك له.

فكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية: أن لاتبيع ذلك، إلاّ مثلاً بمثل، وزناً بوزن»[1].

وهنا أيضاً يكتفي عمر بتنبيه معاوية، ولا يتجاوز ذلك إلى اتخاذ أي إجراء بحقه.

وربما يمكن تفسير ذلك التساهل الذي أبداه عمر تجاه ابنيّ أبي سفيان، يزيد ومعاوية، بضرورات الحكم والسياسة. فولاية الشام كانت بنظر عمر أهم ولاياته، وكانت تحتاج إلى تدبير محكم للسيطرة عليها وتثبيت مواقع المسلمين فيها. فالامبراطورية البيزنطية لم تكن قد انهارت كلياً، بل انكفأت وتراجعت بعد هزيمتها المرّة على أرض الشام. ولكنها، وبعكس الامبراطورية الساسانية في إيران التي سقطت في عقر دارها، حافظت على تماسكها كدولة وبقيت قادرة على الدفاع عن نفسها إلى الشمال من سوريا، بل كانت تشكّل تهديدا حقيقياً ومتواصلاً للسيطرة العربية في الشام. كان الخطر الرومانيّ موجوداً على الدوام وماثلاً أمام ناظريّ عمر، الذي كان يخشى من أن ينجح الرومان في لمّ شملهم وشنّ هجوم كاسح على العرب لاسترجاع ما خسروه في بلاد الشام.

فكأنّ عمر قرر إعطاء الأولوية المطلقة لحسن الإدارة والكفاءة في سياسة القوات لضمان الجاهزيّة التامة لمواجهة الرومان، على أي اعتبار آخر. ويمكن الاستنتاج أن عمر كان حَسَن الرأي في الخصال الشخصية لابنيّ أبي سفيان فيما يتعلّق بالقدرة على القيادة والتعامل الواقعي مع المخاطر والتحديات.

وقد عبّر عمر مرة عن ذلك حين عزل شرحبيل بن حسنة عن قيادة أحد المقاطعات التي كان ولأه عليها ـ الأردن ـ في الشام وضمّ عمله إلى معاوية:

«... وعزل شرحبيل واستعمل معاوية....

---

(١) كتاب الموطأ للإمام مالك ج٢ ص٦٣٤.

فقال له شرحبيل: أعن سُخطةٍ عزلتني يا أمير المؤمنين؟

قال: لا. إنك لكما أحب، ولكني أردتُ رجلاً أقوى من رجل...»[1].

وكانت النتيجة النهائية أن معاوية نجح في المحافظة على ثقة عمر لأكثر من أربع سنوات كاملة، إلى أن قتل عمر، دون أن يُروى أن عمر قد طبّق عليه عقاباً يماثل ما كان يفعله بغيره من العمّال. أبقاه عمر حاكماً لنصف بلاد الشام. لم يعزله، لم يقاسمه ماله، ولم يطبّق بحقّه أي عقوبات تذكر.

صعود معاوية بفضل سياسة عثمان

ولما تولى عثمان بن عفان الحكم، فُتحت أمام ناظري معاوية آفاقٌ هائلة لا حدود لها. فالرجل ابن عمه. والأهم من ذلك أنه حبيب قريش والمفضل لديها والمعروف بودّها وصلة رحمها. وكان معاوية يعرف من خصال عثمان وطباعه ما يجعله متأكداً أنه سيكون له ولبقية قومه من بني أمية نصيبٌ وافرٌ من شؤون الحكم والقيادة في دولة الخلافة في كل مكان.

وبعكس عمر بن الخطاب، كان عثمان رقيقاً ودوداً، تجاه قومه بالأخص. ولم يكن لعثمان قوة شخصية عمر ولا هيبته.

وعدا عن ذلك، فقد كان عهد عمر بن الخطاب عهدَ الفتوحات، والجهاد، والمعارك، والتضحيات. وأما عهد عثمان فهو منطقياً سيكون عهدَ «هضم» تلك الفتوحات وجني الفوائد منها، حتى وإن لم يخلُ الأمر من حروبٍ لتثبيت تلك الانتصارات أو توسيع حدودها.

وكان بنو أمية جاهزين تماماً للإنقضاض على كل مفاصل الدولة، وعلى رأسهم كان معاوية.

وسّعَ عثمان صلاحيات معاوية، وزاد في ولايته وجعلها تشمل كل بلاد الشام والجزيرة، بعد أن كانت تقتصر على دمشق. وفوق ذلك، غيّر عثمان أسلوب التعامل

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص١٦٥.

مع الوالي. فبعد أن كان عمر يحكم قبضته على كل كبيرة وصغيرة من شؤون الحكم في الولايات كلها، لجأ عثمان إلى أسلوب تفويض الصلاحيات إلى الوالي. وسواء اتخذ عثمان هذا المنحى بسبب ضعفٍ في شخصيته، أم بسبب صعوباتٍ موضوعية ناتجة عن بُعد المسافات وضخامة حجم الدولة، فالنتيجة واحدة وهي المزيد من اللامركزية في الإدارة والقرارات.

فتخلص معاوية، أخيراً، من شبح عمر المُهيمن، وأصبح حراً طليقاً في ولايته الضخمة والغنية. فعدا عن المبلغ السنوي الذي يرسله معاوية من خراج الشام إلى مركز الخلافة في المدينة، صار معاوية مستقلاً بالفعل فيما يختص بشؤون الجيوش والإدارة، والتجمعات العربية التي استوطنت الشام، والعلاقة مع أهل البلاد القدماء ومع دولة الرومان في الشمال.

واستغل معاوية قرابته من عثمان وصلاته العائلية به، في ترسيخ هيمنته وسيطرته على مقاليد الأمور في الشام. فكان يقول لرعيته إن كل ما يأمر به ويقرره إنما هو أمر الخليفة وسياسته. ولم تكن هناك قنوات تواصل بين الخليفة في المدينة وبين الرعية في الشام، إلاّ من خلال معاوية. وبمرور الوقت، أخذ الناس في الشام يسلمون أن معاوية هو فقط مَن يعبّر عن مؤسسة الخلافة وينطق باسمها، ويمتلك صلاحية القرار بالنيابة عنها.

آراء في سياسات معاوية

قال عنه عبد الرحمن الشرقاوي:

«حقا.. حقا.. إن رجل هذا العصر هو معاوية! فهو وحده يخاطب الأطماع ويشبعها، ويستنفر الأهواء فيرضيها. ملكٌ قادرٌ قاهر، لا يعفّ عن شيء يخدم به هدفه، حتى الغدر نفسه... وحتى سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الحرمات، وسبي النساء المسلمات!

... وهو يصنع كل شيء، وأي شيء، مهما يكن من شيء، للوصول إلى الغاية.... وغايته الملك..

وهو قد استقى من منبع أبي سفيان وهند، وتربى على اكتساب المنفعة من أي سبيل.

ووجد عصراً سلطانه المنفعة، وهدفه المنفعة، وقانونه المنفعة، فكان بحق رجل العصر.

... ثم إن معاوية ليصطنع لنفسه الكثيرين من رؤساء القبائل العربية: يثير فيهم العصبية القبلية، والنعرات المتعصبة، ثم يغدق عليهم ويجزل لهم من العطاء بغير حق...

... ومعاوية يحسب حساب الربح والخسارة. فالحياة عند معاوية صفقات، يبرم منها وينقض، ويساوم، ويتنازل، ويهادن بقدر ما تدر من ربح أو تجلب من خسارة!»

وقال عن نشأة معاوية:

«... نشأ معاوية في بيت أبي سفيان، رأس الكفر في الحجاز. وربّته أمه هند بنت عتبة التي عرفها المسلمون باسم آكلة الأكباد...

وتربى معاوية منذ نشأ، في قصر ضخم، يملكه رجلٌ من أكبر أغنياء مكة، يعمر لياليه بالمتاع، وما من شيء يعنيه إلاّ قتل محمد وصحبه وهدم الإسلام قبل أن يرتفع بنيانه وتتوطّد أركانه!

... كلا الوالدين يملأ قلبه الضغن وطلب الثأر، وخوف ضياع المكانة، أو فقدان السكينة إذا انتصر محمد وأتباع محمد....

كان معاوية فتىً مترفاً، يلبس كل يوم حلتين ثمينتين، ويتحلى بالنفائس. وهو يحب الطعام الفاخر مهما يتكلف. وكان يتخير من أنواع الطيور والأحياء المائية ما يجلب إليه من أماكن بعيدة، وعلى مائدته من الحلوى وحدها عشرة أصناف»[1].

وقال عباس محمود العقاد عن معاوية «كانت له حيلته التي كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه في الدولة، من المسلمين وغير المسلمين. وكان قوام

---

(١) من «علي إمام المتقين» لعبد الرحمن الشرقاوي ص٦٤٨.

تلك الحيلة، العمل الدائب على التفرقة والتخذيل بين خصومه، بإلقاء الشبهات بينهم، وإثارة الإحن فيهم، ومنهم مَن كانوا من أهل بيته وذوي قرباه.

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكان التنافس (الفطري) بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بهم.

ومضى معاوية على هذه الخطة التي لا تتطلب من صاحبها حظا كبيراً من الحيلة والروية ـ فلو أنه استطاع أن يجعل من كل رجل في دولته حزباً منابذا لغيره من رجال الدولة كافة لفعل!»[1].

وهناك الكثير من الشواهد التي تدل على صحّة تحليل العقاد. فمثلاً روى ابن عساكر[2] أن معاوية كان يحاول الإيقاع بين اثنين من اقربائه وأعمدة حكمه، مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. وملخّص القصة أن معاوية كتب لسعيد بن العاص حين كان واليا على المدينة يقول له «بلغني أن مروان ابتنى دارا، وأنه خرج في الطريق. فإذا أتاك كتابي هذا فاهدم داره»، ولكن سعيد يبدو أنه فطن إلى مأرب معاوية فلم ينفذ. وفي العام التالي عيّن معاوية مروان والياً، ثم كتبَ إليه بهدم دار سعيد. وأراد مروان التنفيذ فأخرج له سعيد كتب معاوية له، والتي كان قد احتفظ بها، وأعلمه بمقصد معاوية، مما دفع مروان إلى كتابة شعرٍ لمعاوية يلومه على ذلك.

ذكر اليعقوبي:

«وكان لمعاوية حلمٌ ودهاء، وجودٌ بالمال بالمداراة....

وقال سعيد بن العاص: سمعتُ معاوية يوماً يقول: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني.

ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت! قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: كانوا إذا مدّوها خليتها، وإذا خلوها مددتها.

---

(١) من «شيخ المضيرة» لمحمود أبو رية ص٢٠٤ نقلا عن كتاب «معاوية في الميزان» للعقاد.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢١ ص١٢٧.

وكان إذا بلغه عن رجلٍ ما يكره، قطعَ لسانه بالاعطاء، وربما احتالَ عليه، فبعثَ به في الحروب، وقدّمه.

وكان أكثر فعله المكر والحيلة»[1].

*****

وأما في ميزان الشرعية الإسلامية، والتفاضل المبني على أساس ما بذله الرجال من تضحيات في سبيل الدين وما ورد بشأنهم من أحاديث على لسان النبي ﷺ، فلم يصح بشأن معاوية أيّ ذكر على لسان النبي ﷺ إلاّ حديث رواه مسلم في صحيحه، وليس فيه تشريف له أبداً:

«عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان، فجاء رسول الله ﷺ فتواريتُ خلف باب. فجاء فحطأني حطأة، وقال: اذهب وادعُ لي معاوية.

فجئت فقلت: هو يأكل.

ثم قال لي: اذهب فادعُ لي معاوية.

فجئت فقلت: هو يأكل.

فقال: لا أشبعَ الله بطنه»[2].

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٣٨.

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب ص٩٧٩.

وفي سيرة معاوية اللاحقة ما يؤيد شدة نهمه بالطعام. وقد روى الشيخ أبو رية في«شيخ المضيرة»ص ٢٢٦ نقلا عن ابن كثير في البداية والنهاية أن معاوية كان يأكل في اليوم سبع أكلات بلحم! ووصف الأحنف بن قيس طعام معاوية بقوله: دخلت على معاوية فقدم لي من الحار والبارد والحلو والحامض ما كثر تعجبي منه. ثم قدم لونا لم أعرف ما هو. فقلت: ما هذا؟ فقال: مصارين البط محشوة بالمخ قد قلي بدهن الفستق، وذرّ عليه بالطبرزد.
ويروى في كتب التراث الكثير حول مدى نهم معاوية، وولعه بالطعام، وعشقه لأصنافه، إلى درجة انه قد أصيب بأحد أمراض التخمة، فصار يخطب وهو جالس، فكان أول من خطب جالسا في الإسلام!

وروى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٨ ص٣٩٨ نقلا عن المدائني «كان يأكل في اليوم أربع أكلات، أخراهن عظماهن. ثم يتعشى بعدها بثريدة عليها بصل كثير، ودهن كثير قد شغلها. وكان أكله فاحشا، يأكل فيلطخ منديلين أو ثلاثة قبل أن يفرغ. وكان يأكل حتى يستلقي ويقول: يا غلام: ارفع. فلأني والله ما شبعت ولكن مللت».

عمرو بن العاص: رجل معاوية الأول

ولا يكاد يُذكر معاوية إلاّ ويذكر معه حليفه الأكبر والأهم: عمرو بن العاص بن وائل السهمي.

لقد شكّل معاوية وعمرو بن العاص ثنائياً متكاملاً من كل النواحي. وأثبتا فعالية حقيقية في المواجهة الكبرى ضد عليّ بن أبي طالب.

كان اجتماعهما أمراً طبيعياً. فهناك الكثير من عناصر الشبه بينهما تجعل أمر التقائهما في جبهة واحدة أمراً شبه حتميّ. كان عمرو بن العاص، مثل معاوية، ذا ماضٍ غير مشرّف في المنظور الإسلامي:

فقد اختارته قريش ليكون مندوبها الرئيسي عند النجاشي من أجل تسليم المسلمين الأوائل الفارّين بدينهم الى الحبشة وعلى رأسهم جعفر ابن أبي طالب، لقريش. ولم تكن قريش لتنتخبه هو بالذات لهذه المهمة الإجرامية، لولا أنه راسخٌ في الكفر وعَلمٌ معروفٌ في بغض الرسولﷺ ومَن تبعه.

وعندما استعدّت قريش للمسير لقتال محمدﷺ يوم أحُد، بعثت أربعة من أبنائها المتحمّسين لاستنفار قبائل العرب ومن حالفهم لدعم قريش في حربها. وكان عمرو بن العاص على رأس هؤلاء المندوبين، إلى جانب هبيرة بن أبي وهب، وابن الزبعري وأبي عزة الجمحيّ[1].

وقد هجا عمرو بن العاص رسول اللهﷺ هجاءً كثيراً كان يعلمه صبيان مكة فينشدونه ويصيحون برسول اللهﷺ إذا مرّ بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء. فكان رسول اللهﷺ يقول وهو يصلّي بالحجر: اللهم إن عمرو بن العاص هجاني، ولستُ بشاعر، فالعنه بعدد ما هجاني.

وروى ابن أبي الحديد عن الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات عن الحسن بن عليّ أنه قال لابن العاص:

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٢٠١.

«وأما أنتَ يا ابن العاص، فإن أمركَ مشترك: وضعتكَ أمك مجهولاً من عُهر وسفاح، فتحاكمَ فيكَ أربعة من قريش، فغلبَ عليكَ جزارها، ألأمُهُم حَسَباً وأخبثهمَ منصباً.

ثم قام أبوك فقال: أنا شانئ محمدٍ الأبتر، فأنزلَ الله فيه ما أنزل.

وقاتلتَ رسولَ اللهﷺ في جميع المشاهد وهجوته وآذيته بمكة، وكدتهُ كيدكَ كله، وكنتَ من أشدّ الناس له تكذيباً وعداوة.

ثم خرجتَ تريد النجاشي مع أصحاب السفينة، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأكَ ما رجوتَ ورجعكَ الله خائباً، وأكذبك واشياً، جعلتَ حدّك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيتَ به إلى النجاشي حسداً لما ارتكبَ مع حليلتك. ففضحكَ الله وفضح صاحبك.

فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام.

ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوتَ رسولَ اللهﷺ بسبعين بيتاً من الشعر. فقال رسول اللهﷺ: اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي. اللهم العنه بكل حرفٍ ألفَ لعنة. فعليكَ إذاً ما لا يحصى من اللعن.»[1].

وكان عمرو بن العاص أكبر سناً من معاوية. وكان أيضاً أكثر حكمةً منه حين أحسنَ تقدير موازين القوى واتجاه الريح، فتداركَ نفسَه في اللحظات الأخيرة قبل فتح مكة فذهب إلى يثرب وأشهرَ إسلامه أمام النبيﷺ، وبذلك تمكن من تجنّب صفة «الطليق «البغيضة في المنظور الإسلامي، والتي كانت لاصقة بمعاوية الذي لم يستطع منها فكاكاً. ولذلك كان وضعه في منظور الشرعية الإسلامية أفضل قليلاً من معاوية، خاصة وأنه استفاد من سياسة النبيﷺ المتسامحة تجاه خصومه، فقاد سرية أرسلها النبيﷺ إلى ذات السلاسل لإخضاع بعض القبائل التي كان بينها وبينه علاقة خؤولة.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٢٩١.

وفي عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، نال عمرو بن العاص فرصته الذهبية. فقد أحسنا تقدير خصاله القيادية المميزة حقاً في ميدان الصراع الحربي والسياسي. فكان من قيادة الجيش الذي أرسله أبو بكر لفتح الشام. وأما إنجازه الأبرز فكان في عهد عمر، حين كان قائد الحملة التي نجحت في فتح مصر.

وهذه الإنجازات الحربية المهمة أضفت نوعاً من الشرعية الإسلامية على شخصية عمرو بن العاص، وغطّت، قليلا، على ماضيه الملطّخ في الإسلام.

واشتهر عمرو بن العاص بدهائه الشديد في مواجهة خصومه، حتى لقد لقّب بـ«داهية العرب». وعرف عنه فصاحته وذهنه الحاضر. ولا يمكن الجدال حول صفاته القيادية الفذة، ولا حول حنكته وحسن إدارته للجيوش وللرجال. ولكن لا يمكن أبداً اعتباره فارساً مغواراً على الصعيد الشخصي. فقد كان قصير القامة ولم تروَ عنه بطولاتٌ تذكر في القتال أو المبارزة.

قال عنه علي بن أبي طالب:

«عجباً لابن النابغة...

لقد قال باطلاً ونطق آثماً. أما وشرّ القول الكذب، انه ليقول فيكذب، ويعِدُ فيخلف، ويَسأل فيلحف ويُسأل فيبخل ويخون العهدَ ويقطع الالّ.

فإذا كان عند الحرب فأيّ زاجر وآمرٍ هو، ما لم تأخذ السيوف مآخذها. فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القَرم سبّته ...

وانّه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة. انّه لم يبايع معاوية حتى شَرَط له أن يؤتيه أتية، ويرضخ له على ترك الدين رضيخة»[1].

وقد وصفه ابن عباس وصفاً بليغاً فقال له:

«لا أراك فخرتَ إلاّ بالغدر ولا منيتَ إلاّ بالفجور والغش.

وذكرتَ مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلت علينا وطأتك ولا نكأت فينا جرأتك.

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص١١٠.

ولقد كنتَ فيها طويلَ اللسان، قصيرَ البنان! آخر الحرب إذا أقبلت وأولها إذا أدبرت.

لك يدان: يدٌ لا تقبضها عن شر ويدٌ لا تبسطها إلى خير!

ووجهان: وجهٌ مؤنس، ووجهٌ موحش.

ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره، لحريّ حزنه على ما باع واشترى.

أما إن لك بياناً ولكن فيك خطل.

وإن لك لرأياً ولكن فيك فشل.

وإن أصغر عيبٍ فيك، لأعظم عيبٍ في غيرك»[1].

وكمكافئة له على إنجازه بقيادته للجيش الذي فتح مصر، ثبّته عمر بن الخطاب في منصب والي مصر. وربما قدّر عمر أن الوضع في مصر غير مستقر، وتتهددها مخاطر جدّية من قبل الرومان، مما يتطلّب رجلاً من طراز عمرو هناك.

ولكن عمرو بن العاص تعرّض إلى نكسة في عهد عثمان بن عفان. فقد أسفر صراعٌ باطنيّ، طويلٌ ومُضنٍ، بين عمرو بن العاص ورجلٍ يماثله في الخلق: عبد الله بن أبي السرح، على أرض مصر، قِوامُه المكائد والوشايات، عن انتصار الأخير، الذي لا شكّ استغلّ علاقته الوطيدة بالخليفة،وكونه أخاه بالرضاعة. فقام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وتعيين ابن أبي السرح مكانه. والمرجّح أن عثمان أراد حاكماً لمصر يدين له شخصياً بالولاء والطاعة، فكان ابن أبي السرح هو الحل. فابن أبي السرح يدين بحياته كلها لعثمان الذي أنقذه من حكم الإعدام الذي كان النبيﷺ قد أصدره عليه، وإخلاصه لشخص عثمان لن تشوبه شائبة.

وجد عمرو بن العاص نفسه مهمّشا تماماً بعد أن عزله عثمان. وتوجد روايات كثيرة تصف مدى مشاعر السخط[2] على عثمان، الذي اعترى عمرو بن العاص بعد

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٢٤٧ نقلا عن البلاذري.

(٢) بل وتذهب بعض الروايات إلى حد تصوير عمرو بن العاص كمحرّض على قتل عثمان!

أن فقد حكم مصر. ولا شك أن ذلك صحيح. فالأحداث أثبتت أن عمرو بن العاص كان مهووساً بولاية مصر، التي يبدو أنه كان يعتبرها ملكاً شخصيا له. ولم يهدأ ابن العاص ولم يقرّ له قرار حتى استرجع منصبه بعد بضعة سنوات، كوالي لمصر، نتيجة تحالفه الناجح مع معاوية بن أبي سفيان.

وتجمع الروايات على أن الشرط الرئيسي الذي وضعه عمرو على معاوية من أجل تسخير طاقاته لحرب عليّ معه، كان استرجاع حكم مصر، بصلاحيات مطلقة. وطبعاً لم يكن لدى معاوية أيّ مانع في ذلك. فتلبية هذا الشرط مرهونّة بكسب معاوية الحربَ ضد عليّ، ولو تحقق ذلك فلا ضَير في منح ولاية مصر لعمرو، بل وأكثر. وكان معاوية مصيباً في تقديره مدى أهمية شخصية مثل عمرو بن العاص له في صراعه المصيري ضد الخليفة عليّ. فقد كانت بصمات ابن العاص ظاهرة في كل مراحل ذلك الصراع المرير. ومن أبرز تلك المحطات الهامة التي برزت فيها فوائد عمرو كان قرار رفع المصاحف على الرماح في صفين، ودوره في مؤتمر التحكيم، وأخيرا قيادته للجيش الذي أرسله معاوية لفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر.

فكان معاوية وعمرو ثنائياً لا ينفصم في كل مراحل المواجهة.

ومن شدة قربه من معاوية وملازمته له، أثار ابن العاص غيرة بني أمية على منزلته تلك. فمثلاً قال له سعيد بن العاص مرةً حين لامَه عمرو على تفاخره على معاوية «إذا شحمَ العيرُ نهَق! ما لبني سهمٍ وعبد شمس؟ ولكنك كالذباب على كل شيئ تقع! أنا والله أحب إلى ابن حربٍ وأُعز عليه منك»[1].

كانت كتلة الذكاء والدهاء التي نتجت عن اجتماع هذين العقلين المتفاهمين تصنع سياسةً جبارةً تعرف هدفها وتسير إليه بتدرّجٍ وثبات، وتجتاح في طريقها كل سياسات علي بن أبي طالب الأخلاقية والمبدئية.

*****

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢١ ص١١.

أظهر معاوية مقدرة فذّة على التعاطي والتعامل مع تيارات وشخصيات متنوعـة، ذات مآرب مختلفة، ولها مرامي ومصالح متعددة، وتجميعهـا لخلـق ائـتلاف رهيـب يخوض به المواجهة مع علي بن أبي طالب، بكلّ ما له من ثقل وشرعية في الإسلام.

ونجح معاوية تماماً في الاستفادة من ذلك الخليـط مـن البشـر الـذي يمكـن القول أنه لا تجمعه صلة ولا رابطة سوى كراهية علي بن أبـي طالـب والرغبـة فـي إزاحته عن منصب الخلافة بأيّ ثمن. لقد نصّب معاوية نفسَه علماً مرفوعاً وعنوانـاً معروفاً يؤوب إليه كل مَن يريد معاداة عليّ بن أبي طالب. فما على مَن يكره عليـاً، أو يخشى منه شيئا، أو يريد الفرار منه، سوى الذهاب إلى الشام، ليضمّ جهوده إلـى معاوية وحزبه.

ولم تكن تلك الشخصيات التي نجح معاوية أخيراً في حشـدها خلفـه، تـرتبط معه بالضرورة برابطة الولاء والتبعية، خاصة عند بدء الصراع والمواجهة مع علـي بـن أبي طالب.

والرسائل التي بعث بها معاوية إلى أهل المدينة ومكة قبيل معركة صـفين هـي مثالٌ بارز على دهاء معاوية وحرصه على إزالة حساسية كل مَن هو كارهٌ لعليّ ولكنـه متردّدٌ باللحاق بمعاوية بسبب ما هو ظاهرٌ من ضعف أهليته الإسلامية:

«أما بعد، فإنه مهما غابت عنا من الأمور فلن يغيب عنـا أنّ عليـاً قتـلَ عثمـان. والدليل على ذلك مكانُ قتلته منه. وإنما نطلب بدمه حتى يدفعوا إلينا قتلتـه فنقـتلهم بكتاب الله. فإن دفعَهم عليّ إلينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين علـى مـا جعلها عليه عمر بن الخطاب. وأما الخلافة فلسنا نطلبها.

فأعينونا على أمرنا هذا وانهضوا من ناحيتكم. فإن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعـت على أمر واحدٍ، هابَ عليّ ما هو فيه»[1].

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص٦٣.

والإبداع الذي أظهرَه معاوية كان في حرصه على مخاطبة كل فئة كان يشعر أنها يمكن أن تفيده باللغة التي تناسبها، وبالمنطق الذي يطابق مصالحها واهواءها. فخطابه لكبار صحابة النبيﷺ، من أمثال سعد بن أبي وقاص، كان يختلف تماماً عن خطابه لزعماء القبائل العربية. وكلامه مع أم المؤمنين عائشة كان بعيداً تماماً عن كلامه لقومه من بني أمية. وأسلوبه مع زعماء البطون القرشية كان مغايراً لتعامله مع أهل الأمصار أو رؤساء الأجناد.

وأقامَ معاوية ائتلافه القوي اعتماداً على محورين يكملان بعضهما البعض:

● الجهاز السياسي/ الإداري/ العسكري لمعاوية. وكان يتكون من:

- بني أمية/ عبد شمس، من أمثال أخيه عتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن عامر بن كريز، ومروان بن الحكم، وأبناء عثمان بن عفان. وأضافَ إلى هؤلاء، بعد اغتيال علي بن أبي طالب وانفراده بالسلطة، شخصية قيادية مهمة، وهو زياد بن أبيه، الذي عقد معه صفقة تضمنت أن يدّعيه ويغيّر اسمه إلى زياد بن أبي سفيان.

- زعماء البطون القرشية الأخرى: من أمثال عمرو بن العاص (سهم)، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد (مخزوم)، وبسر بن ارطأة (عامر بن لؤي)، وحبيب بن مسلمة (فهر)، والضحاك بن قيس (فهر).

- زعماء القبائل العربية، من أمثال شرحبيل بن السمط الكندي، وأبي الأعور السلمي[1]، ومسلم بن عقبة المري (غطفان)، وحمزة بن مالك الهمذاني.

وهذا الجهاز الإداري/ العسكري كان أساس قوة معاوية ودعامة حكمه الرئيسية. وهو كان جهازاً فعالاً يمتلك خبرة كبيرة جداً تراكمت خلال عهد الخلفاء

---

(١) أبو الأعور السلمي من أهم قادة جيش معاوية كانت قد نزلت الآية «يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين»فيه وفي أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل حين قدموا المدينة بعد أحُد. جاء ذلك في أسباب النزول للواحدي ص٢٣٦. وربما الأصح انها نزلت في والده سفيان بن عبد شمس السلمي الذي كان من قيادات الأحزاب التي هاجمت المدينة في غزوة الخندق.

الثلاثة. كان معظم، إن لم يكن كل، رجالات معاوية قد تقلّدوا مناصب قيادية ولعبوا دوراً مهماً في نجاح حركة الفتوحات الكبرى، خاصة في الشام. فهم كانوا معتادين على المعارك والمواجهات والتخطيط الحربي المحكم، وظهرت خبرتهم وقوتهم في حرب معاوية ضد الإمام عليّ.

- الجهاز الدعائي/ الإعلامي لمعاوية: كان يتكون من:

- أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر

كان معاوية يقدّر عالياً الدورَ الذي لعبته عائشة في الصراع ضد عليّ، وخاصة في مراحله الأولى. فموقف عائشة كان هدية إليهة له. فهي التي أشعلت فتيل أول حرب أهلية بإعلانها الحرب علي الخليفة عليّ، قبل معاوية! فإذا كانت زوجة الرسولﷺ، وابنة الخليفة الأول، تشهر السيف في وجه عليّ، فبمَ يختلف معاوية عنها؟ هو ببساطة يتابع دربها ويقتدي بنهجها! بل إن معاوية قد أضاف سبباً آخر لاستعماله في الأغراض الدعائية: الانتقام لكرامة أم المؤمنين التي أهدرها عليّ يوم الجمل!

وبفضل عائشة، يستطيع معاوية أن يُعلن للمسلمين بأنه لم يكن هو أول من سَفكَ الدماء في قتالٍ داخلي في الإسلام. كانت عائشة هي التي كسرت ذلك الحاجز النفسي وعبّدت الدربَ الذي سار عليه معاوية إلى نهايته.

وإذا كان صحيحاً أن عائشة عندما أعلنت تمردها علي عليّ وأشعلت حرب الجمل لم تكن آنذاك تسعى لخدمة شخص معاوية أو تهدف إلى جعله خليفة، إلاّ أن سيرة أم المؤمنين أثناء خلافة معاوية تظهر أنها قد توصلت إلى تفاهم معه بحيث تتمتع بوضع مميز، ومقام رفيع، وتحاط بالتوقير البالغ والاحترام في دولة معاوية، في مقابل قبولها ودعمها المعنوي له، وسكوتها عن انحرافاته الكثيرة عن مبادئ الإسلام النبوي. فلم يُروَ أبداً أن عائشة غضبت أو اعترضت على تولي معاوية، وهو من الطلقاء، المنصب الأعلى في دولة الإسلام، غصباً وقهراً. لم تدعُ عائشة المسلمين إلى معارضة معاوية، ولم تطالب بخلعه، ولم تحشد الجيوش ضده.

في الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب في أمس الحاجة إلى دعم كل المسلمين له في صراعه ضد تحالف طلقاء قريش وأبنائهم، جاء أبو هريرة بروايات لتثبيط الناس عن نصرة الجانب الذي على الحق، وهو عليٌ كما لا يخفى. فقد صوّر أبو هريرة للناس أن الجانبين متساويان في سعيهما للحق وأن اقتتالهما قدرٌ إلهيٌ:

عن أبي هريرة «قال رسول الله ﷺ: ستكون فتنٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، ومَن يشرف لها تستشرفه ومَن وجد ملجأ أو معاذاً فليعُذ به»[(1)].

عن أبي هريرة «لا تقوم الساعة حتى يقتتل فتيان، فيكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة...»[(2)].

ورغم أن أبا هريرة لم يشارك مباشرة في القتال إلى جانب معاوية، إلاّ أنه مارسَ دورَ المحدِّث الرسمي لدولة معاوية، وساهمَ بقدر طاقته في إضفاء الشرعية على فلسفة معاوية وسياسته. فكان أبو هريرة على انسجام تام مع معاوية في حملته الدعائية الرهيبة.

ومن ذلك ما رواه في رفع ذكر عثمان ومحاولة الحط من قدر عليٍّ:

قال أبو هريرة: «كنا معاشر أصحاب رسول الله ﷺ، ونحن متوافرون، نقول: أفضل هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم نسكت»[(3)].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لكل نبي رفيقٌ في الجنة، ورفيقي فيها عثمان بن عفان»[(4)].

---

(1) صحيح البخاري باب علامات النبوة ج٤ ص ٢٤١.
(2) صحيح البخاري باب علامات النبوة ج٤ ص ٢٤٣.
(3) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص١٦٩.
(4) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص١٠٥.

وقد جنى أبو هريرة ثمار موقفه ذاك عندما انفردَ معاوية بالحكم. فلم يكتفِ معاوية بتعيينه محدثاً رسمياً للدولة، واعتماده مفتياً، وجمع الناس عليه بعد رفع ذكره الذي كان خاملاً، بل أدخله في السلطة التنفيذية عن طريق تعيينه والياً على المدينة المنورة!

ولا عجبَ بعد هذا التحالف المبني على المصلحة والمنفعة بين معاوية وأبي هريرة، أن تنهال العطايا والنعم من الحاكم على الراوية إلى حدٍ مذهل :

فقد جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: «كنّا عند أبي هريرة وعليه ثوبان ممشقان من كتان. فتمخّط. فقال: بخ بخ! أبو هريرة يتمخّط في الكتان!»[1].

- بعض «الصحابة «من أمثال المغيرة بن شعبة، وسمرة بن جندب[2]

كان معاوية محتاجاً جداً لأي شخصٍ يمكن أن يطلق عليه اسم «صحابي «لكي يستغلّه في دعايته، فيظهر أن في معسكره مَن صاحبوا رسول الله.

وقد وجد ضالته في المغيرة بن شعبة، الداهية الانتهازي. فلأنّ المغيرة قد أسلمَ قبيل صلح الحديبية، كان بإمكان معاوية أن يقول لجماعته من أهل الشام: هذا صحابيٌ جليلُ القدرِ ممن عرفوا الرسولﷺ، وهو معنا وعلى نهجنا!

لم يشارك المغيرة مع معاوية في حرب صفين وبقي في الحجاز. ويبدو أن سبب ذلك كان غموض الموقف بنظر المغيرة وعدم يقينه بقدرة معاوية على الصمود في المواجهة مع عليّ أو الانتصار فيها.

ولكنه لما رأى الأمر قد استتب لمعاوية في آخر المطاف، شمّرَ عن ذراعيه وانخرط بكلّيته في جبهة معاوية. وبلغ به الولاء لسيده إلى درجة أنه كان يثابر في كل جمعةٍ على شتم علي بن أبي طالب من على المنبر، حينما عيّنه معاوية والياً على الكوفة.

---

(١) صحيح البخاري ج٩ باب ما ذكر النبيﷺ وحضّ على اتفاق أهل العلم ص١٢٨. ولمزيد من التفاصيل حول العلاقة التي ربطت أبا هريرة بالأمويين، يمكن مراجعة فصل «أبو هريرة: الرواي الأعظم «من هذا الكتاب.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذين الرجلين، يمكن مراجعة فصل «نظرية عدالة كل الصحابة «من هذا الكتاب.

وقد أدى المغيرة دوره. فلكي يسهّل الأمرَ على المتدينين من أهل الشام ويقنعهم بشرعية الصلاة خلف رجلٍ فاقد الشرعية كمعاوية، قال لهم إن رسول اللهﷺ صلّى خلف غيره من المسلمين!

«... وقد رأيتُ رسولَ اللهﷺ صلّى خلفَ عبد الرحمن بن عوف ركعةً من صلاة الصبح..»[1].

فإذا كان رسول اللهﷺ، القائد والمعلم والمثل الأعلى، يصلي خلف رجلٍ من المسلمين، فلا بأس إذن من الصلاة خلف معاوية.

وكذلك كان سمرة بن جندب موظفاً رخيصاً لدى معاوية، استعمله ليساهم في تثبيت حكمه في العراق أيام زياد بن أبيه. وروى ما يروق له من الأحاديث.

- عبيد الله بن عمر بن الخطاب

لقد أحسنَ معاوية بن أبي سفيان، بدهائه المشهود، الاستفادة من عبيد الله بن عمر بن الخطاب حين لجأ إليه. كيف لا وهو يمثل كنزاً ثميناً! فهو يحمل اسم عمر بن الخطاب. وما أشدّ حاجة معاوية في موقفه المحارب للخليفة الشرعي إلى اسمٍ من طراز عمر بن الخطاب.

يروي نصر بن مزاحم:

«لما قدِمَ عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام، أرسلَ معاوية إلى عمرو بن العاص.

فقال: يا عمرو! إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر.

وقد رأيتُ أن أقيمه خطيباً فيشهد على عليّ بقتل عثمان. وينال منه.

فقال: الرأي ما رأيت. فبعثَ إليه فأتى.

(١) مسند أحمد بن حنبل ج٤ ص٢٤٧.

فقال له معاوية: يا ابن أخي! إن لك اسم أبيك، فانظر بملء عينيك وتكلم بكل فيكَ فأنت المأمون المصدق. فاصعد المنبر واشتم علياً واشهد عليه أنه قتل عثمان.

فقال: أيها الأمير! أما الشتيمة، فإنه عليّ بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما عسى أن أقول في حَسَبه؟

وأما بأسُه، فهو الشجاع المطرق، وأما أيامُه فما قد عرفتَ. ولكني ملزمه دمَ عثمان.

فقال عمرو بن العاص: إذا والله قد نكأت القرحة»[1].

- النعمان بن بشير الأنصاري[2]

كان معاوية بحاجة ماسة إلى أشخاصٍ من أوساط الأنصار في صفوفه. وكان النعمان جاهزاً ليلعب ذلكَ الدوَر الذي قدّره معاوية عاليا، فعينه في مناصب قيادية.

فالنعمان بن بشير ورثَ عن أبيه الولاءَ لقريش. فأبوه كان أولَ مَن شق الصفَ الأنصاري يوم السقيفة فبايعَ المهاجرين. ويبدو أنه قدّر أنه من الأفضل أن لا يعاكسَ التيارَ الغالب، وأن التبعية لقريش ستعود عليه بالفوائد، وذلك أنفع من تحدّيها بلا طائل.

فالنعمان بكل بساطة قلبَ ولاء أبيه لقريشٍ عامة إلى ولاء شديد لبني أمية خاصة، إلى درجة دفعت معاوية لتعيينه في منصبِ والي الكوفة في فترة معينة[3]، وهو منصبٌ حساسٌ جداً في دولة بني أمية، لأنه يتطلب والياً بمواصفات خاصة جداً لقمع أنصار عليّ الكثيرين في عاصمة حكمه.

---

(١) وقعة صفين لابن مزاحم المنقري ص٨٣

(٢) ورد في تاريخ ابن معين / الدوري ج١ ص ١٧٠: قال يحيى بن معين«سمعت يحيى يقول: أهل المدينة يقولون: لم يسمع النعمان بن بشير من النبي صلى الله عليه وسلم. وإنما يروي أحاديث النعمان عن النبي صلى الله عليه وسلم الكوفيون والشاميون».

(٣) التاريخ الصغير للبخاري ج١ ص١٣٤ وص١٤٠.

واستمرّ النعمان هذا في إظهار طاعته العمياء، وإخلاصه الشديد لبني أمية، حتى فيِ عهد ما بعد معاوية. فمثلاً روى خليفة أن يزيد بن معاوية، سنة ٦٣ للهجرة، قد بعثَ النعمان بن بشير مرسالاً له إلى ابن الزبير في مكة يدعوه إلى بيعة يزيد! وأن ابن الزبير قد أجابه بأنه لن يبايع رجلاً «يشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويتبع الصيد»[1].

واستفاد معاوية أيضا من تيار الاعتزال الذي من أبرز رموزه:

- سعد بن أبي وقاص[2]

كان معاوية يحاول أن يُظهر لعامة أهل الشام أن حربه مشروعة ولذلك كان يبذل أقصى الجهد لحشد أية أسماء لها ماضٍ معين في الإسلام في صفّه، لعلها تعطيه بعض الشرعية في موازنة ما يمثله عليٌ من ثقل عظيم في الإسلام. وحتى لو لم تكن بعض الشخصيات في صفه ولم يصدر منها أي تأييد مباشر له، فقد كان يحاول أن يظهرها وكأنها ضمناً مَعه في حربه لعليّ.

وكان معاوية حريصاً على محاولة استمالة كل مَن يمكن أن يكون ذا فائدة على الصعيد الدعائي في حربه ضد عليّ. ولذلك كتب إلى سعد بن أبي وقاص:

«إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره.

وقد نصَره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر، ونظيراك في الإسلام. وخفّت لذاك أم المؤمنين.

ولا تكرهنّ ما رضوا، ولا تردّن ما قبلوا»[3].

وهنا يظهر معاوية منسجماً مع نفسه في منهاجه. فكما استفاد من عبيد الله بن عمر، الذي يحمل اسم أبيه، في حملته الدعائية، يحاول الآن الاستفادة من سعد الذي

---

(1) تاريخ خليفة بن خياط ـ العصفري ص١٩٣.

(2) لمزيد من المعلومات حول شخصية سعد، يمكن مراجعة فصل «العشرة المبشرون بالجنة» من هذا الكتاب.

(3) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٨٧.

يعتبر من الصحابة الكبار، وأحد الستة الذين رشحهم عمر للخلافة. وفي مواجهة البون الشاسع الذي يفصله عن عليّ في مجال الأهلية الدينية والشرعية الإسلامية، كان معاوية يحاول تجميع أكبر قدر ممكن من الخصوم لعليّ، ويا حبذا لو كان هؤلاء الخصوم ذوي ماض في الإسلام، يعوّض قليلا عن مكانة معاوية الناقصة في دين محمد صلى الله عليه وآله. كان يكفي معاوية أن يكون هؤلاء خصوماً لعليّ، وليس شرطاً أن يكونوا من تابعيه وأشياعه. لأنه في النهاية فإن كل من وقف على الحياد كان يصب في مصلحة معاوية. فالحياد يعني بالضرورة نوعاً من المساواة الأخلاقية بين الطرفين المتنازعين. ولذلك لم يتأثر معاوية كثيراً عندما رفض سعد طلبه وأصر على منهجه الداعي «لاعتزال الفتنة».

فمعاوية يكتفي بما كان يرويه سعد ويذيعه بين المسلمين:

«أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم. والقائم خير من الماشي. والماشي خير من الساعي.

قال: أرأيتَ إن دخلَ عليَّ بيتي وبسط يده إليّ ليقتلني. قال: كن كابن آدم»[1].

وسوف يعبّر سعد بن أبي وقاص، بعد فوات الأوان، عن استيائه من مآل الأمر إلى معاوية وتحوّله إلى ملكٍ وراثي للأمويين دون غيرهم من بطون قريش:

«ودخل إليه سعد بن مالك فقال: السلام عليك أيها الملك!

فغضب معاوية فقال: ألا قلتَ السلام عليك يا أمير المؤمنين؟

قال: ذاك إن كنّا أمّرناك. إنما أنتَ مُنتزٍ»[2].

- أبو موسى الأشعري:

كان الدور التثبيطي[3] الذي لعبه أبو موسى تجاه عليّ وحكمه و دعوته في

---

(١) سنن الترمذي ج٣ ص٣٢٩.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢١٧.

(٣) تفاصيل الدور التثبيطي وردت في ص٤٣٥ وتفاصيل دوره في قضية التحكيم سترد في ص٥٥٥ من هذا الكتاب.

الكوفة ذا فائدة عملية كبيرة لمعاوية وحزبه. ورغم أن أبا موسى لم يكن يدين بالولاء الشخصي لمعاوية، بل ربما كان يزدريه ويعتبره ناقص الأهلية والشرعية الإسلامية، إلاّ أن إصراره الشديد على نشر فكر «اعتزال الفتنة «بين المسلمين، وبالتحديد من أهل العراق، كان أيضا مفيداً جدا لمعاوية، لأن دعوة أبي موسى هذه تعني إعلان المساواة الأخلاقية بين الطرفين المتصارعين، وذلك ما كان يطمح له معاوية ويسعى إليه.

وأخيراً جاء الدور المشبوه الذي اضطلعَ به أبو موسى في مؤتمر التحكيم، وفشله بالدفاع عن صحة موقف الخليفة عليّ، بل وخيانته له وقيامه بخلعه علناً، ليكملَ مسلسل المواقف السلبية، بل العدائية، لأبي موسى تجاه عليّ. وتجدر الإشارة إلى أن معاوية استندَ إلى مهزلة مؤتمر التحكيم وموقف أبي موسى فيه في إعلان طموحه العلنيّ لمنصب الخلافة. فأهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة فقط بعد مؤتمر التحكيم، وقبل ذلك كانوا ينادونه بـ«الأمير» وأصبح «أمير المؤمنين» بعد أن أعلن معاوية لهم إن مندوب العراق، أبا موسى، قد خلع علياً بينما ثبته مندوبه، وبالتالي فالتحكيم قد انتهى لصالحه!

وبقي معاوية يذكر أبا موسى بالخير، تقديراً للدور الذي لعبه خلال مجرى صراعه مع عليّ، حتى أنه لم ينسَ أن يوصي ابنه يزيد بأن يحسن لابن أبي موسى، ويدعى أبا بردة، فقال له:

«إن وليتَ من أمر المسلمين شيئا فاستوصِ بهذا، فإنّ أباه كان أخاً لي (أو خليلاً أو نحو هذا من القول)، غير أني رأيت في القتال ما لم يرَ».

وقد ذكر أبو موسى نفسه مرة أن معاوية كان شديد الإكرام له، فقال عنه:

«... فلما ولي أتيته فلم يغلق دوني باب، ولم تكن لي حاجة إلاّ قضيت»[1].

---

(١) هذا الاقتباس وما قبله من الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ ص١١٢.

- عبد الله بن عمر بن الخطاب[1]:

فابن عمر، الذي قرر«اعتزال الفتنة» وبالتالي نأى بنفسه عن الطرفين، وكان قد أصر على رفض مبايعة علي بن أبي طالب، مساوياً بينه وبين معاوية من ناحية أخلاقية، لم يتردد وهو في أواخر عمره، شيخا طاعنا في السن، في مبايعة رجل من أمثال عبد الملك بن مروان!

فقد روى البخاري أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان: «إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وإن بني قد أقروا بذلك»[2].

وكان قبل ذلك قد بايع يزيد بن معاوية! وتشدّد في الوفاء ببيعته، كونه إماماً شرعياً! فابن عمر لا يرى في مخالفة طاغية كيزيد إلاّ غدراً!

«لما خلع اهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: إني سمعت النبيﷺ يقول: ينصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة. وإنّا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله. وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال. وإني لا أعلم احداً منكم خلعه ولا تابَعَ في هذا الأمر، إلاّ كانت الفيصل بيني وبينه»[3].

ومن البديهي أن يكون شخصٌ بهذه المواصفات مناسباً جداً لاستعمالات معاوية. فلم تكن المشاعر الداخلية في نفس ابن عمر، ومدى اقتناعه بأهلية معاوية لمنصب الخلافة، تهم معاوية على الإطلاق. فقط ما كان يهمه هو أن يرى الناس شخصاً يحمل اسم عمر بن الخطاب يبايعه، وبإخلاص، بينما رفضَ بيعة علي بن أبي طالب!

---

(1) مزيد من المعلومات عن شخصيته موجودة في فصل «طاعة الحاكم، براً كان أم فاجراً» من هذا الكتاب.

(2) صحيح البخاري ج٨ ص١٢٣.

(3) صحيح البخاري كتاب الفتن ج٩ ص٧٢.

ولا بد من الإشارة إلى أن نزعة ابن عمر لمهادنة الحكام وطاعتهم، وترويجه لهذه الفلسفة تحت مسمى اجتناب الفتن بين المسلمين، لم يطبقها في حالة علي بن أبي طالب بالذات. فهو أظهرَ شجاعة وثقة بالنفس ـ ولعلها ليست ثقة بالنفس بقدر ما هي معرفة بخصال الإمام علي الإسلامية وسماحته، بخلاف الآخرين من جبابرة بني أمية ـ دفعته إلى إبلاغ علي أنه لن يبايعه. ولكن ابن عمر لم يفعل ذات الشيئ مع معاوية ولا مع يزيد ولا مع عبد الملك، فبايعهم.

ولمّا امتنع وأبى، لم يرغمه عليّ على البيعة.

فلم يكتفِ بذلك، بل أخذ يشيع بين الناس ما يفيد أن علياً إنما هو رجلٌ من عامة الناس، فلا يمتاز بشيئ، ولا يسمو إلى مستوى الخلفاء الثلاثة! فهو قد روى:

«كان رسول الله ﷺ ولا يعدل به أحد.

ثم نقول: خير الناس أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان.

ثم لا نفاضل

قال: فيبلغ ذلك النبي ﷺ، فلا ينكره.»[1].

وهذا الكلام، والممارسة، يدل على منهج عدائيّ، مقصود وثابت، من ابن عمر تجاه عليّ بن أبي طالب بالذات.

*****

وهكذا اكتملت عناصر ماكينة معاوية الرهيبة: جهازٌ إداريّ وعسكريّ خبيرٌ وفعّال، وجهازٌ دعائيّ وإعلاميّ قويّ.

*****

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص١٦٦.

قبيل مقتل عثمان: معاوية يُحذر

لم يكن بإمكان معاوية، الذكي واللمّاح، والذي أصبح رجلَ النظام القوي في عهد عثمان، ألاّ يلاحظ خطورة التطورات التي كانت تجري في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان. كان معاوية يستشعر جدّية الاضطرابات التي أخذت تعصف بعدّة أقاليم من دولة الخلافة ومدى التهديد الذي تمثله مشاعر الاستياء والغضب الشعبي من سياسة الخليفة والتي تجتاح عرض البلاد وطولها. وفوق ذلك، كان معاوية يشعر أن عثمان قد خلق حاجزاً معيناً بينه وبين طبقة كبار الصحابة بسبب اعتماده الكلي على عائلته هو بالذات، وأن الخليفة بالتالي لم يعد يتمتع بالتأييد المناسب من هؤلاء. وربما قدّر معاوية أن الصحابة من جماعة الشورى يتوقعون أن يأتيهم الدور في خلافة العجوز عثمان، إن وافاه الأجل أو حصل له مكروه. فقرر معاوية أن يضع النقاط على الحروف ويُطلق إشارة تحذير لمن يهمه الأمر.

فلمّا كثرت المطاعن على عثمان من الأمصار ومن الصحابة الكبار على حدّ سواء «قدِم معاوية بن أبي سفيان على إثر ذلك من الشام، فأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر.

فقال لهم: يا معشر الصحابة! أوصيكم بشيخي هذا خيراً. فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلاً ورجالا!

ثم أقبل على عمار بن ياسر فقال: يا عمار! إن بالشام مئة ألف فارس، كلٌ يأخذ العطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون علياً ولا قرابته، ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعداً ولا دعوته!

فإيّاك يا عمار أن تقعد غداً في فتنةٍ تنجلّي، فيقال هذا قاتلُ عثمان وهذا قاتلُ علي»[1].

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٤٦. وربما ورد اسم عبد الرحمن بن عوف بين كبار الصحابة على سبيل الخطأ من الراوي، لأنه على الأرجح كان متوفياً في ذلك الوقت.

وقد أورد ابن قتيبة الرواية على نحو آخر. وفيه أن عثمان قد دعا كبار الصحابة بعدما عاتبوه وطلب منهم أن يسمعوا إلى معاوية «فإن ابن عمي معاوية هذا قد كان غائباً عنكم وعما نلتم مني، وما عاتبتكم عليه وعاتبتموني. وقد سألني أن يكلمكم وأن يكلمه مَن أراد.

فقال سعد بن أبي وقاص: وما عسى أن يُقال لمعاوية أو يقول، إلاّ ما قلتَ أو قيل لك؟

فقال علي: ذلكم تكلم يا معاوية».

فذكر معاوية كلاما طويلاً عن الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان إلى أن وصل إلى بيت القصيد وهو التهديد وتذكير الصحابة بأن الزمان قد تغيّر «مهلاً مهلاً معشر المهاجرين! فإن وراءكم مَن إن دفعتموه اليوم اندفعَ عنكم، ومَن إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفَعَكم بأشدّ من ركنكم وأعدّ من جمعكم، ثم استنّ عليكم بسنّتكم ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي...

فقال علي بن أبي طالب: كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء! لستَ كذلك».

ثم استمر معاوية فذكر كلاماً حول مكة والمدينة وكيف أن الأمصار تشخص ببصرها إليهما إلى أن قال «وليُسلبنّ أمركم ولُينقلنّ المُلكُ من بين أظهركم. وما أنتم في الناس إلاّ كالشامة السوداء في الثور البيض. فإني رأيتكم نشبتم في الطعن على خليفتكم وبطرتم معيشتكم وسفَهتم أحلامكم»[1].

ويروي ابن شبة النميري[2] أن علياً رفض استمرار هذا الحوار مع معاوية فقال له «يا معاوية: أفتراني أقعد أقول فتقول؟!»ثم خرج غاضباً.

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٤٨. وفي رواية ابن شبة النميري في تاريخ المدينة ج٣ ص١٠٩٣ أن عليا غضب بشدة من كلام معاوية هذا في حضور عثمان «فنهض عليّ مغضبا. فقال له عثمان: اجلس. قال: لا أجلس. قال: عزمتُ عليك. فأبى. فأخذ عثمان بطرف ردائه. فتركه من يده وخرج». وفي رواية ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٣٩ ص٣٠٨ أن معاوية قال في معرض تهديده «... فإن الله على البدل قادر، وله المشيئة في ملكه وأمره...».

(٢) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري ج٣ ص١٠٩٧.

واضحٌ من موقف وكلام عليّ بن أبي طالب، وكذلك سعد بن أبي وقـاص، أن كبار الصحابة حتى تلك اللحظة لم يكونوا يعتبرون أن من حق معاوية حتـى أن يثيـر مواضيع الخلافة والحكم للنقاش. ولم يعتبـروه مـؤهلا أصـلاً للكـلام بهـذه الأمـور بوجود عثمان ووجودهم.

إن معاوية، الواقعي والعارف بتحولات مراكز القوى، يـذكّر الصـحابة مـن ذوي الشرعية الإسلامية، أن الزمان تغير، وأن عليهم أن يعـوا ذلـك ويراعـوا المسـتجدات على الأرض. وفي خطاب معاوية ذاك تصريحٌ بأنه سـيحترم الشـرعية فقـط إن هـي استمرّت على هواه، وأنه لن يسمح بالمسّ بامتيازات بني أمية التي تأصّلت في عهـد عثمان على يد مجموعةٍ أصبحت «كالشامة السوداء في الثور الأبيض»!

بدءُ عهدِ عليّ: أتأمروني أن أطلبَ النصرَ بالجور؟

كان أول قرار للخليفة علي هو عـزل معاويـة مـن منصـبه. ولـم يسـتمع لمـن اقترحوا عليه التريّث في ذلك. روى البلاذري:

«قال عليّ لعبد الله بن عباس: سِر إلى الشام فقد بعثتك إليها.

فقال ابن عباس: ما هذا برأي! معاوية ابن عم عثمان وعامله، والناس بالشـام معه وفي طاعته، ولستُ آمن أن يقتلني بعثمان على الظنة. فـإن لـم يقتلنـي تحكـم عليّ وحبسني. ولكن اكتب إليه فمنّـه وعِـده، فـإن اسـتقام لـك الأمـر بعثتنـي إن أردتَ»[1].

ولكن علياً رفض أن يَعِدَ معاوية ويمنيه.

وسوف يبقى موقف عليّ المبـدأيّ هـذا، منهاجـاً ثابتـاً لا يتغيـر مهمـا كانـت الظروف، وبغض النظر عن عظم العواقب، أو حسابات الربح والخسارة. وبعد معركـة صفيّن، وحين كان الإمام عليّ يبذل جهداً عظيماً من أجل إعادة تجميع أهـل العـراق وتحشيدهم للسير إلى الشام مرة أخرى، وكان بحاجة إلى تأييد كل مَن له تأثير علـى

(1) ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص ٢٠٨.

عموم الناس، سيرفض أيضا التنازل عن مبادئه قيد أنملة:

«ثم قام رجالٌ من أصحاب عليّ فقالوا: يا أمير المؤمنين! أعطِ هؤلاء هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش من الموالي، ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه. وإنما قالوا له: هذا الذي كان معاوية يصنعه بمن أتاه. وإنما عامة الناس همهم الدنيا ولها يسعون، وفيها يكدحون. فأعطِ هؤلاء الأشراف، فإذا استقام لك ما تريدُ عدتَ إلى أحسن ما كنتَ عليه من القسم.

فقال عليّ: أتأمروني أن اطلب النصر بالجور فيمن وليتُ عليه من الإسلام؟!

فوالله لا أفعلُ ذلك ما لاحَ في السماء نجم!

والله لو كان لهم مالٌ لسوّيتُ بينهم، فكيف وإنما هي أموالكم»[1].

إن هذا الرجل البسيط من أنصار عليّ أراد أن يساعد إمامَه عن طريق اقتراح فكرة «ذكية» بنظره: أن يُداهنَ عليّ ويجامل في سياسته، إلى أن يستتب له الأمر، ثم يعودَ إلى العدل بعدها! ولكن غاب عنه أن علياً يعتبر الحق كلٌّ لا يتجزأ وأنه لا يمكن له أن يظلمَ قليلاً ويعدلَ أكثر، لأن ذلك نقيض معدنه ورسالته.

كان الامام عليّ يعرف أن طريق الحق باهظة التكاليف وأن التمسّك بالمبادئ قد يؤدّي الى خسائر دنيوية فادحة ولكن رغم ذلك فهو إمامُ هدىً ولا يساوم. قال «والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنّه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنتُ من أدهى الناس: ولكن لكل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة. ولكل غادر لواءٌ يُعرف به يوم القيامة. والله ما استغفل بالمكيدة، ولا استغمز بالشديدة»[2].

«آكدُ الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمرُ المال. فإنه لم يكنِ يفضل شريفاً على مشروف، ولا عربياً على عجمي. ولا يُصانعُ الرؤساء وأمراءَ القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٧٤.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص٢٧٨.

ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية.

.... إن امرأتين أتتا علياً عليه السلام، إحداهما من العرب والأخرى من الموالي. فسألتاه، فدفع إليهما دراهمَ وطعاماً بالسواء.

فقالت إحداهما: إني امرأة من العرب، وهذه من العجم!

فقال: إني والله لا أجد في هذا الفيئ فضلاً على بني اسحاق»[1].

وهكذا قرر عليّ تجذير المواجهة: لن يكون هناك حلّ وسَط مع رجال عهد عثمان، وأبرزهم معاوية. وما على هؤلاء سوى الرحيل! وسوف يسير عليّ إلى هدفه بطريقٍ مستقيم، مهما تكن العواقب.

قميصُ عثمان

روى ابن قتيبة:

«وكتبت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تصف دخولَ القوم على عثمان، وأخذه المصحف ليتحرم به، وما صنع محمد بن أبي بكر. وأرسلت بقميص عثمان مضرجاً بالدم ممزقا، وبالخصلة التي نتفها الرجل المصري من لحيته، فعقدت الشعرَ في زر القميص. ثم دعت النعمان بن بشير الأنصاري فبعثته إلى معاوية.

فمضى بالقميص حتى أتى على يزيد بن أسيد ـ ممداً لعثمان، بعثه معاوية في أربعة آلاف ـ فأخبرهم بقتل عثمان فانصرفوا إلى الشام»[2].

«فصعد المنبرَ معاوية بالشام، وجَمَع الناسَ ونشر عليهم القميص. وذكر ما صُنع بعثمان، فبكى الناس وشهقوا، حتى كادت نفوسهم أن تزهق.

ثم دعاهم إلى الطلب بدمه. فقام إليه أهل الشام فقالوا: هو ابن عمك وأنتَ وليّه، ونحن الطالبون معك بدمه»[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص١٩٧ – ٢٠١ نقلا عن المدائني والهمداني.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٦٤.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٠٠.

وقد وصف أحدهم مدى الشحن النفسي الذي مارسه معاوية في الشام على النحو التالي: «إني قد خلفتُ بالشام خمسين ألف شيخ، خاضبي لحاهم بدموع أعينهم، تحت قميص عثمان، رافعيه على أطراف الرماح. قد عاهدوا الله ألاّ يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته، أو تلحق أرواحهم بالله»[1].

وربما تكون هناك مبالغة في هذا الوصف. ولكن لا شك أن رجلاً كمعاوية ما كان له أن لا يستغلّ، إلى أقصى حد، قميصَ عثمان الملطّخ بالدماء. وعامة الناس في الشام لا بد لهم ان يتأثروا بذلك المنظر وبما يسمعوه من كلامٍ عن قتل الخليفة، الشيخ الكبير، الصائم، المظلوم، بغياً على أيدي عصابةٍ من الغوغاء.

كما انه من المرجح أن تكون ذروة الشحن النفسي الذي مارسه معاوية لرجاله بشأن مقتل عثمان قد تأخرت إلى بضعة أشهر من المقتل، حين اتضحت الصورة أكثر لمعاوية، خاصة مع التطورات في البصرة وبدء استعداداته لمعركة صفين.

مجتمع الشام

كان عامة أهل الشام جزءً مهماً من المجتمع العربي الواسع المنتشر حديثاً في الأمصار التي تم فتحها. وكان المجتمع الشامي ـ على خلاف ما تحاول بعض المصادر التاريخية أن تصوره بمظهر القوم الجفاة الذين لا حسّ دينيا لهم ولا يعرفون سوى طاعة معاوية العمياء ـ يمتلك الخصائص العامة للمجتمع المسلم. لا شك أنه كان بينهم مَن يمكن أن يُسموا «القراء» الذين تميّزوا بتدينهم وبتعلقهم برموز الإسلام وحرفية نصوص القرآن. وهؤلاء يناظرون «قراء» الكوفة المشهورين، مع الاختلاف في العدد وفي القدرة على التأثير. وهؤلاء «القراء» كانوا مصدراً مهماً «للشرعية» وخاصة على الصعيد الشعبي بين العامة. وكان معاوية حريصاً على تقديم تبرير «شرعي» لتمرده على عليّ، مهما بدا ذلك التبرير سطحياً أو كاذباً، ولم يكتفِ فقط بممارسة سياسة القوة.

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري ص١٤٢.

وبادر معاوية إلى التهيئة الشعبية الواسعة لحربه المقبلة ضد الخليفة الشرعي. فتشاور معاوية مع عمرو بن العاص حينما قدم جرير بن عبد الله من عند عليّ طالباً منه البيعة، فأشار عليه عمرو بأن يبذل جهده لشراء ذمة شرحبيل بن السمط الكندي وأن يتجنب في هذه المرحلة المبكرة الدعوة العلانية لأهل الشام إلى رد بيعة عليّ لأن الوقت لذلك لم يحن بعد:

«ورأسُ الشام شرحبيل بن السمط الكندي، وهو عدو لجرير المرسل إليك. فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب. وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبدا».

وكانت نصيحة عمرو في غاية الذكاء. فشرحبيل شيخ القبائل اليمانية في الشام، وهو يعرف أن له تأثيراً كبيراً على عامة الناس ولا بد من كسبه بأي وسيلة.

وبالفعل بدأ معاوية في تنفيذ خطة شراء شرحبيل والهيمنة عليه. فأرسل إليه يستدعيه من حمص «لأمرٍ جَلل». وفي نفس الوقت طلب معاوية من مجموعة من أتباعه المقربين، الذين هم من رؤساء القبائل اليمانية وأبناء عمومة شرحبيل، أن يلقوه في الطريق ويخبروه أن علياً قتل عثمان.

فلما وصله كتاب معاوية، استشار شرحبيل أهل حمص في الأمر. وحصل بينهم نقاشٌ وأخذ وردّ. فنصَحَه بعضهم، وخاصة عبد الرحمن بن غنم الأزدي «وكان أفقه أهل الشام»، بأن ينأى بنفسه وبقومه عن حرب عليّ لأنه الخليفة الشرعي «وقد بايعه المهاجرون والأنصار» وطلب منه ألاّ يسير إلى معاوية وأن يجنب قومه الهلاك، بل وطرح عليه فكرة أن يذهب إلى عليّ فيبايعه باسم أهل الشام!

وهذا الموقف يشير إلى أنه كانت في مجتمع أهل الشام شرائح وفئات يمكن لعليّ بن أبي طالب أن يركّز عليها ويستهدفها، فيستميلها عن طريق مخاطبتها مباشرة، وتجاوز معاوية. ولكن علياً لم يفعل، ولم يرغب في أساليب ملتوية لاستقطاب أناسٍ بعينهم.

ولكن شرحبيل لم يكن ليتخذ هكذا قرار دون أن يقابل معاوية ويسمع ما عنده. فقرر التوجه إلى دمشق، حيث وجد معاوية بانتظاره وقد جهّز له كل مظاهر التوقير والتعظيم وأظهر له وداعة ورقة ليس لها نظير، حتى صوّر له نفسه وكأنه السيد ومعاوية التابع:

«لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه.

ودخل على معاوية، فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا شرحبيل! إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة عليّ. وعليّ خيرُ الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان. وقد حبستُ نفسي عليك. وإنما أنا رجلٌ من أهل الشام. أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا»[1].

ولا بدّ من ملاحظة مدى الدهاء في خطاب معاوية. فهو في هذه المرحلة لا يطرح نفسه نداً لعليّ، وإنما هو«رجلٌ من أهل الشام»!

وكان معاوية طبعاً يعرف أن أي زعيم عشائري يوضع في هكذا موقف، لا بد له أن يرجع إلى قومه ليشاورهم. وكان معاوية قد أعد العدة لذلك عن طريق عملائه من أقرباء شرحبيل الذين سيرجع إليهم للتشاور. وفعلا قام شرحبيل يشاور عشيرته في الأمر. وأدّى عملاء معاوية من أقربائه دورهم على أكمل وجه! فهولوا الأمر ـ مقتل عثمان ـ على شرحبيل وأظهروا له ضرورة حرب عليّ وقتلة عثمان، إلى درجة جعلت شرحبيل يعود إلى معاوية مطالباً إياه بحرب أهل العراق! وهكذا نجحت خطة معاوية وعمرو. وانعكست الآية فبدا وكأنّ معاوية فقط يستجيب لضغط شرحبيل وأهل الشام! وهذا النص:

«فخرجَ فلقيه هؤلاء النفر الموطؤون له، فكلهم يخبره أن علياً قتل عثمان بن عفان. فخرج مغضباً إلى معاوية فقال: يا معاوية: أبى الناس إلاّ أن علياً قتل عثمان. ووالله لئن بايعتَ له لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك! قال معاوية: ما كنتُ لأخالف عليكم. وما أنا إلاّ رجلٌ من أهل الشام. قال: فرُدّ هذا الرجلَ إلى صاحبه إذاً. قال:

---

(١) وقعة صفين لابن مزاحم المنقري ص ٤٦.

فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق. وأن الشام كله مع شرحبيل».

وبعد أن حصل كل هذا، وسارت الأمور كما يريد معاوية، كادت الأحوال تنقلب مرة أخرى! فقد حدث لقاءٌ بين الرجلين: شرحبيل وجرير، قبيل عودة الأخير إلى عليّ بجواب أهل الشام. ويروي نصر بن مزاحم أنه في هذا الحوار بينهما كاد جرير أن يقلب أفكار شرحبيل رأساً على عقب، حين أكد له براءة علي من دم عثمان وذكّره بفضله في الإسلام وموضعه من الرسول، فعاد شرحبيل متردداً وقال «لا والله لا أعجلِ في هذا الأمر بشيء وفي نفسي منه حاجة. فاستتر له القوم، ولفّف له معاوية الرجالَ يدخلون إليه ويخرجون. ويعظمون عنده قتل عثمان ويرمون به علياً، ويقيمون الشهادة الباطلة والكتب المختلفة، حتى أعادوا رأيه وشحذوا عزمه».

ويروي نصر بن مزاحم أن معاوية بعدها بعث إلى شرحبيل بن السمط الكندي، أبرز وجوه أهل الشام قائلا له:

«... فسِر في مدائن الشام ونادِ فيهم بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أنَ يطلبوا بدمه.

فسارَ فبدأ بأهل حمص، فقام خطيباً، وكان مأمونا في أهل الشام ناسكا متألها. فقال: يا أيها الناس! إن عليا قتل عثمان بن عفان. وقد غضب له قومٌ فقتلهم، وهزم الجميع وغلب على الأرض فلم يبق إلاّ الشام. وهو واضعٌ سيفه على عاتقه، ثم خائضٌ به غمارَ الموت، حتى يأتيكم أو يحدث الله أمراً. ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجدّوا وانهضوا.

فأجابه الناس إلاّ نسّاك أهل حمص، فإنهم قاموا عليه فقالوا: بيوتنا قبورنا ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى.

وجعل شرحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها. لا يأتي على قوم إلاّ قبلوا ما أتاهم به»[1].

---

(١) هذا النص وما قبله من وقعة صفين لابن مزاحم المنقري ص٤٩ـ ٥٠.

ويظهر من هذا النص أن معاوية، وبمساعد فاعلة من شرحبيل بن السمط، نجح في تصوير عليٍّ لعموم الشاميين بمظهر الغازي القادم إلى الشام فاتحا، وبالتالي نجح في تحريضهم على الدفاع عن ترابهم ونسائهم وعرضهم، فنال منهم تعبئة نفسية كبيرة. وكان هذا نجاحاً عظيماً لمعاوية، وتتويجاً لجهوده العظيمة في حملة دعائية هائلة. فمن المؤكد أن علياً لم يتصرف أبداً كفاتح إزاء مسلمين آخرين «ضالين»، مثلما أثبت ذلك في البصرة، ومثلما سيثبت ذلك لاحقا في النهروان.

*****

وبعد أن نجح معاوية في تأمين تأييد الزعماء القبائليين في الشام، انتقل إلى الشريحة المتديّنة من المجتمع.

ذكر نصر بن مزاحم:

«إن أبا مسلم الخولاني قدم إلى معاوية في أناس من قراء أهل الشام.

فقالوا له: يا معاوية! علامَ تقاتل علياً وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته؟

قال لهم: ما أقاتل عليا وأنا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته. ولكن خبروني عنكم: ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً؟

قالوا بلى.

قال: فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه. قالوا: فاكتب إليه كتاباً يأتيه به بعضنا.

فكتب إلى عليّ هذا الكتاب مع أبي مسلم الخولاني. فقدِم به على عليّ.

فقام أبو مسلم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد.. فإنكَ قد قمتَ بأمر وتوليته. والله ما أحب أنه لغيرك إن أعطيتَ الحق من نفسك. إن عثمان قتل مسلماً محرماً مظلوماً، فادفع إلينا قتلته وأنتَ أميرنا! فإن خالفك أحدٌ من الناس كانت

أيدينا لك ناصرة، وألسنتنا لك شاهدة وكنتَ ذا عذر وحجة»[1].

ويتابع نصر روايته، وفيها أن علياً طلب من أبي مسلم أن يأتيه في الغد ليأخذ الجواب على كتاب معاوية، وأنه بعد ذلك فإن الناس من جماعة عليّ لما علموا بطلب الخولاني تجمعوا وأخذوا يصيحون: كلنا قتلة عثمان!

ويبدو أنه كان هناك إجماعٌ في المعسكر العراقي على رفض سياسة «فرّق تسد» التي يريد معاوية أن يطبقها عليهم، بحيث يجبرهم على أن يفرزوا من بينهم مجموعة يسمونها «قتلة عثمان» ليقوم هو بقتلها بينما يتفرج الباقون عليهم!

كان الناس في المعسكر العراقي بصرختهم «كلنا قتلة عثمان» يعربون عن رفضهم لإعطاء الحق لمعاوية، من حيث المبدأ، في تطبيق الحد الشرعي على من نفّذوا عملية القتل.

فبالإضافة إلى أن معاوية لا يمتلك أية صفة تجيز له أن يكون مسؤولاً عن تطبيق حد شرعي بوجود خليفة عادل، كان هناك إدراك جمعي بأن ما يطلبه معاوية هو المستحيل بعينه. فـ«قتلة عثمان» مصطلح فضفاض وغير محدد! فمن الذي يعرف على وجه الدقة مَن هما الشخصان، أو الثلاثة، أو الستة الذين قتلوا الخليفة في داره في ظل تلك الفوضى؟

وعلى فرض أن القاتل عُرف، فهل يكتفي معاوية بالشخصين أو الأربعة الذين قاموا بعملية القتل، أم أنه سيوسّع الدائرة لتشمل كل من تمرّدوا على عثمان (وهم حوالي الألف) وكانوا في المدينة حين ذاك؟

ومَن يضمن أنه لن يوسّع الدائرة أكثر لتشمل كل مَن كانوا من منتقدي عثمان والمُعيبين عليه؟

وماذا عن مَن لم يكن على انسجام مع عثمان في سياساته كلها؟

---

(١) وقعة صفين لابن مزاحم المنقري ص٨٦

إذن كان هناك إدراكٌ بأن الموافقة على»مبدأ«تسليم القتلة إلى معاوية كان في معناه العملي نقضاً لبيعة عليّ وإنكارا لشرعية خلافته!

فمعاوية يصبح عندئذ في موقع يتيح له أن يضع ما شاء من شروط على عليّ، وأن يطلب منه المستحيلات، وكل ذلك دون أن يكون معاوية قد ألزم نفسه بأي تعهد تجاه عليّ وخلافته، حتى وإن لبّى له كل رغباته!

كان شرط معاوية ذاك في صميمه نوعاً من الاستسلام المطلوب من عليّ، لأن معناه أن يتخلّى عليّ عن أنصاره وعماد حكمه، مقابل ماذا؟ أن يصبح رهينة لمعاوية وجماعته!

ولذلك لم يكن جواب عليّ للخولاني إلاّ تعبيراً عن وحدة موقف، بين الإمام ورعيته، تجاه هذا الأمر الجلل.

روى نصر أن علياً دفع بكتابه الجوابي لمعاوية في اليوم التالي ويقول فيه:
«والله ما أردتُ أن أدفعهم إليك طرفة عين. لقد ضربتُ هذا الأمر أنفه وعينيه، ما رأيته ينبغي لي أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك».

«وأما قولك: ادفع إلينا قتلة عثمان، فما أنت وعثمان؟! إنما أنت رجلٌ من بني أمية، وبنو عثمان أولى بذلك منك! فإن زعمتَ أنك أقوى على دم أبيهم منهم، فادخل في طاعتي ثم حاكم القوم إليّ، أحملك وإياهم على المحجة»[1].

ويذكر نصر أن الخولاني بعدها «خرج بالكتاب وهو يقول: الآن طاب الضراب».

لقد كان معاوية حريصاً على أن يبعث بكتابه إلى عليّ مع قراء الشام لأنه يريدهم هم بالذات أن يكونوا في صفه ويشهدوا له. كان بإمكان معاوية أن يتوقع جواب عليّ وأنصاره. وكان يدرك أن القراء بسذاجتهم لن يفهموا موقف الخليفة عليّ وإصراره على رفض المطلب «البسيط» الذي عرضوه عليه، وأنهم سوف

---

(١) وقعة صفين لابن مزاحم المنقري ص٥٨..

يخرجون بنتيجة أكيدة وهي أن علياً كان ضالعاً في قتل عثمان! وذلك ما حصل من قبل أبي مسلم الخولاني، وذاك ما أراده معاوية.

لم يكن جواب علي لأبي مسلم وقراء الشام تهَوراً ولا عدم خبرة في السياسة. بل كان على العكس تماماً: إدراكاً لخبث المطلب، ووعياً لآثاره المدمرة على خلافته في حال تلبيته.

*****

وما كان لرجل له مثل دهاء معاوية وحسّه السياسي أن يغفل عن الخطر الخارجي الذي قد يتهدد دولته في الشام من قبل الرومان. ولذلك كان لا بد له وهو يتجهز لخوض حرب طاحنة ضد أبناء جلدته من العرب العراقيين أن يأمن خطر الرومان بأي وسيلة. فلَجأ معاوية إلى الموادعة، وقبل أن يدفع لهم نوعاً من الجزية، مقابل تعهدٍ بعدم شنّ هجوم على الشام في تلك الظروف الدقيقة والصعبة على معاوية «وبعَث إلى قيصر بالهدايا فوادَعَه»[1].

وهنا لا بأس من طرح تساؤل جدي حول الحس الامبراطوري لدى معاوية. فمن المُسلم به أن معاوية بن أبي سفيان كان رجل دولة وسياسياً من طراز رفيع، ولكن قراره بالمضي قدماً في حربٍ شاملة ضد الخليفة عليّ الذي يقود جيوش العراق، يلقي ظلالاً من الشك حَول سلامة أولويات معاوية الاستراتيجية. فهو بقراره ذاك كان يعرّض الامبراطورية العربية كلها لخطر الإنهيار. فمعاوية يعرف أكثر من غيره مدى ضخامة وفعالية القوة الحربية الموجودة بأمرته في الشام، وكذلك التي تناظرها، إن لم تزد عليها، في العراق. وبغض النظر عن حجم الخلاف بشأن قتل عثمان، أو حول خلافة عليّ، أو عزل الولاة وغير ذلك من أمور إشكالية، فإنه كان على معاوية أن يدرك أن تلك كلها شؤونٌ عربية داخلية، وهو بالفعل كان يدرك ذلك، وأنه لا يجوز السماح

---

(١) وقعة صفين لابن مزاحم المنقري ص٤٤. وكذلك جاء في الأخبار الطوال للدينوري ص١٥٨ أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يرسل إلى قيصر الروم فيوادعه ويصالحه ويردّ إليه كل أسرى الرومان لديه.

بالمخاطرة بتدمير تلك القوة ذاتياً وبالتالي نقض الانجازات التي تحققت على يد الرسول والخلفاء.

لقد اتخذ معاوية القرار ومضى إلى نهاية الشوط.

وإنّ فشل قيادة الدولة البيزنطية في استغلال الحرب الأهلية الهائلة داخل صفوف أمة العرب، أمرٌ مذهل حقاً. لقد أضاعت تلك القيادة فرصة تاريخية نادرة لاستعادة ما خسرته على مدى ربع قرن من حروبها مع العرب. ولم تذكر المصادر التاريخية أي مبادرات هجومية، ولا حتى ضغوطات، من جانب الرومان أثناء الأشهر الطويلة التي استغرقتها معركة صفين وما تلاها. وإن الأموال والهدايا التي أرسلها معاوية للقيادة الرومانية ليست بأي مقياس ثمناً مناسباً يمكن لتلك القيادة أن تتقاضاه مقابل موقفها الساكن أثناء تلك الظروف العصيبة التي مرت بها أمة العرب.

معركة صِفين

عليّ يصر على الحسم

لم يُظهر عليّ أدنى تردد في سعيه لتحقيق هدفه. كانت إعادة توحيد أمة محمدﷺ تحت قيادة تمتلك شرعية إسلامية، مسألة لا تحتمل المماطلة ولا أنصاف الحلول بنظره. وكان عليّ يعرف أكثر من غيره أن معاوية ومَن معه لا يمكن ان يدخلوا في طاعته، لأن ذلك ببساطة يعني نهاية وجودهم. وفي الواقع لم يكن عليّ يعرض أي صفقة يمكن لرجل مثل معاوية أن يقبلها.

لم يكن هناك أي لبس أو تردّد في ذهن عليّ. فهو يعرف أنه يسير إلى حرب طاحنة، واكنه كان يراها واجباً دينياً، قبل أي شيئ. هو قال عن معاوية وحزبه:

«وقد قلّبتُ هذا الأمرَ بطنه وظهره، فما وجدتني يسعني إلاّ قتالهم أو الجحود بما جاء به محمدﷺ.

فكانت معالجة القتال أهونَ عليّ من معالجة العقاب، وموتاتُ الدنيا أهونَ عليّ من موتات الآخرة»[1].

إذن هو يرى أن ترك معاوية وحزبه يعادل الكفر بكل ما جاء به النبيﷺ. ولم يكن يسعه عمل ذلك.

وهو قد وصف أعداءه مرة فقال لأتباعه:

«إنما تقاتلون الطلقاءَ وأبناءَ الطلقاء، ممن أسلم كرهاً وكان لرسول اللهﷺ حرباً. أعداء السنة والقرآن، وأهل الأحزاب والبدع والأحداث، ومَن كانت بوائقه تتقى، وكان عن الدين منحرفاً. وأكلة الرشا وعبيد الدنيا... وإن منهم لمن شرب فيكم

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٨٠

الحرام وجلد حداً في الإسلام، فهؤلاء قادة القوم ومَن تركتُ ذكرَ مساويه منهم شرٌ وأضر. وهؤلاء الذين لو ولوا عليكم لأظهروا فيكم الغضب واالفخر، والتسلّط بالجبروت، والتطاول بالغضب، والفساد في الأرض. ولاتبعوا الهوى وحكموا بالرشا...»[1].

كان معاوية رجلا عَملياً، يقوم بحسابات الربح والخسارة بدقة، وكان من المؤكد أن علياً، لو أراد، لكان بإمكانه أن يعقد معه صفقة تتضمن اعترافاً من معاوية بشرعية عليّ وخلافته وسلطته على كل بلاد المسلمين، مقابل المحافظة على وضع قيادي لمعاوية في الدولة. كان معاوية سيكتفي من عليّ بإقراره على ولاية الشام، الغنية والقوية، وإطلاق يده فيها. فما دام معاوية سيستمر مسيطراً على مصادر قوته في الشام، المال والرجال، فلا بأس بعدها من الاعتراف بخليفة في المدينة يمتلك»مؤهلات«إسلامية لا تتوفر عند معاوية. لا شك أن هكذا ترتيب كان مناسباً، في حينه على الأقل، لمعاوية الذي كان يدرك أن الظروف لم تتهيأ بعد لإعلان طموحه إلى المنصب الأعلى في دولة المسلمين. وعلى الرغم من البغض الشخصي الذي كان معاوية يكنّه لعليّ، بسبب معارك الإسلام التي خاضها عليّ مع رسول اللهﷺ وكان له فيها الدور الأبرز في مواجهة أبي سفيان وكل الأمويين وما نتج عنها من ثارات لهم تمكنت من نفوسهم، إلاّ معاوية كان حتما قادراً على تجاوز البعد الشخصيِ في الموضوع إذا عُرضت عليه تسوية مقبولة.

طبعاً كان معاوية يتمنى وجود شخص آخر غير عليّ في منصب زعامة الدولة، من بطون قريش غير الهاشمية، والذي سيكون لا شك أقل«مؤهلات» وشرعية من عليّ بكثير وبالتالي أقل قوة منه، إلاّ أن معاوية بحكم طبيعته العملية كان يدرك أن قريبه عثمان قد قتل ولن يعود، وليس هناك أمويّ آخر يمتلك حَداً أدنى من الشرعية لكي يترشح للخلافة. ولذلك كان مضطراً إلى قبول خليفة من غير بني أمية.

كان معاوية يعرف أن عليه الانتظار لفترة أخرى، قد تطول، قبل أن يصرّح بذلك

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٧٨.

الطموح. فكلما مرت الأعوام ازداد المسلمون بُعداً عن العهد النبوي، وقلّ أيضاً عدد الأشخاص الذين يمتلكون شرعية تنبع من ماضٍ مشرف واتصال مباشر مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

فما كان معاوية يحتاجه هو الزمن. ولكن الشرط الأساسي لأي ترتيب مع معاوية كان المحافظة على الوضع القائم. لا بد لمعاوية أن يكون متأكدا أن الخليفة في المدينة، أياً كان هذا الخليفة من شخصيات الصحابة الذين لا زالوا على قيد الحياة، لن يتدخل في عمله وولايته.

والمعضلة الرئيسية هنا هي أن علياً لم يكن يعرض أي شيء على الإطلاق على معاوية. فما كان يصل معاوية من أخبار عليّ كان ينذر بالشؤم والشر بالنسبة له. لم يُظهر عليّ أي احترام لعهد عثمان بن عفان وحكمه وإدارته وترتيباته وسياسته. بل على العكس، عبّر عليّ عن رفضه التام لتوجهات الخليفة المقتول وأعلن عليّ عزمه على نقض سياسة عثمان بن عفان وقراراته! ولا بد أن معاوية قد بلغته أولى إعلانات عليّ الذي كان يعتبر ما فعله عثمان من توزيع القطائع من أموال وأملاك المسلمين على أقربائه وبطانته، ظلماً صارخا وخروجاً على نهج الاسلام وتعاليم الرسول صلى الله عليه وآله. وكان معاوية يعلم أن علياً مصمم على ردّ كل قطائع عثمان إلى المسلمين، بقوله «والله لو وجدته قد تزوّج به النساء وملك به الإماء لرددته. فان في العدل سعة، ومَن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»[1].

ولا يمكن لشخص مثل معاوية، يسيطر على إقليم الشام منذ حوالي العشرين عاما، أن يقبل ببساطة أن يتحول إلى ضحية لا حول لها ولا قوة لسياسة الخليفة الجديد! كان معاوية يعلم أن عليا لن يقبل منه أي حل وسط، فلا شيئ غير التسليم المطلق، وبلا شروط، بسلطة عليّ يمكن أن يُجنب معاوية حربا ضروساً. وهذا ما كان يحتويه كتاب عليّ لجرير بن عبد الله البجلي لمّا أرسله إلى معاوية:

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٤٢.

«أما بعد: فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بـالأمر الجـزم. ثـم خيّره بين حرب مجلّية، أو سلم مخزية. فإن اختـار الحـربَ فانبُـذ إليـه، وإن اختـار السِلمَ فخذ بيعته، والسلام»[1].

بدء التعبئة والحشد

وكان على عليّ أن يسير بجحافل أهل العراق لقتال الشاميين. ولـم تكـن تلـك الخطوة سهلة أبداً، ولم يكن أي قائد بقادر على اتخـاذ مثـل ذلـك القـرار والشـروع بتنفيذه بكل تصميم، سوى شخص من طراز عليّ، لا يعرف في الحق مهادنة.

وأعلمَ عليّ خاصته بقراره الصعب ذاك. وشـجعه مقربـوه، وخاصـة عمـار بـن ياسر وهاشم بن عتبة ومالك الأشتر وزعماء الأنصار مثل قيس بن سعد وخزيمة بـن ثابت وسهل بن حنيف، على المضيّ قدُماً بلا تردد في حربِ أهل الشام.

ولكن علياً سمع أيضاً من بعض أتباعه قلّة من الأصوات المخالفـة، والمتـرددة والداعية إلى المفاوضات مع أهل الشام، بعضها كان متـأثراً بمـا جـرى يـوم الجمـل، وبعضها كان متهيّباً لمواجهة مفتوحة مع الشاميين. ذكر نصر بن مزاحم:

«فقام رجل من بني فزارة يقال له أربد فقال: أتريد أن تسيرنا إلـى إخواننـا مـن أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرتَ بنا إلى إخواننا من اهـل البصـرة فقتلنـاهم؟! كـلا هاالله لا نفعل».

وقال رجل من بني تميم «يا أمير المؤمنين: إنا قد مشينا إليك بنصـيحة فاقبلهـا منا، ورأينا لك رأياً فلا تردّه علينا. فإنا نظرنا لك ولمن معك: أقم وكاتب هذا الرجـل، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام. فإني والله ما أدري ولا تدري لمـن تكـون إذا التقيـتم الغلبة، وعلى مَن تكون الدبرة»[2].

ولكن مثل هذه الأصوات كانت أقلية صغيرة وسط مـوج مـن التأييـد الحاسـم

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص٣١٨. والفصل هو الحكم القطعي، وانبذ إليه أي أعلنه بالحرب.

(٢) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٩٦.

الذي حصل عليه عليّ من عامة أهل العراق، وخاصة الزعماء القبليين منهم، من أمثال عدي بن حاتم الطائي ويزيد بن قيس الأرحبي وحجر بن عدي الكندي وعبد الله بن بديل الخزاعي:

«ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين! إن القوم لو كانوا الله يريدون، أو لله يعملون، ما خالفونا. ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الأسوة، وحُبّاً بالأثرة وضَناً بسلطانهم، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم.

وعلى إحنٍ في أنفسهم، وعداوةٍ يجدونها في صدورهم لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة، قتلتَ فيها آباءهم وإخوانهم.

ثم التفتَ إلى الناس وقال: كيف يبايع معاوية عليا وقد قتل أخاه حنظلة، وخاله الوليد، وجده عتبة، في موقفٍ واحد؟!

والله ما أظن أن يفعلوا، ولن يستقيموا لكم دون أن تقصد فيهم المران، وتقطع على هامهم السيوف، وتنثر حواجبهم بعمد الحديد، وتكون أمور جَمّة بين الفريقين»[1].

ولعب عمار بن ياسر دوراً بناء في حشد التأييد للمسير إلى الشام، فكان يرتجز:

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبي   سيروا فخيرُ الناس أتباعُ علي

وكان عمار يؤكد لعامة الناس على مشروعية قتال معاوية وابن العاص ويقول لهم:

«... والله ما أسلموا ولكن استسلموا. وأسرّوا الكفر حتى وجدوا عليه أعوانا»[2].

وأعلن قيس بن سعد بن عبادة دعم الأنصار اللامحدود لعليّ فقال له[3] «يا أمير

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ١٠٢. والأسوة هي التسوية بين المسلمين في قسمة المال. وتقصد: تكسر. والمران: الرماح الصلبة.

(٢) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص٢١٥.

(٣) وموقف قيس هذا حصل على الرغم من قيام علي، قبل ذلك، بعزل قيس عن ولاية مصر. وهو يدل على مدى

المؤمنين: انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرد. فوالله لجهادهم أحب إليّ من جهاد الترك والروم، لإدهانهم في دين الله، واستذلالهم أولياءَ الله من أصحاب محمدﷺ من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان: إذا غضبوا على رجل منهم حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه! وفيئنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين. قال يعني: رقيق»[1].

وحسم عليّ الأمر، واتخذ القرار التاريخي الصعب، فقام وأعلن لعموم أهل العراق:

«سيروا إلى أعداء الله. سيروا إلى أعداء السنن والقرآن. سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار».

واستجاب العراقيون لدعوة عليّ.

الجيشان يتواجهان

واتخذ علي من النخيلة، قرب الكوفة، معسكراً لقواته، التي تجمعت فيها للإنطلاق إلى الشام. وسار الجيش العراقي بقيادة عليّ من النخيلة إلى الصراة، ثم المدائن، فالأنبار فالرقة إلى أن وصل صفين في شهر ذي الحجة سنة ٣٦. وكان معاوية قد سار بقواته من الشام، بعد أن بلغه خبر مسير عليّ، إلى أن وصل صفين قبل وصول جيش العراق إليها. وكان على مقدمة قواته أبو الأعور السلمي، وعلى ساقته بسر بن أرطأة، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى الميمنة يزيد العبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص.

وتجمع الجيشان أخيراً متقابلين مكتملين في صفين، وهي من خرائب الرومان

أصالة معدن قيس وإخلاصه لعليّ. فهو لم ينظر إلى الجانب الشخصي من قضية عزله عن ولاية مصر، واستمر في تمسكه بالنهج الأنصاري العام المعادي لطلقاء قريش والموالي لرسول اللهﷺ وآله.

(1) هذا الاقتباس وما بعده من وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٩٣-٩٤. والانكماش هو الإسراع والجد. والتعريد هو الفرار والإحجام. والإدهان هو الغش والمصانعة. والقطين: الخدم والأتباع.

القديمة على ضفاف الفرات. وفي تلك المساحة الصغيرة بالذات كانت توجد بالفعل كل قوة العرب على الإطلاق. لقد استنفر الفريقان الشامي والعراقي كل قوتهما وإمكاناتهما واصطفّا متواجهين يستعدان لمواجهة مرعبة لم يسبق لها مثيل. كان أبناء القبائل العربية من كافة أنحاء جزيرة العرب وأطرافها، القيسية واليمانية، يتواجدون موزعين على الفريقين! كانت القبيلة الواحدة يقاتل جزء من أبنائها في صفوف الجيش العراقي والجزء الآخر في صفوف جيش الشام! وحتى تقسيم الفرق والكتائب في صفوف الفريقين كان على أساس قبليّ: فكان لقضاعة الكوفة قائدهم الذي يوازيه من الجانب الآخر قائد لقضاعة دمشق. وهكذا أمر معظم القبائل.

وكانت تعبئة الجيش العراقي (الوضعية القتالية) على النحو التالي[1]:

- الميمنة: تكونت من اليمنيين، كندة، وبالأخص مذحج وهمدان، وكان عليها الأشعث بن قيس، ثم تولى قيادتها عبد الله بن بديل. وكان على رجالة الميمنة سليمان بن صرد الخزاعي.
- الميسرة: تكونت من قبائل ربيعة، وكان عليها عبد الله بن عباس، ومحمد بن الحنفية. وكان على رجالة الميسرة الحارث بن مرة العبدي.
- القلب: تكون أساسا من قبائل مضر الكوفة والبصرة ومن أهل المدينة الأنصار، وكان عليه عليّ، ومعه من خزاعة وكنانة عدد مهم.
- خيل أهل الكوفة: كان عليهم مالك الأشتر وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف
- رجالة أهل الكوفة عليهم عمار بن ياسر، ورجالة أهل البصرة عليهم قيس بن سعد ومعه هاشم بن عتبة.
- وكان القراء موزعين على الوحدات القتالية، وكانوا يتبعون أربعة قادة وهم:

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم، ص ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٣. وهناك روايات تقول أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان على ميمنة معاوية وأن عبيد الله بن عمر بن الخطاب كان على خيله.

عمار بن ياسر وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل ومسعر بن فدكي (قراء البصرة).

- الراية كانت مع عمرو بن الحرث بن عبد يغوث.

وأما جيش الشام فكانت تعبئته على النحو التالي:

- الميمنة: تكونت من قبائل اليمن وقضاعة، وخاصة حِمير. وكان عليها ذو الكلاع الحِميري. وضمت الميمنة كلاً من أهل حمص وأهل قنسرين، الذين كان عليهم زفر بن الحارث.

- الميسرة: تكونت من قبائل يمنية مثل عك، والأزد وبجيلة، وكان عليها حبيب بن مسلمة (القرشي). وضمت الميسرة كلا من أهل الأردن واهل فلسطين، الذين كان عليهم مسلمة بن مخلد.

- القلب: جند دمشق، والقبائل القيسية، وغطفان وهوازن وسليم، وكان عليها معاوية.

- خيل أهل الشام: كان عليها جميعا عمرو بن العاص. وكان على خيل أهل دمشق: أبو الأعور السلمي

- وعلى رجالة أهل دمشق مسلم بن عقبة المري. وعلى رجالة الناس كلها الضحاك بن قيس(القرشي).

- اللواء كان مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد(القرشي).

وبالإضافة إلى هذا التشكيل العسكري الأساسي، قام كل من عليّ ومعاوية بتوزيع الألوية والرايات على كل القبائل المشاركة في جيشيهما.

فمثلاً كان لواء عبد القيس ـ الكوفة مع صعصعة بن صوحان، بينما كان لواء عبد القيس ـ البصرة مع عمرو بن حنظلة. وكان لواء تميم ـ الكوفة مع عمير بن عطارد بينما لواء تميم ـ البصرة مع الأحنف بن قيس، وهكذا في الجانب العراقي.

وفي الجانب الشامي أيضا كانت الألوية قد وزعت على القبائل. فمثلا كان

على قضاعة ـ دمشق حسان بن بحدل الكلبي، بينما كان على قضاعة ـ الأردن حبيش بن دلجة القيني.

التردّد الطويل قبل الاشتباك

كانت فكرة الحرب الشاملة بين الجيشين العربيين مخيفة ومرعبة لكليهما. وعلى الرغم من أن التعبئة الأيدولوجية من كلا الطرفين قد بلغت أوجها، وعلى الرغم من الحماسة الظاهرة للقتال التي كانت تبديها العناصر الأكثر تصميما من الجانبين، إلاّ أنه، ولا شك، كان هناك خوف حقيقي من المواجهة المفتوحة بين الجيشين بكامل طاقتهما. كان أفراد المعسكرين ينظرون إلى بعضهما البعض فيرون بوضوح التكافؤ العسكري الذي كان قائما بكل جلاء. وربما تؤدي مواجهة كهذه إلى الفناء المتبادل. فأكثر الروايات تشير إلى أن عدد أفراد الجيش العراقي كان يتراوح حوالي ال ٩٠ ألفاً ومثلهم كان عدد مقاتلي جيش الشام[1].

وهذا الخوف من الالتحام العسكري التام بين جيشين بهذا الحجم، وهما في النهاية جيشان شقيقان، شاء القادة ذلك أم أبوا، هو ما يفسر الفترة الطويلة جدا التي قضاها الجيشان معسكرين قبالة بعضهما، والتي زادت عن ثلاثة أشهر، قبل بدء المعركة الحقيقية. فالأمر كان خطيراً جداً ويحمل في طياته تهديداً لمستقبل الوجود العربي كله في الشام والعراق. فهذان الجيشان المتقابلان قاما بالفعل بإلحاق الهزيمة بجيوش فارس والروم خلال ربع قرن من الزمان. كانت المواجهة الشاملة بينهما تعني المجازفة بكل ما انجزته أمة العرب من فتوح عظيمة وتوسع كبير، لذا فالتردد والحذر كان أمراً طبيعيا. والتمهّل يشير إلى إدراك القيادتين لذلك.

وخلال تلك الفترة الطويلة كانت المراسلات تدور بين قيادة عليّ ومعاوية. ولكنها لم تحمل أي شيء جديد. فكلٌ منهما يكتفي بتكرار مواقفه ومطالبه التي يصر

---

(١) يقدر هشام جعيط في «الفتنة»ص١٩٩، بعد تحليله لكل الروايات الواردة حول عدد المقاتلين من الجانبين ولظروف ذلك الزمان، أن جيشي الشام والعراق كانا متعادلين، ب ٧٠ ألفا لكل منهما.
وذكر المسعودي في التنبيه والإشراف ص٢٥٦ أن جيش عليّ كان ٩٠ ألفا، وانه كان مع معاوية ١٢٠ ألفا.

على أنها عادلة. كانت القيادتان حريصتين على أن تظهر كل منهما، أمام جنودها ومقاتليها على الأقل، بمظهر الراغبة في تجنب حرب إبادة لأمة العرب. ولذلك كان الاهتمام من قبل كل من عليّ ومعاوية بتفنيد حجج الطرف الآخر وبيان بطلانها، كبيرا. وكان هناك حرص أيضا على «إشهاد الشهود» على ما يعلنه كل منهما.

وطبعا كانت فترة الأشهر الثلاثة مناسبة أيضاً لكي يُظهر كل طرف تصميمه وحُسن استعداده. وكانت تحصل بشكل يومي مواجهات محدودة تقوم بها فرق معينة من الجانبين. وكانت هناك الكثير من الدعوات الفردية للقتال والبراز يقوم بها فرسان من هنا وهناك لإظهار الشجاعة وإرهاب الخصم. وكانت تحصل مناورات عسكرية يقوم بها الخيالة تستهدف هدفاً معينا من الجيش المقابل، شخص مشهور، أو قبيلة معينة أو ما شابه. وكان الرماة يتبادلون التراشق بالنبال في بعض الأحيان.

وفي غالب الأحيان كانت تلك المناوشات تنتهي بالتحاجز فيما بينهما، دون خسائر كبيرة. وقد عبّر الدينوري عن ذلك بقوله:

«يزحف بعضهم إلى بعض، فيحجز بينهم القراء والصالحون، فيتفرقون من غير حرب، حتى فزعوا في هذه الثلاثة الأشهر خمساً وثمانين فزعة. كل ذلك يحجز بينهم القراء»[1].

بدء القتال

وبعد انتهاء الأشهر الحرم، تزايدت حدة المواجهات بين الفريقين. وأرسل عليّ منادياً يصيح في معسكر معاوية:

«إنا أمسكنا لتنصرم الأشهر الحرم، وقد تصرمت. وإنا ننبذ إليكم على سواء. إن الله لا يحب الخائنين»[2].

وبدأ القتال الفعلي بين الجيشين، ولكنه حتى تلك اللحظة كان لا زال محدوداً

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٧٠.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٧١.

في حجمه. ولم ينخرط فيه كل الجيشين بعد. فكانت الكتائب يقودها قادة بارزون تواجه مثيلتها من الطرف الآخر ويدور بينها قتال طاحن يسفر عن مقتل الكثيرين. ثم تتوقف المعارك لتعاود الحدوث على أيدي كتائب أخرى تخوض معارك شرسة، فيها كرّ وفرّ ضد نظيرتها. وفي بعض الأيام كانت الكفة تميل إلى الجانب العراقي، وفي أيام أخرى إلى الجانب الشامي. ولم يحصل تفوق ساحق لأيهما.

والنص التالي يظهر كيف كان معاوية وقيادته حريصاً على إظهار الجانب الدفاعي في موقف أهل الشام، أمام عامة المقاتلين. فقد قام أحد قيادات معاوية، يزيد بن أسد البجلي، يخطب في الناس يوم صفين:

«... ثم قد كان مما قضى الله أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض. والله يعلم أني كنتُ لذلك كارهاً، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا، ولم يتركونا نرتاد لأنفسنا، وننظر لمعادنا حتى نزلوا بين أظهرنا، وفي حريمنا وبيضتنا.

وقد علمنا ان في القوم أحلاماً وطغاماً، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ونسائنا. وقد كنا نحب ألاّ نقاتل أهلَ ديننا، فأخرجونا حتى صارت الأمور إلى ان قاتلناهم كراهية، فإنا لله وإنا إليه راجعون...»[(١)].

وشن عمار بن ياسر هجوماً تحريضياً شديداً ضد شخص معاوية:

«يا أهل الإسلام: أتريدون أن تنظروا إلى مَن عادى الله ورسوله، وجاهَدَهُما، وبغى على المسلمين وظاهر المشركين، فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله، أتى النبيَّ فأسلمَ وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسولهﷺ وإنا لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم؟

ألا وإنه معاوية. فالعنوه، لعَنه الله. وقاتلوه، فإنه ممن يطفئ نور الله ويظاهر أعداء الله»[(٢)].

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم، ص٢٤٢.

(٢) وقعة صفين لنصر بن مزاحم، ص٢١٤.

وخَطبَ عمار بن ياسر أيضاً يحمّس مقاتلي الجيش العراقي أثناء المعركة:

«إن عماراً قال يومئذ: مَن يبتغي رضوان ربه ولا يلوي إلى مال ولا ولد؟ فأتته عصابة من الناس.

فقال: أيها الناس! اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبتغون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوماً. والله ما قصدهم الأخذ بدمه ولا الأخذ بثأره. ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحلوها واستمروا الآخرة فقلوها. وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم وشهواتهم. ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم. ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات، وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله. فخدعوا أتباعهم بقولهم إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً. وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون. ولولا ذلك ما تبعهم من الناس رجلان، ولكانوا أذل وأخس وأقل. ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين. فسيروا إلى الله سَيراً جميلاً واذكروا ذِكراً كثيراً.

... رأيتُ عماراً يوم صفين شيخا كبيراً، آدمَ طوالاً، أخذ الحربة بيده ويده ترعد.

فقال: والذي نفسي بيده! لقد قاتلتُ بهذه الراية مع رسول الله ثلاث مرات، وهذه الرابعة. والذي نفسي بيده! لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفتُ أننا على الحق وأنهم على الضلالة!

... ورأيتُ عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صفين إلاّ اتبعه مَن كان هناك من أصحاب رسول الله.

ورأيته جاء إلى هاشم بن عتبة، وهو صاحب راية عليّ، فقال: يا هاشم تقدم! الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في اطراف الأسنة. وقد فتحت أبواب الجنة وتزينت الحور العين:

اليومَ ألقى الأحبّه ... محمداً وحِزبَه

ثم حملا هو وهاشم فقتلا، رحمهما الله تعالى»[1].

*****

وكان قتل عمار بن ياسر من أعظم الأمنيات التي تحققت لبني أمية. لقد جعلوا قتل عمار من أولويات أهدافهم. وكان ابتهاجهم بقتله عظيماً، وكان عملاؤهم وأتباعهم الباحثون عن الغنائم يدركون ذلك. فتنازع عدة أشخاص «شرف» قتل عمار![2].

*****

إذن تلقى الجانب العراقي ضربة موجعة في تلك المعارك حين قتل عمار بن ياسر وهاشم بن عتبة، ومن بعدهما عبد الله بن بديل الخزاعي.

وكان عبد الله بن بديل، وهو يقود ميمنة عليّ، قد استبسل في القتال بنفسه وكان يحمّس جنوده ويضرب لهم المثل في البطولة، ويلقي فيهم الخطب المؤثرة:

«إن عبد الله بن بديل قام في أصحابه فقال:

إن معاوية ادّعى ما ليس له. ونازعَ الأمرَ أهله ومَن ليس مثله. وجادل بالباطل ليدحض به الحق. وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزين لهم الضلالة وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمر وزادهم رجسا إلى رجسهم.

وأنتم والله على نور من ربكم وبرهان مبين.

قاتلوا الطغام الجفاة ولا تخشوهم. وكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبروز (أتخشونهم؟ فالله أحق ان تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفِ صدور قوم مؤمنين)

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٢٩٧. وقريبٌ من ذلك رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص٢٥٧.

(٢) وتوارث الأمويون الفرحة بقتل عمار جيلا بعد آخر! فقد روى ابن حبيب البغدادي في المحبر ص٢٩٦ أنهم كانوا يسمون قتل عمار «فتح الفتوح»! وأن أحد الذين قتلوا عمار من الذين طال عمرهم كثيرا، ويدعى «أبو الغادية» قد أقبل على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، فاستأذن للدخول عليه، وقال للحاجب بكل فخر: قل له هذا أبو الغادية قاتل عمار!

وقد قاتلتهم مع النبيﷺ. والله ما هم في هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر.

قوموا إلى عدو الله وعدوكم»[1].

وشنّ حملة شديدة على ميسرة أهل الشام، وكان مصمماً على قتل معاوية ذاته. وفعلاً اقترب منه بقواته، فوجد معاوية نفسَه في وضع صعب إلى أن أنقذه حبيب بن مسلمة ورجاله،الذين شنوا حملة معاكسة أرجعت قوات العراق إلى قواعدها. ولكن ابن بديل رفض التراجع وثَبَتَ في موقعه المتقدم والقريب من معاوية ومعه مائة من قراء العراق. فحوصر معهم من قبل جيش ابن مسلمة، فلم يستسلموا بل استبسلوا، ولم يستطع جيش معاوية القضاء عليهم بالقتال والمواجهة، بل قذفوهم بالحجارة عن بُعد إلى أن قتلوا[2].

وفي المقابل تعرض معاوية لخسارة قاسية حين قتل قائده العسكري الفذَ والبارز، والفارس المشهور: ذو الكلاع الحِميري.

وكان ذو الكلاع قد ألقى خطبة مهمة قبيل مقتله، بطلبٍ من معاوية، توضح بجلاء الفلسفة الدعائية التي استند إليها معاوية، ولم يملّ من تكرارها أمام جنوده بشكل متواصل، من أجل استمرار ثباتهم. وفيها أربع نقاط:

«... لم أرَ يسعني أن يُهدر دم عثمان، صهر رسول اللهﷺ نبينا.... فإن كان أذنبَ، فقد أذنب مَن هو خيرٌ منه وقد قال الله عز وجل لنبيه: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر...

.... إنا لنعلم إنه قد كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله. فإن لم يكن مالأ على قتل عثمان فقد خذله...

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص٢٣٤. وكذلك خطبة ذي الكلاع التي تليها في ص٢٤٠.

(٢) وهذا الاستبسال الذي أظهره ابن بديل ليس غريباً. فأخوه الأكبر، نافع بن بديل الخزاعي كان من ضمن الصفوة من أصحاب النبيﷺ الذين بعثهم إلى أهل نجد فغدروا بهم وقاتلوهم حتى استشهدوا عن بكرة أبيهم في بئر معونة قبل حوالي ٣٣ سنة. ذكر ذلك ابن اسحق في سيرة ابن هشام ج٣ ص١٧١.

... ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا في شامكم وبلادكم...

.. فإني سمعتُ عمر بن الخطاب يقول سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنما يُبعث المقتتلون على النيات».

وقتل حوشب ذو ظليم، قائد رجّالة حمص.

وايضاً كانت خسارة معاوية كبيرة بمقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، أحد عناصر التعبئة والدعاية المهمة له.

وعلى الرغم من كل ذلك القتال الشديد:

«كان أهل العراق وأهل الشام أيام صفين إذا انصرفوا من الحرب، يدخل كل فريق منهم في الفريق الآخر فلا يعرض أحدٌ لصاحبه. وكانوا يطلبون قتلاهم، فيخرجونهم من المعركة ويدفنونهم»[1].

قتالُ ليلة الهرير

وتصاعدت حدة القتال إلى أن وصلت إلى المواجهة الشاملة والالتحام الكلي بين الجيشين:

«وإن علياً رضي الله عنه أشاع أنه يخرج إلى أهل الشام بجميع الناس، فيقاتلهم حتى يحكم الله بينه وبينهم.

ففزع الناس لذلك فزعا شديداً. وقالوا: إنما كنا إلى اليوم تخرج الكتيبة إلى مثلها، فيقتتلون بين الجمعين. فإن التقينا بجميع الفيلقين فهو فناء العرب.

وقام عليٌ في الناس خطيباً فقال: ألا إنكم ملاقو القومَ غداً بجميع الناس. فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا قراءة القرآن، وسلوا الله الصبر والعفو، والقوهم بالجد»[2].

وكانت الذروة في ما يعرف بليلة الهرير:

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٧٩.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٧٩.

«وكانت ليلة الجمعة: تقصفت الرماح ونفذت النبال، وصار الناس إلى السيوف.

وعليٌّ رضي الله عنه يحرض القبائل، ويتقدم عليهم يأمر بالصبر والثبات وهو أمام الناس في قلب الجيش، وعلى الميمنة الأشتر، تولاها بعد قتل عبد الله بن بديل عشية الخميس ليلة الجمعة ـ وعلى الميسرة ابن عباس، والناس يقتتلون من كل جانب.

فذكر غير واحد من علمائنا علماء السيرـ أنهم اقتتلوا بالرماح حتى تقصفت، وبالنبال حتى فنيت وبالسيوف حتى تحطمت. ثم صاروا إلى أن تقاتلوا بالأيدي والرمي بالحجارة والتراب في الوجوه، وتعاضوا بالأسنان يقتتل الرجلان حتى يثخنا ثم يجلسان يستريحان وكل واحد منهما يهمر على الآخر ويهمر عليه ثم يقومان فيقتتلان كما كانا....

ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك. وصلى الناس الصبح إيماءً وهم في القتال حتى تضاحى النهار...»[(١)].

وقد وصف ابن قتيبة قتال ليلة الهرير «ثم اقتتلوا حتى تكسرت الرماح، وتقطعت السيوف وأظلمت الأرض من القتام وأصابهم البهر[(٢)]، وبقي بعضهم ينظر إلى بعض بهيراً.........»[(٣)].

قال هشام جعيط بشأن قتال ليلة الهرير:

«كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية. وإنهم لحديثو عهد بها. فالتقوا في الإسلام وفيهم بقايا تلك الحمية (الغضب في القتال لأجل العرض والدم)، وعند بعضهم بصيرة الدين والإسلام.

فتصابَروا واستحيوا من الفرار حتى كادت الحرب تبيدهم. إن مفاهيم الحميّة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٣٠٢.

(٢) القتام هو الغبار والبهر هو انقطاع النفس أو تتابعه من الإعياء.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٤٤.

والأحساب والدين كانت المحركات المستبطنة في كل رجل، لمعركة متساوية عدداً، لا يمكنها أن تؤدي إلى غالبٍ أو مغلوب. إنها معركة أبطال، حيث لم يكن أحدٌ يُظهر استعدادَه للتراجع ولو قيْد انملة، وحيث كان كل واحد يضع حياته في الميزان، وحيث كانت تتضافر خصال العروبة والإسلام القتالية الكبرى.

إن الحماس الشديد والمقاومة في المعارك، باسم الدين، كانا فقط وقفاً على أقلية. وإن السواد الأعظم من المقاتلين اضطر في نهاية المطاف أن ينهل من قيم الشرف والعرض في الجاهلية، التي مقتها الإسلام. إن بعض الصور في وقعة صفين تظهر الرجوع إلى»النداء بالأحساب«وهو مفهومٌ يختلط فيه النسب واللقب والشرف بطريقة طقوسية. يتعلق الأمر بتراجع ونكوصٍ بالنسبة إلى الروح الإسلامية. لكنهم وصلوا إلى ذلك الحد»[1].

والنص التالي يوضح كيف اضطر أبناء القبيلة الواحدة، الموزعين على الجانبين، إلى الاقتتال فيما بينهم:

«إن عبد الله بن حنش الخثعمي، رأس خثعم الشام، أرسل إلى أبي كعب الخثعمي، رأس خثعم العراق: إن شئت تواقفنا فلم نقتتل. فإن ظهر صاحبكم كنا معكم، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا. ولا نقتل بعضنا بعضاً.

فأبى أبو كعب ذلك.

فلما التقت خثعم وخثعم وزحف الناس بعضهم إلى بعض، قال عبد الله بن حنش لقومه: يا معشر خثعم! إنا قد عرضنا على قومنا من أهل العراق الموادعة، صلة لأرحامها، وحفظا لحقها، فأبوا إلاّ قتالنا. وقد بدؤونا بالقطيعة. فكفوا أيديكم عنهم حفظاً لحقهم أبداً ما كفوا عنكم. فإن قاتلوكم فقاتلوهم.

فخرج رجل من أصحابه فقال: إنهم قد ردوا عليك رأيك، وأقبلوا إليك يقاتلونك.

---

(١) «الفتنة» لهشام جعيط ص٢٠١.

ثم برز. فنادى رجل: يا أهل العراق!

فغضب عبد الله بن حنش فقال: اللهم قيض له وهب بن مسعود ـ يعني رجلاً من خثعم الكوفة، كان شجاعاً يعرفونه في الجاهلية، لم يبارزه رجل قط إلاّ قتله ـ فخرج إليه وهب بن مسعود. فقتله.

ثم اضطربوا ساعة. واقتتلوا أشد القتال.

فجعل أبو كعب يقول لأصحابه: يا معشر خثعم! خدّموا (أي اضربوا موضع الخدمة، وهي الخلخال، يعني اضربوهم في سوقهم).

فناداه عبد الله بن حنش: يا أبا كعب! الكل قومك فأنصف.

قال: أي والله وأعظم.

واشتد قتالهم.

فحمل شمر بن عبد الله الخثعمي، من خثعم الشام، على أبي كعب فطعنه فقتله. ثم انصرف يبكي ويقول: يرحمك الله أبا كعب! لقد قتلتك في طاعة قومٍ أنتَ أمسّ بي رحماً منهم، وأحب إليّ منهم نفساً.

ولا أرى قريشاً إلاّ وقد لعبت بنا.

ووثب كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه، فأخذها. ففقئت عينه وصرع.

ثم أخذها شريح بن مالك الخثعمي. فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو ٨٠ رجلا، وأصيب من خثعم الشام مثلهم»[1].

وأورد نصر بن مزاحم أخباراً كثيرة عن أشخاص من الجانبين اضطروا إلى مبارزة أو مواجهة إخوان لهم، أو أبناء عم أو أقرباء غير بعيدين، وروى كيف كان البعض منهم يتراجعون في اللحظة الأخيرة، بينما مضى آخرون إلى النهاية وقتلوا

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٥ ص٢٠٥. وكذلك يمكن الرجوع إلى ج٥ ص٢٤٩ و ص٣٤٠ وفيها المزيد عن نداءات القبائل العربية لبعضها أثناء المعركة.

بعضهم البعض. وفيما يلي نص يوضح مشاعر قبيلة الأزد العراقية لما وجدت نفسها في مواجهة قبيلة الأزد الشامية، كما عبر عنها مخنف بن سليم:

«إن من الخطب الجليل والبلاء العظيم أنا صُرفنا إلى قومنا وصُرفوا إلينا. فوالله ما هي إلاّ أيدينا نقطعها بأيدينا! وما هي إلاّ أجنحتنا نحذفها بأسيافنا. فإن نحن لم نفعل، لم نناصح صاحبنا، ولم نواسِ جماعتنا. وإن نحن فعلنا فعزّنا أبحنا ونارَنا أخمدنا»[1].

ويمكن بكل يسر فهم أسباب تلك الحيرة المأساوية في كلام مخنف. فإن هم مضوا في المواجهة قتلوا إخوانهم وأقرباءهم، وإن هم نكصوا يكونوا قد خانوا إمامهم وقائدهم!

والنتيجة كانت أنهم اضطروا للقتال، وذكر نصر أسماء عدد من ضحايا تلك المواجهة بين جناحي قبيلة الأزد.

وهكذا كان القتال في ذلك اليوم شرساً، وقاسياً، ومأساوياً. والصورة التي أوردها ابن أبي الحديد حول الرجل الخثعمي الذي يقتل قريبه من أهل العراق ثم ينصرف وهو يبكي حزناً عليه، حقيقية بلا شك، وربما تكررت كثيراً في ذلك اليوم.

ورغم ذلك كله فإن تصميم عليٍّ على مواصلة القتال لم يتزعزع، وإرادته لم تضعف:

«ثم إن علياً قام من صبيحة ليلة الهرير في الناس خطيباً فحمد الله واثنى عليه ثم قال: أيها الناس! إنه قد بلغ بكم وبعدوكم الأمر إلى ما ترون. ولم يبقَ من القوم إلاّ آخر نفس. فتأهبوا رحمكم الله لمناجزة عدوكم غداً، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. وهو خير الحاكمين»[2].

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص٢٦٢_٢٦٣.
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٤٤.

عدد القتلى في معركة صفين

ذكر خليفة بن خياط والمسعودي ونصر بن مزاحم أن قتلى معركة صفين كانوا سبعين ألفا، منهم ٤٥ ألفا من أهل الشام و٢٥ ألفا من أهل العراق[1].

وكذلك أورد البلاذري نفس هذه الأرقام عن الخسائر. وأما صاحب الإمامة والسياسة فذكر أن عدد القتلى الإجمالي تجاوز المئة ألف من الطرفين[2].

وتبدو هذه الأرقام التي أوردها خليفة والبلاذري غير دقيقة، وتميل إلى تضخيم خسائر الجانب الشامي. والأرجح أن يكون العدد الإجمالي للقتلى هو بحدود السبعين ألفا من الجانبين، وموزعين بالتساوي تقريبا بينهما. أو ربما تكون خسائر الجانب الشامي أكبر قليلا من خسائر العراقيين، ولكن ليس بنسبة كبيرة كما توحي بذلك نسبة ٤٥:٢٥

وهكذا وصلت حمى القتل إلى ذروتها، وبلغ جنون الموت حدّه الأقصى. فأرقام الخسائر هذه هائلة ومذهلة بكل المقاييس. وحتى لو لم يصل العدد الحقيقي للقتلى إلى مائة ألف، أو سبعين ألف، وحتى لو كان العدد أربعين ألفاً أو ثلاثين، فذلك لا يغير من حقيقة أن الأمر تحوّل إلى مقتلةٍ رهيبة يمارسها أبناء قبائل العرب بحق بعضهم بعضاً.

وللمقارنة فقط، لا بدّ من تذكّر أن رسول اللهﷺ في حروبه وغزواته على مدى ثلاثة عشر عاماً، وحّد خلالها أمة العرب كلها، لم يفقد من أتباعه وأنصاره سوى بضع مئات! ولو أضيف إليهم عدد القتلى من اعدائه أيضاً فربما يصل العدد الإجمالي للقتلى في حروب الرسولﷺ إلى بضعة آلاف في أعلى تقدير.

وها هي أمة العرب تفقد خلال أيامٍ معدودة عشرات الآلاف من ابنائها في قتالٍ داخليّ رهيب.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط العصفري ص١٤٦. ونفس هذه الأرقام ذكرها المسعودي في التنبيه والإشراف ص٢٥٦. وأيضاً ذكرها نصر بن مزاحم في وقعة صفين ص٥٥٨.

(٢) من «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم ص٢٧٠ نقلا عن البلاذري والإمامة والسياسة.

بل إنه ربما لم تفقد أمة العرب خلال حروبها التي هزمت فيها امبراطوريتي فارس والرومان على مدى سنوات طويلة مثل هذا العدد من القتلى.

كان الأمر رهيباً، والمأساة فظيعة. فكان لا بد أن يحدث شيئ ليوقف هذا النزف.

وحصل ذلك بالفعل، ولكن على حساب عليّ بالذات!

الجيش الشامي يدعو إلى السِلم: «يا أبا الحسن! مَن لذرارينا من الروم إن قتلتنا؟».

هناك إجماعٌ بين كل المؤرخين على أنه لما احتدم القتال وتساقط القتلى بعشرات الألوف، أمر معاوية وعمرو بن العاص جنودهما برفع المصاحف على رؤوس الرماح والصراخ على أهل العراق مطالبين بوقف القتال وبتحكيم كتاب الله بين الطرفين.

وهذه رواية اليعقوبي:

«وزحف أصحاب علي وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً، حتى لصقوا به، حتى دعا معاوية بفرسه لينجو به.

فقال له عمرو بن العاص: إلى أين؟

قال: قد نزل ما ترى. فما عندك؟

قال: لم يبقَ إلاّ حيلة واحدة: أن ترفع المصاحف فتدعوهم إلى ما فيها، فتستكفهم وتكسر من حدهم وتفت في أعضادهم.

قال معاوية: فشأنك.

فرفعوا المصاحف ودعوهم إلى التحكيم فيما بعد. وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله!».

وهذه رواية ابن كثير:

«وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام.

وذلك ان الأشتر النخعي صارت إليه إمرة الميمنة، فحمل بمن فيها على أهل

الشام وتبعه عليّ، فتنقضت غالب صفوفهم وكادوا ينهزمون، وعند ذلك رفعَ أهلُ الشام المصاحفَ فوق الرماح وقالوا: هذا بيننا وبينكم! قد فني الناس فمَن للثغور؟....

إن الذي أشار بهذا هو عمرو بن العاص، وذلك لما رأى ان أهل العراق قد استظهروا في ذلك الموقف.... فقال إلى معاوية: إني قد رأيتُ أمراً لا يزيدنا هذه الساعة إلاّ اجتماعا ولا يزيدهم إلاّ فرقة!

أرى أن نرفع المصاحف وندعوهم إليها. فإن أجابوا كلهم إلى ذلك بَرَدَ القتالُ. وإن اختلفوا فيما بينهم فمن قائل نجيبهم وقائل لا نجيبهم، فشلوا وذهب ريحهم...»[1].

وروى الدينوري:

«... وبلغ ذلك معاوية. فقال لعمرو: ما ترى؟ فإنما هو يومنا هذا وليلتنا هذه. فقال عمرو: إني قد أعددتُ بحيلتي أمراً أخرته إلى هذا اليوم. فإن قبلوه اختلفوا وإن ردوه تفرقوا. قال معاوية: فما هو؟ قال عمرو: تدعوهم إلى كتاب الله حكما بينك وبينهم. فإنك بالغ به حاجتك.

قالوا: وإن الأشعث بن قيس قال لقومه وقد اجتمعوا إليه: قد رأيتم ما كان في اليوم الماضي من الحرب المبيرة. وإنا والله إن التقينا غدا، إنه لبَوار العرب وضَيعة الحرمات.

قالوا: فانطلقت العيون إلى معاوية بكلام الأشعث. فقال: صدق الأشعث. لئن التقينا غدا ليميلنّ الروم على ذراري أهل الشام، وليميلن دهاقين فارس على ذراري أهل العراق. وما يُبصر هذا الأمرَ إلاّ ذوو الأحلام. اربطوا المصاحف على اطراف القنا....

فنادوا: يا معشر العرب! الله الله في نسائكم وأولادكم من فارس والروم غدا.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٣٠٢.

فقد فنيتم. هذا كتاب الله بيننا وبينكم»[1].

وفي رواية الإمامة والسياسة «إن معاوية أمر أهل الشام أن ينادوهم. فنادوا في سواد الليل نداء معه صراخ واستغاثة، يقولون: يا أبا الحسن! مَن لذرارينا من الروم إن قتلتنا؟ الله الله! البقيا! كتاب الله بيننا وبينكم»[2].

وفي رواية الطبري أن عمرو بن العاص قال لمعاوية «نرفع المصاحف ثم نقول ما فيها حكمٌ بيننا وبينكم. فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدتَ فيهم مَن يقول: بلى. ينبغي أن نقبل. فتكون فرقة. وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجَل»[3].

وليس هناك من فكرة يمكن أن تكون أكثر ذكاءً ودهاءً من هذه. فبهذه الدعوة العلنية إلى السلام يضرب معاوية عدة عصافير بحجر واحد:

- فهو أولاً يسعى إلى المحافظة على جيشه وقواته، ودرء خطر الإبادة عنها.
- وهو يسعى إلى الظهور أمام عامة المسلمين، من الجانبين الشامي والعراقي، بمظهر الداعي إلى السلام، والحريص على تجنب الفناء المتبادل بين أبناء أمة العرب.
- وهو يهدف إلى زرع بذور الشقاق داخل صفوف الجانب العراقي، عن طريق خلق خلاف بين مَن تعبوا من هَول المعركة وكثرة القتل، وبين مَن يعطون الأولوية لإنجاز المهمة التي خرجوا أساساً من أجلها وهي إلحاق الهزيمة بمعاوية وجيشه.
- وهو أخيراً يسعى إلى حشر عليّ في زاوية ضيقة إن هو أصرّ على مواصلة الضغط العسكري والاستمرار في الحرب. فكيف سيفسّر شخصٌ مثل عليّ

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص١٩٢.
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٤٤.
(٣) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٤.

لقواته وجنوده رفضَه قبولَ عرضٍ لتحكيم «كتاب الله»؟! ألن يظهر عليّ حينذاك بمظهر اللامبالي بمصلحة عامة المسلمين، الرافض لحكم القرآن، المصمم على مواصلة طريق الموت والفناء؟!

شِقاقٌ في الجيش العراقي: وقف القتال

وحصل ما أراده معاوية. يتابع اليعقوبي روايته ويصف الأجواء في الجانب العراقي بعد دعوة الشاميين إلى تحكيم القرآن:

«فقال عليّ: إنها مكيدة! وليسوا بأصحاب قرآن.

فاعترض الأشعث بن قيس الكندي، وقد كان معاوية استماله وكتبَ إليه ودعاه إلى نفسه. فقال: لقد دعا القوم إلى الحق!

فقال علي: إنهم إنما كادوكم، وأرادوا صرفكم عنهم!

فقال الأشعث: والله لئن لم تجبهُم انصرفتُ عنك!

ومالت اليمانية مع الأشعث. فقال الأشعث: والله لتجيبنهم إلى ما دَعوا إليه أو لندفعنك إليهم برمتك!

فتنازع الأشتر والأشعث في هذا كلاماً عظيماً، حتى كاد أن يكون الحرب بينهم، وحتى خاف عليّ أن يفترق عنه أصحابه. فلما رأى ما هو فيه أجابهم إلى الحكومة.»[1].

عليّ يجد نفسَه في الدوامة: ما الذي حصل بالضبط في الجانب العراقي؟

واضحٌ من النص أعلاه كيف أن الأشعث بن قيس الكندي[2] لعب دوراً سلبياً

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٨٩. وفي رواية تاريخ الطبري ج٤ ص٣٤ أن مسعر بن فدكي وزيد بن الحصين هما اللذان قالا لعلي «... وإلاّ ندفعك برمتك إلى القوم...» وأن علياً اضطر أن يبعث إلى الأشتر النخعي ويوقف حملته على معسكر معاوية في لحظات حرجة، حين كان على وشك الظفر.

(٢) والأشعث بن قيس هذا كان قد ارتدّ عقب وفاة الرسولﷺ، إلى أن قاتله زياد بن لبيد الذي كان والي اليمن حينها،فلجأ وجماعته إلى حصن النجير في اليمن إلى أن استسلموا بعد حصارهم. ذكر ذلك البلاذري في فتوح البلدان ج١ ص١٢١.

في غاية الخطورة أثناء المعركة. وكان بحكم وضعه القبلي في موقع يؤهله للضغط على الإمام عليّ من أجل وقف فوري للقتال والاستجابة إلى نداء أهل الشام. فليس بوسع أي قائد مسؤول أن يغامرَ بانشطار جيشه إلى قسمين، أحدهما يستمر بالقتال والآخر يضع السلاح! بدا للإمام عليّ أن ذلك هو ما سيحصل إذا واصل إصدار أوامره للأشتر النخعي باستمرار التقدم. كان الأشعث بن قيس يستغل الإنهاك العام الذي لا بد وأصاب كل أفراد الجيش بسبب شدة القتال وضخامة الخسائر في الجانبين. كانت فرصة ذهبية استغلها الأشعث في أحرج اللحظات من أجل التعبير عما يختلج بصدره منذ قدِم عليّ إلى الكوفة من غضبٍ شديدٍ ناتج عن ما يعتبره »سوء «معاملة «من قبل عليّ له.

يروي نصر بن مزاحم أنه لما بويع عليّ بالخلافة كان الأشعث عاملاً لعثمان بن عفان على أذربيجان[1]، وأنه كانت بينه وبين عثمان علاقة مصاهرة حيث كان عمرو بن عثمان قد تزوج ابنة الأشعث بن قيس قبل ذلك. وأن الإمام عليّ كتب له حين قدم الكوفة:

«أما بعد، فلولا هَنّات كنّ فيكَ كنتَ المقدم في هذا الأمر قبل الناس، ولعل أمركَ يحمل بعضه بعضاً إن اتقيتَ الله... وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه أمانة. وفي يديك مال من مال الله وأنت من خزان الله عليه حتى تسلمه إليّ. ولعلي ألاّ أكون شر ولاتك لك إن استقمتَ. ولا قوة إلاّ بالله»[2].

وقد أثار قرار عزله والتشكيك بذمته المالية غضب الأشعث بن قيس إلى حد دفعه إلى التفكير في خيانة عليّ والانضمام إلى معاوية! يتابع نصر بن مزاحم روايته:

---

(١) وذكر الدينوري في الأخبار الطوال ص١٥٦ عن الأشعث بن قيس واذربيجان «وكانت ولايته مما عتب الناس فيه على عثمان، لأنه ولاّه عند مصاهرته إياه وتزويج ابنة الأشعث من ابنه».

(٢) وقعة صفين لابن مزاحم المنقري ص٢١. ويذكر اليعقوبي ج٢ ص ٢٠٠ كتاب عليّ للأشعث وفيه عبارات أكثر قسوة واتهاما «فإنما غرك من نفسك وجرأك على آخرتك، إملاء الله لك. إذ ما زلتَ قديماً تأكل رزقه، وتلحد في آياته وتستمتع بخلاقك، وتذهب بحسناتك إلى يومك هذا. فإذا أتاك رسولي بكتابي هذا فأقبل، واحمل ما قبلك من مال المسلمين».

«فلما أتى منزله دعا أصحابه فقال: إن كتاب عليّ قد أوحشني. وهو آخذ بمال أذربيجان. وأنا لاحقٌ بمعاوية. فقال القوم: الموت خيرٌ لك من ذلك. أتدعُ مصركَ وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام؟!

فاستحيا فسار حتى قدِم على عليّ».

إذن كانت بوادر الخيانة موجودة عند الأشعث منذ بدء ولاية عليّ. ولولا أن قومه قد عابوا عليه أن يصبح ذنباً لأهل الشام لكان ربما لحق بمعاوية.

وهنا يظهر نوع من إقليمية الولاء لدى القبائل العربية التي استوطنت البلاد المفتتحة. كان هناك شعور من التنافس بين الإقليميين: الشامي والعراقي. وكان الإقليمان حتى ذلك الوقت لا يجدان حرجاً في الولاء والطاعة لمركز الخلافة في مدينة الرسول ـ على الرغم من أن كل الظروف المادية، من مالٍ وثرواتٍ وسلاحٍ ورجال، قد أصبحت في غير صالح المدينة المنورة، وبفارق شاسع، إذا ما قيست بالمصرين الشامي والعراقي. وكلما مرت السنوات وازداد البعد الزمني عن فترة النبوة كانت المشاعر الذاتية بالانتماء للإقليم تكبر. والأشعث بن قيس ببساطة خجل من أن يترك انتماءه العراقي ويصير تابعاً للشام!

وهناك نصٌ آخر يشير إلى أن موقف الأشعث بن قيس أثناء المعركة قد تم بتنسيق مسبق مع معاوية. وهذا أمرٌ ممكن، لأن معاوية ربما قرر أن يخاطب الزعيم القبلي اليماني قبل أن يدعو إلى مكيدته علناً. ومن المؤكد أن معاوية كان لديه علمٌ بالخلاف القديم بين عليّ والأشعث وبالتالي رأى أن هذه هي اللحظة المناسبة التي يمكن أن يفيده الأشعث فيها. وربما قدّر معاوية أن الأشعث قد أصبح الآن في موقف يتيح له أن يقول لقومه إن العتب قد رفِع، وإننا قد أدّينا ما علينا وخضنا الحرب مع عليّ ولا بأس الآن من الصلح! ولن يستطيع قومه أن يعيّروه بالجبن أو بالتبعية لأهل الشام بعد كل هذه المعركة الطاحنة. بل على العكس، سوف يستطيع الأشعث أن يبرر سلوكه أمام قومه بالحرص عليهم. وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة النص:

«إن معاوية دعا عتبة بن أبي سفيان وقال له: أَلِن إلى الأشعث كلاماً، فإنه إن رضي بالصلح رضيت به العامة.

فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفين نادى الأشعث فأتاه

فقال عتبة.... إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، ومَن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل. ولستَ كأصحابك.... وأما أنتَ فحاميتَ عن أهل العراق تكرماً، وحاربتَ أهل الشام حمية. وقد والله بلغنا منك ما أردنا، وبلغتَ منا ما أردتَ. وإنا لا ندعوك إلى ما لا يكون منك من تركك علياً، ولا نصرة معاوية. ولكنا ندعوك إلى البقية، التي فيها صلاحك وصلاحنا»[1].

ومن الجدير بالملاحظة مدى الحرص في اختيار العبارات من قبل عتبة بن أبي سفيان: فهو يقول للأشعث صراحة أنه لا يريده أن يترك علياً وينضم إلى معسكر معاوية في مثل هذه الظروف (فهو يدرك أن هكذا تصرّف يستحيل أن يصدر عن الزعيم القبلي العربي، لأنه سيجرّ عليه عار الدهر)، وأنه ببساطة يدعوه إلى ما فيه خير الطرفين، وهو البقاء.

وفي المقابل تنبغي الإشارة هنا إلى موقف زعيم قبليّ مهم آخر وهو عدي ابن حاتم الطائي، الذي كان رأيه مع استمرار القتال وعبّر عن ثقته بالنصر حين قال للإمام عليّ

«يا أمير المؤمنين! إن أهل الباطل لا تعوق أهل الحق. وقد جزع القوم حين تأهبتَ للقتال بنفسك. وليس بعد الجزع إلاّ ما تحب. فناجز القومَ»[2].

وقد بذل عدي بن حاتم[3] جهداً في توحيد صفوف أهل العراق حول موقف

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٣٧.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٤٤.

(٣) وسوف يبقى عدي بن حاتم الطائي على ولائه العظيم لعلي بن أبي طالب إلى آخر يوم في حياته. فمثلاً ورد في تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤ أن عدي بن حاتم قال لمعاوية بن أبي سفيان، لما سمعه ينتقص علياً «والله إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ولئن أدنيتَ إلينا من الغدر شبراً لندنينّ إليك من الشر باعاً. وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في عليّ»

عليّ وألقى فيهم خطاباً مؤثرا تكلم فيه عن خصال أمير المؤمنين:

«أيها الناس: إنه والله لو غير عليّ دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه. ولا وقع بأمر قط إلاّ ومعه من الله برهان، وفي يديه من الله سبب. وإنه وقف عن عثمان بشبهة، وقاتل أهل الجمل على النكث وأهل الشام على البغي. فانظروا في أموركم وأمره. فإن كان له عليكم فضل فليس لكم مثله، فسلموا له وإلاّ فنازعوا عليه.

والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة، إنه لأعلم الناس بهما. ولئن كان إلى الإسلام إنه لأخو نبي الله، والرأس في الإسلام. ولئن كان إلى الزهد والعبادة إنه لأظهر الناس زهداً وأنهكهم عبادة. ولئن كان إلى العقول والنحائز إنه لأظهر الناس عقلا وأكرمهم نحيزة. ولئن كان إلى الشرف والنجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة. ولئن كان إلى الرضا لقد رضي به المهاجرون والأنصار في شورى عمر رضي الله عنهم وبايعوه بعد عثمان ونصروه على أهل الجمل وأهل الشام...»[(١)].

ولكن المشكلة كانت في ضرورة وحدة الصف في تلك اللحظات الحرجة. فلا يستطيع عليّ أن يركن إلى الأشتر وعدي بن حاتم بينما يتمسك الزعيم القبليّ الكبير، الأشعث، برأيه بضرورة وقف القتال ومعه تيارٌ واسع من قومه.

ولا بد من الإشارة إلى أنه توجد عدة روايات أخرى تؤكد أن قيادات»القراء«في المعسكر العراقي هي التي قامت بالضغط على عليّ لحمله على قبول فكرة التحكيم التي طرحها معسكر معاوية حين رفعوا المصاحف.

ولكن هذه الروايات غير صحيحة على الأرجح. فهي تهدف ببساطة إلى إلقاء تبعة وقف القتال على القراء، الذين سيصبح جزء منهم خوارج فيما بعد، وذلك من أجل إظهار تهافت منطقهم عندما دخلوا في حرب مع الإمام عليّ. فهكذا روايات تريد أن تقول أن نفس الأشخاص الذين أجبروا علياً على وقف القتال، جاؤوا بعد قليل ليقولوا له: لماذا أوقفتَ القتال؟!

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٤١.

فلا يمكن التسليم بأن قيادات القرّاء هي التي أجبرت علياً على وقف القتال، لأنها كانت أصلاً غير قادرة على ذلك حتى لو أرادت. فهي كانت أقلية صغيرة ضمن الجيش العراقي الكبير. كما أن سلوك ومواقف هؤلاء لاحقاً، الذين أصبحوا خوارج فيما بعد، يؤكد أن مسألة وقف القتال بالذات، والقبول بالتحكيم، كانت هي أساس تحركهم وتمردهم ضد عليّ ومأخذهم الوحيد عليه.

الأرجح إذن أن يكون وقف القتال قد تم بضغط من الزعماء القبليين، وخاصة الأشعث بن قيس، الذين يتمتعون بنفوذ كبير لدى المقاتلين من أبناء عشائرهم، على الإمام عليّ. وربما كان موقف الزعماء القبليين انعكاسا لتيار واسع بين أفراد المعسكر العراقي يرى ضرورة الاستجابة لمصاحف أهل الشام ووقف المقتلة والقبول بالموادعة.

ومما يدعم هذا التحليل ما رواه الدينوري من قيام الأشعث بن قيس بحمل كتاب التحكيم بين الفريقين والدوران به على كل القبائل المشاركة في الجيش العراقي للتأكد من التزامها بوقف القتال. والأهم من ذلك هو ردة فعل الخوارج الأولين الذين عارضوا وقف القتال مع أهل الشام. فبعض فهؤلاء الأفراد المطالبين باستمرار القتال صبّوا جام غضبهم على الأشعث بالذات حتى وصل الأمر إلى حد محاولة الاعتداء عليه جسديا!

«وإن الأشعث أخذ الكتاب فقرأه على الفريقين، يمر به على كل، راية راية، قبيلة قبيلة، فيقرؤه عليهم....

فقال عروة بن أدية: أتحكمون في دين الله الرجال؟! فأين قتلانا يا أشعث؟ ثم حمل بسيفه على الأشعث، فأخطأه، وأصاب السيف عجز دابته. فانصرف الأشعث إلى قومه، فمشى إليه سادات تميم، فاعتذروا إليه فقبل وصفح»[1].

وطبعاً فإن قيام بعض العناصر التي ستصبح «خوارج» فيما بالتهجم على

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص١٩٧. ومثل ذلك روى الطبري في تاريخه ج٤ ص٣٩.

الأشعث ومحاولة الاعتداء عليه يشير إلى عِظم الدور الـذي اضـطلع بـه فـي عمليـة وقف الحرب.

وسوف يتحوّل غضب الخوارج فيما بعد لينصبّ بالكامل على علـيّ، باعتبـاره القائد الأعلى المسؤول عن كل ما يجري، بما في ذلك خضـوعه لضـغوط الأشـعث وغيره من الزعماء القبائليين.

وهناك رواياتٌ تشير إلى أن علياً كان يأخذ بعين الاعتبار، عنـد موافقتـه أخيـراً على التحكيم، حجم الانهاك العظيم الذي أصاب المسلمين من جراء القتال. فقد قـال علي في إحدى محاجاته مع الخوارج فيما بعد:

«... وأما قولكم: لمَ جعلتَ بينك وبينهم أجلاً في التحكيم؟ فإنمـا فعلـتُ ذلـك ليتبيّن الجاهل ويتثبّت العالم. ولعلّ الله أن يصلح في هذه الهدنة أمـر هـذه الأمـة، ولا تؤخذ بأكظامها...»[1].

وقول عليّ «ولا تؤخذ بأكظامها»فيه دلالة على مدى المشـقة التـي كـان يعـاني منها المسلمون آنذاك. وفي هذا النص ذاته يظهر ان علياً كان يعتبر القبـول بـالتحكيم والرجوع إلى القرآن نوعاً من إقامة الحجة على صحّة موقفه، لمـن ينشـد الحـق مـن المسلمين. فكأنّه يقول للناس إنّه لم يَدَع سبيلاً إلاّ سـلكه فـي سـبيل وحـدة الأمـة، وحتى لا يتّهم بأنه لا يعطي خصومَه فرصة الرجوع إلى الحق، سلماً.

التحكيم

بعد توقف القتال انتقل الفريقان إلى محاولة التوصل لصيغة معينة «للتحكيم» بينهما. وتم الاتفاق مبدئياً على أن يرسل كلّ منهما وفداً إلى مكان محايد يرأسه «حكم». وسوف يتداول الحكمان في شأن النزاع ويُصدرا حُكماً يتفق مع «كتـاب الله».

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص١٧٣. والأكظام جمع كظم: مخرج النفس. والأخـذ بالأكظـام: المضـايقة والاشتداد.

وشكّل اختيار الحكم المنتدب من الجانب العراقي مشكلة جديدة وخطيرة لعلي!

روى اليعقوبي:

«وقال علي: أرى أن أوجّه بعبد الله بن عباس.

فقال الأشعث: إن معاوية يوجه بعمرو بن العاص، ولا يحكم فينا مضريان. ولكن توجه أبا موسى الأشعري فإنه لم يدخل في شيء من الحرب.

وقال علي: إن أبا موسى عدو! وقد خذل الناسَ عني بالكوفة، ونهاهم أن يخرجوا معي!

قالوا: لا نرضى بغيره!

فوجّه علي أبا موسى على علمه بعداوته له ومداهنته فيما بينه وبينه.

ووجه معاوية عمرو بن العاص.

وكتبوا كتابين بالقضية: كتاباً من علي بخط كاتبه عبد الله بن أبي رافع، وكتاباً من معاوية بخط كاتبه عمير بن عباد الكناني. واختصموا في تقديم علي أو تسمية علي بإمرة المؤمنين. فتنازعوا على ذلك منازعة شديدة حتى تضاربوا بالأيدي.

فقال الأشعث: امحوا هذا الاسم.

فقال الأشتر: والله يا أعور لقد هممتُ أن أملأ سيفي منك، فلقد قتلتُ قوماً ما هم شرٌ منك. وإني أعلم أنك ما تحاول إلاّ الفتنة وما تدور إلاّ على الدنيا، وإيثارها على الآخرة.

فلما اختلفوا قال علي: الله أكبر! قد كتب رسول الله يوم الحديبية لسهيل بن عمرو: هذا ما صالح رسول الله. فقال سهيل: لوعلمنا أنك رسول الله ما قاتلناك. فمحا رسول الله اسمه بيده، وأمَرَني فكتبتُ: من محمد بن عبد الله وقال: إن اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتي. وكذلك كتبت الأنبياء كما كتب رسول الله إلى الآباء. وإن اسمي واسم أبي لا يذهبان بإمرتي.

وأمرهم فكتبوا: من علي بن أبي طالب. وكتب كتاب القضية على الفريقين يرضون بذلك بما أوجبه كتاب الله.

واشترط على الحكمين في الكتابين أن يحكما بما في كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته لا يتجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه إلى هوى، ولا إدهان.

وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق فإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته فلا حكم لهما.»[1].

وتظهر رواية اليعقوبي هذه، أن الأشعث بن قيس واصل دورَه المشبوه تجاه عليّ، عن طريق الضغط عليه لاختيار أبي موسى الأشعري مندوباً عن الجانب العراقي في مؤتمر التحكيم المنوي عقده. وهي كذلك تظهر علياً بمظهر الزعيم المغلوب على أمره.

ولا يمكن التسليم بصحة هذه الرواية. فالواضح منها أنها تريد تحميل الأشعث وزر اختيار أبي موسى الأشعري، الذي سيظهر فشله الكبير لاحقاً، بالإضافة إلى مسؤولية إجبار عليّ على وقف القتال بالأصل.

فالأشعث بن قيس كان بمقدوره فعلاً أن يضغط على عليّ من أجل وقف سفك الدماء المتبادل، لأن ذلك ولا شك غدا مطلباً مُلحاً من قواعد المقاتلين، ولكن لا يمكن تصوّر أنه أيضاً كان قادراً على تسمية الحكم من الجانب العراقي! وحتى لو كان الأشعث راغباً في تسمية أبي موسى، فإن علياً كان بإمكانه أن يرفض.

فتسمية الحكم ليست أمراً طارئا يحتاج قراراً فورياً، مثل وقف القتال وسفك الدماء، بل هي حتما تحتمل التأجيل لعدّة أيام للنظر والتفكير فيها، ما دامت المعركة قد توقفت بالفعل.

ويبقى سؤالٌ مهم: كيف إذن قبل عليّ بتسمية أبي موسى الأشعري مندوباً عنه للتحكيم؟

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٨٩. وقريبٌ من هذه الرواية وردت في تاريخ الطبري ج٤ ص٣٧ـ٣٩.

من المؤكد أن علياً لم يكن يحترم أبا موسى ولا يثق به على الإطلاق. وما صدر منه بالكوفة قبيل وصول عليّ إليها، ودوره المثبّط للناس عن عليّ، لم يكن قد مرّ عليه زمنٌ طويل. ومن المستحيل أن يكون علي اختار أبا موسى بإرادته ومشيئته.

وتوجد روايات اخرى للطبري والبلاذري[1] تذكر أن علياً أراد تسمية مالك الأشتر مندوباً عنه. وهذا هو الأقرب للحقيقة لأن ثقة عليّ بالأشتر كانت كبيرة، واستمرّت إلى نهاية حياته.

ولذا لا بدّ من التسليم بأن»شيئاً قاهراً«قد أجبر علياً على قبول تسمية أبي موسى! ولكن كيف؟ ومَن الذي أجبره؟

يبدو أن ما حصل في المعسكر العراقي في تلك الظروف كان فوضى رهيبة وشقاق عظيم، أكبر مما يظهر في كل الروايات، إلى درجة أن علياً لم يكن أمامه من سبيل سوى الخروج من ذلك الموقف بأي وسيلة، ولو كانت تعيين واحد من خصومه مندوباً عنه للتحكيم!

هناك تخبّط حقيقي في الروايات التي تذكر اختيار أبي موسى حكماً. فبالإضافة إلى رواية اليعقوبي أعلاه التي تتحدث عن دور الأشعث بن قيس، توجد روايات أخرى في الطبري والإمامة والسياسة تتحدّث عن دور ل»زعماء الأنصار«في ذلك الاختيار! وغيرها يتحدّث عن دور القرّاء في ذلك الاختيار، وأخيرا تذكر روايات أخرى أن الاختيار تم من قبل شخصيات أصبحت خوارج فيما بعد، من أمثال مسعر بن فدكي، وزيد بن حصين!

وفي كل الأحوال، كان اختيار أبي موسى الأشعري يمثل انتصاراً مؤقتا للتيار الأكثر سلبية في صفوف جيش عليّ تجاه كل ما جرى من صراع. ذلك التيار الذي كان يجنح إلى اعتزال «الفتنة» ويرى في «سفك دماء المسلمين» شراً مستطيراً ويدعو

---

(١) مثلاً: تاريخ الطبري ج٤ ص٣٦.

المؤمنين إلى «الفرار بدينهم» من الفتن!

وهنا تظهر هذه الأحداث ظاهرة مهمة في الجانب العراقي من الصراع. فعليّ كان يحكم بالاستناد إلى شرعيته الإسلامية أولا وأخيراً، ولم يكن يحكم مستندا إلى دعائم إدارية وتنظيمية راسخة البنيان. فطاعة جنوده وجيشه وأهل العراق جميعاً له كانت ناتجة عن اقتناع فردي من كل الناس بأهليته وصلاحيته وإخلاصه. ولكنّ هذه العلاقة لم يجر تأطيرها بالشكل الكافي لتصبح، فوق ذلك، علاقة حاكم بمحكوم، بالشكل التنظيمي المحدد، ذي البعد الإداري بتسلسلاته وهيكليته. وذلك أمر خطير، وسوف يعاني منه عليّ شرّ المعاناة، لأنه يعني أن لعليّ عشرات الألوف من الشركاء في الحكم! عشرات الألوف من الذين عليه أن يقنعهم بصحة كل قرار يتخذه وكل سياسة يتبعها! فهؤلاء يحبوه ويوالوه، ولكنهم ليسوا مرتبطين مصلحيا معه. ولا يلام عليّ على ذلك. فهو قد جاء العراق من مدة قصيرة جداً، ولم تتح له الفرصة لكي يرسي دعائم حكم وتنظيم فعال. وكانت جبهة عليّ وجيشه تضمّ صحابة أولين، والأنصار، إلى جانب أشراف القبائل وأهل القادسية والأيام، وجماعات الروادف ومجموعات القراء، وهي عناصر تختلف في درجة تقديرها لمصالحها، وفي نظرتها لقريش ولسلطان المدينة، وفي فهمها لأبعاد الصراع الذي تخوضه. فلم يكن هناك تجانس في الآراء في معسكر عليّ، ولم تكن قبائله منضبطة.

كل ذلك بعكس وضع معاوية في الشام، الذي كان يتربّع على هرم سلطة إدارية، فعّالة ومنظّمة، منذ حوالي العشرين عاما. ولم يكن مضطرا إلى هدر الكثير من الجهد لإقناع افراد جيشه وقياداته، المعتادين على تلقّي أوامره والمستفيدين من عطاياه، بصواب قراراته.

إذن دبّ الخلاف والشقاق في صفوف الجيش العراقي، فعاد إلى العراق وهو على أسوأ حال: «خرجوا مع عليّ إلى صفين وهم متوادون أحباء، فرجعوا متباغضين أعداء. ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم. ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط. يقول الخوارج: يا أعداء الله أدهنتم في

أمر الله عز وجل وحكمتم. وقال الآخرون: فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا»[1].

ولمّا وصل جيش عليّ إلى العراق افترق الذين مالوا إلى رأي المحتجين على عليّ «الخوارج» ثلاث فرق:

- **فرقة رجعت إلى أمصارها ومنازلها في العراق.**
- **فرقة أقامت وقالت: «لا نعجل. ننظر إلى ما يصير بشأنه».**
- **فرقة شهدت على عليّ بالكفر، وهو الذين تجمعوا في حروراء، ثم في النهروان.**

مؤتمر التحكيم

قبل التطرق إلى تفاصيل مؤتمر التحكيم وما جرى فيه، لا بد من التوقف قليلاً عند مسار الأحداث التي أدت إلى ذلك المؤتمر، وما هو ممكن من انعقاده.

فمن المؤكد أن التوجه نحو نوع من التحكيم هو دليل أكيد على توازنٍ ما في القوى العسكرية بين الفريقين. ولذلك لا ينبغي التسليم بسهولة بالروايات التي تشير إلى أن جيش العراق كان متفوقاً بشدة عند وقف القتال وأن معاوية وابن العاص كانا على وشك الفرار. وكون المبادرة إلى رفع المصاحف والمطالبة بوقف القتال جاءت من الجانب الشامي لا تعني بالضرورة أنهم هزموا. فهنا لا بد من ربط هذا التصرف من جانب معاوية بالهدف الذي خاض من أجله كل من الطرفين المعركة.

فالإمام عليّ، كخليفة شرعي للمسلمين، جاء إلى صفين وأمامه هدف وحيد لا يحتمل أنصاف الحلول: إلحاق الهزيمة الكاملة بمعاوية وجيش الشام. فهؤلاء بنظره يمثلون انشقاقاً في جسد الأمة، وليس أمامهم من سبيل سوى الدخول في الطاعة، إن لم يكن سلماً، فحرباً. فأي اتجاه آخر، أو حل وسط، ليس مقبولاً ولا ممكناً بالنسبة لعليّ، لأنه يعني استمرار انقسام أمة العرب التي وحدها محمدﷺ،

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٤٥-٤٦.

والتي يرى عليّ نفسه المؤتمن عليها. لذلك كان عدم الحسم، أو الهدنة، أو التأجيل، يساوي الهزيمة ذاتها.

وعلى النقيض من ذلك كان وضع معاوية. فالنجاح الأعظم بالنسبة له كان بالفعل قد تحقق، وهو حشد جيوش الشام من خلفه. وفي اليوم الذي سارت فيه جيوش الشام وقبائلها معه كان النصر قد كتب له. فلم يكن ممكناً، بكل المقاييس، إلحاق هزيمة تامة بالجيش الشامي المكون من ٩٠ ألف رجل ما دام متماسكاً. فكانت مهمة معاوية الأساسية خلال تلك المواجهة هي المحافظة على صمود قواته وترابطها، وليس هزيمة جيش العراق.

ولذلك كان معاوية شديد الاهتمام بتماسك صفوفه ومنع قواته من التأثر بدعاية أهل العراق، أو بشخصية علي بن أبي طالب. وقبيل بدء المعركة في صفين، عندما انشق على معاوية مجموعة من المتدينين والقراء الشاميين بقيادة شمر بن ابرهة بن الصباح الحميري، وانضموا إلى صفوف عليّ، عقد معاوية وابن العاص اجتماعاً طارئاً على الفور وتناوبا على الخطابة أمام جنود الشام مؤكدين على شرعية موقفهم، ومظلومية عثمان، طالبين من الناس الصبر معهم»... أيها الناس أعيرونا أنفسكم وجماجمكم، لا تفشلوا ولا تخاذلوا...»[1].

فهدف معاوية إذن في معركة صفين كان يتلخص بالصمود. فخوض المواجهة ضد عليّ والصمود فيها كان غاية ما يطمح إليه معاوية في حينه. فالصمود في الحرب يعني فعلياً أن معاوية نجح في فرض أمر واقع على عليّ، وتثبيت فكرة التقاسم بينهما: هذه الأرض لي، وتلك لك!

وهكذا يمكن القول أن معاوية خرج إلى صفين للقتال بهدف الوصول إلى هدنة. وذلك ما نجح في تحقيقه.

فما الذي يمكن لمؤتمر التحكيم أن يحققه؟ هل كان ممكنا لذلك المؤتمر أن

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص٢٢٣.

يعيد توحيد الأمة؟ هل كان بإمكان ذلك المؤتمر أن يحكم، كما يوحي بذلك اسمه، بين الفريقين؟ هل كان ممكنا للمؤتمر أن يقرر في مسائل الخلاف والشقاق وأن يبتّ فيها؟

كل تلك الأسئلة مشروعة تماماً في مواجهة تركيز الكثير من الرواة على فكرة «الخديعة» أو «الغدر» الذي حصل في ذلك المؤتمر من طرف عمرو بن العاص تجاه أبي موسى. فهناك ميلٌ واضح لتضخيم دور عمرو بن العاص «الداهية» على حساب أبي موسى «الساذج». ورغم أنه لا شك أبداً في خصال الغدر والدهاء لدى ابن العاص، وقدراته الشخصية والبلاغية الكبيرة والتي تجعله قادراً، دون أدنى ريب، على مراوغة شخص سطحيّ كأبي موسى والتفوق عليه، إلاّ أن تصوير النتائج الهزيلة التي أسفر عنها مؤتمر التحكيم وفشله، وكأنه ناتج عن سوء أخلاق عمرو بن العاص ونواياه، فيه تعسّف كبير، ولا ينبغي أخذه بجدية.

لم تكن هناك أي نتيجة عملية يمكن أن تنتج عن مؤتمر التحكيم سوى تثبيت الأمر الواقع. وبغض النظر عن اسم الشخصين الذي أرسلا لتمثيل الطرفين في ذلك المؤتمر، سواء كانا أبا موسى وعمرو، أو ابن عباس وعمرو، أو غيرهم، فالنتيجة واحدة. فبعد تلك المعركة الطاحنة، ودماء عشرات الألوف التي سالت، لا يمكن تخيّل أن أي طرف يحتمل أن يقبل بحل لا يوافق مصلحته وسياسته بسبب فصاحة فلان أو بلاغة علان. فلن يقبل مهاوية الدخول في طاعة عليّ مهما كانت حجة مندوب العراق قوية ومؤثرة. ولن يقبل عليّ الاعتراف باستقلالية معاوية واقليمه الشامي مهما ساق مندوبه من براهين على صوابية موقفه.

ومن هنا يمكن النظر إلى مؤتمر التحكيم على أنه استراحة لالتقاط الأنفاس قبل معاودة واستئناف الصراع المسلح بين الطرفين، والذي لا بد أن ينتهي بالحسم لمصلحة أحدهما.

وكل ما يروى من تفاصيل حول ما جرى داخل أروقة ذلك المؤتمر من جدالات، واقتراحات، ومناورات، صحيحة على الأغلب، يجب النظر إليها من قبيل

التفاصيل ليس إلاّ، لا من قبيل الأحداث الرئيسية.

ويمكن أيضاً استعراض نص تفصيلي لكتاب التحكيم بين الطرفين لتوضيح مدى عمومية عباراته وفقراته:

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيّهﷺ. قضية عليّ على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

إنا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات. على ذلك تقاضيا وبه تراضيا.

وإن عليا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظراً وحَكماً، ورضي معاوية وشيعته بعمرو بن العاص ناظراً وحكماً.

على أن علياً ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه، وذمته وذمة رسوله أن يتخذا القرآن إماماً ولا يعدو به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً، وما لم يجدا في الكتاب ردّاه إلى سنة رسوله الجامعة، لا يتعمدان لها خلافاً ولا يبغيان فيها بشبهة»[1].

وواضحٌ أن الكلام عن حكم القرآن وإحياء ما أحياه واتخاذه إماماً.... الخ، لا يحمل أي معنى محدد ولا يزيد عن كونه عبارات عامة مُتفق عليها أصلاً ولا خلاف بشأنها. فهذا الكتاب لا يتطرّق إلى أسباب الأزمة ولا إلى الحلول الممكنة. والاكتفاء بأخذ العهد والذمة للحكمين ليس له أي أهمية حقيقية لأن كليهما قادرٌ على تأويل أي رأي يراه أو قرارٍ يتخذه.

وأما ما حصل عند انعقاد ذلك المؤتمر فعلاً بعد بضعة أشهر:

«ووجه علي بعبد الله بن عباس في أربعمائة من أصحابه ونفذ معاوية أربعمائة من أصحابه واجتمعوا بدومة الجندل في شهر ربيع الأول سنة ٣٨.

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص١٩٤.

فخدع عمرو بن العاص أبا موسى!

وذكر له معاوية فقال: هو وليّ ثأر عثمان وله شرفة في قريش. فلم يجد عنده ما يحب.

قال: فابني عبد الله؟

قال: ليس بموضع لذلك.

قال: فعبد الله بن عمر؟

قال: إذا يحيي سنة عمر. الآن حيث به.

فقال: فاخلع علياً، وأخلعُ أنا معاوية. ويختار المسلمون.

وقدم عمرو أبا موسى إلى المنبر، فلما رآه عبد الله بن عباس قام إلى عبد الله بن قيس فدنا منه فقال: إن كان عمرو فارقك على شيء فقدمه قبلك، فإنه غدر.

فقال: لا. قد اتفقنا على أمر.

فصعد المنبرَ فخلعَ علياً.

ثم صعد عمرو بن العاص فقال: قد ثبتّ معاوية كما ثبتّ خاتمي هذا في يدي!

فصاح به أبو موسى: غدرتَ يا منافق! إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

قال عمرو: إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفاراً!

وتنادى الناس: حكم والله الحكمان بغير ما في الكتاب، والشرط عليهما غير هذا. وتضارب القوم بالسياط. وأخذ قوم بشعور بعض. وافترق الناس.

ونادت الخوارج: كفر الحكمان. لا حكم إلاّ لله([1]).

وقيل: أول من نادى بذلك عروة بن أدية التميمي قبل أن يجتمع الحكمان. وكانت الحكومة في شهر رمضان سنة ٣٨.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٨٩. وكذلك ورد في تاريخ الطبري ج٤ ص٥١-٥٢ وفيه ان عمرو بن العاص قال «إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبَه. وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية».

ويمكن تصديق أن أبا موسى يختار عبد الله بن عمر كحلٍ لمشاكل الأمة. فهو مثله من التيار السلبي الداعي إلى «اعتزال الفتنة». وربما كان أبو موسى يحنّ إلى العصر الذهبي لعمر بن الخطاب، عصر الفتوحات والانتصارات.

وعلى كل حال، فإن أبا موسى شعر بهول الفاجعة التي تسبب بها لعليّ، والطعنة التي وجهها لشرعيته وعدالة قضيته. ولم يستطع أبو موسى العودة إلى العراق لأنه لا يستطيع أن يقابل علياً بعد الذي صنعه، فقرر الانسحاب من المسرح وفرّ إلى مكة وبقي فيها.

موقف الطرفين من نتائج المؤتمر

اعتبر معاوية النتائج التي أسفر عنها مؤتمر التحكيم نصراً مؤزراً له. وأعلن معاوية لكل أتباعه وأنصاره، وأرسل إلى الأمصار المختلفة كتباً يشرح فيها كيف أن المؤتمر الذي رضيته الأمة لحل خلافها قد أصدر حكماً لصالحه. وقال معاوية إن إجماع المسلمين، المبني على حكم كتاب الله، قد انعقد على خلع عليّ من منصب الخلافة، وأن ذلك تم بموافقة مندوب أهل العراق.

وبناءً على نتائج هذا المؤتمر، أعلن معاوية نفسَه خليفة للمسلمين[1]، وقام أتباعه في الشام بمبايعته بإمرة المؤمنين. ومن تلك اللحظة أصبح لأمة العرب التي وحدها رسول الله ﷺ خليفتان. وتكرّس الإنقسام من خلافٍ فعليّ إلى انشقاقٍ رسمي وشرعي.

وأما عليّ فلما بلغته أخبار مؤتمر التحكيم وما جرى به، أعلن رفضه لكل ما حصل واعتبر أن الحكمين انحرفا عن كتاب الله وحكما الأهواء في شؤون المسلمين. وأعلن تصميمه على مواصلة حربه ضد معاوية وحزبه:

«قام عليّ بالكوفة على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه.

ثم قال: أما بعد. فإن معصية العالم الناصح تورّث الحسرة وتعقب الندامة. وقد

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٥٢.

كنتُ أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة بأمري، فأبيتم إلاّ ما أردتم!

فأحييا ما أمات القرآن، وأماتا ما أحيا القرآن! واتبع كل منهما هواه، يحكم بغير حجة ولا سنة ظاهرة. واختلفا في أمرهما وحكمهما. فكلاهما لم يرشد الله، فبرئ الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين.

فاستعدّوا للجهاد، وتأهبوا للمسير، ثم أصبحوا في معسكركم يوم الاثنين بالنخيلة.

وإنما حكمنا من حكمنا ليحكما بالكتاب. وقد علمتم أنهما حكما بغير الكتاب وبغير السنة.

ووالله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيري لجاهدتهم!

وأعطى الناسَ العطاء وهمّ بالجهاد»[1].

الخوارج

على الرغم من روايات تناقضُ ذلك، إلاّ أن المنطق يقول أن القرّاء، الذين أصبحوا خوارج فيما بعد، كانوا ولا شك ضمن الأقلية التي عارضت وقفَ القتال والقبولَ بالتحكيم منذ البداية. وإن نجاح دعوة الخوارج في استقطاب وجذب أعداد كبيرة نسبياً من العراقيين، دليلٌ على أنها كانت دعوة تتمتع بمنطق مقنع قادرٍ على جذبِ الأنصار. ولا يمكن تصوّر دعوة تجتذب عشرات الألوف من الناس على أساس قولها: إنا كفرنا لمّا قبلنا التحكيم، والآن نحن نتوب إلى الله ونعود إلى الإيمان! بل الأرجح أن تكون الدعوة قامت على أساس: ألم نقل لكم أن التحكيم غيرُ جائز أصلاً؟ وقد عارضناه في حين قبله عليّ. وأثبتت الأيام صِحّة موقفنا.

تعود بداية نشوء حركة الخوارج إلى مسألة التحكيم ووقف القتال في صفين.

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٦٣.

وأورد الدينوري[1] أسماء أفراد من مختلف القبائل عارضوا «تحكيم الرجال في أمر الله» عند وقف القتال في صفين. فمثلاً قام الأخوان جعد ومعدان، من قبيلة عنزة، برفض وقف القتال وأصرا على الاستمرار في الهجوم إلى أن قتلا. وكذلك عارضَ القرارَ أشخاصٌ من قبائل مراد وتميم وبني راسب. وقام بعضهم، وللمرة الأولى، باتهام عليّ «بالكفر بعد الإيمان». وتدريجياً تطوّر خطاب الخوارج إلى أن وصل إلى شعار «لا حكم إلاّ لله» الذي أصبح العلامة المميزة لهم، يرفعونه في حروبهم، ويكتبونه في خطاباتهم، ويمتحنون الناسَ عليه!

كانت طروحات الخوارج الأولين بسيطة ومباشرة:

- إنّ القرآن قد أدان معاوية ومَن معه وأصدر حكمه عليهم. فليس هناك مجالٌ لحلّ وسط معهم. فهم ليس فقط باغين ومفسدين بل أصبحوا كفاراً بسبب إصرارهم على الغَيّ، وحكمُ الله قاطعٌ فيهم. فهم قالوا لابن عباس «وقد أمضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا».

- إنّ قبول عليّ للتحكيم هو شكٌ في عدالة القضية التي قاتل الناس من أجلها معه. وهذا القبول هو ارتدادٌ بعد إيمان، وشكٌ بعد يقين.

- لا يجوز تحكيم الرجال في أمر الله.

وإلى ما قبل مؤتمر التحكيم، كانت معارضة الخوارج لعليّ لم تتخذ الشكل المسلّح. فقد كانت هناك حالة انتظار لذلك المؤتمر المرتقب وما سيسفر عنه. ورفض عليّ مطالب الخوارج الأولين بنقض كتاب الصلح مع أهل الشام والعودة الفورية لحرب معاوية من دون انتظار التحكيم، وأصرّ على الالتزام بالعهد وإعطاء الجهود السلمية فرصة. وهو قال لهم أنه بعد إبرام العهد فلا بد من الوفاء به، وأنه ما دام التحكيم شراً فكان ينبغي رفضه من البداية، وليس نقضه بعد الاتفاق عليه:

«قالوا: نريد أن نخرج نحن وأنت ومَن كان معنا بصفين ثلاث ليال، ونتوب إلى

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص١٩٧.

الله من أمر الحكمين، ثم نسير إلى معاوية فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه.

فقال عليّ: فهلاّ قلتم هذا حين بعثنا الحكمين وأخذنا منهم العهد، وأعطيناهموه؟! ألا قلتم هذا حينئذ؟!

قالوا: كنا قد طالت الحرب علينا، واشتدّ البأس، وكثر الجراح، وخلا الكراع والسلاح.

فقال لهم: أفحينَ اشتدّ البأسُ عليكم عاهدتم، فلما وجدتم الجمام قلتم ننقض العهد؟! إنّ رسول الله كان يفي للمشركين أفتأمرونني بنقضه؟!»[1].

وكانت مهزلة التحكيم وما جرى فيها من استهتار بمصلحة الأمة، بالإضافة إلى حالة اللاحسم التي آلت إليها الأمور، والانقسام الأفقي الكبير في أمة الإسلام وتصدّع مؤسسة الخلافة بما يهدد مستقبل الأمة، ونجاح معاوية وابن العاص في المحافظة على مواقعهم وخروجهم سالمين من مواجهة صفين، هي العوامل الرئيسية التي جعلت الكثيرين في الجانب العراقي يتقبلون دعوة الخوارج. وكانت الخسائر البشرية الضخمة يوم صفين، وشعور الكثيرين أن هذه الدماء كلها سالت بلا نتيجة، وأن التضحيات العظيمة ضاعت هباءً، تقدّم ذخيرة مهمة لدعوة الخوارج الذين كانوا يحمّلون علياً مسؤولية ما جرى.

بدء الانشقاق الفِعلي: تب إلى الله يا عليّ!

عند العودة إلى العراق، انشقّ على عليّ اثنا عشر ألف مقاتل من جيشه، ونزلوا حروراء (قرب الكوفة). وكان من أبرز وجوههم عبد الله بن الكواء اليشكري، وشبث بن ربعي التميمي وأبو هلال مرداس بن أدية[2].

ولمّا علم عليّ بذلك التجمع المتمرّد، قرر بذل كل جهدٍ ممكن لإرجاعهم إلى طاعته.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٣١٠.

(٢) عن «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم ص ٣١٦ نقلا عن البلاذري واليعقوبي والطبري.

وحتى تلك اللحظة كانت الأمور لا تتعدى خلافا سياسياً / دينياً في الاجتهاد، ولم تصل الأمور إلى رفع السلاح. وبدأت المحاججة بين عليّ وبين»الحرورية»، طرحوا فيها وجهة نظرهم الرافضة ل «تحكيم الرجال في دين الله»، وأنّ التحكيم بحد ذاته هوَ خروجٌ على مبادئ الحق والعدل التي استشهد من أجلها قتلاهم في الجمل وصفين.

ولأنّ علياً لاحظ مدى تركيز دعاية الخوارج على مقولة «تحكيم الرجال في الدين«حاول في مراسلاته معهم أن يشرح لهم أن القرآن بحدّ ذاته لا ينطق:

«.... وهذا القرآن إنما هو خطّ مستورٌ بين الدفتين، لاينطق بلسان، ولا بدّ له من ترجمان. وإنما ينطق عنه الرجال...»[1].

وأخذ بعض»الحرورية«علي عليّ موافقته على محو لقب «أمير المؤمنين«في كتاب القضية، واعتبروا ذلك تنازلا منه عن الخلافة «انسلختَ من قميصٍ ألبَسَكه الله واسمٍ سمّاكَ به الله[2]».

ولامَه بعضهم على أنه قاتلَ ولم يسبِ ولم يغنم (وأنه غزا يوم الجمل فقتلَ الأنفسَ الحرامَ ولم يقسم الأموالَ والسبي)، فالموادعة بين المسلمين وأهل الحرب انتهت منذ أنزل الله براءته منهم، إلاّ من أقرّ بالجزية (وذلك حكم البغاة المفسدين من أهل الشام، والذين صاروا كفاراً).

ونجحت جهود عليّ الحوارية في إقناع معظمهم في العودة إلى صفوفه، باستثناء قاعدة صلبة منهم اتجهت إلى النهروان بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي، وبدأوا في الكّتابة إلى مَن هو على رأيهم من أهل البصرة، فانضمّ إليهم ٥٠٠ رجل بقيادة مسعر بن فدك التميمي والأشرس بن عوف الشيباني.

وكتب عليّ إلى الخوارج حينما تجمعوا في النهروان بينما هو قد شرع في المسير إلى أهل الشام بجيوشه:

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٢ ص ١٧٣.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٣١٠.

«.... ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة؟

وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأني أعرف بهم منكم: قد عرفتهم أطفالاً وعرفتهم رجالاً! فهم شر رجال، وشر أطفال! وهم أهل المكر والغدر.

وإنكم إن فارقتموني ورأيي، جانبتم الخير والحزم. فعصيتموني وأكرهتموني حتى حكّمتُ. فلما أن فعلتُ، شرطتُ واستوثقتُ. وأخذتُ على الحكمين أن يُحييا ما أحيا القرآن، وأن يُميتا ما أمات القرآن. فاختلفا، وخالفا حكم الكتاب والسنة وعمِلا بالهوى.

فنبذنا أمرهم. ونحن على أمرنا الأول. فما نبؤكم ومن أين أتيتم؟

قالوا له: إنا حيث حكّمنا الرجلين أخطأنا بذلك، وكنا كافرين، وقد تبنا من ذلك. فإن شهدتَ على نفسك بالكفر، وتبتَ كما تبنا وأشهدنا، فنحن معك ومنك! وإلاّ فاعتزلنا. وإن أبيتَ فنحن منابذوك على سواء.

فقال عليّ: أبعدَ إيماني بالله، وهجرتي وجهادي مع رسول الله، أبوء وأشهد على نفسي بالكفر؟! لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين. ويحكم! بما استحللتم قتالنا والخروج من جماعتنا؟ أئن اختار الناس رجلين فقالوا لهما: انظرا بالحق فيما يصلح العامة، ليُعزل رجلٌ ويوضع آخر مكانه، أحل لكم أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم، فتضربون بها هامات الناس وتسفكون دماءهم؟ إن هذا لهو الخسران المبين.

فتنادوا: لا تخاطبوهم ولا تكلموهم. تهيؤوا للقاء الحرب. الرواح الرواح إلى الجنة!»[1].

وفي هذا النص يذكر عليّ الخارجين عليه بأنه لم يرد وقف القتال في صفين، وأنه إنما فعل ذلك تحت الضغط. وهو أيضا يحاول أن يبسّط لهم مسألة التحكيم

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٦٨.

التي جرت، على أساس أنها كانت في الأساس من أجل عزل معاوية وإعلان حق عليّ، لا أكثر. وأنه لما لم يحصل ذلك فالواجب هو مواصلة الجهاد ضد أهل المكيدة!

ممارسات فظيعة

وترجم الخوارج تشنجهم الفكري إلى جرائم وحشية ارتكبها عناصرهم ضد مسلمين كثيرين ممن هم في طاعة عليّ. وكان أبرز تلك الحوادث ما صنعوه بعبد الله بن خباب بن الأرت، الذي هو ابن واحدٍ من الصحابة الأولين، والذي كان مع عليّ في الجمل وصفين. ألقى عناصر من الخوارج القبض عليه واستجوبوه. ولما عبّر عن رأي إيجابيّ بعليّ قتلوه بلا رحمة:

«... فما تقول في عليّ بعد التحكيم والحكومة؟

قال: إنّ علياً أعلم بالله وأشدّ توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة.

فقالوا: إنك لستَ تتبع الهدى، إنما تتبع الرجال على أسمائهم.

ثم قربوه إلى شاطئ النهر، فأضجعوه فذبحوه».

وتابع هؤلاء غلوّهم:

«... إنهم أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلمَ لأنه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني، وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم!».

«... فوثبَ رجلٌ منهم على رطبةٍ سقطت من نخلةٍ فوضعها في فيه.

فصاحوا به، فلفظها تورّعاً.

وعرض لرجلٍ منهم خنزيرٌ فضربه فقتله. فقالوا: هذا فسادٌ في الأرض، وأنكروا قتل الخنزير».

وشاعت أخبار ممارساتهم بين العامة، حتى لجأ البعض إلى التعامل معهم بالطريقة التي يفهمونها:

«إن واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل في رفقةٍ فأحسّوا بالخوارج. فقال

واصل لأهل الرفقة: إن هذا ليس من شأنكم، فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وقد كانوا أشرفوا على العطب. فقالوا: شأنك. فخرج إليهم.

فقالوا: ما أنت وأصحابك؟

قال: قومٌ مشركون مستجيرون بكم، ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده.

قالوا: قد أجرناكم.

قال: فعلمونا.

فجعلوا يعلمونهم أحكامهم ويقول واصل: قد قبلت أنا ومَن معي.

قالوا: فامضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.

فقال: بل تبلغوننا مأمننا، لأن الله تعالى يقول: وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه.

قال: فينظر بعضهم إلى بعض. ثم قالوا: ذاك لكم. فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن»[1].

حرب النهروان

ولم يعد عليّ قادراً على تجاهلهم أكثر من ذلك، بعد تلك الروح العدائية الخطيرة التي أظهروها. فمتابعة المسير إلى الشام وترك هؤلاء في الكوفة يحمل في طياته خطراً شديداً على عاصمة عليّ ومعقله. لا يجوز لعليّ أن يسير بكل قواته بعيداً، ويترك عاصمته بلا دفاع تحت رحمة أولئك المهووسين. وقد كان احتمال قيامهم بالاستيلاء الفعلي على الكوفة وغيرها من البلاد العراقية كبيراً جداً. فكيف سيكون شعور جيشه وهم يجاهدون أهل الشام فتصلهم أنباء لا تسرّ، عن وقوع أهلهم وذراريهم وأموالهم بأيدي هؤلاء الخوارج؟

فلمّا فشلت كل محاولات عليّ في إقناع القاعدة الصلبة من الخوارج بالعودة

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٨٠ ـ ٢٨٢.

إلى صفوفه، اضطرّ إلى الدخول في المجابهة المسلّحة. وتحول الأمر إلى ما يشبه المذبحة لهؤلاء الخوارج.

فأعداد أولئك الذين أصرّوا على موقفهم تراوحت ما بين ١٥٠٠ ـ ٤٠٠٠ رجل حسب الروايات المختلفة. وكانت قيادتهم الميدانية في المعركة تتكون من زيد بن حصين الطائي، وشريح بن أوفى العبسي، وحمزة بن سنان الأسدي، وحرقوص بن زهير السعدي.

وواجههم عليّ بجيش من ١٤٠٠٠ رجل في صفر من عام ٣٨.

لم يكن هناك تكافؤ عسكري بين الطرفين. وبكل تأكيد، لم يكن عليّ يريد إبادة هؤلاء أو قتلهم، وكان مصرًا على إعطائهم فرصة التراجع والاستسلام حتى آخر لحظة. فبَسَط لهم راية أمانٍ مع أبي أيوب الأنصاري لكي يلجأ إليها مَن أراد الخروج من جيشهم وأمَره أن يصيح بهم:

«مَن جاء منكم إلى هذه الراية فهو آمن، ومَن دخل المَصرَ فهو آمن، ومَن انصرف إلى العراق وترك هذه الجماعة فهو آمن، فإنه لا حاجة لنا في سفك دمائكم»[1].

ولكن هؤلاء الخوارج أثبتوا صلابتهم الشديدة وتصميمهم الفريد[2]. قاتلوا بأسلوبٍ

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٦٩. وقريبٌ من ذلك ورد في تاريخ الطبري ج٤ ص٦٤.

(٢) وسوف يبقى الاستبسال في القتال، ابتغاء مرضاة الله، صفة ملازمة للخوارج، جيلا بعد آخر. والوصف التالي الذي ورد على لسان أحد قادتهم أثناء إحدى ثوراتهم العديدة ضد الأمويين، أيام مروان بن محمد بن عبد الملك، يوضح ذلك(من شرح نهج البلاغة ج٥ ص١١٦):

«نعم والله إن أصحابي لشباب مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم. قد باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا. قد خلطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم. محنية أصلابهم على أجزاء القرآن. كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار. وكلما مروا بآية رجاء شهقوا شوقا إلى الجنة. وإذا نظروا إلى السيوف وقد انتضيت، وإلى الرماح وقد أشرعت، وإلى السهام وقد فوقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا وعيدها عند وعيد الله وانغمسوا فيها. فطوبى لهم وحسن مآب. فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله! وكم من يد قد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا في طاعة الله».

عقائديّ واضح. وتشير الروايات إلى أن جميع جيشهم قد قتل في المعركة، باستثناء الذين جرحوا وأصيبوا، وهم حوالي ال ٤٠٠ رجل، قرر عليّ ردّهم إلى قبائلهم[1].

وكان الذي حصل في معركة النهروان، مأساة حقيقية، تضاف إلى سلسلة الكوارث التي ألمّت بعليّ، وبالجانب العراقي ككل. فهذا الاقتتال الداخليّ الطاحن، والذي خلّف آلاف القتلى، هو آخر ما يحتاجه العراقيون بعد الجمل وصفين.

مرة أخرى، وجدت القبائل العربية في العراق، التي هي بمجملها موالية للخليفة عليّ، مجبرة على قتل عدد كبير من أبنائها هي بالذات.

وانصرف العراقيون بعد تلك المعركة الطاحنة إلى لملمة جراحهم، وعدّ خسائرهم، وتقييم ما جرى.

والمفارقة ان كل هذه الحرب والقتال كانت بين فريقين يتفقان على ضرورة وجوب العودة إلى قتال معاوية وجيشه! فعليّ يريد ذلك ويسعى له بكل قوته. والخوارج كذلك، بل هم يتطرفون تجاه أهل الشام أكثر من عليّ، فاعتبروهم كفاراً وقتالهم جزءٌ من صحة العقيدة بينما اعتبرهم عليّ قاسطين وفاسقين وضالين ولكن ليس كفاراً.

والنتيجة كانت أن علياً، بقتله معظم قوات الخوارج، سوف يفقد العناصرَ الأشدّ حماسة واستعداداً من بين أهل العراق لاستئناف الحرب ضد معاوية. وسوف يعاني عليّ الأمرين وهو يحاول حشد بقية جيوشه وأهل العراق للعودة إلى الحرب. ولن ينجح.

كان ذلك تطوراً عجيباً للأحداث، وذا أثر مدمر على مستقبل عليّ في العراق.

وكان الأثر الاجتماعي لما حصل عظيماً، حتى أن امرأة أتت علياً وهو جالسٌ في المسجد وقالت له:

---

(١) أورد نصر بن مزاحم أرقاماً مختلفة عن عدد الخسائر في معركة النهروان. فقد ذكر في وقعة صفين ص٥٥٩ أنه قتل من الخوارج خمسة آلاف مقابل ١٣٠٠ من جيش عليّ.

«يا مَن قتلَ الرجال، وسفكَ الدماء، وأيتمَ الصبيان، وأرملَ النساء!»[1].

تولدت المزيد من الاضطرابات داخل جبهة عليّ.

رغم أن القتال في النهروان قد انتهى بالفعل بانتصارٍ صريحٍ لعليّ وقواته والقضاء على النواة الصلبة للخوارج، إلاّ أن الأمر لم ينته عند ذلك، بل كانت له سلسلة طويلة من ردات الفعل والتبعات والعواقب المؤلمة.

ففي أعقاب معركة النهروان، وخلال سنة ٣٨ للهجرة، حصلت ست حركات تمرّد مسلحة ضد الخليفة عليّ. ووجد عليّ نفسه مضطراً إلى إرسال الحملة تلو الأخرى للقضاء على تلك التمردات المحلية التي يقودها الخوارج وأنصارهم في أنحاء متفرقة من العراق ضد حكم عليّ.

وابتدأت تلك الحركات بتمرّد قاده شخصٌ اسمه الخريت بن راشد والذي كان قد واجه الخليفة مباشرة بقوله له:

«والله لا أطعتُ أمركَ ولا صليتُ خلفك!

فقال له علي: ثكلتك امك! إذا تعصي ربك وتنكث عهدك ولا تضر إلاّ نفسك. ولمَ تفعل ذلك؟

قال: لأنكَ حكمتَ في الكتاب وضعفتَ عن الحق حين جد الجد، وركنتَ إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم. فأنا عليك زارٍ وعليهم ناقم!».

وخرج الخريت من الكوفة ومعه ٣٠٠ رجل من بني ناجية وقد أعلنوا تمردهم، وساروا في مناطق ريفية وقتلوا بضعة أشخاص ممن لقوهم على طاعة عليّ. فأرسل عليٌّ خلفهم حملة عسكرية بقيادة زياد بن خصفة الذي لاحقهم في الأرياف حتى وصلوا البصرة، فدار نقاشٌ بين زعيم المتمردين، وبين قائد حملة عليّ، قال خلاله الخريت لما سأله زياد عن أسباب تمرّده:

«لم أرضَ صاحبكم ولا سيرته، فرأيتُ أن اعتزل وأكون مع مَن دعا إلى الشورى».

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٨٩.

وبعد قتال ضارٍ هُزم المتمردون وقتل معظم مَن كانوا مع الخريت الذي فرّ إلى الأهواز ومن ثمّ إلى داخل ايران، بعد أن نجح في استقطاب أعدادٍ من الفرس والأكراد ممن كانوا نصارى أصلاً.

وأرسلَ عليّ له حملة أخرى بقيادة معقل بن قيس الرياحي في ألفي مقاتلٍ من أهل البصرة. وخاضوا معه معركة شرسة أسفرت عن مقتل المئات من العرب والعجم الذين انضموا إلى الخريت، رغم أن قوات عليّ قد نصبت راية أمانٍ لمن شاء أن يتراجع.

ومن الملاحظ أن الخريت هذا قد لجأ إلى استعمال كل الطرق الدعائية الممكنة في محاولاته استقطاب العامة لدعمه. فهو قد وصل إلى حد «الطلب بدم عثمان «حين وجد أن ذلك يفيده في إحدى المراحل! ولم يعبأ الخريت بالتناقض الصارخ بين «الطلب بدم عثمان» وبين انتقاد عليّ «لأنه حكّمَ في كتاب الله»! فالمهم هو نجاح تمرّده ضد علي، وحسب تعبير البلاذري «وكان الخريت يوهم للخوارج أنه على رأيهم، ويوهم للعثمانية أنه يطلب بدم عثمان».

ونجحت قوات عليّ أخيراً بقتل الخريت وأسر معظم مَن كان معه، فتفرّقت بقية قواته وحشوده.

وما أن انتهى أمر الخريت، حتى بلغ علياً تمرّدٌ بقيادة الأشرس بن عوف الشيباني في منطقة الأنبار، فأرسل إليه قوة بقيادة الأبرش بن حسان، إلى أن قتل الأشرس في شهر ربيع أول.

وتبعَ ذلك تمرّدٌ بقيادة هلال بن علقمة في منطقة ماسبذان. ونجحت قوات الخليفة بقيادة معقل بن قيس في القضاء على التمرد بعد معركة قتلت فيها ٢٠٠ شخص في شهر جمادي الأولى.

وفي الشهر التالي حصل تمرد بقيادة الأشهب بن بشير القرني. وأسفر ذلك عن معركة في منطقة جوخا، انتصرت فيها قوات الخليفة بقيادة جارية بن قدامة التميمي وقتل المتمردون.

وفي شهر رجب وقع تمرّد بقيادة سعيد بن قفل في منطقة المدائن، فقام والي

علي، سعد بن مسعود الثقفي، بالقضاء عليه وقتل ٢٠٠ من أصحابه.

وفي شهر رمضان، نجح شخصٌ يدعى أبو مريم السعدي، في تأليب واستقطاب عناصر الخوارج الذين كانوا قد فارقوا أصحابهم وعادوا إلى صفوف عليّ قبيل معركة النهروان. فذكّرهم بـ«شهدائهم» واستنفرهم للثأر لهم فاستجاب له المئات منهم وانضم إليه أعدادٌ من الموالي وخاضوا حرباً شرسة، في منطقة شهرزور، ضد قوات عليّ التي قادها بنفسه قبل أن يولّي مهمة متابعة الحرب إلى جارية بن قدامة. ولم ينجُ من المتمردين سوى ٥٠ رجلاً استأمنوا فآمنهم علي![1]

سقوط مصر

خلعُ ابن أبي السرح

الظاهر أن التمرّد ضد حكم الخليفة عثمان كان قد بلغ أشدّه في مصر. فليس فقط أن الوفد المصري الذي ذهب إلى المدينة وانتهى به الأمر إلى المشاركة في قتل عثمان كان هو الأكبر بالقياس إلى وفود البصرة والكوفة، ولكن أيضا قام أعداء عثمان بالسيطرة على مصر وخلع والي الخليفة عبد الله بن سعد، وذلك في الفترة الحرجة التي شهدت الاضطرابات التي انتهت بقتل الخليفة.

ومن الغريب حقا أنه كان أبرز المعارضين لعثمان وحكمه والمحرّضين عليه شخص من أقرب الناس نسَبا إلى عثمان ومعاوية! فمحمد بن أبي حذيفة هو شاب من بني عبد شمس، كان أبوه من المسلمين الأولين في مكة. وأبو حذيفة هو ابن عتبة بن ربيعة، وأخو هند آكلة كبد حمزة، كان قد خالف أباه وقومَه، فكان من القلّة القليلة من أبناء بطون قريش العريقة الذين آمنوا بمحمد وهاجروا إلى الحبشة، فولد محمد ابنه هناك[2]. ولما استشهد ابو حذيفة في معركة اليمامة، تولى عثمان بن عفان

---

(١) أخبار حركات التمرد الست هذه من ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص٤١١ـ٤١٦ وص ٤٨١ـ٤٨٥.

(٢) الاصابة لابن حجر ج ٦ ص ٩.

رعاية ابنه محمد، بحكم كونه تاجراً غنياً، ومراعاة للقرابة.

وليس معروفاً على وجه الدقة السبب الذي جعل محمد بن أبي حذيفة يكون من أشد الكارهين لعثمان وحكمه والمؤلبين عليه. ولكن كل المصادر التاريخية تجمع على أن محمد بن أبي حذيفة، بالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، كانا أبرز النشطاء في مصر المعادين لعثمان والمؤسسة الأموية الحاكمة. وهناك أوجه شبه كثيرة بين المحمدين ابن أبي بكر وابن أبي حذيفة: فهما شابان من نفس الجيل، واستقرا في مصر، وهما ابنان لاثنين من كبار الصحابة السابقين إلى الإسلام وأخيراً هما من صميم قبيلة قريش. ولعل ابن أبي حذيفة تأثر بشخصية وأفكار ابن أبي بكر الذي كان ربيباً لعليّ بن أبي طالب، وأخاً لأبناء جعفر بن أبي طالب من جهة الأم.

وهناك نوع من الغموض في الروايات التاريخية التي تتحدث عن كيفية سيطرة محمد بن أبي حذيفة وأصحابه على مصر، ومتى حدث ذلك بالتحديد. كما أن هناك عدم وضوح فيما يختص بعبد الله بن سعد بن أبي السرح ومصيره عقب مقتل عثمان.

والأرجح هو أن ثورة محمد بن أبي حذيفة ومَن معه، وخلعهم لابن أبي السرح قد حصلت في أثناء فترة الشهور القلائل التي كان فيها عثمان مُحاصَراً إلى أن قتل. ربما كانت الأخبار الواردة من المدينة في تلك الأثناء مضطربة ومشوشة بحيث أثارت اضطراب ابن أبي السرح وأفقدته توازنه. من المحتمل أن ابن أبي السرح قد وصلته أخبار قتل عثمان وبيعة عليّ ففزع وعرف أنه ليس فقط سيفقد منصبه، وإنما قد يصبح مطلوبا للعقاب من قبل الخليفة الجديد على ما اقترفه من تجاوزات أثناء ولايته الطويلة. لا شك أن ابن أبي السرح كان يعرف علياً حق المعرفة، ويعرف صرامته في الحق، وربما قدر أن عليا سيكون كله آذاناً صاغية لكل مَن له شكوى أو مظلمة ضده.

يروي ابن حجر أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد خرج من مصر متوجهاً إلى عثمان «لمّا قامَ الناسُ عليه»، واستخلف عليها عقبة بن عامر، «فوثب

محمد بن أبي حذيفة على عقبة بن عامر فأخرجه من مصر، وذلك في شوال من عام ٣٥، ودعا إلى خلع عثمان وأسعر البلاد وحرّض الناس على عثمان»[١].

ويتابع ابن حجر «بايعَ أهلُ مصر محمدَ بن أبي حذيفة بالإمارة إلاّ عصابة منهم معاوية بن حديج وبسر بن أرطأة، فقدم عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ القلزم وجد هناك خيلاً لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل، فانصرف إلى عسقلان».

وحسب هذه الرواية فإن ابن أبي السرح يكون قد قرر الذهاب إلى معاوية بعد خلعه من مصر. وهذه الرواية ممكنة لأنه لم ترد أية روايات تفيد بوجود مقاومة لدخول والي عليّ المعيّن، قيس بن سعد، إلى مصر بعد فترة قصيرة. إذ لو كان ابن ابي السرح مسيطراً على مصر لما سمح لقيس بن سعد بدخولها بيُسر.

وليس لابن ابي السرح ذكرٌ مؤكد في أحداث الصراع الدامي الذي دار بين معاوية وعليّ. والأرجح انه مات بفلسطين في بداية تلك الأحداث، خاصة انه ولا شك كان طاعناً في السن، في السبعينات من عمره حتماً. فهو كان قد ارتدّ في بداية بعثة الرسولﷺ، أي انه كان رجلاً ناضجاً قبل حوالي ٥٥ عاما من سنة ٣٥ للهجرة. وبذلك يكون ولا شك في أواخر عمره عند مقتل عثمان[٢].

معاوية يتعامل مع التطورات في مصر

ويروي ابن حجر «أن محمد بن أبي حذيفة لما ضبط مصر، وأراد معاوية الخروج إلى صفين، بدأ بمصر أولاً فقاتله محمد بن ابي حذيفة بالعريش إلى أن تصالحا. وطلب منه معاوية ناساً يكونون تحت يده رهناً ليأمن جانبهم إذا خرج

---

(١) الاصابة لابن حجر ج ٦ ص ٩. وفي رواية أخرى لابن حجر أن الذي استخلفه على مصر هو السائب بن هشام بن عمير. وكذلك ذكر ابن الأثير في أسد الغابةج٣ ص١٧٤ نفس الرواية وفيها أن الذي استخلفه ابن سعد هو هشام بن عمرو إلى أن أزاله عنها ابن أبي حذيفة.

(٢) يقول ابن حجر في الاصابة ج٤ ص٩٥ أن ابن أبي السرح مات في عسقلان (وقيل الرملة) سنة ٣٦ للهجرة. رغم أنه ذكر رواية أخرى تفيد أنه عاش إلى سنة ٥٧، وحتى ٥٩، للهجرة. وذكر ابن الأثير في أسد الغابة ج٣ ص١٧٤ انه مات بعسقلان سنة ٣٦ أو ٣٧ رغم أن هناك من روى أنه عاش إلى آخر أيام معاوية.

إلى صفين. فأخرج محمد رهناً عدتهم ثلاثون نفساً، فأحيط بهم، وهو فيهم، فسجنوا»[1].

ولكن يجب الشك في صحة هذه الرواية: لأنه من المستبعد جداً ان يفكر معاوية بالهجوم على مصر أثناء استعداداته لقتال أهل العراق. لقد كان معاوية منهمكاً بأقصى طاقته لتجنيد أهل الشام وحشدهم خلفه للمعركة التي يعلم جيداً أنها قادمة حتماً وأنها ستكون حاسمة بالنسبة له. في تلك اللحظات الحرجة قبل صفين، كان معاوية يضع مصيره الشخصي، والحزب الأموي بأكمله، على شفير الهاوية. كانت الهزيمة والفشل أمام زحف عليّ والعراقيين احتمالاً مطروحاً بقوة أمام عيني معاوية، خاصة وقد رأى عليا يحارب زوجة الرسول واثنين من كبار الصحابة، بلا هوادة وبلا تردد. وكان يدرك مدى القدرات الاستقطابية التي يتمتع بها عليّ ومدى الشرعية والأخلاقية التي تميز تحركه. ولذلك لم يكن معاوية في وارد الدخول في مغامرات مصرية آنذاك. كما أن معاوية كان بحكم خبرته يدرك أيضا أن محمد بن أبي حذيفة، مع صغر سنه وقلة تمرّسه في العمل السياسي والإداري، ومع حداثة وثوبه على السلطة في مصر، لم يكن في وضع يسمح له بتشكيل تهديد جدي له في الشام. إن معاوية لم يستشعر التهديد الحقيقي له من الحدود المصرية إلاّ مع تولّي قيس بن سعد للولاية هناك.

ولكن هذا لا يمنع أن يكون معاوية بذل محاولات من أجل الحصول على دعم ابن خاله، محمد بن أبي حذيفة، أو على الأقل تحييده. والكثير من الروايات تفيد بأن معاوية نجح في إلقاء القبض على ابن أبي حذيفة، بالخديعة على الأغلب. فربما يكون معاوية قد استدرجه إلى كمين أو دعاه إلى مفاوضات وغدر به أو غيرها من الوسائل. وبعض الروايات يفيد بأن محمد بن أبي حذيفة قتل في معركة، وبعضها يفيد أنه حُبس ومن ثم هرب من سجنه وقتل بعد ذلك.

---

(١) الاصابة لابن حجر ج ٦ ص ١٠.

عليّ يعيّن قيسَ بن سعد بن عبادة

كان تعيين قيس بن سعد في منصب والي مصر وإفريقية خلفاً لرجل عثمان، ابن أبي السرح، جزءً من سياسة عليّ القائمة على إعادة الاعتبار للأنصار بشكل عام، بعد الفترة الطويلة التي تم تهميشهم فيها على يد الخلفاء الثلاثة. فقد عيّن عليّ شخصيات أنصارية بارزة في مناصب قيادية في دولة الإسلام. فهو كان يعتبر الأنصار المجموعة الرئيسية التي ساهمت في إنجاح دعوة محمدﷺ ودفعوا ضريبة الدم في سبيل ذلك، وبالتالي من حقهم إسناد دور محوري لهم في المنظومة الإسلامية. فإخلاصهم للرسولﷺ وللإسلام لا يرقى إليه الشك، وتضحياتهم يجب أن تكافئ. ولذا قام علي بتعيين رجال الأنصار في مناصب الولاة في البصرة وفي المدينة المنورة بالإضافة إلى مصر.

وقيس بن سعد، كشخص، كان يمتلك خصالاً تؤهله لهكذا منصب. وعدا عن كونه ابناً لواحد من زعماء الأنصار السابقين (كان سعد بن عبادة أحد النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة الآخرة)، فإنه هو ذاته كان محل ثقة رسول اللهﷺ وتقديره. فمثلاً كان قيس بن سعد هو صاحب لواء رسول اللهﷺ في الحج[1].

دخل قيس إلى مصر ومعه كتاب التعيين من الخليفة الجديد، وسرعان ما نجح في بسط سيطرته ونشر سلطان الإمام عليّ في مصر. وهذا أمرٌ يحسب له. فعلى الرغم من أن مصر كانت منذ أكثر من عشرين عاما تحت حكم ابن العاص ومن ثم ابن أبي السرح، إلاّ أن قيسا نجح في أخذ البيعة من أهلها لعليّ دون مشاكل كبيرة.

ولكن كان لا بد لعشرين عاماً من حكم عدوّي الإمام عليّ في مصر أن يترك بعض الأشياع والأتباع، وخاصة من الموظفين الإداريين والتنفيذيين والوجهاء الذين كانوا مستفيدين من حكم عثمان، وأصبحوا فجأة يرون كل امتيازاتهم ونفوذهم يتبخر أمام أعينهم مع قدوم والي الخليفة الجديد.

---

(١) صحيح البخاري، باب ما قيل في لواء النبيﷺ ج٤ ص٦٤.

يروي البلاذري «فقام الناس فبايعوا علياً واستقاموا لقيس، إلاّ رجلاً يقال له يزيد بن الحرث. وكان معتزلاً في قرية هناك فبعث إلى قيس: إنّا لا نبايعك ولا ننتزي عليك في سلطانك، فابعث عاملك، فإن الأرض أرضك. ولكننا نتوقف حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس.

ووثب مسلمة بن مخلد الساعدي من الأنصار، فنعا عثمان ودعا إلى الطلب بدمه.

فأرسل إليه قيس: ويحك أعليّ تثب؟! فوالله ما أحب أن أقتلك ولي ملك مصر والشام.

فكفّ فتاركه. وجَبا قيس الخراج وليس أحدٌ ينازعه»[1].

وقد أورد الطبري تفاصيل أكثر عن أنصار النظام القديم «فقام الناس فبايعوا. واستقامت له مصر وبعث عليها عماله. إلاّ أن قرية منها، يقال لها خربتا، فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبها رجل من كنانة، ثم من بني مدلج يقال له يزيد بن الحارث. فبعث هؤلاء إلى قيس بن سعد إنا لا نقاتلك، فابعث عمالك فالأرض أرضك، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس»[2].

من هذا النص يتضح أن موقف الفئة المرتبطة بالنظام السابق في مصر، والتي سوف تعرف لاحقاً بـ«العثمانية»، كان مهادناً لوالي الخليفة الجديد. لم يكن هؤلاء «العثمانية «في وضع يسمح لهم بالقيام بتحدّي جدّي لسلطة الإمام عليّ. والمؤكّد أنهم كانوا أقلية في مصر وأنهم كانوا مصدومين بمقتل خليفتهم وعزل واليهم وتتالي الأحداث بسرعة شديدة عليهم جعلتهم غير قادرين على التمييز بوضوح. ولذلك كان قرارهم التريّث في الأمور، وكان كل ما يريدونه أن يتركوا وشأنهم دون اعتداء من الوالي الجديد. ولم يكن حتى ذلك الوقت قد برز تحدّي

---

(١) ترجمة عليّ بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري ص ٣٩٠.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٥١.

صريح لسلطة علي بن أبي طالب وخلافته.

وعاملهم قيس بن سعد باللين والهوادة، ورضي منهم بالاعتزال والموادعة. فطالما لم يكن ليصدر منهم ما من شأنه أن يفسد عليه ولايته وحكمه، فلا داعي له أن يبدأ عهده في مصر بالقتال وسفك الدماء. كان قيس بحاجة إلى وقت من أجل تثبيت ركائز إدارته الجديدة، ولكي يتعرف على البلاد وأهلها ويضمن تأييد الجنود وأبناء القبائل العربية في مصر لخلافة عليّ. وقد بدا أن قيساً نجح في ذلك (وفي ذلك الزمان كانت جباية الخراج بسلاسة ودون مشاكل هي المقياس لنجاح الحاكم في ولايته، وهي التعبير عن الطاعة من الرعية للحاكم).

ولما كان قيس بن سعد والياً مقتدرا وقائداً ناجحاً، فقد أثار خوفاً شديداً لدى معاوية بسبب وجوده على الحدود الجنوبية لمعاوية، وخاصة مع ما يعلمه معاوية من استقامة قيس وولائه للإمام عليّ. وقد كان قيس بن سعد موجوداً في مصر، ومسيطراً على الأوضاع فيها خلال فترة حرجة من خلافة عليّ وهي تلك التي تشمل حرب الجمل وتمتد إلى ما بعد استقرار عليّ في الكوفة. وحرم قيسٌ معاوية من الميزة الاستراتيجية التي كانت متاحة له عن طريق استغلال الحرب التي يخوضها عليّ في البصرة وانشغاله هناك للسيطرة على مصر، التي لا شك لم تغب يوماً عن ذهن رجل كمعاوية. وقد عبّر الطبري عن هواجس معاوية بسبب وجود قيس في مصر «فكان أثقل خلق الله على معاوية بن أبي سفيان، لقربه من الشام، مخافة أن يقبل إليه عليّ في أهل العراق، ويقبل إليه قيس بن سعد في أهل مصر فيقع معاوية بينهما»[1].

بدأ معاوية باستعمال أساليبه المعهودة: الرشوة أولاً! أرسل معاوية إلى قيس بن سعد عارضاً عليه الانضمام إليه والتخلّي عن عليّ:

«فإن استطعتَ يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل.

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٥٥١.

تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرتُ ما بقيتَ، ولمن أحببتَ من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان.

وسَلني غير هذا مما تحب، فإنك لا تسألني شيئا إلاّ أوتيته. واكتب إليّ برأيك فيما كتبت به إليك. والسلام»[1].

وأرسل قيس جواباً مزلزلاً لمعاوية:

«... أما بعد،فإن العجب من اغترارك بي وطمعك في واستسقاطك رأيي!

أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة واقولهم للحق وأهداهم سبيلاً وأقربهم من رسول الله وسيلة؟! وتأمرني بالدخول في طاعتك؟ طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم للزور وأضلّهم سبيلا وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله وسيلة؟! ولد ضالين مُضِلين، طاغوتٌ من طواغيت إبليس.

وأما قولك إني مالئ عليك مصرَ خيلاً ورجلاً، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد والسلام.... فلما بلغ معاوية كتاب قيس أيس منه وثقل عليه مكانه»[2].

وفي رواية البلاذري أن قيساً كتب الى معاوية جواباً على محاولاته رشوته «يا وَثَن ابن الوَثَن، دخلتم في الإسلام كارهين وخرجتم منه طائعين«[3].

المكيدة

إن قضية قيام الإمام عليّ بعزل قيس بن سعد عن ولاية مصر، يجب أن تسجل كمثال بارز على دهاء معاوية بن أبي سفيان وقدراته الفذّة في مجال التآمر والحرب النفسية. والقصة تعود في جذورها إلى بداية عهد الإمام عليّ، حين قام بتعيين قيس بن سعد بن عبادة والياً على مصر وإفريقية خلفا لعبد الله بن سعد والي عثمان.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص.٥٥٢

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٥٣.

(٣) ترجمة علي بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري ص٣٩١.

وطبّق معاوية خطة في غاية الذكاء من أجل هز حكم قيس بن سعد في مصر. وكانت الخطة تعتمد في الأساس على زعزعة علاقة الثقة المتبادلة بين الإمام عليّ وتابعه المخلص قيس بن سعد. وهذا هدفٌ صعب المنال بلا شك، نظراً إلى طول عهد الإمام عليّ بقيس بن سعد، والأنصار عموماً، في المدينة المنورة وإلى مواقفهم المشهودة في دعم وتأييد عليّ ضد توجهات الهيمنة القرشية.

لجأ معاوية إلى الإشاعة بين الناس في الشام أن قيس بن سعد قد انقلب في مواقفه وأصبح مع معاوية من الطالبين بدم عثمان!

وكان معاوية يدرك أن الأخبار ستصل حتماً إلى العراق بهذا الأمر مما سيلقي الشك في قلب عليّ تجاه واليه. يقول الطبري:

«واختلقَ معاوية كتابا من قيس بن سعد، فقرأه على أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم. للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد. سلام عليك. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد: فإني لما نظرتُ رأيتُ أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامَهم مُسلماً محرماً بَراً تقياً، فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا ونسأله العصمة لديننا. ألا وإني قد ألقيتُ إليكم بالسلم. وإني قد أجبتك إلى قتال قتلة عثمان رضي الله عنه، إمام الهدى المظلوم. فعوّل عليّ فيما أحببتَ من الأموال والرجال أعجل عليك والسلام...

فشاع في أهل الشام أن قيس بن سعد قد بايع معاوية بن أبي سفيان، فسرحت عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك.

فلما أتاه ذلك أعظمه وأكبره وتعجب له. ودعا بنيه ودعا عبد الله بن جعفر فأعلمهم ذلك.

فقال: ما رأيكم؟

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين دَع ما يريبك إلى ما لا يريبك. اعزل قيسا عن مصر.

قال لهم علي: إني والله ما أصدّق بهذا على قيس!

فقال عبد الله يا أمير المؤمنين اعزله فوالله لئن كان هذا حقاً لا يعتزل لك إن عزلته»[1].

إذن نجحت خطة معاوية، ووصلت الأخبار إلى عليّ أن قيساً قد انشقّ عليه! وظاهرٌ من كلام الإمام علي مع آله أنه كان غير مصدّق لذلك، ولكن ماذا تراه يفعل وقد ملئت الإشاعات الآفاق تحمل تلك الأخبار؟ كان لا بد للخليفة لكي يتأكد أن يعهد إلى واليه المشكوك فيه بمهمة صعبة تظهر إخلاصه.

وفي تلك الظروف بالتحديد جاء كتاب من قيس بن سعد لعليّ يذكر له فيه خبر «العثمانية «في مصر والذين كان قد قرر موادعتهم ما داموا مسالمين. يروي الطبري «وإنهم كذلك إذ جاء كتابٌ من قيس بن سعد فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن قِبلي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فترى ويروا رأيهم. فقد رأيتُ أن أكفّ عنهم ولا أتعجل حربَهم وأن أتألفهم فيما بين ذلك، لعل الله عز وجل أن يُقبل بقلوبهم وأن يفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله.

فقال عبد الله بن جعفر: يا امير المؤمنين ما أخوفني أن يكون هذا ممالأة لهم منه. فمُره يا أمير المؤمنين بقتالهم.

فكتب إليه عليّ: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فسِر إلى القوم الذين ذكرتَ فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وإلاّ فناجزهم إن شاء الله.

فلما أتى قيس بن سعد الكتاب فقرأه لم يتمالك أن كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد يا أمير المؤمنين فقد عجبتُ لأمرك! أتأمرني بقتال قوم كافين عنك، مفرغيك لقتال عدوك. وإنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك. فأطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم فإن الرأي تركهم والسلام

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٥٤. وكان عبد الله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه.

فلما أتاه هذا الكتاب قال له عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، ابعث محمد بن أبي بكر على مصر يكفكَ أمرَها واعزل قيساً. والله لقد بلغني أن قيساً يقول: والله إن سلطاناً لا يتم إلاّ بقتل مَسلمة بن مخلد لسلطان سوء. والله ما أحب ان لي ملك الشام إلى مصر وإني قتلتُ ابن مخلد

فبعث عليّ محمد بن أبي بكر على مصر وعزل عنها قيساً»[1].

لقد ترافقت إشاعات معاوية حول قيس بن سعد، مع كتابه الذي أرسله إلى عليّ يخبره فيه بقراره مهادنة «العثمانية «في مصر، لتخلق لدى الإمام عليّ شكًا في واليه دفعه إلى عزله من قبيل الاحتياط. في تلك الظروف لم يكن أمام عليّ من سبيل آخر سوى عزل قيس بن سعد من منصبه، لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة للتأكد من إخلاصه. فإذا نفّذ قيس قرار العزل وأطاع علياً فعندها فقط تكون الأخبار عنه كاذبة، وأما إذا أعلن رفضه لقرار الخليفة وتمسك بمنصبه فتكون الإشاعات صحيحة ويكون على عليّ أن يتصرف بناء على ذلك. ولم يكن ممكنا أن يُبقي عليّ قيساً في منصبه المهم جداً مع شكه فيه، ذلك الشكّ الذي تعزز مع إصرار قيس على رفض مناجزة العثمانية وتصميمه على قرار الموادعة[2].

ابن أبي بكر يفشل في مهمته

لم ينجح محمد بن أبي بكر في السيطرة على الأوضاع في مصر. ولم يكن يمتلك الخبرة الكافية لإدارة شؤونها على النحو الأمثل. ويبدو أنه كان في طبعه وأسلوبه حدّة في التعامل مع بقايا عهد عثمان«لم يمكث محمد بن أبي بكر إلاّ يسيراً حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادَعَهم فقال لهم: إما أن تبايعوا وادخلوا في طاعتنا، وإما أن ترحلوا عنا».

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٥٥.

(٢) ومما يجب أن يسجّل لقيس بن سعد وفاؤه المستمر والمتواصل لإمامه عليّ على الرغم من قرار العزل. فهو عاد إليه وانضم إلى صفوفه وكان له دور بارز في صفين وما بعدها.

دفع ذلك «العثمانية» في مصر إلى تنظيم أنفسهم على شكل معارضة فعالة، وكانوا بشكل خاص من القبائل اليمانية، فامتنعوا وأخذوا حذرهم وكانوا له هائبين. حتى أتى خبر الحكمين فاجترؤوا عليه ونابذوه».

ولا بد من ملاحظة أن التحدي الحقيقي وبدء المواجهة الفعلية من قبل «العثمانية» في مصر لسلطة محمد تجلّت بعد انتهاء معركة صفين، وما تبعها من مهزلة التحكيم. فقد علموا أن أعداء عليّ قد صمدوا في المواجهة وأعطاهم ذلك دفعاً معنويا كبيراً ولا شك:

«فبعث ابن جمهاز البلوي إلى يزيد بن الحرث الكناني ومَن قبله من أهل القرية التي كان بها، فقاتلوه فقتلوه. فبعث إليهم ابن أبي بكر رجلاً من كلب فقتلوه أيضا».

ويدأ «العثمانية» في التعامل الإيجابي مع حليفهم الموضوعي في الشام، معاوية:

«وخرج معاوية بن حديج الكندي ثم السكوني فدعا إلى الطلب بدم عثمان، وذلك أن معاوية دسّ إليه في ذلك وكاتبه فيما يقال وأرغبه. فأجاب ابنَ حديج بشرٌ كثير. وفسدت مصر على ابن أبي بكر»[1].

إذن اضطربت الأحوال بابن أبي بكر وشعر أن الأمور تسير في غير صالحه مما دفعه إلى مراسلة الخليفة في العراق يطلب منه العون:

«وبلغ علياً ضعف محمد بن أبي بكر وممالأة اليمانية معاوية وعمرو بن العاص، فقال: ما أوتي محمد من حرض. ووجه مالك بن الحارث الأشتر إلى مصر... فلما بلغ معاوية أن علياً قد وجه الأشتر عظم عليه، وعلم أن أهل اليمن أسرع إلى الأشتر منهم إلى كل أحد»[2].

إن قيام الإمام عليّ بتعيين مالك الأشتر بديلاً لابن أبي بكر يشير بوضوح إلى مدى الاهتمام من طرفه بالمحافظة على مصر وحرصه على عدم سقوطها بيد أعدائه.

---

(١) هذا وما قبله من ترجمة عليّ بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري ص ٣٩٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٩٤.

فعليٌ كان يعتبر مالك الأشتر من أخلص الرجال له الذين يعتمد عليهم في إدارته وحكمه، وكان يفضل دائماً وجوده إلى جانبه. وحسب تعبير عليّ في كتابه لأهل مصر بهذا الشأن فهو «آثَرَهُم به على نفسه».

ولكن هل كان على عليّ أن يفعل أكثر من ذلك؟ ألم يكن واجباً عليه إرسال جيشٍ لإنقاذ مصر من السقوط؟

يبدو أنه فكر بذلك ولكنه اصطدم بعقباتٍ لها علاقة بالمشاكل الداخلية لديه في العراق، بالإضافة إلى أمورٍ موضوعية تتعلقُ بصعوبة إرسال جيشٍ كبير يخترق بلاد الشام ليصلَ إلى مصر.

*****

والرسائل المتبادلة بين معاوية في الشام وبين أعداء محمد بن أبي بكر في مصر، تظهر بوضوح أن العثمانية كانوا حتى ذلك الوقت لا يدينون بالولاء لمعاوية، بل كانوا يرون أنفسهم أوفياء لذكرى الخليفة «المظلوم» وتراثه. وقد أحسن معاوية التعامل معهم، وقبلوا هم عرضه لمساعدتهم ضد محمد، لحاجتهم لذلك:

كتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج «فإن الله عز وجل قد ابتعثكما لأمر عظيم. أعظم به أجركما ورفع درجتكما ومرتبتكما في المسلمين.

طلبتما بدم الخليفة المظلوم. وغضبتما لله إذ ترك حكم الكتاب. وجاهدتما أهل الظلم والعدوان. فأبشروا برضوان الله وعاجل نصرة أولياء الله والمواساة لكما في دار الدنيا، وسلطاننا، حتى ينتهي ذلك إلى ما يرضيكما ويؤدي به حقكما.

فالزما أمركما وجاهدا عدوكما وادعوا المدبرين منكما على هداكما. فكأن الجيش قد أظل عليكما، فاندفع كل ما تكرهان ودام كل ما تهويان. والسلام عليكما ورحمة الله».

وكان الجواب:

«أما بعد. فإن هذا الأمر الذي قد ندبنا له أنفسنا، وابتغينا الله به على عدونا، أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر على مَن خالفنا، وتعجيل النقمة على مَن سعى على إمامنا، وطأطأ الركض في مهادنا.

ونحن بهذه الأرض قد نفينا مَن كان بها من أهل البغي، وأنهضنا مَن كان بها من أهل القسط والعدل.

وقد ذكرتَ موازرتك في سلطانك وذات يدك. وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا ولا إياه أردنا....

عجّل علينا بخيلك ورجلك، فإن عدونا قد كان علينا جريئا وكنا فيهم قليلا. وقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم منابذين.

فإن يأتنا مددٌ من قبلك يفتح الله عليك»[1].

فهؤلاء إذن يرحبون بالعون والمدد من معاوية ولكنهم يفعلون ذلك لحاجتهم للإستقواء به على ابن أبي بكر وليس حباً بمعاوية. فالعثمانية موجودون في مصر لأسبابٍ لا علاقة لها بمعاوية، ولم يكونوا نتاجاً لمخططاته. وإنما هو يستفيد منهم بذكاء، ويجرّهم إلى معسكره.

معاوية يتخلص من الأشتر

وكان لمعاوية جهاز مخابرات فعّال، اصطنعه بواسطة الأموال وشراء الذمم، ينقل له أخبار العراق ومعسكر عليّ أولاً بأول. ولما قرر الإمام عليّ إرسال مالك الأشتر إلى مصر، أبلغه جواسيسه بالخبر فوراً، وعلى حد تعبير الطبري «وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية عليّ الأشتر».

وكان هذا خبراً سيئا جداً لمعاوية، لأنه يعرف مدى شدة مالك الأشتر ومدى خبرته التنظيمية والقتالية والميدانية أيضاً. ولا يُقارن مالك الأشتر بمحمد بن أبي بكر،

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٨٢

الشاب اليافع، وقليل الخبرة، والمتحمس. ولذلك قرر معاوية أن يحاول التخلص من الأشتر بأي وسيلة قبل وصوله إلى مصر ودخولها، الذي كان من شأنه ربما أن يقلب خطط معاوية وابن العاص رأساً على عقب. فلجأ هنا إلى أيضا إلى أسلوب الرشوة والتآمر وشراء الذمم. رسم خطة محكمة تعتمد على الغدر بالأشتر بواسطة مَن لا يتوقع الغدر منه!

فحتى تلك اللحظة لم يكن أهل البلاد الأصليين يتدخلون فيما يحدث من خلافات بين السادة العرب الفاتحين. كان أقباط مصر بكتلتهم معزولين عن التجمعات العربية، ذات الطابع العسكري في الغالب، والآخذة بالازدياد في مصر، وكان دورهم مقتصراً على أداء الجزية والخراج للحكام العرب. وهنا قام معاوية بخطوة غير تقليدية حين أرسل إلى أحد الوجهاء المحليين في مصر، والمسمى الجايستار، عارضاً عليه أن يضطلع بالدور الرئيسي في مؤآمرة اغتيال الأشتر، مقابل أن يعفيه من الضرائب والخراج في المستقبل «فبعث معاوية إلى الجايستار، رجل من أهل الخراج، فقال له: إن الأشتر قد ولي مصر، فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت. فاحتل له بما قدرتَ عليه»[1].

ولم يقاوم الجايستار هذا الإغراء الكبير وقبل القيام بالدور. والخطة تتلخص في أن يذهب الجايستار هذا إلى منطقة في بداية الحدود المصرية تدعى «القلزم»(٢) من أجل استقبال والي الخليفة الجديد أول دخوله البلاد. وفعلا قام الجايستار هذا بالترحيب الشديد بالأشتر حين وصوله. ولم تثر شكوك الأشتر لأن هذا سلوك معتاد من قبل أهل البلاد الأصليين الميالين إلى الموادعة، فقبل أن يستضيفه الجايستار وأكل من طعامه، ولم يَدُر بخلده أن سُماً زعافا قد مزج في العسل الذي قدمه الدهقان له!

كانت وفاة مالك الأشتر في تلك الظروف ضربة موجعة لمعسكر الخليفة عموما، ولعليّ شخصياً. وقد أحسن معاوية التعبير عن تأثير وفاة الأشتر على عليّ

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٧١.

(٢) مكان قريب من مدينة السويس الحالية في مصر.

«فقام معاوية في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد: فإنه كانت لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان. قطعت إحداهما يوم صفين، يعني عمار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم، يعني الأشتر»[1].

وحقق ابنُ العاص حلمَه الدائم وعادَ إلى مصر

أصبحت الأجواء الآن مهيئة أمام معاوية لتحقيق هدفه الاستراتيجي بالسيطرة على مصر. وطبعا لم يجد معاوية أفضل من عمرو بن العاص لكي يعهد إليه بقيادة الحملة المصرية، فهو صاحب الخبرة الطويلة جدا في الشؤون المصرية، وقد سبق له أن افتتحها وحكمها لعدة سنوات أيام عمر. وغدت الفرصة سانحة أمام ابن العاص لكي يحقق حلمه الذي لم يفارقه: العودة إلى حكم مصر.

تقدم عمرو بن العاص إلى مصر في جيش لجب من ستة آلاف. ولما اقترب منها كتب إلى محمد بن أبي بكر يأمره بالتنحي والتخلّي عن ولاية مصر. ورفض ابن أبي بكر التهديد وأمر الاستسلام الصادر من ابن العاص، وصمم على القتال بمن معه من المقاتلين الموالين له.

وبعد أن فقد ابن ابي بكر التأييد العام من مقاتلة مصر بسبب الحرب النفسية الهائلة التي شنها معاوية وحملة الترهيب التي نفذها ابن العاص، أصبح جلّ اعتماده على قاعدته الصلبة من المؤيدين الذين كان لهم باعٌ طويل في معاداة عثمان بن عفان، وشاركوا في التمرد عليه وساهموا في قتله، وعلى رأسهم كنانة بن بشر السكوني.

ومن الجهة المقابلة، انضم «العثمانية» القدماء في مصر إلى ابن العاص في حملته، وكانوا بقيادة فعالة من معاوية بن حديج، السكوني أيضا، والذي هو من نفس قبيلة كنانة بن بشر.

وحصلت معركة طاحنة بين الفريقين. فكان جماعة محمد ابن أبي بكر وكنانة بن بشر، يدركون أن الجيش الشامي لن يرحمهم بعد كل الذي جرى من أحداث،

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٧٢.

خاصة وأن ابن أبي بكر وكنانة، كانا من الأشخاص المتهمين مباشرة بقتل عثمان. وكان القتال شديداً بين جيش من حوالي أربعة آلاف وآخر من ستة آلاف. وحسب تعبير اليعقوبي «فلقيهم محمد بن أبي بكر في موضع يقال له: المسناة، فحاربهم محاربة شديدة. وكان عمرو يقول: ما رأيتُ مثل يوم المسناة. وقد كان محمدٌ استذمّ إلى اليمانية، فمايلَ عمرو بن العاص اليمانية»[1].

وأورد الطبري مزيداً من التفاصيل حول القتال:

«واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد.

فأقبل عمرو نحو كنانة، فلما دنا من كنانة سرّحَ الكتائبَ كتيبة بعد كتيبة. فجعل كنانة لا تأتيه كتيبة من كتائب أهل الشام إلاّ شدّ عليها بمن معه فيضربها حتى يقربها بعمرو بن العاص. ففعل ذلك مراراً.

فلما رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية بن خديج السكوني، فأتاه في مثل الدهم فأحاط بكنانة وأصحابه. واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب.

فلما رأى ذلك كنانة بن بشر، نزل عن فرسه ونزل أصحابه وكنانة يقول ﴿وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتابا مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾. فضارهم بسيفه حتى استشهد رحمه الله.

وأقبل عمرو بن العاص نحو محمد بن أبي بكر وقد تفرق عنه أصحابه لما بلغهم قتل كنانة حتى بقي وما معه أحد من أصحابه.

فلما رأى ذلك محمد خرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق فأوى إليها.

وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد حتى انتهى إلى علوج في قارعة الطريق. فسألهم: هل مرّ بكم أحدٌ تنكرونه؟

فقال احدهم: لا والله. إلاّ أني دخلتُ تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها جالس.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٩٤.

فقال ابن حديج: هو ورب الكعبة!

فانطلقوا يركضون حتى دخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً. فأقبلوا به نحو فسطاط مصر.

ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جنده، فقال: أتقتل أخي صبراً؟ ابعث إلى معاوية فانهَه.

فبعث إليه عمرو بن العاص يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر.

فقال معاوية: أكذاك قتلتم كنانة بن بشر، وأخلي أنا عن محمد بن أبي بكر؟ هيهات. أكفّاركم خيرٌ من أولئكم أم لكم براءة في الزبر؟!

.....قال له معاوية: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار.

فقال له محمد: إن فعلتم بي ذلك فطالما فعل ذلك في أولياء الله. وإني لأرجو هذه النار التي تحرقني بها أن يجعلها الله عليّ برداً وسلاماً كما جعلها على خليله ابراهيم وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه. ان الله يحرقك ومَن ذكرته قبل(يعني عثمان)، وإمامك (يعني معاوية)، وهذا (وأشار إلى عمرو بن العاص) بنار تلظى عليكم كلما خبَت زادها الله سعيرا.

قال له معاوية: إني إنما أقتلك بعثمان.

فقال محمد: وما أنت وعثمان؟ إن عثمان عمل بالجور ونبذ حكم القرآن. وقد قال الله تعالى ﴿ومَن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون﴾ فنقمنا ذلك عليه فقتلناه، وحسّنتَ أنت له ذلك ونظراؤك. فقد برّأنا الله إن شاء الله تعالى من ذنبه، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه، وجاعلك على مثاله.

فغضب معاوية فقدمه فقتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار»[1].

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٧٩. وقد ذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص١٠٤ حادثة حرق جسد محمد بن أبي بكر في جوف حمار.

وقد كان خبر مقتل محمد ابن أبي بكر مؤلماً جدا للإمام عليّ، فقال: «.. فان مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد. فعند الله نحتسبه ولدا ناصحاً وعاملا كادحاً وسيفا قاطعاً وركنا دافعاً..»[1].

وقال في مناسة أخرى عنه: «.. ولقد كان إليّ حبيباً وكان لي ربيباً»[2].

وقويت شوكة أنصار عثمان ومعاوية في كل مكان

«إن قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يعظمون قتله، لم يكن لهم نظامٌ ولا رأسٌ، فبايعوا لعليّ عليه السلام على ما في أنفسهم، وعاملُ عليّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عبيد الله بن عباس وعامله على الجند سعيد بن نمران. فلما اختلفَ الناسُ على عليّ عليه السلام بالعراق، وقتل محمد بن أبي بكر بمصر، وكثرت غارات أهل الشام، تكلموا ودعوا إلى الطلب بدم عثمان.

فبلغ ذلك عبيد الله بن عباس فأرسل إلى ناس من وجوههم فقال: ما هذا الذي بلغني عنكم؟

قالوا: إنا لم نزل ننكر قتل عثمان، ونرى مجاهدة مَن سعى عليه.

فحبَسَهم.

فكتبوا إلى مَن بالجند من أصحابهم، فثاروا بسعيد بن نمران، فأخرجوه من الجند، وأظهروا أمرهم. وخرج إليهم مَن كان بصنعاء وانضم إليهم كل مَن كان على رأيهم. ولحق بهم قومٌ لم يكونوا على رأيهم، أرادوا أن يمنعوا الصدقة».

وبسبب تلك التطورات كتب عبيد الله بن عباس إلى عليّ:

«أم بعد: فإنا نخبر أمير المؤمنين عليه السلام أن شيعة عثمان وثبوا بنا، وأظهروا أن معاوية قد شيد أمره، واتسق له أكثر الناس.

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص ٣٥٠.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٨٩

وإنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومَن كان على طاعته. وإن ذلك أحمشهم وألبهم، فعبئوا لنا، وداعوا علينا من كل أوب. ونصرهم علينا مَن لم يكن له رأي فيهم إرادة أن يمنع حق الله المفروض عليه.

وليس يمنعنا من مناجزتهم إلاّ انتظار أمر أمير المؤمنين».

فأرسل عليّ كتابين من العراق: الأول إلى عبيد الله وسعيد، يقرّعهما فيه على تخاذلهما وسوء تدبيرهما، والآخر إلى المتمردين من أهل اليمن يطلب منهم الاستمرار بالطاعة والوفاء بالبيعة، ويَعُدهم بالعفو إن تراجعوا، وبنفس الوقت يهددهم بإرسال جيش بقيادة يزيد بن قيس الأرحبي ليطحَنهم إن هم أصروا على العصيان.

فكان رد فعل المتمردين أن أرسلوا إلى معاوية يسألونه المدد وقالوا له:

«معاويَ إلاّ تسرع السيرَ نحونا ... نبايع علياً أو يزيدَ اليمانيا»[1].

معاوية يطمح إلى اقتحام العالم العراقي

محاولة السيطرة على البصرة بعد سقوط مصر[2]

قرر معاوية أن الوقت قد حان ليسعى لاستغلال الوضع القبليّ المضطرب في البصرة ومحاولة الحصول على ولائها، بعد إخراجها من طاعة عليّ.

كانت تلك خطوة كبيرة من جانب معاوية، وتعكس بلا ريب نمواً متزايداً في ثقته بجبهته ومعسكره، وفي ذات الوقت إدراكه لعمق المشاكل والصعوبات التي تواجه علياً في العراق.

فالبصرة ليست رهاناً سهلاً. فهي الحاضرة الرئيسية الثانية في العراق، بعد الكوفة. والنجاح في الاستيلاء عليها سيشكّل ضربة شبه قاصمة لعليّ وسلطته. وسيضيق فضاء عليّ، عندها، لينحصر فعلياً في الكوفة وما شرقها من بلاد فارس،

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٥.

(٢) من تاريخ الطبري ج٤ ص٨٥

وسيجد عليّ نفسه وقد فقد بالفعل السيطرة على جلّ المناطق العربية وسكانها. فالشام ومصر صارت خالصة لمعاوية، والحجاز واليمن أضحت مناطق «متنازع عليها «بينهما، وسقوط البصرة أيضاً سيؤدّي فعلياً إلى سقوط البحرين واستتباب الأمر لمعاوية في الجنوب العربي بأسره.

ومغامرة معاوية باتجاه البصرة كانت في الحقيقة رهانا منه على قدرته على إحياء كل مآسي يوم الجمل بين أهلها. هو كان يراهن على الدماء التي سالت في البصرة، والتي لم يطل عليها العهد. وحسب خطة معاوية، فإن البصريين، أو جزءً مهما منهم، سيكونون مهيئين لقبول حكم معاوية، نكاية بعليّ الذي وَتَرَهم يوم الجمل.

وسير الأحداث يُظهر أن كل رهان معاوية كان منصباً على هذا الوتر. فهو لم يُرسل جيشاً لفتح البصرة، ولا مقاتلين لهزيمة رجال عليّ، بل أرسل رجلاً خبيراً في الشؤون البصرية، وهو عبد الله بن عامر بن الحضرمي[1]، الذي كان نائبا لعبد الله بن عامر بن كريز، والي البصرة أيام عثمان. وابن الحضرمي كان بلا شك يعرف أوضاع البصرة الداخلية تماما، ويملك الصلات والعلاقات القديمة مع كثيرين من رجالاتها والمفاتيح فيها، بما يؤهله للنجاح في مهمته الصعبة تلك.

وكان والي عليّ على البصرة، عبد الله بن عباس، حينذاك موجوداً في الكوفة عند عليّ، وقد استخلف على البصرة وبيت مالها زياد بن أبيه.

ونزل ابن الحضرمي جاراً على قبيلة تميم في البصرة، التي تعهدت بحمايته، وبدأ من هناك عمله الدؤوب في محاولة السيطرة على البصرة وإخراجها من طاعة عليّ عن طريق بذل الوعود لوجهائها بالنيابة عن سيده معاوية. وباشر بالاتصال مع الذين كانوا على علاقة ببني أمية وولاتهم والمستفيدين من أيام عثمان.

---

(١) وأبوه كان حليفاً لجدّ معاوية عتبة بن ربيعة. وقد لعب أبوه عامر بن الحضرمي دوراً مميزاً في تحريض قريش على قتال المسلمين يوم بدر حين قام في جيشها يصرخ مطالباً بالثأر لدم أخيه عمرو الذي قتله المسلمون قبيل معركة بدر، وبلغ حماسه إلى درجة أنه «... كشَفَ عن إسته، وصَرَخ: واعمراه واعمراه! فحمي القومُ... «كما روى المباركفوري في سيرة رسول الله ﷺ الرحيق المختوم ص٢٣٧. وأيضاً كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٦٥.

ولكن زياد بن أبيه، الذي كان يعتبر والي عليّ في غياب ابن عباس، أثبت أنه ذو قدرات عالية المستوى في مواجهة المخاطر والصعوبات. لجأ زياد إلى التعامل مع الأزمة بالأسلوب الوحيد الذي يمكن ان ينجح في تلك البيئة: اللعب على حبال القبائل المتنافسة! كان هذا الأسلوب يبرع فيه معاوية، ولسوء حظه أنه واجه، على غير توقع، خصماً يجيد هذا الأسلوب أيضا!

لجأ زياد إلى القبيلة الرئيسية في البصرة التي تنافس تميم، وهي الأزد، وطلب منهم الحماية. وفعلاً استجاب أشراف الأزد انصياعا للتقاليد العربية بإغاثة الملهوف، ونكاية بتميم. وهكذا أصبح زياد في مَنعَةٍ بعد أن استثار حمية زعماء الأزد. ونزل زياد دار صبرة بن شيمان ومعه بيت المال.

ودسّ زياد مَن يوصل لزعماء الأزد أن تميماً تزدريهم وتستهين بشرفهم وتريد أن تعتدي على الذي أجاروه. وأدى ذلك بالفعل إلى أن الأزد زاد تصميمهم على التمسّك بزياد وحمايته، كي لا يفرطوا بشرف القبيلة!

وأرسل زيادٌ إلى الإمام عليّ يخبره بتطورات الأوضاع في البصرة. فقام عليٌ باختيار شخص من قبيلة تميم وأرسله من الكوفة ليقنع قومه في البصرة بالتخلي عن ابن الحضرمي. وفعلاً ذهب أعين بن ضبيعة إلى البصرة، ولكنه دخل في سلسلة مشاكل هناك، داخل أجنحة قبيلة تميم، أسفرت عن مقتله.

وأصبحت هناك حالة من التوازن في البصرة، أقرب إلى الهدنة، بين القبيلتين. فالأزد تحمي وتمنع زياداً، بينما تميم تدفع عن ابن الحضرمي. وبقي الخصمان متربصين ببعضهما بانتظار عامل حسم لا بد أن ياتي من الخارج.

فأرسل الإمام عليّ رجلا آخر من تميم، وهو جارية بن قدامة، في كتيبة صغيرة إلى البصرة. ونجح جارية هذه المرّة في إقناع معظم قومه بالتخلي عن مندوب معاوية، بعد أن قرأ عليهم كتاب عليّ. وقام جارية بمطاردة ابن الحضرمي وحصره وقتله مع السبعين رجلاً الذين كانوا معه، وأحرق عليهم دارهم.

وهكذا فشلت مؤامرة معاوية في البصرة ورجع زياد إلى دار الإمارة.

محاولة أقلّ طموحاً: معاوية يستهدف السماوة[1]

لم ييأس معاوية من مشروعه العراقي. ولكنه أصبح أكثر واقعيةً هذه المرة حين أرسل، بعد فترةٍ قيّم خلالها ما حصل في البصرة، رجلاً من قبيلة كلب يدعى زهير بن مكحول إلى السّماوة، وهي تقع على الفرات ما بين البصرة والكوفة، من أجل إخراجها من طاعة عليّ. وبالفعل فإن زهير بن مكحول بدأ في قبض الصدقات لحساب معاوية. ولا شك أن مندوب معاوية قد استفاد من انشغال عليّ وقواته في الصراع الداخلي ضد الخوارج بالإضافة إلى السمعة الرهيبة التي اكتسبتها قوات معاوية التي كانت بدأت بشنّ موجة الغارات الوحشية على المناطق التي هي بطاعة عليّ.

ولمواجهة ذلك أرسل عليّ ثلاثة رجال: جعفر بن عبد الله الأشجعي، وعروة بن العشبة (من قبيلة كلب) والجلاس بن عميٍر. وخاض هؤلاء معركة ضد جماعة معاوية في السماوة فخسروها، وقتل منهم جعفر بينما فرّ الجلاس وابن العشبة. ولما رجع ابن العشبة خائبا إلى عليّ في الكوفة، غضب عليه واتهمه بالجبن وعاقبه لذلك، مما أدى إلى فرار ابن العشبة من العراق ولحوقه بمعاوية في الشام.

الغارات: يا أشباه الرجال!

لما فرغ عليّ من حرب الخوارج في النهروان أراد التوجه مباشرة بجيشه إلى الشام:

«قام خطيباً فحمد الله ثم قال: فإن الله قد أحسن بلاءكم وأعز نصركم. فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا. فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون.

فقالوا: يا أمير المؤمنين! نفذت نبالنا، وكلّت أذرعنا، وتقطعت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا. فارجع بنا نحسّن عدتنا. ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة. فإن ذلك أقوى لنا على عدونا.

فأقبل عليّ بالناس حتى نزل بالنخيلة فعسكر بها، وأمر الناسَ أن يلزموا معه

---

(١) من ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص٤٦٥.

عسكرهم، ويوطنوا أنفسهم على الجهاد، وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم، حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام.

فأقاموا معه أياماً ثم رجعوا يتسللون ويدخلون الكوفة، ويتلذذون بنسائهم وأبنائهم ولذاتهم، حتى تركوا علياً وما معه إلاّ نفرٌ من وجوه الناس يسير، وترك العسكر خاليا»[1].

ومن جانبه كان معاوية يرصد تطورات الأحداث في العراق بدقة. وبعد انتهاء مؤتمر التحكيم، وصلته الأخبار أن علياً قد تجهز في أهل العراق للمسير إليه مرة أخرى وانه قد خرج بجيوشه بالفعل

«.. فهاله ذلك. فخرج من دمشق معسكراً وبعث إلى كور الشام فصاح بها: إن علياً قد سار إليكم. وكتب إليهم نسخة واحدة:

أما بعد، فإنا كنا كتبنا كتاباً بيننا وبين عليّ، وشرطنا فيه شروطاً، وحكمنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه، وجعلنا عهد الله وميثاقه على مَن نكث العهد ولم يُمضِ الحكم. وإن حَكمي الذي كنتُ حكمته أثبتني، وإن حكَمَه خلعَه. وقد أقبل إليكم ظالماً. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه.

تجهزوا للحرب بأحسن الجهاز، وأعدوا آلة القتال، وأقبلوا خفافاً وثقالاً، يسرنا الله وإياكم لصالح الأعمال!

فاجتمع إليه الناس من كل كورة وأرادوا المسير إلى صفين...

فمكثوا يجيلون الرأي يومين أو ثلاثة، حتى قدمت عليهم عيونهم: إن علياً اختلف عليه أصحابه، ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحكومة، وأنه قد رجع عنكم إليهم.

فكبر الناس سروراً لانصرافه عنهم، وما ألقى الله عز وجل من الخلاف بينهم.

فلم يزل معاوية مُعسكِراً في مكانه، منتظراً لما يكون من عليّ وأصحابه، وهل يُقبل بالناس أم لا؟

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٧٠.

فلما برح جاء الخبر أن علياً قد قتل أولئك الخوارج، وانه أراد بعد قتلهم أن يقبل بالناس، وأنهم استنظروه ودافعوه. فسرّ بذلك هو ومَن قبله من الناس»[1].

فقرر معاوية بعدها أن يستغل ظروف الاضطراب في العراق وأن يتحول إلى استراتيجية هجومية!

بدأ معاوية في شن حملة واسعة من الغارات على المناطق الخاضعة لحكم عليّ. وكانت المعالم الرئيسية لتلك الغارات على النحو التالي:

- إرسال قوات عسكرية صغيرة الحجم نسبياً.
- استهداف منطقة محددة بعينها، وتكون في الغالب بعيدة نسبياً عن مركز خلافة علي في الكوفة.
- الهجوم المفاجئ، المركّز، وغير المسبوق بأي مقدمات.
- الحرص على ارتكاب جرائم صارخة، ذات صدى إعلامي واسع، وممارسات ترويعية بحق الناس الذين هم في طاعة عليّ
- عدم «احتلال «المنطقة المستهدفة، والانسحاب منها عقب تنفيذ المهمة.

والنص التالي يوضح تماماً فلسفة معاوية من شن الغارات:

«... تحدث الناس بالشام أن علياً عليه السلام يستنفر الناسَ بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفت أهواؤهم، ووقعت الفرقة بينهم...».

ولذلك اقترح نفرٌ من الذين أرادوا اغتنامَ الفرصة على الوليد بن عقبة بن أبي معيط أن يذهب لمعاوية ويكلمه، ففعل:

«... فمُره أن فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره...

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص١١٤. وقريبٌ من ذلك ورد في ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص٣٨٤.

فشمّر للحرب، وناهض الأعداء، واهتبل الفرصة، واغتنم الغرّة، فإنك لا تدري متى تقدر على عدوك على مثل حالهم التي هم عليها. وأن تسير إلى عدوك أعز لك من أن يسيروا إليك. واعلم والله أنه لولا تفرق الناس على صاحبك، لقد نهض إليك».

فأجاب معاوية:

«إن هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبهم، واختلاف أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكون أطمع في استئصالهم واجتياحهم، وأن أسير إليهم مخاطرا بجندي، لا أدري عليّ تكون الدائرة أم لي! فإياكم واستبطائي، فإني آخذ بهم في وجهٍ هو أرفق بكم، وأبلغ في هلكتهم.

قد شننتُ عليهم الغارات من كل جانب: فخَيلي مرّة بالجزيرة، ومرّة بالحجاز. قد فتح الله فيما بين ذلك مصر، فأعز بفتحها وليّنا، وأذل به عدونا.

فأشرافُ أهل العراق لما يرون من حُسن صنيع الله لنا، يأتوننا على قلائصهم في كل أيام. وهذا مما يزيدكم الله به وينقصهم، ويقويكم ويضعفهم، ويعزكم ويذلهم.

فاصبروا ولا تعجلوا، فإني لو رأيتُ فرصتي لاهتبلتها»[1].

*****

وكان النعمان بن بشير جزءاً من ماكينة معاوية الدموية التي ترتكب الجرائم الفظيعة ضد كل مَن ناصرَ شرعيّة عليّ. فجاء في تاريخ اليعقوبي[2]:

ووجّه معاوية النعمانَ بن بشير، فأغارَ على مالك بن كعب الأرحبي، وكان عاملَ عليّ على مسلحة عين التمر، فأرسل عليّ في أثره عدي بن حاتم الطائي على شاطئ الفرات.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩٥ـ١٩٧.

وأن الضحاك بن قيس أغار على القطقطانة وقتل ابن عميش. فشنّ عليه حجر بن عدي غارة معاكسة حتى تدمر.

وأغارَ سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار وقتل أشرس بن حسان البكري. فأتبعه عليّ بسعيد بن قيس إلى عانات. فانصرف سفيان مولياً ولم يلحقه.

وأرسل معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري في ١٧٠٠ رجل باتجاه المدينة ومكة. فبلغ الخبر علياً فوجّه إليه ابن قبيلته، المسيب بن نجبة الفزاري في ألفي رجل. وحصل القتال بينهم في تيماء، وهُزم جماعة معاوية فلجأوا إلى حصن. فأحاط بهم المسيب ومَن معه ٣ أيام. فناشد ابن مسعدة المسيب ورجاه الرحمة قائلا له: نحن قومك! فمال المسيب إلى رابطة الدم وسمح لابن مسعدة ومَن معه بالمغادرة سالمين إلى الشام. فوصلت القصة إلى عليّ فعاتب المسيب على سلوكه وعاقبه بالحبس لبضعة أيام ثم عفا عنه.

*****

ماذا كان معاوية يوصي قوّاده؟

إن وصية معاوية لسفيان بن عوف الغامدي هي نموذج مثالي على ذلك:

«إني باعثك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة. فالزم إلى جانب الفرات، حتى تمرّ بهَيت فتقطعها، فإن وجدتَ بها جنداً فأغِر عليهم، وإلاّ فامضِ حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامضِ حتى توغل في المدائن. ثم أقبِل إليّ. واتقِ أن تقرب الكوفة. واعلم أنك إن أغرتَ على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرتَ على الكوفة.

إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كل مَن خاف الدوائر.

فاقتل مَن لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك. وأخرب كل ما مررتَ به من القرى. وأحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب»[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٨٦

وكانت هذه الغارات التي يأمر بشنّها معاوية على نواحي متفرقة من البلاد التي هي في طاعة علي، وما كان يحصل بها من قتل للأبرياء وتنكيل بالناس وانتهاك للحرمات وسفك للدماء، تسبب ألماً فظيعاً في نفس علي بن أبي طالب، ممزوجاً بالحزن والغضب. وأبرز مثال على مشاعر علي وهو يسمع أخبار الغارات هي الخطبة البليغة التي ألقاها الإمام علي بعد غارة سفيان بن عوف على الأنبار:

«أما بعد، فإن الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة، فتحَه الله لخاصّة أوليائه. وهو لباسُ التقوى ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة. فمَن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوبَ الذلّ وشمله البلاء، ودُيّثَ بالصَّغار والقماءة، وضُرب على قلبه بالأسداد، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد. وسيم الخسف ومُنِع النصف.

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً!

وقلتُ لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم. فوالله ما غُزي قومٌ قطّ في عُقر دارهم إلاّ ذلّوا!

فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنّت عليكم الغارات ومُلِكت عليكم الأوطان.

وهذا أخو غامد وقد وردت خَيله الأنبار، وقد قتلَ حسان بن حسان البكري، وأزالَ خيلكم عن مسالحها. ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها، ما تمتنع منه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام! ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلمٌ ولا أريق لهم دم.

فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً.

فيا عجبا! عجباً والله يميت القلبَ ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقكم!

فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرَضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويُعصى الله وترضون.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحَرّ قلتم هذه حمّارة القيظ، أمهلنا يسبّخ عنا الحر! وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارة القرّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد! كل هذا فراراً من الحر والقرّ. فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فإذا أنتم والله من السيف أفر!

يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال.

لوددتُ اني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرّت ندماً، وأعقبت سدماً!

قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجلٌ شجاع، ولكن لا علم له بالحرب.

لله أبوهم! وهل أحدٌ منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاما مني؟ لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين، وها أناذا قد ذرّفتُ على الستين. ولكن لا رأي لمن لا يُطاع»[1].

استباحة المدينة المنورة

وأرسل معاوية رجلاً متوحشاً يُدعى بسر بن أرطأة، وهو قرشيّ من بني عامر بن لؤي، لإرهاب وترويع المسلمين في كل مكان ممن هم في طاعة عليّ. فكان جلاّداً متجولاً يهدف إلى إخضاع الناس للسلطة الأموية عن طريق القتل والدم والقوة الغاشمة. قال ابن عساكر[2]:

«بعث معاوية بسرَ بن أرطاة إلى مكة والمدينة واليمن، يستعرض الناسَ، فيقتل مَن كان في طاعة عليّ بن أبي طالب... فأقام في المدينة شهراً... وقتل قوماً من بني كعب على مالهم فيما بين مكة والمدينة وألقاهم في البئر».

وعندما وصل المدينة المنورة احتلّها شهراً وارتكب فيها جرائم قتل فظيعة بحق الأنصار وأبنائهم:

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص٥٨.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١٠ ص ١٥٢.

«... هرب منه أبو أيوب الأنصاري صاحب النبي ﷺ إلى عليّ بالكوفة...

وأرسل إلى بني سلمة، فقال: والله ما لكم عندي من أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبد الله صاحب النبي.

فخرج جابر بن عبد الله حتى دخل على أم سلمة خفياً فقال لها: يا أمة إني خشيتُ على نفسي وهذه بيعة ضلالة(1). فقالت له: أرى أن تبايع. فقد أمرتُ ابني عمر بن أبي سلمة أن يبايع.

فخرج جابر بن عبد الله فبايعَ بسرَ بن أرطأة لمعاوية.

وهدم بسرُ بيوتاً كثيرة بالمدينة...».

وكان بسر بن أرطأة لمّا دخل المدينة المنورة قال في خطبته للأنصار بعد أن صعد المنبر:

«يا أهل المدينة: مثل السوء لكم قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ألا وإن الله قد أوقع بكم هذا المثل وجعلكم أهله! شاهت الوجوه. فما زال يشتمهم حتى نزل»(2).

وقد قال وفعل! ووصل به الأمر الى حدّ هدم بيوت كثيرة في المدينة وحرقها.

وبعد أن انتهى بسر بن أرطأة من جرائمه، وأجبر كل مَن بقي في المدينة على البيعة لمعاوية، ودّع أهلها بخطبة أخرى، عيّن فيها والياً جديداً لمعاوية:

«يا أهل المدينة: إني قد صفحتُ عنكم، وما أنتم لذلك أهل، لأنه ما من قوم قتل إمامُهم بين أظهرهم ولم يدفعوا عنه، بأهل أن يُعفى عنهم. وإن نالتكم العقوبة في الدنيا، فإني أرجو أن لا تنالكم رحمة الله عز وجل في الآخرة.

---

(1) وقد روى الإمام البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص١٤١ موقف جابر هذا وقول أم سلمة له: أنا أعلم أنها بيعة ضلالة.

(2) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٩٧.

ألا وإني استخلفتُ عليكم أبا هريرة فاسمعوا لـه وأطيعـوا، وإيـاكم والخـلاف، فوالله لئن عدتم لمعصية لأعودنّ عليكم بالهلاك وقطع النسل»[1].

وفي هذه الغارة ظهر إلى العلن مـا يكنّـه القرشـيون، ممثلـين بهـذا الشـخص، وزعيمهم معاوية، من حقد متأصّل على مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وأنصاره. وعلـى غيـر عادته لم يكن معاوية هنا حليماً ولا حكيماً، بل كان بكل بساطة سفاحاً مجرمـاً! كـان معاوية يعرف تماماً ماذا يفعل قائد جيشه. فلا شك أنها كانت سياسة مدروسـة مـن القائد الأموي. وهو يتحمّل وزرها كاملاً.

ولا يمكن تبرير تلك الجرائم بضرورات السياسة، فهي أقرب إلى منهج الانتقام من الرسول صلى الله عليه وآله وأنصاره[2].

وكان بسر يملك روحاً إجراميّة لا نظير لها وصلت إلى حدّ قتل الأطفال، وهـذا مما لم تألفه العرب حتى في الجاهليّة! فذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أيضاً:

« ثم مشى إلى اليمن وعليها يومئذ عبيد الله بن العبـاس عـاملاً لعلـي بـن أبـي طالب. فلما بلغ عبيدَ الله أن بسراً قد توجه إليه، هرب إلى علـيّ واسـتخلف عبـد الله بن عبد المدان المرادي. وكانت عائشة بنت عبد الله المرادي قد ولدت من عبيـد الله غلامين من أحسن صبيان الناس وأرضاه وأنظفه. فذبحهما ذبحا!

فخرجت نسوة من بني كنانة فقالت منهن قائلة: مُهيم يا هذا! هذا الرجـال قتلـتَ فعلامَ تقتل الولدان؟! والله ما كانوا يُقتلون في جاهلية ولا إسلام. والله إن سلطاناً لا يقوم إلاّ بقتل الضرع الصغير والمدره الكبير ويرفع الرحمة، وعقوق الأرحام لسلطان سوء.

فقال لها بسر: والله لهممتُ أن أضع فيكنّ السيف!

فقالت له: تالله إنها لأخت التي صنعتَ، وما أنا لها منك بآمنة.

---

(١) من «الأنصار» ص٣٧٦ نقلا عن الفتوح لابن أعثم ٢٢٩/٩. وروى مثل ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغـة ج٢ ص١١.

(٢) وسوف يكرر يزيد بن معاوية، بعد هذه الحادثة بعشرين عاما، ارتكاب نفس الجرائم بحق مدينة رسـول الله صلى الله عليه وآله وأنصاره، وعلى نحو أشدّ فظاعة في وقعة الحَرّة، ليثبت أن الحقد الأموي تتوارثه الأجيال.

وكانت أمهما قد هامت بهما، وكادت تخالط في عقلها وكانت تنشدهما في الموسم في كل عام تقول:

ها مَن أحس بابنيَّ الذين هما	كالدّرتين تجلاً عنهما الصدفُ
ها مَن أحس بابنيَّ الذين هما	سمعي وقلبي فقلبي اليوم مختطفُ
ها مَن أحس بابنيَّ الذين هما	مُخ العظام فمخي اليوم مزدهفُ
حُدثتُ بسراً وما صدقتُ ما زعموا	من قولهم ومن الإفك الذي وصفوا
أنحى على روحي ابني مرهفة	مشحوذة وكذاك الإثم يُقترفُ
مَن ذا لوالهةٍ حَرّى مُفجعة	على صَبيّين غابا إذ مضى السلفُ»[1]

وبلغت هذه الأنباء الفظيعة علياً في الكوفة، وسببت له ألماً لا يُطاق. فعبّر عليّ عن غضبه البالغ، ليس على معاوية ومَن معه فقط، بل على أصحابه أيضاً، الذين اعتبرهم متقاعسين متخاذلين حتى تمنى لو أن له جنوداً مطيعين مثل معاوية! فقال:

«أيها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المُبتلى بهم أمراؤهم!

صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحِبُ أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه!

لوددتُ والله أن معاوية صارَفني بكم صرفَ الدينار بالدرهم، فأخذ منّي عشرةً منكم وأعطاني رجلاً منهم!

يا أهل الكوفة: مُنيتُ بكم بثلاث واثنتين: صمّ ذوو أسماع، وبكمٌ ذوو كلام، وعميٌ ذوو أبصار. لا أحرار صدقٍ عندَ اللقاء، ولا إخوان ثقةٍ عند البلاء. تربت أيديكم.

يا أشباه الإبل، غابَ عنها رُعاتها، كلما جُمعت من جانبٍ تفرّقت من آخر»[2].

وأسفرت جهود عليّ المركّزة عن نجاحه في إرسال جيشٍ من الكوفة، انطلق

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ١٠ ص١٥٣.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص١٣٧.

ليطارد بسر بن ارطأة في أنحاء الحجاز واليمن، ويتتبع أثره. ولكنّ بسراً، الذي حقق هدفه المحدد له من قبل معاوية، فرّ من وجهه وتفاداه وعاد سالماً إلى الشام.

المزيد من الضربات لعليّ

نصّبَ معاوية نفسَه عَلَماً مرفوعاً وعنواناً معروفاً لكلّ إنسان لديه مشكلة مع شخص عليّ أو سياسة عليّ أو حكم عليّ! بل واتبعَ معاوية سياسةً موجهة إلى عمّال عليّ في كل مكان محاولاً استمالتهم إلى جانبه عن طريق بذل الوعود لهم بالمال الوفير والمناصب العالية لديه! ولم يكن معاوية لينسى أن يُذكّر هؤلاء الولاة وزعماء القبائل بأنهم لن يتمكنوا من جني الفوائد وكنز الغنائم في ظل عليّ الذي لن يسمح لهم بذلك وسيحاسبهم بكل شدّة على أي تجاوز على الرعية أو انحراف في الحكم.

فانهمكَ معاوية في حملة مراسلات مع القيادات المنضوية تحت حكم عليّ. وكان عليّ يعلم بذلك عن طريق بعض ولّاته المخلصين الذين كانوا يطلعوه على ما يكتبه لهم معاوية.

ونجح معاوية في إغراء بعض القيادات القبلية والإدارية التي كانت فاسدة أصلاً أو ارتكبت تجاوزاتٍ وأعمال فسادٍ وخشيت من ردّ فعل عليّ.

فمثلاً، كان مصقلة بن هبيرة الشيباني عاملاً لعليّ على أردشير خرة في ايران. وقد اتفق مع معقل بن قيس على أن يشتري منه السبي الذي معه من الموالي والنصارى وبني ناجية، وهم خمسمائة، بعد أن انتصر على الخريت وتمرّده. وقام مصقلة بدفع جزء من الثمن المتفق عليه لبيت المال، على أن يستكمل دفع الباقي فيما بعد. وأبلغ معقل أميرَ المؤمنين عليّ بذلك.

ورغم انهماكه الشديد في حرب معاوية والخوارج، إلاّ أن علياً لم ينسَ مصقلة وأمواله المستحقة لبيت المال. فلما لاحظ تأخر مصقلة بالسداد كتب له:

«أما بعد: فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الغشّ على أهل المصر غشّ الإمام. وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف، فابعث بها إليّ ساعة يأتيكَ رسولي، وإلاّ فأقبل حين تنظر في كتابي. فإني قد تقدمت إلى رسولي إليكَ لا يدعكَ أن تقيمَ

ساعة واحدة بعد قدومه عليك إلاّ أن تبعث بالمال. والسلام عليك».

وأمام طلب الخليفة القاطع، لم يجد مصقلة بداً من الترحّم على أيام عثمان بن عفان الذي لو كان حياً لما طالبه بدفع ما يستحق عليه لبيت المال! فقال لمندوب عليّ:

«أما والله لو أن ابن هند هو طالبني بها أو ابن عفان لتركها لي! ألم ترَ إلى ابن عفان حين أطعمَ الأشعثَ منَ خراج آذربيجان مائة ألف في كل سنة!».

وكانت النتيجة أن هرب مصقلة إلى عدو عليّ في الشام: معاوية. ولم يكتف بذلك بل اخذ يكتب لأخيه الرسائل يدعوه فيها إلى ترك عليّ والانضمام إلى معاويةَ الذي أجزل لهما الوعود!

وكان رد فعل عليّ:

«ما له ترّحَه الله؟ فعلَ فعلَ السيد وفرّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر؟! أما والله لو أنه أقامَ فعجزَ ما زدنا على حبسه، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه، وإن لم نقدر على مالٍ تركناه»[1].

وبلغ علياً أن واليه على البحرين، النعمان بن العجلان، قد اغتصبَ من أموال الخراج، فكتبَ إليه يحذره من الخيانة، فما كان من الوالي إلاّ أن حمل الأموال ولحقَ بمعاوية![2].

وتعرّض عليّ إلى خيانة أخرى من واليه على الري، يزيد بن حجية، الذي نهبَ بيت المال وفر إلى معاوية![3].

ورغم أن علياً كان يعرف أن معاوية منهمكٌ في محاولاته لرشوة ولاة عليّ وقادة جيوشه وزعماء القبائل ووجهاء الأمصار واستقطابهم لصفّه، إلاّ أنه لم يغيّر سياسته ورفض أن يسلك نفس المنهج تجاه قيادات معاوية ورجاله. وقد كان عليّ

---

(١) خبر مصقلة وكلام عليّ من تاريخ الطبري ج٤ ص١٠٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٠١.

(٣) الري هي منطقة طهران الحالية في ايران. وهذا الخبر وما بعده عن ابن شجرة من ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري ص٤٩٩ و ص٤٦٢.

أيضاً يراسل رجال معاوية، ولكن ليس ليرشيهم أو يطمعهم ويغريهم، بل ليكشف لهم حقيقتهم أمام ضمائرهم وأمام الناس! فليس لدى عليّ ما يطمع به هؤلاء. فمثلاً هو كتب إلى عمرو بن العاص: «فانّكَ جعلتَ دينكَ تبعاً لدنيا امرئ ظاهر غيّه مهتوك ستره، يشين الكريمَ بمجلسه، ويسفّه الحليمَ بخلطته، فاتّبعتَ أثرَه وطلبتَ فضله، اتّباعَ الكلب للضرغام، يلوذ الى مخالبه، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته، فأذهبتَ دنياك وآخرتك، ولو بالحقّ أخذتَ أدركتَ ما طلبتَ. فإن يمكنّي الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدّمتما، وإن تعجزا وتبقيا، فما أمامكما شرّ لكما»[1].

*****

وأخيراً قرر معاوية أن يعلن تحدّيه لآخر رمز لشرعية عليّ كخليفة للمسلمين، وهو إقامة شعائر الحج للناس! ففي أواخر عام ٣٩ للهجرة، أرسل معاويةً مندوباً له يدعى يزيد بن شجرة الرهاوي، على رأس قوة عسكرية، إلى المدينة ومكة، وأمره بتحدي والي عليّ في مكة ومندوبه على الحج، قثم بن العباس.

وفعلاً وصل ابن شجرة وقواته إلى الأماكن المقدسة في موسم الحج، معلناً أنه جاء لإقامة الصلاة بالناس كمندوب عن معاوية. وبعد أخذ وردّ، ووساطات من قبل الكثير من المسلمين الذين كرهوا حصول قتال وسفك دماء في بيت الله ومسجد رسوله، انتهت الأمور إلى حلّ وسط وهو قيام طرف ثالث بمهمة الصلاة بالناس! وفعلاً تولى شيبة بن عثمان بن ابي طلحة تلك المسؤوليةَ بعد أن تراضى الناس عليه، نظراً لأن عائلته، عبد الدار، هي التي تملك مفاتيح الكعبة منذ زمن الجاهلية، وأقرهم الرسولﷺ على ذلك.

وأن هذا الترتيب لم يرضِ عليّا على الإطلاق، فأرسل جيشاً من ١٩٠٠ رجل بقيادة معقل بن قيس الذي وصل متأخراً، فلم يستطع اللحاق سوى بنفرٍ قليل ممن تخلف من قوات ابن شجرة، الذي تابع مسيره حتى وصل إلى معاويةَ في الشام وبشره بنجاحه في تحدي سلطان عليّ في أهم رمزٍ لوحدة أمة الإسلام: الحج.

---

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص٣٥٣.

عرضُ معاوية الجديد

وبعد تلك السلسلة من الغارات الوحشية التي شنّها معاوية وحزبه، وبعد أن بدأ يزاحم علياً في شعائر الحج في الحجاز، قرر معاوية أن يحاول جني الثمار، سياسياً، من ذلك كله. فكتب إلى عليّ عام ٤٠ للهجرة:

«أمّا إذا شئتَ، فلكَ العراق وليَ الشام.

وتكفّ السيف عن هذه الأمة، ولا تهريق دماء المسلمين»[١].

وهكذا فإن معاوية يهدف إلى رفع سقف مطالباته. فهو الآن يرى نفسه أصبح في وضع يتيح له أن يسامي علياً، بشكل علني، ليغيّر وضعه من مجرد«والي متمرد«ضد»خليفة المسلمين»، ويصبح هو وعليّ على قدم المساواة في ادّعائهما للخلافة.

وكان معاوية جدّياً في عرضه. ولو أبدى عليّ قبولاً لكان يمكن لمعاوية أن يلتزم تماماً باتفاق لتقاسم العالم الإسلامي، بحيث تكون من نصيبه الشام ومصر، على الأقل.

وكان جواب علي:

«فأمّا طلبك إليّ الشامَ، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتكَ أمس. وأما قولك إن الحرب قد أكلت العرب إلاّ حشاشات أنفس بقيت، ألا ومَن أكله الحق فإلى الجنة ومَن أكله الباطل فإلى النار. وأما استواؤنا في الحرب والرجال، فلستَ بأمضى على الشك منّي على اليقين...»[٢].

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص١٠٧. والطبري يكمل هذه الرواية ويقول فيها ان عليا وافق على عرض معاوية فتراضيا على ذلك. ولكن من المؤكد ان هذا الجزء من الرواية غير صحيح، لأن عليا استمر حتى آخر يوم في حياته وهو يعدّ لغزو الشام، ولم يوافق أبدا على فكرة التقاسم.

(٢) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٣ ص ٣٢٤.

عليٌّ شهيدا

عقيدة الخوارج

تطورت معتقدات الخوراج بالتدريج، ومع تطوّر الظروف الهائجة في العراق. فشعارهم الأول «لا حكم إلاّ لله» أصبح يعني بالفعل رفضاً لشرعية خلافة علي بن أبي طالب، الذي ضلّ وكفرَ بنظرهم حين قبلَ التحكيم. ومع مرور الزمن أصبح للخوارج نظريتهم الخاصة حول نظام الحكم الإسلامي. فخلافاً للفكر الشيعي الذي يحصر حق الخلافة في آل بيت النبيﷺ، وخلافاً للفكر السني الرسمي، الذي روّجت له الدولة الأموية، الذي يحصر الخلافة في»قريش»، تبنّى الخوارج النظرية القائلة بأن الخلافة في دولة الإسلام تجوز لكل المسلمين، الذين هم سواسية كأسنان المشط. وكانت بداية تعبير الخوارج الأولين عن هذه الأفكار باختيارهم رجلاً غير قرشي، وهو عبد الله بن وهب الراسبي، «أميراً «وقيامهم بمبايعته.

إذن قرر الخوارج رفض «الهيمنة» القرشية على إطلاقها. وهم بذلك يرفضون الفكرة القائلة إن قبيلة الرسولﷺ يمكن أن يكون لها أي فضل، لمجرّد كونه منها. فالمؤمنون أخوة، ولا فرق بين عربي ولا أعجمي إلاّ بالتقوى. وإذا أراد القرشيون التميّز، فالإيمان هو المعيار، لا النسب.

اعترف الخوارج بصحة خلافة أبي بكر وعمر واعتبروا سيرتهما صالحة لأنهما كانا قد احترما كتاب الله. وقد روى ابن قتيبة حواراً بين علي بن أبي طالب ورجلٍ ممن أصبحوا خوارج، أصرّ فيه الرجل على إدخال «سنة أبي بكر وعمر» كشرطٍ للبيعة:

«فقال له الإمام علي: تبايع على كتاب الله وسنة نبيّه؟

قال: لا! ولكن أبايعك على كتاب الله وسنة نبيّه وسنة أبي بكر وعمر.

فقال علي: وما يُدخِل سنة أبي بكر وعمر مع كتاب الله وسنة نبيّه؟! إنما كانا عاملين بالحق حيث عملا.

فأبى الخثعميّ إلاّ سنة أبي بكر وعمر. وأبى عليّ أن يبايعه إلاّ على كتاب الله وسنة نبيّهﷺ»[1].

وروى الطبري أن قيس بن سعد بن عبادة، حين كان يدعو نواة الخوارج الأولين إلى طاعة عليّ والخروج معه لحرب أهل الشام، واجهه رجلٌ منهم بطلبٍ غريب: إمام كعمر بن الخطاب!

«فقال عبد الله بن شجرة السلمي: إن الحق قد أضاء لنا فلسنا نتابعكم أو تأتونا بمثل عمر!

فقال: ما نعلمه فينا غير صاحبنا! فهل تعلمونه فيكم؟....»[2].

واعترفوا بصحة خلافة عثمان خلال السنوات الست الأولى من حكمه، أما بعد ذلك فلم يعترفوا بإمامته، وأنكروا أعماله باعتباره انتهك الكتاب. واعترفوا بخلافة علي، حتى التحكيم، ثم تبرّأوا منه بعد ذلك، واتهموه بالكفر وطالبوه بالتوبة، ودَعوه إلى عدم تأكيد أحقيته بالخلافة اعتماداً على قرابته للنبيﷺ.

واعتقد الخوارج أنهم أهل الحق والعدل، وأن غيرهم أهل الباطل والظلم. وأنهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر. ولذلك ذمّوا الدنيا ورفضوها وأنكروا البدع. ومن هذا المنطلق ظهرت بينهم فكرة الخروج من القرية الظالم أهلها، لإحقاق الحق ونشر العدل. ولعلّهم أرادوا داراً للهجرة ـ حسب المفهوم الإسلامي الأول ـ متشبّهين بهجرة النبيﷺ من مكة للمدينة. ويبدو أن الخوارج فكروا منذ البداية ببلدة خاصة بهم: قال عبد الله بن وهب الراسبي، أول زعيم للخوارج لأتباعه»....فاخرجوا بنا، إخواننا، من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٦٦.
(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص٦٢.

منكرين لهذه البدع المضلة.... اشخصوا بنا إلى بلدةٍ نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله، فإنكم أهل الحق...»[1].

وأجاز الخوارج قتلَ كلّ مسلم لا يرى رأيهم، وقتلوا بالفعل عدداً من المسلمين بحجة مخالفة آرائهم، بينما عفوا عن أهل الذمة حفظا لذمة رسول الله صلى الله عليه وآله!

قال هشام جعيط إن «رفضهم(الخوارج) للتحكيم قد صار بنظرهم بمثابة عقيدة تفصل»المؤمنين الحقيقيين«عن كل المسلمين الآخرين، المطروحين الآن بوصفهم كفّارا مارقين...

إن مصير الأمة يجب أن يكون بين يدي الله وحده، أي النص (القرآن)، ولكنه نصٌّ قد انتحلوا لأنفسهم الحق بأن يكونوا مفسّريه الوحيدين...

كانت الحركة(الخوارج) ترغب في مصادرة كل معنى الإسلام لصالحها، وفي أن تجعل من نفسها مفسّرته، وأن تفرض ديكتاتورية تفسيرها على الجميع... ديكتاتورية أقلية مغترّة بحقّها وحقيقتها...

وكانوا يعتبرون كل أولئك الذين لا يشاطرونهم الرأي كفّارا، وبالتالي يعلنون أن دمهم حلال: عليّ، مواطنوهم في الكوفة والبصرة وكل المسلمين الآخرين. لاحقاً، سيسمّون أنفسهم بـ«المسلمين»، أي أنهم وحدهم المسلمون. وكانوا يتميزون، منذ تلك المرحلة الأولى، بأسلوب في العمل والاعتقاد، قائم على التوبة، والتكفير (إذ كانوا يكفّرون كل شخص سواهم)، والسعي وراء الشهادة وواجب إراقة دم الآخرين، سواء في المعركة، أم بالاغتيال الفردي ـ الاستعراض»[2].

وكانت أفكار الخوارج تعتبر غلواً وشططا في الدين. وكانت أيضا تفسيراً سطحياً، أو قشرياً لنصوص القرآن. وقد كان عليّ بن أبي طالب يميّز بين أعدائه

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٥٥ وأيضا الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٦١.
(٢) عن «الفتنة» لهشام جعيط ص٢٢٦ـ٢٢٧.

الجدد من الخوارج، وأعدائه القدامى من جماعة معاوية. فقد قال ببلاغته الفريدة : «ليس مَن طلبَ الحقَ فأخطأه، كمن طلبَ الباطلَ فأصابه».

كانت مشاعر الثأر والانتقام للقتلى، أو للشهداء كما اعتبروهم، تحرّك الكثيرين وتدفعهم للحاق بركب الخوارج. وهذه مشاعر ضاربة الجذور في أعماق الشخصية العربية. فكان لكل قتيلٍ من الخوارج مَن يرثيه ويرغب بالأخذ بثأره ممن قتله. وبنظرهم، كان المسؤولُ الأول عن كل قتلاهم هو عليّ.

لقد قدّر لعليّ بن أبي طالب أن يواجه حقداً قرشياً لا يزول، ولا تمحوه الأيام، لأنه بنظر قريش «القاتل السفّاك» الذي وَتَرَها وأباد شيوخها. ولم يستطع رسول اللهﷺ، برغم سياسته المتسامحة تجاه القرشيين يوم الفتح، وبرغم عفوه عن صناديد الكفر الذين كانوا يؤذونه، وبرغم سياسة»المؤلفة قلوبهم«التي اتبعها، أن يمحو ذلك الحقد القرشي الأسود نحوه، والذي أخذ ترجمته العملية في معاداة علي بن أبي طالب.

وها هو علي بن أبي طالب يجد نفسه، في العراق هذه المرة، يواجه فئة تأصّل الحقد والكره في نفوس أبنائها تجاهه، تراه أيضا «القاتل السفّاك» الذي أباد الالآف منهم بلا رحمة! وبالتالي قدّر على عليّ أن يواجه جيشاً آخر من الموتورين المستعدّين للسير في طريق العداء إلى نهايته.

يدُ الشيطان تغتالُ إمامَ الزمان

وردت عدة روايات[1]، من الصعب جداً تصديقها، حول تفاصيل حادث اغتيال الإمام عليّ.

- رواية تقول إن الخوارج نسجوا خيوط مؤآمرة ثلاثية محكمة، عندما اجتمعوا في مكة أثناء الحج عام ٣٩. وتمضي الرواية فتقول إن الخوارج تدارسوا

(١) لمراجعة الروايات في تاريخ الطبري ج٤ ص١١٠ـ١١٣ وأيضاً الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٨٠ وأيضاً ترجمة علي بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري ص ٤٩١ـ٤٩٤ وأيضاً تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢١١ـ٢١٢.

أوضاع الأمة وعابوا كلاً من عليّ ومعاوية « الذين أفسدا في الأرض، واستحلا حرمة هذا البيت»، وذكروا إخوانهم الذين قتلوا في النهروان وترحموا عليهم، وفي النهاية قرروا التخلّص من كل المسؤولين، فاتفقوا على مؤآمرة ثلاثية الأبعاد. بحيث يقوم أحدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي، بقتل عليّ في الكوفة، ويقوم ثانٍ، وهو البرك بن عبد الله الصريمي، بقتل معاوية في الشام، ويقوم الثالث، وهو عمرو بن بكر التميمي، بقتل عمرو بن العاص في مصر.

واتفقوا على أن ينفذوا عمليتهم في نفس اليوم وهو ١٧ رمضان عام ٤٠.

وحسب هذه الرواية فإن ابن ملجم نجح في مهمته، بينما فشل زميلاه الآخران. فالثاني طعن معاوية ولكن الطعنة أتت في إليته، بسبب الحراس الذين تدخلوا. وأما الثالث ففشل أيضا لأن عمرو بن العاص كان معتلاً ذلك اليوم ولم يذهب للصلاة، فقام الخارجيّ بقتل المندوب الذي بعثه ابن العاص ليؤمّ الناس نيابة عنه، عن طريق الخطأ!

- وهناك رواية أخرى تتحدث عن حبكة يدخل فيها الثأر والحقد والعشق لتشكّل عناصر الاغتيال! وتتلخّص هذه الرواية في أن عبد الرحمن بن ملجم، حين قدم الكوفة تمهيداً لاغتيال عليّ، تعرّفَ على امرأة فائقة الجمال، تدعى قطام بنت علقمة، كان أبوها وأخوها قد قتلا في النهروان مع الخوارج، فأحبها وطلب منها الزواج. ولكنها، دون أن تعرف شيئا عن نوايا ابن ملجم، طلبت منه مهراً غالياً: رأس عليّ! وعند ذلك صارحها ابن ملجم أنه قدم الكوفة لأجل ذلك الهدف بالتحديد!

- والرواية الثالثة تتحدث عن مؤآمرة فيها الأشعث بن قيس الذي، حسب هذه الحبكة، قدّم لعبد الرحمن بن ملجم الدعم اللوجستيّ الذي احتاجه لتنفيذ عملية الاغتيال، فكان مقيماً عنده، وبات يناجيه ليلة أقدم على الجريمة.

وهذه الروايات لا تخلو من عنصر إثارةٍ وتشويق ظاهرٍ لدى رواتها، وممكن رفضها بكل تأكيد.

فالذي حصل هو أن الخوارج قرروا الثأر لقتلاهم فأرسلوا أحد فدائييهم فكَمَنَ

له وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة الفجر، فضربه بالسيف المسموم على رأسه وهو يصرخ «الحكم لله لا لكَ يا علي».

وهناك احتمالٌ أن تكون عملية الاغتيال عملاً فردياً من القاتل، عبد الرحمن بن ملجم، وليس بناءً على تخطيطٍ من قيادة الخوارج.

«ولما ضُرب عليٌّ دعا أولادَه وقال لهم: عليكم بتقوى الله وطاعته، وألاّ تأسوا على ما صُرف عنكم منها. وانهضوا إلى عبادة ربكم، وشمّروا عن ساق الجد، ولا تثاقلوا إلى الأرض، وتقروا بالخَسف، وتبوؤوا بالذل.

اللهم! اجمعنا وإياهم على الهُدى، وزهّدنا وإياهم في الدنيا، واجعل الآخرة خيراً لنا ولهم من الأولى. والسلام»[1].

وعاش الإمام علي بعد تلك الطعنة ليومين.

وتولى غسله ابناه الحسن والحسين، ومعهما ابن عمهما عبد الله بن جعفر، وكفنوه بثلاثة أثوابٍ، ودوفنوه، وصلى عليه الحسن.

*****

وقد أصبح القاتل «بطل» الخوارج الذي يمتدحونه بالأشعار، فقال قائلهم عمران بن حطان:

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها   إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه   أوفى البرية عند الله ميزانا

*****

وهكذا انتهت حياة الإمام الذي وصفه ضرار بن ضمرة لعدوّه معاوية بقوله:

«فأشهدُ لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليلُ سدوله، وهو قائمٌ في محرابه، قابضٌ على لحيته، يتململُ تململَ السليم، ويبكي بكاءَ الحزين، وهو يقول:

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٨٣.

يا دنيا يا دنيا، إليكِ عنّي. أبي تعرّضت؟ أم إليّ تشوّقت؟ لا حانَ حينك. هيهات! غُرّي غَيري، لا حاجة لي فيك! قد طلّقتك ثلاثاً، لا رجعة فيها. فعيشكِ قصير، وخطرُكِ يسير، وأمَلكِ حقير.

آهِ من قلة الزاد، وطول الطريق، وبُعد السفر، وعظيم المورد!»[1].

وهكذا غاب الإمام الذي حرِصَ وهو يجود بأنفاسه الأخيرة على أن يوصي بنيه بحُسن معاملة قاتله حين قبضوا عليه!

«... أطيبوا طعامه وألينوا فراشه. فإن أعِش فأنا وليّ دمي فإما عفوتُ وإما اقتصصتُ. وإن أمُت فألحقوه بي، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»[2].

قال أبو الأسود الدؤلي يرثي علياً[3]:

ألا أبلغ معاوية بن صخر	فلا قرّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا	بخير الناس طرًا أجمعينا
أقتلتم خيرَ مَن ركبَ المطايا	ورحّلها ومَن ركب السفينا
ومَن لبسَ النعالَ ومَن حذاها	ومَن قرأ المثاني والمبينا
إذا استقبلتَ وجه أبي حسين	رأيتَ البدرَ راعَ الناظرينا
لقد علمت قريشٌ حيث كانت	بأنك خيرها حَسَباً ودينا

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٨ ص٢٢٤.

(2) ترجمة علي بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري ص٤٩٥. وقريبٌ من ذلك ورد في كتاب المسند للإمام الشافعي ص٣١٣.

(3) تاريخ الطبري ج٤ ص١١٦.

الكتاب السابع

معاوية خليفة

إن الله على البَدَل قادر، ولله
الأمرُ في مشيئته وحكمه.....

معاوية بن أبي سفيان



انهيارٌ ماديٌ ومعنويّ
الحسَن يقرر السلام

بيعة حفيد الرسول

بايع أهل العراق الحسنَ بن عليّ بالخلافة، عقب وفاة والده مباشرة، ودون أي خلافٍ يُذكر.

كان الشعور الجماعي بحجم الخسارة التي نتجت عن فقدان عليّ، وضرورة الاجتماع بسرعة، على قطبٍ موحّد جديد، لقيادتهم، يدفعهم إلى سرعة مبايعة الحسن بالخلافة، وتجنب أيّ نزاعٍ. كان الحسن هو الخيار الطبيعي والعفوي لأهل العراق، ليخلف والده. لم يكن الأمر يتعلق بعملية وراثة عادية، ملكية، للحكم. كانت ردّة فعل جماهيرية عامة على حادث الاغتيال الأليم. كان إحساس أهل العراق بالخوف على مستقبلهم، ومصيرهم، وقضيتهم، هو الذي يدفعهم إلى مبايعة الحسن بن عليّ بالخلافة أولاً، ثم الخروج معه لمواجهة الغزو القادم من الشام، بعد فترة وجيزة، ثانياً.

وعلى الرغم من أن بيعته كانت بإجماع كل أتباع أبيه، إلاّ أنّ الدلائل كانت تشير إلى أن الأمور لا تسير كما يشتهي الخليفة الجديد.

فالصعوبات الهائلة التي واجهها والده في آخر سنتين من حكمه، كانت مرشّحة للتفاقم والتصاعد. ولم يكن ليغيب عن ذهن الحسن أن أباه، بكل ما له من تاريخ وثقل لا نظير له في الإسلام، لم يستطع أن يضبط شؤون أهل العراق، ويجمع شملهم على نحوٍ يؤهله لتحقيق هدفه الجوهري في إلحاق الهزيمة بمعاوية ومَن معه من أهل الشام.

فالحرب الأهلية التي حصلت داخل البيت العراقي، قتال الخوارج، أضعفت كثيراً معسكر علي بن أبي طالب. ورغم هزيمتها الكبيرة في النهروان، إلاّ أن الحركة الخارجية غدت أخيراً في طريقها إلى التأطّر والانتظام في سياق تنظيمي وفكري

محدد. ورغم أنهم استمرّوا في كونهم أقلية ضمن أهل العراق، إلاّ أنه أصبح للخوارج، تدريجياً، قاعدة اجتماعية تدعم حركتهم وتمدّهم بالرجال.

وهكذا وجد الحسن بن علي نفسه في وضع لا يُحسد عليه. فمن جهة، كانت جبهته الداخلية تعاني من الفرقة والتشتت، وقد نخرَ فيها الصراع الداخلي الذي تفجّر بين أبيه وبين الخوارج حتى أثر على عموم جيشه ومقاتليه، ومعنوياتهم وتصميمهم. وهذا العدو الداخلي لا يكلّ ولا يملّ، وقد نجح في اغتيال القائد الأعلى، علي، ولم تكن هناك إشارات على نيته التراجع عن أفكاره ونهجه.

ومن جهة أخرى، كان عدوه الرئيسي، معاوية ومَن معه، قد ازداد شراسة وجرأة، بعد أن نجح في الصمود بصفين، وفي الهيمنة على مصر. وكانت سياسة الغارات التي شنّها معاوية في السنة الأخيرة قد أظهرت أنه لن يتورّع عن أي سلوك لنشر نفوذه وسلطانه، حتى لو كان الإجرام العاري عن أي غطاء.

معاوية يبدأ التحرك

وبدأ معاوية العمل على الفور لاستغلال الفرصة الذهبية التي نتجت عن صدمة غياب علي المفاجئ، فأعلن النفير العام في صفوف قواته:

«ثم كتب إلى عماله على النواحي بنسخة واحدة:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ومَن قبله من المسلمين. سلامٌ عليكم. فإني أحمد الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد فأَحمدُ الله الذي كفاكم مؤنة عدوكم وقتل خليفتكم. إن الله بلطفه وحُسن صنعه أتاح لعليّ بن أبي طالب رجلاً من عباده، فاغتاله فقتله. فترك أصحابه متفرقين مختلفين. وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم. فأقبلوا إليّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحُسن عدتكم. فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص٣٧.

وبعد أن حَشد كل جيوش الشام، سار معاوية لقتال أهل العراق وإظهار قوته.

ورغم أن القوة هي الأساس في سياسة معاوية، ورغم أنه يعرف استحالة تقديم أي تبرير مقنع في الشرعية الإسلامية لسعيه إلى المنصب الأعلى، إلاّ أن معاوية كان أيضاً حريصاً على تقديم خطابٍ ليّن للخليفة الجديد في العراق من أجل تشجيعه على الإقدام على ما لا بدّ منه!

وكان الحسن قد أرسل، لمّا تولّى، كتاباً إلى معاوية يدعوه فيه إلى الطاعة، فأجابه معاوية:

«... إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشاً أخلقها به. فرأت قريشٌ والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله وأخشاها له وأقواها على الأمر، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا. ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ويذب عن حرم الإسلام ذبّه ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر.

والحال بيني وبينك على ما كانوا عليه.

فلو علمتُ أنك أضبط لأمر الرعية، وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأكيد للعدو وأقوى على جمع الفيئ، لسلمتُ لك الأمر....»[1].

وفي رواية اخرى لابن أبي الحديد أنه كتب للحسن:

«.... إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين، ولا المسيئ، ولا اللئيم....

والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله...

إني أطول منك ولاية، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سناً. فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني....».

وهكذا فإن معاوية الآن يبرر للحسن أسباب رفضه لخلافته على أساس الخبرة

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص٢٥ وكذلك ص٣٦. وورد مثل ذلك في «الفتنة» لهشام جعيط ص٣١٤، نقلا عن أنساب الأشراف للبلاذري.

والقدرة والمصلحة العامة. وهو يقول للحسن بكل وضوح إن عليه عليه أن يُضحي بالخلافة من أجل صالح المسلمين كما ضحى أبوه (أو اضطر للتضحية) من قبل لصالح أبي بكر، الذي تولى الحكم استناداً لنفس الأسباب التي يشير إليها معاوية: أقواهم على الأمر. ولكن معاوية يتجاهل أنه إذا كان جائزاً مقارنة الحسن بأبيه، إلاّ أنه ليس جائزاً مقارنته هو بأبي بكر، الذي كانت له سابقته المعلومة وصحبته للرسول ﷺ!

*****

لما علم الحسن بمسير معاوية وجيوشه، حثّ الناسَ على الجهاد، ثم سار من الكوفة على رأس جيش من ٥٠ ألف مقاتل، حتى وصل ساباط المدائن. فأرسل منهم جيشاً من اثني عشر ألفاً لمواجهة جيش الشام، بقيادة ابن عمه عبيد الله بن العباس، وجعل معه قيس بن سعد بن عبادة، وذلك من أجل منع تقدم معاوية داخل العراق. ويبدو رقم ال ٥٠ ألفا، الذي أورده اليعقوبي، كعدد للمقاتلين الذين حشدهم الحسن وساروا معه إلى المدائن، مبالغاً فيه. ولكن على أية حال، لا شك أن عددا كبيراً جداً من مقاتلي الكوفة قد خرجوا معه. والسبب في هذا النجاح للحسن هو بالتأكيد الشعور الذي ساد بين أهل العراق بأنهم مُهددون، ويتعرّضون للغزو من أهل الشام. فالحالة هنا مختلفة عما كانت عليه عندما كان عليّ ينتدبهم لغزو الشام. هنا الأمر دفاعيّ. والهجوم الذي يتعرضون له كلّي، وليس غارة محدودة. فلا بد من الخروج.

خيانة وخسّة

ولما تقابل الجيشان قرب الموصل شنّ معاوية حملة نفسية مركّزة موجهة إلى عموم الجيش العراقي وقيادته. وعرض معاوية الرشوة بمبالغ كبيرة على كل من عبيد الله بن العباس، وقيس بن سعد من أجل الإنشقاق والانضمام إليه، وصلت إلى ألف ألف درهم! وتدفّق سيلٌ كبيرٌ من الإشاعات إلى العسكر العراقي بأن الحسن بن عليّ قد صالح معاوية وبايعه! وبالتالي لا فائدة من المقاومة والعناد. وفي ذات الوقت كانت إشاعات معاوية تملأ الكوفة أيضا وتصل الحسنَ بأن قيادة جيشه قد خانته وانضمّت إلى معاوية!

إذن نجح معاوية في خلق حالة من الإرباك الشديد في العراق. ولم يعد أحد يدري ما الذي يجري؟ فلا الحسن يثق بجنوده، ولا قيادته تثق به، ولا العامة تدري إلى متى ستستمرّ حالة الحرب.

وأسفرت تلك الأجواء عن نجاح كبير لمعاوية، تمثّل بخيانة تعرّض لها الحسن من حيث لا يتوقع: ابن عمه عبيد الله بن العباس!

يبدو أن معاوية قد نجح في إقناع عبيد الله أنه يخوض حرباً خاسرة، وأن إمامه وقائده على وشك الاستسلام وبالتالي يكون من الأفضل لعبيد الله أن يستبق الأحداث ويبادر إلى الاستفادة من عروض معاوية، قبل أن تصبح عديمة القيمة إذا ما حصل فعلاً وسلّم الحسن. وربما أقنع عبيد الله نفسه أنه لا يجوز له أن يبقى على هامش الأحداث منتظراً قدره بينما الحسن يفاوض معاوية على الصلح!

ويمكن القول بأن رواية ابن أبي الحديد صحيحة تماماً:

«أرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس أن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلمٌ الأمرَ إليّ. فإن دخلتَ في طاعتي الآن كنتَ متبوعاً، وإلاّ دخلتَ وأنت تابع. ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم...»[1].

وهكذا انحاز عبيد الله بن العباس، بجزءٍ كبير من الجيش الذي بعثه الحسن، ثمانية آلاف من أصل اثني عشر ألفا، إلى معاوية! وبقي قيس بن سعد، ومَن معه، ورفضَ بإباءٍ وشراسة محاولة الرشوة بالمال التي عرضها معاوية[2].

وقد ساءت أحوال الحسن وتفاقمت، عندما تعرض إلى محاولة اغتيال خطيرة كادت تودي بحياته. فقد طعنه أحدهم، ولكن الضربة جاءت في فخذه، فوصلت العظم. ونجا الحسن من الموت بعد علاجه. والأرجح أن يكون الخوارج هم أيضاً مَن نفّذوا تلك العملية، رغم وجود احتمال بأن يكون عميلٌ لمعاوية هو الذي قام بها.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص٤٢.

(٢) هذا ملخص من تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢١٤.

ويبدو أن تلك المحاولة الفاشلة، كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة للحسن. فهو شعر أن كل شيء ينهار، وأنه حتى حياته هو شخصياً معرّضة للخطر على يد أناسٍ يحيطون به، لا يدري أيّهم معه وأيّهم عليه!

أسبابُ الحسن

قرر الحسن التضحية بالخلافة والجنوح إلى مسالمة معاوية.

روى ابن الأثير أن الحسن قال لأتباعه من العراقيين:

«إنا والله ما ثنانا عن أهل الشام شكٌ ولا ندم. وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر. فسُلبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع.

وكنتم في منتدبكم إلى صِفين ودينكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم.

ألا وإنا لكم كما كنا، ولستم لنا كما كنتم.

ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره.

فأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر.

ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزٌّ ولا نصفة.

فإن أردتم الموتَ ردَدناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظباء السيوف. وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضاء.

فناداه القوم من كل جانب: البقية البقية!

فلما افردوه أمضى الصلح»[1].

وكانت فترة خلافة الحسن تتراوح ما بين ٦ ـ ٨ أشهر حسب الروايات. وتم الصلح في جمادى الأولى سنة ٤١.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٢ ص١٣.

كان القرار الصعب الذي اتخذه الحسن تعبيراً عن إدراكه لحقيقة موازين القوى المادية التي صارت تميل لصالح عدوّه. لقد قدّر الحسن أنه ليس بمقدوره إصلاح الخراب الذي اجتاح الجبهة العراقية. اختار الحسن تجنب مواجهة كبيرة وطاحنة مع جيش الشام ليس هناك أي أمل في الانتصار بها، لأنه لم يُرد أن يفرض توجهاً انتحارياً على أنصاره المخلصين.

شروط الصلح

ويمكن تلخيص الشروط الأساسية[1] التي وضعها الحسن بن عليّ أمام معاوية مقابل تسليم الأمر إليه كما يلي:

١ - أن يحسن معاوية بسياسته في الحكم، فيعمل بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ وسيرة الخلفاء الصالحين من بعده.

٢ - ليس لمعاوية أن يعهد لأحدٍ من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين.

٣ - أن لا يأخذ أحداً من أهل العراق بإحنة، وأن يكون الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله شامهم وعراقهم وتهامهم وحجازهم. وعلى معاوية عهد الله وميثاقه أن أصحاب عليّ وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم ودمائهم.

ومن المشروع التساؤل: هل كان الحسن ساذجاً إلى درجة أنه يعتقد أن معاوية سيلتزم فعلاً بهذه الشروط؟ وما هي الضمانات لتنفيذ هذه التعهدات؟ هل كان الحسن يظن أن معاوية، بعد أن ينفرد بالحكم ويضم العراقَ إلى مُلكه، سيحترم وعودَه التي قطعها لعدوّه؟

(١) هناك عدد كبير من الروايات حول هذا الأمر. وبعضها تذكر تفاصيل أو مطالب غريبة يمكن الشك فيها ورفضها. فمثلاً تذكر بعضها متطلبات مالية شخصية للحسن واشتراطات بمبالغ ضخمة له ولأخيه الحسين! وأن يفضّل معاوية بني هاشم في العطاء على بني عبد شمس! وبعضها تتحدث عن اشتراط الحسن أن يكون له الأمر من بعد معاوية! وبالإمكان مراجعة بعض الروايات حول هذا الموضوع في الإمامة والسياسة ج١ ص١٨٤ وتاريخ الطبري ج٤ ص١٢٥.

والجواب هو بالنفي. فالحسن كان يعرف أن معاوية رجلٌ لا تسيّره المبادئ ولا الأخلاق، بل المصالح المجردة. ولم يكن معاوية ليرتدع عن فعل أي شيئ في سبيل تمكين دعائم سلطانه ومُلكه ودولته. ولكن الصلح الذي أبرمه الحسن هو انعكاسٌ لما هو قائم على الأرض من اختلال في موازين القوى المادية بين الطرفين. ومن المؤكد أن الحسن كان لا يمكن أن يُسلم لعدوّه لو كان هناك أي أمل واقعي، ولو ضئيل، في كسب المواجهة، أو حتى الصمود فيها. وفي حقيقة الأمر، كان صُلحُ الحسن مَخرَجاً سلمياً لإعلان هزيمة الجانب العراقي من الصراع. لقد هُزم مشروع عليّ بن أبي طالب، وسياساته وبرنامجه، وانتصر معاوية ونظامُه، وقريشٌ وطلقاؤها.

تلك هي الحقيقة المجرّدة، ومن الظلم تحميل الحسن المسؤولية التاريخية عن سيطرة معاوية على العراق أو اتهامه بالتقاعس والتخاذل. وكان من سوء حظ الحسن أن الإعلان الرسمي عن هزيمة أبيه في ذلك الصراع الطويل كان لا بد أن يحصل على يديه هو.

تجرّع الكثيرون مرّ العلقم

ولا شك أن القرار الذي اتخذه الحسن بن علي كان قاسياً وصعباً جداً على أنصار آل البيت، وخاصة القاعدة الصلبة منهم، الذين كان وقعه عليهم كالصاعقة.

كانت القاعدة الصلبة لأنصار عليّ بن أبي طالب في العراق مستعدة إلى المضي في المواجهة إلى النهاية، حتى لو كانت موازين القوى المادية تميل لصالح العدو، وحتى لو كان الموت هو المصير المحتوم الذي ينتج عن صراع غير متكافئ مع عدو منظم ومصمم.

فالتسليم لمعاوية بن أبي سفيان بقيادة أمة محمدﷺ كان أمراً لا تحتمله نفوس عامة المسلمين، وبالأخص في العراق. كان الذين عايشوا علياً واتبعوه وساروا في ركابه وشاركوا في جهاده وآمنوا بسموّ رسالته ورفعة نواياه، كمن يتجرّع مرّ العلقم وهم يرون الأمور تؤول إلى معاوية.

كانت المقارنة بين معاوية، بتاريخه الملطّخ في الإسلام، والملتفّين حوله من بقايا طلقاء قريش وأبنائهم، وبين عليّ بن أبي طالب وآل بيته، ساطعة صارخة تفرض نفسها على العراقيين في كل حين.

روى الدينوري:

«وكان أول مَن لقي الحسن بن علي رضي الله عنه، فندّمَه على ما صنع، ودعاه إلى رد الحرب حجر بن عدي(١).

فقال له: يا ابن رسول الله: لوددتُ أني متّ قبل ما رأيت! أخرجتنا من العدل إلى الجور، فتركنا الحق الذي كنا عليه، ودخلنا في الباطل الذي كنا نهرب منه! وأعطينا الدنية من أنفسنا، وقبلنا الخسيسة التي لم تلق بنا.

فاشتد على الحسن رضي الله عنه كلام حجر.

فقال له: إني رأيتُ هوى معظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب. فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون. فصالحتُ بقياً على شيعتنا خاصة من القتل. فرأيتُ دفعَ هذه الحروب إلى يومٍ ما، فإن الله كل يوم هو في شأن.

فخرج من عنده ودخل على الحسين رضي الله عنه، مع عبيدة بن عمرو.

فقالا: أبا عبد الله! شريتم الذل بالعزا! وقبلتم القليل وتركتم الكثير! أطعنا اليوم واعصِنا الدهر: دع الحسن وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها، وولني وصاحبي هذه المقدمة فلا يشعر ابن هندٍ إلاّ ونحن نقارعه بالسيوف!

فقال الحسين: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا»(٢).

وكذلك كان وقع الصلح قاسياً على قيس بن سعد الذي كان يقود جيش الإمام الحسن:

---

(١) وسوف يقوم معاوية، بعد بضعة سنوات، بإعدام حجر بن عدي بدم بارد.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ص٢٢٠.

«وكتب إلى قيس بن سعد بالصلح، ويأمره بتسليم الأمر إلى معاوية والانصراف إلى المدائن».

ولكن قيس بن سعد، ومعه أربعون الفاً، لم يقبل ذلك الأمر الوارد إليه في البداية، وصمم على قتال معاوية وجيشه حتى الموت!

فتشاور معاوية وعمرو بن العاص بشأن هذه المعضلة وكيفية التصرف السليم. واستقر رأيهما على ضرورة تجنب القتال بأي وسيلة ممكنة:

«قال معاوية: إنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام. فما خير العيش بعد ذلك؟ وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بُدا»[١].

وحاول معاوية أسلوب الإقناع:

«وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد، يذكره الله،

ويقول: على طاعة مَن تقاتل؟! وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك!

فأبى قيس أن يلين له».

وأخيراً اضطر معاوية إلى أن يكتب تعهدات وضمانات إضافية خاصة بقيس بن سعد ومَن معه تتضمن«الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال«وأرسلها لسعد في سجلّ مختوم.

وبعد ذلك فقط لم يعد أمام قيس ومَن معه سوى القبول بالأمر الواقع، فقام قيس بن سعد:

«فقال: أيها الناس: اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام!

فقالوا: لا. بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة»[٢].

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص١٢٥.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص١٢٢. وفي رواية الأخبار الطوال للدينوري ص٢١٨ أن قيسا قال: أيها الناس: اختاروا أحد الأمرين: القتال بلا إمام، أو الدخول في طاعة معاوية!

وكان تسليم قيس بن سعد آخر عقبة أمام سيطرة معاوية الرسمية على العراق.

قال عباس محمود العقاد: «وليس أضل ضلالاً، ولا أجهل جهلاً، من المؤرخين الذين سمّوا سنة ٤١ هجرية بعام الجماعة، لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحدٌ فيها. لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها، كما وقع فيها. إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهي التفرقة بين الجميع. وسيان سكنوا عن رضا منهم بالحال، أو سكنوا عجزاً منهم عن السُخط والاعتراض، وكان سكونهم سكون أيام، أو كان سكون الأعمار والأعوام»[1].

وتربّع ابن هند وأبي سفيان على عرش دولة الرسول.

لم يبقَ أمام معاوية سوى مدّ نفوذه إلى ولاية فارس حتى تكتمل سيطرته على الامبراطورية الإسلامية.

ولكن كانت هناك مشكلة صعبة تواجهه: إنها والي عليّ القويّ زياد بن أبيه!

زياد بن أبيه

على الرغم من أن الإسلام لا يؤآخذ الإنسان على أصله مهما كان مُهيناً، وهو ما يعني أن الانسان ذا الأصل الوضيع أو الملوّث ليس شرطاً أن يكون يتصف بالخسّة والسفالة، ورغم أن الإسلام النبوي لا يعترف للانسان الأ بعمله ولا يقرّ التفاضل بالأنساب «ليس للإنسان إلاّ ما سعى»، ويؤكد أن الايمان والعمل الصالح هو مقياس التمايز بين الناس، إلاّ أن قصة زياد بن أبيه تعتبر مثالاً صارخاً يبرّر ما شاع بين العامة من أن دناءة الأصل تغلب على الطبع وتؤدّي إلى أحط الخصال!

فقصّة هذا الشخص تصلح أن تكون نموذجا للخسّة والجحود ونكران الفضل. فهو ابن البغيّ المشهورة في الجاهلية: سميّة، والتي كانت مشاعاً لكل من شاء ارتكاب الزنا من الرجال في أي وقت. وقد أنجبت ابنها الذي أسمته زياداً ولم يُعرف

---

(١) من «شيخ المضيرة» لمحمود أبو رية ص ٢٠٥ نقلا عن كتاب «معاوية في الميزان» لعباس محمود العقاد

له أبٌ فسُمّي «ابن أبيه». وكان أحياناً يُنسب إلى زوج أمه، الذي كان يمارس دور القواد، واسمه عبيد، وهو من أصل رومي، وكان غلاماً للحارث بن كلدة الثقفي، فيقال له «زياد بن عبيد». وكان أيضاً يعرف بـ«زياد بن سمية».

وقد شاءت إرادة الله أن يكون هذا الشاب الذي ولدته سمية سِفاحاً، ذا قدر عالٍ من الذكاء والنشاط والقوة. ولكن طبعاً في المجتمع العربي ـ حيث تسود قيم العشائرية والشرف ـ كان مستحيلاً لهذا الشخص، مهما امتلك من المواهب والقدرات، أن يأخذ أي دور قيادي في المجتمع، حتى ولو عاش ألف سنة!

وكان الأمر بحاجة الى شخصية من المدرسة النبوية حتى يمكن لهذا الشخص أن يأخذ فرصة لاظهار قدراته، وهنا دور الإمام علي. لم ينظر الامام عليّ الى وضاعة أصله ولا الى نسَبه المجهول، وعامله كإنسان مسلم متساوي الحقوق مع غيره من العرب الأصلاء. ولم ينظر الإمام علي اليه الاّ كشابٍ مسلم طموح وذكي، فاعتمدَه كنائبٍ لعبد الله ابن عباس: واليه على البصرة.

وهكذا أتيحت الفرصة لهذا الشخص أن يُظهر قدراته الإدارية والقيادية الفذّة، والتي تجلّت أثناء مشكلة البصرة، حينما حاول معاوية أن يستولي عليها عن طريق عملائه أثناء غياب واليها ابن عباس عنها. عندها أظهر زياد بن أبيه رباطة جأش نادرة ونجح في منع سقوط البصرة بأيدي أزلام معاوية، وتثبيتها تحت سلطة أمير المؤمنين عليّ.

وقدّر الإمام عليّ ذلك فولاّه فيما بعد حكم إمارة فارس الشاسعة والغنية. فقد بلغَ أهلَ فارس ما هو حاصلٌ بين العرب في الشام والعراق من حربٍ أهليةٍ طاحنة استنزفت قواهم، فبدت لهم الظروف مواتية للتمرد على السلطة العربيةً في بلادهم. وجاءت الأخبار علياً أن مناطق عديدة في ايران قد أخذت في الامتناع عن دفع الجزية والخراج، بل إن بعضها قامت بطرد الوالي العربي منها. فكان لا بد له من إرسال والٍ قويٍ قدير يعيد فرض الأمن والنظام.

وكان زياد عند حُسن ظنّ الإمام عليّ. وقد وصف الطبري ما فعله زياد فقال:

«... ولما قدِم زيادٌ فارسَ، بعث إلى رؤسائها، فوعدَ مَن نصَرَه ومَنّاه، وخوّفَ

قوماً وتوعّدهم، وضربَ بعضَهم ببعض، ودلّ بعضَهم على عورة بعض.

وهربت طائفة، وأقامت طائفة. فقتلَ بعضهم بعضاً. وصَفَت له فارس، فلم يلقَ فيها جمعاً ولا حرباً.

وفعل مثل ذلك بكرمان.

ثم رجع إلى فارس فسارَ في كورِها، ومَنّاهم، فسكنَ الناس إلى ذلك. فاستقامت له البلاد.

وأتى اصطخر، فنزلها وحصّنَ قلعةً بها، ما بين بيضاء اصطخر واصطخر فكانت تسمى قلعة زياد، فحمل إليها الأموال ثم تحصّن فيها بعد ذلك.

....وكان أهل فارس يقولون: ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي..»[1].

المفاوضات بين عقلين متشابهين

حينما استشهد عليّ وتولّى ابنه الحسن القيادة، كثّف معاوية من جهوده لاستقطاب زياد وإحكام الطوق على الإمام الجديد. ولكن زياداً أظهر نفوراً شديداً وأصرّ على موقفه المعادي لمعاوية:

«كتب معاوية حين قتل عليّ عليه السلام إلى زياد يتهدده.

فقام خطيباً فقال: العجب من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق ورئيس الأحزاب!

كتب إليّ يتهددني وبيني وبينه ابنا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني ابن عباس والحسن بن علي، في تسعين ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم لا ينثنون!

لئن خلص إلى الأمر ليجدني أحمز ضراباً بالسيف»[2].

ولكن الأمور تغيرت بعد الصلح الذي أبرمه الحسن مع معاوية. فقد امتدت

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص١٠٦.

(٢) تاريخ الطبري ج٤ ص١٣٠.

سيطرة معاوية الآن إلى العراق، ولم يبقَ أمامه سوى إخضاع إقليم فارس حتى يجلس متوجاً على عرشه. ولكن مشكلة معاوية أن زياداً لم يلِن، ولم يُظهر رغبة في الدخول في طاعته، رغم أنه لم يعُد لديه قائدٌ يتبعه!

فتبادل معاوية وزياد المزيد من الرسائل[1] المليئة بالشتائم والتهديدات:

«من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عبيد. أما بعد:

فإنك عبدٌ قد كفرتَ النعمة، واستدعيتَ النقمة. ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر. وإن الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من أصلها.

إنك ـ لا أم لك بل لا أبا لك ـ قد هلكتَ وأهلكتَ، وظننتَ انك تخرج من قبضتي، ولا ينالك سلطاني.

هيهات! ما كل ذي لبٍ يصيب رأيه، ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته.

أمسُ عبد، واليوم أمير! خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية.

وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة، وأسرع الإجابة. فإنك إن تفعل فدمكَ حقنتَ، ونفسكَ تداركتَ. وإلاّ اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سعي.

وأقسم قسماً مبروراً ألاّ أوتى بك إلاّ في زمارة تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام، حتى أقيمك في السوق، وأبيعك عبداً وأردك إلى حيث كنتَ فيه وخرجتَ منه. والسلام».

فغضب زياد بشدة وأجابه:

«أما بعد. فقد وصل إليّ كتابك يا معاوية وفهمتُ ما فيه. فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبّث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع، طمعاً في الحياة.

إنما يكفر النعم ويستدعي النقم، مَن حادّ الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً.

فأما سبّكَ لي: فلولا حلمٌ ينهاني عنك، وخوفي أن أدعى سفيهاً، لأثرتُ لك مخازي لا يغسلها الماء.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص١٨٤.

وأما تعييركَ لي بسمية، فإن كنتُ ابن سمية فأنت ابن جماعة.

وأما زعمكَ أنك تخطفني بأضعف ريش، وتتناولني بأهون سعي، فهل رأيتَ بازياً يُفزِعُه صغيرُ القنابر، أم هل سمعتَ بذئبٍ أكله خروف؟!

فامضِ الآن لطيتك، واجتهد جهدك، فلستُ أنزل إلاّ بحيث تكره، ولا أجتهد إلاّ فيما يسوءك. وستعلم أينا الخاضع لصاحبه، الطالع إليه. والسلام».

وطفح الكيل بمعاوية، فلجأ حين ذاك إلى أسلوب آخر، لينفّذه سفّاحه المشهور بسر بن أرطأة. فقد كانت عائلة زياد لا زالت تقيم في البصرة، فوجّه معاوية بسراً إلى البصرة وأمره بإلقاء القبض على أبناء زياد:

«كتب بسر إلى زياد: لئن لم تقدم لأصلبنّ بنيك!».

ورغم هذا الوعيد الرهيب، إلاّ أن زياداً صمد وقاوم:

«فكتب إليه: فإن تفعل فأهل ذاك انتَ. إنما بعث بك ابن آكلة الأكباد»[1].

فكان بسر بن أرطأة على وشك تنفيذ تهديده وقتل أبناء زياد، لولا أن أبا بكرة، أخا زياد، ذهب إلى معاوية ورجاه أن يأمر بسراً بعدم قتلهم، متعهداً له أن يساعده في إقناع زياد بتغيير موقفه، فاستجاب له معاوية.

ولما تأكد معاوية أن أسلوب التهديد لن يجدي نفعاً مع زياد، كان عليه أن يفكر بطريقة أخرى. لجأ معاوية إلى مستشاره المخلص: المغيرة بن شعبة، طالباً نصحه:

«... يا مغيرة إن زياداً قد أقام بفارس، يكشّ لنا كشيشَ الأفاعي. وهو رجلٌ ثاقب الرأي، ماضي العزيمة، جوال الفكر. مصيبٌ إذا رمى.

وقد خفتُ منه الآن ما كنتُ آمنه إذ كان صاحبه حياً. وأخشى ممالاته حسنا.

فكيف السبيل إليه؟ وما الحيلة في إصلاح رأيه؟

قال المغيرة: أنا له إن لم أمت. إن زياداً رجلٌ يحب الشرفَ والذكرَ وصعودَ

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص١٢٩.

المنابر. فلو لاطفته المسألة، وألنتَ له الكتاب، لكان لك أميلَ، وبكَ أوثق. فاكتب إليه وأنا الرسول».

وليس غريباً أن يلجأ معاوية إلى المغيرة بن شعبة ليعينه في شأن زياد، فمعاوية كان ولا شك يعرف أن الصلة وثيقة بين الرجلين منذ أن قام زيادٌ بإنقاذ حياة المغيرة من حد الموت رجماً في عهد عمر بن الخطاب بعد أن شهد ثلاثة رجالٍ على المغيرة بالزنا مع امرأةٍ بالكوفة، فكان زيادٌ رابعهم فقرر إنقاذ المغيرة الذي رجّاه أن يفعلَ، فشهدَ زيادٌ أمامَ عمر بأنه رأى المغيرة عارياً بين فخذي المرأة ولكنه لم يرَ «الميل في المكحلة «فأنقذ رقبة المغيرة بشهادته تلك. ولذا فالمغيرة تهمه حتماً مصلحة زيادٍ ولن يتوانى عن بذل الجهد في التوفيق بينه وبين معاوية.

وبالفعل شدّ المغيرة بن شعبة الرحالَ إلى بلاد فارس، حاملاً رسالة بلغةٍ جديدة من معاوية. فبدلاً من قوله له إنه عبد، وابن العاهرة سمية، ولا أبَ له، أصبحَ الآن أخاه، وابن أبيه! وصل المغيرة يحمل عرضاً لا يمكن لزياد أن يرفضه:

«من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان: أما بعد.

فإن المرء ربما طرحه الهوى في مطارح العطب. وإنك للمرء المضروب به المثل، قاطع الرحم، وواصل العدو. وحملك سوء ظنك بي، وبغضك لي على أن عققتَ قرابتي، وقطعتَ رحمي، وبتتَ نسبي وحرمتي، حتى كأنك لستَ أخي، وليس صخر بن حرب أباك وأبي.... فارجع رحمك الله إلى أصلك واتصل بقومك.... وقد أصبحت على بينة من أمرك، ووضوح من حجتك، فإن أحببتَ جانبي ووثقتَ بي، فإمرة بإمرة....»[1].

استلحاق معاوية لزياد

«كان أبو سفيان صار إلى الطائف، فنزل على خمّار يقال له أبو مريم السلولي. فقال أبو سفيان لأبي مريم بعد أن شرب عنده: قد اشتدّت بي العزوبة فالتمس لي بغيًا!

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص١٨٥. وبت نسبي أي قطعته.

قال: هل لك في جارية الحارث بن كلدة، سمية امرأة عبيد؟

قال: هاتها، على طول ثدييها وذفر إبطيها.

فجاء بها إليه فوقع لها»[1].

وحينما كان أبو سفيان لا يزال على قيد الحياة، أظهر زياد مرة فصاحة لافتة دلّت على شخصية واعدة، مما دفع عمرو بن العاص إلى القول «لله هذا الغلام! لو كان قرشياً لساقَ العربَ بعصاه!

فقال أبو سفيان وهو حاضر في المجلس: والله إني لأعرف أباه، ومَن وضعه في رحم أمه»[2].

كانت هذه العبارة التي قالها أبو سفيان قبل أكثر من ٢٠ عاماً هي الأساس الذي استند عليه معاوية في ادّعاء زياد! وقد كان عليّ بن أبي طالب أشار إلى هذه الحادثة في إحدى رسائله إلى زياد حينما بلغه أن معاوية يحاول إغراءه ويلوح له بقول أبي سفيان المذكور:

«وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك، يستزلّ لبّكَ، ويستفلّ غربك. فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته ويستلب غرّته.

وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر فلتة من حديث النفس، ونزغة من نزغات الشيطان، لا يثبت بها نسَبٌ، ولا يستحق بها إرث! والمتعلق بها كالواغل المدفّع، والنوط المذبذب»[3].

وأحضر معاوية وزياد ذلك الخمّار العجوز من الطائف ليؤدي دوره في المسرحية: فتقدم أبو مريم السلولي فقال: «كنتُ خماراً بالطائف، فمرّ بي أبو سفيان

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١٩ ص١٧٣.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١٩ ص١٧٥.

(٣) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج٤ ص٣٥٧. والواغل هو الذي يهجم على الشاربين وهو ليس منهم فيبقى محاجزا. والنوط المذبذب هو ما يعلّق برحل الراكب من قدح او ما شابه فيبقى يتقلقل كلما سار.

منصرفاً من سفر له، فطعم وشرب ثم قال: يا أبا مريم، طالت الغربة، فهل من بغي؟

فقلت: ما أجد لك إلاّ أمَة بني عجلان.

قال: فأتني بها على ما كان من طول ثدييها ونتن رفغها.

فاتيته بها، فوقع عليها ثم رجع إليّ.

فقال: يا أبا مريم! لاستلّت ماء ظهري استلالاً تثيب ابن الحبل في عينها.

فقال له زياد: إنما اتينا بك شاهداً، ولم نأتِ بك شاتماً»([1]).

ويبدو أن الخمار العجوز اندمج في الدور الذي يؤدّيه إلى درجة أنه غير مصدق أن هكذا مهزلة يمكن فعلا أن تحصل علناً، فلجأ إلى قول بعض التفاصيل حول قذارة سمية، مما استفزّ زياداً ودفعه إلى إسكات العجوز وتذكيره بأن لا يتجاوز الدور المطلوب منه أن يؤدّيه.

إذن تمت الصفقة، وكملت فصول المسرحية، وأعلن معاوية أن زياداً أخوه، وابن أبيه!

وكان هذا هو الثمن الوحيد الذي يمكن لزياد أن يقبله في مقابل انضمامه لمعاوية وحزبه. فزياد كان يتحصّن عميقاً داخل بلاد فارس مسيطراً على مقدراتها وثرواتها. وكان مستعداً للصمود فترة طويلة في أية مواجهة مع معاوية. كان زياد يدرك موازين القوى، ويفكّر بعقول خصومه والخيارات المتاحة امامهم. أدرك زياد أنه في وضع ممتاز للمساومة، وأن بإمكانه رفع الثمن المطلوب من معاوية.

وبذات الطريقة يفكر معاوية! فهو رجلٌ عمليٌ وهدفه واضحٌ محدد، ولا تهمّه الوسيلة المتبعة للوصول إلى غايته: الانفراد بحكم دولة الإسلام، القرشيّة بنظره، في كل أمصارها. لم يكن بإمكان معاوية أن يتناسى أمر زياد، ويكتفي بالسيطرة على بقية الأمصار الإسلامية، لأن ذلك يعني أن عمله غير مكتمل وانجازه مهدد. إذ من المتوقع أن تصبح الولاية الرافضة لطاعته، فارس، قطباً جاذباً لكل العناصر المعادية له، وهي كثيرة جداً، وهذا ما لا يستطيع معاوية أن يتحمله.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢١٩.

كان أمام معاوية خياران لا ثالث لهما: إما أن يوجّه حملة عسكرية ضخمة إلى عمق بلاد فارس، حيث زياد، لهزيمته وإخضاعه، وإما أن يتوصل إلى حل وديّ مع حاكم فارس القوي، ويدفع الثمن المطلوب.

كان الخيار الأول، العسكريّ، باهظ التكاليف، خطراً وصعباً. لقد كان دخول معاوية إلى العراق وبسط نفوذه عليها حديثا جدا، وكانت تنتظره مهمة ليست باليسيرة، لتثبيت حكمه هناك. وكان آخر ما يريده هو الانجرار إلى مزيد من الحروب. فأهل الشام وجيشها كانوا لا شك متعبين بعد كل تلك المعارك. ولا يستطيع معاوية طبعا الاعتماد على مقاتلي العراق في مهمة كهذه.

ولحسن حظ معاوية انه كان يتعامل مع خصم من نفس طينته. وبحكم تركيبتهما، كان الرجلان قادرين على التوصل، في النهاية، إلى تفاهم مبنيّ على أساس حسابات الربح والخسارة، والمنفعة والمصالح المتبادلة.

ولكن الثمن الذي يطلبه زياد كان مختلفا تماماً عن كل ما عهده معاوية واعتاد عليه. فهو يطلب نسَباً، ويريد اسماً، ويحتاج أصلاً!

وقرر معاوية أن دفع هكذا ثمن لزياد هو أيسر وأهون من شنّ حملة عسكرية صعبة ومؤلمة. سيمنح معاوية زيادا نسبا قرشيا صريحاً. ليس ذلك فحسب، سيجعله أخاه! وسيصبح «زياد بن أبي سفيان» أخا أمير المؤمنين! وهكذا كان.

لم يبالِ معاوية بحكم الشرع، ولا بفتوى الرسولﷺ في حديثه الصحيح:
«... الولد للفراش وللعاهر الحجر. ومن ادّعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين...»[1].

ولم يبال «بالرأي العام» وما يمكن ان يقوله الناس حول هذه المسرحية الهزلية. فكل هذه الأمور تهون وتصغر ولا تستحق أي اعتبار بنظر معاوية، أمام سياسة الدولة ومقتضيات الحكم! فما قيمة حديث نبويّ بنظر معاوية؟ هو ببساطة قادر على

(1) سنن ابن ماجة ج٢ ص٩٠٥ باب لا وصية لوارث.

اصطناع فقهاء ومفتين عملاء يبررون له كل قراراته.

قال الشاعر[1] معبّراً عن رأي الناس في الاستلحاق:

ألا أبلغ معاوية بن صخر مغلغلة من الرجل اليماني
أتكره أن يقال أبوك عفٌ وترضى أن يقال أبوك زان
فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها حملت زياداً وصخرٌ من سمية غير دان

وكان الناس واعين للعقدة النفسية التي يعاني منها زياد، وكيف أنه لا يصدّق نسبَه الجديد! ولذا أصبح مَن له حاجة أو مصلحة عند الوالي يلجأ إلى النفاق في موضوع نسبه بالتحديد. روى ابن عساكر أن رجلاً كانت له حاجة عند زياد، فلجأ إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، الذي وافق ان يكتب له كتابا لكنه رفض أن ينسب زياداً إلى أبي سفيان، فخاف الرجلُ غضبَ زياد فجاء إلى عائشة لكي تتوسط له، فقبلت أن تساعده فكتبت له كتاباً حمله إلى زياد:

«فكتبت له من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان.

فلما جاء بالكتاب قال له: إذا كان غداً فجئني بكتابك.

وجمع الناس، وقال: يا غلام اقرأه.

فقرأه من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان.

فقضى له حاجته»[2].

وحتى بنو أمية أنفسهم، لم يكونوا يأخذون هذا النسَبَ الجديد لزياد على محمل الجد. فقد روى ابن أبي الحديد أن الفرع الأموي الآخر، آل أبي العاص، رأى في حركة معاوية محاولة لتقوية الفرع السفياني على حسابه، حتى أن عبد الرحمن بن الحكم قال لمعاوية « لو لم تجد إلاّ الزّنجَ لاستكثرتَ بهم علينا»!

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ هامش ص١٩٠. والشاعر هو يزيد بن ربيعة الحميري.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١٩ ص١٧٧.

وروى ابن أبي الحديد طرفة عن شخص قرشيّ عجوز، من بني عدي، اسمه أبو العريان، الذي سمع ضجة موكب زياد في البصرة فقال «ما هذه الجلبة؟ قالوا: زياد بن ابي سفيان. قال: والله ما ترك أبو سفيان إلاّ يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً، فمن أين جاء زياد؟

فبلغ الكلام زياداً. وقال له قائل: لو سددتَ عنك فمَ هذا الكلب.

فأرسلَ إليه بمائتي دينار. فقال له رسول زياد: إن ابن عمك زياداً الأمير قد أرسل إليك بمائتي دينار لتنفقها.

فقال: وصلته رحم! إي والله ابن عمي حقاً!

ثم مر به زياد من الغد في موكبه، فوقف عليه فسلم. وبكى أبو العريان! فقيل له: ما يبكيك؟ قال: عرفتُ صوت أبي سفيان في صوت زياد!»[1].

وروى ابن خلدون[2] أن عبد الله بن عامر بن كريز غضب يوماً من زياد، فهمّ بأن يُحضر مجموعة من رجال قريش ليشهدوا على رؤوس الأشهاد ويقسموا أن أبا سفيان لم يرَ سمية قط، لولا تدخل معاوية!

«.. ولم يكن زيادٌ غبياً لكي لا يدرك الجانب الضعيف من المسألة كلها، وانها لا تعدو أن تكون مسرحية هزلية أبطالها معاوية وهو، وأنها مهما بلغت من قوة الحبكة وجودة الحوار والتمثيل، فانها لن تستطيع اقناع الناس بشرعية مولده وانتسابه الصحيح لأبي سفيان ـ وهو انتسابٌ لا يشرّف المرء أبداً ـ وأنها لن تكون الأ مدعاة لجلب المزيد من السخرية والاستهزاء به، مهما بدا مخيفاً ومهما أوغل في البطش والقتل وسفك الدماء..

ولم تكن«جدّية» زياد وعبوسه ولجوئه الى الارهاب والقسوة عبثا.. انّه بذلك يفرض على كل فرد الاعتراف بطهارة مولده وصحّة نسبه.. ويعوّض عن نقصه

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص١٨٨. وربما حدث لبس في أسماء أبناء أبي سفيان الذين ذكرهم العجوز، فأسقط منهم عمرو وأضيف إليهم محمد.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٨

بلجوئه لتلك القسوة المعلنة التي اشتهر بها.. واشتهر بها ابنه عبيدالله فيما بعد..

وفي وقت لاحق، يظهر جليًا أنه حتى يزيد بن معاوية وعبيدالله نفسه لم يكونا يريان أن قرار الاستلحاق يتمتّع بأيّ قدر من الشرعية أو الواقعية.. فلهجة يزيد وهو يصدر أمره لعبيدالله بالتصدّي للامام الحسين تدل على أنه يمكن أن يلغي القرار الذي أصدره معاوية «انه قد بلغني أن حُسيناً قد سار الى الكوفة، وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتليتَ أنتَ به من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبداً كما ترقّ العبيد وتعبّد»[1].

*****

وهكذا فإن معاوية ضم إلى صفوفه رجلاً من طرازٍ قيادي وإداري رفيع. وسوف يصبح زيادٌ من أعمدة الحكم الأموي وأركانه بعد أن ربط مصيره به. ولم يجد معاوية أفضل من زياد ليعينه في منصب والي العراق. فزيادٌ يعرف العراق بكل دقة، وهو قادرٌ بلا شك على إرهاب أنصار عليّ ومحبيه الكثر في العراق، فهو يعرفهم لأنه كان منهم. ومارس زيادٌ دورَه بإخلاصٍ وفعالية، فحوّل حياة شيعة عليّ إلى جحيمٍ لا يطاق على مدى سنين طويلة.

وما قاله زياد لحجر بن عدي الكندي لا يمكن إلاّ أن يصدر عن نفسية مريضة:

«زياد: يا أبا عبد الرحمن! كيف تعلم حبي لعلي؟

حجر: شديد.

زياد: فإن ذاك قد انسلخ أجمع، فصار بُغضاً! فلا تكلمني بشيء نكرهه فإني أحذرك»[2].

ولم يقنع زياد بن أبيه أن يبقى بغض عليّ أمراً مقتصراً عليه وحده، فقام بجمع أهل الكوفة في المسجد ليجبرهم على البراءة من علي![3].

(١) نقلا عن «معالم الانحراف» لمحمد نعمة سماوي ص٤٤.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١٢ ص٢١٤. ومثل ذلك ورد في تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٣٠ وفيه أن زياداً قال أيضا ان بغضه لمعاوية انقلب حباً وموالاة!
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١٩ ص٢٠٣.

الكتاب الثامن

التأثير الأموي: السياسة والدين

لمقامُ نُسيبة بنت كعب اليومَ
خيرٌ من مقام «فلان وفلان»

كتاب المغازي للواقدي



الحملة الدعائية المنظمة ضد عليّ وآل النبي

أولاً: الدولة الأموية تسخر طاقاتها لأغراض الدعاية

كيف بدأت حملة التشهير الفظيعة

روى ابن أبي الحديد عن أبي الحسن المدائني:

«كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة أن: برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته.

فقامت الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته.

وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة لكثرة مَن بها من شيعة عليّ عليه السلام. فاستعملَ عليهم زياد بن سمية وضمّ إليه البصرة. فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارفٌ لأنه كان منهم أيام عليّ عليه السلام. فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسَمَل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطرفهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبقَ بها معروفٌ منهم.

وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألاّ يجيزوا لأحدٍ من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة.

وكتب إليهم: أن انظروا مَن قِبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم. واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي. فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحدٌ مردود من الناس

عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلأ كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب إلى عماله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية. فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين. ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة. فإن هذا أحب إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرئت كتبه على الناس، فرُويت أخبارٌ كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها. وجدّ الناسُ في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم. فلبثوا بذلك إلى ما شاء الله.

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا مَن قامت عليه البينة أنه يحبّ علياً وأهلَ بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه.

وشفع ذلك بنسخة أخرى: مَن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره

فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة، حتى إن الرجل من شيعة عليّ عليه السلام ليأتيه مَن يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه.

فظهر حديثٌ كثير موضوع، وبهتانٌ منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والولاة وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل. حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها وهم يظنون

أنها حق. ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها.

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن عليّ عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبقَ أحدٌ من هذا القبيل إلاّ وهو خائفٌ على دمه، أو طريد في الأرض.

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام. وولي عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة، وولى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض عليّ وموالاة أعدائه، وموالاة من يدعي من الناس أنهم أيضا أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغض من عليّ عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنآن له. حتى أن إنساناً وقفَ للحجاج - ويقال أنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب - فصاحَ به: أيها الأمير: إن أهلي عقّوني فسمّوني علياً! وإني فقيرٌ بائس. وأنا إلى صلة الأمير محتاج. فتضاحك له الحجاج وقال: للطف ما توسلتَ به قد وليتك موضع كذا

وقد روى ابن عرفه المعروف بنفطويه - وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرّباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم»[1].

وفي موضع آخر روى ابن أبي الحديد كيف أصبحت رواية أي خبر إيجابي عن علي بن أبي طالب في غاية الصعوبة والمخاطرة على راويها بسبب البطش الأموي. فهو ذكر عن أبي جعفر الاسكافي:

«... فلم يزل السيف يقطر من دمائهم، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، فكانوا بين قتيل وأسير، وشريدٍ وهارب، ومستخفٍ ذليل وخائفٍ مترقب.

حتى إن الفقيه والمحدث والقاضي والمتكلم، ليتقدم عليه ويتوعد بغاية الابعاد وأشد العقوبة، ولا يذكروا شيئاً من فضائلهم، ولا يرخصوا لأحدٍ أن يطيف بهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١١ ص٤٥ـ٤٦.

وحتى بلغ من تقية المحدث أنه إذا ذكر حديثاً عن عليّ عليه السلام كنّى عن ذكره فقال: قال رجلٌ من قريش، وفعل رجلٌ من قريش، ولا يذكر علياً عليه السلام ولا يتفوه باسمه.

ثم رأينا جميع المختلفين قد حاولوا نقضَ فضائله، ووجهوا الحيل والتأويلات نحوها، من خارجيّ مارق، وناصبٍ حانق، وثابت مستبهم، وناشئ معاند، ومنافق مكذب، وعثمانيّ حسود، يعترض فيها ويطعن....

وقد علمت أن معاوية ويزيد ومَن كان بعدهما من بني مروان أيام ملكهم - وذلك نحو ثمانين سنة - لم يدعوا جهداً في حمل الناس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله وستر مناقبه وسوابقه»[1].

«قال أبو جعفر الاسكافي رحمه الله: إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ تقتضي الطعن فيه والبراءة منه. وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه. منهم (أبو هريرة) وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة. ومن التابعين عروة بن الزبير.

وروى الزهري أن عروة بن الزبير حدّثه قال: حدّثتني عائشة قالت: كنت عند رسول الله إذ أقبل العباس وعليّ فقال: يا عائشة! إنّ هذان يموتان على غير ملّتي أو قال: ديني!»[2].

معاوية يباشر سياسة اللعن البغيضة بنفسه

وكان معاوية هو القدوة والمثل لعمّاله في إجبار كل الناس على شتم عليّ بن أبي طالب والبراءة منه، عن طريق البطش والإرهاب. ونص الحوار الذي دار بين معاوية وسعد بن أبي وقّاص مثالٌ يوضح ذلك:

«... أمرَ معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعكَ أن تسُبّ أبا تراب؟

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج١٣ ص٢٢٠.

(٢) عن «شيخ المضيرة» ص ٢١٧ نقلا عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

قال: أمّا ما ذكرت ثلاثا قالهنّ رسول الله فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم.

سمعت رسول الله يقول لعليّ وخلّفه في بعض مغازيه، فقال له: يا رسول الله! تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ أنه لا نبوّة بعدي.

وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطينّ الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال فتطاولنا لها فقال: ادعوا لي علياً. قال: فأتاه وبه رَمَد، فبصقَ في عينه ودفعَ الراية إليه، ففتح الله عليه.

وأنزلت هذه الآية ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم﴾، دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم! هؤلاء أهلي»[1].

*****

وهنا مثالٌ آخر على سلوك معاوية الحقود:

«قام رجلٌ من أهل الشام خطيباً بين يدي معاوية ومعه وجوه الناس، فكان آخر كلامه أن لعنَ علياً. فأطرقَ الناس، وتكلم الأحنف (بن قيس) فقال: يا أمير المؤمنين! إن هذا القائل ما قال آنفاً لو (لم) يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم! فاتّقِ الله ودَع عنك علياً. فلقد لقي ربّه وأفردَ في قبره وخلا بعمله. وكان والله ما علمنا المبرّز بسبقه، الطاهر خلقه، الميمون نقيبته، العظيم مصيبته.

فقال له معاوية: يا أحنف! لقد أغضيت العين على القذى، وقلت بغير ما ترى. وأيم الله لتصعدنّ المنبر فلتلعنّنه طوعاً أو كرهاً!

فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خيرٌ لك. وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري به شفتاي أبداً.

---

(١) سنن الترمذي ج٥ ص٣٠٢ حديث ٣٨٠٨ باب مناقب علي بن أبي طالب. وكذلك ورد في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص ٩١٤.

فقال: قم فاصعد المنبر.

قال الأحنف: أما والله ـ مع ذلك ـ لأنصفنّك في القول والفعل.

قال: وما أنت قائلٌ يا أحنف إن أنصفتني؟

قال: أصعدُ المنبرَ فأحمدُ الله بما هو أهله، وأصلّي علىَ نبيّهﷺ ثم أقول: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً. وإنّ علياً ومعاوية اختلفا فاقتتلا. وادّعى كل واحد منهما أنه بغي عليه وعلى فئته. فإذا دعوت فأمّنوا رحمكم الله. ثم أقول: أللهم العن أنت وملائكتك وانبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه. والعن الفئة الباغية. اللهم العنهم لعناً كثيرا. أمّنوا رحمكم الله. يا معاوية: لا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفاً ولو كان فيه ذهاب نفسي.

فغصّ معاوية بريقه وقال: إذن نعفيك يا أبا بحر»[1].

وهنا يُظهِر زعيم قبيلة تميم إصراراً على رفض الطلب المهين الذي أراده معاوية، ويشتدّ في صدّه إلى حدّ أن ابنة معاوية سألت أباها عن سبب تحمّله لكلام الأحنف؟ فأجابها: يا بنية، إنّه سيد بني تميم. إذا غضبَ غضبَ معه مائة ألفٍ لا يسألونه لمَ غضب؟

فإذا كان معاوية لا يتردد في الضغط على صحابيّ كبير، كسعد بن أبي وقاص، وزعيم قبيلة كبيرة، كالأحنف بن قيس الذي شهد صفّين مع عليّ، والطلب منهما شتمَ عليّ، وبكلّ وقاحة، فكيف يكون حال العامة من المسلمين في أيام معاوية؟ وهل يملكون القدرة على تحدّي الأمر الملكيّ الصادر إليهم؟ ومَن يعصم دماءهم من الحاكم الأموي إن رفضوا؟

تنفيذ أوامر معاوية في كل مكان

إذن لم يعد سبّ علي بن أبي طالب أمراً يمارسه فقط الراغبون في التقرّب من السلطات الأموية الحاكمة والطامعون برضاء الأمراء والولاة، بل أصبح شتمُ «أبي

(١) من «شيخ المضيرة» لمحمود أبو رية ص٢١٢ نقلا عن العقد الفريد.

تراب» ولعنه أمراً تفرضه السلطة الحاكمة على كل الخطباء على منابر الجمعة طوال عهد معاوية، ومَن بعده من الحكام الأمويين. ومن كثرة تكراره جيلاً بعد آخر، صار ذلك من «كليشيهات» خطبة الجمعة، يردده الخطباء ويسمعه العامة دون حتى أن يعرف بعضهم مَن هو «أبو تراب»! وتروى بعض الطرائف بهذا الشأن، ومنها أن أحدهم سأل شيخاً شامياً «مَن هذا أبو تراب الذي يلعنه الإمام على المنبر؟» فأجابه: «أظنه لصاً من لصوص العرب». وقام عمر بن عبد العزيز بوقف «سنة» اللعن هذه خلال عهده القصير، إلاّ أن مَن بعده من خلفاء بني أمية استأنفوها.

وبالإضافة إلى ذلك، قام عملاء السلطة باقتراف جريمة الكذب على لسان رسول الله ﷺ من أجل خاطر أسيادهم.

موجة أحاديث الفضائل المختلقة

وانطلقَ الوضّاعون وطلاّب المغانم وعبيدُ الحكام في كل اتجاه يختلقون من الأحاديث ما يرضي سادتهم من بني أمية.

أ ـ أحاديث مدح الخلفاء الثلاثة:

روى ابن عساكر أن مُرة بن كعب قام خطيباً بحضرة معاوية، وقد أجلسَ الناسَ له ليسمعوه، وروى له حديثاً نسَبه إلى النبي ﷺ:

«سمعتُ رسولَ الله ﷺ يذكر فتنة فقربها.

فمرّ رجلٌ مقنّع.

فقال: هذا يومئذٍ وأصحابه على الحق والهدى.

فقلت: هذا يا رسول الله؟ وأقبلت بوجهه إليه.

فقال: هذا! فإذا هو عثمان بن عفان»[1].

وتنفيذاً لأوامر معاوية، وُضِعت آلاف الأحاديث في فضائل الصحابة والخلفاء.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص٢٦٩.

وذهب عملاء السلطة إلى الشطط والغلوّ في اختلاق الفضائل للكثيرين من أجل محاولة موازنة فضل عليّ:

روى بعضهم أن أوراق شجر الجنة مكتوبٌ عليها أسماء الخلفاء الثلاثة!

«قال النبيﷺ: ما في الجنة شجرة ما عليها ورقة إلاّ مكتوبٌ عليها: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، وعثمان ذو النورين».

وروى آخرون أن عرش الله عز وجل مكتوبٌ عليه أسماء الخلفاء!

«قال رسول اللهﷺ: ليلة أسري بي رأيت على العرش مكتوباً لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، عثمان ذو النورين يقتل مظلوماً».

ولم يكتفوا بأسماء الخلفاء المكتوبة على ورق الجنة وعرش الله، بل اخترعوا معجزة إلهية يعود فيها رجلٌ ميتٌ إلى الحياة لينطق بأسمائهم ثم يعود للموت مرة أخرى!

«توفي رجلٌ من الأنصار. فلما كفّن وأتاه القوم ليحملوه، تكلم فقال: محمد رسول الله حقاً. أبو بكر الصديق الضعيف في العين القوي في أمر الله. عمر بن الخطاب القوي الأمين. عثمان بن عفان على منهاجهم».

ب ـ وبالأخص عثمان:

ومن أجل أن تقرّ أعين معاوية، بدؤوا في حملة مركّزة لاختراع فضائل لعثمان بن عفان بالذات لتوازي المناقب المشهورة والكثيرة لعليّ بن أبي طالب، واحدة تلو أخرى:

فلأنّ أبناء عليّ هم أحفاد الرسولﷺ اخترعوا حفيدا للنبيﷺ من صُلب عثمان:

«ولد له من رقية بنت رسول اللهﷺ غلامٌ أسماه عبد الله، واكتنى به، فكناه المسلمون أبا عبد الله. فبلغَ عبد الله ست سنين، فنقره ديكٌ على عينه فمرضَ فماتَ».

ولأن النبيﷺ قال حين بعث علياً بسورة براءة بدلاً من أبـي بكـر، لا يـؤدي عني إلاّ رجلٌ مني، نسبوا للرسولﷺ قولا مناظراً لعثمان:

«أنا من عثمان وعثمان مني».

ولموازاة حديث الغدير المشهور وقول النبيﷺ عن عليّ: مَـن كنـت مـولاه فعليّ مولاه، اخترعوا حديثاً:

«عثمان بن عفان وليّي في الدنيا ووليّي في الآخرة».

ثم أتبعوه بحديثٍ آخر فيه النصّ على خلافة عثمان:

«خرجَ رسول اللهﷺ وبلال.

فقال: يا بلال: نادِ في الناس أن الخليفة أبو بكر.

ثم قال: يا بلال: نادِ في الناس أن الخليفة بعد أبي بكر عمر.

ثم قال: يا بلال: نادِ في الناس أن الخليفة من بعد عمر عثمان.

قال: فرفع رأسه إلى السماء وقال: يا بلال امضِ. أبـى الله عـز وجـل إلاّ ذلـك. ثلاث مرات».

ووصلت وقاحتهم حداً لا يوصف حين لـم تعجـبهم الآيـة القرآنيـة، ومباهلَـة الرسولﷺ الكفار بعليّ وآله، قالوا، وعلى لسان حفيد عليّ بالذات:

«سمعتُ جعفر بن محمد عن أبيه في هذه الآية (تعـالوا نـدعُ أبناءنـا وأبنـاءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) قـال: فجـاء بـأبي بكـر وولـده، وبعمـر وولـده، وبعثمان وولده، وبعليّ وولده».

ولأن النبيﷺ آخى بين نفسه وبين عليّ، قالوا:

«خرج رسول اللهﷺ فلما رآه عثمان عانقه فقال رسول اللهﷺ: قـد عانقـتُ أخي. فمن كان له أخاً فليُعانقه».

وأضافوا أن النبيﷺ اختار عثمان من بين كل الناس كرفيق له في الجنة:

«قال رسول اللهﷺ: إن لكل نبيّ رفيقاً، وإن رفيقي في الجنةَ عثمان».

وبعد أن اعتقدوا أنهم بذلك قد عادلوا فضائل عليّ ونقضوها، انطلقوا إلى اختراع المزيد من الفضائل لإثبات تميّز عثمان:

فجعلوا له قصراً ذهبياً في الجنة:

«قال النبي ﷺ: دخلتُ الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب ودرٍ وياقوت. فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: للخليفة من بعدك، المقتول ظلماً عثمان بن عفّان».

وزعموا أن لعثمان شفاعة من شأنها أن تقنع الله تعالى أن يُدخِلَ مَن استحق النارَ إلى الجنة!

«قال رسول الله ﷺ: ليدخلنّ بشفاعة عثمان بن عفان سبعون ألفا، قد استحقوا النار، الجنة بلا حساب».

وجعلوا حب عثمان من أركان الإيمان، إلى درجة أن النبي ﷺ يُخرج مَن أبغضَ عثماناً من الإسلام:

«أتي رسول الله ﷺ بجنازة رجلٍ فلم يصلِّ عليه. فقالوا: يا رسول الله! ما رأيناكَ تركتَ الصلاة على أحدٍ إلاّ هذا! قال: لأنه كان يبغض عثمان».

وبالتالي قوّلوا النبي ﷺ أنه ينصح الناس بالموت من بعد الخلفاء الثلاثة!

«قال النبي ﷺ لأعرابي: إذا متّ أنا وأبو بكر وعمر وعثمان، فإن استطعتَ أن تموتَ فمت».

ونسبوا للنبي ﷺ أنه يقضي الليل بطوله وهو يعبّر عن رضاه على عثمان:

«عن أبي سعيد: رمقت النبي ﷺ ذات ليلة رافعاً يديه من أول الليل إلى أن طلعَ الفجر يدعو لعثمان وهو يقول: اللهم عثمان! رضيت عنه».

وادّعوا أن النبي ﷺ عبّر عن أسفه لأنه ليس لديه أربعين بنتاً لكي يزوجهنّ لعثمان!

«قال النبي ﷺ لعثمان: لو أن لي أربعين ابنةً زوجتكَ واحدةً بعد واحدةٍ حتى لا يبقى منهنّ واحدة».

ودوناً عن غيره من المهاجرين، جعلوا هجرة عثمان شبيهةً بهجرة النبي لوط:

«قال النبيﷺ: إن كان عثمان بن عفان لأول من هاجر إلى الله بعد لوط».

ولم يستحوا من تصوير النبيﷺ وهو يتلقى الوحي الإلهي وهو واضعٌ رأسه على فخذِ حبيبته عائشة، وبقربه الكاتب الأمين على كلام الله عثمان!

عن عائشة «لقد رأيتُ رسول اللهﷺ واضعاً رأسه على فخذي، وعثمانٌ عن يمينه، وجبريل يوحي إليه ورسول اللهﷺ يقول: أكتب عثمان».

ولكي يقطعوا الطريق على كل الذين يعيبون على عثمان ما اقترفه من موبقات أثناء فترة خلافته ويعيبون عليه فساد حكمه وسياسته قالوا أن النبيﷺ قال لعثمان:

«غفرَ الله لك يا عثمان ما قدّمتَ وما أخّرتَ وما أسررتَ وما أعلنتَ وما أخفيتَ وما أبديتَ، وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»[1].

ج ـ وحتى أحاديث في مدح أبي سفيان نفسه!

وبعد أن شعروا أنهم اختلقوا ما يكفي من الفضائل للخلفاء، انتقلوا إلى اختراع فضائل لأبي سفيان ذاته! ولمَ لا؟ فلعلّ ذلك يقربهم إلى معاوية فيجود عليهم:

فقالوا عن أبي سفيان أنه فقدَ عينيه جهاداً في سبيل الله، واحدةً في حياة النبيﷺ والأخرى بعده، وأن الرسولﷺ شهد له بالجنة!

«إن أبا سفيان أصيبت عينه يوم حنين أو الطائف. فقال له رسول اللهﷺ: اختر إن شئتَ عينكَ أو عيناً في الجنة.

فاختار عيناً في الجنة.

ثم أصيبت عينه الأخرى يوم اليرموك فعَمِي».

---

(1) يمكن مراجعة هذه «الأحاديث «كلها في تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ الصفحات ٨، ٢٩، ٤٢، ٥٠، ٥١، ٥٥، ٥٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١٢٣، ١٢٩، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ٢٢١. وقد ذكرها كلها بأسانيدها. وكذلك يمكن مراجعة الكثير من هذه الأحاديث في فضل الخلفاء الثلاثة في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٦٠ــ٦٩ و ص١٨٠ـ١٨٣ الذي جمعها من كتب الحديث الكثيرة.

وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:«... مَن مثلُ أبي سفيان؟ إذا أقبلتُ من عند ذي العرش أريد الحساب، فإذا بأبي سفيان معه كأسٌ من ياقوتةٍ حمراء يقول: اشرب يا خليلي.

وله الرضا بعد الرضا، رحمَه الله»[1].

د ـ وأين نصيب معاوية من أحاديث المناقب؟

ومن البديهي أن ينال معاوية نفسه نصيباً وافراً من أحاديث الفضائل المختلقة!

فهم قالوا إن النبي صلى الله عليه وآله دعا له بأن يكون مصدر هداية للمسلمين «اللهم إهدِهِ واهدِ به، وعلمه الكتاب والحساب، وقِه العذاب».

وهم قالوا إن معاوية مغفورُ الذنب لأنه من الدائرة الضيقة المؤتمنة على كلام رب العالمين، والمكونة من محمد صلى الله عليه وآله والملاك جبريل ومعاوية بن أبي سفيان!

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله ائتمن على وحيه جبريل وأنا ومعاوية. وكاد أن يُبعث معاوية نبياً من كثرة حِلمه وائتمانه على كلام ربي. فغفر لمعاوية ذنوبه ووفاه حسابه وعلمه كتابه وجعله هَادياً مهدياً وهدي به».

ونسبوا قولاً إلى علي بن أبي طالب يشهد له فيه بأنه أحد أمناء الله وأن الرسول صلى الله عليه وآله دعا له بالتمكين في البلاد! فذكروا أن علي بن أبي طالب قال إنه سمع بأذنه رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لمعاوية «أنتَ يا معاوية أحد أمناء الله. اللهم علمه الكتاب ومكّن له في البلاد»

وقالوا إن الله أمر محمداً صلى الله عليه وآله باتخاذ معاوية كاتباً لوحيه!

«قال النبي صلى الله عليه وآله: أتاني جبريل فقال: اتخِذ معاوية كاتباً».

ثم قالوا إن الله أرسل إلى معاوية بقلم من ذهب ليكتب به آية الكرسي، فهو ينال ثواب مَن يقرأها إلى يوم القيامة!

---

(1) هاتان الراويتان من تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٣ ص٤٦٤ و ٤٦٦.

«نزل جبريل على النبيﷺ ومعه قلمٌ من ذهب إبريز فقال: إن الله سبحانه يقرأ عليك السلام ويقول لك: هذه هدية مني إلى معاوية. فقل له يكتب به آية الكرسي بخط حَسَن ويشكلها ويعجمها، وأعلمه أني قد كتبتُ له ثواب مَن قرأها إلى يوم القيامة»[1].

وكالَ شيخ الإسلام ابن تيمية المديحَ لمعاوية. فهو كان يعتبره من «خيار الأئمة»!

«... ولا تولّى ملكٌ من ملوك المسلمين أحسنُ سيرة من معاوية رضي الله عنه«وأيضاً»... وكانت سيرته في أهل الشام من أحسن السير، وكانت رعيته من أعظم الناس محبةً له. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبّونكم، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم»، وكان معاوية تحبه رعيته وتدعو له، وهو يحبها ويدعو لها»[2].

ثانياً: مجهودات هائلة للدفاع عن "منافسي" علي

التغطية على عيوب أشخاص بعينهم

أ ـ ابن هشام «يشذب» في سيرة ابن اسحاق!

فرغم أن كاتب السيرة النبوية الشهير، ابن هشام، قد عاش في العصر العباسي، إلاّ أنه اعترف، بشكل غير مباشر، بأنه كان يراعي فيما يكتب السلطات الحاكمة. فقد اعترف ابن هشام[3] أنه كان يحذف مما وصل إليه، وينتقي منه ما لا يسبب إزعاجاً «لبعض الناس»! فقال في مقدمته إنه ترك بعض ما ذكره ابن اسحق «مما يسوء بعض الناس ذكره»!

---

(١) هذه «الأحاديث «الخمسة هي من تاريخ دمشق لابن عساكر ج٥٩ ص٦٨، ٧١، ٧٤، و٧٩. وقد أورد السيوطي في تاريخ الخلفاء ص٢٣٧ بعض هذه الأحاديث نقلاً عن الترمذي ومسند أحمد.

(٢) مختصر منهاج السنة لابن تيمية ج٢ ص١٢ و ص٥٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٦.

فمَن يكون «بعض الناس» هؤلاء الذين ترك رواية بعض أخبار السيرة النبوية من أجل خاطرهم؟ أليسوا هم أولئك الذين استولوا على الحكم والسلطة بغير حق؟

والعباسيون لم يكونوا من عشاق معاوية. ولكن المؤسسة الدينية التقليدية في أيامهم كانت امتداداً لتلك التي تأسست أيام معاوية والأمويين، وتتبنّى نفس مبادئها. وهي لم تكن ترتاح للسرد الكامل والصريح للمثالب التي تتعلق بالحاكم أو الخليفة، لأن ذلك من شأنه أن يهز شرعية منصب الخليفة ذاته. والحكام العباسيون يشاركونها في ذلك الرأي لكي لا يمتد ذلك إليهم. فهم يعلمون أن الأمر سيبدأ ببني أمية، ثم سينتهي إليهم. فالأفضل ترك ذلك كله.

ومرّة أخرى اعترف ابن هشام أنه حذف بعض أبيات الشعر التي تسيء إلى هند بنت عتبة!

ففي معرض كلامه عن معركة أحُد ذكر أن عمر بن الخطاب قال لحسّان بن ثابت أن هنداً كانت تمثّل بجسد حمزة بن عبد المطلب ببشاعة وتقول شعراً في ذلك. فقال حسّان بن ثابت شعراً يهجو فيه هنداً ويردّ على كلامها. واكتفى ابن هشام برواية أول بيت لحسّان وهو:

أشرت لكاع وكان عادتها لؤما إذا أشرت مع الكفر

وقال ابن هشام إنه يكتفي بهذا البيت ويترك ما سواه، لأن حسّان أقذعَ فيها[1].

وإذا كان من الجائز للبعض أن يعذر ابن هشام هنا، على اعتبار أن ذوقه لم يسمح له بسرد الشعر المقذع بحق هند، فإن هناك أمثلة أخرى على تدخلاته فيما ورده من السيرة ليس لها علاقة بالذوق ولا بالشعر!

ومن أبرز تدخلاته في السيرة النبوية التي رواها ابن اسحاق، هي محاولته التغطية على موقف لعثمان بن عفان حصل في العهد النبوي.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٨٥ ولكاع هي اللئيمة، والأشر هو البطر. وكذلك فعل ابن هشام ج٣ ص٨٥ بشأن قصيدة أخرى لهند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب قالتها رداً على هند بنت عتبة، فذكر جزءً منها ثم قال «تركنا منها ثلاثة أبيات أقذعت فيها».

فالذي حصل أنه أثناء انتداب الرسولﷺ لأصحابه لبناء المسجد في قباء عند أول وصوله إلى المدينة، وانخراطه هو شخصياً في العمل المرهق لكي يشجعهم ويكون قدوة لهم، اضطر عثمان بن عفان إلى مشاركة بقية المسلمين في العمل وحمل اللبن. ولكن يبدو أن عثمان، وهو التاجر الثري، كان يفعل ذلك مجاراة للرسولﷺ لا أكثر، وليس عن رغبة ولا همّة، ويرى أن هذا النوع من العمل لا يناسب مقامه الرفيع. فكان يتثاقل في نقل اللبِن ويُظهرُ اهتماماً زائداً بالمحافظة على نظافة ثيابه وأكمامه، فينفضها من الغبار باستمرار. ويبدو أن ذلك قد أثار حفيظة عمار بن ياسر، وهو من الصحابة الأولين المستضعفين، الذي كان يعمل بحماس شديد لدرجة أنه كان يحمل عدة لبنات معاً وقد كساه الغبار والعَرَق. فأخذ عمار بن ياسر يرتجز بصوت عال (وهو يقصد أن يسمعه عثمان):

لا يستوي مَن يعمر المساجدا   يدأبُ فيه قائماً وقاعدا

ومَن يُرى عن الغبار حائدا

فلما سمع عثمانُ قولَ عمار، عرف أنه المقصود،فغضبَ وهَدّد عماراً بالضرب، مما أدى إلى تدخل الرسولﷺ إلى جانب عمار ووقفه لعثمان عند حدّه.

ولكن بما أن هذه الحادثة فيها ما لا يتسق مع المقام الرفيع الذي أرادوه للخليفة الثالث المبشر بالجنة، فإن ابن هشام قرر أن يجدَ حلاً للمعضلة، مع المحافظة على ذكر الحادثة لكي يرضي ضميره ويقنع نفسه بأنه لم يحذف سيرة النبيﷺ نفسها! فكان الحل عنده أن يروي معظم الرواية دون أن يذكر فيها اسم عثمان، لكي يبقى الرجلُ الذي أغضب عماراً وتدخل الرسولﷺ ضده، مجهولاً للقارئ!

قال ابن هشام أنه بعد أن أخذ عمار يرتجز بالشعر المذكور أعلاه:

«ظنّ رجلٌ من أصحاب رسول اللهﷺ أنه إنما يعرّض به.

فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن اسحاق. وقد سمّى ابنُ اسحاق الرجلَ.

فقال: قد سمعتُ ما تقولُ منذ اليوم يا ابن سميّة. والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك! وفي يده عصا.

فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: ما لهُم وعمار؟! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. إن عماراً جِلدَة ما بين عَيني وأنفي. فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه»[1].

وهكذا فإن ابن هشام قرر أن يبقي اسم عثمان طيّ الكتمان، واستبدله بِ «رجلٌ من أصحاب رسول الله»، رغم أنه اعترف بأن ابن اسحاق، صاحب السيرة الأصلي، قد سمّى ذلك الرجل صراحة.

وإن غيرَ ابن هشام قد ذكر اسم عثمان في هذه الحادثة، ومنهم ابن سعد[2] الذي أشار إلى حادثة شجار عثمان وعمار أثناء بناء مسجد قباء، إلى درجة أن عماراً وصف عثمان حينها بأنه «نعثل» على سبيل الذم.

ب ـ البخاري يقرّر التصرف في صياغة الروايات للتغطية على بعض الصحابة

وهناك الكثير من الأدلّة على أن الإمام البخاري كان يتعمّد في صحيحه التغطية على أشخاص بعينهم من أجل تبييض صفحتهم. فهو كان يحذف الاسم الصريح من الحديث إذا كان لا يتفق مع نظرته هو إلى الشخص المذكور. وهذا نوع من التزوير. لأن إبقاء الحديث مجتزءً أو مبنياً للمجهول يفقده معناه في الأغلب.

المثال الأول: حذف اسم عثمان بن عفان بسبب انتقاد الصحابة له:

روى مسلم في صحيحه «عن أسامة بن زيد قيل له: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟

فقال: أترونَ أني لا أكلمه إلاّ أسمعكم؟ والله لقد كلمته فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول مَن فتحه، ولا أقول لأحد، يكون عليّ أميراً: إنه خير الناس، بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتى بالرجلِ يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١٢٢.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٢٦٠.

فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟

فيقول: بلى. قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[١].

وأما البخاري فقد روى نفس الحديث عن أسامة بن زيد، ولكنه ببساطة قام بحذف اسم عثمان بن عفان واستبدله ب «فلان»، فبدأ الحديث عند البخاري كما يلي «قيل لأسامة: لو أتيتَ فلانا فكلمته. قَال: إنكم....»[٢].

واضحٌ إذن كيف أن تدخّل البخاري كان لأنّ أسامة بن زيد كان ينتقد عثمان بن عفان وسياسته ويستدلّ على ذلك بحديث عن الرسول ﷺ يتوعّد بعذاب يوم القيامة.

وأيضا يمكن الإشارة إلى حادثة إصدار الخليفة عثمان أوامره إلى أبي ذر الغفاري بعدم الفتوى والحديث عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري «قال أبو ذر: لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننتُ أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها»[٣].

ولكن البخاري لم يذكر مقدمة الحديث والتي يظهر فيها السبب الذي دفع أبا ذر إلى القول أنه سيبلّغ حديث النبي ﷺ حتى لو تعرض للقتل بسبب ذلك.

وقد تولّى شارحُ صحيح البخاري توضيح ذلك. فقد ذكر ابن حجر العسقلاني أن أبا ذر كان جالساً عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع إليه الناس يستفتونه فأتاه رجلٌ فوقف عليه ثم قال: ألم تُنهَ عن الفتيا؟!

فرفع أبو ذر رأسه إليه وقال: أرقيبٌ أنتَ عليّ؟! لو وضعتم الصمصامة......

وذكر ابن حجر «إن الذي خاطبه رجلٌ من قريش وإن الذي نهاه عن الفتيا عثمانُ رضي الله عنه»[٤].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ص١١١٦.

(٢) صحيح البخاري ج٤ ص١٤٧ كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة.

(٣) صحيح البخاري ج١ ص٢٧ باب العلم قبل القول والعمل. والصمصامة هي السيف الصارم.

(٤) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج١ ص١٤٨.

فلم يشأ الإمام البخاري أن يذكر أن الخليفة عثمان كان قد أصدر أمراً بمنع أبي ذر من نشر كلام النبيﷺ بين الناس، مراعاة لقريش ومن أجل خاطرها، وأن أبا ذر كان يرفض ذلك ويصرّ على تبليغ كلام النبيﷺ مهما تكن النتائج.

المثال الثاني: حذف اسم عمر بن الخطاب بسبب جهله الأحكام الفقهية.

حكمَ عمرُ بن الخطاب في خلافته برجم المجنونة الزانية، وكاد الحكم ينفّذ لولا تدخّل عليّ بن أبي طالب. فقد روى أبو داود في سننه:

«أتي عمر بمجنونةٍ قد زنت، فاستشار بها أناساً، فأمر بها أن ترجم.

فمرّ بها عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: ما شأن هذه؟

قالوا: مجنونة بني فلان زنت، فأمر بها عمر أن ترجَم!

فقال: ارجعوا بها.

ثم أتاه فقال: يا أمير المؤمنين: أما علمتَ أن القلم قد رُفِع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبيّ حتى يعقِل؟

قال: بلى.

قال: فما بال هذه ترجم؟

قال: لا شيئ.

قال: فأرسلها.

فأرسَلها. قال: فجعل يكبّر»(1).

وأما البخاري فقد أخرج الراوية مجتزأة مبتسرة بعد أن حذف منها كل ما من شأنه إظهار جهل عمر بن الخطاب بالحكم الشرعي. فقد روى «وقال عليّ لعمر: أما علمتَ أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يدرك، وعن النائم حتى يستيقظ»(2).

---

(1) سنن أبي داود ج٢ ص٣٣٩ كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا ح٤٣٩٩.

(2) صحيح البخاري كتاب المحربين، باب لا يرجم المجنون والمجنونة ج٨ ص٢٠٤.

تجاهل البخاري متعمداً ذكر السبب الذي دفع علياً إلى قول ما قاله لعمر. فالبخاري اعتقد أن الفتوى التي أصدرها عمر بن الخطاب بشأن المجنونة لا يجب أن تروى، لأنها لا تليق بالمقام الذي يريده لعمر.

وكذلك أفتى عمر بن الخطاب بترك الصلاة حين الجنابة إذا لم يتوفر الماء. وهنا أيضا تدخل الصحابي عمار بن ياسر ليذكر الخليفة بحكم الرسولﷺ في إجازة التيمم في هذه الحالة.

روى مسلم في صحيحه «أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجنبتُ فلم أجد ماءً.

فقال: لا تصلِّ.

فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين! إذ أنا وأنتَ في سرية فأجنبنا، فلم نجد ماءً. فأما أنتَ فلم تصلِّ. وأما أنا فتمعّكتُ في التراب وصلّيتُ. فقال النبيﷺ: إنما كان يكفيكَ أن تضرب بيديك الأرض، ثم تنفخ، ثم تمسح بهما وجهك وكفّيك.

فقال عمر: اتّقِ الله يا عمار!

قال عمار: يا أمير المؤمنين! إن شئتَ، لما جعل الله عليّ من حقّك، لا أحدّث به أحداً»[1].

وأما البخاري، فلم يَرُق له إعلان جهل عمر بن الخطاب بفتوى الرسولﷺ، فكان الحل عنده هو حذف المقطع من الحديث الذي يحتوي على فتوى عمر للرجل «لا تصلِّ». وفيما يلي النص كاملاً:

«جاء رجلٌ إلى عمر بن الخطاب فقال: إني أجنبتُ فلم أصِب الماء.

فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أما تذكر أنا كنا في سفر أنا وأنت، فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعّكت فصلّيتُ، فذكرتُ ذلك للنبيﷺ فقال: إنما كان يكفيك هكذا. فضرب النبيﷺ بكفّيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفّيه»[2].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحيض باب التيمم ص١٤٢. ومثله ورد في سنن النسائي وسنن ابن ماجة.

(٢) صحيح البخاري ج١ ص٩٢ كتاب التيمم باب المتيمم هل ينفخ فيهما.

المثال الثالث: حذف اسم سمرة بن جندب للتغطية على فساد سلوكه.

روى مسلم في صحيحه أن سمرة بن جندب كان يبيع الخمر:

«بلغ عمر أن سمرة باع خمراً.

فقال: قاتل الله سمرة. ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: لعن الله اليهود. حُرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها»[1].

واما البخاري فروى الحديث على النحو التالي:

«بلغ عمر أن فلاناً باع خمراً.

فقال: قاتل الله فلانا. ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: قاتل الله اليهود. حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها»[2].

والسبب الذي دفع البخاري إلى مخالفة مبادئ الأمانة في النقل، واستخدامه ل«فلان»بدلا من الاسم الحقيقي للفاعل، هو لأن سمرة بن جندب صحابيٌ جليلٌ بنظره، عَدلٌ وحديثه عن الرسول ﷺ مقبول! وهذا طبعاً لا يستقيم مع سلوك سمرة بن جندب، بائع الخمور.

*****

ج ـ أمثلة أخرى من غير البخاري

وعدا عن البخاري ورواياته، فإن كتب التاريخ والسيرة والحديث والتفسير، مليئة بالحالات التي لجأ فيها لجأ فيها الرواة إلى محاولة التغطية على شخصيات معينة من الصحابة، أو إخفاء ما اقترفوه، أو تبييض صفحتهم. وهنا مثالان آخران صارخان:

ورد في مغازي الواقدي أثناء حديثه عن غزوة أحد:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب المساقاة والمزارعة، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ص٥٩٦.

(٢) صحيح البخاري ج٣ ص١٠٧ باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه.

«وكان ممّن ولّى فلان، والحارث بن حاطب، وثعلبة بن حاطب، وسواد بن غزية، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، بلغ ملل، وأوس بن قيظي في نفر من بني حارثة بلغوا الشقرة.

ولقيتهم أم أيمن تحثي في وجوههم التراب....»[1].

وهكذا فإن الراوي هنا قرر حذف اسم عثمان بن عفان من بين مَن ولّوا فراراً من المعركة. وذلك على الرغم من أن خبر عثمان وفراره عليه إجماعٌ بين كل المحدّثين وأصحاب السير والتاريخ، وبلغ حدّ التواتر.

وورد في مسند أحمد بن حنبل أثناء الحديث عن قرار النبيﷺ بتبليغ سورة براءة للناس:

«... ثم بعث فلانا بسورة التوبة، فبعث علياً خلفه فأخذها منه. قال: لا يذهب بها إلاّ رجلٌ منّي وأنا منه»[2].

فيبدو أن هذا الراوي هنا لم يعجبه قرار الرسولﷺ بأن علياً، وليس أبا بكر، هو من يستحق أن يبلّغ عنه إلى الناس أجمعين سورة براءة، فقرر حذف اسم أبي بكر واستبدله بـ«فلان».

ومعلومٌ أن خبر تكليف النبيﷺ لعليّ بأن يأخذ من أبي بكر سورة براءة، ويؤذّن بها في الناس أجمعين، متّفقٌ عليه في أوساط المحدثين وأصحاب السير والأخبار، وبلغ حدّ التواتر أيضاً، وقد أورده الإمام أحمد نفسه وبالاسم الصريح في موضع آخر من مسنده[3].

وهذان المثالان يظهران مدى الشطط الذي ذهب إليه البعض إلى حدّ محاولة التلاعب في الأخبار المعلومة إلى حدّ التواتر، إذا كانت تتعرض للخلفاء خاصة.

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٧٧.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٣٣١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ج١ ص ٣.

أ- مَن هم أهل البيت الذين طهرهم الله؟

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(1).

وفسّرت سنة الرسول ﷺ هذه الآية ومَن هم المقصودون بها، بما لا يدعُ أي مجالٍ للغموض.

روى الإمام مسلم في صحيحه:

«خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحّلٌ، من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله ثم قال: إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»(2).

وروى الترمذي:

«نزلت هذه الآية على النبي ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ في بيت أم سلمة، فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً، فجللهم بكساء وعليّ خلف ظهره فجلله بكساء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

قالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟

قال: أنتِ على مكانكِ، وأنتِ على خير»(3).

وروى أيضاً:

«إن رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر

---

(1) سورة الأحزاب آية ٣٣.

(2) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص٩٢١. وكذلك جاء في أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص٢٣٩

(3) سنن الترمذي ج٥ ص٣٢٨ حديث ٣٨٧٥ باب مناقب أهل بيت النبي.

يقول: الصلاة يا أهل البيت. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»[1].

محاولات لإدخال زوجات النبي ضمن أهل البيت

وعلى الرغم من أن فعل الرسولﷺ كان جلياً واضحاً بشكل قاطع لا يدع مجالا للشك حول مَن هم آل البيت الذين قصدتهم الآية، إلاّ أنه قد حاول البعض تحوير معنى هذه الآية البيّنة، وتأويل فعل وسلوك الرسولﷺ، من أجل محاولة إدخال زوجات الرسولﷺ من ضمن آل البيت المطهرين! وذلك على الرغم من قيام النبيﷺ باستثناء زوجته ممن تشمله الآية، وقوله لها حينما رغبت في الدخول تحت الكساء:«أنتِ على مكانك».

ومن أبرز الأمثلة على ذلك:

ـ ما ذكره القرطبي في تفسيره. فهو أشار إلى أن المقصود بأهل البيت في الآية هن زوجات النبيﷺ. وأما تأويله لفعل الرسولﷺ مع عليّ وفاطمة والحسن والحسين في بيت أم سلمة، وقوله أن هؤلاء أهله فكان شاذًا حقا:

«فهذه دعوة من النبيﷺ لهم بعد نزول الآية. أحبّ أن يُدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج»!

ـ وأيضاً قال ابن تيمية في محاولة واضحة لتمييع معنى هذه الفضيلة الإلهية لأهل البيت: «وأما آية الطهارة فليس فيها إخبارٌ بطهارة أهل البيت وذهاب الرجس عنهم ، وإنما فيها الأمر لهم بما يوجب طهارتهم وذهاب الرجس عنهم... فالإرادة هنا متضمنة للأمر والمحبة والرضا ، وليست هي المشيئة المستلزمة لوقوع المراد... فقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ إذا كان هذا بفعل المأمور وترك المحظور ، كان ذلك متعلقا بإرادتهم وأفعالهم ، فإن فعلوا ما أُمروا به طُهِّروا وإلا فلا.... ومما يبين أن هذا مما أُمروا به لا مما أُخبروا بوقوعه ، ما ثبت في

---

(١) سنن الترمذي ج٥ ص٣١. وكذلك روى ابن الأثير في أسد الغابة ج٥ ص٥٢٢.

الصحيح أن النبيﷺ أدار الكساء على عليّ وفاطمة وحسن وحسين ، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي ،فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا». وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة ، ورواه أهل السنن عن أم سلمة.

وهو يدل على أنه دعا لهم بذلك ،وهذا دليل على أن الآية لم تخبر بوقوع ذلك ، فإنه لو كان قد وقع لكان يثنى على الله بوقوعه ويشكره على ذلك ، لا يقتصر على مجرد الدعاء به.... إن هذا يدل على أن الله قادرٌ على إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم»[١].

تفنيد

ويكفي للاستدلال على خطل مثل تلك التأويلات القائلة أن زوجات النبيﷺ هنّ من آل البيت وبيان بطلانها، الرجوع إلى بعض الآيات الأخرى من القرآن الكريم:

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرّحكنّ سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيما﴾[٢].

وكذلك:

﴿يا نساء النبي من يأتِ منكنّ بفاحشةٍ مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا﴾[٣].

وهاتان الآيتان لا تدلأن أبداً على أي نوع من التطهير الإلهي لزوجات الرسولﷺ.

ومعروف أن الرسولﷺ، من كثرة تأذيه منهن، قد نوى أن يطلّق زوجاته.

---

(١) مختصر منهاج السنة لابن تيمية، ص١٢٧ـ١٢٨.

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٨. وقد ذكر الامام الطبري في تفسيره «انّ هذه الآية نزلت على رسول اللهﷺ من أجل أن عائشة سألت رسول اللهﷺ شيئا من عرض الدنيا، إمّا زيادة في النفقة أو غير ذلك».

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٢.

فهجرهنّ شهراً وأعطاهنّ فرصةً أخيرة للتوقف عن مسلكهن، وخيّرهنّ بين الرضا بالحياة معه، وهو الزاهد المتعبّد، وبين أن يطلقهن ليتمتعن بمباهج الدنيا.

ولا بأس من سرد مثال صارخٍ آخر حول موقف زوجةٍ للرسولﷺ يشير إلى أن الانتماء للقبيلة راسخٌ في النفوس، ويوضّح ميلها إلى زعيمِ عشيرتها القرشية على حساب زوجها رسول اللهﷺ!

وهذا النص من السيرة النبوية لابن هشام عن موقف أم المؤمنين سودة بنت زمعة حينما رأت أسرى قريش مُكبّلين يوم بدر:

«تقول سودة: والله إنّي لعندهم إذ أتينا. فقيل هؤلاء الأسارى قد أتي بهم.

قالت فرجعتُ إلى بيتي ورسول الله فيه. وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة، مجمعة يداه إلى عنقه بحبل.

قالت: فلا والله ما ملكتُ نفسي حين رأيتُ أبا يزيد كذلك أن قلتُ: أي أبا يزيد: أعطيتم بأيديكم، ألا متّم كراما؟

فوالله ما أنبهني إلاّ قول رسول الله من البيت: يا سودة: أعلى الله ورسوله تحرّضين؟

قلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيتُ أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت»[1].

*****

واعتماداً على ما تقدم، يمكن الجزم بأن زوجات النبيﷺ لا يمكن أن يكنّ جزءً من المطهّرين بنصّ الآية القرآنية، ولا يمكن أن يكنّ جزءً من آل البيت. ولا يمكن أبداً إسباغ العصمة ولا القدسيّة عليهن.

*****

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٦٠.

ب ـ المودّة: مَن هم قربى رسول الله؟

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾[1].

وهذه آية صريحة في ضرورة محبة المسلمين لآل الرسول ﷺ.

وهناك الكثير من الأخبار التي تفيد أن آل الرسول وبني هاشم كانوا مجمعين على أنهم المقصودون حصراً بالقربى الواردة في الآية. فقد روى الإمام الطبري في معرض تفسيره للآية «أن الإمام زين العابدين بن الحسين بن علي لمّا جيء به أسيراً، فأقيمَ على درج دمشق. قام رجلٌ من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قربى الفتنة!

فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه: أقرأتَ القرآن؟

قال: نعم.

قال: أقرأتَ ال حم؟

قال: قراتُ القرآن ولم أقرأ ال حم.

قال: ما قرأتَ قل لا أسالكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى؟

قال: وإنكم لأنتم هم؟

قال: نعم»

وقد رُوي أيضاً عن عبد الله بن عباس ما يؤيد ذلك. فقد روى الإمام أحمد أن ابن عباس أجاب رجلاً سأله عن مَن هم المقصودون بسهم ذوي القربى «إنا كنا نراها لقرابة رسول الله ﷺ، فأبى ذلك علينا قومنا»[2].

ولكن الأصابع الأموية تدخلت في تفسير هذه الآية. فقد جاء في صحيح البخاري أن سعيد بن جبير فسّرها بقوله «إن النبي لم يكن بطنٌ من قريش إلاّ وله فيه قرابة»[3].

---

(١) سورة الشورى آية ٢٣.

(٢) مسند أحمد ج١ ص٢٩٤.

(٣) صحيح البخاري ج٤ ص ٢١٧.

وهكذا جعل ابن جبير قرابة الرسول ﷺ هم قبيلة قريش بأسرها!

وتلك كانت رغبة قريش، وتفسيرها.

كيف تناول المفسرون[1] هذه الآية؟ لقد استعرض هؤلاء أبرز الأقوال الواردة في معنى «المودة في القربى»، وهي كما يلي:

- تودّوني لقرابتي منكم

- تودّوا قرابتي (وقرابتي فيها قولان: علي وفاطمة وأولادهما، أو بنو هاشم وبنو المطلب)

- تودّدوا إلى الله فيما يقربكم إليه من العمل الصالح.

- تودوني كما تودون قرابتكم.

- تودوا قرابتكم وتصلوا أرحامكم.

وهكذا فإن مودّة آل رسول الله ﷺ قد أصبحت مجرّد تأويلٍ من أصل خمسة تأويلاتٍ محتملة للآية!

وبشأن سبب نزول الآية، اتفق ابن الجوزي والواحدي على أن سبب نزول الآية أن رسول الله ﷺ كانت تنوبه نوائب ويمرّ به عوز. فاجتمع الأنصار وتناقشوا وقرروا أن يعرضوا على رسول الله ﷺ مالاً لإعانته به لأنه كان يهديهم إلى الصراط المستقيم وارادوا أن يجزوه أجراً على ذلك. فعرضوه عليه، فنزلت الآية.

وسبب النزول هذا منطقي، وهو مدعومٌ بنصّ الآية القرآنية ذاتها. فالآية تتكلم عن عرض الأجر على الرسول ﷺ.

وبالتالي لا يمكن القول أن قريشاً هي المقصودة بالآية. على العكس من ذلك، فإن قريشاً مستبعدة تماماً، والأنصار هم الذين تخاطبهم الآية بضمير الجمع. فقريشٌ

---

(١) يمكن مراجعة التفاسير التالية: تفسير الجلالين ص٦٤٢، تفسير الطبري ج٢٥ ص٣٥، زاد المسير لابن الجوزي ج٧ ص٧٩، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢١، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤، فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٥٣٤.

لم تبادر أبداً بعرض أجر على الرسولﷺ حتى يقول لهم أنه لا يريد منهم ذلك الأجر، بل يكتفي بالمودة في القربى. قريشٌ لم تظهر للرسولﷺ سوى العداوة والبغضاء حتى الرمق الأخير.

ولا غرابة أن يكون المقصود في الآية هو محبة آل الرسولﷺ وقرابته، فهذا ينسجم مع سيرة الرسولﷺ وأقواله. فمثلاً جاء في سنن الترمذي:

«إن النبيﷺ أخذ بيد حسن وحسين. قال: من أحبني وأحبّ هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»[1].

ولما لم يرزق الله رسوله بالأولاد الذكور، كان الحسن والحسين هما ولداه من صلب عليّ. وكانﷺ يتصرّف بنحو ذلك. فقد ورد عن عليّ «لما وُلد الحسنُ سمّيته حرباً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني! ما سميتموه؟

قلنا: حرباً.

قال: بل هو حسن.

فلما وُلد حُسين سمّيته حرباً. فجاء النبيﷺ فقال: أروني ابني! ما سميتموه؟

قلنا: حرباً.

فقال: بل هو حُسين»[2].

ج - آية المباهلة

قال تعالى: ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[3].

---

(١) سنن الترمذي ج٥ ص٣٠٥ حديث ٣٨١٦ باب مناقب علي بن أبي طالب.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج٤ ص٣٠٨.

(٣) سورة آل عمران آية ٦١.

وقصة نزول هذه الآية معروفة جيداً وهي أنه حينما بعث رسول الله‌ﷺ إلى نصارى نجران يدعوهم إلى الإسلام بعد فتح مكة، أرسلوا إليه وفداً كبيراً لمناقشته في أمر الدين، برئاسة شخصين اسميهما العاقب والطيب. ودار بينه وبينهم جدال طويل حول المسيح عيسى بن مريم، أصرّوا فيه على رأيهم وعلى مخالفة الرسول‌ﷺ. فكان أن نزلت الآية ودعاهم الرسول‌ﷺ إلى الملاعنة فوافقوا وتواعدوا في الغداة. فلما جاء الرسول‌ﷺ ومعه آله: عليّ وفاطمة والحسن والحسين، ورآهم القومُ بنور الحق الذي يشعّ من وجوههم المضيئة، خافوا وقرروا التراجع. وقد ذكر ذلك جميع المفسرين، ومنهم الشوكاني والواحدي وابن كثير:

«قدم على النبي‌ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة.

قال فغدا رسول الله فأخذ بيد عليّ وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يُجيبا، وأقرّا له بالخراج.... قال جابر: «أنفسنا وأنفسكم» رسول الله وعلي بن أبي طالب، و«أبناءنا» الحسن والحسين، و«نساءنا» فاطمة[1].

وكذلك روى الإمام مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص: «... ولمّا نزلت هذه الآية (فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم...)، دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم! هؤلاء أهلي»[2].

*****

ولا شك أن نص هذه الآية، وفعل الرسول‌ﷺ لم يعجب الحكام الأمويين. فبذل عملاؤهم مجهوداً في محاولة طَمس الواقعة أو على الأقل إسقاط اسم عليّ منها.

ففي تفسير الطبري[3]، الأضخم، وردت عدة روايات حول وفد نصارى نجران:

---

(١) النص من تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٩. وكذلك جاء في تفسير الشوكاني ج١ ص ٣٤٧. وأيضا جاء في (أسباب نزول الآيات) للواحدي ص٦٨.

(٢) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص ٩١٤ .

(٣) تفسير الطبري٣ ج٣ ص ٤٠٧.

بعضها يذكر «علي وفاطمة والحسن والحسين».

وبعضها يذكر «فاطمة والحسن والحسين، وقال لعلي: اتبعنا!».

وبعضها يذكر «الحسن والحسين، وقال لفاطمة: اتبعينا!».

وبسهولة يمكن ملاحظة أن بعض الروايات أسقط منها وبطريقة مشوّهة اسم علي بن أبي طالب! ولكن الإمام الطبري كان أميناً بما فيه الكفاية ليقول أن إسقاط اسم عليّ من بعض الروايات كان ربما من أجل إرضاء الحكام الأمويين. وفيما يلي النص:

«فلما غدوا، غدا النبيﷺ مُحتضناً حسناً، آخذاً بيد الحسين، وفاطمة تمشي خلفه.

فدعاهم إلى الذي فارقوه عليه بالأمس فقالوا: نعوذ بالله.

ثم دعاهم فقالوا: نعوذ بالله! مراراً.

قال: فإن أبيتم فأسلموا، ولكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين، كما قال الله عز وجل فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، كما قال الله عز وجل.

قالوا: ما نملك إلاّ أنفسنا.

قال: فإن أبيتم فإني أنبذ إليكم على سواء، كما قال الله عز وجل.

قالوا: ما لنا طاقة بحرب العرب ولكن نؤدّي الجزية...

... فقلتُ للمغيرة: إن الناس يروون في حديث أهل نجران أن عليا كان معهم؟

فقال: أما الشعبي فلم يذكره، فلا أدري لسوء رأي بني أمية في عليّ أو لم يكن في الحديث».

*****

ولم يكن التشكيك في مناقب آل النبي صلى الله عليه وآله وتمييعها ومحاولة إلغاء تميزهم كافياً لأنصار التيار الأموي الحاكم، فتعدّى الأمر ذلك إلى ما هو أمرّ وأدهى، وهو الإساءة المباشرة لهم.

أ ـ شتمُ عليّ في صحيح مسلم

ومن الأمثلة البارزة على نجاح كارهي آل الرسول صلى الله عليه وآله في ترويج مقولات مُهينة جداً بحق أهل بيت النبوة، ما أوردته كتب الصحاح حول موضوع تركة النبي صلى الله عليه وآله وعودة النقاش بشأنها في عهد عمر بن الخطاب، بعد أن كان أبو بكر قد أقفل الموضوع برفضه القاطع الاستجابة لمطالب فاطمة الزهراء والعباس وعليّ عليهم السلام.

روى مسلم في صحيحه عن مالك بن أوس، متحدثاً عن عمر بن الخطاب»... فجاء يرفأ فقال: هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد؟

فقال عمر: نعم. فأذنَ لهم فدخلوا.

ثم جاء فقال: هل لَك في عباس وعليّ؟

فقال: نعم. فأذن لهما.

فقال عباس: يا أمير المؤمنين! إقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن!

فقال القوم: أجل يا أمير المؤمنين. إقضِ بينهم وأرحهم.

(فقال مالك بن أوس: يخيل إليّ أنهم قد كانوا قدموهم لذلك)

فقال عمر: إتئدا. أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض! أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا نورّث. ما تركنا صدقة؟

قالوا: نعم.

ثم أقبل على العباس وعليّ فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض! أتعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا نورّث. ما تركناه صدقة؟

قالا: نعم.

قال عمر: إن الله جل وعز كان خصّ رسوله‌ﷺ بخاصة لم يخصص بها أحداً غيره. قال (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ـ الحشر ٧)

(ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا)

قال: فقسم رسول الله‌ﷺ بينكم أموال بني النضير. فوالله ما استأثر عليكم، ولا أخذها دونكم، حتى بقي هذا المال. فكان رسول الله‌ﷺ يأخذ منه نفقة سنة ثم يجعل ما بقي أسوة المال.

ثم قال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض! أتعلمون ذلك؟

قالوا: نعم.

ثم نشد عباساً وعلياً بمثل ما نشد به القوم: أتعلمان ذلك؟

قالا: نعم.

قال: فلمّا توفي رسول الله‌ﷺ قال أبو بكر: أنا وليّ رسول الله‌ﷺ. فجئتما تطلب ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها. فقال أبو بكر: قال رسول الله‌ﷺ: ما نورث. ما تركنا صدقة.

فرأيتماه كاذبا آثما غادرا خائنا! والله يعلم إنه لصادق بارّ راشدٌ تابع للحق.

ثم توفي أبو بكر، وأنا وليّ رسول الله‌ﷺ ووليّ أبي بكر، فرأيتماني كاذبا آثما غادراً خائنا! والله يعلم إني لصادق بار راشد تابع للحق. فوليتها.

ثم جئتني أنت وهذا، وأنتما جميع وأمركما واحد. فقلتما: ادفعها إلينا.

فقلت: إن شئتم دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله: أن تعملا فيها بالذي كان يعمل رسول الله‌ﷺ. فأخذتماها بذلك.

قال: أكذلك؟

قالا: نعم.

قال: ثم جئتماني لأقضي بينكما! ولا والله! لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة. فإن عجزتما عنها فرداها إليّ»[1].

وهكذا فحسب هذه الرواية فإن العباس بن عبد المطلب، عم النبيﷺ، يصف علياً بن أبي طالب بـ«الكاذب الآثم الغادر الخائن»!

تعليق

من الواضح تماما أن الراوي أراد أن يوجه الشتائم لعليّ، فلم يجرؤ، فلجأ إلى جعل هذه الشتائم على لسان العباس.

فليس صحيحاً على الإطلاق أنه كان هناك صراعٌ داخل آل بيت النبوة على الأموال. وإن تصوير المسألة على النحو الوارد في هذا الحديث، وكأنّ هناك عداوة شديدة بين عليّ وعمّه العباس، إلى درجة دفعتهما إلى اللجوء لعمر بن الخطاب ليفصل بينهما، هو ظلم شديد للعائلة النبوية، ويمكن إدراجه ضمن نطاق تشويه السمعة. فالزهد والتواضع كان هو ما يميز معيشة رسول اللهﷺ وآله طوال الوقت. فمثلا روى البخاري «ما شبع آل محمدﷺ منذ قدِم المدينة من طعام برّ ثلاثَ ليالٍ حتى قبض».

وأيضا روى «ما أكل آل محمدﷺ أكلتين في يوم إلاّ إحداهما تمر»[2].

وروى الترمذي عن ابن عباس «كان رسول اللهﷺ يبيت الليالي طاوياً وأهله لا يجدون عشاء. وكان أكثر خبزهم الشعير»[3].

هكذا كانت معيشة رسول اللهﷺ وعليّ وفاطمة. وآخر ما كانوا ينظرون له هي الأموال ومباهج الحياة.

---

(١) صحيح مسلم باب حكم الفيء ص٦٧٦. وأيضا ورد الحديث في صحيح البخاري ج٩ باب ما يكره من التعمق في العلم والتنازع ص١٢١ مع اختلاف طفيف في الألفاظ حيث اكتفى البخاري بلفظ «الظالم» المنسوب للعباس بوصف عليّ بدلا من «الكاذب الآثم الغادر الخائن» وأضاف البخاري عن العباس وعليّ «فاستبّا». وأيضا حذف البخاري الألفاظ المسيئة لأبي بكر واستعاض عنها بقوله «كذا».

(٢) هذا الحديث والذي قبله من صحيح البخاري ج٨ باب كيف كان عيش النبيﷺ وأصحابه ص١٢١.

(٣) سنن الترمذي ج٤ ص١٠.

ولم يكلف الإمام مسلم نفسه عناء التدقيق في متن هـذه الروايـة. ففيهـا يظهـر العباس وعليّ وهما، بكل بساطة، يقران ويؤكدان ادّعاء عمر بـن الخطـاب، ويجيبانـه بـ «نعم «على سؤاله عما إذا كان النبيﷺ قال «ما تركنا كـان صـدقة»! فلمـاذا إذن طالبا أبا بكر بميراث النبيﷺ؟

فكيف يعقل ذلك بعد الخلاف الشديد الذي جرى في أعقاب وفاة النبـيﷺ بشأن ميراثه؟ وذاك الخلاف مؤكدٌ وثابت، وقصة فاطمة مشهورة.

ثم إن نصّ رواية مسلم هذه متهافـتٌ ومتنـاقض. فـلا يعقـل أيضـاً أن يكـون العباس وعليّ عارفين بذلك القول المنسوب للنبيﷺ ورغم ذلك يعتبران أبـا بكـر «كاذبا آثماً غادرا خائنا»!

ب ـ ماذا روى الإمام البخاري عن الأئمة من أحفاد الرسول؟

لقد تجاهل الإمام البخاري في صحيحه، بشكل عام، رواية الأحاديـث عـن آل بيت الرسولﷺ والأئمة من ذرّيته. فهو لم يروِ عن الإمام جعفر الصـادق، رغـم أن الإمام الصادق كان عَلم المدينة المنورة البارز، وبلغت شهرته الآفاق، وانتشر تلامذتـه والذين درسوا عليـه فـي أنحـاء الأرض. وبـرغم ذلـك كلـه، وبـرغم كونـه حفيـداً للرسولﷺ، إلاّ أن البخاري على ما يظهر لم يَرَه عدلاً بما يكفي للرواية عنه، أو أنـه لم يصله عنه شيئ!

ولكن الإمام البخاري روى شيئاً قليلاً في صـحيحه عـن أحفـاد الرسـولﷺ، وللأسف فقد كان ذلك في الاتجاه السلبي! ومن ذلك الحديثان اللـذان كانـا كلاهمـا فيه انتقاصٌ من آل البيت! والبخاري نسَبَهما إلـى الإمـام زيـن العابـدين: علـي بـن الحسين بن علي بن أبي طالب!

والحديث الأول فيه انتقاص من علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء معاً!

«عن علي بن أبي طالب قال: إن رسول اللهﷺ طرَقه وفاطمـة عليهـا السـلام بنت رسول اللهﷺ.

فقال لهم: ألا تصلّون؟

فقال علي: يا رسول الله: إن أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا.
فانصرف رسول الله‌صلى الله عليه وآله حين قال له ذلك، ولم يرجع إليه شيئا.

ثم سمعه وهو مدبرٌ يضرب فخذه وهو يقول: وكان الإنسان أكثر شيئ جدلاً»[1].

وعلي بن أبي طالب رغم طول ملازمته للنبي‌صلى الله عليه وآله وعيشه معه، لم يُروَ عنه أبداً أي معارضة أو مخالفة لرسول الله‌صلى الله عليه وآله في موقف أو مقام. ورواية البخاري هذه فيها قدحٌ صريح بعليّ وفاطّمة معاً. فهي تظهرُهما بمظهَر مَن يتقاعس عن الصلاة!

عليّ هذا، الذي وصفه أحد أصحابه، وهو خليفة، بقوله «فأشهدُ لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائمٌ في محرابه، قابضٌ على لحيته، يتململُ تململَ السليم، ويبكي بكاءَ الحزين، وهو يقول:

يا دنيا يا دنيا، إليك عنّي. أبي تعرّضت؟ أم إليّ تشوّفت؟ لا حانَ حينك. هيهات! غرّي غيري، لا حاجة لي فيكِ! قد طلّقتكِ ثلاثاً، لا رجعة فيها. فعيشكِ قصير، وخطرُكِ يسير، وأملكِ حقير.

آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبُعد السفر، وعظيم المورد».

تَظهره رواية البخاري هذه كمتثاقلٍ عن الصلاة، ومجادلٍ للنبي‌صلى الله عليه وآله حين يدعوه لها!

والحديث الآخر فيه انتقاص من سيد شهداء أحُد، حمزة بن عبد المطلب، واتهامٌ له بشرب الخمر ومعاشرة القيان!

«أخبرنا علي بن حسين أن حسين بن علي عليهم السلام أخبره أن علياً قال: كانت لي شارفٌ من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي‌صلى الله عليه وآله أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ.

فلما أردتُ أن أبتني بفاطمة عليها السلام بنت النبي‌صلى الله عليه وآله، واعدتُ رجلاً

---

(١) صحيح البخاري ج٩ ص١٣١ باب قوله تعالى: وكان الإنسان أكثر شيئ جدلا.

صوّاغا من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بإذخر. فأردت أن أبيعه من الصوّاغين فنستعين به في وليمة عرسي.

فبينا أنا أجمع لشارفيّ من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مُناخان إلى جنب حُجرة رجل من الأنصار، حتى جمعتُ ما جمعت، فإذا أنا بشارفيّ قد أجبّت أسنمتها، وبُقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما!

فلم أملك عينيّ حين رأيتُ المنظر.

قلت: مَن فعل هذا؟

قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب. وهو في هذا البيت في شربٍ من الأنصار، عنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها «ألا يا حَمزُ للشُرُف النواء»، فوثَب حمزة إلى السيف، فأجبّ أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبَادهما.

قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبيﷺ وعنده زيد بن حارثة. وعرف النبيﷺ الذي لقيتُ فقال: مالكَ؟

قلت: يا رسول الله! ما رأيتُ كاليوم. عدا حمزة على ناقتيّ فأجبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيتٍ معه شرب!

فدعا النبيﷺ بردائه ثم انطلقَ يمشي واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه، فأذن له.

فطفق النبيﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل، مُحمرّة عيناه.

فنظر حمزة إلى النبيﷺ ثم صعّد النظر فنظر إلى ركبته، ثم صعّد النظر فنظر إلى وجهه.

ثم قال حمزة: وهل أنتم إلاّ عبيدٌ لأبي؟

فعرف النبيﷺ أنه ثمل، فنكص رسول اللهﷺ على عقبيه القهقرى. فخرج وخرجنا معه»[1].

---

(١) صحيح البخاري ج٥ ص١٠٦ باب قصة غزوة بدر.

ورغم أن حمزة ليس بحاجة إلى مَن يدافع عن سيرته ودوره الناصع في الإسلام، إلاّ أنه لا بأس من قول ما يلي: أن الخمر لم تكن سمعتها حَسنة عند العرب، وكانوا يدركون سوءها، وحرّمها عددٌ منهم على نفسه قبل مجيء الإسلام، مثل عثمان بن مظعون، وعباس بن مرداس، وعبد المطلب، وأبي طالب، وجعفر بن أبي طالب، وقيس بن عاصم، وعفيف بن معد يكرب العبدي، وعامر بن الظرب، وصفوان بن أمية وغيرهم.

وروى ابن الأثير «كان العباس بن مرداس ممن حرّم الخمرَ في الجاهلية. فإنه قيل له: ألا تأخذ من الشراب؟ فإنه يزيد في قوتك وجراءتك؟

فقال: لا أصبح سيدَ قومي، وأمسي سفيهاً! لا والله لا يدخل جوفي شيء يحول بيني وبين عقلي أبداً»[1].

ومَن عرف حمزة، واطّلع على سموّ نفسه، وعزّته وأنفته وسجاياه، فإنه يرى: إنه لا يقصر عن هؤلاء، ولا عن غيرهم ممن حرمها على نفسه، إن لم يكن يزيد عليهم في كثير من الخصال والسجايا، التي تجعله يربأ بنفسه عن أمر كهذا.

وأما حقيقة حمزة، الذي تحاول تلك الرواية تلطيخ سمعته، فتنطِقُ بها أفعاله ومواقفه طوال فترة الدعوة النبوية. ومن ذلك:

«إن أبا جهل بن هشام مرّ برسول الله ﷺ وهو جالسٌ عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه بعضَ ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له.

فلم يكلمه رسول الله ﷺ. ومولاة لعبد الله بن جدعان التيمي في مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك.

ثم انصرفَ عنه، فعمِدَ إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم.

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له. وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله

---

(١) من «الصحيح من سيرة النبي الأعظم» لجعفر مرتضى ص٤٢ ج٤.

حتى يطوف بالكعبة. وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلاّ وقف وسلم وتحدث معهم. وكان أعزّ قريش وأشدها شكيمة.

فلما مرّ بالمولاة وقد قام رسول الله ﷺ ورجع إلى بيته. فقالت: يا أبا عمارة لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً قبل ان تأتي من أبي الحكم بن هشام: وجَدَه ههنا جالساً، فسبّه وآذاه وبلغَ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله من كرامته فخرج سريعاً لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالكعبة معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوسَ فضربه بها ضربة، فشجّه بها شجّة مُنكرة. وقال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟! فرُدّ ذلك عليّ إن استطعتَ»[1].

وعدا عن الجوهر المسيئ وغير المعقول، فإن في هذه الرواية ضعفاً في الشكل أيضاً. فالرواية تتحدث عن إبلٍ كانت عند علي بن أبي طالب. ولكن جميع الروايات الأخرى التي تتحدث عن زواج علي بفاطمة، تذكر أنه لم يكن يملك سوى درعه الحطمية، التي باعها وأنفق ثمنها على الزفاف، وبعضها يذكر فرسه.

ولو كان عنده شارفان من الإبل لكان من الأولى أن يذكرهما للنبي ﷺ حينما سأله عما يملك، مما يريد أن يقدمه مهراً[2].

ج ـ والرفعُ من شأن قاتل حمزة!

ولأن حمزة عمّ النبي ﷺ، وعمّ عليّ، لم يكتفِ الاتجاه الأموي بمحاولة تلطيخ سمعته عن طريق إظهاره بمظهر العربيد شارب الخَمر، بل تجاوز ذلك إلى

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٧٢.

(٢) فمثلا روى ابن الأثير في أسد الغابة ج٥ ص٥٢٠ أن عليا قال «ما لي من شيئ إلاّ درعي أرهنها». وروى ابن حجر في الإصابة ج٨ ص٢٦٣ مثل ذلك، وذكر أن تلك الدرع كانت لعليّ من مغانم بدر. وأيضاً روى ابن حبان في كتاب الثقات ج١ ص١٤٦ أن عليا قال «ما عندي يا رسول الله شيئ! فقال: أين درعكَ الحطمية؟ فبعثَ إليها بدرعه».

محاولة رفع شأن قاتله الغادر، وإقناع عامة المسلمين بأن يتوقفوا عن بغُضهم لوحشيّ والتهوين من شأن جريمته.

كيف يستطيع التيار الأموي أن يضع نيشاناً على صدر المجرم الذي اغتال أسدَ الله غدراً، ثم مثل بجسده واستخرج كبده وقدّمه لسيدته هند بنت عتبة؟ والجواب: لقد لجأوا إلى ترويج مقولة تفيد بأن وحشياً هذا قد كفر عن جريمته البشعة عن طريق قيامه بقتل مسيلمة الكذاب في زمن الخليفة أبي بكر.

وتتراوح الروايات التي أوردها البخاري وابن سعد وابن الأثير وابن عساكر وخليفة بن خياط حول دور وحشي في معركة اليمامة بين القول إنه اشترك في قتل مسيلمة مع رجل أنصاري وبين القول إنه قتل مسيلمة لوحده، بل إن بعض الروايات مضت لتضيف بأن وحشياً قد قتل مسيلمة بنفس الحربة التي قتل بها حمزة! والقليل فقط من الروايات هي التي لم تشرِ صراحة إلى قيام وحشي بقتل مسيلمة.

ومعظم الروايات تركز على مقولة إن وحشياً «قتل خيرَ الناس في جاهليته وقتل خيرَ الناس في إسلامه». وغنيّ عن القول إن الرواة ذوي الميول الأموية أرادوا أن يقولوا: هذه بتلك، وعفا الله عما مضى، فلا داعي للإكثار من الحديث بشأن جريمة هند بنت عتبة وعبدها وحشي «رضي الله عنه»!

ورغم أنه لا يمكن طبعاً استبعاد مشاركة وحشي ضمن الجيوش التي أرسلها الخليفتان أبو بكر وعمر داخل جزيرة العرب وخارجها، إلاّ أنه يستحيل تصديق تلك الحبكة الدرامية حول وحشي الذي انقلب إلى«مجاهد متحمّس في سبيل الله» إلى حدّ نجاحه بقتل أكبر أعداء دين محمدﷺ وهو النبي الكذّاب مسيلمة! وهناك مجموعة من الحقائق التي لا يجوز تناسيها عند تناول موضوع وحشي ومسيلمة:

• إن وحشياً لم يدخل الإسلام طائعاً، ولم يدفعه إيمانٌ داخليٌ، ولا اقتناعٌ ذاتي، إلى الدخول بدين محمدﷺ. لقد بقي وحشيٌ مصراً على كفره حتى إلى ما بعد فتح مكة! ففرّ عندها إلى الطائف وبقي مختبئاً هناك إلى أن قررت ثقيف

الاستسلام والدخول في دين محمدﷺ. عندها ضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يبقَ له ملجأ، وأكد له كثيرون بأن محمداًﷺ لا ينتقم من أعدائه بل يقبل من الناس ظاهرهم، فجاء فجأة إلى رسول اللهﷺ ونطق بالشهادتين.

● إن رسول اللهﷺ قبل منه إسلامه كما فعل مع كل أعدائه المستسلمين، ولم ينتقم منهم ولم يعاقبهم على جرائمهم. إلاَّ أن ذلك لم يعنِ أن مشاعر رسول اللهﷺ الذاتية قد تغيرت تجاه أولئك القتلة والظالمين. وموقفهﷺ من وحشي خير مثال على ذلك. فهوﷺ لم يكن يطيق حتى النظر في وجه ذلك القاتل الغادر حتى أنه قال له «غيّب وجهك عني»، وفعلاً كان وحشي يتجنبه فلم يره رسول اللهﷺ حتى وفاته.

● إن سيرة وحشي هذا، وسلوكه بعد «إسلامه» لا تشير أبداً إلى انقلابٍ في أخلاقه، أو تغير مبهر في طباعه، مما يعني أن روايات «جهاده البطولي» يمكن الشّك بها بكل تأكيد. فكيف كان وحشي في الإسلام؟

- كان سكيراً عربيداً لا يفيق من الخمر إلاَّ نادراً! وقد بدأ ذلك السلوك المنحرف من أيام عمر بن الخطاب، وأمتدّ إلى حين وفاته بالشام أيام معاوية. قال ابن سعد «إن أول مَن لبس الثياب المدلكة وضُرب في الخمر بحمص وحشي». وقال عنه ابن عساكر«ووَقعَ في الخمر يشربها ولبس المعصفر المصقول فكان أول من ضُرب في الخمر بالشام وأول مَن لبس المعصفرات بالشام. وليس بينهم في ذلك اختلاف». وقال أيضاً إن عمر بن الخطاب قد أمَرَ بتخفيض عطائه من ألفين إلى ثلاثمائة بعدما جُلد في الخمر بالشام. وأضاف «ومات بحمص في بركة من خمر» وأكد ابن الأثير ذلك فقال عنه«مات وحشي في الخمر».

- فمن كان هذا حاله، وتلك نهايته، هل يجوز تصديق الرواية المنسوبة إليه«فضربتُ بسيفي حتى غري قائمه بيدي من الدم فأنزل الله تبارك وتعالى نصره فهزم الله بني حنيفة وقتل الله مسيلمة»؟! أو تلك التي تقول «فلما التقى الناس رأيتُ مسيلمة قائماً في يده السيف وما أعرفه. فتهيأتُ له وتهيأ له رجلٌ من الأنصار من

الناحية الأخرى كلانا يريده. فهززتُ حربتي حتى إذا رضيتُ عنها دفعتها عليه فوقعت فيه، وضربه الأنصاري بالسيف. فربّكَ أعلم أيّنا قتله. فإن كنتُ قتلته فقد قتلتُ خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وقتلتُ شر الناس»؟![1].

والحقيقة في الأمر أن التيار الأموي أراد أن يقلب الحق باطلاً والباطلَ حقاً، فيجعل من البطل العظيم والمجاهد المقدام، حمزة بن عبد المطلب، عربيداً سكيراً، بينما يصوّر المجرمَ الغادر، والسكير المسطول، وحشي الحبشي، مجاهداً بطلاً.

د ـ تعظيم شأن يوم عاشوراء؟

ويمكن إدراج الحديث المروي حول تعظيم شأن يوم عاشوراء، وجعله مناسبة سعيدة للمسلمين، في نطاق المناكفة السياسية الموجهة ضد آل الرسول صلى الله عليه وآله.

«قدِمَ النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة واليهود تصوم عاشوراء.

فقالوا: هذا يومٌ ظهرَ فيه موسى على فرعون.

فقال النبي عليه السلام لأصحابه: أنتم أحق بموسى منهم. فصوموا»[2].

فواضحٌ أن جعل ذكرى المذبحة الفظيعة التي تعرّض لها آل بيت النبي صلى الله عليه وآله في كربلاء سنة ٦١ للهجرة، يومَ فرحٍ يصومه المسلمون، هو نجاحٌ كبير للتيار الأموي.

كما أن نص «الحديث» يُظهر رسول الله صلى الله عليه وآله بمظهر المتعلم من اليهود: فهو لا يعلم بأخبار موسى وفرعون إلاّ منهم! فإن كان صحيحاً أن موسى قد انتصر على فرعون في يوم عاشوراء، فكيف لم يعرف به خاتم النبيين إلاّ بواسطة يهود يثرب؟!

واليهود لا يزالون موجودين إلى هذا اليوم على دينهم، ولم يسمع أحدٌ أبداً، أنهم يصومون في يوم عاشوراء.

---

(1) يمكن مراجعة أخبار وحشي والروايات المتعلقة بدوره في معركة اليمامة وسلوكه في الشام في المصادر التالية: صحيح البخاري ج٥ ص١٢٩ باب قتل حمزة، والطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص٤١٩، وتاريخ خليفة بن خياط ص٧١، وأسد الغابة لابن الأثير ج٥ ص٨٤ و تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٢ ص٤٠١.

(2) صحيح البخاري ج٦ ص٩١ باب سورة يونس.

هـ ـ أبو طالب من ضحايا الحملة الدعائية الأموية

كيف كانت سيرة أبي طالب مع الرسولﷺ؟

ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد «لما توفي عبد المطلب، قبَضَ أبو طالب رسولَ الله إليه. فكان يكون معه. وكان أبو طالب لا مالَ له وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده. وكان لا ينام إلاَّ إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه. وصُبَّ به أبو طالب صبابة لم يُصب مثلها بشيء قط. وكان يخصّه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا. وإذا أكلَ معهم رسول الله شبعوا. فكان إذا أرادَ أن يغذيهم قال: كما أنتم حتى يحضر ابني. فيأتي رسول الله فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب: إنك لمبارك. وكان الصبيان يصبحون رُمضاً شعثاً، وكان رسول الله يصبح دهيناً كحيلاً»[1].

ويوجد إجماعٌ أنه كانت هناك علاقة عاطفية خاصة بين أبي طالب وابن أخيه اليتيم. وكان أبو طالب يرى في محمد الإنسانَ الكامل الأخلاق والصفات. كان يراه ينمو أمام عينيه مختلفاً عن بقية شباب قومه، بعيداً عن الدنس والرجس. وكان يعلم أن محمداً لا يعرف الكذب أو الخيانة. كان أبو طالب يعرف كل ذلك على وجه اليقين، ومن خلال الممارسة اليومية والاحتكاك المباشر بشخص الرسولﷺ على مدى سنين طويلة.

وجاء في السيرة النبوية لابن هشام أن أبا طالب «.. قال لعليّ: أي بنيّ، ما هذا الدين الذي أنتَ عليه؟ فقال: يا أبت، آمنتُ بالله وبرسول الله، وصدّقته بما جاء به، وصلّيتُ معه لله واتبعته. فزعموا أنه قال له: أما إنه لم يدعُكَ إلاَّ إلى خير، فالزمه»[2].

وذكر ابن الأثير «إن أبا طالب رأى النبيﷺ وعلياً رضي الله عنه يصليان، وعليّ عن يمينه. فقال لجعفر رضي الله عنه: صِل جناحَ ابن عمك، وصَلِّ عن يساره»[3].

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص ١١٩.

(2) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨٥.

(3) أسد الغابة لابن الأثير ج١ ص٢٨٧.

لقد دافع أبو طالب عن رسول الله ﷺ بكل ما أوتي من قوة، وبذل الغالي والنفيس في سبيل ذلك[1]. وتحمّل ضغوط قريش، وقاوم تهديداتها. ووصل به الأمر إلى أن شارَفَ هو وبنو هاشم على الهلاك الجماعي وهم محصورون منبوذون في شعب أبي طالب. كل ذلك في سبيل محمد ﷺ.

وهذه حقائق معلومة بالضرورة لدى كل المسلمين، ولا خلاف بشأنها.

وهذا بعضٌ من شعر أبي طالب[2]:

إذا اجتمعت يوماً قريشٌ لمفخر	فعبد منـاف سرّها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها	ففي هاشمٍ أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً	هو المصطفى من سرّها وكريمها

وقد وصل الأمر بأبي طالب إلى ما يقارب الغزل في شخص الرسول ﷺ. فيما يلي مقتطفات من قصيدته اللامية المشهورة[3]:

كذبتم وبيت الله نبزي محمداً	ولمّا نطاعن دونه ونناضلِ
ونسلمه حتى نصرّع حوله	ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

وفيها أيضا

بكفّي فتى مثل الشهاب سميدع	أخي ثقة حامي الحقيقة باسلِ
وما ترك قوم، لا أبا لك، سيداً	يحوط الذّمار غير ذرب مواكلِ
وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه	ثمال اليتامى عصمة للأراملِ

وفيها أيضا

---

(١) مزيد من التفاصيل عن ذلك موجودة في ص ٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٩٧ وكذلك السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٧٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٠٣. وكذلك السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٩١. والسميدع هو السيد. والذرب هو اللسان الفاحش النطق. والمواكل هو العاجز الذي يعتمد على غيره. ثمال اليتامى: الذي يشملهم ويقوم بهم.

وقال ابن كثير عن هذه القصيدة «هذه قصيدة عظيمة بليغة جدا، لا يستطيع أن يقولها إلاّ من نسبت إليه»

لعمري لقد كلّفت وجداً بأحمد — وأحببته دأب الحبيب المواصلِ
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها — وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فمَن مثله في الناس أي مؤمّل — إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائشٍ — يوالي إلهاً ليس عنه بغافلِ

وفيها أيضا

لقد علموا أن ابننا لا مُكذّبٌ — لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمدٌ في أرومة — تقصر عنه سَورة المتطاول
حدبتُ بنفسي دونه وحميته — ودافعتُ عنه بالذرى والكلاكل

ومن لديه إلمامٌ باللغة العربية يدرك بلا لبسٍ أنّ هكذا شعر لا يمكن أن يصدر عن رئيسٍ لمرؤوس. فقد كان رسول اللهﷺ هو المظلوم المستضعف الذي يستجير بعمّه الكبير ويلوذ به لحمايته. فمحمدٌﷺ شابٌ، وأبو طالب شيخٌ جليلٌ، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يصدرَ مثل هذا الشعر إلاّ عن إيمانٍ بنبوّته.

وروى ابن أبي الحديد[1] المزيد من شعر أبي طالب:

يرجون أن نسخى بقتل محمد — ولم تختضب سمر العوالي من الدم
كذبتم وبيت الله حتى تفلقوا — جماجم تلقى بالحطيم وزمزم
وتقطع أرحامٌ وتنسى حليلة — حليلاً ويُغشى محرمٌ بعد محرم
على ما مضى من مقتكم وعقوقكم — وغشيانكم في أمركم كل مأثم
وظلم نبيّ جاء يدعو إلى الهدى — وأمرأتى من عند ذي العرش قيم
فلا تحسبونا مسلميه فمثله — إذا كان في قوم فليس بمسلم

وبقي أبو طالب على ولائه لرسول اللهﷺ حتى آخر رمق في حياته. روى ابن الأثير:

«ولما اشتدّ بأبي طالب مرضه، دعا بني عبد المطلب فقال: إنكم لن تزالوا بخيرٍ

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٤ ص٧١.

ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره. فاتّبعوه وصدّقوه ترشدوا»[1].

وقد عبّر الرسول ﷺ عن امتنانه لأبي طالب، ورضاه عن مواقفه النبيلة عندما وقف أمام جثمانه المسجّى فمسح على جبينه عدة مرات، وقال والحزن يملأ قلبه «يا عم! ربيتَ صغيراً، وكفلتَ يتيماً، ونصَرتَ كبيراً، فجزاك الله عني خيراً»[2].

وكان رسول الله ﷺ يعتبر زوجة أبي طالب أيضاً، أم عليّ، فاطمة بنت أسد بن هاشم، بمثابة أمّ له. وكان يحبها كثيراً لعطفها عليه ورعايتها له. روى ابن حجر انه لما توفيت فاطمة بنت أسد في المدينة كفّنها رسول الله ﷺ بقميصه وقال «لم نلقَ بعد أبي طالب أبرّ منها»[3].

تشويه صورة أبي طالب

هناك عددٌ كبيرٌ من الروايات التي تزعم أن سلوك أبي طالب تجاه قريش وحمايته للرسول ﷺ كان مردّه الحميّة العائلية. وأن أبا طالب لم يؤمن بنبوة محمد ﷺ، ومات مُشركاً، وسيكون مصيره نار جهنم. ويوجد عدد كبير من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ التي تؤكد ذلك. ومنها:

روى مسلم أن النبي ﷺ قال «أهونُ الناس عذاباً أبو طالب، وهو منتعلٌ بنعلين يغلي منهما دماغه»[4].

وأيضا روى مسلم أن العباس بن عبد المطلب قال:

«يا رسول الله! هل نفعتَ أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطكَ ويغضب لك؟

قال: نعم. هو في ضَحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[5].

---

(1) أسد الغابة لابن الأثير ج١ ص١٩.

(2) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٣٦.

(3) الاصابة لابن حجر ج٨ ص٢٦٩. وفي رواية تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٤ أن النبي قال عنها «إن كانت لتجيع صبيانها وتشبعني، وتشعثهم وتدهنني. وكانت أمي».

(4) صحيح مسلم باب أهون أهل النار عذابا ص١٠١.

(5) صحيح مسلم باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، ص١٠١. والضحضاح هو ما رقّ من الماء على وجه الأرض، أي إلى نحو الكعبين. وروى البخاري في صحيحه نفس الحديث أيضا بنفس الألفاظ في باب قصة أبي طالب ج٥ ص٦٥.

وكان أبو هريرة قد أكد على كُفر أبي طالب «قال رسول الله ﷺ لعمّه عند الموت: قل لا إله إلاّ الله أشهد لك بها يوم القيامة. فأبى. فنزلت إنك لا تهدي مَن أحببت»[1].

وهكذا فإن هذه الروايات قد «حَسَمت» مصيرَ أبي طالب، وفَرَضت على المسلمين أن يؤمنوا بأنه مخلدٌ في جحيم جهنم، ومَنعتهم من التفكير الموضوعي حول هذا الرجل صاحب الدور الكبير في السنوات الأولى لبدء دعوة النبي ﷺ. ولكن الرواة قد تلطفوا، تقديراً لمجهودات أبي طالب، فجعلوا «عذابه» مخففاً قليلاً: فهو في ضَحضاح نارٍ يصل كعبيه، وليس في الدرك الأسفل من النار!

*****

وقام عمرو بن العاص بترويج «حديث» نسَبَه إلى الرسول ﷺ وفيه أنه ﷺ يتبرأ من آل أبي طالب! وهذا الحديث المزعوم رواه الشيخان في صحيحيهما. وهذا النص من صحيح مسلم:

«سمعتُ رسول الله ﷺ جهاراً غير سر، يقول: ألا إنّ آل أبي (يعني فلانا) ليسوا بأولياء. إنما وليّي الله وصالح المؤمنين»[2].

ولا بد أن الإمام مسلم بن الحجاج، أو بعض مَن روى عنه، قد استهجن مدى بشاعة هذا الحديث المزعوم، فلجأ إلى التكنية بـ«فلان» بدلا من «طالب»!

والمشكلة التي واجهها مسلم والبخاري، أو بعض مَن رويا عنه، أن عمرو بن العاص عدلٌ عندهما، وصحّ عندهما إسناد الحديث، فلا بدّ أن يروياه مهما كان مُستنكراً. فكان الحل عندهما «فلان»!

---

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان ص٣٧. ولا بد من ملاحظة أن وفاة أبي طالب حدثت قبل أن يدخل أبو هريرة الإسلام ويأتي من بلاده في اليمن بعشر سنين على الأقل.

(٢) صحيح مسلم باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم ص١٠٢.

وقد ذكر محمد صادق النجمي في «مناظرة علمية» ص٤٥ أن النسخ المتوفرة اليوم من صحيحي مسلم والبخاري ومسند أحمد قد حذف منها «آل أبي طالب»، بعكس النسخ الأصلية القديمة التي كانت متداولة أيام ابن أبي الحديد في القرن السادس الهجري، والذي أشار إلى أنه جاء في الصحيحين «إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء».

وقد دافع الشارح البارز لصحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، عن عمرو بن العاص لروايته هذا الحديث فقال[1]: «وأما عمرو بن العاص، وإن كان بينه وبين عليّ ما كان، فحاشاه أن يُتهم!».

وفسّر ابن حجر الحديث على النحو التالي «ويحتمل أن يكون المقصود بآل أبي طالب أبو طالب نفسه.... وخصّه بالذكر مبالغة في الانتفاء ممن لم يسلم، لكونه عمه وشقيق أبيه وكان القيّم بأمره ونصره وحمايته، ومع ذلك فلما لم يتابعه على دينه انتفى من موالاته».

وهذا أفضل اجتهاد ممكن من ابن حجر العسقلاني الذي يأبى أن يتهم عمرو بن العاص بالكذب وفي نفس الوقت لا يريد الانتقاص من أبرز شخص من آل أبي طالب، وهو عليّ، فاعتبر «آل أبي طالب» هم «أبو طالب»، وبما أن أبا طالب هو كافر، فقد حل الإشكال!

تساؤلات وتحليل

والباحث من حقه أن يطرح التساؤلات التالية:

لقد كان أخو أبي طالب، عبد العزى المعروف بأبي لهب، وبالإجماع، أكثر منه التزاماً بتقاليد قريش وتراثها وديانة آبائها. وعصبية القرابة ونصرة الدم هي من أساسيات التراث القرشي، فلماذا لم يؤثر هذا المبدأ في سلوك أبي لهب؟ لقد ضحّى أبو لهب بعائلته الخاصة وبقومه في سبيل الدفاع عن «دين عبد المطلب»، وانضم إلى بطون قريش في حصارها القاتل لبني هاشم في الشعب التزاماً منه بالحفاظ على

(١) فتح الباري لابن حجر ج١٠ ص٣٥٢. وقد أشار ابن حجر إلى بعض الروايات التي تقول إن المقصود ب «فلان» هم بنو أمية أو الحكم بن أبي العاص، ولكنه استبعدها بعد تحليل طويل ورجّح «آل أبي طالب». وذكر ابن حجر «قال أبو بكر بن العربي في سراج المريدين: كان في أصل حديث عمرو بن العاص (إن آل أبي طالب....)».

وأما السيوطي في «الديباج على صحيح مسلم» ج١ ص٢٧٥ فقد ذكر «هذه الكناية من بعض الرواة خوفاً والمكنى عنه هو الحكم بن أبي العاص». ولكن وضع الحكم بن أبي العاص هنا لا يستقيم، لأنه يتناقض مع سياق الحديث. وقد أشار ابن حجر لذلك.

«الشرف» حسب المفهوم الجاهلي.

فلو كان أبو طالب يتصرف فقط من منطلق التراث الجاهلي، لكان حريّا به أن يسلك منهج أبي لهب، لأن ما كان يدعو له محمدﷺ هو النبذ الكامل لكل ما كانت تدين به قريش وتؤمن به على مدى أجيالها السابقة. ويذكر التاريخ عشرات الأمثلة لقبائل وعشائر عربية نبذت بعض أبنائها وتخلت عنهم لمّا أتوا بما يسوؤها أو يخالف عاداتها الموروثة.

لقد كان من السهل جدا على أبي طالب أن يعلن تخليه عن الرسولﷺ ويسلمه لقريش، ولن يلومه أحدٌ في ذلك، لأن محمداًﷺ كان علناً «يسفّه أحلام عبد المطلب ويقول إنه كان على ضلالة». وكان هذا مبرراً كافياً أمام نفسه وأمام عائلته لكي يتخلّى عنه، خاصة وأن محمدا قد رفض عروضاً «مُنصِفة» بالتوقف عن ذم آلهة قريش مقابل أن يتوقفوا عن عدائهم له.

لقد كان هذا العرض الذي نقلوه لأبي طالب «عادلاً جداً» في مقاييسهم. فهم ببساطة يريدون أن يتركهم محمد وشأنهم ولا يتدخل في معتقداتهم! وبما أن محمداً رفض هذا العرض «المنصف» من قريش، كان بإمكان أبي طالب أن يعلن أن محمداً قد جاوز الحدود وأنه قد اعتدى على تراث قومه بدون سبب وأنه لا يريد أي حل معهم، وبالتالي برئت منه الذمة.

ولكن أبا طالب لم يفعل ذلك. لقد اتخذ أبو طالب قراراً في غاية الخطورة والصعوبة عندما أصرّ على تقديم الحماية التامة ـ وبغير شروط ـ للرسول. كان أبو طالب يخاطر بمستقبل بني هاشم جميعاً عندما يضعهم في مواجهة قبيلة قريش كلها. ومن يدقق فعلا بأحوال بني هاشم وهم في الشعب على مدى ثلاث سنوات يرى بوضوح مدى المعاناة التي تحملوها والتي وصلت إلى حد الإشراف على الهلاك الجماعي من الجوع والمرض. لقد فعل أبو طالب كل ذلك وكان مستعداً أن يمضي إلى النهاية في تلك الطريق، دون أن يمارس ولو أدنى ضغط على ابن أخيه لكي يغير مواقفه أو لكي يظهر اعتدالاً تجاه مطالب قومه «العادلة».

وإن السلوك الفعلي، والممارسة العملية، هما اللذان ينبغي أن يكونا أساس الحكم على الناس. فالفعل والعمل والتصرفات هي أمور حقيقية حصلت، ومن الصعب نكرانها. وأما الحُكم على شخص بحجم أبي طالب بناءً على قول منسوب للرسولﷺ، رواه فلان من الناس، فأمرٌ لا يصحّ. فأفعال أبي طالب ودوره العظيم في المرحلة المكية من دعوة الرسولﷺ لا يجوز تناسيها إعتمادا على روايات سردَها بعض الأشخاص ربما يكون لهم مآرب سياسية من ورائها. فقد شاع الكذب والافتراء على لسان الرسولﷺ وخاصة في الفترة الأموية واختلط الحابل بالنابل، فكان أبو طالب من ضحايا حملة التشهير الفظيعة التي وجّهت ضد عليّ وآل البيت.

لقد أراد الأمويون أن يصوّروا أبا طالب، والد عليّ، الرجلَ المؤمنَ العظيم الذي أمضى حياته مدافعاً عن الرسولﷺ وحامياً له، بصورة الكافر الضال الذي لن يُغفر له ولن يُشفَع له ولن يكون مصيره إلاّ سعير الجحيم. وفي المقابل هم حاولوا أن يصوروا آباءهم، جلاوزة قريش الذين أمضوا حياتهم في حرب الرسولﷺ وإيذائه، بصورة الذين «اهتدوا» أخيراً و«آمنوا» وبالتالي فمصيرهم جنات النعيم.

وهكذا تقلب الأمور وتعكس الحقائق. وتلك هي المفارقة المؤلمة والتي لا يجوز أن تنطلي على ذي العقل السديد والقلب السليم.

خامساً: لماذا لم يَرُدّ المحدثون الثقات تلك الأحاديث المشينة؟

السبب الرئيسي الذي دفع كبار المحدثين إلى قبول هذه النوعية من الأحاديث التي فيها إساءة واضحة لآل النبيﷺ هو التعصب المذهبي.

فالإمام البخاري، شيخ المحدثين الأكبر، كان ينتمي إلى مدرسة فكرية شديدة التعصّب للصحابة والخلفاء. والتزمت تلك المدرسة بنظرية العدالة المطلقة لكّل مَن اعتبرتهم صحابة وجعلت ذلك شرطاً للرواية. وقد بالغ البخاري في ذلك وتطرّف. وفي ذات الوقت، كانت تلك المدرسة شديدة التعصب أيضاً ضد كل راوٍ يُشتبه بأنه «صاحب بدعة»، وجعلت من الولاء لعليّ بن أبي طالب وآل البيت النبوي أحدَ مظاهر البدعة والهوى.

وكان بعض شيوخ المحدّث الأكبر، الإمام البخاري، ينتمون إلى عائلات مشهورة بكُره عليّ بن أبي طالب[1].

وروى خليفة[2] أن شخصا بصرياً يدعى أبو لبيد سئل: أتحب علياً؟ فقال: كيف أحبّ رجلا قتل من قومي حين كانت الشمس ها هنا إلى أن صارت ها هنا ألفين وخمسمائة؟

وورد في الهامش تعليق حول أبي لبيد هذا، وفيه أن أبا حاتم الرازي في الجرح والتعديل ذكر عن ابن حنبل أن أبا لبيد كان صالحَ الحديث!

وذكر ابن حجر العسقلاني[3] في معرض حديثه عن قيس بن أبي حازم الذي كان يروي أحاديث الرسول ﷺ عن عمرو بن العاص، إن الكثيرين من العلماء قالوا عنه إنه كان من النواصب المنحرفين عن عليّ «وكان يحمل على عليّ» «ولذلك تجنبوا التحديث عنه. إلاّ أن البعض الآخر من العلماء «رَفَعَ قدرَه، وعظّمه وجعلَ الحديثَ عنه من أصحّ الأسانيد «وأن من هؤلاء البخاري وأستاذه يحيى بن معين الذي قال عنه إنه «أوثق من الزهري»!

وبالرجوع إلى كلام ابن حجر[4] في مقدمته لفتح الباري يمكن ملاحظة مجموعة من رواة الحديث الذين اعتمدهم البخاري وعدّلهم وروى عنهم رغم شيوع أخبار عدائهم الصارخ لشخص علي بن أبي طالب. ومن هؤلاء:

اسحق بن سويد بن هبيرة العدوي: «كان يحمل على علي بن أبي طالب».

بهز بن أسد العمي: قال الأزدي «كان يتحمل على علي».

ثور بن يزيد الحمصي: كان يُرمى بالنصب. وقال ابن معين «كان يجالس قوماً ينالون من علي، لكنه هو كان لا يَسُب».

---

(١) روى ابن كثير في السيرة النبوية ج١ ص٩١ أن (سامة بن لؤي) كانت له ذرّية بالعراق يبغضون عليا. ومنهم علي بن الجعد الذي كان يشتم أباه لأنه سمّاه عليا. ومن بني (سامة بن لؤي): محمد بن عرعرة بن اليزيد، شيخ البخاري.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ص١٤٠.

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج١٠ ص٣٥٢.

(٤) مقدمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ص٣٨٧، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٦..

حريز بن عثمان الحمصي: قال الفلاس وغيره «انه كان ينتقص عليا» وقال ابن عدي إنه كان يبغض علياً.

حصين بن نمير الواسطي: قال أبو خيمة «كان يحمل على علي، فلم أعد إليه».

وقد ذكر ابن حجر هؤلاء ضمن سياق دفاعه عن قرار البخاري بالرواية عنهم. وقد اجتهد كثيراً فقال عن بعضهم إنه لم يحصل «إجماع» على كونهم يتحاملون على علي بن أبي طالب، وقال عن البعض الآخر «لعله تاب» عن عدائه لعلي، وقال عن آخرين بكل بساطة «اعتمده الأئمة» أو «احتج به الجماعة»!

وكانت هناك مجموعة أخرى من رواة البخاري ممن لم تنتشر أخبار بغضهم لعلي بن أبي طالب، ولكنهم كانوا من موظفي السلطة والمقربين من ملوك بني أمية! ومن هؤلاء:

عبدالواحد بن عبدالله البصري «كان أميرَ المدينة في خلافة يزيد بن عبدالملك».

عمير بن هانئ العبسي «قتله مروان الحمار لكونه كان قائماً في بيعة يزيد بن الوليد».

بالإضافة طبعاً إلى الزهري، أهم رواة البخاري، الذي كان من المقربين جداً لأربعة من ملوك بني أمية[1].

والطامة الكبرى كانت في قيام البخاري بتعديل عمران بن حطان[2] والرواية عنه، رغم أنه كان من رؤوس الخوارج، والذي بلغ من بُغضِه لعلي بن أبي طالب أنه قام بتأليف رثاء عاطفيّ حارّ لقاتله عبد الرحمن بن ملجم!

وروى البخاري عن الحبر اليهودي الذي أشهر إسلامه: وهب بن منبه.

وجاء في تاريخ دمشق لابن عساكر أن يحيى بن سعيد كان يُحدّث عن عمر بن سعد بن أبي وقاص «فقال له رجلٌ من بني ضبيعة يقال له موسى: يا أبا سعيد! هذا

---

(١) مقدمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ص٤٢١، ٤٣٣. والمزيد من التفاصيل حول علاقة الزهري ببني أمية موجودة في ص٨٤٨ من هذا الكتاب.

(٢) مقدمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ص٤٣٢ و ٤٥٠.

قاتلُ الحسين! فسكتَ. فقال: عن قاتل الحسين تحدثنا! فسكتَ «وأيضاً جاء في نفس المصدر أن يحيى بن سعيد كان يحدث عن عمر بن سعد» فقام إليه رجلٌ فقال: أما تخافُ الله؟ تروي عن عمر بن سعد؟! فبكى وقال: «لا أعودُ أحَدثُ عنه أبداً»[1].

إن ما واجهه يحيى بن سعيد هذا كان ردة فعل طبيعية من الناس على هذا الشطط والغلو في معاداة آل بيت النبوة والذي يدفع ببعضهم أن يروي أحاديث الرسولﷺ عن الشخص الذي قام هو بالذات بإبادة أهله وذريته!

والسبب الآخر الذي كان له دور في مرور تلك الأحاديث المسيئة لآل بيت النبيﷺ وتسرّبها إلى كتب كبار المحدثين هو منهج هؤلاء الذي يعتمد فقط على سَند الحديث، دون النظر إلى متنه. فإذا صحّت سلسلة الرواة عند الإمام البخاري، حسب معاييره وشيوخه في الجرح والتعديل، فالحديث عنده صحيحٌ، بغض النظر عن مضمونه أو معناه أو سلامة محتواه. ولا بد من القول أن مبدأ الجرح والتعديل لم يطبقه البخاري وشيوخه من الأصل على كل مَن أدخلوهم ضمن تعريفهم للصحابة، وبعضهم كان أشرس أعداء عليّ كابن العاص والمغيرة بن شعبة.

وبما أن بعض الشخصيات من رواة الحديث تم قبولها وتعديلها، دون محاسبتها على ارتباطاتها ولا ولاءاتها السياسية المُريبة، ودون الاهتمام المناسب بمواقفها السلبية من آل النبيﷺ، فليس عجيباً أن توجد مثل تلك الأحاديث في كتب «الصحاح».

مقولة "العشرة المُبشّرون بالجنّة"

من المسلّمات الشائعة بين الناس أن هناك عشرة من الصحابة قد بشّرهم الرسولﷺ بالجنة. وأن هؤلاء يشملون الخلفاء الأربعة، بالإضافة إلى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٤٥ ص ٣٩ـ٤٠.

وهذه الأسماء العشرة صارت بمثابة قائمة رسمية مُعتمدة لدى الجهات المعنية. ويكررها الخطباء على منابر المساجد على مسامع عامة المسلمين باستمرار، حتى انطبعت في الأذهان دون تمعّن في المقصد من ورائها.

نص الحديث

«عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»[1].

والغريب أن هؤلاء المبشرين هم تسعة عند ابن ماجة! فقد أسقط منهم أبو عبيدة، وليس معروفاً لماذا.

وفيما يلي النص «عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل يقول: كان رسول الله ﷺ عاشرَ عشرة. فقال: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليّ في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد في الجنة، وعبد الرحمن في الجنة. فقيل له: مَن التاسع؟ فقال: أنا»[2].

وكذلك هم تسعة عند ابن حبان:

«عن عبد الرحمن الأخنس أنه كان في المسجد فذكَرَ المغيرة علياً فنالَ منه. فقام سعيد بن زيد فقال: أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعته يقول: عشرة في الجنة: النبي في الجنة،وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة بن عبيد الله في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، ولو شئتُ لسمّيتُ العاشرَ. قالوا: مَن هو؟ فسكت. فقالوا: مَن هو؟ فقال: سعيد بن زيد»[3].

---

(١) سنن الترمذي، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف ج٥ ص٣١١ .

(٢) سنن ابن ماجه ج١ ص٤٨.

(٣) صحيح ابن حبان ج١٥ ص٤٥٤. وروى مثله الإمام أحمد في مسنده ج١ ص١٨٨.

أولاً: القائمة أساسها قَبَليّ. هؤلاء العشرة المشهورون كلهم من قبيلة قريش!

فهناك صبغة عرقية صارخة لهؤلاء العشرة. فكلهم من نفس القبيلة. فالنسَب إذن هو الأساس.

وليس من بينهم أي من المسلمين الأولين من ذوي النسَب غير القرشي الذين كانوا مُستضعفين بمكة أيام بداية الدعوة النبوية. والمعروف أن هؤلاء المساكين الذين صدّقوا الرسولﷺ وتبعوه كان لهم النصيب الأعظم من غضب طغاة قريش وأذاهم الذي وصل إلى حدّ القتل. فلا يوجد في القائمة ذكرٌ لعمار ولا بلال ولا ابن مسعود ولا أبي ذر!

فعلى الرغم من أن قبيلة قريش لم تكن مرتاحة أبداً لأن بعض أبنائها من ذوي النسَب البيّن قد آمنوا بمحمدﷺ واتّبعوه، إلاّ أنها ما كانت لتوقع بهم أذى كبيراً، وخاصة جسدياً، بعكس الضعفاء وذوي الأصول غير القرشية الذين انصبَّ عليهم بطش قريش.

ولا يوجد في القائمة أحدٌ من الأنصار، الذين آمنوا طوعاً وأشادوا صرح الإسلام على جماجمهم! فلا وجود لأسعد بن زرارة ولا سعد بن معاذ ولا سعد بن عبادة ولا غيرهم.

ثانياً: ليس السبق للإيمان هو الأساس. فليست هذه القائمة مبنيّة على أساس ترتيب مَن آمنَ بنبوّة محمدﷺ عند بدء نزول الوحي، فهي لا تضم زيد بن حارثة، مولى رسول الله، وهو ثاني ذكرٍ آمنَ برسول الله بعد علي بن أبي طالب، كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام[1]. وهو أيضاً الشهيد العظيم في مؤتة.

والسبب الحقيقي لهذا الاستبعاد من القائمة هو أنه ليس قرشياً.

وللتدليل على أن السبق إلى الإسلام ليس هو العامل الحاسم في تحديد هذه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٨٥.

القائمة، بالإمكان الرجوع إلى السيرة النبوية لابن هشام[1] لمعرفة أسبقية الدخول في الإسلام كما ذكرها ابن اسحاق والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

أول مَن آمَن به خديجة بنت خويلد(١) وصدقت بما جاءه من الله.

ثم كان أول ذكرٍ آمن برسول الله وصدّق به علي بن أبي طالب(٢).

ثم أسلم زيد بنَ حارثة(٣) مولى رسول الله فكان أول ذكر أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب.

ثم أسلم أبو بكر(٤) بن أبي قحافة،

وأسلم بدعائه كل من: عثمان(٥) بن عفان والزبير(٦) بن العوام وعبد الرحمن بن عوف(٧) وسعد بن أبي وقاص(٨) وطلحة بن عبيد الله(٩).

وبعد هؤلاء أسلمَ كلّ من: أبو عبيدة بن الجراح(١٠)،

وأبو سلمَة(١١)،

والأرقم بن أبي الأرقم(١٢)،

وعثمان بن مظعون(١٣) وأخواه: قدامة(١٤) وعبد الله(١٥) ابنا مظعون،

وعبيدة بن الحارث(١٦) بن المطلب،

وسعيد بن زيد(١٧) وامرأته فاطمة بنت الخطاب(١٨)،

وأسماء(١٩) وعائشة(٢٠) بنتي أبي بكر،

وخباب بن الأرت(٢١).

وبالتالي لو كان السبق إلى الإيمان بدعوة الرسولﷺ هو المعيار لهذه القائمة، لكان لا بد أن يكون كل من زيد بن حارثة (٢) وأبو سلمة(١١) من ضمنها. ولما كان يُقدّم سعيد بن زيد(١٧) على مَن أسلموا قبله مثل الأرقم وابناء مظعون الثلاثة وعبيدة بن الحارث، ولما كان هناك أي فرصة لوضع اسم عمر بن الخطاب في تلك القائمة وتقديمه على العشرات غيره و وهو الذي أسلمَ في السنة السادسة للبعثة؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٨٤ – ١٨٩. وذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٤ ص٩٦ رواية تقول إن خالد بن سعيد بن العاص كان الخامس في إسلامه بعد عليّ وأبي بكر وزيد وسعد.

فعمر بن الخطاب أسلمَ بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة (وكان عددهم ٨٣ رجلا)[1].

ثالثاً: ليست القائمة مبنيةً على أساس التضحيات المبذولة. فلا توجد في قائمة العشرة المبشرين هذه أسماء الشهداء العظام الذين فدَوا بدمائهم الزكية رسول الله ﷺ في الشدائد والمواقف العصيبة. فليس هناك حمزة ولا جعفر ولا مصعب بن عمير ولا أنس بن النضر ولا عبد الله بن رواحة....

وليس في القائمة اسما زيد بن الدثنة ولا خبيب بن عدي الذين قتلا صَلباً بعد تعذيبهما على يد المشركين في مكة وهما يرفضان النيلَ من رسول الله ﷺ ولو حتى كلامياً...

رابعاً: هذه القائمة تعتمد أساساً على أقوال منسوبة إلى رسول الله ﷺ تحجز لهؤلاء مكاناً في الجنة.

ولكن، هناك أيضاً الكثيرون ممن وردت فيهم أقوالٌ صريحة تنسَبُ للرسول ﷺ بأنهم من أهل الجنة. وفيما يلي بعض مَن يمكن اعتبارهم مبشرين بالجنة، إذا تم الاعتماد فقط على نص الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ:

١ ـ الغميصاء بنت ملحان: ورد عن النبي ﷺ قال «دخلتُ الجنة فسمعتُ خشفة. فقلتُ مَن هذا؟ قالوا: هذه الغميصاء بنت ملحان، أم أنس بن مالك»[2].

٢ ـ بلال بن رباح: ورد أن النبي ﷺ قال له»... فإني سمعتُ دفّ نعليك بين يديّ في الجنة»[3].

٣ ـ جليبيب: ورد أن النبي ﷺ افتقده في إحدى الغزوات فوجدوه بين

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٥٦. وجاء في أسباب النزول للواحدي ص١٦٠ أن عمر بن الخطاب أسلم بعد ٣٩ رجلاً. وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أن عمر بن الخطاب كان ترتيبه ٥٢ في مَن سبقوا للإيمان بالنبي ﷺ.

(٢) صحيح مسلم ص٩٣٠.

(٣) صحيح البخاري باب فضل الطهور بالليل والنهار ج٢ ص٦٧. وكذلك صحيح مسلم ص٩٣١.

القتلى «.. فأتى النبيّ فوقفَ عليه. فقال: قتلَ سبعة ثم قتلوه. هذا منّي وأنا منه، هذا منّي وأنا منه...»[1].

٤ ـ عبد الله بن عمرو بن حرام: ورد أن النبيﷺ يومَ أحد قال عنه ـ حين كانت ابنته تبكيه «ولمَ تبكي؟ فما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتها حتى رفع»[2].

٥ ـ عبد الله بن سلام: ورد عن عامر بن سعد قال سمعت أبي يقول «ما سمعتُ رسول اللهﷺ يقول لحيّ يمشي: إنه في الجنة، إلاّ لعبد الله بن سلام»[3].

وليس معروفاً كيف أن هذا الحَبر ، أبا يوسف الإسرائيلي، عبد الله بن سلام بن الحارث، حليف الأنصار، والذي أسلم بعد قدوم النبيﷺ المدينة، قد أدخلَ اسمُه فجأة ضمن مجموعةٍ مكونة من عشرة، بُشّرت بالجنة، دون ذكر بقية أعضائها؟

فعن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال عن عبد الله بن سلام ـ حين حضرته الوفاة ـ : فإني سمعتُ رسول اللهﷺ يقول إنه عاشر عشرةٍ في الجنة[4].

٦ ـ سعد بن معاذ: ورد «إنه أهدي لرسول اللهﷺ جبّة من سندس، وكان ينهى عن الحرير. فعجب الناس منها. فقال: والذي نفس محمدٍ بيده! إن مناديل سعد بن معاذ، في الجنة، أحسن من هذا»[5].

٧ ـ خديجة بنت خويلد: ورد عن أبي هريرة «أتى جبريل النبيّﷺ فقال: يا رسول الله: هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب. فإذا هي اتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل، ومني، وبشّرها ببيتٍ في الجنة من قصب، لا صَخَبَ فيه ولا نصب»[6].

---

(١) صحيح مسلم ص٩٣٥.
(٢) صحيح مسلم ص٩٣٥.
(٣) صحيح مسلم ص٩٤٠.
(٤) سنن الترمذي ج ٥ ص٣٣٦ باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه.
(٥) صحيح مسلم ص٩٣٤.
(٦) صحيح مسلم ص٩٢٢.

٨ ـ كل أهل بيعة الرضوان (وعددهم ١٤٠٠ رجلاً): ورد عن النبيﷺ «لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد. الذين بايعوا تحتها»[١].

٩ ـ زيد بن حارثة وأسامة بن زيد: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل.وأيم الله! إن كان لخليقاً للإمرة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ. وإن هذا لمن أحبّ الناس إليّ من بعده»[٢].

١٠ـ أبيّ بن كعب: ورد «إن رسول اللهﷺ قال لأبي: إن الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك. قال: آلله سمّاني لك؟ قال: الله سماك لي»[٣].

وهو كان من أربعة من الصحابة يسمّون قرّاء القرآن. فقد روى البخاري أن رسول اللهﷺ قال «استقرِؤا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل»[٤].

وصفه الذهبي[٥] فقال عنه «أقرأ الصحابة وسيد القراء. شهد بدراً والمشاهدَ وقرأ القرآن على النبي».

١١ـ عمير بن الحمام: وردَ أن رسول اللهﷺ قال له حين ذكر الجنة «فإنّك من أهلها»[٦].

١٢ـ حارثة بن سراقة: حيث قال الرسولﷺ لأمّه «ابنكِ في الفردوس الأعلى»[٧].

هذه كانت بعض الأمثلة على أشخاص وردت فيهم أحاديث صحيحة بأنهم سيذهبون إلى الجنة. ولكنهم لم ينالوا عضوية القائمة الرسمية التي اعتمدتها السلطات الحاكمة وعممتها.

---

(١) صحيح مسلم ص٩٤٦.
(٢) صحيح مسلم ص٩٢١.
(٣) صحيح مسلم ص٩٣٣.
(٤) صحيح البخاري باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ج٥ ص٣٤.
(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص١٦.
(٦) صحيح مسلم ص٧٣٦.
(٧) صحيح البخاري ج٤ص٢٤.

خامساً: كلّ أعضاء القائمة هم ممّن بقوا وعاشوا لما بعد وفاة الرسولﷺ.

ولكن، إذا كان المقصود من المبشرين في الجنة هم فقط مهاجرون قرشيون ممَن عاشوا بعد الرسول ﷺ وليس الذين توفوا بحياته، فيجب أن تضم القائمة شخصاً مثل خالد بن سعيد بن العاص.

فخالد بن سعيد قرشيٌ صميم، بل ومن بني أمية، وكان من المبكرين جداً في إسلامه وتعرض للأذى على يد أبيه وكانت نهاية حياته شهيداً في فتوحات الشام. وهو لديه من المؤهلات ما يزيد على معظم الأعضاء الآخرين في القائمة المشهورة. ولكنه استبعد من القائمة لأنه شذ عن الموقف العام للمهاجرين القرشيين، فرفضَ بيعة أبي بكر وأصرّ على أحقية علي بن أبي طالب في الخلافة عند وفاة الرسولﷺ. فكان لا بد لخالد أن يدفع الثمن بما في ذلك معنوياً، عن طريق حرمانه من عضوية القائمة التي ستعمم على المسلمين.

القائمة تستند إلى رأي عمر

ويبدو أن هناك ارتباطاً بين قائمة العشرة وبين ما قاله عمر بن الخطاب حين طعِن، فقرر تعيين جماعة «الشورى» واصفاً إيّاهم لما قال:

«لا أجد أحداً أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول اللهﷺ وهو عنهم راضٍ، فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدي. فسمّى علياً وعثمان و طلحة والزبير وعبد الرحمن وسعداً»[1].

وأضيف إلى هؤلاء: الخليفتان الأول والثاني، بالإضافة إلى شريكهما الراحل أبي عبيدة، وأخيراً سعيد بن زيد الذي هو الراوي الأبرز لهذا الحديث.

ومن الجدير بالملاحظة أن عمر لم ينسب للرسولﷺ قولاً حول عشرة مبشرين بالجنة، ولكنّ مَن بعدَه طوّروا قوله وحَبَكوا المقولة.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٣٣٨.

ولكن تصنيف عمر لهؤلاء الستة أنهم «الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ» يمكن التشكيك به:

- فهل كان عمر وحده يعلم دخيلة نفس الرسول ﷺ، ومَن الذين هو راضٍ عنهم من المسلمين؟ وهل يعني ذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن راضياً عن غيرهم، كالأنصار مثلاً، أو عمار بن ياسر؟

- أخذاً بعين الاعتبار حادثة رزيّة يوم الخميس، يمكن التخمين أن رسول الله ﷺ حين توفي لم يكن راضياً عن عمر بن الخطاب بالذات، الذي اتهمه بالهجر ومَنعَه من كتابة وصيته. فبعد تلك الحادثة المؤسفة، هل يجوز لعمر بن الخطاب أن يضع نفسَه في موقع الذي يوزّع على الناس نصيبهم من رضى رسول الله ﷺ؟

خلفيات وراء القائمة

أبو بكر وعمر

ألقى التاريخ بظلاله على القائمة هذه. فنال الخليفتان الأول والثاني النصيب الأكبر من الإطراء الذي تمّت نسبته إلى النبي ﷺ.

فنالَ أبو بكر وعمر بن الخطاب نصيبَ الأسد من بشائر الذهاب إلى الجنة من خلال سلسلة أحاديث رواها أبو هريرة وعبد الله بن عمر بن الخطاب، تبتدئ كلها بقول منسوب للنبي ﷺ «بينا أنا نائمٌ...»، حيث تسرد أحلاماً رآها رسول الله ﷺ وفيها أن أشخاصاً معينين مصيرهم الجنة، دون توضيح حادثةٍ أو سببٍ معين لتلك البشارة:

فعن أبي هريرة»قال رسول الله ﷺ: بينا أنا نائم رأيتُ أني على حوضي أسقي الناس، فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليريحني، فنزع ذنوبين وفي نزعه ضعفٌ، والله يغفر له، فأتى ابن الخطاب فأخذ منه. فلم يزل ينزع حتى تولى الناس والحوض يتفجر».

وعن أبي هريرة «أن رسول اللهﷺ قال: بينا أنا نائم، رأيتني على قليب وعليها دلوٌ، فنزعتُ منها ما شاء الله. ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبينَ وفي نزعه ضعف والله يغفر له. ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب. فلم أرَ عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر بن الخطاب، حتى ضرب الناس بعطن».

وعن أبي هريرة عن الرسولﷺ أنه قال «بينا أنا نائم، رأيتني في الجنة. فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر. قلت: لمن هذا القصر؟

قالوا: لعمر بن الخطاب. فذكرتُ غيرته فوليتُ مدبراً.

فبكى عمر بن الخطاب ثم قال: أعليكَ بأبي أنت وأمي يا رسول الله أغار».

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول اللهﷺ قال «بينا أنا نائم، أتيتُ بقدح لبنٍ فشربتُ منه حتى إني لأرى الريَّ يجري. ثم أعطيتُ فضله عمر.

قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟

قال: العلم»[1].

وهناك حديثٌ غريبٌ جداً في فضلِ أبي بكر وعمر، ظاهر التصنّع والتكلّف، فعن أبي هريرة أن النبيﷺ:

«قال: بينا رجلٌ يسوق بقرةً، إذا ركبها فضربها.

فقالت: إنا لم نُخلق لهذا. إنما خُلقنا للحرث.

فقال الناس: سبحان الله! بقرةٌ تكلَم؟

فقال: فإني أؤمن بهذا، أنا وأبو بكر وعمر. وما هما ثمّ.

وبينما رجل في غنمه، إذ عدا الذئب فذهب منها بشاةٍ، فطلب حتى كأنه استنقذها منه.

فقال له الذئب: هذا استنقذتَها مني، فمَن لها يوم السبع، يومَ لا راعي لها غيري؟

---

(١) صحيح البخاري باب في التعبير ج٩ ص٤٩ـ٥٠. وكذلك باب فضل العلم ج١ ص٣١.

فقال الناس: سبحان الله! ذئبٌ يتكلم؟

قال: فإني أؤمن بهذا، أنا وأبو بكر وعمر. وما هما ثم»[1].

ومن الملاحظ حرص الراوي هنا على تأكيد عدم وجود أبي بكر وعمر (وما هما ثمّ) أثناء تأكيد النبيّ صلى الله عليه وآله للناس إيمانه هو وإياهما ـ دون غيرهما ـ على أن البقرة والذئب يتكلمان.

وبعيداً عن البقرة والذئب، وعن أحاديث الأحلام، فإن الفضيلتين الرئيسيتين لأبي بكر هما إيمانه المبكّر بمحمد صلى الله عليه وآله ومرافقته له في رحلة هجرته من مكة. لقد كان أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وآله خلال الفترة المكية الطويلة والقاسية، وساعدَه في نشر دينه في أوساط مجموعةٍ من أبناء بطون قريش ذوي النسَب الرفيع، كما ساهم بماله في تحرير عدد آخر من الموالي والعبيد الذين كانوا يُعانون الكثير على أيدي القرشيين بسبب إسلامهم. وهذه فضائل عظيمة بلا شك وتكفي للدلالة على أن أبا بكر كان ذا وضعٍ رفيعٍ ومميز في ميزان الشرعية الإسلامية. ولكن الأسباب السياسية في ظل الحكم الأُموي دفعت الكثيرين إلى محاولة زيادة وتضخيم فضل أبي بكر لأنهم قدّروا أن هذه الفضائل لا تكفي لموازنة أو موازاة ما يمتلكه عليّ بن أبي طالب من مناقب وفضائل إسلاميةٍ ساطعة ولا نظيرَ لها.

وقد روى ابن أبي الحديد ما يوضّح البعدَ السياسيّ في أحاديث فضل أبي بكر. فقد نقلَ عن أبي جعفر الاسكافي في سياق ردّه على الجاحظ:

«لولا ما غلبَ على الناس من الجهل وحب التقليد، لم نحتج إلى نقضِ ما احتجّت به العثمانية.

فقد علم الناس كافة أن الدولة والسلطان لأرباب مقالتهم. وعرف كل واحد علوّ أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم، وظهور كلمتهم، وقهر سلطانهم وارتفاع التقية عنهم، والكرامة والجائزة لمن روى الأخبار في فضل أبي بكر، وما كان من

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق ج٤ ص٢١٢.

تأكيد بني أمية لذلك، وما رواه المحدثون من الأحاديث طلباً لما في أيديهم. فكانوا لا يألون جهدا في طول ما ملكوا في أن يخملوا ذكر عليٍّ عليه السلام وولده، ويطفئوا نورهم، ويكتموا فضائلهم ومناقبهم وسوابقهم. ويحملوا على شتمهم وسبهم ولعنهم على المنابر...»[1].

ولكن عمر بن الخطاب كان وضعه مختلفاً عن أبي بكر. فهو لم تكن له من الفضائل المعروفة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ما تجعله أهلاً لكي يسامي ما لدى علي بن أبي طالب، أو حتى غير عليٍّ، من مناقب باهرة، ناهيك عن التفوّق عليها. وبخلاف أبي بكر، فإن عمر بن الخطاب قد تأخر دخوله في الإسلام إلى السنة السادسة للبعثة[2]. ولم تكن العلاقة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين عمر، وثيقةً أو حميمة. وهناك ما يشير إلى أن عمر لم يكن من خاصّة النبي صلى الله عليه وآله أو المقربين الأثيرين لديه. فمثلاً روى البخاري عن عمر بن الخطاب قال:

«كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة. وكنّا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وآله، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزلَ فَعلَ مثلَ ذلك...»[3].

وعمر بن الخطاب كان من ضمن الصحابة الذين انهاروا يوم معركة أحُد فتولوا وصعدوا الجبلَ، كما هو معلوم. وقد انهزم عمر بن الخطاب مع غيره من المسلمين يوم حنين[4] أيضاً، كما أنه فشل في قيادة الحملة العسكرية التي أرسلها النبي صلى الله عليه وآله لفتح خيبر.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٣ ص٢١٩.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٢٨. وقد روى ابن هشام في السيرة النبوية ج١ ص٢٣٦ والمباركفوري في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله الرحيق المختوم ص٩٧ أن عمر بن الخطاب كان يساهم مع القرشيين في تعذيب المستضعفين من المسلمين في مكة، ومنهم جارية لبني مؤمل كان يضربها لتترك الإسلام، فلا يتركها إلا من الملل.

(٣) صحيح البخاري كتاب العلم ج١ ص٣٣.

(٤) فقد ورد في صحيح البخاري ج٥ ص ١٩٧ باب قول الله تعالى: ويوم حنين إذ أعجبتكم عن أبي قتادة في وصفه للمعركة «... وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس. فقلت له: ما شأن الناس؟قال: أمر الله...».

ورغم تلك الحقائق المعروفة، ورغم أن عمر لم تكن له سوابق مهمة، أو مواقف باهرة، في عهد رسول الله ﷺ، إلاّ أن الإنجازات العظيمة والفتوحات الهائلة والانتصارات المذهلة، التي حصلت في خلافة عمر بن الخطاب، دفعت الكثيرين من المسلمين إلى قبول عددٍ من الروايات الركيكة التي تمّ وضعها في فترةٍ لاحقة من أجل تمجيد عمر. فهناكَ عدد كبيرٌ جداً من »الأحاديث« الواردة بشأن عمَر بن الخطاب والتي تجعل منه نِدّاً ونظيراً للنبي ﷺ، بل وأكثر! وقد استعرضَ ابن أبي الحديد[1] بعضها:

- إن السكينة لتنطق على لسان عمر
- إن الله تعالى ضَربَ بالحق على لسان عمر وقلبه
- إن بين عيني عمر مَلكاً يسدّده ويوفقه
- لو لم أبعث فيكم لبُعِث عمر
- لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر
- لو نزل إلى الأرض عذابٌ لما نجا منه إلاّ عمر
- ما أبطأ عليّ جبريل إلاّ ظننتُ أنه بُعث إلى عمر
- سراج أهل الجنة عمر
- إن شاعراً أنشدَ النبي ﷺ شعراً فدخلَ عمر فأشار النبي ﷺ إلى الشاعر أن اسكت. فلما خرج عمر قال له: عُد. فدخلَ عمر فأشار النبي ﷺ بالسكوت مرة ثانية. فلما خرج عمر، سأل الشاعر رسولَ الله ﷺ عن الرجل. فقال: هذا عمر بن الخطاب، وهو رجلٌ لا يحبّ الباطل!
- وزنتُ بأمتي فرجحتُ. ووزن أبو بكر بها فرجحَ. ووزن عمر بها فرجحَ ثم رجحَ ثم رجحَ.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص١٧٨.

واستعرض السيوطي[1] المزيد من هذه الأحاديث:

- مَن أبغض عمرَ فقد أبغضني، ومَن أحب عمرَ فقد أحبني. وإن الله باهى بالناس عشية عَرَفة عامة، وباهى بعمر خاصة. وإنه لم يبعث الله نبياً إلاّ كان في أمته مُحدَّث، وإن يكن في أمتي منهم أحد فهو عمر. قالوا: يا نبي الله، كيف محدَّث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه.

- ما في السماء ملكٌ إلاّ وهو يوقر عمرَ، ولا في الأرض شيطانٌ إلاّ وهو يفرق من عمر».

بل إن ابن الجوزي لم يكتفِ بأن الشيطان يفرَق من عمر، فهو أضاف أن عمر بن الخطاب قد تصارع،جسدياً، معَ الشيطان في أحد أزقة المدينة المنورة، وأن عمر صرَعه حتى جلس على صدره[2].

ولهذه «الأحاديث «بعدٌ سياسيٌ أيضاً، يتعلق بالصراع على الخلافة الذي حصل بعد وفاة النبيﷺ. فتريد هذه «الأحاديث «أن تثبتَ أن تولّي عمر، ومن قبله أبو بكر، للخلافة وإبعاد عليّ بن أبي طالب عنها، كان قراراً صائباً بدليل الإنجازات العسكرية والسياسية التي حصلت، والتي ما كانت لتتم لولا الرعاية الإلهية للخليفتين. فكانت هذه «الأحاديث «لتوفّر الغطاء الديني المطلوب ولإظهار التوافق بين «إرادة» النبيﷺ وبين ما حصلَ، تاريخياً، بالفعل.

عثمان بن عفان

يمكن تلخيص الفضائل التي يتمتع بها عثمان على النحو التالي:

كونه صِهراً[3] للرسولﷺ، على اثنتين من بناته (رقية وأم كلثوم)

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٤٠ـ١٤١.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٦٥.

(٣) ولا يبدو أن العلاقة بين عثمان وأم كلثوم ابنة الرسولﷺ كانت وثيقة أو حميمة. فقد روى ابن كثير في السيرة النبوية ج٤ ص٧٤ أنه عندما توفيت أم كلثوم وهمَّ الرسولﷺ بإدخالها في قبرها، استثنى عثمان من ذلك لأنه كان قد ضاجعَ جارية أو زوجة أخرى له ليلة وفاتها!

وكونه واحداً من ضمن المؤمنين الأولين في مكة
وهو من المهاجرين إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة
وقيامه بتبرعاتٍ ماليةٍ سخيةٍ لصالح المسلمين[1].

ورغم أهمية هذه الخصال والمناقب، إلاّ أن أتباع بني أمية، ومعهم أنصار الفكر الرسمي المؤيد للحاكمين عبر التاريخ، سرعان ما أدركوا أنها غير كافية لكي تتناسب مع الهالة التي أرادوها لعثمان كخليفة راشد ومبشر عظيم بالجنة، ولتبرير تفضيله على آخرين كثيرين غيره ممن لهم إسهاماتٌ أكبرُ بكثير منه في نجاح دعوة الرسول صلى الله عليه وآله!

ولم يستطع أتباع بني أمية، ومعهم أنصار الفكر الرسمي التقليدي الداعم للحاكمين عبر التاريخ، أن ينفوا بعضَ الحقائق التاريخية المعروفة بشأن عثمان، وهي أنه لم يشهد معركة بدر، وفرّ من الميدان يوم أحُد، ولم يشهد بيعة الرضوان.

فقد جاء في صحيح البخاري أن رجلاً قال لابن عمر «.. إنّي سائلك عن شيء أتحدثني؟.

قال: أنشدكَ بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فرّ يوم أحد؟

قال: نعم.

قال: فتعلمه تغيّب عن بدرٍ فلم يشهدها؟

قال: نعم.

قال: فتعلم أنه تخلّف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟

قال: نعم.

قال: فكبّرَ.

«وثبت في الحديث أيضا أنه عليه السلام لما صلّى عليها وأراد دفنها قال: لا يدخله أحدٌ قارفَ الليلة أهله. فامتنع زوجها عثمان لذلك. ودفنها أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه».

(١) روى الإمام أحمد في مسنده (ج١ ص٥٩) أن عثمان قال أنه ابتاع بيتاً من ماله ووسع به المسجد وأنه جهز من ماله نصف الجيش يوم العسرة وأنه ابتاع من ماله بئر رومة وجعلها للسبيل.

قال ابن عمر: تعالَ لأخبرك ولأبين لكَ عما سألتني عنه. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه. وأما تغيّبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت مريضة. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: إن لكَ أجر رجل ممن شهد بدر وسهمه. وأما تغيّبه عن بيعة الرضوان فإنه لو كان أحدٌ أعزّ ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه فبعث عثمان وكان بيعة الرضوان بعدما بعث عثمان إلى مكة. فقال النبي صلى الله عليه وآله بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان. اذهب بهذا الآن معك»[١].

ومن نافلة القول أن تبرير ابن عمر للأمور الثلاثة المتعلقة بعثمان لا ينفي حصولها.

وكان فراره من الميدان يوم أحد، وبذلك الشكل المُخزي حين عاد بعد ثلاثة أيام بلياليها، مما بقي يُعاب على عثمان إلى أواخر عمره. فكان غيرُه من الصحابة يعيّرونه بسبب ذلك. وكانت تلك الحقيقة تسبب حرجاً لأنصار الخط الأموي والفكر المؤيد للحكام، خاصة وأن المقارنة كانت تفرض نفسها، صارخة، بين مَن كان هذا حاله وبين مَن بذلوا التضحيات وأظهروا البطولات في ذلك اليوم العصيب[٢].

وأنصار الخط الأموي، ومعهم الملتزمون بالفكر الرسمي التقليدي المؤيّد للحاكمين عبر التاريخ، كانوا يدركون أنهم بحاجة ماسة إلى المزيد من المناقب لعثمان، فأجهدوا أنفسهم بحثاً عن فضائل ومزايا له لكي يفسّروا بها سبب ضمان الرسول صلى الله عليه وآله الجنة له، ولكي يغطوا سلبياته وفساد سياسته أثناء خلافته، فلم يجدوا الكثير، عدا عن علاقة المصاهرة والتبرعات المالية.

وعملياً فإنه خلال تاريخه كلّه مع الرسول صلى الله عليه وآله، يكاد لا يوجد أيّ فعلٍ مهم أو

---

(١) صحيح البخاري باب قول الله تعالى ﴿إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾ ج٥ ص ١٢٦.

(٢) يمكن مراجعة تاريخ الطبري ج٢ ص٢٠٣ بشأن تفاصيل الفرار المعيب يوم أحد. ومن المفيد مقارنة موقف عثمان ذاك وفراره من الميدان مع موقف سعد بن الربيع الأنصاري الذي قاتل ببسالة حتى إنه كان يقول للمسلمين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة «لا عذر لكم عند الله أن يُخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف» كما روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٤ ص٢٧٧ نقلا عن ابن اسحاق.

موقف مميّز لعثمان، باستثناء ما يُعرف عن الدعم المالي الذي كان يقدمه. وصحيحٌ أن المساهمات المالية مفيدة ومطلوبة، وتؤشر على خصال الكرم والسخاء، إلاّ أنه من نافلة القول أن رجلاً تاجراً وثرياً جداً، مثل عثمان، ليس صعباً عليه القيام بمثل هذه التبرعات المالية لصالح المجتمع الذي يعيش فيه ويعتمد عليه في استهلاك البضائع التي يبيعها، وبالتالي الأرباح التي يجنيها. فالتجار دائماً يفعلون ذلك في كل العصور. ولا يُعتبر ذلك من عظيم التضحيات.

ولذلك نشأت الحاجة إلى اختراع أحاديث نبوية من شأنها إرسال عثمان إلى الجنة[1] مباشرة. فذلك يحل لهم الإشكالية، لأن نسبة القول إلى النبي ﷺ نفسه يغنيهم عن الاضطرار إلى تقديم شروحات ومقدمات وأسباب قد لا تكون مقنعة.

والحديث التالي ربما يصلح مثالاً على ذلك. وهو مَرويٌّ عن أبي موسى الأشعري (صاحب المواقف السلبية المعروفة تجاه الخليفة علي بن أبي طالب في الكوفة، وفي مؤتمر التحكيم)، وفيه تبشيرٌ لأبي بكر وعمر وعثمان ـ على التوالي ـ بالجنة، دون أن يكون هناك موقفٌ معيّن أو تصرّفٌ دفَعَ الرسول ﷺ إلى إصدار هذه البشارة العظيمة لهم. فليس الموقف الموصوف في الحديث عصيباً وأبلى به هؤلاء الصحابة حَسَناً. إنما يتكلّم أبو موسى عن موقف استرخاء لرسول الله ﷺ كان فيه جالساً عند بئر يسمّى أريس وقد كشف ساقيه ودلاّهما في الماء!

وفيما يلي النصّ «... فإذا هو قد جلسَ على بئر أريس، وتوسّط قفّها وكشفَ عن ساقيه ودلاّهما في البئر، قال فسلّمتُ عليه ثم انصرفتُ فجلستُ عند الباب، فقلت لأكوننّ بواب رسول الله ﷺ اليوم.

فجاء أبو بكر فدفع الباب.

فقلتُ: مَن هذا؟

فقال: أبو بكر.

---

(١) المزيد من هذه الأحاديث المختلقة في فضائل لعثمان توجد في ص٦٤٤ من هذا الكتاب.

فقلتُ: على رسلك. قال ثم ذهبتُ فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن.

فقال ائذن له وبشّره بالجنّة!

قال فأقبلتُ حتى قلتُ لأبي بكر: ادخل، ورسول الله ﷺ يبشّرك بالجنة. فدخلَ أبو بكر فجلسَ عن يمين رسول الله معه في القفّ ودلّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشفَ عن ساقيه.

ثم رجعتُ فجلستُ وقد تركتُ أخي يتوضّأ ويلحقني، فقلتُ إن يرد الله بفلان ـ يريد أخاه ـ خيراً يأتِ به. فإذا إنسانٌ يحرّك البابَ.

فقلتُ: مَن هذا؟

فقال: عمر بن الخطاب.

فقلتُ: على رسلك. ثم جئتُ الى رسول الله ﷺ فسلّمتُ عليه وقلت: هذا عمر يستأذن.

فقال: ائذن له وبشّره بالجنة!

فجئتُ عمرَ فقلتُ: أذنَ، ويبشّركَ رسول الله ﷺ بالجنة. قال فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القفّ عن يساره ودلّى رجليه في البئر.

ثم رجعتُ فجلستُ فقلتُ إن يرد الله بفلان خيراً ـ يعني أخاه ـ يأتِ به.

فجاء إنسانٌ فحرّك البابَ فقلتُ: مَن هذا؟

فقال: عثمان بن عفان.

فقلت على رسلك قال وجئت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: ائذن له وبشّره بالجنة، مع بلوى تصيبه!

قال فجئتُ فقلتُ: ادخل. ويبشّرك رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك.

قال فدخلَ، فوجد القفّ قد مُلئ فجلسَ وجاههم من الشق الآخر»[1].

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص ٩١٣.

وفي تفاصيل سيرته مع النبيﷺ: كان عثمان بن عفان متخصّصاً في استغلال أو محاولة استغلال حلم الرسولﷺ وأخلاقه العالية، من أجل محاولة إنقاذ أشدّ رؤوس الكفر والطغيان من جلاّدي رسول اللهﷺ ومَن تبعه في مكة، وأكثرهم حرباً لدين الله. كان هؤلاء حينما يُهزمون يلجؤون تلقائياً إلى عثمان ليحميهم، ومن ثم يأخذ لهم الأمان من رسول الله[1].

وكان عثمان يمارس هذا الدور بتكرار وبإصرار شديد، مما دفع الكثيرين إلى الشك حول نفسية ودوافع الرجل. إذ كيف يَقبل المؤمن برسول اللهﷺ أن يخالف أمراً صريحاً أصدَره الرسولﷺ، فيُخفي عنده أشدّ خصوم الرسول وكارهيه؟ وكيف يقبل المؤمن أن يستغلّ عن عَمد وإدراك سماحة الرسولﷺ التي تدفعه إلى الاستجابة لمن سأله شيئاً، على مضضٍ، وبكرهٍ ظاهر؟

ومعظم هؤلاء اللاجئين إلى عثمان هم من الذين ارتكبوا عدواناً شنيعاً على شخص الرسولﷺ، وكان من المتوقّع من كل مؤمن أن يكون متحمّساً للقضاء عليهم، من أجل خاطر الرسولﷺ على الأقل، إن لم يكن من أجل الثواب في الآخرة. ولكن عثمان كانت تصل به الأمور إلى حد التواطؤ معهم!

والأمثلة كثيرة: منها عبد الله بن سعد بن أبي السرح وإنقاذه بشكلٍ مُخزٍ على يد عثمان، فقد جاء في سنن النسائي «لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول اللهﷺ الناسَ إلاّ أربعة نفرٍ وامرأتين وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، عبد الله بن خطل، مقيس بن صبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح. فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبقَ إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيدٌ عماراً وكان أشبّ الرجلين فقتله. وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه وأما عكرمة فركب البحر....... وأما عبد الله

---

(١) ولم تذهب هند بنت عتبة لتبايع النبيﷺ بعد فتح مكة إلاّ بمعية عثمان بن عفان وحمايته! روى ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٧٠ ص١٧٧. وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٢ ص١٣٦ أن هند بنت عتبة كانت من ضمن المجموعة التي امر رسول اللهﷺ بقتلهم يوم الفتح.

ابن سعد بن أبي السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله.

قال: يا رسول الله بايع عبدَ الله!

قال: فرفعَ رأسَه فنظرَ إليه ثلاثاً، كلّ ذلك يأبى.

فبايعه بعد ثلاث.

ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلاّ أومأتَ إلينا بعينك؟

قال: إنه لا ينبغي لنبيّ أن تكونَ له خائنة أعين»[1].

كما بذل عثمان جهوداً حثيثة في سبيل الحكم بن أبي العاص!

وفيما يلي مثال آخر على ذلك: فقد ورد أن معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية كان قد انهزم من جيش قريش يوم أحُد، وأنه قد فرّ هائماً حتى وصل المدينة، وكان رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله قد وصلها بعد عودته من المعركة. فقام معاوية هذا باللجوء إلى عثمان بن عفان طالباً منه الحماية، فأدخله عثمان بيته وأخفاه هناك:

«ثم خرج إلى النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله يريد أن يأخذ له أماناً. وقد قال رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله قبل أن يأتيه عثمان: إن معاوية قد أصبح بالمدينة فاطلبوه. فطلبوه فلم يجدوه.

فقال بعضهم: اطلبوه في بيت عثمان بن عفان.

فدخلوا بيت عثمان، فسألوا أم كلثوم، فأشارت إليه فاستخرجوه من تحت حمارة لهم.

فانطلقوا به إلى النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله، وعثمان جالسٌ عند رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله.

---

(١) سنن النسائي ج٧ ص١٠٦ . وكذلك ورد في سنن أبي داود ج١ ص١٢٧ باب قتل الأسير لا يعرض عليه الإسلام. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢٩ ص٣٢.

فلما رآه عثمانُ قد أتي به قال: والذي بعثك بالحق، ما جئتك إلاّ أن أسألك أن تؤمنه، فهَبهُ لي يا رسول الله!».

ومن شدّة كراهية الرسول ﷺ لمعاوية هذا وإصراره على إعدامه، آمّنه بشرط أنه إن وُجد بعد ثلاثة أيام يُقتل. وفعلاً توارى الرجل، بعد أن جهزه عثمان واشترى له بعيراً. وبعد انقضاء الأيام الثلاثة بعث الرسول ﷺ اثنين من أتباعه المخلصين (ممن ليسوا معروفين بودّهم لطغاة قريش!) وهما زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، وأخبرهما بالمكان الذي سيجدان فيه معاوية، الذي كان قد ضل الطريق، وفعلاً ذهبا فوجداه وقتلاه رمياً بالنبال، بعد أن تنافسا في ذلك[1]. وخاب أمل عثمان هذه المرة، وضاعت جهوده سدى.

ولا يمكن تفسير تلك المواقف كلها إلاّ بفهم المَعلم الأساسي لشخصية عثمان بن عفان، والذي ميّز حياته كلها، في الجاهلية وفي العهد النبوي وأثناء فترة خلافته، وهو انتماؤه القرشيّ الشديد، وولاؤه لصلات القرابة ورابطة الدم.

وعلى الصعيد الشخصي: بخلاف الخليفتين أبي بكر وعمر، لم يتصف عثمان على المستوى الشخصي بالزهد والتقشف. وكان معروفاً عنه استمتاعه بمباهج ونِعم الحياة. وقد رَوى عددٌ ممن احتكوا بعثمان بعضاً من جوانب حياته الشخصية وعاداته في استهلاك أطايب الطعام. فمثلاً روى عمرو بن أمية الضمري:

«إني كنتُ أتعشى مع عثمان خزيراً من طبخ من أجود ما رأيتُ قط، فيها بطون الغنم، وأدَمُها اللبن والسمن.

فقال عثمان: كيف ترى هذا الطعام؟

فقلتُ: هذا أطيب ما أكلتُ قط!

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٣٣٣. وقريبٌ من ذلك ورد في السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٩٦. وذكر المقريزي في النزاع والتخاصم ص٦٠، في معرض روايته للخبر أن معاوية هذا كان قد جَدَعَ أنفَ حمزة بن عبد المطلب ومثل بجسده.

فقال: يرحم الله ابن الخطاب. أكلتَ معه هذه الخزيرة قط؟

قلتُ: نعم. فكادت اللقمة تفرث في يدي حين أهوي بها إلى فمي، وليس فيها لحم، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها!

فقال عثمان: صدقتَ. إن عمر رضي الله عنه أتعب والله مَن تبع أثرَه..... أما والله ما آكله من مال المسلمين، ولكني آكله من مالي. أنتَ تعلم أني كنتُ أكثر قريش مالاً، وأجدّهم في التجارة. ولم أزل آكل من الطعام ما لانَ منه. وقد بلغتُ سناً. فأحبّ الطعام إليّ ألينه. ولا أعلم لأحدٍ عليّ في ذلك تبعة»[١].

كما أنه كان يلبس أفخر الملابس والثياب، ويشدّ أسنانه بالذهب[٢].

والخلاصة أن عثمان بن عفان، الرجل الثريّ المتخم بالأموال، لم يقاتل مع رسول اللهﷺ قريشاً قط، ولم يُصبه خَدشٌ في سبيل الله. ومع ذلك قررت المؤسسة الرسمية أن عثمان بن عفان يجب أن يكون له مكانٌ مضمونٌ في الجنة! فهو ثالث الخلفاء ولذلك ينبغي أن يكون ترتيبه الثالث في الأفضلية بعد النبيﷺ[٣]، وهو بالتالي أفضل في معايير الإسلام من علي بن أبي طالب[٤]، رغم أنف الجميع! ولا عجب في ذلك، فالدولة الأموية تعلم تماماً أن عثمان هو الذي وطد أركانها في الأرض، وهو الذي حَمَل بني أمية على رقاب المسلمين. وبالتالي يجب على السلطات الحاكمة أن ترفع من مكانة عثمان لأن سياسات حكمه كانت «مُصيبة» تماماً بنظرها. وعلى عامة المسلمين أن يتعلموا أن عثمان من أهل الجنة وأنه أفضل من علي بن أبي طالب لأنه ولي الخلافة قبله.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٢٩.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٥٨.

(٣) عقيدة أهل السنة والجماعة، لابن عثيمين، ص٢١.

(٤) ذكر ابن تيمية في مختصر منهاج السنة ج١ ص٥٩ «قال غير واحد من السلف والأئمة كأيوب السختياني وأحمد بن حنبل والدارقطني وغيرهم: مَن قدّمَ علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار. وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضل، لأنهم قدّموه باختيارهم، واشتوارهم».

عبد الرحمن بن عوف

يشترك عبد الرحمن بن عوف مع عثمان بن عفان في الكثير من معالم شخصيته. ورغم كونه من بني زهرة بينما عثمان من بني أمية، إلاّ أنه جمعتهما علاقة مصاهرة، كما أن علاقة تجارية منذ قديم الزمان ربطت بين والديهما. وهو مثله من المؤمنين الأولين في مكة، ومن الذين هاجروا إلى الحبشة. ورغم أن عبد الرحمن كان مع الرسولﷺ في مسيرته ومشاهده، إلاّ أنه لا يمكن ملاحظة أي تميّز له طوال الفترة النبوية. وربما يكون الموقف العملي الوحيد المعروف الذي أنجز فيه عبد الرحمن عَمَلاً لرسول اللهﷺ هو حين أمّره على سريةٍ صغيرةٍ أرسلها إلى دومة الجندل.

وكان عبد الرحمن أيضاً شخصية تجارية من الطراز الرفيع. وكان لديه إحساسٌ مرهفٌ بشأن طرق جمع المال وتكثيره. وبعدما وصل إلى المدينة المنورة مهاجراً، وبلا مال، بدأ على الفور جهوده في تأسيس نشاطٍ تجاريّ مربحٍ له في سوق يثرب. روى الذهبي:

«ولما هاجر إلى المدينة فقيراً لا شيء له، فآخى رسول اللهﷺ بينه وبين سعد بن الربيع أحد النقباء. فعرض عليه أن يشاطره نعمته، وأن يطلّق له أحسن زوجتيه.

فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك. ولكن دلني على السوق.

فذهب. فباعَ واشترى وربحَ. ثم لم ينشب أن صار معه دراهم...»[(1)].

وهكذا كان عبد الرحمن حتى في أحلك الظروف لا تخذله حاسته الفطرية للتجارة والكسب. كان موهوباً تماماً في هذا المجال، حتى جمع أموالاً هائلة وصار أثرى الأثرياء ويضرب به المثل عند الإشارة إلى أصحاب الثروات.

وقد أشار عمر بن الخطاب مرة إلى حرص عبد الرحمن الشديد على المال. فقد روى ابن سعد أن عمرَ، وهو خليفة، أرسل إلى عبد الرحمن يطلب منه أربعة

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٩١.

آلاف درهم قرضاً، فردّ عليه عبد الرحمن مقترحاً عليه أن يأخذها من بيت المال فأجابه عمر:

«... أنت القائل ليأخذها من بيت المال؟! فإن متّ قبل أن تجيء قلتم: أخذها أمير المؤمنين. دعوها له. وأؤخذ بها يوم القيامة!

لا. ولكن أردتُ أن آخذها من رجلٍ حريصٍ شحيح مثلك. فإن متّ أخذها من ميراثي»[1].

وروى ابن الأثير بعض مظاهر ثرائه «... فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام...

وكان عظيمَ التجارة، مجدوداً فيها، كثيرَ المال.

قيل أنه دخل على أم سلمة، فقال: يا أمَه، خفتُ أن يُهلكني كثرة مالي...

وخلّفَ مالاً عظيماً من ذهب قطع بالفؤوس حتى محلت أيدي الرجال منه. وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة ألف شاة ترعى بالبقيع. وكان له أربع نسوة، أخرجت إمرأة بثمانين ألفاً. يعني صولحت»[2].

وبحكم طبيعة التاجر المتأصّلة فيه، كان عبد الرحمن ودوداً لطيفاً تجاه قومه من قريش، وخاصة مَن هم من سراة القوم والأثرياء من أمثاله، ولم ينقطع حبل الودّ بينه وبينهم حتى عندما كان عبد الرحمن يجد نفسه في مواجهتهم كواحد من أتباع النبيﷺ. فكان عبد الرحمن من الذين كرهوا خروج النبيﷺ إلى قريش يوم بدر وحاولوا ثنيه عن ذلك حتى نزلت فيهم آية قرآنية تستنكر موقفهم ذاك. ولما اضطر إلى حضور المعركة كان دوره الأساسي في يوم بدر هو محاولة إنقاذ أحد أكبر رؤوس قريش، أمية بن خلف، من الموت[3]، رغم أن محاولته تلك فشلت.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٢٧٨.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص٣١٥_٣١٧. وكذلك روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص١٣٦.

(٣) المزيد عن دور عبد الرحمن يوم بدر في ص٩٨ من هذا الكتاب. والمزيد عن دوره في تولية عثمان في ص٣٠٧.

وإن الدور الذي لعبه عبد الرحمن في إبعاد الإمام عليّ عن الخلافة، وتقديمها طعمة لعثمان بن عفان بدلاً منه، جعله أثيراً جداً لدى بني أمية وعزيزاً على قلوبهم. وهكذا كان لا بد أن يكون عبد الرحمن بن عوف من أهل الجنة المبشرين. ومَن يكون هذا حاله، فعلى عامة المسلمين أن يعلموا ويقتنعوا أن قراره بتعيين عثمان واستبعاد علي كان الصواب بعينه.

طلحة بن عبيد الله

كان طلحة بن عبيد الله ابنَ عم أبي بكر، ويبدو أنه منذ أن عُيّنَ أبو بكر خليفة بدأت تشرأبّ عنقه نحو المنصب الأعلى. وربما هو قدّرَ أنه ما دامت قريش قبلت بحكم رجلٍ من بطن تيم الصغير، فلمَ لا تقبل بحكم رجل ثانٍ من نفس البطن، خاصة وأن أبا بكر أحسنَ شؤون السياسة والحكم؟

وهو كانت علاقته العائلية بأبي بكر وثيقة إلى درجة أنه عبّرَ عن رغبته علناً بالزواج من أم المؤمنين عائشة بعد وفاة رسول اللهﷺ. وقد كان ذلك سبباً لنزول الآية القرآنية ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾[1]. فقد ذكر ابن كثير[2] في تفسيره أنها نزلت في رجلٍ همّ أن يتزوج عائشة بعد رسول اللهﷺ، وأن ذلك الرجل هو طلحة بن عبيد الله. وقد جاء أيضاً في زاد المسير لابن الجوزي[3] أن طلحة بن عبيد الله كان يقول: لو توفي رسول الله لتزوجتُ عائشة، فنزلت فيه الآية التي ذكرت أن ذلك يؤذي الرسولﷺ وأنه ذنبٌ عظيم العقوبة.

وكان طلحة مثل أبي بكر، ظاهر الود تجاه أبناء قبيلته قريش. فهو قام بفداء عشرة من أسارى بدر (مشركي قريش) بماله. وهو أيضاً كان من المؤمنين السابقين

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥١٣.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ج٦ ص ٢١٣. وكذلك ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد ج٨ ص٢٠١ أن هذه الآية نزلت في طلحة بن عبيد الله لأنه قال: إذا توفّي رسول الله تزوجت عائشة.

للإسلام والهجرة. فهو قدّر أنه لا ينقصه شيئ من مؤهلات أبي بكر. بل إنه يزيد عن أبي بكر في أنه كان أقوى وأكثر شجاعة منه. وكان يقول إن الإصبع المشلول في يده اليمنى قد تسبب به سهمٌ أصابه حين كان يتقي نبال المشركين عن رسول اللهﷺ يوم أحُد.

وقد تجلت طموحاته السياسية في عهد عثمان، فقد قدّر أن سنه غدت كبيرة بما يكفي لكي يستلم الحكم. وقد كان إدراج عمر بن الخطاب لاسمه في «الشورى» الخطوة النهائية التي أكدت له أهليته وجعلته يرفع من سقف طموحاته إلى الحد الأعلى.

وقد استغل حكمَ عثمان بن عفان كثيراً، فبلغت ثروته أرقاماً خيالية، فهو استفادَ من حركة الفتوحات ليكتسب قصوراً وضياعاً وأراضٍ، خاصة في العراق. روى الذهبي:

«كانت غلة طلحة كل يوم ألفٌ وافٍ.

وعن موسى بن طلحة أن معاوية سأله: كم تركَ أبو محمد من العين؟

قال: ترك ألفي ألف درهم ومئتي ألف درهم. ومن الذهب مئتي ألف دينار»[1].

وليس غريباً أن يحرص بنو أمية على إرسال طلحة إلى الجنة. فحرب الجمل التي شارك في شنها ضد علي بن أبي طالب تجعله بنظرهم أهلاً للخلود في جنات النعيم.

سعد بن أبي وقاص

هو قرشيٌ من بني زهرة، ومن مسلمي الطبقة الأولى. آمن مبكراً في مكة وهاجر واشترك مع رسول اللهﷺ في غزواته ومشاهده. وهناك رواياتٌ تتحدث

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٣٣. والوافي: درهم وأربعة دوانق. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢٥ ص١٠٢. وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى ج٣ ص٢٢١ مثل ذلك.

ومن المثير فعلاً مقارنة ما تركه طلحة من أموال، مع ما تركه صحابيٌ كبير آخر من ذوي الأصل المتواضع. فقد روى ابن عساكر في ج٢١ ص٤٥١ من تاريخ دمشق أن تركة سلمان الفارسي لدى وفاته لم تزد على ثلاثين درهماً!

عن شجاعته وإقدامه. وهو قال «نثلَ لي رسول اللهﷺ كنانته يوم أحُد وقال: إرمِ فداكَ أبي وأمي»[1]. وأما يوم بدر فلا يكاد يوجد له ذكر باستثناء ما رواه ابن اسحق من أنه اشترك مع حمزة بن عبد المطلب في قتل نبيه بن الحجاج. وروَت السيدة عائشة أن رسول اللهﷺ قال مرة في إحدى الليالي أثناء حصار غزوة الخندق «ليت رجلاً صالحاً يحرسني»، فجاء سعدٌ بعد قليل وهو مسلحٌ وحَرَسَه[2].

ولكنه يشتهر أكثر شيء بقيادته معركة القادسية وفتح العراق في عهد عمر بن الخطاب. وذلك جعل له هالة وسمعة عالية.

ولكن تتبع مسار أحداث فتح العراق يشير إلى أن دوره في حرب القادسية كان «رسمياً» للغاية. فهو لم يشترك في فتح العراق قبل ذلك، وأرسله عمر بن الخطاب لقيادة الجيش قبل القادسية بقليل. وعندما حصلت المعركة لم يكن سعدٌ على رأس قيادة الجيش، بل أوكل تلك المهمة إلى خالد بن عرفطة، وبقي هو في قصرٍ يتابع أخبار القتال بحجة أن لديه مرضاً جلدياً ما.

ويبدو أن عُذرَ سعد المُعلن لم يقنع حتى زوجته الجديدة، سلمى امرأة المثنى بن حارثة الشيباني، التي قارنت بين شجاعة وإقدام زوجها المتوفي، المثنى، في قتال الفرس، وبين موقف سعد، الجالس في القصر، فقالت له:

«وامثنّياه! ولا مثنى للخيل.

فلطمَها.

فقالت: يا سعد: أغيرة وجُبناً؟!»[3].

وقال أحد الشعراء[4]، يعرض بسعدٍ وموقفه، ومعبراً عن عدم اقتناع الناس بعذره:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص٣٠.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٤٦٣.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ج٢ ص٣١٦.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص١١٥.

ألــم تــرَ أن الله أنــزلَ نصــرَه | وسعــدٌ ببــاب القادسية معصمُ
فأبنــا وقــد آمت نساءٌ كثيــرة | ونسوة سعــدٍ ليسَ فيهــنَ آيمُ

فلما بلغ سعداً قال: اللهم اقطع عني يده ولسانه».

وبما أن الخليفة عمر، كانت تهمه النتائج، فقد كافأ سعداً، بصفته القائد العام، على نصر القادسية. فعينه والياً على الكوفة.

ولكن لا يبدو أن سعداً كان ناجحاً جداً في التعامل مع الرعية. وذكر البلاذري أن أهل الكوفة بعثوا إلى عمر بن الخطاب يشتكون سعداً ويتهمونه بأمور عديدة منها أنه «لا يحسن الصلاة»مما أثار غضبَ سعد الشديد، وأن عمرَ أرسلَ مَن يستقصي عن ذلك في العراق، وأن أحد بني عبس قال لمندوب عمر عن سعد «أما إذا سألتمونا عنه، فإنه كان لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية»ولكن الأغلبية في الكوفة ذكرت سعداً بخير، ورغم ذلك فقد عزله عمر بن الخطاب عن الإمارة[1].

وفي رواية ابن حجر «بلغ عمرَ بن الخطاب أن سعد بن أبي وقاص اتخذ قصراً وجعلَ عليه باباً، وقال انقطع الصوت. فأرسل محمد بن مسلمة، وكان عمر إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما يريد بعثه، فقال له: ائتِ سعداً فأحرق عليه بابه.

فقدم الكوفة، فلما وصل إلى الباب أخرج زنده فاستورى ناراً ثم أحرق الباب»[2].

ويبدو أن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب إمارة الكوفة فيما بعد، إثر عزل المغيرة بن شعبة بسبب حادثة الزنا. وقد وردت في تاريخ الطبري قصة عزل سعد بن أبي وقاص من قبل عثمان بن عفان هذه المرة، عن ولاية الكوفة سنة ٢٦ هجرية. وهذه القصة توضح أنه كانت هناك مخالفات مالية فاضحة ارتكبها سعد ولم يرضَ أن يسكتَ عنها خازن بيت المال الذي كان وقتها عبد الله بن مسعود. وتتلخّص

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ج٢ ص ٣٤١. وكذلك روى البخاري في صحيحه ج١ ص١٩٢ أن أهل الكوفة قد شكوا إلى عمر بن الخطاب «أنه لا يحسن يصلي».

(٢) الاصابة لابن حجر ج ٦ ص٢٩.

القصة في أن سعداً قد استقرض مبلغاً من المال من بيت مال المسلمين ولم يؤدّه. ولما طالبه ابن مسعود بالسداد رفضَ وشتمه بقبيح القول الذي يطفح استعلاءً وعنصرية:

«فأتى ابنُ مسعود سعداً فقال له: أدّ المالَ الذي قبلك! فقال له سعد: ما أراكَ إلاّ ستلقى شراً! هل أنت إلاّ ابن مسعود،عبدٌ من هذيل؟!»[1].

وهذه الحادثة أدّت بعثمان إلى عزل سعد. وكان الذي ولاّه مكانه هو الوليد بن عقبة!

واللافت في هذه الرواية أن ابن مسعود لم يرتكب ذنباً يستحق بسببه هذا الشتم العنصري والقبيح من شخصٍ»مبشّرٍ بالجنة «كسعد.

ويبدو أن نفسية سعد المتكبرة كانت صفة ملازمة له من أيام الرسولﷺ، وتظهر أساساً تجاه الضعفاءَ من الناس، فكان يرى نفسَه فوقهم! وقد جاء في صحيح البخاري «رأى سعدٌ رضي الله عنه أن له فضلاً على مَن دونه. فقال النبيﷺ: هل تنصَرون وترزقون إلاّ بضعفائكم؟!»[2].

وكذلك روى الذهبي ما يدلّ على نفسية سعد المتكبرة تجاه سلمان الفارسي:

«كان بين سعد بن أبي وقاص وبين سلمان شيء.

فقال: انتسِب يا سلمان!

قال: ما أعرف لي أباً في الإسلام، ولكني سلمان بن الإسلام»[3].

وهنا أيضا يُظهر سعدٌ خلقاً غيرَ إسلاميّ البتة. فهو يلجأ إلى حميّة الجاهلية التي حاربها الله ورسوله لكي يُعيّر المؤمنَ البارز، سلمان الفارسي، بأنه لا نسَبَ له بين العرب! وكان من المستهجن أن يصدر هكذا سلوك عنصري، علانية، من

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص ٣١١.

(٢) صحيح البخاري ج٤ ص ٢٤ باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٥٤٤؟

صحابيّ من الطبقة الأولى. حتى أن الذهبي يروي بأن عمر بن الخطاب لما علم بالحادثة وبّخ سعداً وكان همّ بأن يعاقبه[1]. وجواب سلمان الفارسي لسعد كان بمثابة صفعة له، بتذكيره أن أيام الجاهلية قد ولّت وأن الفضل في الإسلام هوَ الآن المعيار.

وكغيره من كبار الصحابة، أصاب من الثراء نصيباً وافراً وخاصة في أواخر حياته، وإن كان أقل من البقية. قال عنه الذهبي[2] «إن تركته كانت مائتي ألف درهم وخمسين ألف درهم. وكان قد اعتزلَ في قصرٍ بناه بالعقيق سنة خمس وخمسين، وحمل فدفن بالبقيع».

ورغم أن سعداً هو من أبرز رموز تيار الاعتزال في فترة الصراع بين علي ومعاوية، وبالتالي لم ينضم مباشرة إلى جبهة معاوية، إلاّ أنه كانت لسعد مكانة ممتازة في قلب معاوية الذي كان ولا شك يرضى بأن يظهر أمام عامة المسلمينً في موضع المكافئ، أخلاقياً، لعليّ. وبعد أن قتل عليّ وانفرد معاوية بالحكم، بايَعَه سعدٌ كأمير للمؤمنين. ومن المؤكد أن ماكينة معاوية الدعائية استفادت من هذه الحقيقة الساطعة: إن سعداً رفض وبإصرار أن يبايع علياً، ولكنه قبل أن يبايع معاوية!

ومما يزيد في علو مكانة سعد لدى بني أمية، أن ابنه، عمر بن سعد، كان قائداً للجيش الذي أرسله عبيد الله بن زيّاد لقتل حفيد النبيﷺ الحسين بن علي ومعه بقية العائلة الهاشمية في زمن يزيد بن معاوية. ونفذ عمر بن سعد بن أبي وقاص المهمة بتفانٍ وإخلاص، وعاد لأسياده برأس الحسين والسبايا من حفيدات النبيﷺ.

ولذلك كله، يستحق سعدٌ الذهاب إلى الجنة بنظر الحكام الأمويين.

---

(١) وفي رواية ابن عساكر لهذه الحادثة في تاريخ دمشق ج٢١ ص ٤٢٥ أن عمر بن الخطاب قال لسعد في معرض تقريعه «وأنا عمر بن الإسلام أخو سلمان بن الإسلام! أما والله لولا شيء لعاقبتك عقوبة يسمع بها أهل الأمصار».

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٢٣.

الزبير بن العوام

هو من بطن أسد بن عبد العزى من قريش. وهو يمتّ بصلة القرابة إلى الرسول صلى الله عليه وآله من جهة الأم. فهو ابن صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، وهو بالتالي ابن عَمّة النبي صلى الله عليه وآله. وهو من المؤمنين المهاجرين الأولين.

عُرف عن الزبير شجاعته وفروسيته. وكان له بلاءٌ حسَن في معارك الإسلام الأولى. ومنها معركة بدر التي روى ابن اسحق أن الزبير قتل خلالها اثنين من المشركين.

والبخاري ذكر أن الرسول صلى الله عليه وآله قد جمع للزبير أبويه يوم غزوة الخندق «.... كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَن يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقتُ، فلما رجعتُ جمعَ لي رسول الله صلى الله عليه وآله أبَويه فقال: فداكَ أبي وأمّي»[١].

كما أن الزبير شارك بفعالية في حملة فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص، وأظهر خلالها شجاعة وتميّزاً أثناء حصار الجيش لحصن إليون الرومي، حين اقتحم السورَ فتبعه الناس[٢].

ولكن أحواله تغيرت بالتدريج فيما بعد. وتجلّت مظاهر التحول في شخصية الزبير في عهد عثمان حين انهمرت عليه الثروات الهائلة. فأصبح الزبير رأسمالياً كبيراً وتملّكَ ثروة ضخمة. وقد جاء في صحيح البخاري تفاصيل ثروة الزبير التي أورثها بعد مقتله، وهي تحتوي على غابة كان الزبير قد اشتراها بسبعين ومائة ألف وباعها ابنه عبد الله بألف ألف وستمائة ألف، بالإضافة إلى إحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر وأنه «.. كان للزبير أربع نسوة، ورُفع الثلث، فأصاب كل امراة ألف ألف ومائتا ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف»[٣].

---

(١) صحيح البخاري باب مناقب الزبير بن العوام ج٥ ص٢٧. هذا مع ملاحظة أنه قيل أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يجمع أبويه سوى لسعد بن أبي وقاص يوم أحد! فمن الواضح أن هناك محاولات حثيثة لإثبات فضائل معينة. ولكن هناك تخبط في نسبتها، فهي تارة للزبير وتارة لسعد!

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ص١٠٠.

(٣) صحيح البخاري ج٤ ص١٠٦.

وأما بشأن عدائه لعليّ بن أبي طالب، فإنه كان لاحقاً لعهد الرسولﷺ. وترجع بداياته إلى قرار عمر بن الخطاب بإدراج اسم الزبير بين المرشحين للخلافة من بعده. فأصبح يرى نفسه نداً لعليّ ومنافساً له وتمادى إلى أن انتهى في حرب الجمل. ويروى أنه كان لابنه عبد الله بن الزبير دورٌ مهم في إقناعه باتخاذ موقف عدائيّ لعليّ وبني هاشم.

وطبعاً كانت مشاركته في حرب الجمل ضد علي بن أبي طالب هي الأساس الذي رشحه ليكون عضواً في قائمة الذاهبين للجنة.

أبو عبيدة بن الجراح

هو قرشيّ من بني الحارث بن فهر، وهو أيضاً من مسلمي الطبقة الأولى. آمن مبكراً في مكة وهاجر واشترك مع رسول اللهﷺ في غزواته ومشاهده. وروى ابن الأثير في أسد الغابة أنه كان لأبي عبيدة موقفٌ مميز في معركة بدر، حين بَرَز له أبوه المشرك عدة مرات وهو يتجنبه، إلى أن تصدّى له وقتله أخيراً. ولكن ابن الأثير[1] أضاف بأن الواقدي قد أنكر هذه الرواية وأكد أن والد أبي عبيدة كان قد مات قبل يوم بدر بفترة طويلة. وكذلك روى ابن الأثير أن أبا عبيدة بن الجراح قام بانتزاع الحلقتين المعدنيتين التين دخلتا وجه رسول اللهﷺ يوم أحُد بأسنانه حتى سقطت ثنيتاه فأصبح أهتماً، ولكن الواقدي نفى ذلك الخبر أيضاً[2].

وأهم موقف مؤكد لأبي عبيدة حصل يوم قدم وفد نصارى نجران وطلبوا من الرسولﷺ بعد جدال طويل أن يرسل معهم رجلاً أميناً من أصحابه ليُشرف على قبض الصدقات وتحصيلها منهم، فأرسل النبيﷺ معهم أبا عبيدة وقال عنه إنه «أمين هذه الأمة»[3].

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص٨٥

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج١ ص٢٤٧ وقال فيه أن الأثبت هو أن الذي نَزَع الحلقتين من وجه رسول اللهﷺ كان عقبة بن وهب بن كلدة، وليس أبو عبيدة.

(٣) صحيح مسلم ص٩١٩ باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح. وأيضاً سنن الترمذي ج٥ ص٣١٦.

ولكن أبا عبيدة اشتهر كثيراً عندما عينه عمر بن الخطاب قائداً أعلى للجيوش التي تولت فتوح الشام بعد أن عزل خالد بن الوليد. وهو يستحق تقديراً عالياً على أدائه المتميز، وتواضعه والزهد الذي أظهره في معيشته. ويروى أن أبا عبيدة، من شدة إيمانه بقضاء الله وقدره رفض طلب عمر منه بمغادرة الشام بعد أن بدأ يظهر فيها وباء الطاعون. وقرر البقاء في أرض الجهاد، فكانت النتيجة أن أصيب بالعدوى وتوفي في طاعون عمواس. وكان عمر يحبه كثيراً ولو طال به البقاء لكان من المؤكد أن عمر سيستخلفه من بعده.

وكان أبو عبيدة هو العنصر القيادي الثالث في زعامة المهاجرين القرشيين، بعد عمر وأبي بكر. وهؤلاء كانوا ثلاثياً متكاملاً. وهو كان معهما في اجتماع السقيفة الحاسم وشارك في الجدال الذي جرى مع الأنصار إلى أن بويع أبو بكر. وهو أيضاً ساهم معهما في عزل علي بن أبي طالب وبني هاشم وإخراج الأمر منهم. ولعله لهذا السبب بالذات لم يرَ بنو أمية بأساً في وجوده ضمن قائمة المبشرين بالجنة.

سعيد بن زيد

وأما سعيد بن زيد فهو خلال مدّة دعوة الرسولﷺ في ٢٣ سنة، لم تؤثر عنه أيّة مواقف لافتة. وقد أورد ابن الأثير ترجمته في أسد الغابة[1]: فهو ابن عم عمر بن الخطاب وكان من السابقين إلى الإسلام وزوجته هي فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، التي يُروى أن لها دوراً بارزاً في إسلام أخيها في السنة السادسة للبعثة. وهو لم يشهد بدراً لأنه كان غائباً في الشام، وآخى الرسولﷺ بينه وبين أبيّ بن كعب.

وهو الذي يروي الحديث الذي يُعدد أسماء مَن سيذهبون إلى الجنة، والذي هو أحدهم (مرة هم تسعة، وأخرى هم عشرة). وهو قد عَمّر طويلاً حتى توفّي في عام ٥١ للهجرة، وقيل عام ٥٨،(مما يدل أنه كان يافعاً عندما أسلمَ بمكة). وذكر ابن الأثير أنه كان مجابَ الدعوة بدليل الحادثة التي وقعت أيام كان مروان بن الحكم والياً على المدينة من قبل معاوية، عندما اشتكت امرأة تدعى أروى بنت أويس على

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٢. ويمكن أيضاً مراجعة الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٣٨٣ـ٣٨٥.

سعيد بن زيد واتهمته بأنه اغتصب أرضها. فأنكر سعيد بن زيد ذلك، ودعا عليها بأن لا تموت حتى يعمى بصرها، وفعلاً تحقق ذلك وعميت المرأة في أواخر عمرها[1].

وذكر أنه شهد اليرموك وحصار دمشق وأنه مات في المدينة وغسله ابن عمر أو سعد بن أبي وقاص.

هذا كل ما ذكر عن هذا المبشر بالجنة في أسد الغابة. كما أنه ليس له ذكرٌ في كتاب فضائل الصحابة في صحيح مسلم. أي أن هذا الرجل، وخلال ٢٣ عاما من دعوة الرسول، و٤٠ عاما عاشها بعد وفاة الرسولﷺ، بكلّ ما فيها من أحداث جسام غيّرت مجرى تاريخ المسلمين إلى الأبد، لم يجد لنفسه الفرصة في أيّ موقفٍ من المواقف المهمة والحاسمة، وهي كثيرة جداً، ليظهر فيه خصاله وتميّزه!

ومن المثير للإهتمام أن عمر بن الخطاب لم يضعه ضمن شورى الستة الذين قال إن رسول اللهﷺ قد مات وهو عنهم راضٍ! وربما يكون السبب هو أن عمر لم يُرد إدخال أقربائه من أمثال سعيد ضمن المرشحين. ولكن هذا لا يستقيم لأن عمر ليس من حقه استثناؤه ما دام ينال رضى الله ورسوله ومبشراً بالجنة.

وأما ما ورد في شأن سعيد بن زيد في صحيح ابن حبان فهو محصورٌ فقط في حديث العشرة (أو التسعة!) المبشرين بالجنة المذكور أعلاه، والذي قاله سعيد رداً على المغيرة بن شعبة حين شتمَ عليّ بن أبي طالب على المنبر. ويبدو أن سعيداً لم يُطق أن تصلَ الأمور إلى هذه الدرجة من الانحدار بحيث أن رجلاً على شاكلة المَغيرة يَقعُ في عليّ بن أبي طالب عَلناً دون رادع، فأرادَ أن يذكّره بضرورة أن لا يتجاوز حدوده كثيراً، فساقَ هذا الحديث الذي أدخل فيه كل مَن كان له علاقة بالخلافة وشؤونها. وكأنه يريد تأكيد الحدّ المعنويّ الفاصل بين «الصحابة» وغيرهم، والذي استباحه المغيرة بدون حياء!

---

(١) وقد روى البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص١٣٨ حادثة هذه المرأة التي اشتكت على سعيد.

وليس هناك الكثير من المعلومات حول دور سعيد بن زيد ومواقفه أثناء الصراع بين عليّ ومعاوية، ولا عن علاقته ببني أمية.

ويمكن القول أن ورود اسمه ضمن قائمة العشرة المبشرين كان لأنه هو راوي ذلك الحديث.

الهدف النهائي من إشاعة هذه المقولة

- تبرير الاستئثار القرشي بالحكم عن طريق إظهار أن أفضلَ الناس، وأصحابَ أعظم الفضل، هم كلهم قرشيون حصراً.

- محاولة تخفيض منزلة الإمام عليّ عن طريق مساواته مع هؤلاء التسعة، وبالتالي تمييع مناقبه وفضائله التي لا نظيرَ لها. فهو يصبح واحداً من عشرة من الفضلاء (وترتيبه الرابع!).

- منح الحصانة للذين عادوا علياً وتآمروا عليه وحاربوه. فبهذا «الحديث» يكون مصيرهم كلهم في الجنة، مضموناً، ويصبح بالتالي من غير اللائق مساءلتهم عن أفعالهم.

تعظيم منزلة أم المؤمنين عائشة

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر

تتمتع أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر بوضع مميز حقاً من بين جميع زوجات النبيﷺ في أذهان عامة المسلمين. وإليها غالباً ما يتوجه ذهن المسلم إذا ذكرت زوجات الرسولﷺ.

ولعائشة هالةٌ وسمعة بين عامة المسلمين، على أساس أنها الزوجة المفضلة لدى الرسولﷺ، وأنها كانت ذات جمال فائق، وأنه كان يحبها أكثرَ من خلق الله جميعاً، وأنها كانت عالمة فقيهة ومفتية يرجِع إليها الصحابة والتابعون فيما لا يعلمون.

وعائشة تحتل المرتبة الرابعة بين كل الذين رَوَوا أحاديثَ عن الرسولﷺ بعد كلٍ من أبي هريرة، وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك[1].

من سيرة النبي: خديجة وعائشة

الحقائقُ التاريخية المعروفة والمؤكدة تقول أن الرسولﷺ تزوج من خديجة بنت خويلد حينما كان في الخامسة والعشرين من عمره بينما هي في الأربعين. وعاش معها الرسولﷺ ٢٤ عاما[2] إلى أن توفّاها الله. وكانت خديجة خلال تلك الفترة الطويلة خيرَ سند لرسول اللهﷺ: فهي التي صدّقته حين كذّبه قومه، وآزرته حين كان مُستضعفاً بمكة، وواسته بنفسها ومالها، وأنجبَ منها. وحسب وصف ابن الأثير: «فرّجَ الله عنه بها. إذا رجعَ إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدّقه وتهون عليه أمرَ الناس»[3]. وقد حزن عليها الرسولﷺ حزناً عظيماً لما ماتت حتى أنه سمّى العامَ الذي توفّيت فيه هي وعمّه أبو طالب بعام الحزن. وبقي الرسولﷺ مخلصاً لذكراها طوال حياته. وطوال فترة زواجه من خديجة لم يتزوج أي امرأة غيرها. أي أن رسول اللهﷺ أمضى زهرة شبابه ومعظم فترات حياته مع خديجة، لا يعرف غيرها. وبعد أن توفّيت خديجة وهاجر الرسولﷺ إلى المدينة، تزوج الرسولﷺ عشرَ نساء، من ضمنهن عائشة.

كيف تعاملت عائشة مع هذه الحقيقة؟

هناك من الدلائل الكثير مما يشير إلى أنها لم تكن تتقبل تلك الحقائق برحابة صدر. فهي كانت تتمنى لو لم تكن مشاعر النبيﷺ على ذلك النحو تجاه خديجة، ولكن الأمر ليس بيدها. فلم تملك سوى مراكمة مشاعر مكبوتة داخل نفسها كانت تنفجر وتظهر في بعض المناسبات. ومن ذلك ما رواه الشيخان أنها قالت للنبيﷺ

---

(١) ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ج٢ ص١٣٩ أن عائشة روت ٢٢١٠ أحاديث، اتفق لها البخاري ومسلم على ١٧٤ حديثا، وانفرد البخاري ب ٥٤ ومسلم ب ٦٩.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج٥ ص٤٣٥.

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ج٥ ص٤٣٧.

عندما ذكرَ عندها خديجة: «ما تذكر من عجوز من عجائز قريش؟! حمراء الشدقين، هلكت في الدهر؟! قد أبدلك الله خيراً منها.»[1].

وأيضاً جاء في صحيح البخاري أن عائشة قالت عن خديجة «كان النبيﷺ يُكثر ذكرَها. وربما ذبحَ الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلتُ له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلاّ خديجة؟! فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»[2].

وربما فاقم من مشاكلها النفسية، تجاه خديجة بالتحديد، كونها عاقراً لم تنجب، بينما هي ترى بعينيها مدى حب الرسولﷺ لابنته من خديجة: فاطمة.

فهل صحيحةٌ تلك الصورة الشائعة عن عائشة بنت أبي بكر في أذهان عامة المسلمين، والتي تتلخّص في أن الرسولﷺ كان يحبها حباً جمّا، ويفضلها على كل مَن سواها من النساء، وأنه كان يتوق إلى اليوم الذي يقضيه فيه معها؟

الجواب هو، استناداً إلى الحقائق الموضوعية، بالنفي. فالتي كانت لها مكانةٌ لدى الرسولﷺ لا تضاهيها فيها أي امرأة أخرى، ولو من بعيد، هي خديجة بنت خويلد، وليست عائشة.

وأما عائشة فقد عاشت مع الرسولﷺ تسعَ سنوات، كانت خلالها تقاسمها العيشَ معه تسعُ أو ثمان نساء أخريات. ولأن رسول اللهﷺ كان يتوخى العدلَ في توزيع وقته على زوجاته، فإنَّ العيش الحقيقي لعائشة مع الرسولﷺ كان لا يتجاوز السنة الواحدة. ومع الأخذ بعين الاعتبار أن وقت الرسولﷺ كان في الحقيقة موزعاً على تعليم المسلمين دينهم نهاراً ـ وغرسُ مبادئ التوحيد ونبذ عقائد الجاهلية هي من أصعب المهمات على الإطلاق! وتتطلب عملاً دؤوباً كان يقوم به

(١) صحيح البخاري باب تزويج النبي خديجة ج٥ ص٤٩. وكذلك صحيح مسلم باب فضائل خديجة ص٩٢٣. وقد أورد ابن الأثير في أسد الغابة ج٥ ص ٤٩٨ بقية الحديث وفيه أن الرسول ﷺ غضب جدا لقولها وأجابها «لا والله ما أبدلني الله خيرا منها. آمنت إذ كفر الناس، وصدّقتني وكذّبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء».

(٢) صحيح البخاري باب تزويج النبي خديجة ج٥ ص ٤٨.

الرسول ﷺ بلا كلل ـ وعلى تعبّده وتهجّده ليلاً، فإنه يمكن الجزم بأنه لم يكن لدى الرسول ﷺ أصلاً من الوقت ما يقضيه مع عائشة على النحو الذي توحي به الأفكار الشائعة عن موضع عائشة منه.

وبعد ذلك كله، فليس من العدل مقارنة مكانة ومنزلة عائشة لدى رسول الله ﷺ بمنزلة خديجة بنت خويلد.

علاقة عائشة مع النبي

وأما بشأن علاقة عائشة المباشرة مع الرسول ﷺ، فالباحث في ذلك سيجد أن عائشة كانت في كثير من الأوقات بمثابة عنصر توتر وتنغيص له! وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك. فمثلاً من القرآن الكريم:

﴿يا أيها النبي لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك، تبتغي مرضاة أزواجكُ والله غفورٌ رحيمُ قد فرضَ الله لكم تحلّة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيمُ وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرضَ عن بعضُ فلما نبأها به قالت من أنبأك هذاُ قال نبّأني العليم الخبيرُ إن تتوبا على الله فقد صغت قلوبكماُ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهيرُ عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله ازواجاً خيراً منكنّ مسلماتٍ مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾[1].

وسبب نزول هذه الآيات أن رسول الله ﷺ قد شربَ عند زوجته زينب بنت جحش[2] عسلاً كان يحبه. وأن زوجتيه حفصة بنت عمر وعائشة بنت أبي بكر، كيداً لزينب، اتفقتا على أن تقولا، كلٌّ على انفراد، لرسول الله ﷺ إن هناك رائحة كريهة تنبعث منه بعد أن فارق زينب! وكانتا تعلمان أن الرسول ﷺ يكره جداً انبعاثَ روائح كريهة منه. وفعلاً سألته عائشة: هل أكلتَ مغافير؟ فنفى. ولكن لما تكرر نفس

---

(١) الآيات من ١ ـ ٥ من سورة التحريم.

(٢) ورد أنها سودة بنت زمعة في رواية الواحدي في أسباب النزول ص٢٩٢ وأن رسول الله ﷺ كان يذهب كثيرا عندها ليشرب من عسل يأتيها من أخوالها في اليمن، ولذلك تآمرت عليها عائشة وحفصة.

السؤال من حفصة بعد قليل، ظن الرسولﷺ أن ريحاً كريهة تنبعث فعلاً منه بسبب العسل الذي شربه عند زينب. فحلفَ أن لا يشرب ذلك العسل مرة أخرى وحرّمه على نفسه. فنزلت الآيات. (والمغافير شيء شبيه بالصمغ، متغير الرائحة، فيه حلاوة).

وقد روى الإمام البخاري رواية المغافير عن عائشة قالت «كان رسول اللهﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها.

فواطيتُ أنا وحفصة على أيّتنا دخل عليها فلتقل له: أكلتَ مغافير؟ إني أجد منكَ ريحَ مغافير!

قال: لا. ولكني كنتُ أشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش. فلن أعود له. وقد حلفتُ لا تخبري أحداً بذلك»[1].

وأيضا جاء في صحيح مسلم نص حوار بين ابن عباس وعمر بن الخطاب:

«.... فقلتُ: يا أمير المؤمنين! مَن اللتان تظاهرتا على رسول اللهﷺ من أزواجه؟

فقال: تلك حفصة وعائشة......

وقال عمر: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسَم لهنّ ما قسَم.

قال: فبينما أنا في أمر أئتمره إذ قالت لي امرأتي: لو صنعتَ كذا وكذا.

فقلت لها: وما لك أنتِ ولما ههنا؟ وما تكلّفك في أمرٍ أريده؟

فقالت لي: عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول اللهﷺ حتى يظل يومه غضبان!

قال عمر: فآخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة. فقلتُ لها:

---

(١) صحيح البخاري باب سورة التحريم ج٦ ص١٩٤.

يا بنية! إنك لتراجعينَ رسولَ اللهﷺحتى يظل يومه غضبان. فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه....»[1].

وبلغ تأذي رسول اللهﷺ من أفعال زوجاته حداً دفعه إلى هجرهنّ شهراً كاملاً والتفكير الجدي بتطليقهنّ جميعاً. روى مسلم:

«....حدثني عمر بن الخطاب قال: لمّا اعتزلَ نبيّ الله نساءه قال: دخلتُ المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله نساءه! وذلك قبل أن يؤمرون بالحجاب.

فقال عمر: فقلتُ: لأعلمنّ ذلك اليوم. قال: فدخلتُ على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسولَ الله؟

فقالت: ما لي ولكَ يا ابن الخطاب؟ عليك بعيبتك.

قال: فدخلتُ على حفصة بنت عمر فقلتُ لها: يا حفصة! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول اللهﷺ؟ والله لقد علمتِ أن رسول الله لا يحبكِ، ولولا أنا لطلّقكِ رسولُ اللهﷺ.

فبكت أشدّ البكاء... وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبيﷺ...»[2].

وهذه النصوص صريحةٌ وواضحة، وهي تظهر أنه كثيراً ما كانت عائشة تنهمك في وضع الخطط للاستحواذ على الرسولﷺ، والتآمر على غيرها من زوجاته. وكان ذلك يؤدّي أحياناً إلى إشغال رسول اللهﷺ بتوافه الأمور، وإلى تشتيت تفكيره عن عظائم الأمور والمسؤوليات الجسام!

---

(١) صحيح مسلم كتاب الطلاق باب في الإيلاء واعتزال النساء ص٥٤٨. وكذلك ورد الحديث في صحيح البخاري ج٣ باب الغرفة والعلية المشرفة ص١٧٥ وفيه اعتراف من حفصة أن نساء النبيﷺ كنّ يغاضبنه طوال النهار حتى الليل، وأن النبيﷺ هجر نساءه شهرا «من شده موجدته عليهن». وفيه أن عائشة وحفصة هما اللتان تظاهرتا عليه.

(٢) صحيح مسلم كتاب الطلاق باب في الإيلاء واعتزال النساء ص٥٤٧.

ومثلما كان أبو بكر وعمر ثنائياً لا ينفصم، شكّلت ابنتاهما زوجتا الرسولﷺ عائشة وحفصة ثنائياً أيضاً. ولكنَّ ثنائي عائشة/حفصة كان دائماً بقيادة عائشة، بخلاف الأبوين.

*****

وفي تعاملها مع رسول اللهﷺ وعلاقتها المباشرة معه، تنتمي عائشة إلى نفس مدرسة عمر بن الخطاب. فهي أيضاً كانت لها شخصية قوية، وتتميز بالانفعالات الحادة والجرأة على الرسولﷺ إلى درجة تجاوز حدود اللياقة بحضرته. بل إن عائشة في بعض الأحيان تجاوزت المدى فكانت تخاطبه بقدر كبير من الفجاجة والرعونة، وخصوصاً حين يكون مزاجها متوتراً بسبب محبة الرسولﷺ لغيرها من نسائه، إلى حد أنها قالت له مرة «ما أرى ربكَ إلاّ يسارعُ في هواكَ». وفيما يلي النص من صحيح البخاري:

عن عائشة «كنتُ أغارُ على اللاتي وهبنَ أنفسهن لرسول اللهﷺ. وأقول: أتهَبُ المرأة نفسَها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿**ترجي مَن تشاء منهن وتؤوي إليك مَن تشاء ومَن ابتغيتَ ممن عزلتَ فلا جناحَ عليك**﴾، قلتُ: ما أرى ربكَ إلاّ يُسارعُ في هواكَ»[1].

*****

وموضوع «غيرة» عائشة بحاجة إلى وقفة. فهناك الكثير من الروايات والأحاديث التي تتحدث عن غيرة عائشة، الشديدة والحادة، تجاه كل زوجاته الأخريات.

وقد وصلت غيرتها إلى حدود هائلة، كما تصورها الروايات، وبخاصة تجاه زينب بنت جحش ومارية وصفية[2].

---

(١) صحيح البخاري ج٦ باب قوله ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ص٢٤. وكذلك جاء في أسباب النزول للواحدي ص٢٤١. ومن الغريب لجوء البعض لتبرير مثل هذه الكلمات بالغيرة التي تشعر بها النساء! فلا يمكن لمسلم أن يجادل بأن كلمةً مثل هذه لا يجوز شرعاً أن تصدرَ بحق رسول اللهﷺ، مهما كانت الأسباب.

(٢) ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده ج٦ ص٢٧٧ أن أم المؤمنين صفية بنت حيي بعثت بإناء فيه طعام

وبالمقابل، لم ترد روايات تذكر تشير إلى غيرة بقية الزوجات منها.

وهذا يلقي ظلالاً من الشك حول الجمال الفائق الذي يُنسَب لعائشة، وحول حبّ النبيﷺ الشديد لها وتفضيلها على غيرها من الزوجات.

فإذا كانت ذات جمال باهر، وإذا كانت المفضّلة لدى النبيﷺ والأثيرة لديه، فلمَ تلكَ الغيرة الشديدة إذنً؟ فالمنطقي عندها أن تكونَ الغيرة منهن تجاهها، وليس العَكس.

*****

بل إن عائشة كانت أحياناً تتصرّف بنوعٍ من عدم اللباقة مع النبيﷺ، قد يصل إلى حدود غير مقبولة على الإطلاق. فمثلاً روى البخاري أنها كانت تفرد ساقيها عند سجود النبيﷺ:

«كنتُ أنامُ بين يدي رسول اللهﷺ، ورجلاي في قبلته.

فإذا سجدَ غمزني، فقبضتُ رجليّ. فإذا قامَ بسطتهما»[1].

روايات فضائل عائشة

وفضائل عائشة الشائعة معظمها كانت روايات روتها هي، أو ابن أختها عروة بن الزبير، أو غيرهما ممن عُرفوا بارتباطاتهم السياسية المشبوهة، من أمثال عمرو بن العاص.

ومن أهم فضائل عائشة هذا الحديث العجيب الذي يتحدّث عن الطعام والذي جاء في صحيح مسلم: أن رسول اللهﷺ قال: «فضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2].

للرسولﷺ فأخذت عائشة من شدة غيرتها قصعة الطعام ورمتها على الأرض! وأن الرسولﷺ غضب لذلك وأمر عائشة أن تكفر عن فعلتها بأن تعمل لصفية طعاماً في قصعة.

(١) صحيح البخاري ج١ ص١٠٧ باب الصلاة على الفراش.

(٢) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص ٩٢٦ وكذلك رواه البخاري حرفيا في باب فضل عائشة رضي الله عنها ج٥ ص٣٦

ويبدو أن الذي وضَعَ هذا الحديث ونسَبَه إلى النبيﷺ شخصٌ كان مغرماً بالأكل، حتى أنه لم يجد غير الثريد والطعام ليصفَ تميزاً مزعوماً لعائشة!

وأكّدت عائشة أن الملاك جبريل حرصَ على أن يسلّم عليها!

فقد جاء في صحيح مسلم أيضاً عن عائشة أنها قالت: «إن النبيﷺ قال لها: إن جبريل يقرأ عليكِ السلام. قالت: فقلتُ: وعليه السلام ورحمة الله»[1].

ولم تكتفِ عائشة بأن جبريل يقرأ عليها السلام، فزادت على ذلك بأن جبريل نزلَ على صورتها! فقد جاء في سنن الترمذي عن عائشة:

«أن جبرئيل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبيﷺ فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة»[2].

وفي هذا الحديث تشدد عائشة على أن الجنة مضمونةٌ لها بالذات من دون غيرها من أمهات المؤمنين اللاتي لم يَرِد ما يُشير إلى أنهنّ سيكنّ زوجات للنبي في الآخرة!

ومن المفيد أيضا النظر إلى هذا الحديث الذي رواه عمرو بن العاص وورد في صحيح مسلم:

«أن رسول الله بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أيّ الناس أحبّ إليك؟

قال: عائشة.

قلت: من الرجال؟

قال: أبوها.

قلت ثم مَن؟

قال: عمر.

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص٩٢٦.

(٢) سنن الترمذي باب من فضل عائشة ج٥ ص ٣٦٣ رقم ٣٩٦٧.

فعدّ رجالاً»[1].

وفي هذا الحديث يحاول ابن العاص، وهو مستشار معاوية وشريكه في كل حروبه الدموية ضد آل بيت النبيﷺ، أن يقول للمسلمين أن عائشة، التي شنت حرب الجمل ضد عليّ لخلعه من الخلافة، ومن قبلها أباها وعمر، الذين أزاحا علياً عن الخلافة لدى وفاة النبيﷺ، هم بالتأكيد أحبّ إلى قلب النبيﷺ من فاطمة وعليّ وحمزة وجعفر والحسن والحسين، دون أن يذكر سبباً لذلك التفضيل.

إدعاءات لعائشة بشأن الرسول

وتجدر الإشارة إلى أن عائشة روت سلسلة من الأحاديث التي فيها انتقاص من مقام النبوة ولا تليق أبداً بشخص الرسولﷺ ولا بتاريخه.

فمثلا جاء في صحيح مسلم «عن عائشة قالت: كان إحدانا، إذا كانت حائضاً، أمرها رسول اللهﷺ فتأتزر بإزار، ثم يباشرها»[2].

ولا يجوز تصديق ما تقوله عائشة، من أن الرسولﷺ، وهو في الخمسينات من عمره، تتملكه الشهوة ولا يستطيع صبراً.

ولا بد أيضا من الإشارة إلى ما قالته عائشة، وشاع بين الناس حتى أصبح من المسلمات، وهو أن رسول اللهﷺ قد تزوجها (خطبها) وهي ابنة ست سنين ودخلَ بها (بنى بها) وهي بنت تسعة[3]!

وهذا القول هو من أهم ما يستخدمه أعداء الإسلام والمشككين بنبوّة محمدﷺ في الطعن على رسول اللهﷺ واتهامه بالشهوانية والوحشية. هؤلاء يقولون: كيف يمكن لنبيّ مرسل من عند الله تعالى أن يدخل بطفلة عمرها تسع سنين؟ وما هو السبب الذي يدفعه إلى ذلك إن لم يكن عشق النساء والوله بهن؟!

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص٩٠٧.

(٢) صحيح مسلم كتاب الحيض باب مباشرة الحائض فوق الإزار ص١٢٤.

(٣) صحيح البخاري باب تزويج النبيﷺ عائشة ج٥ ص٧١.

بل إنه ربما يتعدّى ذلك إلى نوع من الشذوذ والهَوَس! خاصة مع التسليم أنه كان بإمكانه أن يختار مَن هي أكبر منها سِناً[1].

ومن المتفق عليه بين البشر أن زواج الرجل العجوز من الصبية اليافعة فيه ظلمٌ لها، وهو لا يمكن أن يتم في ظروف طبيعية. وإذا كان الناس يستنكرون هكذا سلوك من رجل عادي، فكيف يمكن للمسلم أن يقتنع بأن رسول الله صلى الله عليه وآله قد دخل بطفلة في التاسعة من عمرها، حتى على افتراض أنها كانت ناضجة من ناحية جسدية وفسيولوجية؟ من المسلّم به أن ذلك لا يليق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله على الإطلاق.

تفنيد المزاعم المشينة

لقد كانت روايات عائشة وما شاع بشأن علاقة الرسول صلى الله عليه وآله بها، مادة خصبة وذخيرة مهمة لحَمَلات التهجّم على شخص الرسول صلى الله عليه وآله من قبل بعض غير المؤمنين[2]، والتي تتهمه بالمَيل للنساء.

ولكن المؤكد أن الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن شهوانياً، والعياذ بالله. وهو لم يتزوج نساءه العشر إلاّ بعد أن أصبح في الخمسينات من عمره. ولا يمكن لرجلٍ قضى أولَ خمسين عاماً من عمره مع زوجة واحدة تكبره بخمسة عشر عاماً أن يتهم بأنه عاشقٌ للنساء. فلا يصدر هكذا اتهام إلاّ من مُتجَنٍ غير مُنصِف.

---

(١) والآن في مجتمع القرن الحادي والعشرين، لو شاع أن رجلاً عاديًا - وليس نبياً مرسلاً - في الخمسينات من عمره تزوج صبيّة دون العشرين من عمرها، لاستنكر معظم الناس ذلك ولاتهموه وأباها بالظلم والقسوة، ولطالبَ معظمُ الناس الرجلَ بأن يختار مَن تناسبه في العمر. وإذا كان الرجلُ العاديّ يأنف عن فعل كهذا، فهل يُعقل أن يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وهل يليق ذلك بمقامه؟ وما الذي يمكن أن يدفع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى تصرفٍ شاذٍ بكل المقاييس؟

(٢) وآخر هؤلاء الكارهين للنبي صلى الله عليه وآله رجلٌ أمريكي اسمه كريج ون قام بنشر كتاب في مطلع ٢٠٠٥، باللغة الانجليزية وموجه للعامّة من بني قومه، ملأه بالتهجم القبيح على شخص النبي صلى الله عليه وآله. وقد استغلّ رواية زواج النبي صلى الله عليه وآله من الطفلة عائشة بشكل خبيث حين ادّعى أنه ينقل من صحيح البخاري، لا غير، وترك للقارئ الأمريكي الحُكمَ على ذلك النبي المتوحش الذي يتزوج ابنة السادسة!

ولو تمّ استعراض زيجات الرسولﷺ العشر بالتفصيل لظهر جلياً أن كل هذه الزيجات كانت لها أهداف وأغراض نَبَوِيّة مُحددة مرتبطة بالدعوة والرسالة. ففي ظل المجتمع العربي الذي كان رسول اللهﷺ يعيش فيه، كان الزواج والمصاهرة وسيلة فعالة للتقريب بين الناس. واستخدم رسول اللهﷺ الزواجَ أسلوباً لإيصال رسائل، مما يفيد في نجاح دعوته. فهو كان يتزوج من بنات أصحابه لكي يوطّد علاقته بهم (عائشة، حفصة[1]) ومن بنات أعدائه لكي يتألّفهم (صفية بنت حيي بن أخطب، زعيم اليهود)، ويتزوج من أجل إنفاذ حكمٍ شرعي (زينب بنت جحش التي تزوجها لإبطال حكم التبني الشائع في الجاهليةِ)، ومن أجل تحمّل وتكفّل عائلات بعض أتباعه الذين توفّوا (سودة بنت زمعة[2]، وزينب بنت خزيمة[3])، ومن أجل إظهار حُسن النية تجاه الأمم الأخرى (مارية القبطية التي أرسلها له المقوقس)... وهكذا كل زيجاته. والوحيدة التي تزوجها رسول اللهﷺ دون أن تكون له مآرب وأهداف لنشر دعوته ودينه بين الناس، بل تزوجها بملئ إرادته من أجل الاستقرار وتكوين أسرة، كانت خديجة بنت خويلد، لأن ذلك حصل قبل بعثتهﷺ بخمسة عشر عاماً.

وأما بشأن زواجهﷺ من عائشة وهي بنت ست أو تسع سنين، فبالإضافة إلى فساد هذا الخبر وبطلانه من ناحية منطقية ودينية، فبالإمكان أيضاً تفنيده بالاستناد إلى روايات أخرى من السيرة النبوية. فقد ذكر ابن هشام[4] أسماء الأشخاص الذين كانوا أول مَن آمن بنبوّة محمدﷺ لدى بدء دعوته في مكة. وذكر كلاً من أسماء

---

(١) وقد اعترف عمر بن الخطاب أن النبيﷺ لم يكن يحب ابنته وأنه كان يمسكها مراعاةً لخاطر عمر. فقد قال لابنته حفصة «والله لقد علمت أن رسول اللهﷺ لا يحبكِ، ولولا أنا لطلقكِ» كما ورد في صحيح مسلم باب في الإيلاء واعتزال النساء ص٥٤٧.

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره أن الرسولﷺ تزوج سودة بنت زمعة العامرية بعد أن توفّي زوجها وابن عمها المؤمن (السكران بن عمرو) إثر عودتهما من الحبشة.

(٣) ذكر المباركفوري في سيرة رسول اللهﷺ الرحيق المختوم ص٥٤١ أنها كانت زوجة لعبد الله بن جحش الذي استشهد يوم أحد، فتزوجها رسول اللهﷺ.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٨٦.

وعائشة بنتيّ أبي بكر من ضمن أول ٢٠ شخصاً آمنوا برسول الله‌صلى الله عليه وآله بتأثير من أبيهما. وأضاف ابن هشام عن عائشة (وكانت يومئذ صغيرة). وعلى افتراض أن عائشة كان عمرها أربع أو خمس سنوات فقط (لكي يمكن اعتبارها أسلمت)، وبتقدير أن ذلك حدث في السنة الثانية أو الثالثة للبعثة، فسوف يتضح أن عائشة كان عمرها عندما تزوجها الرسول‌صلى الله عليه وآله ما بين ١٧ إلى ١٨ عاماً على أقل تقدير! فرسول الله‌صلى الله عليه وآله تزوجها في شهر شوال من السنة الثانية للهجرة بعد وقعة بدر[١].

ويمكن تخمين السبب الذي جعل عائشة تروّج لتلك المقولة. فهي ببساطة كان يهمها إثبات ميزة إضافية لها لا تمتلكها غيرها من زوجات الرسول‌صلى الله عليه وآله ولا حتى غيرها من نساء العالمين! ولم تدرك عائشة مدى الأثر السلبي الذي تتركه قصتها هذه على سمعة رسول الله‌صلى الله عليه وآله لدى قادم الأجيال.

عائشة وعليّ

لقد كانت المشاعر غير الودية التي تكنّها عائشة لآل الرسول‌صلى الله عليه وآله، ممثلين بخديجة وفاطمة وعلي وذرّيتهم خاصّة، هي أهم ما يميز عائشة عن غيرها من نساء النبي‌صلى الله عليه وآله، والذي جعلها أثيرةً لدى بني أمية.

فرغم أن عائشة كانت حتماً تدرك مدى حب الرسول‌صلى الله عليه وآله لعليّ،والخصال المجتمعة فيه، إلاّ أنها كان لها موقف سلبي دائم منه. وجزء من هذا الموقف يرجع إلى رغبتها في إبراز فضائل أبيها لتبرير خلافته للرسول‌صلى الله عليه وآله. وكانت تعرف أن لعليّ فضائلَ لا تتوفّر عند أبيها، رغم إيمانه. وذلك كان يضايقها ويزعجها.

ولا شكّ أنّ موقف عليّ بن أبي طالب منها لمّا حصلت حادثة الإفك لم يُمحَ من ذاكرتها أيضا. فقد روى البخاري أن رسول الله‌صلى الله عليه وآله لما كثر كلام الناس وإشاعاتهم وشبهاتهم حول عائشة وشرفها، كان متضايقاً جداً من الأمر إلى حد أنه أرسل عائشة إلى بيت أبيها إلى أن يأتيه الوحي بشأنها. وخلال ذلك استشار علياً

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٢٧.

حولها فقال له «يا رسول الله! لم يضيّق الله عليك. والنساء سواها كثير»[1].

وبلغت قتامة نظرتها لعليّ إلى درجة أنها لا تطيق مجرّد ذكر اسمه. فمثلا جاء في صحيح البخاري:

«أن عائشة زوج النبيﷺ قالت لمّا ثقل رسول الله واشتدّ به وجعه استأذن أزواجه أن يمرّض في بيتي فأذنّ له. فخرج وهو بين رجلين تخطّ رجلاه في الأرض بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر.

قال عبيد الله فأخبرت عبد الله بالذي قالت عائشة.

فقال لي عبد الله بن عباس: هل تدري مَن الرجل الآخر الذي لم تسَمّ عائشة؟

قال قلت لا.

قال ابن عباس هو علي»[2].

فحتى اسم عليّ لا تريد أن تتلفّظ به أم المؤمنين! وفي رواية الطبري لهذه الحادثة زيادة عن ابن عباس أنه قال»ولكنها كانت لا تقدر على أن تذكره بخير»[3].

واللافت في حديث البخاري هذا أنه يظهر أن عائشة كانت متعمّدة، ولم يحصل ذلك من قبيل السهو.

عائشة تساعد أباها

وقد لعبت عائشة دوراً في مساعدة أبيها، ومَن حوله من المهاجرين القرشيين، في الوصول إلى سدّة الحكم، على حساب علي بن أبي طالب بالذات. فعلى الأرجح كانت عائشة وحفصة هما المصدر الذي أبلغ عمر بن الخطاب ومَن معه بأن الرسولﷺ على وشك كتابة وصيته، فحضر وأثار اللغط حتى حال دون النبيﷺ وبين كتابة وصيته في يوم الخميس.

---

(١) صحيح البخاري ج٥ باب حديث الإفك ص١٥١.

(٢) صحيح البخاري باب مرض النبي ووفاته ج٦ ص ١٤.

(٣) تاريخ الطبري ج٢ ص٤٣٢.

وأيضاً:

«ذكر ابن أبي الحديد عن شيخه أن علياً كان يتهم أم المؤمنين عائشة أنها هي التي أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمر أبا بكر بالصلاة، وأن الرسول لم يعيّن أحداً للصلاة، وأن تلك الصلاة كانت صلاة الصبح ولما أفاق الرسول وانتبه إلى ذلك، خرج في آخر رمق يتهادى بين عليّ والفضل بن العباس حتى قام في المحراب وصلى ثم رجع إلى بيته ومات في ارتفاع الضحى. وأن علياً كان يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ويقول: إن النبي لم يقل «إنكن صويحبات يوسف» إلاّ إنكاراً لهذه الحال وغضَباً منها. لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما، واستدركه النبي بخروجه وصرف أبي بكر عن المحراب»[1].

وكانت عائشة هي التي نشرت بين الناس الحديث النبوي الذي رواه البخاري والذي ينسب فيه إلى النبيﷺ قوله وهو مريض «مروا أبا بكر فليصلّ بالناس»[2].

وروت عائشة ما يفيد أن رسول اللهﷺ كان يحب أباها ورفيقيه في اجتماع السقيفة أكثر من كل الآخرين من أصحابه:

«عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة: أيّ أصحاب رسول اللهﷺ كان أحبّ إليه؟

قالت: أبو بكر.

قلت: ثم مَن؟

قالت: ثم عمر.

---

(١) نقلا عن كتاب مرتضى العسكري «أحاديث أم المؤمنين عائشة»ج٢ ص١٩٧.

(٢) روى البخاري في ج٤ ص١٦٩ ان النبيﷺ قال «مُروا أبا بكر فليصلّ بالناس. فقيل له ان أبا بكر رجلٌ أسيف إذا قام في مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له فأعاد الثالثة فقال: إنكنّ صواحب يوسف». وقريبٌ من ذلك ورد في سنن الدارمي ج١ ص٣٩.

وهذا الحديث استند إليه الكثير جداً من المسلمين المتأخرين في محاولة إثبات أن النبيﷺ كان يرغب في أن يخلفه أبو بكر. ولكن الملاحظ أن المهاجرين القرشيين في محاجتهم للأنصار يوم السقيفة، لم يشيروا إلى واقعة صلاة أبي بكر بالناس هذه، رغم أنهم كانوا محتاجين إلى كل ما من شأنه أن يدعم حجتهم في ذلك الظرف.

قلت: ثم مَن؟

قالت: أبو عبيدة بن الجراح.

قلت: ثم مَن؟

فَسكَتَت»[1].

عائشة ومعاوية

كان معاوية يقدّر عالياً الدورَ الذي لعبته عائشة في الصراع ضد عليّ، وخاصة في مراحله الأولى. فموقف عائشة كان هدية إليهة له. فهي التي أشعلت فتيل أول حربٍ أهلية بإعلانها الحرب على الخليفة عليّ، قبل معاوية! فإذا كانت زوجة الرسولﷺ، وابنة الخليفة الأول، تشهر السيف في وجه عليّ، فبمَ يختلف معاوية عنها؟ هو ببساطة يتابع دربها ويقتدي بنهجها! بل إن معاوية قد أضاف سبباً آخر لاستعماله في الأغراض الدعائية: الانتقام لكرامة أم المؤمنين التي أهدرها عليّ يوم الجمل!

وقد ذكر ابن عساكر[2] أن معاوية طلب من عائشة ـ أثناء صراعه مع عليّ ـ أن تكتبَ له. فقالت لمندوبه إن النبيﷺ قال لعثمان «يا عثمان: إن الله عسى أن يلبسكَ قميصاً، فإن أرادكَ المنافقون على خلعه فلا تخلعه، حتى تلقاني يا عثمان... ثلاثاً» وأنها ذكرت ذلك بعد أن كانت نسيته! فطلب معاوية منها أن تكتب له بذلك، فكتبت!

وإذا كان من الممكن القول أن عائشة عندما أعلنت تمردها على عليّ وأشعلت حرب الجمل لم تكن آنذاك تسعى لخدمة شخص معاوية أو تهدف إلى جعله خليفة، إلاّ أن سيرة أم المؤمنين أثناء خلافة معاوية تثبت أنها قد توصلت إلى تفاهم معه بحيث تتمتع بوضع مميز، ومقام رفيع، وتحاط بالتوقير البالغ والاحترام في دولة معاوية، في مقابل قبولها ودعمها المعنوي له، وسكوتها عن انحرافاته

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٥ ص٤٧٠. وكذلك سنن الترمذي ج٥ ص٣١٧.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص٢٧٩.

الكثيرة عن مبادئ الإسلام النبوي. فلم يُروَ أبداً أن عائشة غضبت أو اعترضت على تولي معاوية، وهو من الطلقاء، المنصب الأعلى في دولة الإسلام، غَصباً وقهراً. لم تدعُ عائشة المسلمين إلى معارضة معاوية، ولم تطالب بخلعه، ولم تحشد الجيوش ضده.

وقد روى الذهبي[1] أن معاوية في فترة خلافته كان يُغدق الأموالَ على عائشة! فمثلاً هو أعطاها قلادة ثمينة جداً ب ١٠٠ ألف درهم، ومرة بعثَ لها ب ١٠٠ ألف درهم، ومرة قضى عنها ١٨ ألف درهم.

ولم تتغير نظرة عائشة لآل البيت بعد وفاة عليّ. ففي عام ٤٩ للهجرة، توفي الحسن بن علي في المدينة، فأراد أخوه الحسين ومعه بنو هاشم أن يدفنوه قرب قبر جدّه رسول الله ﷺ. ولكن عائشة رفضت ذلك بشدة، وهاجت وماجت، حتى خرجت فركبت بغلة شهباء، وخرج معها الولاة الأمويون، مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، فواجهوا الحسينَ وبني هاشم ومنعوهم من ذلك، بعد أن كادت تنشب الفتنة[2].

استنتاج

حرصت الحكومات الأموية المتعاقبة، ابتداء من معاوية بن أبي سفيان، على استغلال ذلك الدور المحوري الذي لعبته عائشة في أول فتنة واقتتال داخليّ وحرب أهلية في الإسلام، وهي حرب الجمل، والتي شنتها وقادتها عائشة، دون غيرها من زوجات النبي ﷺ، ضد عليّ بن أبي طالب. وبسبب هذا الدور الذي لعبته في حرب عليّ والطعن فيه وتأليب المسلمين ضدّه نالت عائشة نصيباً وافراً من محبة بني أمية وأتباعهم.

فقامت الماكينة الدعائية الأموية، كجزء من حملتها الفظيعة الموجهة ضد علي بن أبي طالب، بمحاولة تضخيم وتعظيم مكانة ومنزلة السيدة عائشة لدى عامة

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج٢ ص١٨٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٢٥.

المسلمين، ورفع ذكرها والدعاية لها عن طريق اختراع مناقب وخصال لها.

وكان الهدف الأموي من وراء ذلك هو الإساءة إلى علي بن أبي طالب عن طريق محاولة القول لعامة المسلمين أن الذين حاربوه وعادوه لا يقلون عنه قيمة في الإسلام، إن لم يفوقوه في الفضل. وهدفوا أيضاً إلى التشكيك بشرعية خلافة علي بن أبي طالب وكل مواقفه. وحرص معاوية والأمويون على إبراز «وحدة الحال «بينهم وبين عائشة في الموقف تجاه علي بن أبي طالب: فهم حاربوه في صفين، كما حاربته هي من قبلهم في البصرة، فلا يجوز للمسلم أن ينتقدهم على ذلك أو يلومهم أو يطعن بهم لأنه إن فعل ذلك سيطعن في أم المؤمنين أيضاً، لأن الكل سواء! فهم ضمّوا أم المؤمنين إلى معسكرهم، برضاها أو بدون رضاها، وبنوا سياستهم الإعلامية على ذلك الأساس، ونجحوا فيها إلى حد كبير.

نظرية عدالة كل الصحابة[1]

الأساس الذي استند إليه مروّجو النظرية

شرح ابن حبان أسباب عدالة كل الصحابة على النحو التالي:

«إن الله عز وجل نزّه أقدار أصحاب رسوله عن ثلب قادح، وصان أقدارهم عن وقيعة متنقص، وجعلهم كالنجوم يقتدى بهم.

وقد قال الله جل وعلا: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين﴾ ثم قال ﴿يوم لا يخزي الله النبيَ والذين آمنوا معه﴾.

فمَن أخبر الله أنه لا يخزيه يوم القيامة فقد شهد له باتباعه ملة إبراهيم حنيفاً، لا يجوز أن يُجرّح بالكذب...

وأما مَن شهد التنزيل وصحب الرسولﷺ، فالثلب لهم غير حلال، والقدح فيهم ضد الإيمان، والتنقيص لأحدهم نفس النفاق، لأنهم خير الناس قرناً بعد رسول اللهﷺ بحكم مَن لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى صلى الله عليه وسلم.

وإن مَن تولّى رسولُ اللهﷺ إيداعَهم ما ولاّه الله بيانه الناس، لبالحريّ من أن لا يُجرّح، لأن رسول اللهﷺ لم يودِع أصحابَه الرسالة وأمرهم أن يبلغ الشاهد الغائب، إلاّ وهم عنده صادقون جائزو الشهادة، ولو لم يكونوا كذلك لم يأمرهم بتبليغ من بعدهم ما شهدوا منه. ولو كان كذلك لكان فيه قدحاً في الرسالة. وكفى بمن عدّله رسول اللهﷺ شرفاً.

.... إذ صانَ الله عز وجل أقدارَ الصحابة عن البدع والضلال»[2].

---

(١) للمحامي الأردني أحمد حسين يعقوب كتابٌ تام بعنوان «نظرية عدالة الصحابة».

(٢) كتاب «المجروحين» لابن حبان ج١ ص٣٤.

وبالإضافة إلى ما قاله ابن حبان أعلاه، يستند آخرون إلى قول رسول الله ﷺ «لا تسبّوا أحداً من أصحابي، فإن أحَدكم لو أنفق مثل أحُدٍ ذهباً، ما أدركَ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[1].

كما يستندون إلى قوله تعالى ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾[2].

مَن هو الصحابي؟

وبعد أن تم إعطاؤها بُعداً نفسياً عظيماً، جرى توسيعٌ فظيع لمعنى كلمة صحابي، حتى أصبحت تشمل الكل: الصالح والطالح، المؤمن والمنافق، السبّاق في الإيمان والداخل في الإسلام خوفاً!

فمثلاً جاء في مقدمة كتاب الإصابة لابن حجر «أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابة على كل مَن روى عنه حديث أو الكلمة، ويتوسعون حتى يعدّ مَن رآه رؤيةً من الصحابة. وهذا لشرف منزلة النبي صلى الله عليه وسلم، أعطوا كل مَن رآه حكم الصحابة.

... وقال السيوطي في (تدريب الراوي): والأصح في تعريف الصحابي: مَن لقي النبي في حياته مسلماً ومات على إسلامه»[3].

وهذا التعريف العام والواسع جداً وضع كردٍ على المحاولات العقلانية التي بذلها البعض لوضع شروط على تعريف الصحابي، مثلاً كاشتراط أن تكون مدة ملازمته للرسول ﷺ سنةً أو اثنتين، أو أن يكون قد شارك ببعض الغزوات، وما شابه ذلك من شروط منطقية تخفف من الغلواء والشطط الذين يتضمنهما ذلك التعريف الواسع جدا. ولكنّ تلك المحاولات باءت بالفشل وانتصر هذا التعريف

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ص ٩٥٨.

(٢) سورة الفتح، آية ١٨.

(٣) مقدمة كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني ص٧.

المشبوه الذي أدى إلى أعتبار البعض من أشرس أعداء الرسولﷺ، ممن أسلموا كرهاً ونفاقاً، صحابة أجلاّء و«رضي الله عنهم»!

وقد ذكر ابن الأثير[1] آراءَ بعض مَن سبقوه:

«قال أحمد بن حنبل: أصحاب رسول اللهﷺ كلّ مَن صَحِبه شهراً أو يوماً أو ساعةً أو رآه.

وقال محمد بن اسماعيل البخاري: مَن صَحِبَ رسولَ اللهﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه».

فحسب هذا التعريف، ينال شرف الصحبة ويكون صحابياً مَن تحقق عنده شرطان:

- من التقى بالنبيﷺ، سواء كان هذا الالتقاء عن طريق المجالسة أو المحادثة أو المشاهدة. ومَن شاهدَ النبيﷺ أو شاهده النبيﷺ فهو صحابي.

وعمّم البعض أكثر فاعتبروا أنه حتى الأطفال والرضع من الصحابة، لأن المشاهدة لا تنسب لهم، إنما تنسب للنبيﷺ نفسه. وقد كان النبيﷺ يؤتى بالأطفال والمواليد الجدد ليحنكهم ويباركهم.

- مَن كان مؤمناً بالنبيﷺ أنه نبيّ.

مفارقات بسبب هذا التعريف العجيب

ولما كان التأكّد من إيمان المرء أمراً خارجاً عن قدرة البشر، أصبح بالتالي المعنى الفعلي للصحابي هو: (مَن كان مسلماً أو متظاهراً بالإسلام)!

فمن الممكن إذن اعتبار المنافقين، دون أن يقصد مروّجو النظرية ذلك، ممن يشملهم هذا التعريف للصحابة، لأن أغلبيتهم الساحقة ليسوا معروفين للناس بأسمائهم، إلاّ قلّة مشهورة منهم[2].

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج١ ص١٢.

(٢) عدّد ابن اسحق في سيرة ابن هشام ج٢ ص١٤٠ـ١٤٨ أسماء ٢٩ رجلاً من المنافقين من أهل يثرب. وهذا عدد قليل جداً بالقياس إلى مدى انتشار ظاهرة النفاق والمنافقين كما عبر عنها القرآن مراراً. وهؤلاء الذين سمّاهم ابن

وكانوا يُظهرون الإسلام. وكانوا يُجالسون النبيﷺ ويسيرون معه.

وقد كان رسول اللهﷺ يطلق كلمة «صحابي» على كل مَن كان معه، مؤمناً كان أم منافقاً، بشرط أن يكون مُظهراً الإسلام. والدليل على ذلك من صحيح البخاري:

»...وقال عبد الله بن أبي بن سلول: أقد تداعوا علينا! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث عبد الله؟

فقال النبي: لا يتحدّث الناس أنه كان يقتل أصحابه»[1].

فالنبيّﷺ لم يكن يعنى بالبواطن، إنما يكلها إلى الله.

وفيما يلي رواية أخرى للواقدي توضح بلا لبس كيف كان تعريف الصحابي بنظر رسول اللهﷺ: فأثناء عودته من تبوك تآمر عليه مجموعة من المنافقين ليقتلوه غدراً. ولما علم أسيد بن الحضير بذلك اقترح عليه أن يقتل هؤلاء، فرفض وقال له «إني أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه!

فقال: يا رسول الله: فهؤلاء ليسوا بأصحاب!

قال رسول اللهﷺ: أليسوا يُظهرون شهادة أن لا إله إلاّ الله؟

قال: بلى. ولا شهادة لهم.

قال: أليس يُظهرون أني رسول الله؟

قال: بلى. ولا شهادة لهم.

قال: فقد نُهيتُ عن قتل أولئك»[2].

اسحق كانوا هم الذين انفضح نفاقهم ونزلت فيهم آيات في مناسبات مشهورة. وهو قال عن بعضهم إنه تاب. وأما أضعافهم ممن أضمروا النفاق فلم يكن له من سبيل ليعرفهم.

(١) صحيح البخاري باب ما ينهى من دعوة الجاهلية ج٤ص ٢٢٣.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج٣ ١٠٤٤.

وباختصار، لا يشترط في الشخص حتى يعدّ صحابياً أن يكون مؤمناً حقيقة بالنبيﷺ، بل يكفي أن يتظاهر بالإيمان، وأن يموت على هذا الإيمان، أو التظاهر بالإيمان!

وقد أسفرت جهود الرسولﷺ عن إقامة دولة الإسلام التي تزعمها حوالي العشر سنوات في المدينة المنورة، بايعه في نهايتها كل شعب الجزيرة العربية، وشهدوا معه فتح مكة وحجة الوداع. وقبيل وفاة الرسولﷺ كان دين الإسلام قد ساد كل أنحاء جزيرة العرب، فما مات رسول اللهﷺ وأحدٌ يظهر الكفر فيها.

وفي دولة الرسولﷺ أزيلت الفوارق تماما بين الحاكم والمحكوم. فكانﷺ يمشي في الطريق وحده، ويقضي حاجاته بنفسه، وكان بإمكان أيّ كان أن يراه ويتحدّث معه ويحضر مجلسه. فكلّ الناس في دولة الرسولﷺ هم صحابة بهذا المعنى.

وهكذا فإن عبد الله بن سعد بن أبي السرح، الذي كان يكتب للنبيﷺ في مكة ثم ارتدّ وافترى على الله الكذب، وأباح الرسولﷺ دمه ولو تعلّق بأستار الكعبة، ولم ينقذه من الموت سوى شفاعة عثمان له وإلحاحه الشديد على النبيﷺ إلى حد الإحراج، هو صحابي!

والحكم بن أبي العاص، عدو رسول اللهﷺ اللدود، وطريده الذي حرّم عليه دخول المدينة المنورة، وبقي منفياً إلى أن ردّه عثمان أيام خلافته، هو أيضا صحابي!

وأبو سفيان بن حرب، رأس الأحزاب وإمام الكفر، الذي لم يدخل الإسلام إلاّ مجبراً يوم الفتح، هو صحابيّ جليل!

وهند بنت عتبة، آكلة كبد حمزة، هي أيضاً صحابية محترمة!

ويوجد في مسند الإمام أحمد بابٌ مستقل بعنوان «حديث بسر بن أرطاة رضي الله عنه»[1]! ومعروفة سيرة بسرٍ هذا في استباحته مدينة الرسولﷺ بأمرِ معاوية، وقتله الأنصار فيها.

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٤ ص١٨١.

المضمون الحقيقي لنظرية عدالة كل الصحابة

جاء في مقدمة كتاب الإصابة لابن حجر«للصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - خصيصة، وهي أنه لا يُسأل عن عدالة أحد منهم. وذلك أمرٌ مسلمٌ به عند كافة العلماء. لكونهم على الإطلاق مُعَدلين بنصوص الشرع من الكتاب والسنة، وإجماع مَن يُعتد به في الإجماع من الأمة»[١].

وقال ابن الأثير في مقدمة كتابه أسد الغابة عن الصحابة «فإنهم كلهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح، لأن الله عز وجل ورسوله زكياهم وعدّلاهم، وذلك مشهور...»[٢].

تعني فكرة عدالة الصحابة، أن من انطبق عليه التعريف المذكور أعلاه، لا يجوز عليه الكذب والتزوير، ولا يجوز تجريحه مهما فعل. فالعدل لا يتعمّد الكذب، وقوله حجّة ولا يجوز إساءة الظن به. والصحابة كلهم في الجنة ولا يدخل أحدٌ منهم النار أبداً.

«وإذا رأيتَ الرجلَ ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق. والذين ينقصون أحداً على الإطلاق من أصحاب رسول الله ﷺ هم زنادقة».

«ومَن عابَهم أو انتقصهم فلا تواكلوه ولا تشاربوه ولا تصلّوا عليه»[٣].

وحسب التعريف المذكور أعلاه، تكون كل الطبقة الأولى من الأمويين، وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب والحكم بن أبي العاص وأولادهما، والمغيرة بن شعبة، الذي كان يسبّ الإمامَ عليّ علناً على المنبر، وعدد كبيرمن الذين اتبعوا معاوية وسايروه طوال عشرات السنين من حكمه والذين ارتكبوا عشرات الجرائم الشنيعة وقتلوا آلاف الناس وفعلوا المنكرات، كل هؤلاء صحابة كرام، وعدول، ومروياتهم من الصحاح ينبغي قبولها ولا يجوز ردّها.

---

(١) مقدمة كتاب الإصابة لابن حجر ص١٧.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج١ ص٣.

(٣) من كتاب «نظرية عدالة الصحابة» لأحمد حسين يعقوب ص٢١، نقلا عن كتاب الكبائر للذهبي.

كل ذلك بحجة أن رسول الله ﷺ يُنسَبُ إليه قول «أصحابي كالنجوم بأيهم اقديتم اهتديتم»[1].

وهكذا بقدرة قادر أصبح المؤمنون الأولون بنبوّة محمد ﷺ، كخديجة وعليّ وزيد وأبي بكر، متساوين مع أمثال صفوان بن أمية وعيينة بن حصن وغيرهم من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم! وصار سيد الشهداء، حمزة بن عبد المطلب مثل قاتله الغادر وحشي! وصار علي بن أبي طالب الذي قاتل مع الإسلام كل معاركه، تماما كأبي سفيان ومعاوية الذين قادا كل الحروب ضد النبي ﷺ! وغدا عمار بن ياسر، الذي كان يُعَذب بالنار على رمضاء مكة، مثله مثل سهيل بن عمرو الذي أصرّ على حذف عبارة «محمد رسول الله» من بنود صلح الحديبية! وصار سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة والأنصار الأولون الذين استجابوا لرسول الله ﷺ أيام ضعفه وهوانه في مكة، تماماً كمن جاء ضمن وفود القبائل العربية لإعلان الطاعة للنبي ﷺ في السنة العاشرة للهجرة!

فكل أولئك «مسلمون» وكلهم رأوا الرسول ﷺ، وبالتالي كلهم ذاهبون معاً إلى الجنة، وعلى المؤمن أن يقتدي بهم كلهم، وأن يترضّى عليهم!

«وكذلك الإمام الطحاوي، في عقيدته المشهورة التي أجمعَ علماء المذاهب على صحّتها ووجوب اعتقادها على كل مسلم، جعلَ حبّ الصحابة إيماناً، وبغضهم كفراً. فقال: ونحبّ أصحابَ رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونبغض مَن يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلاّ بالخير، وحبّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيان»[2].

فالبراءة من معاوية ومَن على شاكلته، ستدخل المسلمَ إذن في ظلمات الكفر والنفاق، حسب الإمام الطحاوي!

---

(١) وقد اعترف شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو المتخصص في إعلاء شأن الصحابة وفي نقض فضائل علي بن أبي طالب، بأن هذا الحديث لا حجيّة فيه. فقد قال عنه«... فهذا الحديث ضعيف، ضعفه أهل الحديث، قال البزار: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة...»ورد ذلك في مختصر منهاج السنة ج٢ ص٢٦٥.

(٢) من كتاب «أقباسٌ من مناقب أبي هريرة» ص٢٤ نقلاً عن شرح العقيدة الطحاوية.

المآرب الأموية من ابتداع نظرية عدالة كل الصحابة

١ – تبرير اغتصاب السلطة وبشاعة أفعال معاوية: فمعاوية طليقٌ وابن طليق، ومن المؤلفة قلوبهم. وقد اغتصب السلطة وأصبح ملكاً على دولة الإسلام، ورسمياً هو الخليفة لرسول الله ﷺ. وهذا غيرمعقول! ولا يُصدّق! وبكل الموازين العقلية والشرعية الإلهية والوضعية. فأبوه هو رأس الأحزاب ومرجعية الشرك في كل معاركه ضد الإسلام. وقاومَ أبو سفيان وبنوه ومَن شايعهم الإسلامَ ونبيّه بكل فنون المقاومة حتى أحيط بهم فأسلموا. وها هو ابنه معاوية يتقدم على كل السابقين له، والذين قام مجد الإسلام على أكتافهم.

وقد أنزل معاوية وحزبُه أعظمَ النكباتِ بروحية دين الإسلام ورسالة العدالة التي جاء بها محمد ﷺ. وبلغت الجرائم التي ارتكبت على يديه حداً عظيماً[1]. ووصلت إلى قتل الأطفال كما فعل بسر بن أرطأة، واستبيحت المدينة المنورة في وقعة الحرّة[2] أيام يزيد بن معاوية، وقتل فيها مَن بقي ممن جاهدوا مع النبي ﷺ وأبناء السباقين للإسلام من أنصار الرسول ﷺ. ناهيك عن حروب معاوية ضد الإمام علي، وعن مذبحة كربلاء الرهيبة ومحاولة استئصال العائلة النبوية عن بكرة أبيها. وحتى الكعبة المشرفة لم تسلم منهم: فدكّوها بالمنجنيق مرتين أثناء حربهم ضد ابن الزبير وحصارهم له في مكة: مرة على يد يزيد بن معاوية[3]، ومن بعده على يد عبد الملك بن مروان[4]! وصار الظلم والقهر سياسة للدولة[5].

كل هذه الأهوال حصلت على يد قوم يُعلنون الإسلام، وهم الآن يتزعّمون دولته ويقومون بخلافة رسوله، فكيف يمكن تبرير ذلك؟

---

(١) يمكن مراجعة تفاصيل الممارسات الأموية في «النزاع والتخاصم» للمقريزي، على سبيل المثال.

(٢) ورد في سنن الدارمي ج١ ص٤٤ أنه «لم يؤذن في مسجد النبي ﷺ ثلاثاً، ولم يُقم» أثناء مذبحة الحرة.

(٣) ورد في تاريخ خليفة بن خياط ص١٩٣ تفاصيل حرق الكعبة على يد جيش يزيد.

(٤) ورد في السنن الكبرى للبيهقي ج٣ ص١٢٢ أن جيش عبد الملك بقيادة الحجاج قد نصب ٤٠ منجنيقاً على الكعبة.

(٥) وصف ابن خلدون في تاريخه ج٣ ص٨ سياسة والي معاوية في العراق، زياد بن أبيه، على النحو التالي «كان أول مَن شدّدَ أمر السلطان، وشيّدَ المُلكَ. فجردَ السيفَ وأخذ بالظنة وعاقبَ على الشبهة».

أفضل وسيلة على الإطلاق يمكن لمعاوية أن يلجأ إليها هي بلا شك هذه النظرية العجيبة التي تتحدّث عن عدالة كل الصحابة، مع تضخيم وتشويه معنى الصحابي في ذات الوقت.

فمعاوية وحزبه هم «صحابة» بالمعنى اللغوي والتقني، وبما أن كل الصحابة عدول، وكلهم في الجنة، ولن يدخل النار منهم أحد، فلا يوجد ما يمنع أن يكون معاوية هو الخليفة ووليّ أمر المسلمين! فهذا الثوب الفضفاض لنظرية العدالة، هو المبرر الأمثل لحكم وسلطان معاوية واغتصابه للسلطة.

وطالما أن معاوية وحزبه عدولٌ وفي الجنة، فهم بالتالي مأجورون على أعمالهم! ولولا ذلك لما قال النبيﷺ أن الصحابة كلهم نجومٌ يهتدي بهم المسلمون، كما أشاعوا.

وبالتالي فإن معاوية، كصحابيّ، هو مجتهدٌ ومأجور. ومعاوية إذن على الحق في حربه وسلمه، في هجومه ودفاعه، أخذه وعطائه، لأنه صحابي!

٢ – التحصّن ضد النقد، ومقارعة خصوم معاوية: فهذه النظرية تمنح معاوية حصانة ضد أي نقد، ولو كان بناءً، والحصانة ضد ذمّه والانتقاص من قدره، لأنه صحابي ومن العدول! فلا يجوز للمسلم أن يقدح في هذا «الصحابي» الذي صار رئيس الدولة وخليفة رسول اللهﷺ؟ فمَن يفعل ذلك ستعتبره المؤسسة الرسمية زنديقاً! وليس في الدنيا خطة يمكن أن تحصّن معاوية مثل نظرية عدالة كل الصحابة. فالنظرية تؤمّن لمعاوية دفاعاً وحجّة في أي مقارعة بينه وبين خصومه، أو على الأقل المساواة بينه وبين هؤلاء الخصوم.

فلو قال عليّ وآل بيت النبيﷺ إنهم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأن الإسلام قام على أكتافهم ومعهم الأنصار الأولون السباقون، لانبرى معاوية وحزبه إلى الرد الفوري عليهم: نحن أيضاً من أصحاب محمدﷺ ونحن عدولٌ ولا يجوز علينا الكذب لأننا في الجنة ولا ندخل النار!

ولو قال عليّ وآل البيت: مَن عادانا فقد عادى الله ورسوله، يردّ معاوية وحزبه:

ونحن صحابة أيضاً وقال فينا النبيﷺ «مَن آذى صحابياً فقد آذاني».... الخ، ويختلط الحق بالباطل والمحسن بالمسيء...

وهناك خبثٌ في الموضوع! فنجاح معاوية وحزبُه بتأصيل هذه النظرية بثوبها الفضفاض وإشاعتها بين المسلمين، تكون نتيجته أن الذين يريدون، أو يقصدون، تأييد صحابة رسول اللهﷺ الحقيقيين الأبرار، سينتهي بهم المطاف، دون قصدٍ منهم، إلى الدفاع عن معاوية!

والعكس! فالذين يقصدون تعرية معاوية والحزب الأموي، وألاعيبهم وانحرافهم، سيجدون أنفسهم قد وُضعوا، أو صنّفوا، ضمن مَن يعادي صحابة رسول اللهﷺ!

ومعاوية هو المستفيد على الحالتين!

٣ - وهناك هدفٌ أكثر أهمية وأطول أثراً. وهو خلق مرجعية دينية لعامة المسلمين، تعطي شرعية لما جرى تاريخياً. والمقصود هو جعل الصحابة كلهم، مراجع الإسلام من بعد النبيﷺ. وهكذا يصبح علي بن أبي طالب، وآل بيت النبوة، في أحسن التقديرات، مجرد بضعة عشر صحابياً من جملة عشرات الآلاف من الصحابة. ولن يكون هناك أي تميز أو اعتبار خاص لهم. وعلى المسلمين أن يرجعوا إلى أي صحابيَ كان، من أجل معرفة أحكام الدين وسنة النبيﷺ. وقد حرصت الحكومات الأموية والعباسية المتعاقبة على اعتماد منهاج تربويّ وتعليميّ عام يؤكد على أن الصحابة أجمعين، والخلفاءَ وأولياءهم، ومَن سار على دربهم، هم المهتدون، وهم الفرقة الناجية، وهم أهل الوفاق والاتفاق، وأن مَن سواهم شُذاذ، ومذاهبهم مبتدعة ولا أصل لها في الدين. والمشكلة أن الترجمة العملية لمرجعية الصحابة أجمعين، هي أن مجموعة معينة من الصحابة الذين طال بهم العمر، أو كانوا صغاراً جداً في عهد النبيﷺ، هم الذين سيصبحون ـ حصرياً ـ القدوة والمفتين لعموم المسلمين. فأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وأنس بن مالك هم الذين سيصعدون إلى الصدارة، لا ينافسهم فيها سوى السياسيون الأمويون من أمثال المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومعاوية نفسه!

أمثلة على نجاح الخطة

يمكن تلخيص رأي كل من ابن حزم وابن تيمية في موقف معاوية على النحو التالي:

«وامتناع معاوية من بيعة عليّ، كامتناع عليّ من بيعة أبي بكر.. لأن علياً لم يمتنع من بيعة أبي بكر من المسلمين غيرُه.. وأمّا بيعة عليّ فان جمهور الصحابة تأخروا عنها، وما تابَعَه منهم الاّ الأقلّ. وهناك أزيد من مائة ألف مسلم بالشام والعراق والحجاز، كلهم امتنع من بيعته. فهل معاوية إلاّ واحدٌ من هؤلاء في ذلك».

وأيضاً:

«لم ينكر معاوية قط فضلَ عليّ واستحقاقه الخلافة. لكن اجتهادَه أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بالطلب بدم عثمان.. فلم يطلب معاوية من ذلك إلاّ ما كان له من الحق أن يطلبه.. وانما أخطأ في تقديم ذلك على البيعة فقط. فله أجرُ الاجتهاد في ذلك، ولا إثمَ عليه. فلم يُصِب معاوية في اجتهاده، ولكن قد أخبر الرسولﷺ أن لسائر المخطئين في اجتهادهم أجراً واحداً، وللمصيب أجرين....... وقطعاً فأن معاوية ومَن معه مخطئون مأجورون أجراً واحداً»[1].

وقصة المجتهد المخطئ الذي له أجر، نابعة من الحديث المنسوب للرسولﷺ، والذي رواه عمرو بن العاص بالذات «إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إذا حكمَ الحاكمُ، فاجتهدَ ثم أصابَ فله أجران. وإذا حكمَ فاجتهدَ ثم أخطأ فله أجر»[2]. وإن قيام حليف معاوية الأبرز بإذاعة هذا الحديث الذي يقدّم ذخيرة مهمة لمعاوية وأنصاره يشير إلى خطة إعلامية متكاملة ومدروسة تم وضعها وتطبيقها.

وقد بلغ نجاح خطة معاوية إلى حد مذهل، وصل إلى درجة أن إماماً حنفياً كبيراً أصدر حكماً بالإعدام على كل مسلمٍ «يطعن بالصحابة»، بعد أن حكمَ بإخراجه

---

(١) يمكن مراجعة الفصل في الملل لابن حزم، ومنهاج السنة لابن تيمية.

(٢) صحيح البخاري ج٩ ص١٣٣ باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.

من الملة! فقد قال السرخسي عن الصحابة»... فمَن طعن فيهم فهو ملحدٌ منابذ للإسلام، دواؤه السيف إن لم يتب»[1].

ورغم أن ابن حزم وابن تيمية والسرخسي وأمثالهم يتمسكون بالحديث النبويّ الذي رواه البخاري «سبابُ المسلم فسوقٌ وقتاله كفر»[2]، إلاّ أنهم يحرصون على استثناء معاوية من النتيجة التي تترتب على هذا الحديث. فلماذا لا يقال عن معاوية أنه فاسقٌ وأنه كافر؟ ألم يشهر معاوية السلاح بوجه الخليفة الشرعي، عليّ بن أبي طالب؟ وهو لم يكتفِ بسبِّ الإمام عليّ، بل أجبرَ الخطباءَ على شتمه من على منابر المساجد. ولماذا لا يُطَبّقون حديث البخاري هذا إلاّ على أعداء معاوية فقط؟ فهم يشنعون على القادحين في معاوية وحزبه، بتهمة سبّ صحابة الرسولﷺ، ويقولون عنهم إنهم فاسقون وكافرون، اعتماداً على الحديث نفسه، بينما يتجاهلون سلوكَ معاوية الشائن. ولماذا يتم تجاهل حقيقة أن معاوية هو أول مَن استنّ سنّة اللعن القبيح، على المنابر، بحق عليّ وآل البيت؟ وموضوع أمر معاوية بشتم الامام عليّ على منابر المساجد حقيقة معروفة، ذكرها كل المؤرخين، ويمكن لإثباتها الرجوع حتى إلى كتب الحديث.

والجواب على كل هذه التساؤلات المشروعة، يكمن في نظرية عدالة كل الصحابة التي وفرت الحماية لمعاوية بوصفه «صحابياً».

*****

ومن أجل الدفاع عن معاوية وتبييض صفحته تم تجاهل الحديث النبوي الصحيح، حين سئل النبيﷺ:

«يا رسول الله! أنؤآخذ بما عملنا في الجاهلية؟

قال: مَن أحسنَ في الإسلام لم يؤآخذ بما عمِل في الجاهلية، ومَن أساء في

(١) أصول السرخسي ج٢ ص١٣٤.

(٢) صحيح البخاري كتاب الفتن ج٩ ص٦٣.

الإسلام أخذ بالأول والآخر»[1].

وسلوك معاوية وجماعته في الإسلام كان من أسوأ ما يمكن، كما هو معروف. ولذلك كان ينبغي مؤآخذته على ماضيه في الجاهلية بالإضافة إلى أفعاله في الإسلام، معاً، حسب نص الحديث.

ولكن نظرية عدالة كل الصحابة أدّت إلى تعطيل تطبيق الحديث النبوي الصحيح بحق معاوية.

نقض نظرية عدالة كل الصحابة من السنة والقرآن

أولاً: أحاديث النبي حول الصحابة من بعده

عن سهل بن سعد «سمعتُ النبيﷺ يقول: أنا فرطكم على الحوض، مَن ورده شرب ومَن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً. ليَرَدُ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يُحال بيني وبينهم.. وزاد أبو سعيد الخدري عليه: قال إنهم مني فيقال إنك لا تدري ما بدّلوا بعدك. فأقول سُحقاً سُحقاً لمَن بدّل بعدي»[2].

«عن النبيﷺ قال: أنا على حوضي أنتظر من يرد عليَّ. فيؤخذ بناس من دوني فأقول: أمّتي!

فيقال: لاتدري. مَشوا على القهقرى».

«قال النبيﷺ: أنا فرطكم على الحوض. ليُرفعنَ إليَّ رجالٌ منكم، حتى إذا أهويتُ لأناولهم، اختلجوا دوني. فأقول: أي رب! أصحابي!

يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[3].

عن أنس بن مالك «أن النبيﷺ قال: ليردنّ عليّ الحوض رجالٌ ممن

(١) صحيح مسلم، كتاب الايمان، ص٦٣.

(٢) صحيح البخاري ج٩ كتاب الفتن ص٥٩.

(٣) هذان الحديثان من صحيح البخاري كتاب الفتن ج٩ ص٥٨.

صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ، اختلجوا دوني، فلأقولنّ: أي رب! أصيحابي، أصيحابي، فليقالنّ لي: انّك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

عن سهل «سمعت النبي ﷺ يقول: أنا فرطكم على الحوض، مَن ورد شرب، ومَن شرب لم يظمأ أبداً. وليردنّ عليّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم» وزاد عليه أبو سعيد الخدري «فيقول: إنّهم منّي، فيقال: إنّك لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول: سحقا سحقا لمن بدّل بعدي»[2].

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال «سيُجاءُ بناس من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال.

فلأقولنّ: أصحابي!

فليقالنّ لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

فلأقولنّ كما قال العبد الصالح: وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم. فلما توفيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنتَ على كل شيئ شهيد. فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم»[3].

عن أسماء بنت أبي بكر «قال رسول الله ﷺ: إنّي على الحوض حتى أنظر مَن يردِ عليّ منكم. وسيؤخذ أناسٌ دوني فأقول: يا رب! منّي ومن أمّتي. فيقال: أما شعرتَ ما عملوا بعدك؟ والله! ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم».

وعن عائشة عن النبي ﷺ «إنّي على الحوض، أنتظر مَن يرد عليّ منكم. فوالله! ليقتطعنّ دوني رجال، فلأقولنّ: أي رب! منّي ومن أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، ما زالوا يرجعون على أعقابهم»[4].

---

(1) صحيح مسلم كتاب الفضائل ص ٨٨٠

(2) صحيح مسلم كتاب الفضائل ص٨٧٦

(3) مسند أحمد ج١ ص٢٥٣.

(4) هذا الحديث والذي قبله عن أسماء من صحيح مسلم كتاب الفضائل ص ٨٧٧

وهذه المجموعة من الأحاديث النبوية ليست بحاجة إلى أي شرح أو تعليق، فهي تنطق عن نفسها بدون أدنى لبس.

وأما بشأن قول النبي ﷺ «لا تسبّوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحُد ذهباً، ما أدركَ مدّ أحدهم ولا نصيفه»، فهو صحيحٌ أيضاً، ولكن لا بد من الإلمام بخلفيته. فالحديث الكامل كما ورد في صحيح مسلم هو على النحو التالي «كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبّه خالدٌ، فقال رسول الله ﷺ: لا تسبّوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحُدٍ ذهباً، ما أدركَ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[1].

إذن يقوم الرسول ﷺ هنا بتوبيخ خالد بن الوليد لما تعرّض لعبد الرحمن وسبّه، فردّ عليه الرسول ﷺ كما في الحديث. فالكلام موجّه لخالد، وقد جاء في سياق نهيه ﷺ له عن شتم عبد الرحمن أو الاعتداء عليه. وهذا أمرٌ طبيعي يليق بخصال رسول الله ﷺ وتحريمه للبغي على الناس والعدوان عليهم.

كما أن ظاهر كلام الرسول ﷺ يدل على أن خالداً ليس صحابياً حقيقياً بمفهومه ﷺ. ويبدو أن رسول الله ﷺ أراد أن يُذكر خالداً بأن هناك فروقاً مهمة بين «أصحابه»: فلا تجوز مساواة رجل من المهاجرين الأولين كعبد الرحمن، برجل أسلمَ قبيل فتح مكة، كخالد. أراد رسول الله ﷺ أن يعلم خالدٌ أن منظومة الفضل في الإسلام أساسها السّبق والإيمان، وليس أي شيئ آخر.

ومثالٌ من السيرة النبوية

وبالإضافة إلى هذه النصوص القاطعة من الأحاديث النبوية الصحيحة، يمكن الإشارة إلى حالات عديدة من السيرة النبوية حصلت فيها حوادث تثبت بطلان هذه النظرية. ومن أبرز تلك الحوادث ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة. فهذا الرجل

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ص ٩٥٨. وفي رواية مغازي الواقدي ج٣ ص٨٨٠ أن الرسول ﷺ قال لخالد «ذروا لي أصحابي». وأما الذهبي في سير أعلام النبلاء ج١ ص٨٢ فقد جاء في روايته أن النبي ﷺ قال «دعوا لي أصحابي أو أصيحابي».

كان صحابياً وبامتياز. فهو من المهاجرين الأولين، وهو قد شهدَ بدراً مع رسول الله، وهو تنطبق عليه صفات «الصحابي» وبجدارة. هو لم يكن من الذين أعلنوا إسلامهم كرهاً تحت تهديد السيف، وهو ليس من الطلقاء أو المؤلفة قلوبهم، ولم يكن من المنافقين الذين يضمرون البغض لرسول الله صلى الله عليه وآله في دخيلة صدورهم.

إلاّ أنّ الرجل حنّ لانتمائه العشائري، ومالَ إلى قبيلته: قريش. لقد رجحت عنده رابطة الدم التي تشدّه لقريش على رابطة العقيدة التي تربطه بالرسول صلى الله عليه وآله.

فعندما عزم الرسول عليه السلام على السير إلى مكة لفتحها، وأراد أن يكون تحركه مُباغتاً قدر الإمكان بحيث لا تدري قريش بتحركه إلاّ بعد فوات الأوان، قرر حاطب بن أبي بلتعة خيانة رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمين، وإبلاغ قريش بخطة الرسول صلى الله عليه وآله من أجل أن يستعدوا جيدا لمواجهته. وفيما يلي ما رواه البخاري:

«عن عليّ رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وأبا مرثد والزبير، وكلنا فارس. قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين.

فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله.

قلنا: الكتاب؟

فقالت: ما معنا كتاب.

فأنخناها فالتمسنا فلم نرَ كتاباً. فقلنا: ما كذب رسول الله صلى الله عليه وآله! لتخرجنّ الكتاب أو لنجرّدنّك!

فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء. فأخرجته. فانطلقنا به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال عمر: يا رسول الله: قد خان الله ورسوله والمؤمنين. فدعني فلأضرب عنقه!

فقال النبي صلى الله عليه وآله: ما حملكَ على ما صنعتَ؟

قال حاطب: والله ما بي إلاّ أن أكون مؤمناً بالله ورسوله صلى الله عليه وآله. أردتُ أن يكون

لي عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلي ومالي! وليس أحدٌ من أصحابك إلاّ له هناك من عشيرته مَن يدفع الله به عن أهله وماله.

فقال النبيﷺ: صدق. ولا تقولوا له إلاّ خيراً»[1].

إذن ببساطة اعترف الرجل بذنبه، وفسّرَ موقفه للنبيﷺ بأنه خافَ على أهله ماله وأراد أن يكون له معروفٌ عند قريش. وقال له إن بقية أصحابه من المهاجرين لهم مَن يدافع عنهم في قريش وأنه أراد أن يكون مثلهم.

والملاحظ أن موقف الرسولﷺ كان متسامحاً جداً معه، وتفهّم أنه تعرّض لضعف إنساني قادَهُ إلى تلك الخيانة. فالرسولﷺ إذن تعاملَ معه كأيّ رجل في الدنيا: يُمكن أن يستزلّه الشيطان فيرتكب الكبائر.

ولا بد من الإضافة بأن قيام الرسولﷺ بالعفو عنه، ليس وساماً له لكي يعلّقه على صدره! فالعفو بحدّ ذاته إثباتٌ للجريمة. والعفو يُحسَب في سجل حُسن أخلاق الرسولﷺ وعطفه على الناس ورحمته بأمته، ولا يُحسب في سجل إنجازات حاطب بن أبي بلتعة!

مثالٌ آخر

وحتى صحابيّ حقيقيّ من الذين كانوا سبّاقين للإسلام في مكة، لم يكن معصوماً من ارتكاب كبيرة شرب الخمر. فقد روى الإمام البخاري أن عمر بن الخطاب استعملَ قدامة بن مظعون على البحرين، فشربَ الخمرَ حتى سَكِر، وأن الشهود شهدوا عليه بمن فيهم زوجته، فأقام عمر عليه الحد وجَلَدَه[2].

وقدامة بن مظعون كان ترتيبه الرابع عشر بين أول مَن آمن بدعوة النبيﷺ في مكة حسبما ذكر ابن اسحاق، ومع ذلك لم يتورع عن شرب الخمر بلا عذر، وهو في منصب قيادة.

---

(١) صحيح البخاري باب فضل من شهد بدرا ج٥ ص٩٩.

(٢) التاريخ الصغير للبخاري ج١ ص٦٨.

ثانيا: من القرآن الكريم

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات التي تتعرض لموضوع أصحاب الرسول ﷺ. وفيما يلي بعضها:

- ﴿محمدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهمُ تراهم ركعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجودُ ذلك مَثلهم في التوراة ومَثلهم في الإنجيلُ كزرعٍ أخرجَ شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفارُ وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[1].

فهذه الآية الكريمة كلها مدحٌ لرسول الله ﷺ والصحابة الذين معه، الذين هم ـ على الوصف الذي ذكره الله تعالى ـ من الشدّة على الكفار ومن الرحمة على بعضهم البعض. وتمضي الآية الكريمة في مدح هؤلاء وذكر أوصافهم حتى تنتهي بوعده سبحانه وتعالى بالمغفرة والأجر العظيم، ليس لكل الصحابة المذكورين، ولكن للبعض منهم: الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فكلمة «منهم» التي ذكرها الله تعالى دلّت على التبعيض، وأوحت أن البعض من الصحابة انتفت منهم صفة الإيمان والعمل الصالح. وإن المروّجين لنظرية عدالة كل الصحابة دائماً يركّزون على الجزء الأول من الآية، ويتجاهلون «منهم».

- ﴿وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكمُ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾[2].

وهذه الآية نزلت يوم أحُد لتلومَ أولئك الصحابة الذين فرّوا من ميدان المعركة وهمّوا بالرجوع إلى قومهم المشركين حين ظنّوا أن الرسول ﷺ قتل. فإذن حتى الصحابة الأولون ليسوا محصنين من الارتداد والانقلاب على الأعقاب.

- ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤.

الكتاب من قبل فطالَ عليهم الأمد فقسَت قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون﴾[1].

وفي الآية لومٌ لأولئك المؤمنين الذين لم تخشع قلوبهم، فقسَت مثل قلوب أهل الكتاب.

- ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم من الحياة الدنيا من الاخرة فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة إلاّ قليل إلاّ تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾[2].

وهذه الآية صريحة في أن من الصحابة مَن تثاقلوا عن الجهاد واختاروا الركون إلى الحياة الدنيا، رغم علمهم انها متاع قليل، حتى استوجبوا توبيخ الله سبحانه وتهديده لهم بالعذاب الأليم واستبدال غيرهم من المؤمنين الصادقين بهم.

وهناك العديد من الآيات الأخرى التي تتعرض لأصحاب الرسول ﷺ وتشير إليهم كبشرٍ تجوز عليهم المعاصي والخطايا، ويمكن أن تصدر عنهم أعمالٌ منكرة، ويختلفون فيما بينهم بدرجة الإيمان، ويتفاضلون بالإعمال.

وأما بالنسبة إلى قوله تعالى ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾، فقد نزلت الآية بخصوص مناسبة في يوم الحديبية، حينما انبعثت إشاعة في صفوف المسلمين مفادها أن مندوبَ رسول الله ﷺ إلى قريش،وهو عثمان بن عفان، قد قتل. ولما بلغ هذا الخبر رسولَ الله ﷺ قرر أن لا يتهاون بشأنه. فقتلُ الرسُل غدرٌ وفجورٌ لم تألفه العرب من قبل. فأعلن الرسول ﷺ «لا نبرحُ حتى نناجز القومَ» ونادى أصحابَه وأخذ منهم ما أصبح يعرف ببيعة الرضوان والتي كانت تجديداً لعهد الولاء والطاعة له فيما يأمرهم به. وظاهرُ الآية هو التعبير عن الرضا الإلهي عن الموقف المحدد الذي اتخذه المؤمنون الذين استجابوا لدعوة الرسول ﷺ تلك. فالله تعالى رضي عن هؤلاء المؤمنين في تلك المناسبة بذاتها ﴿إذ يبايعونك تحت

(١) سورة الحديد آية ١٦.

(٢) سورة التوبة آية ٣٨ ـ ٣٩.

الشجرة﴾، وليس في الآية ما يشير إلى كون ذلك الرضا الإلهي هو في مطلق الأحوال والظروف، ولا إلى اتساعه ليشمل كل الصحابة، بمن فيهم الذين لم يكونوا موجودين في ذلك اليوم، أو دخلوا الإسلام بعده.

نموذجان من"الصحابة" الذين يروي عنهم الإمام البخاري في صحيحه

المغيرة بن شعبة الثقفي

روى ابن الأثير في ترجمته أنه أسلمَ عام الخندق وشهدَ الحُديبية. وقيل أنه أحصنَ ألفَ امرأةٍ في الإسلام. ولاّه عمر بن الخطاب البصرة، ولم يزل عليها حتى شُهِدَ عليه بالزنا فعزله. استعمله معاوية على الكوفة إلى أن مات عام ٥٠. هو أول مَن رشى في الإسلام، فقد أعطى يرفأ، حاجبَ عمر، شيئاً حتى أدخله إلى دار عمر[١].

وفيما يلي نص، من البلاذري، يوضح تفاصيل حادثة الزنا التي أشار إليها ابن الأثير في عهد عمر:

«إن المغيرة جعلَ يختلفُ إلى امرأةٍ من بني هلال يقال لها أم جميل بنت محجن بن الأفقم بن شعيثة بن الهزم. وقد كان لها زوجٌ من ثقيف يقال له الحجاج بن عتيك. فبلغ ذلك أبا بكرة بن مسروح مولى النبي صلى الله عليه وسلم من مولدي ثقيف، وشبل بن معبد بن عبيد البجلي، ونافع بن الحارث بن كلدة الثقفي وزياد بن عبيد، فرصدوه. حتى إذا دخلَ عليها هجموا عليه فإذا هما عريانان وهو متبطنها.

فخرجوا حتى أتوا عمرَ بن الخطاب فشهدوا عنده بما رأوا.

فقال عمر لأبي موسى الأشعري: إني أريد أبعثك إلى بلد قد عشش فيه الشيطان.

قال: فأعنّي بعدةٍ من الأنصار.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٤ ص ٤٠٧.

فبعث معه البراءَ بن مالك وعمران بن الحصين وأبا نجيد الخزاعي وعوف بن وهب الخزاعي. وولاه البصرة وأمره بإشخاص المغيرة. فأشخصَه بعد قدومه بثلاث.

فلما صار إلى عمر جمع بينه وبين الشهود.

فقال نافع بن الحارث: رأيته على بطن المرأة يحتفز عليها، ورأيته يُدخلُ ما معه ويُخرجه، كالمَيل في المَكحَلَة. ثم شهد شبل بن معبد على شهادته ثم أبو بكرة.

ثم أقبل زيادٌ رابعاً. فلما نظر إليه عمر قال: أما إني أرى وجه رجلٍ أرجو أن لا يُرجَمَ رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على يده ولا يُخزى بشهادته.

وكان المغيرة قدم من مصر فأسلم وشهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال زياد: رأيتُ منظراً قبيحاً وسمعتُ نفساً عالياً، وما أدري أخالطها أم لا. ويقال: لم يشهد بشيء.

فأمر عمر بالثلاثة فجلدوا.

فقال شبل: أتجلد شهود الحق وتبطل الحد؟

فلما جلد أبو بكرة قال: أشهد أن المغيرة زانٍ!

فقال عمر: حُدّوه.

فقال: على ان جعلتها شهادة. فارجم صاحبك.

فحلف أبو بكرة لا يكلم زياداً، وكان أخاه لأمه سمية. ثم إن عمر ردهم إلى مصرهم»[1].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ج٢ ص ٤٢٤. وأكد ابن الأثير في أسد الغابة ج٢ ص٢١٥ ما رواه البلاذري أن زياداً كان هو الذي أنقذ المغيرة من الحد الشرعي. فقد ذكر أثناء ترجمة زياد بن أبيه، أن زياداً كان أحد الشهود على المغيرة بن شعبة مع أبي بكرة ونافع وشبل بن معبد، فلم يقطع في الشهادة، فحدّهم عمر ولم يحدّه.

وذكر خليفة بن خياط في تاريخه(ص٩٣) حادثة زنى المغيرة بن شعبة وشهادة الشهود عليه، وقيام عمر بعزله عن منصبه.

وكذلك أورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٢ ص٢٣٦ـ٢٣٧ حادثة زنى المغيرة بالتفصيل، نقلا عن

وكان المغيرة هذا هو أول مَن أشار على معاوية باستخلاف يزيد (طبعاً لم يكن هذا الأمر غائباً عن ذهن معاوية، ولكن المغيرة كان أول مَن أعلن ذلك). وفي أواخر عمره، وبسبب معرفته بنفسية معاوية، رضي لنفسه أن يكون سيدَ المنافقين وأعظمَ المتزلّفين. روى صاحب الإمامة والسياسة:

«لمّا استقامت الأمور لمعاوية استعمل على الكوفة المغيرة بن شعبة. ثم همّ أن يعزله ويولّي سعيد بن العاص. فلمّا بلغ ذلك المغيرة قدِم الشامَ على معاوية.

فقال: يا أمير المؤمنين قد علمتَ ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف. وفي عنقك الموت. وأنا أخاف إن حَدَث بكَ حدثٌ أن يقعَ الناسُ في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان. فاجعل للناس بعدك عَلماً يفزعون إليه. واجعل ذلك يزيدَ ابنك»[1].

وأثناء عمله كوالٍ لمعاوية، كان المغيرة هذا متخصصاً في شتم الإمام عليّ من على المنبر بشكل دائم. وهناك عدد هائل من الأدلة على ذلك في كافة المصادر، منها مثلاً:

«نالَ المغيرة بن شعبة من عليّ.

فقال زيد بن أرقم: قد علمتَ أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن سبّ الموتى، فلمَ تسُبّ علياً؟»[2].

كل من الطبري في تاريخه والأصفهاني في كتاب الأغاني، وفيها أن المغيرة أخذ يبكي بعد أن شهد عليه أول ثلاثة ثم رجا زيادا أن لا يشهد مثلهم. فقام زياد فشهد أنه رآه متبطنها ولكنه «لم يرَ الميل في المكحلة».

وذكر الطبري في تاريخه تفاصيل حادثة زنى المغيرة في ج٣ ص١٧٠، وفيها أن زياداً قال إنه رأى «قدَمين مخضوبتين تخفقان وإستين مكشوفتين»ولكنه لم يرَ الميل في المكحلة.

وروى البيهقي في السنن الكبرى ج١٠ ص١٤٨ أنه بعد أن شهد أبو بكرة وصاحباه بالزنا على المغيرة بن شعبة جاء زياد فشهد «رأيتُ ابتهاراً ومجلساً سيئا»فقال له عمر «هل رأيتَ المرود دخلَ المكحلة؟»فلما أجابه زياد بالنفي، أمر عمر بالثلاثة فجلدوا.

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ١٨٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ج٤ ص٣٦٩.

فهكذا كان سلوك المغيرة بن شعبة في الإسلام.

وليس هناك فرق كبير بين سلوكه هذا، الانتهازي الوصولي، وبين سلوكه قبل الإسلام.

فحتى الطريقة التي دخل بها المغيرة في الإسلام تنمّ عن النفعيّة والمصلحيّة. فقد كان المغيرة بن شعبة قد خرج هو وقومٌ من بني مالك في عمل إلى الاسكندرية. وأثناء عودتهم، قام بالغدر برفاقه فقتلهم وهم نائمون ونهب أموالهم وسلاحهم وفرّ به[1].

وأدّى سلوك المغيرة، القاتل الغادر، إلى مشكلة كبيرة بين قوم المغيرة من ثقيف، وبين بني مالك، انتهت سلماً حين وافقت عشيرته على دفع الديّة عن الذين قتلهم المغيرة. وأمّا المغيرة، المطلوب دمه، والمنبوذ من قومه، فوجد الحل المناسب لمستقبله: اللحاق بمحمدﷺ وإعلان «إسلامه». وفعلاً فقد وصل المغيرة إلى المدينة مشهراً إسلامه، وقبلَ ذلك منه الرسولﷺ، لأنه كان يقبل من الناس ظاهرَهم، على أساس أن الإسلام يجبّ ما قبله، إن خلصَت النيّة.

وقد رُوي عن الإمام الحسن بن عليّ ما يفيد بأن آل البيت كانوا يعتبرون المغيرة أتفه وأسفه من أن يثير حزنهم أو استغرابهم لمواقفه الخسيسة تجاه عليّ بن أبي طالب. فقد قال له لما وَصَله سبّه لأبيه بمحضر معاوية وابن العاص وعتبة:

«وأما أنتَ يا مغيرة، فلم تكن بخليقٍ أن تقع في هذا وشبهه. وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة: استمسكي فإني طائرة عنكِ! فقالت النخلة: فهل علمتُ بكِ واقعة عليّ فأعلم بكِ طائرة عني؟!

والله ما نشعر بعداوتكَ إيانا، ولا اغتممنا إذ علمنا بها! ولا يشقّ علينا كلامك.

وإن حدّ الله في الزنا لثابتٌ عليك، ولقد درأ عمرُ عنك حقاً الله سائله عنه!

ولقد سألتَ رسولَ اللهﷺ: هل ينظر الرجلُ إلى المرأة، يريد أن يتزوجها؟

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٥٩٦.

فقال: (لا بأس بذلكَ يا مغيرة ما لم ينوِ الزنا)، لعلمه أنك زانٍ »[1].

وبرغم ذلك كله، فإن الإمام البخاري لم يمانع في رواية أحاديث النبي ﷺ عن المغيرة بن شعبة.

سمرة بن جندب الفزاري

جاء في ترجمته في أسد الغابة «وقدمت به أمّه إلى المدينة بعد موت أبيه فتزوجها رجلٌ من الأنصار اسمه مري بن شيبان، فكان في حجره إلى أن صار غلاماً. فهو من حلفاء الأنصار. فكان الرسول ﷺ يستعرضه من ضمن غلمانهم.

..... أن زياد بن أبيه كان يستخلفه على البصرة حينما يذهب إلى الكوفة، ويستخلفه على الكوفة حينما يذهب للبصرة. فكان ستة أشهر هنا ومثلها هناك. وتوفي في البصرة سنة ٥٩ وذلك عندما سقط في قِدر مملوءة ماءً حاراً كان يتعالج بالقعود عليها من كزاز شديد أصابه فسقط فمات فيها. وكان شديداً على الخوارج.»[2].

إذن كان هذا «الصحابي» الذي يعترف به الإمام البخاري[3]، موظفاً رخيصاً يشتريه بنو أمية ويعينوه «نائباً» عن طاغيتهم في العراق ليقوم بمهماته كلما غاب. وبالتالي كان شريكهم في سياستهم التي عبّر عنها زياد بن أبيه «... فوالله لآخذنّ البريء بالسقيم، والمطيعَ بالعاصي، والمقبل بالمدبر، حتى تلين لي قناتكم. وحتى يقول القائل: انجُ سعد فقد قتل سعيد....»[4].

وكان سيّدُه، زياد بن أبيه، أولَ مَن طبّق سياسة العقوبات الجماعية على الناس، حين رأى كثرة الخارجين على حكمه، فقرر معاقبة أهل وعشيرة أي شخصٍ يشترك في معارضة الحكم الأموي! قال لأهل البصرة:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٦ ص٢٩٤.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج٢ ص ٣٥٥.

(٣) وقد ذكر الإمام البخاري نفسه في التاريخ الصغير ج١ ص١٣٢ أن زياد بن أبيه كان يستخلف سمرة على البصرة ستة أشهر وعلى الكوفة ستة أشهر.

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ج١٩ ص١٨٠ وهذا جزء من خطبة زياد بن أبيه.

«إني أعطي الله عهداً لا يخرج عليّ خارجيّ بعدها فأدَعُ من حيّه وقبيلته أحداً»[1].

وأما على المستوى الشخصي، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن سمرة بن جندب كان يبيع الخمر:

«بلغ عمرَ أن سمرة باعَ خمراً.

فقال: قاتلَ اللهُ سمرة. ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: لعن الله اليهود. حُرِّمَت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها»[2].

وسمرة هذا عَدلٌ عند الإمام البخاري، لأنه صحابي، ولا بأس برواية كلام النبي ﷺ عنه[3].

هذه النظرية بدعة متأخرة لم يسمع بها الصحابة أنفسهم

ومن المؤكد أن فكرة عدالة كل الصحابة وتنزيههم عن النقائص والمثالب لم تكن معروفةً على الإطلاق في أوساط الصحابة أنفسهم. فلم يكونوا يعتبرون أن من العيب الطعن بمن يرتكب المعاصي منهم. وكانت الأمور كثيراً ما تصل بينهم إلى حد التشاتم والاتهامات وتبادل الألفاظ الجارحة والمهينة. وكان ذلك يحصل في أعلى مستوياتهم.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

ولذا يمكن الجزم بأن تبنّي نظرية عدالة كل الصحابة وترويجها حصل في فترةٍ زمنيةٍ لاحقة، وعلى يد أناسٍ كان لهم مآرب سياسية من وراء ذلك.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٣٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساقاة والمزارعة، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ص٥٩٦

(٣) وأصرّ ابن حزم في «الأحكام» ج٢ ص٢٠٤ على أن كلاً من قدامة بن مظعون، والمغيرة بن شعبة وسمرة بن جندب هم «رضوان الله عليهم، أفاضل أئمة عدول» على الرغم من كل أفعالهم.

نتيجـة

«الصحبة» كلمة عامة تشمل كل مَن صحب النبيﷺ أو سمع منه أو رآه. وهي بالتالي تشمل المؤمن والمنافق، والعادل والفاسق، والكريم واللئيم، والبر والفاجر....

فالصحبة بحد ذاتها ليست عاصمة تلبس صاحبَها ثوبَ العدالة بالضرورة، بل إن الصحابة تختلف منازلهم وتتفاوت درجاتهم بالأعمال.

ففيهم العدول الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ورسخت أقدامهم في العقيدة، وجرى الإيمان في عروقهم، وأخلصوا لله ولرسوله فكانوا في أعلى درجات الكمال. وهؤلاء هم أصحاب الرسولﷺ الحقيقيون، العدول، والقدوة. وقد وصفهم الإمام علي مرةً فقال:

«لقد رأيتُ أصحابَ محمدﷺ، فما أرى أحداً يشبههم. لقد كانوا يُصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجّداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر مِن ذكر معادهم. كأنّ بين أعينهم رُكبُ المعزى من طول سجودهم. إذا ذكِر الله هَمَلَت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم، ومادوا كَما يميد الشجر يوم الريح العَاصف خوفاً من العقاب، ورجاءً للثواب»[1].

ومن هؤلاء الذين تحملوا الأذى والعذاب في سبيل الله، والذين آمنوا برسول اللهﷺ وهو ضعيفٌ في مكة، فصدقوه ونصروه وحاربوا معه، والأبطال الذين قدموا أرواحهم ودماءهم من أجل دينهم.

وفيهم آخرون ممَن شذ وخالفَ، وانحرفَ وأساء.

وبكل المقاييس العقلية والشرعية، لا يمكن أبداً اعتبار طلقاء قريش الذين أسلموا يوم فتح مكة، أو الأشخاص من أبناء القبائل العربية الذين قدموا على النبيﷺ في عام الوفود، وهم عشرات الآلآف،ليعلنوا الطاعة والخضوع للنبي

(١) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ج١ ص١٣٨.

المنتصر، أو الأعراب ممن هم حول المدينة، أو غيرهم ممن رأى النبيﷺ مرة أو وجّه إليه سؤالا عارضاً، من الصحابة، إلاّ بالمعنى الواسع جداً الموضح أعلاه. ولا يجوز القول بعدالتهم جميعاً.

وأيضاً لا يجوز القدح فيهم كلهم. فلا شك أنه كان بين هؤلاء مَن حَسُن إسلامه وثبت إيمانه.

والفيصل في ذلك كله، هو الأعمال والأفعال، والمواقف والسلوك.

ومن الضروري أن تناقش أفعال كل شخص بموضوعية، ودون ترهيب ولا أحكام مسبقة، وأن يوزن كل واحد من الصحابة بميزان عمله.

والله هو العالم بدواخل النفوس وحقيقة القلوب.

أسطورة عبد الله بن سبأ

أسباب نشوء قصة عبد الله بن سبأ

هناك ارتباط وثيقٌ بين ما حصل في عهد الخليفة عثمان بن عفان من أحداث، وبين نشوء قصة ابن سبأ.

فعثمان يسبّب حرجاً بالغاً لكل مَن يتبنّى خط الفكر الرسمي الداعم للحاكمين عبر العصور. وعملية التوفيق بين كونه «من المبشرين بالجنة» وبين تاريخه وسيرته في الحكم هي في غاية الصعوبة، لأن تجاوزاته وفساد سياساته بلغت حَداً صارخاً لا ينفع معه أسلوب التأويل بحسن النية.

ولذلك كان لا بد من أسلوب آخر: النهي عن الخوض في الموضوع! هكذا وبكل بساطة يُفرَضُ حجرٌ على التفكير، بحجة عدم الخوض في الفتنة! وفي هذا تناقضٌ موضوعي: لأن الصحابة «المبشرين بالجنة» لا بد أن تكون سيرتهم مُبهرة، ولا بد أن يُشجّع كل المسلمين على النظر فيها ليَرَوا كيف كانت رائعة وكم هي جديرةٌ بالاقتداء! ولكن لأن النهي عن التفكير ليس أمراً سهل القبول على الكثيرين، كان

لا بد من تقديم صورة معينة لعهد عثمان وتبرير ما، لما جرى. وبما أن عثمان خليفة«راشد»، كان من اللازم الدفاع عن سياسته مهما كانت. وهنا تكمن المعضلة! فسياسة عثمان تجاه رعيته من المسلمين يصعب جداً الدفاع عنها أو تبريرها باسم الإسلام. وكذلك الحال بالنسبة لما قامت به أم المؤمنين عائشة ومعها الصحابيان الكبيران طلحة والزبير.

لجأ الفكر التقليدي المُهادن للحكام بعدها إلى أسلوبه المفضل في مواجهة هكذا معضلات: توجيه اللوم إلى عدو خارجي، وإظهار الأمر وكأن المسلمين أبرياء طاهرون، وذوو نوايا حسنة، ولكنهم تعرّضوا لمؤآمرات من الأعداء الحاقدين الذي خلقوا المشاكل بينهم لتقويض الإسلام! وقد عبّر الإمام أحمد بن حنبل عن ذلك فقال وهو يلخص الأحداث الجسيمة في عهد عثمان«وقامت خلافة ذي النورين، حَيِيّ هذه الأمة وحليمها وأوصلهم لرحمه وأتقاهم لربه، كما قالت فيه عائشة رضي الله عنها. وكانت ايام خلافته انضر أيام الخلافة الراشدة رغدا وأمنا. شرّق فيها الجهاد وغرب وأبحر وأصحر وأنجد وأتهم. ودخل الإسلام في الوبر والمدر. ولكن الفتنة لم تنم بل حفرت لنفسها مدخلا في حصن الإسلام وباضت فيه وأفرخت، تطير أفراخها هنا وهناك وتبني أعشاشها في عواصم الإسلام ومدنها، يغذيها أشر خلق الله: اليهود السبأية. فتقوّل المفسدون على ذي النورين أكاذيب ونسجوا حوله الأباطيل. جرّأهم على ذلك حلمه وكرم طبعه، فذبحوه في بيته وهو يتلو كتاب الله كما تذبح الحملان»[1].

ويكون من الرائع لو أن هذا العدو المُفسدَ المتآمر يهودي! فعندها ستكون الحبكة مثيرة والمشهد دراميا: المسلمون يحبونَ بعضهم البعض، يحكمهم خليفة راشدٌ وَرِع، ومجتمعهم تسوده قيمُ العدالة والمساواة، وليس في الإمكان أروع مما كان. وبينما هم كذلك يبدأ اليهود الخبثاء في وضع مؤآمرة لئيمة لتفريقهم وزرع الشقاق فيما بينهم. وينجح اليهود الخبثاء في العَبَث بعقولِ المسلمين واختلاق

(١) من مقدمة كتاب العلل لاحمد بن حنبل ج١ ص١١.

الأكاذيب وإقناع المسلمين الطيبين بها، فتنتشر بينهم الحروب والفتن والقتل. والأصابع اليهودية الخفيّة تمسك بخيوط الأحداث وتحرّكها وتزيدُ استعارَ نيران الفتنة التي انخرط فيها وللأسف بعض كبار الصحابة، عن حسن نية وبهدف الإصلاح.

كان عليّ يحب معاوية، وكانت عائشة تكنّ وداً لعليّ، وكان عمّار يوالي عثماناً وكان معاوية يقدّر أبا ذرّ،ولم يكن طلحة يريد أن يحارب علياً، بل إن يزيداً حزن لموت الحسين! فما الذي حصل إذن؟ مجرّد سوء تفاهم صنعه الخبثاء الغامضون.

هكذا وبكل بساطة يريد الفكر التقليدي أن يمحو كل حقائق التاريخ[1]. وعفا الله عما مضى! هذه الصورة الكاذبة عن الأحداث الجسيمة التي هزّت الإسلام والمسلمين تناسب تماماً ما يرمي إليه الفكر التقليدي من رفضه المُعيب إتّخاذ موقف نصرة الحق، وتأييده الضمني لكل الحكام الطغاة. فليس هناك إذن ظَلَمَة ولا مظلومون، وكل أطراف الصراع على قدم المساواة. ويصبح التقاعسُ والتخاذلُ أيدولوجية يُنظّر لها!

فالفكر الداعم للحاكمين يعرف جيداً أن المسلم ذا الفطرة السليمة والقلب النقي لا يمكن أن يقبل بالظلم ولا أن يُقرّ بحكم الفاسدين ولا أن يساوي بين آل رسول الله ﷺ وبين طلقاء قريش. فكان ضرورياً أن لا يعرف حقيقة ما حصل، وصار الاختلاقُ حاجة موضوعية لهذا الفكر.

وفي هذا الإطار تندرج قصة «عبد الله بن سبأ». وقد شاعت الأسطورة أن يكون»عبد الله بن سبأ«هذا يهودياً من صنعاء، إعتنقَ الإسلامَ ظاهراً لكي يكيد له من الباطن! وتمضي الأسطورة لتقول أن «عبد الله بن سبأ» كان أساس الفتنة عن طريق

---

(١) أرجعَ د. حامد محمد الخليفة في كتابه «الانصاف» ص١٧٤ أسباب الثورة على عثمان إلى سببين أولهما «بطر النعمة التي أصبح فيها كثير من الناس، نعمة الأمن ونعمة العطاء والخير الذي عمّ جميع المسلمين. والأمر الآخر: المكر والدهاء اللذين مارسهما ابن سبأ ومنظمته السرية التي تقوم بالتشويش على الخلفاء والتغرير بعوام الناس وتشجيعهم على الخروج على ولاتهم».

التشنيع على عثمان وسياسته وتحريض المسلمين على التمرّد على الخليفة. ويُصوّر «عبد الله بن سبأ» هذا كشخصٍ ذي قدراتٍ عجيبة على التأثير. فتارة يتحدثون عن نشاطاته في مصر، ومرة أخرى عن مؤآمراته في الكوفة، عن اجتماعاته في البصرة، وعن محاولاته في الشام، إلى أن توصف مواقف له في المدينة[1]! و«عبد الله بن سبأ» هذا يتحكّم في تصرّفات صحابة كبار من أمثال عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري، ويفسد عقولهم فينساقون وراء ضلاله ويتبنّون دعوته! ونجح «عبد الله بن سبأ» هذا في تأسيس الفكر الشيعي عن طريقِ ترويجه لمقولة أن علياً كان وصيّ محمد، وأنّ مَن قبله إغتصبوا حقّه. وأقنعَ «عبد الله بن سبأ» هذا كثيراً من المسلمين بأفكار الغلوّ في عليّ حتى صاروا يُعرفون بِـ«السَبَئيّة»[2]!

ويمكن القول أن الفتنة التي قامت زمن عثمان وانتهت بقتله قتلة بشعة، وما تبعها من حربٍ دموية يوم الجمل كان أبطالها شخصيات مرموقة في الإسلام، كانت تنطوي على «مشاهد» لا يتحملها «الضمير الإسلامي» ولا يمكن أن يقبل بتحميل مسؤوليتها لأحدٍ من الصحابة. فجاءت روايات سيف بن عمر التي روّجها الطبري في تاريخه لتخفف الحِملَ على «الضمير الإسلامي» باختراعها لشخصية ابن سبأ، اليهودي المتآمر.

وهناك هدفٌ ظاهرٌ من تبني ونشر قصة ابن سبأ، يرتبط بشكل وثيق بالصراعات المذهبية بين السنة والشيعة خلال القرون الإسلامية الأولى، والتي بلغت حداً مؤسفاً من القسوة والذيوع. فيريدُ ناشرو قصص ابن سبأ أن يقولوا بأن مذهب الشيعة بدعة اخترعها يهودي ماكرٌ ادّعى حبّ عليّ وآل البيت كذباً ونفاقاً بهدف الإساءة للإسلام.

---

(١) روى سيف بن عمر «كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء. أمه سوداء. فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم. فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام. فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر»تاريخ الطبري ج٣ ص٣٧٨

(٢) قال سيف إن ابن سبأ قال لأهل مصر«أعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع...فمحمدٌ أحق بالرجوع من عيسى... فقبلوا ذلك منه... ثم قال لهم إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصِيّ وكان علي وصِيَّ محمد...»تاريخ الطبري ج٣ ص٣٧٨.

فقصة ابن سبأ كلها جزء من محاولات تلطيخ سمعة الخصوم، والدعاية المذهبية، ومشاكل التنافر بين الفِرق.

مصدر أخبار قصة ابن سبأ

والبحث التاريخي الجدّي حول شخصية «عبد الله بن سبأ» هذا يُرجّح كونه مجرّد أسطورة. فالمصادر التاريخية التي أوردت أخباراً عنه ترجع إلى ما رواه ابن جرير الطبري في تاريخه وتنقل عنه. ومن هؤلاء مثلاً ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم من المتأخرين من أصحاب التاريخ. وأمّا مصادر الطبري في الرواية عن «عبد الله بن سبأ» فهي كلها منقولة عن كتاب ألّفه شخص يدعى سيف بن عمر التميمي (توفي عام ١٨٠ للهجرة). فليس هناك نقلٌ متواتر للروايات عنه ولا أسانيد متعددة، بل كلها تنحصر في نفس المصدر وهو سيف بن عمر هذا! وحتى بدون الخوض في شخصية سيف بن عمر هذا إن كان ثقة أم لا، فإن مجرّد كون أخبار «عبد الله بن سبأ» محصورة فيه وحده تجعل من إمكانية كون هذه الشخصية من نسج الخيال احتمالاً وارداً[1].

وقد قام د. عدنان ملحم بدراسة المصادر التي اعتمدها الطبري (توفي عام ٣١٠ للهجرة) في تاريخه حول أخبار وروايات الفتنة الكبرى[2]، وفيما يلي مختصرها:

أخذ الطبري عن سيف بن عمر ٧٤٦ رواية غطت الفترة الممتدة ما بين عام ١٠ إلى ٣٦ للهجرة، منها ٩٧ رواية عن الفتنة زمن عثمان و ٨٧ رواية عن الصراع بين معسكر عليّ ومعسكر عائشة.

وفي المقابل، كانت بقية المصادر التي اعتمدها الطبري في أخباره عن الفتنة كما يلي:

محمد بن شهاب الزهري (توفي عام ١٢٤ للهجرة): أخذ عنه ١٤ رواية.

---

(١) ولمزيد من التفاصيل، بالإمكان الرجوع إلى الكتاب الذي ألّفه مرتضى العسكري «عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى»، وأيضاً كتاب «نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي» لحسن المالكي.

(٢) «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم ص ٦٩-٧٧.

عوانة بن الحكم (توفي عام ١٤٧ للهجرة): أخذ عنه ٩ روايات.
أبو مخنف، لوط بن يحيى (توفي عام ١٥٧ للهجرة): أخذ عنه ١٢٥ رواية.
هشام الكلبي (توفي عام ٢٠٤ للهجرة): أخذ عنه ٥ روايات.
أبو عبد الله الواقدي (توفي عام ٢٠٧ للهجرة): أخذ عنه ٧٥ رواية.
علي بن محمد المدائني (توفي عام ٢٢٥ للهجرة): أخذ عنه ٤٦ رواية.

ومن خلال هذا العرض، يبدو واضحاً مدى اعتماد الطبري على روايات وأقوال سيف بن عمر التميمي فيما يتعلّق بأحداث الفتنة، وبالأخصّ في ما حصل أيام عثمان والصراع بين معسكري عليّ وعائشة. وكان اعتماد الطبري على روايات سيف بن عمر فيما يتعلق بثورة الأمصار على عثمان، وحرب الجمل، كلياً! بحيث أهملَ كل الروايات التي ذكرها الآخرون واستبقى روايات سيف وحدها تقريباً. لقد استفرغ الطبري في تاريخه كتابَ سيف بن عمر حتى أصبحت الروايات التي عالجت الفترة الزمنية بين عامي ١٠ و ٣٦ للهجرة ـ عدا روايات قليلة ـ وكأنها كتاب سيف!

لماذا اعتمد الطبري روايات سيف؟

ويمكن تخمين السبب الذي جعل الإمام الطبري يعتمد على روايات سيف دون غيرها، وهو ببساطة أن هذه الروايات تنسجم مع وجهة نظره الشخصية تجاه الصراع الذي جرى، والتي تتلخّص في اتهام غوغاء الأمصار بقتل عثمان خدمة لمصالحهم، وتنتقد مواقف بعض الصحابة وأبنائهم ممن كانوا في معسكر عليّ من أمثال عمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وتحميلهم مسؤولية التحريض على عثمان، ومحاولة رفع اللوم عن الصحابة الذين خرجوا على عليّ فيما بعد يطالبون بدم عثمان مثل عائشة والزبير وطلحة، وتبرئة الصحابة من تهمة التقاعس عن نصرة الخليفة. وأيضاً رفع اللوم عن أهل المدينة الذين لاذوا بالصمت تجاه ما جرى لعثمان. وكذلك إبراز رغبة عائشة (وعليّ) في ملاحقة قتلة عثمان، وأخيراً والأهم، اتهام «عبد الله بن سبأ» وأتباعه بالمسؤولية المباشرة عن معركة

الجمل وما نجم عنها من قتلى وجرحى، مبرئاً الصحابة من المسؤولية عن هذا الصراع الدامي.

وللإنصاف، ينبغي القول أن الطبري، وهو المؤرخ الموسوعيّ العظيم، لم يكن يستطيع أن يتجاهل وجود كتاب متاحٍ بين يديه عن أحداث الفتنة، وهو كتاب «الجمل ومسير عائشة وعلي»[1] الذي ألفه سيف بن عمر وجعله مخصصاً للتحضيرات لتلك المعركة وكل تفاصيلها. ولكن ما يؤخذ عليه هو إفراطه في الاعتماد على ذلك المصدر وإهماله للمصادر الأخرى، بالإضافة إلى عدم اهتمامه بنقد مضمون روايات سيف وإبراز تناقضاتها.

تفنيد قصة ابن سبأ

من المشروع التساؤل عن السبب الذي يجعل كل الإخباريين السابقن للطبري، والذين كانوا مصدر المادة التاريخية، يتجاهلون أي ذكر لـ«عبد الله بن سبأ» هذا، باستثناء سيف بن عمر؟

فلو كان ابن سبأ هذا شخصية حقيقية ذات وجود وتأثير في أحداث الفتنة، لما كان من المتصوّر أن كل الإخباريين الآخرين يمكن أن يُجمعوا على إهمال ذكره. فلا يعقل أن الإخباريين الستة الأخرين، الذين يفصل قرنٌ كامل بين تاريخ وفاة أولهم عن آخرهم، كلهم أجمعوا وتواطؤوا على نفي وجود هذه الشخصية، وأن سيف بن عمر هو وحده الذي انتبه لها.

وحول مدى مصداقية سيف بن عمر ورواياته، هناك إجماعٌ بين المحدثّين على تضعيفه والطعن فيه. وقد تراوحت الأوصاف التي أطلقها ابن معين والرازي والذهبي وابن حجر على رواياته ما بين «متروكة» و«ساقطة» و«ليست بشيء»، واتهموه بوضع الأحاديث، واعتبره ابن حبان «زنديقاً»[2].

---

(١) للأسف فإن كتاب سيف هذا مفقود ولم يصلنا. وهذا حال معظم كتب ومصنفات الإخباريين القدماء الأوائل الذين ضاعت أعمالهم ولم يصلنا منها إلأ ما ذكره المؤرخون الحافظون الكبار من أمثال الطبري والبلاذري.

(٢) «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم ص ٧٢.

وحتى مع التسليم بأن المعايير التي يضعها المحدثون بشأن الرواة صارمة، ولا تنطبق بالضرورة على رواة التاريخ والإخباريين، إلاّ أنه لا بدّ من الشك الشديد في كل ما يرويه سيف بن عمر بسبب ذلك الانفراد العجيب والمثير للريبة حول أخبار شخصيةٍ يُنسَبُ لها دورٌ رئيسي في أحداث هامةٍ جداً في صدر الإسلام.

ومن المفيد أيضاً الإشارة إلى أن المؤرخين البارزين الآخرين الذين وصلتنا أعمالهم، عدا الطبري، والذين هم سابقون له، لم يعتمدوا على الإطلاق سيف بن عمر كمصدر للأخبار، وبالتالي لم يرد في مؤلفاتهم أي ذكر لعبد الله بن سبأ هذا. وذلك ينطبق على البلاذري، الذي توفي عام ٢٧٩ للهجرة واعتمدَ تقريباً على نفس مصادر الطبري باستثناء سيف (المدائني، أبو مخنف، الواقدي، الزهري، عوانة بن الحكم، الهيثم بن عدي، وهشام الكلبي). وكذلك ينطبق على اليعقوبي (توفي عام ٢٩٢ للهجرة) وابن قتيبة (توفي عام ٢٧٦ للهجرة)، وأبي حنيفة الدينوري (توفي عام ٢٨٢ للهجرة)، وابن شبة النميري (توفي ٢٦٢ للهجرة)، وخليفة بن خياط (توفي ٢٤٠ للهجرة). وأيضاً لم يذكره ابن سعد (توفي ٢٣٠ للهجرة) في طبقاته.

وقال د. عدنان ملحم «لم تحفظ كتب التراجم أي معلومات عن رواة السبئية»[1]. وهؤلاء هم الذين يروي سيف بن عمر أخبار ابن سبأ نقلاً عنهم، وهم: يزيد الفقعسي، ومحمد بن عبد الله بن سواد بن نويرة، وطلحة بن الأعلم الحنفي، وأبو حارثة محرز العبشمي، وأبو عثمان بن أسيد الغساني، وقيس بن يزيد النخعي والأغر العجلي.

ومن ناحية أخرى، ينبغي التفكير في أنه لو كان ابن سبأ هذا حقيقياً، ومتنقلاً،حسب روايات سيف، بين البصرة والكوفة والمدينة ومصر والشام، ومنهمكاً في اجتماعاتٍ مع أتباعه ومريديه لنسج خيوط مؤآمرة على الخليفة، فكيف لم يُلقَ القبضُ عليه؟ لماذا لم يعتقله ابن أبي السرح بدلاً من الكتابة إلى عثمان بشأنه؟ وهل عجزت أجهزة مخابرات معاوية عن معرفة النشاط التحريضي الذي يمارسه ابن

---

(١) «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى»، لعدنان ملحم ص٢٣٥.

سبأ؟ وكيف يمكن للوليد بن عقبة أو سعيد بن العاص أن يتركا هذا اليهودي يصنع المشاكل لهما في الكوفة بحرّية؟ لقد كان سعيد بن العاص، بالتنسيق مع عثمان، حريصاً على اعتقال كل من يشكّ به من وجوه الناس وأشرافهم، ونفيه إلى الشام، حيث العقاب عند معاوية، فكيف لم يوقع أي عقاب بهذا اليهودي؟ ولماذا تركه ابن عامر يسرح ويمرح في البصرة رغم الخطر الأمني الكبير الذي يشكله؟ وأين كل أجهزة»العَسَس«في زمن عثمان؟

لم يتردد عثمان وولاته في إيقاع أقسى ألوان العقاب حتى بالصحابة الكبار الذين كانوا مشهورين بسبقهم في الإسلام وتضحياتهم مع الرسولﷺ. ويكفي ذكر ما جرى لعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذر للتأكيد على أنه حتى أبطال الإسلام لم يكونوا يتمتعون بالحصانة في عهد عثمان. فكيف بيهودي من صنعاء ادّعى الإسلام؟ لا يمكن تصوّر أن تكون له أيّ حصانة على الإطلاق. ولم يكن يوجد ما يمكن أن يردع معاوية، مثلاً، عن اعتقاله ووضعه في سجنٍ مظلم مدى الحياة، إن لم يكن إعدامه فوراً. ولم يكن ابن عامر ليخشى من عشيرته، ولا كان لابن سبأٍ هذا سجلٌ ناصعٌ في الإسلام لكي يضطر الوالي أن يحسب له حساباً.

وفي معرض النقاش لقصة ابن سبأ، لا بد من ذكر ما يلي:

- سبب الثورة الشعبية على عثمان كانت سياسته هو بالذات وطريقة حكمه الفاشلة. وللمقارنة، فإن أكثر من عشر سنوات من حكم عمر بن الخطاب لم تؤدِّ إلى أي تمرّدٍ أو قلاقل شعبية.

- لا يمكن أن يكون السابقون الأولون من صحابة الرسولﷺ بهذه السطحية والغباء حتى يدَعوا يهودياً خبيثاً يتحكم بعقولهم وسلوكهم.

- لم يكن التشيّع لعلي وآل البيت بدعة لاحقة في الإسلام نشأت في زمن عثمان، بل كان تياراً أصيلاً ترجع جذوره إلى أيام الرسولﷺ وامتدّت لما بعد وفاته. وهناك إجماعٌ تاريخي على أن عدداً من أهمّ صحابة الرسولﷺ، ممن ليسوا من أصول قرشية، كانوا متمسّكين بضرورة ولاية علي بن أبي طالب بعد رسول

اللهﷺ. وعلى سبيل المثال كان منهم عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي والمقداد بن عمرو. وللدلالة على ذلك يمكن الإشارة إلى ما قاله الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري في المسجد النبوي في بداية عهد عثمان بن عفان:

«وقفَ بباب المسجد فقال: أيها الناس مَن عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري، أنا جندب بن جنادة الربذي:

إن الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ ابراهيم وآلَ عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. محمدٌ الصفوة من نوح، فالأول من ابراهيم، والسلالة من إسماعيل، والعترة الهادية من محمد. إنه شرف شريفهم واستحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسماء المرفوعة وكالكعبة المستورة أو كالقبلة المنصوبة أو كالشمس الضاحية أو كالقمر الساري أو كالنجوم الهادية أو كالشجرة الزيتونة أضاء زيتها وبورك زبدها. ومحمدٌ وارث علم آدم وما فضل به النبيون. وعلي بن أبي طالب وصيّ محمد ووارث علمه.

أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها! أما لو قدّمتم من قدّم الله وأخرتم من أخّر الله وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عالَ وليّ الله، ولا طاش سهمٌ من فرائض الله ولا اختلف اثنان في حكم الله إلاّ وجدتم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيّه.

فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبالَ أمركم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون»[(1)].

نماذج من روايات سيف عن ابن سبأ

ومن المفيد استعراض مجموعة من الأمثلة على سيف بن عمر، ورواياته التي اعتمدها الطبري في تاريخه.

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٧١. وإن سيرة أبي ذر اللاحقة مع عثمان وأركان حكمه، وما تعرض له من عقاب قاس، ومصيره المُحزن، تجعل من صحة نسبة هذه الخطبة له أمراً مرجحاً.

المثال الأول: هو موضوع ما جرى بين أبي ذر الغفاري وبين كل من معاوية وعثمان.

فالذي حدث في الحقيقة هو أن معاوية بن أبي سفيان كان يحتكر مصادر المال والثروة لنفسه ولبطانته والمرتبطين بنظامه، مما أوجد تمايزاً طبقياً ظاهراً في المجتمع بين الرؤساء الذين يتنعمون في الحياة، وبين العامة الذين كان كثيرٌ منهم في عَوز وحاجة. ولما سبّب له أبو ذر مشكلة حقيقية عندما طعن عليه وحرّض الناس ضد سياسته، قام بتسيير ذلك الصحابي الكبير من الشام إلى المدينة على بعير دون وطاء حتى تآكل لحم فخذيه. وحين وصلَ أبو ذر المدينة، أمرَ الخليفة عثمان بن عفانَ بنفيه إلى الربذة[1] بعد جدل دارَ بينهما أصرّ فيه أبو ذر على ألاّ يكفّ عن الطعن في الأمراء الذين شغلتهم الدنيا وجمع الثروات الطائلة. وخرج أبو ذر إلى الربذة ولم يجرؤ أحدٌ أن يودعه سوى علي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين ومعهم عمار بن ياسر. وبقي أبو ذر في منفاه حتى مات.

كيف تناولَ الطبري هذا الموضوع؟ لقد أعرضَ عن كل الروايات التي تكشف عن حقيقة ما جرى، واختارَ فقط ما رواه سيف بن عمر، لأنه الكاتب الوحيد الذي حفظ للسلطان ماء وجهه، واستنقذه من عواقب تلك الأحداث كما صرح بذلك الطبري نفسه في مستهل حديثه عن هذه القصة، فقال:[2]

«في هذه السنة، ٣٠ للهجرة، كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية، وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة. وقد ذكر في سبب إشخاصه إياه منها أمورٌ كثيرة كرهتُ ذكرَ أكثرها.

فأما العاذرون معاوية فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلى السرى يذكر أن شعيباً حدثه سيف....».

---

(١) وبلغت شهرة حادثة النفي تلك إلى حد أنه حتى ابن اسحاق قد ذكرها بقوله «لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة، وأصابه بها قدره، لم يكن معه احد إلاّ امرأته وغلامه... «في السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص١٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٣٥ـ ٣٣٧.

ويسرد الطبري هذه القصة مردداً بين فقراتها (قال سيف) (قال سيف) حتى أتى على آخرها. ثم قال: «وأما الآخرون فإنهم رووا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهتُ ذكرَها».

إذن يقرر الطبري، صاحب الموسوعة التاريخية الكبرى، أن ينقلَ فقط رواية سيف، ولا شيء غيرها! إذن هو يقرر أن يروي ما قاله»العاذرون معاوية«فقط، وأما الآخرون فالطبري كره ذكر أخبارهم!

والآن ما هي رواية سيف بن عمر التي يتمسّك بها الطبري فلا يروي سواها؟

«لمّا ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر. فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية، يقول المالُ مالُ الله؟! ألا إن كل شيء لله، فكأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسمَ المسلمين!

فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمّي مالَ المسلمين مالَ الله؟!

قال: يرحمك الله يا أبا ذر. ألسنا عباد الله، والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟

قال: فلا تقله.

قال: فإني لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين.

وأتى ابن السوداء أبا الدرداء. فقال له: مَن أنتَ؟ أظنك والله يهودياً.

فأتى عبادةَ بن الصامت، فتعلقَ به، فأتى به معاوية. فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر!

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زالَ حتى ولعَ الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس».

ثم يذكر تسيير معاوية أبا ذر إلى المدينة على أحسن هيئة، فيكرمه الخليفة،

رضي الله عنه، أحسنَ إكرام ويتلطف به، غير أن أبا ذر يصرّ على أن يهجر المدينة ليرتدّ أعرابياً! فيذهب باختياره إلى المنفى في الربذة، بناءً على وصية النبيﷺ له بأن يخرج من المدينة إذا بلغ البناء فيها منطقة سلع! وأن عثمان أكرمه وأعطاه إبلاً ومملوكين لرعايته.

وواضحٌ من هذه القصة أنها فصّلت لكي تدافع عن الحكام: عثمان ومعاوية.

ولكن وللأسف فإن ترويج هكذا رواية من قبل الطبري فيه إساءة عظيمة لواحد من أرفع الصحابة السباقين إلى الإسلام مكانة، وهو أبو ذر! ففي سبيل الدفاع عن الحُكام رضي الطبري أن يجعل أبا ذر في موقف التابع الغبيّ لإرادة اليهودي الماكر (وهو ابن سبأ، الذي يلقبه بابن السوداء)، ثم جعل منه رجلاً متمرداً على الخليفة بإيعاز من ذلك اليهودي، ثم جعل منه مرتداً أعرابياً بعد الهجرة!

إن الطبري باختياره هذا يصرح بالقول والفعل أنه قد وقف إلى جانب الأمير الغالب، ملتمساً له العذر على كل حال، وإن لم يجد هذا العذر إلاّ عند الوضّاع سيف بن عمر. وهذا هو السبب الوحيد الذي يفسر إعراضه المعلن عن سائر أحاديث «العاذرين أبا ذر» ـ وهو الطرف المغلوب ـ واكتفائه برواية «العاذرين معاوية» ـ وهو الأمير الغالب[1].

ولم يوضح سيف بن عمر في روايته هذه ماذا فعل معاوية بابن السوداء بعد أن أحضره له عبادة بن الصامت؟ ولكن أخذاً بعين الاعتبار ما يرويه سيف عن نشاط ابن السوداء اللاحق في بلادٍ أخرى، فلا بد من الاستنتاج أن معاوية قد أطلقه، بكل بساطة!

*****

(١) وفي موضع آخر، أعلن الطبري أنه قرر الإعراض عن ذكر كثير من الأسباب التي كانت وراء الثورة التي أدت إلى قتل عثمان. فقال في ج٣ ص٣٩٩ «فأعرضنا عن ذكر كثير منها لعلل دعت إلى الإعراض عنها» ولم يوضح ماهية تلك العلل، إلاّ أنه من الواضح أن ذلك يندرج في نطاق سعيه للدفاع عن عثمان.

المثال الثاني: هناك روايةٌ غريبة يرويها الطبري، نقلاً عن سيف بن عمر، تقول أن عثمان بن عفان أرسلَ عمارَ بن ياسر إلى مصر لكي يتحقق من التطورات التي تجري هناك، وما يرويه الناس عن سوء الحكم وفساد الإدارة فيها. وتذكر الرواية أن عمارا تأخّر في العودة إلى المدينة كثيراً إلى أن وصل كتابٌ من والي عثمان على مصر، عبد الله بن سعد بن أبي السرح، يخبره فيه أن عماراً استماله قومٌ من مصر منهم عبد الله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران وكنانة بن بشر![1]

ويمكن طرح العديد من علامات التعجب هنا:

ـ فكيف يمكن تصورّ أن عثمان بن عفان يختار عمار بن ياسر بالذات لهكذا مهمة؟! فعمار بن ياسر كان معروفاً عنه طعنه الدائم في سياسة عثمان وحكمه. ومن الثابت أن عماراً كان من المعارضين أصلاً لتعيين عثمان في منصب الخليفة، ومن المعادين للسيطرة الأموية على مقاليد الحكم في الدولة. وكان عمار من الموالين المخلصين لعلي بن أبي طالب، وبقي على موقفه إلى نهاية عمره، بل ودفع حياته ثمناً لموقفه هذا. وقد تعرض عمار بن ياسر إلى عقاب قاسٍ جداً من الخليفة عثمان وصل إلى حد الضرب المبرّح الذي أدّى إلى الفتق والإغماء.

فهل لم يجد عثمان شخصاً آخر، غير عمار، ليرسله في المهمة المزعومة للتحقق من انتهاكات وتجاوزات ولاته هو؟! وهل يعقل أن يختار عثمان شخصاً معادياً له إلى درجةٍ كبيرة، ليشهدَه على نظافة حكمِه وحُسن سياسة واليه، المشكوك في إسلامه، ابن أبيٍ السرح؟

ـ وتضع هذه الرواية عبد الله بن سعد بن أبي السرح، المرتدّ القديم والحاكم الفاسد لمصر والذي كانت سياسته الظالمة سبباً لثورة الناس وتمرّدهم على عثمان، في موقع الحريص على مصلحة المسلمين، والناصح الأمين لخليفة الإسلام، الساعي إلى مواجهة المؤآمرة اليهودية الشريرة التي يقودها ابن سبأ؟! وفي المقابل تضع

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٧٩.

الرواية عمار بن ياسر، الصحابي العظيم الذي طالما تعذّب على رمضاء مكة في سبيل الإسلام ورسوله، في موقع المنساق وراء اليهودي الخبيث، والداخل في دهاليز الخيانة والتآمر مع الأشرار على الخليفة البريء وواليه المسكين؟!

ـ ويبدو واضحاً مدى التصنّع الظاهر في حشر اسم ابن سبأ بين مجموعة أسماءٍ لأشخاص حقيقيين، كانت لهم مساهمات بقتل عثمان لاحقاً.

*****

المثال الثالث: بل إن ابن عساكر[1] روى عن سيف بن عمر رواية أعجب من ذلك فيما يتعلق بمصر وعبد الله بن سبأ. وملخصها أن ابن سبأ قد رسَمَ لأتباعه، وخاصة سودان بن حمران والغافقي وكنانة بن بشر، خطة جهنمية لزعزعة الأوضاع فيها. فقرر لهم أن يطعنوا في الوالي عمرو بن العاص ويكثروا الشكوى منه وأن يطالبوا بتعيين عبد الله بن أبي السرح مكانه! وأنهم نفّذوا تلك الخطة إلى أن نجحوا في مسعاهم لدى عثمان بن عفان على خطوتين: فأولاً عيّن عثمانُ ابن أبي السرح على الخراج واستبقى عمراً على الصلاة بالناس. فسعى أتباع ابن سبأ بالإفساد بين ابن أبي السرح وابن العاص وأغروهما ببعضهما البعض! إلى أن نجحوا ثانياً وأخيراً في إقناع الخليفة، بناء على إصرارهم، بتعيين عبد الله ابن أبي السرح والياً مطلقاً على مصر!

ولا يمكن أبداً تصوّر أسخف من هكذا رواية. وهي لا تستحق أي تعليق.

*****

المثال الرابع: ولإظهار مدى الانسجام في روايات الطبري عن سيف بن عمر، واتخاذها نسَقاً واضحاً وثابتاً يتلخّص في الدفاع عن عثمان وسياسته مهما كانت،

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص٣٠١. ويبدو أن ابن عساكر كانت لديه نسخة من كتاب سيف بن عمر، لأنه لم يشِر إلى الطبري في روايته هذه عن سيف. وقد أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٢٩ ص٣ـ١٠ ترجمة لابن سبأ، جاء فيها أن علي بن أبي طالب قد نفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن لأنه قال له «أنتَ خلقتَ الخلقَ وبسطتَ الرزقَ»، ومن ثم أحرق أحد عشر رجلاً من «السبئية» بالنار لأنهم قالوا بألوهيته!

يمكن الإشارة إلى الطريقة التي صوّر فيها الطبري، من خلال روايات سيف وحده، فترة حكم الوليد بن عقبة بن أبي معيط في الكوفة[1]: فهو يدافع بشدّة عن الوليد هذا. وهو يذكر أن الوليد كان يحظى بحب الجماهير ولكن»الخاصّة«كرهوه! فتآمروا عليه ولفّقوا له تهمة شرب الخمر كذباً. وأنهم لما اقتحموا عليه الدار فجأة أخفى شيئا كان معه تحت السرير، فلما انتزعوه وجدوه طبقاً فيه قطف عنب! ولمّا أعيتهم الحيلة لجأوا إلى»سرقة«خاتمه منه بينما كان نائماً وعنده اثنتان من زوجاته! وذهبوا إلى المدينة وشهدوا زوراً عليه أمام عثمان بأنه تقيّأ خمراً مما اضطره ـ ولم يكن راغباً ـ إلى تطبيق الحد عليه وجلدِه على يد سعيد بن العاص مما ولّد حقداً بين الإثنين وأولادهما.

وهكذا يحاول سيف بن عمر أن يظهر الوليد بن عقبة، الفاسق بالإجماع، وبالنص القرآني، وابن أعتى أعداء رسول الله ﷺ، بمظهر الوالي الطيب المسكين الذي يأكل قطفاً من عنبٍ لا غير! بينما يحاول «الأشرار» الإساءة إليه، حتى أنهم يجرّدونه خاتمه من على إصبعه دون أن يشعر بهم لأنه نائم!

وفي هذا السياق أيضاً تندرج محاولة سيف تلطيخ سمعة زيد بن صوحان العبدي، وقلب الحقائق المتعلقة به. فقد اتفقت المصادر الأخرى، ومنها مثلاً ابن سعد والذهبي، على أن زيداً كان رجلاً مؤمناً مجاهداً وفَقَدَ يدَه أثناء القتال ضد الفرس في معركة جلولاء او نهاوند، حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب امتدحه أمام وفد أهل الكوفة وساعده بنفسه على الركوب على رحله قائلاً لهم «يا أهل الكوفة: هكذا فاصنعوا بزيد وإلاّ عذبتكم»[2]. وقال عنه الذهبي «كان من العلماء العبّاد»[3]. ووصل الأمر إلى حد أن صحابياً عظيماً هو سلمان الفارسي قد أَمَرَهُ بأن يؤمّ أفراد جيش بقيادته في الصلاة ويخطبهم يوم الجمعة. وعندما توفي زيدٌ في أعقاب حرب

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٣١ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٦ ص١٢٣ـ١٢٦.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٣ ص٥٢٥.

الجمل بسبب إصابته البالغة في المعركة، فقد اوصى بأن لا يُغسَل من جراحه وأن يُدفن مصحفهُ معه!

ولكن هذه الحقائق لم تعجب سيف بن عمر، لأن زيداً كان من المعارضين الأشداء للخليفة عثمان، إلى درجة أنه نفاه إلى الشام، كما روى ابن سعد والذهبي، فقد قال زيدٌ لعثمان بن عفان «يا أمير المؤمنين: ملتَ فمالت أمتكَ. اعتدل تعتدل أمتكَ ثلاث مرات. قال: أسامعٌ مطيعٌ أنت؟ قال: نعم. قال: الحق بالشام». وأصبح زيدٌ، وأخوه صعصعة، من الثوار المتمردين على عثمان. وطبعاً كان زيدٌ من أشدّ المعارضين لتحركات أم المؤمنين عائشة المعادية لأمير المؤمنين عليّ. وقد روى الطبري نقلاً عن أبي مخنف أن زيداً كتب إلى عائشة عندما قدمت البصرة «أما بعد. فأنا ابنك الخالص إن اعتزلتِ هذا الأمر ورجعتِ إلى بيتك وإلاّ فأنا أول مَن نابذك»[1].

ماذا فعل سيف بن عمر تجاه هذه الشخصية الفذة المعارضة لعثمان وعائشة؟

لقد قرر أن يقلب أهم مفخرة لزيد بن صوحان، وهي يده التي قطعت في سبيل الله، إلى مثلبة! قرر أن يجعله لصاً سارقاً! وفيما يلي نص رواية سيف:

قال زيد بن صوحان عن عائشة «اُمِرَت بأمر واُمِرنا بأمر: اُمرَت أن تقر في بيتها واُمِرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة. فأمَرَتنا بما اُمِرت به وركبت ما اُمِرنا به».

«فقام إليه شبث بن ربعي فقال: يا عُماني ـ وزيد من عبد القيس عُمان وليس من أهل البحرين ـ سَرَقتَ بجلولاء فقطعكَ الله وعصيتَ أم المؤمنين فقتلك الله. ما أمَرَت إلاّ بما أمر الله عز وجل به بالإصلاح بين الناس»[2].

وهكذا يتهم سيفٌ زيداً، على لسان أحد أنصار عائشة، بأنه كان يمارس السرقة في حرب جلولاء، بدلاً من الجهاد! وللأسف فإن الطبري لم يُشِر إلى تهافت هذه التهمة.

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٩٢.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٩٨.

المثال الخامس: وأما أهم روايات سيف بن عمر التي أوردها الطبري في تاريخه، فيما يتعلق بابن سبأ، فهي تلك التي تتحدث عن دوره المزعوم في تطورات معركة الجمل[1].

فقد ذكر سيف أنه أثناء المداولات التي سبقت المعركة سأل الأعور بن بنان المنقري علياً:

«فقال: أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا ارادوا الله عز وجل بذلك؟

قال: نعم...».

وذكر أيضا أن علياً ألقى خطبة جاء فيها (عن مقتل عثمان):

«... ثم حدثَ هذا الحدث الذي جرّه على هذه الأمة أقوامٌ طلبوا هذه الدنيا. حَسَدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة. وأرادوا ردّ الأشياء على أدبارها...

ألا وإني راحلٌ غدا فارتحلوا. ألا ولا يرتحلن غداً أحدٌ أعانَ على عثمان رضي الله عنه بشيء من أمور الناس».

وقال سيف إن الفريقين المتحاربين اتفقا على الصلح فيما بينهما وتجنب القتال «وأشرفَ القوم على الصلح، كره ذلك مَن كرهَهُ ورضَيهُ مَن رضَيه»، وذلك بعد وساطة من القعقاع بن عمرو.

«فباتوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه، والنزوع عما اشتهى الذين اشتهوا وركبوا ما ركبوا. وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة قط. قد أشرفوا على الهلكة»

ثم بدأ سيفٌ يتحدث عن الأشرار المتآمرين الذين يتزعمهم عبد الله بن سبأ، وكيف عقدوا اجتماعاً تشاورياً ليحددوا خطواتهم المقبلة:

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٥٠٧ و ص٥١٨.

«فاجتمع نفرٌ منهم علباء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة العبسي، وشريح بن أوفى بن ضبيعة، والأشتر، في عدةٍ ممن سارَ إلى عثمان، ورضي بسير مَن سار. وجاء معهم المصريون ابن السوداء وخالد بن ملجم.

وتشاوروا. فقالوا: ما الرأي؟ وهذا والله عليٌ وهو أبصر الناس بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان...

فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما. وأما عليٌ فلم نعرف أمره حتى كان اليوم. ورأيُ الناس فينا والله واحد. وإن يصطلحوا وعليٌ فعلى دمائنا.

فهلمّوا فلنتواثب على عليٍ فنلحقه بعثمان. فتعود فتنة يُرضى فيها منا بالسكون.

فقال عبد الله بن السوداء: بئسَ الرأي رأيتَ....

وقال علباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم....وارجعوا فتعلقوا ببلدٍ من البلدان....

فقال ابن السوداء: بئسَ ما رأيتَ.....

فقال عدي بن حاتم: فإنّ لنا عتاداً من خيول وسلاحاً محمودا. فإن أقدمتم أقدمنا، وإن أمسكتم أحجمنا.

فقال ابن السوداء: أحسنتَ.

وقال سالم بن ثعلبة:.... والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتي.... وأحلف بالله إنكم لتفرقون السيفَ فَرَقَ قوم لا تصير أمورهم إلاّ إلى السيف.

فقال ابن السوداء: قد قال قولاً.

وقال شريح بن أوفى: أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا. ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا امراً ينبغي لكم تاخيره. فإنا عند الناس بشرّ المنازل. فلا أدري ما الناس صانعون غدا إذا ما هم التقوا.

وتكلم ابن السوداء فقال: يا قوم إن عزّكم في خلطة الناس فصانعوهم. وإذا

التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر. فإذا مَن أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع. ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومَن رأى رأيهم عما تكرهون.

فأبصَروا الرأيَ وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون».

ثم يقول سيف إن «المتآمرين» شرعوا في تنفيذ خطتهم .

«... اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر. واستسرّوا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر.

فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم. انسلّوا إلى ذلك الأمر انسلالاً وعليهم ظلمة.

فخرج مُضَريهم إلى مُضَريهم، وربيعهم إلى ربيعهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح.

فثار أهل البصرة. وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم».

وهكذا إذن صوّر سيف بن عمر موضوع حرب الجمل. وهكذا أوردها الطبري دون أن يشير إلى التناقضات الهائلة فيها، والتي لا تخفى على مثله.

- فلا يمكن أبداً تخيّل الأشتر وهو يقترح قتل علي بن أبي طالب.

- وعلي بن أبي طالب لا يمكن ان يقرّ بشرعية الثالوث الخارج عليه ويعترف بشرعية طلبهم بدم عثمان. فهو لم يقر بذلك الحق حتى لمعاوية، ابن عم عثمان، فكيف يقر به للثالوث؟

- وليس هناك ذكرٌ لتفاصيل وشروط ذلك الصلح المزعوم. فعلى ماذا اتفق الطرفان؟ ليس هناك أي إشارة إلى قبول الثالوث بخلافة عليّ. وعليّ يستحيل أن يقبل بغير ذلك.

- كيف يمكن أن يكون الثوار المصريون الذين شاركوا في قتل عثمان موجودين في البصرة؟ هم عادوا إلى مصر بعد الأحداث.

- ليس صحيحاً على الإطلاق أن يكون تقييم عليّ لمن تمرّدوا على عثمان بأنهم قومٌ «طلبوا هذه الدنيا وحسدوا من أفاءها الله عليه».

- فعلى العكس من ذلك، كان عليّ يعتبر عثماناً ورجاله من بني أمية هم الذين طلبوا هذه الدنيا واستأثروا على المسلمين.

- ومتى كان عدي بن حاتم الطائي من المتهمين بقتل عثمان؟

ومما يلفت النظر برواية سيف هذه، تلك الأجواء التآمرية، التي تظهر عبد الله بن سبأ وهو يدير النقاش، ويستمع للآراء، ويقيّمها ويعلّق عليها، يرفض هذا الرأي ويصوِّب غيره، إلى أن يصدر أمره الجازم بإنشاب القتال، فتقوم «قواته «بالتنفيذ على الفور.

وهدف سيف بن عمر، ومعه الإمام الطبري، من حبكاته هذه واضحٌ وجليّ: تبرئة الصحابة، وبالتحديد الثالوث المتمرد، من تهمة سفك دماء المسلمين والإفساد في الأرض وزرع الفتنة وشق صفوف الأمة.

وليس من سبيل لذلك سوى اللجوء لشخصية اليهودي الأسطوري الخبيث عبد الله بن سبأ (ابن السوداء).

*****

المثال السادس: وفي رواية أخرى للطبري، أراد سيف بن عمر أن يعبّر عن رأيه هو في عليّ بن أبي طالب، فقرر أن ينسبَ ذلك إلى ابنه الحسن بالذات! فقد روى أن الحسن بن عليّ قد أبلغ أباه أن كل مواقفه خاطئة وأنه لو أطاعه لما حصل الذي حصل:

«قال: أمرتكَ يومَ أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولستَ بها.

ثم أمرتكَ يوم قتل ألاّ تبايع حتى تأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مَصر.

ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتكَ حتى يصطلحوا فإن كان الفساد، كان على يدي غيرك.

فعصيتني في ذلك كله»[1].

وهنا يظهر أن سيف بن عمر كان يتمنى لو أن عليّ لم يتصدَ للخلافة والبيعة، ويتمنى أنه لم يخرج لملاقاة طلحة والزبير، فنسَبَ ذلك الرأي إلى ابنه الحسن. فسيفٌ يعتبر أنه كان من الأفضل لو بقي عليّ معتزلاً أمورَ المسلمين، قاعداً في بيته.

والعبارة الأخيرة التي استعملها «كان الفساد على يدي غيرك» خبيثةٌ جداً، وهي تشي بمقصد سيف الحقيقي. فهي تعني أنه ما دام عليّ قد عصى الحسنَ في ذلك، فالفساد كان على يديه هو. فغرضه أن يوحي بأن علياً هو سبب الفساد في الأرض.

*****

المثال السابع: ومن المفيد هنا أيضاً عرض رواية أخرى لسيف بن عمر ذكرها الطبري، رغم أنه ليس فيها دورٌ لابن سبأ. فهي تنسجم مع خطه العام الثابت في الاستبسال في الدفاع عن «الصحابة «وتبرير كل أفعالهم، مهما بدا ذلك الدفاع متهافتا. تلك هي قصة قتل خالد بن الوليد لمالك بن نويرة بحجة الردة، ودخوله على زوجته الجميلة.

فقد روى الطبري[2] نقلاً عن سيف بن عمر أنه لما ألقي القبض على مالك بن نويرة وقومه، قام أبو قتادة الأنصاري فشهد لصالحهم لدى خالد»... فكان فيمن شهد أنهم قد أذّنوا وأقاموا وصلّوا.

فلما اختلفوا فيهم أمرَ بهم فحبسوا في ليلة باردةٍ لا يقوم لها شيء. وجعلت تزداد برداً.

فأمر خالدٌ منادياً فنادى: أدفئوا أسراكم.

وكانت في لغة كنانة إذا قالوا دثروا الرجل فأدفئوه دفأه قتله. وفي لغة غيرهم أدفه فاقتله.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٤٧٤.

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٥٠٢.

فظن القوم وهي في لغتهم القتل، أنه أراد القتلَ فقتلوهم. فقتل ضرار بن الأزور مالكاً.

وسمع خالدٌ الداعية فخرجَ وقد فرغوا منهم. فقال: إذا أرادَ الله أمراً أصابه.

وقد اختلفَ القوم فيهم. فقال أبو قتادة: هذا عملكَ. فزبره خالد. فغضبَ ومضى حتى أتى أبا بكر.

فغضبَ عليه أبو بكر حتى كلمه عمرُ فيه، فلم يرضَ إلاّ أن يرجعَ إليه. فرجع إليه حتى قدم معه المدينة.

وتزوج خالدٌ أمّ تميم ابنة المنهال، وتركها لينقضي طهرها. وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره.

فقال عمر لأبي بكر: إن في سيف خالدٍ رهقاً. فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده. وأكثرَ عليه في ذلك.

وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته.

فقال: هيه يا عمر! تأولَ فأخطأ. فارفع لسانكَ عن خالد. وودى مالكاً.

وكتبَ إلى خالد أن يقدم عليه ففعلَ. فأخبرَه خبَرَه فعذره وقبلَ منه.

وعنفه في التزويج الذي كان تعيب عليه العرب من ذلك».

واضحٌ هنا أن سيف بن عمر في محاولته تفسير السلوك الوحشي لخالد، تفتق ذهنه عن حل مبدع: سوء فهم ناتجٍ عن اختلاف لغوي! وليس ذلك فحسب، بل هو هنا يظهر خالداً بمظهر الحنون الحريص على صحة الأسرى وحمايتهم من البرد القارص، إلاّ أن رجاله فهموا ذلك على أنه أمرٌ بالقتل فنفّذوه.

ولكن سيف بن عمر لم يستطع أن ينفي الحقائق الثابتة المجمع عليها في هذه القصة:

- قيام خالد بقتل مالك، رغم إشهاره الإسلام وممارسته له بشهادة الصحابي المعروف أبي قتادة.

- قيام خالد بالزواج من زوجة مالك. ولكن سيف بن عمر هنا يتلاعب فيقول «تركها لينقضي طهرها» للتغطية على حقيقة أن خالداً تزوجها فوراً كما أجمعَ المؤرخون والرواة.

- إدراك الجميع لحجم الإثم الذي اقترفه خالد، وعظم جريمته، بما فيهم أبو قتادة وعمر بن الخطاب وأبو بكر نفسه، الذي قام بدفع دية مالك.

ولم يتردد الطبري في ذكر هذه الرواية المتهافتة التي صَمّمها سيفٌ من أجل تبرير جريمة خالد، لأنها تتفق مع سياسته في تأييد كل ما قام به «الصحابة» من أفعال على إطلاقها. ولو استطاع سيف بن عمر أن يجد مكاناً ليهودي كابن سبأ في هذه القصة لفعلَ.

*****

المثال الثامن: وفي بعض رواياته وصل سيف بن عمر إلى مرحلة الشطط والغلوّ وهو يخالف ما تواترَ من أخبار صحيحة، وذلك من أجل الدفاع عن الحاكمين. ومن ذلك رواية سيف حول بيعة علي بن أبي طالب لأبي بكر. فرغم الإجماع بين المؤرخين والمحدثين على أن علياً رفض البيعة وتقاعسَ عنها ستة أشهر، مما هو معلومٌ بالضرورة ولا خلاف عليه، إلاّ أن تلك الحقيقة لم ترُق لسيف الذي أصرّ على اختلاق روايةٍ تظهر مدى «لهفة» عليّ لمبايعة أبي بكر!

«كان عليّ في بيته، إذ أتي فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة.

فخرجَ في قميصٍ ما عليه إزارٌ ولا رداء، عَجِلاً، كراهية أن يبطئ عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتخلله ولزم مجلسه»[1].

وهكذا فإن علياً لم ينتظر ليضع عليه رداءه وإزاره خشية أن يتأخر بضع دقائق عن بيعة أبي بكر، فذهب بدونهما ليبايع فوراً، وبعد ذلك أرسلَ مَن يحضرهما له فلبسهما!

---

(1) تاريخ الطبري ج٢ ص٤٤٧.

وبعد ذلك كله، من المفيد عرض إيجاز لكيفية تناول عدد من كتاب العصر الحديث لـ«عبد الله بن سبأ» ودروه في الأحداث التي جرت في عهد عثمان بن عفان.

فالدكتور حسن ابراهيم حسن في كتابه «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» اتهم أبا ذر الغفاري بدور رئيسي في «الفتنة»، وذكر أن «عبد الله بن سبأ» هو الذي حرّضه على تحدي سياسة عثمان ومعاوية، وانه روّج لفكرة اغتصاب الخلافة من عليّ وصيّ الرسول.

وأشار أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام» إلى أن أبا ذر الغفاري تأثر بـ «عبد الله بن سبأ» الذي حرّضه على عثمان، وتلقّى أفكاره واعتنقها، بعد أن صبغها بصبغة الزهد، عن حسن نية.

ومحمد حسين هيكل في كتابه «بين الخلافة والملك» تحدّث عن دور «عبد الله بن سبأ» التخريبي في الدولة الإسلامية، وتشهيره بالسلطة ورموزها، وترويجه للتشيع لعليّ.

وذكر عباس محمود العقاد في كتابه «ذو النورين» أن «الغوغاء وشذاذ الأمصار» قد تعاونوا مع «عبد الله بن سبأ» واستجابوا له ولدعوته وهو يقول برجعة النبي ويتشيع لعلي.

وذهب محمد الخضري بك في «محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية» إلى اعتبار « ابن السوداء» مسؤولا عن كل «الفتن» التي شهدها الإسلام في الأمصار الإسلامية في الشام والعراق ومصر، حيث تعاون معه كثيرون مثل عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري، مما أدى إلى مقتل عثمان.

وأما علي حسني الخربوطلي في كتابه «الدولة العربية الإسلامية» فقد ذهب إلى أبعد مدى، وتجاوز كل الآخرين، في ربطه بين «ابن سبأ» وأبي ذر الغفاري الذي يصوره بمظهر التابع الذي يبذر الفتنة بتحريض من اليهودي. ووصل الخربوطلي إلى حد تشبيه دعوة أبي ذر بحركة مزدك الفارسية القديمة، حين قال ان الحركتين تتفقان

على «وجوب نزع الثروة من الأغنياء وإطلاق المساواة إلى أقصى حدودها بين الأفراد». وأشار إلى أن «ابن سبأ» نشأ في صنعاء «حيث تكثر العناصر الفارسية»، وبالتالي تشرّب بالمبادئ المزدكية ونقلها بدوره إلى أبي ذر، ومن ثم انضم إليه عمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة!

وفي مقابل هؤلاء الكتاب الذين أوغل بعضهم في تطرفه في ترويج نظريات التآمر اليهودي، ممثلاً بابن سبأ، على المسلمين وخليفتهم، كان د. طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى» أكثر عقلانية وموضوعية في تناوله أحداث عهد عثمان.

أعلن طه حسين شكّه من حيث المبدأ في وجود شخصية «عبد الله بن سبأ»، واعتبر أن ما يروى عن علاقته بأبي ذر الغفاري وتحريضه له «إسرافٌ لا حقيقة له». وقال عن الدور المزعوم «لابن سبأ» في أحداث الفتنة «هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ولا تثبت للنقد». وذكر طه حسين «وأكبر الظن أن عبد الله بن سبأ هذا ـ إن كان ما يروى عنه صحيحاً ـ إنما قالَ ما قالَ ودعا إلى ما دعا إليه بعد أن كانت الفتنة وعظم الخلاف. فهو قد استغل الفتنة ولم يثرها. وأكبر الظن كذلك أن خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين قد بالغوا في أمر عبد الله بن سبأ هذا، ليشككوا في بعض ما نسب من الأحداث إلى عثمان وولاته من ناحية، وليشنعوا على عليّ وشيعته من ناحية أخرى، فيردّوا بعض أمور الشيعة إلى يهودي أسلمَ كيداً للمسلمين. وما أكثرَ ما شنّع خصوم الشيعة على الشيعة، وما أكثرَ ما شنّع الشيعة على خصومهم في أمر عثمان وفي غير أمر عثمان»[1].

كما أن الباحث الأكاديمي هشام جعيط في كتابه المهم حول الفتنة، تجاهل ذكر «عبد الله بن سبأ» تماماً، ولم يتطرّق له إلاّ في بضعة سطور، وذلك في معرض نفيه لأي دور لهذه الشخصية المزعومة، والتي وصفها بأنها «بدعة توهمية»[2]، في الأحداث الهامة التي وقعت.

---

(١) ملخص مأخوذ عن كتاب «أئمة وسحرة» لابراهيم محمود ص٢٢١ ـ ٢٢٩.
(٢) «الفتنة» لهشام جعيط ص١٠٩.

كلمة حول جاذبية قصة ابن سبأ

وختاماً لا بد من الإشارة إلى أن مأساة الشعب الفلسطيني، وما تعرضت له أرض فلسطين من اغتصاب على أيدي اليهود الصهاينة في القرن العشرين، كان سبباً إضافياً لرواج مقولات التآمر اليهودي على الإسلام والمسلمين بين العامة. فقصة «عبد الله بن سبأ» اليهودي وضلوعه في المكائد والدسائس تنسجم تماما مع ما مارسته الحركة الصهيونية من دور مهم في الضغط على صانعي القرار في الامبراطورية البريطانية من أجل إصدار وعد بلفور ومنح فلسطين لليهود. ومن الراسخ في أذهان عامة المسلمين أن اليهود في هذا العصر يواصلون حبك خيوط مؤآمرات متواصلة ضد الإسلام، وأنهم ينفذون خططهم الشريرة من خلال أدوات وجهات أخرى تعمل لصالحهم، وعلى رأسها أمريكا.

وهناك عددٌ كبير من المسلمين اليوم يؤمنون أن اليهود وضعوا بالفعل «بروتوكولات حكماء صهيون» التي هي عبارة عن خطة سرية من أجل تمكين اليهود، الأقلية الصغيرة في العالم، من السيطرة على العالم كله عن طريق تحطيم الأديان الأخرى، ومنها الإسلام، وتسخير الكثير من الشخصيات المهمة، في كل المجتمعات، في خدمة الحركة اليهودية.

وهذا التشابه بين الدور التآمري، المزعوم، الهائل والضخم، لابن سبأ، وبين ما حَوَته «بروتوكولات حكماء صهيون»، التي راجت أولاً في روسيا القيصرية، من خطط محكمة للهيمنة على العالم، يجعل لرواية «عبد الله بن سبأ» جاذبية إضافية بين عامة المسلمين. فالأحداث السياسية المعاصرة، ومصالح الدول، وصراعات الأمم، تلعب دوراً في تحديد نظرة الكثيرين إلى أحداث التاريخ، عن طريق الربط التعسفيّ بين مواقف وأحداث ذات أبعاد رمزية كبيرة.

أبو هريرة: الراوي الأعظم للحديث النبوي!

مَن هو؟

هو من قبيلة دوس في اليمن، ولكن اسمه ونسَبه مختلفٌ عليه.

قال ابن الأثير «وقد اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً لم يختلف في اسم آخر مثله ولا ما يقاربه

فقيل اسمه عمير بن عامر

وقيل عبد الله بن عامر

وقيل بربر بن عشرقة

ويقال سكين بن دومة

وقيل عبد الله بن عبد شمس

وقيل عبد شمس

وقيل عبد غنم

وقيل عبد عمرو بن عبد غنم

وقيل كان اسمه في الجاهلية عبد شمس وفي الإسلام عبد الله أو عبد الرحمن».

وهو معروفٌ بكنيته. وذكر هو سبب هذه الكنية:

«قال: كنتُ أرعى غنمَ أهلي، وكانت لي هريرة صغيرة. فكنت أضعها بالليل في شجرةٍ، فإذا كان النهار ذهبت بها معي فلعبت بها، فكنّوني أبا هريرة»[1].

وقال عنه ابن حجر العسقلاني «وقد اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ج٥ ص٣١٦. وكذلك ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٦٧ روايات عديدة عن الأسماء المختلف فيها لأبي هريرة.

قال ابن عبد البر: لم يختلف في اسم في الجاهلية والإسلام مثلما اختلف في اسمه. اختلف فيه على عشرين قولاً.

وسرد ابن الجوزي في التلقيح منها ثمانية عشر.

وقال النووي: تبلغ أكثر من ثلاثين قولاً»[1].

كمية حديثه ومقارنته مع غيره وتصنيفه بين الصحابة

يتصدّر أبو هريرة بلا منازع قائمة الصحابة الذين رووا أحاديث عن الرسول ﷺ. فقد جاء في مقدمة كتاب الإصابة لابن حجر[2] ذكر الأحاديث الإجمالية التي رويت عن الصحابة، وخاصة المكثرين منهم، كما يلي:

أبو هريرة : ٥٣٦٤ حديثاً (منها ٤٤٦ في البخاري و ٥٨٥ في مسلم)

عبد الله بن عمر : ٢٦٣٠

أنس بن مالك : ٢٢٨٦

السيدة عائشة : ٢٢١٠

عبد الله بن عباس : ١٦٦٠

جابر بن عبد الله : ١٥٤٠

أبو سعيد الخدري: ١١٧٠

عبد الله بن مسعود: ٨٤٨

عبد الله بن عمرو : ٧٠٠

والملاحظة العامة على هذه القائمة هو أن معظم الذين تصدروا الرواية عن رسول الله ﷺ ليسوا من مسلمي الطبقة الأولى الذين كان لهم احتكاك حقيقيٌ برسول الله ﷺ. فباستثناء عبد الله بن مسعود، الذي كان من السباقين للإسلام، وباستثناء عائشة التي تزوجها الرسول ﷺ في السنة الثانية للهجرة، فإن البقية من

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج١ ص٤٩.

(٢) من مقدمة كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ص٨٨

الذين رووا آلاف الأحاديث كانوا إما غلماناً يافعين حين توفي الرسولﷺ، أو من ذوي الإسلام المتأخر جداً، ممن كانوا بعيدين كثيراً عن الدائرة المحيطة برسول اللهﷺمن المهاجرين والأنصار.

وقد دفعت هذه الحقيقة الشيخ المصري الأزهري محمود أبو رية إلى تأليف كتابٍ خاص عن أبي هريرة أسماه «شيخ المضيرة»، وضّح فيه[1] أن أبا هريرة قدِمَ من بلاده (اليمن) على النبيﷺ وهو بخيبر (بعد فتحها) سنة ٧ هجرية، وأنه أقام مع أهل الصفة في المدينة المنورة من شهر صفر سنة ٧ لغاية شهر ذي القعدة سنة ٨ (أي أن إقامته بقرب مسجد الرسولﷺ كانت فقط سنة واحدة وتسعة أشهر فقط).

وبعدها كان أبو هريرة من ضمن بعثة العلاء بن الحضرمي التي أرسلها رسول اللهﷺ إلى البحرين، وبقي فيها إلى ما بعد وفاة الرسولﷺ بوقتٍ طويل.

ورغم هذه الحقيقة، فإن أبا هريرة روى وحده أربعة أضعاف ما رواه الخلفاء الأربعة مجتمعين! فمجموع ما روي عن الخلفاء الأربعة من أحاديث هو كما يلي[2]:

- أبو بكر: ١٤٢ حديثا (منها ٥ في صحيح مسلم)
- عمر بن الخطاب: ٥٣٩ حديثاً (منها ٤١ في صحيح مسلم)
- عثمان بن عفان: ١٤٦ حديثا (منها ١٦ في صحيح مسلم)
- علي بن أبي طالب: ٥٨٦ حديثا (منها ٣٢ في صحيح مسلم، و١٩ في صحيح البخاري)

وفيما يلي عرضٌ موجزٌ لما روته مجموعة أخرى من كبار صحابة الرسولﷺ من أحاديث[3]:

- الزبير بن العوام: له ٩ أحاديث في البخاري وحديث في مسلم

---

(١) شيخ المضيرة، لمحمود أبو رية، ص٧٤.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص١٠٣، ١٢٩، ١٧٨، ٢٠٢.

(٣) عن «شيخ المضيرة» لمحمود أبو رية ص ١٤١ـ١٤٢.

- **عبد الرحمن بن عوف: له ٩ أحاديث في البخاري**
- **أبي بن كعب: له في الكتب الستة نيف وستون حديثا، منها ٣ في البخاري و٧ في مسلم**
- **سلمان الفارسي: أخرج له البخاري ٤ أحاديث ومسلم ٥.**
- **طلحة بن عبيد الله: روى له البخاري ٤ أحاديث.**
- **زيد بن ثابت: له في كتب السنة ٩٢ حديثا، لتفق الشيخان على ٥ وانفرد البخاري بثمانية.**
- **معاذ بن جبل: له في البخاري ٦ أحاديث.**

وأما أبو ذر الغفاري، فله ١٨١ حديثا، اتفق البخاري ومسلم على ١٢ منها، وانفرد مسلم بتسعة عشر، وانفرد البخاري بحديثين.

وأما فاطمة الزهراء فلها ١٨ حديثا فقط، منها حديث واحدٌ متفق عليه[١].

وتلك حقيقةٌ مذهلة بكل المقاييس!

وقد جاء في كتاب شيخ المضيرة[٢] أن الصحابة قسّموا إلى ١٢ درجة وهي:

١ – قدماء الصحابة الذين أسلموا بمكة (كالخلفاء الأربع)

٢ – الذين أسلموا قبل تشاور أهل مكة دار الندوة

٣ – مهاجرة الحبشة

٤ – أصحاب العقبة الأولى

٥ – أصحاب العقبة الثانية

٦ – أول المهاجرين الذين وصلوا إلى النبي بقباء قبل أن يدخل المدينة

٧ – أهل بدر

٨ – المهاجرون بين بدر والحديبية

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢ ص ٧٥ وص١٣٤.

(٢) شيخ المضيرة، لمحمود أبو رية، نقلا عن ص٦٩ ج١ من الروض الباسم للوزير اليماني. وكذلك نفس هذا التصنيف جاء في مقدمة كتاب الإصابة لابن حجر ص٨٣.

٩ – أهل بيعة الرضوان

١٠ – مَن هاجر بين الحديبية وفتح مكة (كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص)

١١ – مسلمة الفتح (كمعاوية)

١٢ – صبيان وأطفال رأوا النبي يوم الفتح وحجة الوداع.

وأضاف الشيخ أبو رية معلقاً على وضعية أبي هريرة من هذه الطبقات: «فما وجدناه في واحدة منها».

خلفية أبي هريرة وقدومه إلى المدينة وحاله فيها

لقد كان أبو هريرة من أهل الصفة. وهؤلاء هم المساكين الذين كانوا يأتون ليعيشوا في المدينة عالة، على رسول الله ﷺ، الذي كان يجود على أولئك الوافدين بالطعام. ومعظم هؤلاء كانوا أشخاصاً من شتى أنحاء الجزيرة العربية، من الأعراب وقبائل عديدة، علموا بانتصارات النبي ﷺ المتتالية وبأن هناك سلطة مركزية بدأت بالتشكل في جزيرة العرب، فقرروا اللحاق بها والانخراط في صفوفها لعلها تنقذهم من حياة البؤس الشديد التي كانوا يعانون منها في مناطقهم الأصلية.

وقد عرّف الصفة ابنُ سعد كما يلي «كان أهل الصفة ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ لا منازلَ لهم. فكانوا ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد ويظلون فيه، ما لهم من مأوى غيره. فكان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه بالليل إذا تعشّى، فيفرّقهم على أصحابه وتتعشى طائفة منهم مع رسول الله ﷺ»[1].

وقد وصف أبو هريرة نفسُه حاله عند قدومه المدينة بقوله: «لقد رأيتني وإني لأخرّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ الى حجرة عائشة مغشياً عليَ، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون. وما بي من جنون. ما بي إلاّ الجوع»[2].

ولا عيبَ أن يكون الإنسان الشريف فقيرَ الحال، ولكنّ العيبَ أن يكون اتّكالياً

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص ٢٥٥.

(٢) صحيح البخاري ج٩ باب ما ذكر النبي ﷺ وحض على اتفاق أهل العلم ص١٢٨.

كارهاً للعمل، تقبل نفسه حياة الاستجداء بلا كرامة. وأبو هريرة نفسه روى عن النبيﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده! لأن يأخذ أحدكم حبلة فيحتطب على ظهره خيرٌ له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله، أعطاه أو منعه»(١).

والمشكلة أن هؤلاء الوافدين كانوا في بعض الأحيان يطالبون الرسولﷺ بأطايب الطعام! ولكن من أين يأتي لهم الرسولﷺ بملذات الأكل إذا كان هو نفسه متواضعاً جداً ولا يأكل إلاّ ما تيسّر؟!

من المفيد التأمل في هذا النص الذي أورده ابن شبة النميري في تاريخ المدينة:

«هذا طلحة بن عمرو النضري قال: كان مَن قدِم المدينة فكان له بها عريفٌ نزل على عريفه، ومَن لم يكن له بها عريف نزل الصفة. فكنت فيمن نزل الصفة، فوافقت رجلين، فكان يجري علينا في كل يوم مدّ من تمر من رسول الله.

فانصرف النبي فناداه رجلٌ من أهل الصفة: يا رسول الله! أحرقَ التمر بطوننا! وتخرقت علينا الخنف! فقام النبي إلى منبره، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ما لقي من قومه، حتى أن كاد ليأتي عليّ وعلى صاحبي بضعة عشر يوماً ما لنا طعام إلاّ البربر.

فقدمنا على إخواننا من الأنصار ـ وجلّ طعامهم التمر ـ فواسونا. فلو أجد لكم الخبز واللحمَ لأطعمتكم»(٢).

لقد اضطر الرسولﷺ هنا أن يشرح لهؤلاء الساكنين في الصفة كيف أنه هو شخصياً قاسى وعانى الأمرين من قومه، وواجه الجوع حتى هاجر من بلاده مضطراً. يريد الرسولﷺ هنا أن يؤدّب هؤلاء الذين ليس لهم من عملٍ في الحياة سوى الاستجداء ويلفت نظرهم إلى أن عليهم شكر النعمة، وليس وضع شروط على الصدقة!

---

(١) كتاب الموطأ للإمام مالك ج٢ ص٩٩٨.
(٢) تاريخ المدينة لابن شبة النميري ج ٢ ص ٤٨٦.

وقد أورد الذهبي حادثة تشير إلى مدى البؤس الذي كان يعانيه أهل الصفة، وكذلك إلى الكرم الهاشمي الأصيل الذي كان يميز جعفر بن أبي طالب، وكيف كان يحسن إلى الشحاذين والمساكين فيطعمهم كل ما يوجد في بيته، فإن لم يجد شيئا يُخرج لهم حتى الآنية الفارغة ليلعقوا عنها آثار الطعام بألسنتهم:

«عن أبي هريرة قال: كنا نسمي جعفراً أبا المساكين. كان يذهب بنا إلى بيته، فإن لم يجد لنا شيئا، أخرج إلينا عكة أثرها عسل، فنشقها ونلعقها»[1].

راي عمر بن الخطاب بأبي هريرة

وبعد وفاة الرسولﷺ لم يكن لأبي هريرة أيّ ذكر بين المسلمين. ولم يكن يجرؤ على الرواية عن الرسولﷺ في عهد الخلفاء الأربعة. والسبب ببساطة هو أنه كان يعرف قدرَ نفسه. فمن سيستمع إلى أبي هريرة مع وجود السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على قيد الحياة؟!

وقد هدده عمر بالنفي لما علم ببدء محاولاته لإشاعة أحاديث عن النبيﷺ لأنه لم يَرَه أهلاً لذلك:

«لما بلغ عمرَ رضي الله عنه أن أبا هريرة يروي ما لا يعرف قال: لتكفّنّ عن هذا أو لألحقنّك بأرض دوس»[2].

وقد كان أبو هريرة من ضمن الذين شكّ عمر بن الخطاب في ذمّتهم المالية وقرر أن يصادر نصف أموالهم التي قدّر أنهم اكتسبوها بطرق غير مشروعة أثناء توليهم المنصب الرسمي.

فقد روى اليعقوبي في ذكر حوادث سنة ٢٣:

«وشاطرَ عمر جماعةَ من عمّاله أموالهم، قيل: إن فيهم سعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة، وعمرو بن العاص عامله على مصر، وأبا هريرة عامله على

---

(١) سير اعلام البنلاء للذهبي ج١ ص٢١٧.

(٢) أصول السرخسي ج١ ص٣٤١.

البحرين، والنعمان بن عدي بن حرثان عامله على ميسان، ونافع بن عمرو الخزاعي عامله على مكة ويعلي بن منية عامله على اليمن، وامتنع أبو بكرة من المشاطرة وقال: والله لئن كان هذا المال لله فما يحل لك أن تأخذ بعضاً وتترك بعضاً، وإن كان لنا فما لك أخذه»[1].

وقد أورد ابن أبي الحديد المزيد من التفاصيل عن الحوار الذي جرى بين عمر وأبي هريرة عندما عزله:

«وصادر أبا هريرة وأغلظ عليه. وكان عامله على البحرين.

فقال له: ألا تعلم أني استعملتك على البحرين وأنت حافٍ لا نعلَ في رجلك؟ وقد بلغني أنك بعتَ أفراساً بألفٍ وستمائة دينار!

قال أبو هريرة: كانت لنا أفراسٌ فتناتجت.

فقال: قد حبستُ لك رزقك ومؤنتك. وهذا فضل.

قال أبو هريرة: ليس ذلك لك.

قال: بلى والله! وأوجِعُ ظهرَك! ثم قام إليه بالدرة فضرب ظهره حتى أدماه.

ثم قال: ائتِ بها.

فلما أحضرها قال أبو هريرة: سوف أحتسبها عند الله.

قال عمر: ذاك لو أخذتها من حلّ، وأدّيتها طائعاً! أما والله ما رَجَت فيك أميمة أن تجبي أموال هجرٍ واليمامة وأقصى البحرين لنفسك، لا لله ولا للمسلمين.

ولم ترجُ فيك أكثر من رعية الحمر!

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٥٧.

وذكر الشيخ أبو رية نقلا عن فتوح البلدان للبلاذري أن عمر بن الخطاب كتب إلى العلاء، وهو عامله على البحرين، يأمره بالقدوم عليه. وولّى عثمان بن العاص الثقفي البحرين وعمان. فلما قدم العلاء المدينة ولأه البصرة مكان عتبة بن غزوان، فلم يصل إليها حتى مات وذلك في سنة ١٤ أو ١٥ للهجرة. ثم إن عمر ولّى قدامة بن مظعون الجمحي جباية البحرين ثم عزله وحدّه على شرب الخمر، وولّى أبا هريرة مكانه ثم عزله وقاسمه ماله. ثم ولّى عثمان بن أبي العاص البحرين وعمان.

وعَزَله»[1].

وجديرة بالملاحظة تلك اللغة القاسية، بل والجارحة، التي يستعملها عمر مع أبي هريرة، التي وصلت إلى حدّ قوله له إنه لا يصلح إلاّ لرعي الحمير!

علاقة أبي هريرة ببني أمية

وفيما يلي كلمة للشيخ أبي رية حول علاقة أبي هريرة مع بني أمية:

»أنه لما رأى أن بني أمية قد وثبوا على الحكم، وقبضوا على زمامه، بعد مقتل علي رضي الله عنه، وأنهم قد أصبحوا ملوكاً على بلاد المسلمين، بيدهم الأمر والنهي، والحل والعقد، والرفع والخفض، اندفع بسائق من طبيعته إلى انتهاز هذه الفرصة التي سنحت لبغاة المغانم وطلاب الرغائب، ولم يلبث أن رنا إلى غرض وضَعَه نصب عينيه، وآلى على نفسه ليبلغنّه بأية وسيلة حتى يصل إليه: وهذا الغرض أن يتخذ له مكاناً في هذه الدولة الجديدة، يجعل له شأناً بين الناس، بعد أن كان مغموراً في زمن النبي وخلفائه الأربعة، وبذلك يتمكن من أن يشارك في أسلابها ويساهم في مغانمها ـ وأنى له ذلك وهو يومئذ في الساقة من عامة الصحابة ليس له شأنٌ يذكر ولا عملٌ يؤثر؟ فلم يكن من دهاة السياسة ولا من أبطال الحروب، وليس هو بشاعر ولا خطيب، ممن تحتاج إليهم الدولة إبان نشأتها، وبخاصة مثل دولة بني أمية الباغية التي قامت على أساس غير سليم، وسارت في طريق غير مستقيم.

من أجل ذلك كان عليه هو ـ بما يعرف من نفسه ـ أن يطلب لهذا الأمر ويتخذ له السبيل التي تنتهي به إلى مبتغاه. فوجد أن هذه الدولة الناشئة ـ وإن كانت قد أقامت بناءها على قواعد من الدهاء والمناورة والظلم والبغي ـ بحاجة شديدة إلى دعم هذا البناء حتى لا ينهار، فيخرج الناس عليهم وينفضّوا من حولها، ويخلعوا أيديهم من طاعتها.

ولا يكون ذلك إلاّ بأسانيد قوية تحميها من العوادي. وإن أقوى هذه الأسانيد

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٢ ص٤٢.

بعد القوة المادية ولا ريب، أن تكون من قبل الشخصية العظمى التي تعنو لها الجباه، وتخضع لها الرقاب. تلك هي شخصية محمد ﷺ. فيروي لها من أحاديثه ما يؤيدها ويشد أزرها. وقد كان الحديث النبوي يومئذ ـ وإلى اليوم ـ أقوى سلاح وأشده في سبيل تأييد الدعوات والادعاءات! سواء للأفراد أو للجماعات في البلاد الإسلامية كافة.

ولما أحكمَ هذا الرأي، وتمثلت له هذه الحقيقة، أخذ على نفسه أن يعدّ هو هذا السلاح لدولة بني أمية، ويكفيهم مؤونته، فيمدّهم بالأحاديث التي تؤيدهم، وتصرف وجوه الناس عن عدوهم ـ وعدوهم حينئذ كان علياً رضي الله عنه.

وقد أعانه على ذلك أن أحاديث الرسول لم تكن مدونة ومحفوظة كالقرآن الكريم بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يزيد فيها أو ينقص منها. وبذلك كان باب (الوضع) مفتوحاً على مصراعيه، يدخل فيه كل من أراد الوضع. ثم ساعده كذلك أن كبار الصحابة الذين يخشاهم، كانوا قد ماتوا في عهد معاوية، وبخاصة عمر الذي منعه من الرواية وأنذره بالنفي إلى بلاده، إذا هو روى، وكان يضربه بدرّته لرواية الحديث، حتى صرّح أبو هريرة نفسه بأنه ما كان يستطيع أن يروي الحديث وعمر حي»[1].

علاقة أبي هريرة مع معاوية أيام حربه ضد الإمام عليّ

رضي أبو هريرة لنفسه أن يكون مرسالاً لمعاوية بن أبي سفيان إلى الإمام عليّ قبيل معركة صفين. وفي تلك الفترة كان معاوية حريصاً جدا على أن يطرح نفسه كصاحب مطلب بسيط وشرعيّ وهو القصاص من قتلة عثمان، ولم يكن حينها معاوية قادراً بعدُ على إعلان نفسه كخليفة منافس لعليّ. وكان معاوية في مرحلة حشد أهل الشام خلفه ودفعهم للقتال معه ولذا كان يريد أن يثبت لهم أن علياً قتل عثمان، والدليل أنه يرفض تسليم قاتليه. وكان معاوية بحاجة إلى شهود له على ذلك، وبالتالي فأن أبا هريرة كان مناسباً للقيام بهذا الدور لأن معاوية سيقوّل لعموم

(١) «شيخ المضيرة» لمحمود أبو رية ص٢٢٥ـ٢٢٦.

جماعته: هذا أحد أصحاب رسول الله يشهد على علي؟ ولست أنا وابن العاص فقط مَن يقول بذلك.

قال معاوية لأبي هريرة وأبي الدرداء لما قدما عليه:

«لستُ أزعم أني أولى بهذا الأمر من عليّ. ولكني أقاتله حتى يدفع إليّ قتلة عثمان.

فقالا: إذا دفعهم إليك ماذا يكون؟

قال: أكون رجلاً من المسلمين. فأتيا علياً فإن دفع إليكما قتلة عثمان جعلتها شورى».

وطبعاً كان معاوية يعرف جوابَ عليّ الأكيد على هذا المطلب.

وهكذا إذن ذهب أبو هريرة إلى الإمام عليّ يطالبه ليس فقط بتسليم «قتلة عثمان» ولكن أيضا بالتنحّي عن الحكم وجعلها شورى (شورى قريش بالتأكيد)!

ولمّا رفض الإمام عليّ طبعاً، عاد أبو هريرة إلى الشام بالأخبار التي يمكن لمعاوية أن يستغلّها على أحسن وجه في دعايته الموجهة لعامة أهل الشام.

وقد أثار هذا الدور الذي لعبه أبو هريرة استياء الكثيرين من أصحاب الضمير الحي، حتى من أهل الشام أنفسهم! فيروي صاحب الإمامة والسياسة:

«وإن أبا هريرة وأبا الدرداء انصرفا إلى منزلهما بحمص. فلما قدما حمص لقيهما عبد الرحمن بن عثمان (الأشعري) فسألهما عن مسيرهما فقصّا عليه القصة.

فقال: العجب منكما أنكما من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما والله لئن كففتما أيديكما فما كففتما ألسنتكما. أتأتيان علياً وتطلبان إليه قتلة عثمان وقد علمتما أن المهاجرين والأنصار لو حرّموا دم عثمان نصروه، وبايعوا علياً على قتلته، فهل فعلوا؟ وأعجب من ذلك رغبتكما عمّا صنعوا، وقولكما لعلي: اجعلها شورى واخلعها من عنقك! وإنكما لتعلمان أن مَن رضي بعليّ خيرٌ ممن كرهه، وأنّ مَن بايعه خيرٌ ممن لم يبايعه. ثم صرتما رسولي رجل من الطلقاء لا تحلّ له الخلافة»[1].

---

(١) هذا الخبر عن أبي هريرة وأبي الدرداء وذهابهما حاملين رسالة معاوية لعليّ ولوم عبد الرحمن لهما من الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص١٢٨ـ ١٢٩.

ورغم أن أبا هريرة لم يشترك في معركة صفين مباشرة، إلاّ أن ابنه قام بالمهمة على أكمل وجه! فكان بلال بن أبي هريرة من ضمن قوات معاوية. ويبدو أنه كان فعّالاً ومخلصاً فعيّنه معاوية قائداً لرجّالة الميسرة[1].

*****

ورغم أن العلاقة التنظيمية بين معاوية وأبي هريرة قد تبلورت ورسخت بعدما انفرد بمقاليد الحكم، إلاّ أنها في الواقع قد بدأت حتى أيام كان عليّ لا زال على قيد الحياة.

فقد ذكر ابن أبي الحديد[2] أن بسر ابن أرطأة القرشيّ ـ المبعوث من قبل معاوية ـ في نهاية غزوته الوحشية على المدينة المنورة ولّى أبا هريرة على المدينة حين انصرف عنها، وأمرَ أهلها بطاعته وحذرهم من عصيانه، فكان يصلّي بهم.

وذكر الطبري[3] أنه لما جاءهم جارية ابن قدامة من قبل أمير المؤمنين عليّ في ألفي فارس، وأبو هريرة يصلّي في الناس، هربَ من وجهه. فقال جارية: «لو أخذتُ أبا سنور لضربتُ عنقه».

وبلغ جارية وهو في الحجاز استشهاد أمير المؤمنين عليّ في الكوفة، فأخذ البيعة من أهل المدينة للحسن بن عليّ ثم عاد إلى الكوفة، فرجع أبو هريرة يصلّي بالناس.

المنصب الرسمي لأبي هريرة

ولما تمّت سيطرة معاوية على مقاليد الحكم، اعتمده كراوية رسميّ للحديث النبوي في دولته الأموية، وكان يجمع الناس ليسمعوا له طوال الليل!

«تواعدَ الناس ليلةً من الليالي قبّةً من قبابِ معاوية، فاجتمعوا فيها. فقام أبو

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص١٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص١١.

(٣) تاريخ الطبري ج٤ ص١٠٧. والسنور هو الهر. وقريبٌ من ذلك ورد في تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٩٩.

هريرة يحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبحَ»[1].

وقد وصفَ أحدهم حالَ أبي هريرة، مستمتعاً بمنصبه، وهو يؤدي دوره الرسمي كمحدِّث عن رسول الله ﷺ:

«... وهو على سريرٍ له، وأسفل منه جاريةٌ له سوداء، ومعه كيسٌ فيه حصى أو نوى يقول سبحان الله سبحان الله، حتى إذا أنفذ ما في الكيس ألقاه إليها فجمعته فجعلته في الكيس ثم دفعته إليه. فقال لي ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ؟...»[2].

وحرص الأمويون على دعم محدثهم الرسمي أبي هريرة. فأشاعوا عنه أن أحاديثه صحيحة ودقيقة، وأنه كان يتمتع بذاكرةٍ فريدةٍ من نوعها تجعله مؤهلاً ليروي ذلك الكمّ الضخم من الأحاديث عن النبيِّ ﷺ، وهو الذي لم يخالطه سوى فترة قصيرة.

فقد روى ابن عساكر عن كاتب مروان بن الحكم «إن مروان أرسلَ إلى أبي هريرة. فجعلَ يسأله.

وأجلسَني وراء الستر، أكتبُ عنه.

حتى إذا كان في رأس الحول، أرسلَ إليه فسأله، وأمرَني أن أنظر.

فما غيّر حرفاً عن حرف»[3].

وهكذا يريد مروان بن الحكم أن يقول للرعية إن أبا هريرة ثقة وحافظ، إلى درجة أنه لما سجّل أحاديثه وراجعه بها بعد سنةٍ كاملة، لم يغيّر منها حرفاً!

مناصب إدارية لأبي هريرة

ولم يكتفِ معاوية بذلك المنصب الإعلاميّ الرفيع الذي منحه لأبي هريرة، بل كان يتجاوز ذلكَ إلى تعيينه في مناصب إدارية عليا في دولته. وقد بلغ من علوّ شأنه

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٧ ص٣٤١.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٧ ص٣٢٧.
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٧ ص٣٤١.

عند معاوية أنه كان يُداول منصبَ والي المدينة بينه وبين ابن عمه مروان بن الحكم[1]! ومروان شخصيةٌ مركزيّةٌ في دولة بني أمية في عهد معاوية، وما بعد معاوية، وكون معاوية داولَ منصبَ ولاية المدينة بينه وبين أبي هريرة يشير إلى مدى الثقة التي كان معاوية يضعها في راويته أبي هريرة! وحتى عندما يكون مروان والياً فإن أبا هريرة هو نائبه[2].

وقد روى اليعقوبي أن أبا هريرة هو الذي صلى على عائشة لما توفيت عام ٥٨ للهجرة، بحكم منصبه يومذاك«وكان خليفةً على المدينة»[3].

وجديرٌ بالذكر أن الداهيتين، معاوية ومروان، كانا يجيدان التعامل مع أبي هريرة، ويدركان أهمية إعطائه من النّعم والأموال حتى يستمر في أداء دوره المطلوب. وكان أبو هريرة بدوره يدرك مدى أهميته لديهما، ولا يتوانى عن تذكيرهما بأنه يملك سلاحاً مهماً، سلاح الرواية عن رسول الله ﷺ، إذا ما بدر منهما تقصيرٌ بشأنه! فالتعامل كان مالياً[4]، والأحاديث التي يرويها عن النبي ﷺ مرتبطة بحالة أبي هريرة النفسية ودرجة رضاه في تلك اللحظة عن الحاكمين!

فمثلاً جاء في صحيح البخاري عن عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده «كنت مع مروان وأبي هريرة فسمعت أبا هريرة يقول: سمعت الصادق المصدوق يقول: هلاك أمتي على يدي غلمةٍ من قريش. فقال مروان: غلمة؟

قال أبو هريرة: إن شئتُ أن أسمّيهم بني فلان وبني فلان»[5].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٧ ص٣٧٢. وذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ ج١ ص٣٤ أن أبا هريرة «وليَ إمرة المدينة، ونابَ أيضاً عن مروانٍ في إمرتها ».وذكر في موضع آخر ص٣٦ «كان معاوية يبعث أبا هريرة على المدينة، فإذا غضبَ عليه بعثَ مروانَ وعزله، فلم يلبث أن بعث أبا هريرة ونزعَ مروان».

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ ص٣٣٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٣٨.

(٤) وقد روى ابنِ عساكر في تاريخ دمشق ج٦٧ ص٣٧٣ـ٣٧٤ عن سعيد بن المسيّب «كان أبو هريرة إذا أعطاه معاوية سكتَ وإذا أمسكَ عنه تكلم»وأيضا «كان أبو هريرة يسبّ مروان، فإذا أعطاه سكتَ». وذلك يلقي بعض الضوء على الطابع المالي للعلاقة بين الحاكمين وبين أبي هريرة.

(٥) صحيح البخاري باب علامات النبوة ج٤ ص ٢٤٢.

وهنا لا بدّ من ملاحظة: أن أبا هريرة قد تصرّفَ بالحديث النبوي، الذي قال أنه سمعه من النبيﷺ. فالأمانة كانت تقتضي أن ينقله كما قالـه الرسـولﷺ دون أن يخفي الأسماء التي ذكرها. وليس من حقه استعمال تعبير «بنـي فـلان وفـلان»، لأنـه يُخرج كلام النبيﷺ من سياقه ويفرغه من مضمونه.

ولكن يبدو أن أبا هريرة كان غاضباً في ذلك الموقف، فـأراد أن يـذكّر مـروان «بحقوقه«عليه! وبأنه يمكنه أن يعلن مَن هم «بني فلان وبني فلان» الذين حذر مـنهم الرسولﷺ، إلاّ إذا دفع مروان ثمن ذلك السكوت[1].

انقلاب أحوال أبي هريرة والفوائد التي جناها من علاقته بالأمويين

جاء في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر «وأخرج ابن سـعد عـن طريـق قرة بن خالد قلت لمحمد بن سيرين: أكانَ أبو هريرة مخشوشناً؟

قال: لا. كان ليناً.

قلت: فما كان لونه؟

قال: أبيض وكان يخضب وكان يلبس ثوبين ممشقين. وتمخّط يوماً فقـال: بـخ بخ أبو هريرة يتمخّط في الكتان»[2].

وروى البخاري «كنا عند أبي هريرة وعليه ثوبان ممشـقان مـن كتـان. فـتمخط فقال: بخ بخ أبو هريرة يتمخط في الكتان. لقد رأيتنـي وإنـي لأخـرّ فيمـا بـين منبـر رسول اللهﷺ إلى حجرة عائشة مغشيًا عليّ فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقـي ويرى أني مجنون وما بي من جنون. ما بي إلاّ الجوع»[3].

---

(١) ومن غرائب الأمور أنه ورد في مقدمة كتاب الإصابة لابـن حجـر العسـقلاني ص٧٦ رأيٌ حـول هـذا الحـديث المذكور أعلاه. وهذا الرأي يقلب النقيصة إلى فضيلة! فبدلا من التساؤل عن السبب الذي جعل أبا هريـرة يخفـي الأسماء التي ذكرها الرسولﷺ، ويكنّي بدلا منها، ينال أبو هريرة المديح لأنه تلطّف وأذاع الحـديث (المعـدل) الذي فسّر على أنه «وفي ذاك تعريضٌ ظاهرٌ ببعض أمراء بني أمية، وتحريضٌ على اعتزالهم»!

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج٧ ص٣٥٤. وأيضاً الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ ص٣٣٤.

(٣) صحيح البخاري ج٩ ص١٢٨ باب ما ذكر النبيﷺ وحض على اتفـاق أهـل العلـم. وكـذلك ورد فـي سـنن الترمذي ج٤ ص١٢.

وقال الذهبي عن أبي هريرة أنه كان يقول وهو أميرٌ للمدينة:

«نشأتُ يتيماً، وهاجرتُ مسكيناً، وكنت أجيراً لابنة غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي. أحدوا بهم إذا ركبوا وأحتطب إذا نزلوا. فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وأبا هريرة إماماً»[1].

وقد لازمته عقدة النقص تلك. ولذلك كان عندما ولاّه الأمويون إمرة المدينة المنورة:

«كان يمر في السوق يحمل الحزمة وهو يقول: أوسعوا الطريق للأمير! وكان فيه دعابة رحمه الله»[2].

إذن لم يكن أبو هريرة يصدّق نفسه، من جرّاء تلك النعم التي تنهال عليه من طغاة بني أمية. ولذلك كان يريد أن يذكّر الناس ـ وربما ليذكّر نفسه قبلهم ـ بأنه أصبح «أميراً»!

أبو هريرة يرد الجميل لبني أمية

كان لا بد لأبي هريرة أن يرد الجميل لبني أمية. ومن ذلك أنه روى الحديث التالي عن النبيﷺ، والوارد في صحيح البخاري:

«تجدون الناس معادن: خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. وتجدون خيرَ الناس في هذا الشأن أشدّهم له كراهيةً...»[3].

ومن المؤكد أنه لا يمكن لشيءٍ أن يسعدَ معاوية وابن العاص ومروان وبقية الطلقاء أكثرَ من هكذا قول ينسبه أبو هريرة إلى النبيﷺ، ويحول فيه فجأةً ألعنَ أعدائه إلى «خير الناس «في ذلك الزمان!

*****

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٣٤.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٣٤.

(٣) صحيح البخاري باب المناقب ج٤ ص٢١٧ وأيضا باب علامات النبوة ج٣ ص ٢٣٨.

ولكي يجد أبو هريرة مخرجاً لبني أمية من وزر الدماء التي سالت، وعشرات الألوف من المسلمين الذين قتلوا بسبب بغي معاوية وحلفائه، روى حديثاً من شأنه تسفيه عملية القتل بحد ذاتها، والتهوين من شأنها، ووضعها في إطار كوميدي، بحيث يكون قتل المسلم للمسلم أمراً «بسيطاً» يمكن أن يثير «ضحك» الله، ويمكن أن يذهب بعده القاتل إلى الجنة!

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يضحك الله لرجلين، يقتل أحدهما الآخر. كلاهما يدخل الجنة!

فقالوا: كيف؟ يا رسول الله!

قال: يقتل هذا فيلج الجنة. ثم يتوب الله على الآخر فيهديه إلى الإسلام. ثم يجاهد في سبيل الله فيستشهد»[1].

*****

وكذلك روى أبو هريرة «نبوءات» نبوية حول ظهور معاوية وأهل الشام، من أجل ترسيخ فكرة أن تلك هي «الإرادة الإلهية»:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بالمدينة والملك بالشام»[2].

فيريد أبو هريرة أن يقول لسامعيه من المسلمين إن النبي ﷺ ذاته قد قال إن الملك بالشام، وبالتالي فإن ملك معاوية أمرٌ طبيعيٌ ولا بأسَ به إذن!

*****

وعن معمر «قال لي الزهري: ألا أحدثك بحديثين عجيبين؟ قال الزهري: أخبرني حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

أسرفَ رجلٌ على نفسه، فلما حضَرَه الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مِتَ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في الريح في البحر!

---

(١) صحيح مسلم باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ص٧٣٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٢٢، نقلا عن البيهقي.

فوالله لئن قدر عليّ ربّي ليعذّبني عذاباً ما عذّب به أحداً.

قال: ففعلوا ذلك به.

فقال للأرض: أدّي ما أخذت. فإذا هو قائمٌ.

فقال له: ما حملك على ما صَنعتَ؟

فقال: خشيتكَ يا ربّ ـ أو قال مخافتك.

فغفرَ له بذلك»[1].

وفي هذا الحديث، يظهر ذلك المسرف وقد مات مصراً على تمرّده، يائساً من روح الله، فاراً من سلطانه إلى حيث لا تناله، كما يظن، قدرة الله. ومع ذلك فهو ينال المغفرة.

وهذا الحديث مصمّمٌ ليهوّن على الطغاة جرائمهم، وليعزّيهم عن موبقاتهم.

وهو ينسجم مع حديث آخر رواه أبو هريرة، وفيه يقول الله لإنسان مذنبٍ «اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك».

*****

وأبو هريرة كان حريصاً جداً، على ما يبدو، على مراعاة «مشاعر» معاوية وسمعته! ولذا لجأ إلى التكنية بـ«فلان» مكان اسم أبي سفيان. وهذا ظاهرٌ من الحديث في صحيح البخاري عن أبي هريرة:

«بعثنا رسول اللهﷺ في بعثٍ. وقال لنا: إن لقيتم فلاناً وفلاناً، لرجلين من قريش سمّاهما، فحرّقوهما بالنار.

قال: ثم أتيناه نودّعه حين أردنا الخروج.

فقال: إني كنت أمرتكم أن تحرّقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وإن النار لا يعذّب بها إلاّ الله. فإن أخذتموهما فاقتلوهما»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة ص ١٠٢٩.

(٢) صحيح البخاري باب التوديع ج٤ ص ٦٠.

وأخذاً بعين الإعتبار أن أبا هريرة أسلم في السنة السابعة للهجرة، فإن أبا سفيان يكون بعدها أهمّ شخص له وزنٌ من قريش قد بقي ويستحقّ أن يخطط الرسولﷺ لقتله. ولكنّ أبا هريرة قرر إبقاء الإسمين طيّ الكتمان.

*****

وقدّرَ معاوية خدماته كثيراً وأمَرَ بإكرام ورثته عندما مات عام ٥٨ للهجرة. فقد جاء في الإصابة لابن حجر: «وكتبَ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان إلى معاوية يخبره بموته. فكتبَ إليه: انظر من تركَ فادفع إلى ورثته عشرة آلاف درهم وأحسن جوارهم فإنه كان ممن نصرَ عثمانَ يوم الدار

... وكانت وفاته بقصره في العقيق،فحُمل إلى المدينة»[1].

ومن الجدير بالملاحظة أنه كان له قصرٌ في العقيق!

اتهام الناس له

جاء في صحيح البخاري أن أبا هريرة قال:

«إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديثَ على رسول اللهﷺ. والله الموعد.

إني كنتُ امرءً مسكيناً ألزم رسولَ اللهﷺ على ملئ بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق. وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم.

فشهدتُ من رسول اللهﷺ ذات يوم وقال: مَن يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يقبضه، فلن ينسى شيئاً سمعه مني؟

فبسطتُ بردةً كانت عليّ.

فوالذي بعثه بالحق، ما نسيت شيئاً سمعته منه»[2].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج٧ ص٣٦١. وروى مثل ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٦٧ ص٣٩١. وأيضاً الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص٣٤٠.

(٢) صحيح البخاري ج٩ ص١٣٣ باب الحجة على من قال أن أحكام النبيﷺ كانت ظاهرة. وكذلك ج١ ص٤٠ باب حفظ العلم.

وفي رواية أخرى أنه أضاف عن المهاجرين والأنصار«فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون».

وهكذا فإن أبا هريرة، وهو شخصٌ لا يذكر البتة في المعايير الإسلامية، حيث لا فضلَ ولا سابقة ولا جهاد، يسمح لنفسه أن يقول عن المهاجرين الأولين والأنصار السابقين أنهم كانوا مشغولين بالأموال والأسواق، بينما هو يحضر حيث يغيبون، ويعي حين ينسون!

إن أبا هريرة يتجاوز حدّه في هذا القول، الذي أعلنه في زمن معاوية.

*****

ولم يكتفِ الناس في ذلك العصر بإعلان اندهاشهم واستنكارهم لإفراط أبي هريرة في الحديث عن رسول الله ﷺ، بل ذهب الكثيرون إلى حد اتهامه بالكذب الصريح، ويظهر ذلك من قول أبي رزين:

«خرج إلينا أبو هريرة فضرب بيده على جبهته فقال: ألا إنكم تحدثون أني أكذب على رسول الله ﷺ، لتهتدوا وأضلّ. ألا وإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمشي في الأخرى حتى يصلحها»[1].

واضحٌ تماماً أن أبا هريرة يحاول جاهداً دفعَ التهمة التي كانت شائعة بين الناس، وتبرئة نفسهِ من كبيرة الكذب على لسان النبي ﷺ.

ويبدو أنه قد شاع كثيراً بين الناس تكذيب أبي هريرة والتهكم به والسخرية منه! فمثلاً روى ابن عساكر:

«أن رجلاً من قريش أتى أبا هريرة في حلة يتبختر فيها. فقال: يا أبا هريرة! إنك تكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، فهلْ سمعته يقول في حلتي هذه شيئا؟!

---

(١) صحيح مسلم، كتاب اللباس، باب استحباب لبس النعل ص٨١١

قال: والله إنكم لتؤذوننا، ولولا ما أخذ الله على أهل الكتاب (ليبيّننـه للنـاس ولا يكتمونه) ما حدّثتكم بشيئ.

سمعنا أبا القاسم يقول: إن رجلاً ممن كان قبلكم بينما هو يتبختر في حلةٍ، إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها حتى تقوم الساعة!

فوالله ما أدري لعله كان من قومكَ»[1].

وهذا الرجل ـ كما يبدو من سؤاله ـ لم يكـن مسـتفهماً، وإنمـا كـان مسـتهزئا متهكماً. وردّة فعل أبي هريرة، العصبية والحادة، تدلّ على ذلك.

أبو هريرة يستفزّ الصحابة

وصار الدور الذي يلعبه أبـو هريـرة، كـأكبر راويـة لأحاديـث الرسـولﷺ، اعتمدته الدولة كمحدّث رسميّ لها، مثارَ استنكارٍ لعددٍ منَ الصحابة الذين طـالَ بهـم العمر ليشهدوا تصدّرَ أبَي هريرة لهذا الأمر الحسّاس.

وكان غضب هؤلاء الصحابة لسببين: الأول هو الحـرص علـى صـحّة حـديث النبيﷺ، والشعور بأن أبا هريرة كان يحـدّث بمـا قالـه ومـا لـم يقلـه النبـيﷺ. والثاني هو الشعور بأن أبا هريرة يحاول أن يرقى بنفسه إلى مستوى لـيس هـو بأهـلٍ له، لأنه لم تكن له صحبةٌ حقيقية للنبيﷺ. وأبو هريرة بنظرهم يسعى لنزع تميّزهمِ بين الناس، فينافسهم في الحديث عن النبيﷺ، بل ويزيد علـيهم جميعـاً، ليجعـلَ نفسَه مرجعاً للعامة.

فسعد بن أبي وقاص لم يُطِق ما يحدّث به أبو هريرة، إلـى درجـةٍ دفعتـه إلـى الاشتباك معه!

«حدّث أبو هريرة، فردّ عليه سعد.

فتواثبا حتى قامت الحجزة وارتجّت الأبواب بينهما».

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٧ ص٣٥٤.

وأما أم المؤمنين عائشة، فقد كانت أكثرت من إنكارها على أبي هريرة ما يرويه، وتدخّلت في كثير من الأحيان لنفي ما يرويه أبو هريرة عن النبيﷺ، أو تصحيحه. فمثلاً:

«عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً.

قالت عائشة: لم يحفظ الحديث! إنما قال رسول اللهﷺ: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خيرٌ من أن يمتلئ شعراً هُجيتُ به».

وأيضاً:

«إن رجلين من بني عامر دخلا على عائشة فقالا لها إن أبا هريرة يحدّث عن رسول اللهﷺ أن الطيرة في الدار والمرأة والفرس.

فغضبت من ذلك غضبا شديداً وطارت شقة منها في السماء وشقة في الأرض.

فقالت: كذبَ والذي أنزل الفرقان على أبي القاسمﷺ ما قاله. إنما قال: كان أهل الجاهلية يتطيّرون من ذلك».

وأيضا:

«كنا عند عائشة. فدخل أبو هريرة.

فقالت: أنت الذي تحدّث أن امرأة عذبت في هرةٍ لها، ربطتها فلم تطعمها ولم تسقها؟!

فقال: سمعته من النبيﷺ.

فقالت: هل تدري ما كانت المرأة؟ إن المرأة مع ذلك كانت كافرة. وإن المؤمن أكرم على الله من أن يعذبه في هرة.

فإذا حدثتَ عن رسول اللهﷺ، فانظر كيف تحدّث».

ولكن أبا هريرة كان واثقاً من دعم السلطات له، ورغبتها بحديثه، ولذلك لم يتردد في الرد على عائشة حين قالت له إنه أكثرَ من الحديث عن النبيﷺ:

«إني والله لم تشغلني عنه المكحلة ولا المرآة ولا الخضاب!».

وانضم عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى المستنكرين لأبي هريرة، فاتهمه بأنه يحرّف في كلام الرسولﷺ بما يتناسب مع مصلحته هو:

«عن ابن عمر أن رسول اللهﷺ أمر بقتل الكلاب، إلاّ كلب ماشيةٍ أو صيد.

قيل لابن عمر: إن أبا هريرة يقول: أو كلب زرع!

فقال: إنّ لأبي هريرة زرعاً»[1].

فابن عمر يعلن أن أبا هريرة أضافَ، من عنده هو، استثناءَ كلابِ الزرع من تلك التي أمَرَ النبيﷺ بقتلها لأنه كانت له مزارع ويحتاج فيها لذلكَ النوع من الكلاب!

وذكر السرخسي «ورُوي أن عائشة قالت لابن أخيها: ألا تعجب من كثرة رواية هذا الرجل، ورسول اللهﷺ حدث بأحاديث لو عدها عاد لأحصاها»[2].

دفاعه عن نفسه ودفاع الآخرين عنه

ولكي يواجه مشاعر العجب التي يبديها عموم المسلمين تجاه كثرة رواياته، بينما لا يروي مثله الصحابة الأولون من المهاجرين والأنصار، قدّم أبو هريرة تفسيراً عجيباً لهذه الذاكرة الواسعة التي كانت لديه:

وفيما يلي النص من صحيح البخاري:

«عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: إني سمعت منك حديثاً كثيراً فأنساه. قال: ابسط رداءك. فبسطت. فغرف بيده فيه ثم قال: ضمّه. فضممته. فما نسيتُ حديثاً بعد»[3].

---

(١) هذه الروايات الستة من تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٧ ص٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٢.

(٢) أصول السرخسي ج١ ص٣٤١.

(٣) صحيح البخاري آخر حديث في الجزء الرابع ص ٢٥٣.

فالسرّ إذن هو في ثوب أبي هريرة! فهو يتكلم عن ردائه الذي بَسَطه وضمّه فلم يعد ينسى.

وقد ورد أيضاً في مقدمة كتاب الإصابة لابن حجر دفاعٌ شديدٌ عن أبي هريرة:

«إن أبا هريرة بحكم تأخر إسلامه إلى سنة سبعٍ من الهجرة، قد فاته الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ، فكان عليه لكي يستكمل علمه بالحديث أن يأخذه من الصحابة الذين سمعوه من النبي ﷺ، شأنه في ذلك شأن سائر الصحابة الذين لم يحضروا مجالسه صلى الله عليه وسلم، إما لاشتغالهم ببعض أمور الدنيا، وإما لحداثة سنهم وإما لتأخر إسلامهم أو لغير ذلك.

يؤيد ذلك ما ثبتَ عن حميد أنه قال: كنا مع أنس بن مالك فقال: والله ما كلّ ما نحدثكم عن رسول الله سمعناه منه. ولكن لم يكن يكذّب بعضنا بعضاً..........

ولا ينبغي أن يعدّ حذف الصحابيّ الذي سمعَ الحديثَ ولقنهم إياه من قبيل التدليس، إذ الصحابة كلهم عدول......

يقول ابن الصلاح في مقدمته: مرسل الصحابيَ مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصحابة عن رسول الله ولم يسمعوه منه في حكم الموصول المسند، لأن روايته من الصحابة، والجهالة بالصحابي غير قادحة، لأن الصحابة كلهم عدول»[1].

والحاصل أن هذا الدفاع قد اعترف صراحة، وأثبتَ، بتهمة التدليس على أبي هريرة. وعند المحدثين يعتبر التدليس مذموماً، وسبباً لعدم الأخذ بالرواية. والتدليس هو، باختصار، أن ينسبَ راوٍ كلاماً إلى شخصٍ لم يسمعه مباشرة منه بل سمعه من غيره، وبشكلٍ يوحي ظاهراً بأنه سمعه منه. فالتدليس إذن هو نوعٌ من الكذب.

وأما بشأن الصلة الوثيقة بين أبي هريرة والحكام الأمويين، فقد أقرّ بها حتى أشد المدافعين عن أبي هريرة والمعجبين به. فمثلاً يقول عبد المنعم العزي، وهو

---

(١) نقلا عن مقدمة كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ص٦٨.

الذي تخصّصَ في المنافحة عن أبي هريرة والهجوم على كل منتقديه، يقول عن علاقة أبي هريرة بمروان بن الحكم:

«... فإن مروان بدافع من قرابته لعثمان رضي الله عنه، وتثميناً لموقف أبي هريرة، قد وطّد علاقته بأبي هريرة ووثقها، حتى إن بعض تربية أولاده كانت على يد أبي هريرة فيما يبدو...

ونرى أن هذه الصلة القوية كان من نتائجها استخلاف مروان لأبي هريرة مرتين على المدينة حين كان يخرج حاجّا...

أخرج مسلم بسنده إلى كاتب الإمام علي، عبيد الله بن أبي رافع قال: (استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة، فصلى لنا أبو هريرة الجمعة).

وكان أبو هريرة مدة ولايته على المدينة يقضي بين الناس ويقيم الحدود، وأخبار قضائه ذكرها وكيع والدولابي»[١].

ورغم أن العزي يحاول أن يقدم تأويلات وتبريرات كثيرة للدفاع عن موقف أبي هريرة، إلاّ أنه أثبتَ له، دون قصد، مثلبة جديدة: تربيةً أبناء مروان بن الحكم! فلا شك أن سيرة عبد الملك بن مروان لا تشرّف أحداً ممن يعشقون الحق والخير، وبالتالي يمكن القدح في مربّي عبد الملك هذا. والعزي على أي حال، يصف عبد الملك ب «الخليفة الفقيه»!

الوعاء الثاني لأبي هريرة

جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال:

«حفظتُ من رسول اللهﷺ وعاءين. فأمّا أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»[٢].

---

(١) «أقباس من مناقب أبي هريرة» لعبد المنعم العزي ص١١٦ـ١١٧.

(٢) صحيح البخاري ج١ ص٤١ باب حفظ العلم.

فإذا كانت آلاف الأحاديث التي رواها عن الرسول صلى الله عليه وآله هي مجرّد أحد وعائين بثّهما للناس كما يقول، فإذن هو يحاول أن يوحي للناس بأن علاقته مع النبي صلى الله عليه وآله كانت أعمقَ وأوثقَ مما يتخيّلون، بدليل ذلك الوعاء الثاني الذي أبقاه سرياً ولم يبثه. وليس معروفاً ماذا يحتوي ذلك الوعاء الثاني.

ومن حق الباحث أن يتساءل: إذا كان أبو هريرة حريصاً فعلاً على إبلاغ المسلمين بأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله، فلماذا إذن لم يبثّ الوعاء الثاني وقرر إخفاءه؟ وهل هو ينتقي مثلاً من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله ما يشاء؟ وذلك الوعاء الثاني يحتوي أمورا خطيرة بلا شك، لأنه سيؤدي إلى قتله لو أعلنها كما يشير، فهل قرر إيثار السلامة وكتمان حديث الرسول صلى الله عليه وآله؟

والحقيقة في هذا الأمر أن أبا هريرة يحاول هنا إضفاء نوعٍ من الأهمية على شخصه، ولكنه جانَبه التوفيق هذه المرة، لأنه من المستحيل على العاقل تصديق أن الرسولَ صلى الله عليه وآله يختصّه هو، دوناً عن غيره من كبار الصحابة بأمرٍ على هذا القدر من الأهمية.

ويقول الشيخ أبو رية[1] تعليقاً على ادّعاء أبي هريرة:

«ومَن هو أبو هريرة حتى يؤثره النبي بشيء يخصّه به ويكتمه ويخفيه عن أصفيائه وأوليائه وأقرب الناس إليه؟ إنه لم يكن له أية ميزة من فضلٍ يدنو بها إلى النبي، ولا عدّ بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى من أية طبقة من طبقات الصحابة، فلا هو من السابقين الأولين، ولا من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من أهل العقبة الأولى ولا الثانية، ولا من العرفاء، ولا من الكملة في الجاهلية وأول الإسلام، ولا من شعراء النبي الذين نافحوا عنه، ولا من المفتين على عهد رسول الله ولا على عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يظهر إلاّ بعد الفتنة الكبرى. ولم يكن من القراء الذين حفظوا القرآن، ولا جاء في فضله حديثٌ عن رسول الله. وكل ما عرف عنه أنه كان من أهل الصفة، لا أكثر ولا أقل».

---

(١) شيخ المضيرة ص٢٤١.

ولكن أبا هريرة وجدَ مَن يدافع عنه! ففيما يلي نصّ ما وردَ في مقدمة كتاب الإصابة لابن حجر من دفاعٍ عن أبي هريرة فيما يختص بالحديث المذكور أعلاه، وهو كما يلي:

«ليسَ في الحديث ما يفيد أن رسول الله قد اختصّه بهذا الوعاء دون غيره من الصحابة.

وعلى تقدير أنه قد اختصّه بهذا الوعاء دون غيره من الصحابة، فليس فيه شيء من كتمان الوحي الذي أمر الله رسوله أن يبلغه الناس.

قال ابن كثير: هذا الوعاء الذي كان لا يتظاهر به هو الحروب والفتن والملاحم وما وقع بين الناس من الحروب والقتال، وما سيقع.

فالإخبار عن بعض الحروب والملاحم التي ستقع ليس مما يتوقف عليه شيء من أصول الدين أو فروعه. فيجوز للنبي أن يخصّ مثل هذا النوع من الوحي شخصاً دون الآخر أو فريقاً دون فريق»[1].

كيس أبي هريرة

روى البخاري عن أبي هريرة «قال النبيﷺ: أفضل الصدقة ما تركَ غنىً، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول. تقول المرأة: إمّا أن تطعمني وإمّا أن تطلقني. ويقول العبد: أطعمني واستعملني. ويقول الإبن: أطعمني إلى مَن تدعني.

فقالوا: يا أبا هريرة! سمعتَ هذا من رسول اللهﷺ؟

قال: لا! هذا من كيس أبي هريرة.»[2].

وقدحَ شارحُ صحيح البخاري زنادَ فكرهِ لكي يخرجَ بتأويلٍ يحفظ ماء الوجه لأبي هريرة. فعندما شرحَ ابن حجر العسقلاني هذا الحديث، قال إن هناك احتمالين

(١) من مقدمة كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ص٦٥.

(٢) صحيح البخاري كتاب النفقات ج٧ ص٨١

للكيس: الأول، وهو الأرجح، بكسر الكاف. ويكون المعنى في تلك الحالة «... إشارةٌ إلى أنه من استنباطِه مما فهِمَه من الحديث...».

والثاني بفتح الكاف. ويكون المقصود في تلك الحالة «...أي من فِطنته...»[1].

والغريب أن ابن حجر قد تجاهلَ حقيقة قول أبي هريرة «قال النبيّ...» وهذا تصريحٌ لا لبسَ فيه منه بأن الكلام هو كلام النبيﷺ. وحتى لو كان ابنُ حجرٍ حَسَنَ الظن جداً بأبي هريرة إلى الحد الذي يجعله متأكداً من أن استنباطات أبي هريرة أو فطنته، كما يقول، لا تتعارض مع حقيقة قول النبيﷺ ومقصده، إلاّ أنه كان عليه أن يشير إلى احتمال الخطل والزلل في كلام أبي هريرة. ولكن لا يوجد في كلام ابن حجر أيّ استنكارٍ لمزج أبي هريرة بين كلامه هو شخصياً، الذي يخرجه من كيسه، وبين حقيقة كلامِ النبيﷺ.

والأكيد أن أبا هريرة كان يبيح لنفسه أن ينسبَ للنبيﷺ أقوالاً وأحاديثَ لم يسمعها منه، بل ربما سمعها من غيره من الناس، أو ربما كانت مزيجاً من تأويلاته واعتقاداته هو أو غيره ممن هو ثقة عنده. والمشكلة أنه كان يفعل ذلك بطريقةٍ قاطعةٍ توحي للسامع أنه سمعَ القولَ من النبيﷺ فعلاً بدون أدنى شك!

دور أبي هريرة في إشاعة أحاديث الخرافات

كان لأبي هريرة دورٌ بارزٌ في إدخال الاسرائيليات إلى الحديث النبوي، عن طريق علاقته الوثيقة بالحاخام اليهودي الذي أسلمَ: كعب الأحبار. فكان يأخذ عنه ويمزج ما يحدثه به من أخبار التوراة بحديث الرسولﷺ.

روى ابن عساكر والذهبي[2]:

«عن أبي هريرة أنه لقي كعباً فجعلَ يحدثّه ويسائله.

فقال كعب: ما رأيتُ أحداً لم يقرأ التوراة، أعلمَ بما في التوراة من أبي هريرة».

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج٩ ص٤١٣ باب وجوب النفقة على الأهل والعيال.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٣٦.

وهكذا يبدو أن أبا هريرة كان وثيقَ الصلة بالحبر اليهودي الذي أسلم، فيسأله ويأخذ منه«العلم»وما ورد في توراة اليهود، إلى درجة أنه استحقّ تلك الشهادة من كعب! فلم يكن لأبي هريرة من طريقٍ ليتعمّق بما في التوراة سوى كعب، فلجأ إليه.

ويمكن ملاحظة الأثر الذي تركه كعب الأحبار في بعض الأحاديث التي رواها أبو هريرة وفيها تعظيمٌ شديد للنبي موسى بالذات، حتى على حساب الرسولﷺ نفسه! فمثلاً روى البخاري أن النبيﷺ قال «لا تخيّروني على موسى. فإنّ الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول مَن يفيق، فإذا موسى باطشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكانَ فيمن صعق فأفاقَ قبلي أو كان ممن استثنى الله»[1].

ولا شك أن هذه العلاقة بينهما كانت هي المدخل الذي تسرّبت بواسطته خرافات توراة اليهود إلى الإسلام. فقد كان الراوية أبو هريرة يخلط ما يحدّثه عن الرسولﷺ بما سمعه من كعب، على اعتبار أن كعباً ثقة عنده، ولن يكذب على الرسولﷺ. وفي أحيانٍ أخرى كان هذا الخلط يحصل من جمهور مستمعي أبي هريرة:

فقد روى ابن عساكر أيضاً عن بسر بن سعيد قال:

«كان يقوم فينا أبو هريرة فيقول: سمعت النبيﷺ يقول كذا كذا، سمعت كعباً يقول كذا كذا.

فعمدَ الناس إلى بعض ما روى عن كعبٍ فجعلوه عن النبيﷺ، وبعض ما روى عن النبيﷺ فجعلوه عن كعب»[2].

ولعب أبو هريرة الدور الأبرز في ترويج ونشر مقولات التجسيم والتشبيه بحق الله عز وجل.

فهو روى ما يفيد بأن الله يشبه الإنسان في شكله!

---

(١) صحيح البخاري باب قول الله تعالى إنما قولنا لشيئ ج٩ ص١٧٠.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٧ ص٣٤٣ و ص ٣٥٩.

«عن النبي ﷺ قال: خلق الله آدم على صورته. طوله ستون ذراعاً. فلما خلقه قال: إذهب فسلّم على أولئك النفر الجلوس من الملائكة...»[1].

وروى أيضا ما يفيد بأن الله «يتحرك» من مكان لآخر، صعوداً ونزولاً!

«ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر. يقول: من يدعوني فأستجيب له...»[2].

وروى أيضا أن لله أقداماً يستعملها!

«عن النبي ﷺ قال: اختصمت الجنة والنار إلى ربهما. فقالت الجنة: يا رب مالها لا يدخلها إلاّ ضعفاء الناس وسقطهم. وقالت النار: يعني أوثرت بالمتكبرين. فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي. وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك مَن أشاء. ولكلِّ واحدة منكما ملؤها. قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا. وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول هل من مزيد؟ ثلاثاً حتى يضعَ فيها قدمه فتمتلئ. ويرد بعضها إلى بعض وتقول قط قط قط»[3].

وهو روى أن الإنسان يمكن أن يرى الله، مباشرة وبلا أي تأويل:

عن أبي هريرة «أن أناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال رسول الله ﷺ: هل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر؟

قالوا: لا، يا رسول الله.

قال: هل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟

قالوا: لا، يا رسول الله.

قال: فإنكم ترونه كذلك.....»[4].

---

(١) صحيح البخاري ج٨ ص٦٢ كتاب الاستئذان، باب بدء السلام.

(٢) صحيح البخاري ج٢ ص٦٦ كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل.

(٣) صحيح البخاري ج٩ ص١٦٤ باب ما جاء في قول الله تعالى: إن رحمة الله قريب من المحسنين.

(٤) صحيح مسلم ص٨٧ كتاب الايمان.

وهو قد روى حديثا طويلا حول الرؤية أشار فيه بوضوح إلى موضوع «ضحك» الله!

«.... فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك! فيضحك الله عز وجل فيه، ثم يأذن له في دخول الجنة ...»[1].

وقد ساهمت أحاديث أبي هريرة هذه، وأمثالها، في شيوع أفكار التجسيد والتشبيه بحق الذات الإلهية لدى قطاع واسع من المسلمين. فمثلاً قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين[2] "... ونؤمن بأن لله تعالى يدين كريمتين عظيمتين... ونؤمن بأن لله تعالى عينين اثنتين حقيقيتين... ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة..»

ولا يمكن للباحث أن يتجنبَ إجراء مقارنة بين تلك الأحاديث التي رواها أبو هريرة عن الذات الإلهية وبين مفهوم الإمام عليّ:

«ومن كلام له عليه السلام وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيتَ ربك يا أمير المؤمنين؟

فقال عليه السلام: أفأعبدُ ما لا أرى؟

فقال: فكيف تراه؟

قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان.

قريبٌ من الأشياء غير ملامس، بعيدٌ منها غير مباين.

متكلمٌ بلا روية، مريدٌ بلا همة، صانعٌ بلا جارحة.

لطيفٌ لا يوصف بالخفاء، كبيرٌ لا يوصف بالجفاء.

بصيرٌ لا يوصف بالحاسة، رحيمٌ لا يوصف بالرقّة.

تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته»[3].

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص٢٠٥ كتاب الصلاة، باب فضل السجود.

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة، ص١١.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج١٠ ص٦٤.

وروى أبو هريرة أخباراً لا تليق أبداً بمقام الأنبياء، منها مثلاً أن النبي سليمان ضاجع ٩٩ امرأة في ليلةٍ واحدة!

«عن رسول الله ﷺ قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: قال: لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين، كلّهن يأتي بفارسٍ يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل إن شاء الله. فلم يحمل منهن إلاَّ امرأة واحدة جاءت بشقِّ رجل...»[1].

وذكر أبو هريرة أن النبيَّ موسى كان لا يريد الموتَ، فخاضَ صراعاً جسدياً مع عزرائيل وصفَعَه فقلعَ عينه!

فقد ورد في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال «أرسلَ مَلك الموت إلى موسى عليهما السلام. فلما جاءه صكّه فرجعَ إلى ربّهِ فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموتَ! فردّ الله عليه عينه....»[2].

وأيضا روى أن حَجراً اختطفَ ثيابَ النبي موسى، فلحقه ينادي: يا حجر!

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده. فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلاَّ أنه آدر.

فذهبَ مرّة يغتسل فوضعَ ثوبَه على حجرٍ، ففرّ الحجر بثوبه!

فخرجَ موسى في إثره يقول: ثوبي يا حجر!

حتى نظرت بنو اسرائيل إلى موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس.

---

(١) صحيح البخاري باب من طلب الولد للجهاد ج٤ ص ٢٧. وورد نفس الحديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان ولكن فيه: قطعة لحم.

(٢) صحيح البخاري باب مَن أحب الدفن في الأرض المقدسة ج٢ ص١١٣. وقد بذل الإمام ابن قتيبة مجهوداً كبيراً في محاولة تفسير هذا الحديث العجيب. فكان أفضل ما خرج به في «مختلف تأويل الحديث» ص ٢٥٧ القول «وقد جعل الله سبحانه للملائكة من الاستطاعة أن تتمثل في صور مختلفة». ولكنه عجز عن تفسير السبب الذي جعل موسى يعتدي بالضرب على ملك الموت فيصيبه بالعَوَر.

وأخذ ثوبَه فطفقَ بالحجر ضرباً!

فقال أبو هريرة: والله إنه لندبَ بالحجر ستة أو سبعة ضرباً بالحجر»[1].

ولا حاجة للتعليق كثيراً على مضمون هذه «الأحاديث». ولكن يمكن القول أنها، وغيرها الكثير مثلها، تقدّم الدليل الواضح لكل من يريد أن يتهم الإسلام أنه دين خرافات.

*****

وأبو هريرة هو صاحب الحديث الذي يوصي بغمس كلّ الذبابة في الطعام، إذا سقطت في الطبق، ثم التهامه، لأن جناح الذبابة يحمل الشفاء!

«عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا وقعَ الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله، ثم ليطرحه، فإنّ في أحدِ جناحيه شفاء وفي الآخر داء»[2].

مشكلة الرواية عن النبي قديمة جداً

وقد أبدع الإمام عليّ في تحليله لأنواع الرواة عن رسول الله ﷺ:

«ومن كلامٍ له عليه السلام، وقد سأله سائلٌ عن أحاديث البدع وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر، فقال عليه السلام:

إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً.

وقد كذبَ على رسول الله ﷺ على عهده، حتى قام خطيباً فقال: (مَن كذبَ عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).

وإنما أتاكَ بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس:

رجلٌ منافق، مظهرٌ للإيمان، مصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص٧٨ كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانا. والآدر هو من به مرض أو عيب كالبرص أو الفتق.

(٢) صحيح البخاري كتاب الطب ج٧ ص١٨١.

رسول الله صلى الله عليه وآله متعمداً. فلو علمَ الناسُ أنه منافق كاذبٌ لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله. ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، رآه وسمع منه ولقفَ عنه، فيأخذون بقوله. وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك. ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولّوهم الأعمالَ وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا. وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلاّ من عصمَ الله. فهذا أحد الأربعة.

ورجلٌ سمعَ من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه فوهِمَ فيه، ولم يتعمّد كذباً. فهو في يديه ويرويه ويعمل به ويقول أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله. فلو علم المسلمون أنه وهِمَ فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه.

ورجلٌ ثالث سمعَ من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً يأمر به ثم إنه نهى عنه، وهو لا يعلم. أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمرَ به، وهو لا يعلم. فحفظ المنسوخَ، ولم يحفظ الناسخ. فلو علم أنه منسوخٌ لرفضه. ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه.

ورجلٌ رابعٌ لم يكذب على الله ولا على رسوله. مبغضٌ للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله. ولم يَهِم بل حفظ ما سمعَ على وجهه، فجاء به على سمعه، لم يزد فيه ولم ينقص منه. فهو حفظَ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه. وعرف الخاصَ والعامَ والمحكمَ والمتشابه، فوضعَ كل شيءٍ موضعه.

وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان: فكلامٌ خاصٌ وكلامٌ عام. فيسمعه مَن لا يعرف ما عنى الله سبحانه به، ولا ما عنى رسول الله صلى الله عليه وآله. فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به، وما خرج من أجله. وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مَن كان يسأله ويستفهمه، حتى إن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا. وكان لا يمر بي من ذلك شيئ إلاّ سألته عنه وحفظته.

فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم»[1].

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١١ ص٣٩.

وفيما يلي رأي الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بأبي هريرة:

«روى محمد بن الحسن (صاحب أبي حنيفة) عن أبي حنيفة أنه قال: أقلّد من كان من القضاة المفتين من الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والعبادلة الثلاثة ولا أستجيز خلافهم برأيي، إلا ثلاثة نفر، وفي رواية: أقلد جميع الصحابة ولا استجيز خلافهم برأيي إلاّ ثلاثة نفر: أنس بن مالك وأبو هريرة وسمرة. فقيل له في ذلك فقال: أما أنس فاختلط في آخر عمره، وكان يستفتى فيفتي من عقله. وانا لا أقلد عقله. وأما أبو هريرة، فكان يروي كل ما سمع من غير أن يتأمل في المعنى ومن غير أن يعرف الناسخ من المنسوخ»[1].

وقد اعترفَ المتخصّصُ في الدفاع عن أبي هريرة، عبد المنعم العزي، بأن الإمام أبا حنيفة، ومن قبله الفقيه الكبير ابراهيم النخعي، كان لا يأخذ بأحاديث أبي هريرة[2]. وقال «كانوا يرون في أحاديث أبي هريرة شيئاً»وبالتالي كانوا لا يأخذون من حديث أبي هريرة إلاّ ما فيه صفة جنة أونار، أو حثّ على عمل صالح، أو نهي عن شرٍّ جاء القرآن به! ولم تكن أحاديث أبي هريرة حجة عنده، إلاّ إذا وافقت القياس الصحيح شرعاً لديه.

وأورد ابن حزم مثالاً على عدم اعتداد «أصحاب أبي حنيفة «بروايات أبي هريرة عند تطرقه لموضوع غسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب، وذكر أنهم تركوا قول أبي هريرة وحديثه[3].

وأما رأي المستشرق الكبير جولدتسيهر في أبي هريرة كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية:

---

(١) نقلا عن شيخ المضيرة، لمحمود أبو رية، ص١٥٩.

(٢) «أقباس من مناقب أبي هريرة» ص١٥٩. وقد قدم العزي تبريرات لموقف أبي حنيفة ذاك، ولكنها جاءت ضعيفة ومتهافتة. ومنها مثلاً أن فقهاء الحنفية المتأخرين قد عبروا عن إجلالهم لأبي هريرة.

(٣) «الأحكام» لابن حزم ج٢ ص١٤٨.

«طعن جولدتسيهر في أبي هريرة طعوناً عدة، لكنها كلها تدور حول عدم أمانته في نقل الحديث. فقد ذكر بأنه مختلق، ومسرفٌ في الاختلاق. وأنه كان يفعل ذلك بداعي الورع، وأن الذين أخذوا عنه مباشرة قد شكّوا فيما ينقل، وعبروا عن هذا الشك بأسلوب ساخر. وأنه كان يضمّن أحاديثه أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر، وذلك يدل على روح المزاح التي كانت فيه والتي كانت سبباً في ظهور الكثير من القصص»[1].

كلمة أخيرة

ولا يعني ما تقدم أن كل ما رواه أبو هريرة عن النبيﷺ من أحاديث كذبٌ واختلاق. فلا شك أن هناك الكثير من الأحاديث الصحيحة قالها رسول اللهﷺ وسمعها منه أبو هريرة ورواها كما هي.

ولكن ينبغي الحذر والتوقف عند الأحاديث التي فيها رائحة سياسية مما يرويه أبو هريرة، كأحاديث طاعة الحكام والفتن ومناقب بعض الأشخاص وغيرها مما يمكن أن يكون وراءها مصالح ودوافع خاصة.

والحذر في قبول روايات أبي هريرة، وضرورة عدم التسليم المطلق بما رواه، أمرٌ منطقي وطبيعي، وليس بدعة حديثة، وقد كان لهذا الرأي دعاة كبار، قبل أن ينجح التيار الأموي في فرض رأيه. قال السرخسي «وقال ابراهيم النخعي رضي الله عنه: كانوا يأخذون من حديث أبي هريرة ويَدَعون»[2].

---

(١) نقلا عن مقدمة كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ص٧٢.

(٢) أصول السرخسي ج١ ص٣٤١.

مقولة "الأئمة من قريش"

بعض النصوص

هناك عددٌ كبير من الأحاديث «الصحيحة «التي تمجّد قبيلة قريش وتفرض على المسلمين ضرورة التسليم بشرفها والتبعية لها، والأهم من ذلك أنها تجعل من مسألة انفراد قبيلة قريش بالخلافة والحكم دون غيرها من بني البشر، إرادة إلهية عبّر عنها رسول اللهﷺ وصرّحَ بها.

وفيما يلي بعض الأمثلة:

روى عبد الله بن عمر أن النبيﷺ قال:

«لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[1].

وقال عمرو بن العاص «سمعتُ رسول اللهﷺ يقول: قريشٌ ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة»[2].

وقال عثمان بن عفان موصياً ابنه عمرو «يا بني: إن وليتَ من أمر الناس شيئا فأكرم قريشاً. فإني سمعت رسول اللهﷺ يقول: مَن أهانَ قريشاً أهانه الله»[3].

وأدلى معاوية بن أبي سفيان بدلوه:

«كان محمد بن جبير بن مطعم يحدّث أنه بلغَ معاويةَ وهو عنده في وفدٍ من قريش أن عبد الله بن عمرو بن العاص يحدّث أنه سيكون ملكٌ من قحطان.

فغضبَ معاوية. فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: بلغني أن رجالاً منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول اللهﷺ. فأولئك جهّالكم فإيّاكم والأماني التي تضل أهلها.فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن هذا

---

(١) صحيح البخاري باب مناقب قريش ج٤ ص ٢١٨.
(٢) سنن الترمذي ج٣ ص٣٤٢.
(٣) مسند أحمد ج١ ص٦٤.

الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلاّ كبّه الله على وجهه، ما أقاموا الدين»[١].

هذا الفيضان من «الأحاديث» التي تتصف بالعنصرية الصارخة تفرض على الباحث أن يتساءل عن السر الكامن من ورائها. وليس هناك أي جدوى من محاولة التشكيك في صحة هذه «الأحاديث» اعتماداً على سندها أو سلسلة رواتها، لأنها تبلغ من الكثرة حداً يجعل من الصعب التشكيك في صحّة نسبتها إلى قائليها من الصحابة.

فلا بد من الرجوع إلى بدايات دعوة الرسولﷺ لمزيد من إلقاء الضوء على خلفياتها.

الفترة المكية من دعوة الرسول

أمضى رسول اللهﷺ ثلاثة عشر عاماً منذ أن نزل عليه الوحي يدعو قومَه ـ قريش ـ ليلاً ونهاراً بلا كلل ولا ملل، ليس له من همّ سوى هدايتهم وإخراجهم من الضلال. يلين لهم في القول ويناقشهم بالحجّة والتي هي أحسن. كان يقول لهم أنّ الأصنام لا تضر ولا تنفع، وأنها رجسٌ من عمل الشيطان، وأنّ الله واحدٌ أحَد وليس كمثله شيء، وأن الزنا والربا والظلم والقتل من الموبقات، وأن الناس سواسية كأسنان المشط. كان يخاطب فيهم فطرة الإنسان السليمة ويحدثهم عن العدل والإنصاف وعن محبّة الإنسان لأخيه الإنسان.

ورسول اللهﷺ ليس كغيره من البشر: فهو قد اصطفاه الله وحباه كل الخصال التي تجعله ذا قدرة فذّة على الهدي والإقناع والتأثير. فهو الهادي الأعظم في تاريخ البشريّة وهو الذي يشعّ منه نور النبوّة والصدق. وباختصار كان الرسولﷺ قادراً على التأثير حتى على العتاة الطغاة حين يخاطب فيهم بذرة الخير التي زرعها الله في كل إنسان.

ولكن ماذا كانت النتيجة؟

للأسف، الفشل الذّريع كان نصيب رسول اللهﷺ. فلم تؤمن قريش.

---

(١) صحيح البخاري باب مناقب قريش ج ٤ ص ٢١٨.

وضاعت كل جهود الرسولﷺ هباءً منثوراً بسبب هؤلاء القوم الجفاة، الذين رفضوه ولفظوه وحاربوه وقاوموه.

كانت قبيلة قريش تضم آلافاً من الرجال الذين جُبلوا على الكفر وأخلاق الكبر ومعاندة صوت الحق. طيلة ثلاثة عشر عاماً كان الرسولﷺ يلاحقهم في منتدياتهم وبيوتهم وأسواقهم ومواسمهم ليقرأ عليهم القرآن ويدعوهم إلى الله. كان يسمع منهم ويجيب على أسئلتهم ويحاول أن يتقرّب إليهم لعلّهم تلين قلوبهم أو تصحو عقولهم، بلا جدوى! كان الرسولﷺ يتحمّل استهزاءهم به وطعنهم في شخصه، بل وكان يتحمّل أذاهم وشتمهم له وتسفيههم لدعوته وعدوانهم عليه. فمثلاً:

«بينا النبيﷺ ساجدٌ وحوله ناسٌ من قريش، جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور فقذفه على ظهر النبيﷺ فلم يرفع رأسه. فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذَته من ظهره ودَعَت على مَن صنع»[1].

ولكن غالبية أبناء قبيلة قريش أثبتوا أنهم أكثر البشر عُتواً في الكفر وأشدّ الناس تصميماً على البغي. فلم يكتفوا برفض النبيﷺ ودعوته، بل إنهم أعلنوها حرباً عليه: منعوا كل الناس من الاستماع له وصبّوا حِمَمَ غضبهم على كل مَن آمن به من الضعفاء والمظلومين. والاستقواء على المساكين ليس أمراً مشرّفا أبداً ولا تقبله أخلاق الأباة، ولكن قريشاً فعلت ذلك وأكثر، مما يؤشّر على مدى ما بلغه هؤلاء القوم من انحطاط.

وشنّوا عليه حرباً نفسيّة فظيعة، فأشاعوا عنه أسوأ الأقوال بين العرب. وقالوا عنه أنه ساحرٌ كذّاب وأنه مجنون وأنه من أرذل القوم، وأرسلوا الوفود إلى قبائل العرب للتشنيع على الرسولﷺ.

ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى عن رسول اللهﷺ أنه:

«كان يوافي المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ

(١) صحيح البخاري ج٥ ص٥٧، باب ما لقي النبيﷺ وأصحابه من المشركين بمكة.

ومجنة وذي المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس: قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم. وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة. وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب.

فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك. ويكلمونه ويجادلونه ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول: اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا.

فكان مَن سُمي لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرضْ نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو نضر وبنو البكاء وكندة وكلب والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة. فلم يستجب منهم أحد»[1].

وكانت حصيلة جهد الرسول ﷺ في ثلاثة عشر عاماً هي أن آمن به بضع عشرات فقط من قريش! وهي حصيلة لا تكاد تذكر بالقياس إلى الجهد العظيم الذي بذله الرسول ﷺ. ذكر ابن اسحق أن جميع مَن هاجر إلى الحبشة من المسلمين كانوا ٨٣ رجلاً[2]. وإذا تم النظر فقط إلى المؤمنين من ذوي الأصل القرشي، واستثناء المستضعفين من المؤمنين، الموالي والحلفاء والذين ينحدرون من أصول متواضعة غير قرشية، واستثناء آل الرسول ﷺ من بني هاشم والمطلب، فإنه لا يمكن إحصاء أسماء أكثر من ٧٩ شخصاً ممن آمنوا بدعوة محمد ﷺ خلال ١٣ عاماً من جهوده المتواصلة في مكة[3]!

وذلك يعني أن رسول الله ﷺ كان ينجح في المعدل في هداية حوالي ٦ رجالٍ فقط من أبناء قريش في السنة الواحدة!

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص ٢١٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢٤٧.

(٣) يمكن على سبيل المثال مراجعة السيرة النبوية لابن هشام.

لقد كان الرسول ﷺ يخاطب قلوباً ميتة ونفوساً مريضة لا رجاء فيها.

قال له عبد الله بن أبي أمية «يا محمد! والله لا أؤمن بكَ أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وأيم الله لو فعلتَ ذلك لظننتُ أني لا أصدقك»[1].

وما قاله ابن أبي أمية هذا هو خير تعبيرٍ عن حقيقة الموقف القرشي من رسول الله ﷺ.

وهذا ما دفع النبي ﷺ إلى الدعاء على قريش. فقد جاء في صحيح البخاري عن الرسول ﷺ أنه قال لمّا آذاه جلاوزة قريش:

«... فقال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش! لأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط.»[2].

توجّة مشبوه

ويمكن ملاحظة نوع من محاولة التخفيف من وطأة تلك الممارسات القرشية ضد رسول الله ﷺ، والتمويه على شخصيات مرتكبيها، لدى المؤرخين وأصحاب السير والإخباريين. فما هو متاحٌ من أخبار الفترة المكية من دعوة الرسول ﷺ قليلٌ للغاية بالقياس إلى طول تلك المدة (١٣ عاماً)، وبشكلٍ لافت. كما أن الأخبار المتاحة حول الشخصيات التي كانت تؤذي رسول الله ﷺ تتركز على بعض الأسماء المشهورة من الذين نزلت فيهم آيات قرآنية أو شاعت أخبار أذاهم للنبي ﷺ في

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢١٧ وكذلك البداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٦٧.

(٢) صحيح البخاري باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ج٤ ص ٥٣. وفي تتمة الحديث «قال عبد الله: فلقد رأيتهم في قليب بدر قتلى. قال أبو اسحق: ونسيت السابع. وقال يوسف بن اسحق عن أبي اسحق: أمية بن خلف. وقال شعبة: أمية أو أبيّ، والصحيح أمية». وليس مفهوماً لماذا نسي أبو اسحاق هذا الشخصَ السابع؟ ربما لأنه أبو سفيان.

وورد هذا الحديث أيضا في صحيح مسلم ص ٦٩٤ ولكن مع ذكر اسم أمية بن خلف بدلا من أبيّ.

الآفاق، أو كانوا من كبار قريش الذين قتلوا يوم بدر أو أمر النبيﷺ بإعدامهم.

ومن الواضح أن هناك أيد اجتهدت وسَعَت من أجل محاولة التهوين مما تعرّضَ له النبيﷺ من اعتداءات على أيدي أشخاصٍ أصبحوا «مسلمين» فيما بعد، يوم فتح مكة. فكأن هناك مَن أراد أن يطبّق مبدأ «عفا الله عما مضى» أو«الإسلام يجبّ ما قبله» على هؤلاء الطلقاء، لأنهم أصبحوا «خلفاء» لرسول اللهﷺ و«قادة» لأمة الإسلام. وكأن البعض حاول أن يخفف من وطأة تلك المفارقة الرهيبة: إذ كيف يمكن للمسلم أن يقبل بتولي هؤلاء الطلقاء خلافة رسول اللهﷺ وقيادة دينه إذا علمَ بما كان هؤلاء بالذات وآباؤهم يوقعون من أذى على رسول اللهﷺ نفسه، وبما كانوا يقابلونه من عداوة؟ ولذلك كان الحل هو محاولة إخفاء ذلك الماضي الأسود لشخصيات من أمثال أبي سفيان أو عمرو بن العاص أوالحكم بن أبي العاص وغيرهم من زعماء البطون القرشية.

ولذلك ربما يكون صحيحاً القول أن ما هو متاحٌ الآن في المصادر من أخبار عن الفترة المكية وما كانت تفعله قريشٌ برسول اللهﷺ إن هو إلاّ غيضٌ من فيضٍ مما كان يحصل بالفعل.

فلا يوجد وصفٌ كاف لفترة السنوات الثلاثة الطويلة، مثلاً، التي قضاها بنو هاشم محاصَرين في شعب أَبي طالب. كيف كانوا يعيشون؟ وما تفاصيل حياتهم اليومية؟ وماذا كانوا يقولون لرسول اللهﷺ؟ ليس هناك إلاّ القليل حول هذا الأمر.

وأين هي السبعون بيتاً من الشعر التي قالها عمرو بن العاص في هجاء رسول اللهﷺ؟ بل وأين هي القصائد الكثيرة جداً التي كانت قريشٌ تؤلفها في هجائه وتذيعها بين العرب؟ ومَن هم ناظموها؟

ولو استطاع الحكام الأمويون أن يقنعوا الرواة وأصحاب السيرة بأن يحذفوا كل أخبار الفترة المكية، جملة وتفصيلاً، ويمحوها من الكتب، لفعلوا! ولمّا كان ذلك متعذراً، أسفرت ضغوطهم وإغراءاتهم عن النجاح في «تهذيب» أخبار تلك الفترة بما يراعي سمعة آبائهم وأجدادهم الذين كانوا أبطال تلك المرحلة.

ولذلك كله، فالأرجح أنّ تكون الأحاديث المنسوبة إلى الرسولﷺ والتي فيها تمجيدٌ لقريش أو مدحٌ لها هي مكذوبة على لسانه، اخترعها عملاء وأنصار الحكم الأموي المغتصب للسلطة من أجل إعطاء شرعيّة لحكم تلك الأسرة ذات الماضي القاتم تجاه نبي الإسلام.

بالنظر إلى ذلك السجلّ الفظيع من العداوة والأذى الذي ألحقته قريشٌ به، كيف يمكن تصوّر أن يخصّ الرسولﷺ قريشاً، دون غيرها، بشرف المجد والحكم؟! وهل يجوز تصوّر أن رسول اللهﷺ يمكن أن يخصّ قريشاً، وبهذا الشكل العنصري الصارخ، بأهم وظيفة دنيوية يوكلها الله لعباده، وهي القيادة والحكم؟

هل يمكن لعاقل أن يصدّق أن رسول اللهﷺ يقول للمسلمين «قدّموا قريشاً ولا تقدموها، وتعلموا منها ولا تعلموها»[1]؟

أليسَ حديث أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «نساء قريش خير نساء ركبنَ الإبل»[2] مصمماً ومقصوداً به أن تنال هند بنت عتبة، أم معاوية، نصيبها من التقريظ والمدح؟ لم تكن هناك أي طريقة يمكن بواسطتها إيصال المديح لأم الحاكم، وهي مرتكبة الجريمة الفظيعة بحق عم النبيﷺ حمزة يوم أحُد، سوى بوضع حديثٍ كهذا.

أليسَ الحديث المنسوب للرسولﷺ «مَن أهانَ قريشاً أهانه الله» مُصَمماً من أجل إقناع المسلمين بالخضوع للحكام القرشيين ومنع الرعية حتى من شرعية انتقادهم ومعارضتهم لأن ذلك «إهانةٌ لله»؟

*****

(١) كتاب المسند للإمام الشافعي ص٢٧٨.

(٢) صحيح مسلم باب من فضائل نساء قريش ص ٩٥٤.

إن ما رواه المباركفوري على لسان رسول الله ﷺ في أعقاب معركة بدر هو خير ما يعبر عن حقيقة مشاعره ﷺ تجاه قبيلة قريش:

«بئس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس»[1].

ملاحظة أخيرة

لقد كانت سيرة ومواقف الخليفتين أبي بكر وعمر تعبيراً مباشراً منهما عن نظرية الأئمة من قريش. وتجلّى ذلك في اجتماع السقيفة. فكان منطق أبي بكر في ذلك الاجتماع يستند إلى أن العرب لا تدين إلاّ لقريش. فقد قال أبو بكر في السقيفة «... ولن يُعرف هذا الأمر إلاّ لهذا الحيّ من قريش، هم أوسط العرب نسَباً وداراً....»[2]. وكذلك قال عمر في نفس الاجتماع بأن قريشاً أولى بالرسول ﷺ وبميراثه لأنها قبيلته.

وهذه الأفكار هي تعبيرٌ جليّ عن قيم العصبية والقبلية القرشية، وهي ذاتها التي تبناها الحكام الأمويون من بعدهما، وألبسوها بالصبغة الدينية عن طريق التأثير على أصدقائهم من الرواة.

ومن الملاحظ ان أبا بكر وعمر لم ينسبا ذلك القول إلى النبي ﷺ، بل قالا إن العرب لا تدين إلاّ لقريش. وهذا يؤشّر إلى أن مقولة «الأئمة من قريش «إنما نسبت للنبي ﷺ في فترة لاحقة، وإلاّ لكانا احتجّا بها وذكراها في معرض محاججتهما للأنصار[3].

*****

(١) سيرة رسول الله ﷺ الرحيق المختوم، للمباركفوري ص٢٤٩. وقريب من ذلك ورد في سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٥٥.

(٢) صحيح البخاري كتاب المحاربين من أهل الكفر و الردة ج٨ ص٢١١.

(٣) ومن الطريف حقاً ما رواه ابن حزم في كتاب «الأحكام» ص١٤٨ من أن الأنصار بجموعهم كانوا قد «نسوا» حديث «الأئمة من قريش» يوم السقيفة رغم أنه قد رواه أحدهم وهو أنس بن مالك!

ومن المفيد استعراض الحوار التالي الذي فيه عبّر معاوية بن أبي سفيان عن عقيدته بشأن مُلك قريشٍ بصورةٍ جليّة، عندما كان والياً على الشام، أثناء سجاله مع المنفيين من الكوفة أيام عثمان بن عفان.

فلما قرّعهم معاوية وامتدح قبيلة قريش متعالياً عليهم قائلاً لهم «بلغني أنكم ذممتم قريشاً، ونقمتم على الولاة فيها! ولولا قريش لكنتم أذلة».

ردّ عليه صعصعة بن صوحان «وأما قريش، فإنها لم تكن أكثرَ العرب ولا أمنعها في الجاهلية وإن غيرها من العرب لأكثر منها كان وأمنع».

فأجابه معاوية»... إن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلاّ بالله وحده. لم تكن بأكثر العرب ولا أشدها، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً وأمحضهم أنساباً وأكملهم مروءة. ولم يمتنعوا في الجاهلية ـ والناس يأكل بعضهم بعضاً ـ إلاّ بالله، فبوأهم حَرَماً آمنا يتخطف الناس من حولهم. هل تعرفون عرباً او عجماً، أو سوداً أو حمراً، إلاّ وقد أصابهم الدهر في بلدهم وحرمهم، إلاّ ما كان من قريش. فإنه لم يردهم أحدٌ من الناس بكيد إلاّ جعل الله خدّه الأسفل، حتى أراد الله تعالى أن يستنقذ مَن أكرمه باتباع دينه من هوان الدنيا، وسوء مرد الاخرة. فارتضى لذلك خيرَ خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً، وكان خيارهم قريشاً. ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، فلا يصلح الأمر إلاّ بهم...»[1].

فالمشكلة التي أثارها هؤلاء المتمردون بنظر معاوية تكمن في عقوق العرب تجاه قريش، القبيلة ذات العز والمجد في الجاهلية وفي الإسلام والتي أدت إلى حياة جديدة للعرب، ووحّدتهم بالإسلام وأعطتهم الملك! فالإسلام كله يقرؤه معاوية بوصفه تطوراً لقبيلة لقريش، قبيلة الله، كاصطفاءٍ من الله لقريش.

فاللهُ والدينُ والنبيُ والإسلامُ كلها بنظر معاوية تتماهى مع قريش التي بدونها لن يكون باقي العرب شيئاً يذكر. وهكذا فإن دور الرسولﷺ وجهاده البطولي

(١) النص من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص١٣١. وقريب من ذلك ورد في تاريخ الطبري.

يتواريان خلف مخططات المشيئة الإلهية التي اصطفت قريشاً. كما يجري تغييب المضمون الأخلاقي والروحي للنبوة.

*****

والمعضلة التي تواجه معاوية، وأنصار الحكم الأموي، وكل المُصَدّقين بمقولة «الأئمة من قريش» هي: ما دام النسَب هو الأساس، وما دام الرسولﷺ يقدّم قبيلته بسبب رابطة الدم، فمن البديهي إذن أن تكون عائلة النبيﷺ هي الأولى من غيرها، والأجدر بشرف الحكم والقيادة. فآل النبيﷺ هم طبعاً أقرب إليه من بطون قريش الكثيرة. وكما أن العرب لا يجوز لها أن تنافس «قبيلة» النبيﷺ، لا يجوز للبطون القرشية أن تنافس عائلته.

ذلك هو المنطق المجرّد. ناهيك عن خِصال وصفات آل النبيﷺ ودورهم الكبير في حماية النبيﷺ ونجاح دعوته.

هذه المفارقة الصارخة لم يجد لها الحكام الأمويون حلاً طوال تاريخهم. ولذلك قام أصدقاؤهم بالتأكيد على أن «الأئمة من قريش» هي إرادة الله، وكفى.

طاعة الحاكم، بَرّا كان أو فاجراً

أحاديث الطاعة العمياء

هناك عددٌ كبير من الأحاديث «الصحيحة» التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما، والتي ببساطة تطالب المؤمنين بطاعة السلطان ـ بدون قيود، ومهما كانت الظروف. ومن ذلك:

عن عبادة بن الصامت قال: «دعانا النبيﷺ فبايعناه. فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا و وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازعَ الأمرَ أهلَه، إلاّ أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[1].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الفتن ج٩ ص٥٩.

وأيضاً «مَن رأى من أميره شيئاً يكرهه، فليصبر، فإنه مَن فارق الجماعة شبراً، فمات، فميتة جاهلية»[1].

وأيضاً «مَن كره من أميره شيئا فليصبر فانه مَن خرج من السلطان شِبراً مات ميتة جاهلية»[2].

وأيضاً «مَن كره من أميره شيئاً فليصبر عليه، فإنه ليس أحدٌ من الناس خرج من السلطان شبراً، فماتَ عليه، إلاّ مات ميتة جاهلية»[3].

وروى أبو هريرة أن النبيﷺ قال «مَن أطاعني فقد أطاع الله. ومَن يعصِني فقد عصى الله. ومن يطع الأميرَ فقد أطاعني، ومَن يعصِ الأميرَ فقد عصاني»[4].

وروى البخاري عن عبد الله «قال لنا رسول اللهﷺ: إنكم سترونَ بعدي أثرة وأموراً تنكرونها. قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدّوا إليهم حقهم وسَلوا الله حقكم»[5].

وأيضاً «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي، ولا يستنّون بسنّتي. وسيقوم فيهم رجالٌ قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلتُ: كيف أصنعُ يا رسول الله إن أدركتُ ذلك؟

قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرَبَ ظهركَ وأخذ مالكَ، فاسمع وأطِع»[6].

وجاء في سنن الترمذي «دخلنا على أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: ما من عام إلاّ والذي بعده شرٌ منه حتى تلقوا ربكم. سمعتُ هذا من نبيكم صلى الله عليه وسلم»[7].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإمارة ص ٧٢٠.

(٢) صحيح البخاري ج ٩كتاب الفتن ص ٥٩. وكذلك روى الإمام أحمد في مسنده ج١ ص٣١٠.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإمارة ص ٧٢١.

(٤) صحيح مسلم كتاب الإمارة ص ٧١٥. وورد نفس الحديث حرفيا تقريبا في صحيح البخاري باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ج٤ ص٦٠.

(٥) صحيح البخاري ج٩ كتاب الفتن ص٥٩.

(٦) صحيح مسلم كتاب الإمارة ص ٧٢٠.

(٧) سنن الترمذي باب ما جاء في أشراط الساعة ج٣ ص ٣٣٣ رقم ٢٣٠٢.

معنى هذه الأحاديث

المسلم مطلوبٌ منه أن لا ينازع السلاطين، مهما صدر منهم من بغي وظلمٍ وفساد، إلاّ إذا رأى الكفرَ البّواح!

وبما أنه لا يمكن تصوّر أن يأتي حاكمٌ لبلادٍ إسلامية ليقول علناً عن نفسه بأنه كافر، فالنتيجة تكون أن على الفرد المسلم طاعة الحاكم على الإطلاق.

والمطلوب من المسلم أن لا يثور ويتمردَ، مهما حصل، وأن يكتفي بالدعاء إلى الله أن يهدي الحكام إلى الحق.

والمسلم المثالي هو المطيع للحاكم، الخاضع لأمره، المخلص له.

وعلى المسلم الصبر، لا أكثر، في مواجهة ما يراه من غَصبٍ للحقوق وظلمٍ للعباد.

وعلى المسلم أن يكون مقتنعاً بأن الزمان الذي يعيش فيه هو بالتأكيد أفضل من الزمان الذي سيأتي، وبالتالي ينبغي أن يكون سعيداً لذلك، وأن لا ينظر إلى ما يراه من فساد الحاكمين، لأن ما سيأتي في قادم الأيام سيكون أسوأ بكثير.

وطبعاً كانت هذه «الأحاديث» ذخيرة مهمة لكل مَن شاءَ أن يُنظّر لمهادنة الحكام والتبعية لهم.

فقد روى الشيباني «وعن جماعةَ من الصحابة رضوان الله عليهم قالوا: إذا عَدلَ السلطان فعلى الرعية الشكر. وإذاً جارَ فعلى الرعية الصبر، وعلى السلطان الوزر»[1].

وبالتالي كان موقف فقهاء السلطة وفتواهم للرعية هو»... والسمع والطاعة لأولي الأمر كان مَن كانوا، برّهم وفاجرهم. فالسنة أن تصلّي معهم ركعتين وتدين بأنها تامة لا يكن في صدركَ شكٌ. ومَن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقرّوا له بالخلافة بأي وجهٍ كان، بالرضى أو بالغلبة، فقد شقّ هذا

---

(١) السير الكبير للشيباني ج١ ص١٥٩.

الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله. فان مات الخارج عليه، مات ميتة جاهليّة. ولا يحلّ قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحدٍ من الناس. فمَن فعل ذلك فهو مبتدعٌ على غير السنة والطريق».

فمن اغتصب الحكم، بالقهر والغلبة، أو بأيِ وسيلة أخرى، أصبحَ حاكماً شرعياً على المسلمين طاعته، وبإخلاصٍ، مهما فعلَ وعمِل ما دام يُظهر الإسلام.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]:

«أهل السنة يخبرون بالواقع، ويأمرون بالواجب، فيشهدون بما وقع، ويأمرون بما أمر الله ورسوله، فيقولون هؤلاء هم الذين تولوا، وكان لهم سلطان وقدرة، يقدرون بها على مقاصد الولاية ، من إقامة الحدود ، وقسم الأموال ، وتولية الولاية ، وجهاد العدوّ، وإقامة الحج والأعياد ، والجُمَع وغير ذلك من مقاصد الولاية.

ويقولون: إن الواحد من هؤلاء ونوابهم وغيرهم لا يجوز أن يطاع في معصية الله تعالى - بل يُشارَكُ فيما يفعله من طاعة الله ، فيُغزى معه الكفار، ويُصلى معه الجمعة ، والعيدان ويُحَجّ معه، ويُعاونُ في إقامة الحدود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأمثال ذلك.

فيعاونون على البر والتقوى ولا يعاونون على الإثم والعدوان....

ومن المعلوم أن الناس لا يصلحون إلا بولاة ، وأنه لو تولى مَن هو دون هؤلاء من الملوك الظلمَة لكان ذلك خيراً من عدمهم....

كما يقال ستون سنة مع إمام جائر خيرٌ من ليلة واحدة بلا إمام...

والناس لا يمكنهم بقاء أيام قليلة بلا ولاة أمور ، بل كانت أمورهم تفسد...

ومن المعلوم أن أهل السنّة لا ينازعون في أنه كان بعض أهل الشوكة بعد الخلفاء الأربعة ، يولون شخصاً وغيره أولى بالولاية منه ، وقد كان عمر بن عبد العزيز يختار أن يولى القاسم بن محمد بعده لكنه لم يُطِق ذلك ، لأن أهل الشوكة لم

(١) مختصر منهاج السنة لابن تيمية ج١ ص٦٠-٦٢.

يكونوا موافقين على ذلك. وحينئذ فأهل الشوكة الذين قدّموا المرجوحَ وتركوا الراجحَ ، والذي تولى بقوّته وقوة أتباعه ظلماً وبغياً ، فيكون إثم هذه الولاية على مَن ترك الواجبَ مع قدرته على فعله ، أو أعان على الظلم.

وأما مَن لم يظلم ولا أعان ظالماً وإنما أعان على البر والتقوى فليس عليه من هذا شيء. ومعلومٌ أن صالحي المؤمنين لا يعاونون الولاة إلا على البر والتقوى ، لا يعاونونهم على الإثم والعدوان....

فأهل السنّة يقولون: الأميرُ والإمامُ والخليفةُ ذو السلطان الموجود ، الذي له القدرة على عمل مقصود الولاية....

ويقولون أنه يُعاون على البر والتقوى ، دون الإثم والعدوان ، ويُطاع في طاعة الله دون معصيته ، ولا يُخرَجُ عليه بالسيف ، وأحاديث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إنما تدل على هذا.

كما في الصحيحين ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه ، فإنه ليس أحدٌ من الناس يخرج عن السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية « فجعلَ المحذورَ هو الخروجُ عن السلطان ومفارقة الجماعة، وأمرَ بالصبر على ما يُكره من الأمير، لم يخص بذلك سلطاناً معيناً ولا أميرا معينا ولا جماعة معينة».

ولا شك أن الحكام الأمويين والعباسيين والعثمانيين قد سرّتهم جداً هذه «الأحاديث» والفتاوى، والنتيجة التي تؤدي إليها، فتبنوها وساهموا في نشرها وتمسّكوا بالمذاهب التي تقول بها.

وتوجد مجموعة أخرى من الأحاديث التي تتكامل مع أحاديث طاعة الحكام وتتناغم معها، وهي أحاديث اعتزال الفتن، والتي يكثر إخراجها في كتب الصحاح، ومنها مثلاً من البخاري:

عن أبي هريرة «قال رسول اللهﷺ: ستكون فتنٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، ومَن يشرف لها

تستشرفه ومَن وجد ملجأ أو معاذا فليعُذ به»[1].

وعن أبي سعيد الخدري «سمعت النبيﷺ يقول: يأتي على الناس زمانٌ تكون الغنم فيه خير مال المسلم، يتبع بها سَعَفَ الجبال في مواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن».

وعن أبي هريرة «لا تقوم الساعة حتى يقتتل فتيان، فيكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة.....»[2].

وهذه المجموعة من أحاديث اعتزال الفتن لها هدفان:

الأول هو جعل الناس يَدَعون الحكامَ بسلامٍ آمنين، رغم غيّهم وفسادهم.

والثاني هو إعطاء شرعية لكل الذين خذلوا الإمام علي وتواطؤوا مع معاوية وحزبه بشكل مباشر أو غير مباشر.

حقيقة أحاديث طاعة الحاكم

إن أصابع حكام بني أمية بالغة الوضوح في صناعة وترويج هذه الأحاديث: فليس هناك ما يمكن لهم أن يخترعوه على لسان الرسولﷺ لتثبيت حكمهم الظالم أفضل من هذه الأقاويل!

فلا يمكن التصديق أن الرسول الذي أرسله الله ليهدي البشرَ وينير لهم دروبَ الحق، يمكن أن يوصي المؤمنين بقبول حكم القهر والظلم والفساد، لأن ذلك ضدّ النبوّة ذاتها.

وكان اختراع الأحاديث ونسبتها للرسولﷺ من أجل الدفاع عن الحكام الفاسدين قد بلغ درجة صارخة على أيدي بني أمية. وكانت «الأحاديث» تفصّل فوراً على مقاس أولئك من اجل إسكات كل منتقديهم على أساس أن تلك هي إرادة الله ورسوله. فمثلاً، عندما انتقد الناس والي عثمان بن عفان على البصرة، عبد الله بن

---

(١) هذا الحديث والذي بعده من صحيح البخاري باب علامات النبوة ج٤ ص ٢٤١.

(٢) صحيح البخاري باب علامات النبوة ج٤ ص ٢٤٣.

عامر، على لبسه ما رقّ ولانَ من الثياب، خلافاً لرعيته، انبرى أتباع الوالي للردّ عليهم، وهو في هذه الحالة أبو بكرة أخو زياد بن أبيه، على النحو التالي:

«... كنتُ مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثيابٌ رقاق.

فقال أبو بلال: أنظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفسّاق!

فقال أبو بكرة: أسكت! سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مَن أهانَ سلطانَ الله في الأرض أهانه الله»[1].

فابن عامر هنا هو سلطان الله على الأرض، ولا تجوز إهانته أو انتقاده.

ولا شك أن كل أحاديث الطاعة هذه إنما قد وضعت ونسبت للرسول ﷺ من أجل التغطية على ما قاله الرسول ﷺ حقاً من كلام يحثّ على مواجهة الظالمين:

«إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[1].

النموذجُ الساطع

وقد طبّقَ عبد الله بن عمر وصايا هذه «الأحاديث» وكان نموذجاً ساطعاً لها، في الجُبن والخنوع أمام الطغاة!

فعلى الرغم من كونه ابن عمر بن الخطاب و وأن أباه بالذات هو الذي عيّن معاوية في الشام، وجعل له قيمة في دولة الإسلام بعد أن كان هو وأبوه منبوذين من جميع المسلمين بعد الفتح، رغم ذلك كله لم يجد ابن عمر في نفسه الجرأة ليردّ على معاوية الذي قال كلاما فاجراً.

وفيما يلي النص من صحيح البخاري «عن ابن عمر قال: دخلتُ على حفصة ونسواتها تنطف. قلتُ: قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يجعل لي من الأمر شيء.

(١) سنن الترمذي ج٣ ص٣٤١.

(٢) سنن الترمذي ج٣ ص٣١٨.

فقالت: إلحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة. فلم تدعه حتى ذهب.

فلما تفرّق الناس خطب معاوية. قال: مَن كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليُطلِع لنا قرنه، فلنحن أحق به منه ومن أبيه!

قال حبيب بن مسلمة: فهلاّ أجبته؟

قال عبد الله: فحللتُ حبوتي وهممتُ أن أقول: أحقّ بهذا الأمر منك مَن قاتلكَ وأباك على الإسلام. فخشيتُ أن أقول كلمة تفرّق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عنّي غير ذلك. فذكرتُ ما أعدّ الله في الجنان»[1].

فبدلاً من أن يتصدّى ابن عمر للحاكم الفاجر، قرر أن يصمتَ لأنه ذكرَ ما أعدّ الله في الجنان.

ولم يكتفِ ابن عمر بابتلاع الإهانة، بل روى لمعاوية ما يُرضي هواه في الانتقاص من عدوّه عليّ بن أبي طالب! فقد روى ابن عساكر أن معاوية قدم المدينة وهو في طريقه للحج فروى له ابن عمر حديثاً نسبه إلى النبيﷺ:

«إن رسول اللهﷺ قال: وزنتُ بأمتي فوضعتُ في كفة وأمّتي في كفّة فرجحتُ بأمّتي، ثم وُضعَ أبو بكر مكاني فرجحَ بأمّتي، ثم وضِع عمر مكانه فرجحَ، ثم وُضع عثمان مكانه فرجحَ بهم. ثم رُفِع الميزان»[2].

فكما يقول ابن عمر،ليس لعليّ بن أبي طالب مكانٌ بين مَن وُزنوا بالأمة فرجحوا، وهم الخلفاء الثلاثة، وبالترتيب.

وكان ابن عمر حريصاً في حديثه الكثيرعن الرسولﷺ على عدم ذكر أي شيئ يمكن أن يسوء معاوية. فمثلاً، معلومٌ أنه قد بلغ من شدّة ألم الرسولﷺ وحزنه على عمّه حمزة وعلى أصحابه الشهداء يوم أحُد، أنه كان يدعو على أبي سفيان وطغاة قريش في صلاة الفجر. ولكن وردت الرواية في صحيح البخاري، في

---

(١) صحيح البخاري باب غزوة الخندق ج٥ ص ١٤١.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٣٩ ص١٧٠.

معرض حديثه عن معركة أحد، وفيها أسلوب التورية عن طريق حذف الأسماء، مراعاة لمعاوية وخوفاً من سلطانه. وفيما يلي النص عن عبد الله بن عمر:

«أنه سمعَ النبيﷺ يقول في صلاة الفجر، ورفع رأسَه من الركوع قال: اللهم ربنا ولك الحمد في الآخرة، ثم قال: اللهم العن فلاناً وفلاناً.

فأنزل الله عز وجل ليس لك من الأمر شيئ أو يتوبَ عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون»[1].

وأما ابن عساكر فقد صرّحَ بأسماء الذين لعنهم النبيﷺ، وعلى رأسهم أبو سفيان.

وانتهى المطاف بابن عمر بمدح معاوية، كما ذكر ابن تيمية عنه:

«وقوله في مدح معاوية معروفٌ ثابت عنه ، حيث يقول: ما رأيتُ بعد رسول اللهﷺ أسْوَدَ من معاوية. قيل له: ولا أبو بكر وعمر؟ فقال: كان أبو بكر وعمر خيراً منه ، وما رأيتُ بعد رسول اللهﷺ أسوَد من معاوية.

قال أحمد بن حنبل: السيد الحليم يعني معاوية ، وكان معاوية كريماً حليماً»[2].

وابن عمر ذاته، وهو في أواخر عمره، شيخاً طاعناً في السن، ومع ذلك قبلَ أن يبايع رجلاً من أمثال عبد الملك بن مروان! فقد جاء في صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان: «إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعتُ، وإن بنيّ قد أقروا بذلك»[3].

وأورد ابن أبي الحديد المزيد من التفاصيل عن بيعة ابن عمر لعبد الملك أكثر مما ورد في رواية البخاري. فابن عمر «طرقَ على الحجاج بابَه ليلاً، ليبايع لعبد الملك، كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام، لأنه روى عن النبيﷺ أنه قال: (مَن ماتَ ولا إمامَ له، مات ميتة جاهلية).

---

(١) صحيح البخاري باب قول الله تعالى ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ ج٩ ص ١٣١.

(٢) مختصر منهاج السنة لابن تيمية، ج١ ص١١٠.

(٣) صحيح البخاري ج٨ ص١٢٣. وكذلك ورد في موطأ مالك ج٢ ص٩٨٣.

وحتى بلغ من احتقار الحجاج له، واسترذاله حاله، أن أخرج رجله من الفراش فقال: اصفق بيدك عليها»[1].

مع العلم أن جرائم عبد الملك هذا، وواليه على العراق الحجاج بن يوسف، قد بلغت حداً يفوق كل تصور. فكان القتل على الشبهة، وكان القتلى المظلومون بعشرات الالآف: «أحصوا ما قتلَ الحجاج صبراً فبلغ مائة وعشرين ألف قتيل»[2].

وكان ابن عمر قبل ذلك قد بايعَ يزيدَ بن معاوية، وتشدّد في الوفاء ببيعته، كونه إماماً شرعياً! فابن عمر لا يرى في مخالفة طاغية، كيزيد، إلاّ غدراً.

«لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمَه وولده فقال: إني سمعتُ النبيﷺ يقول: يُنصَب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة. وإنّا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله. وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال. وإني لا اعلم أحداً منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر، إلاّ كانت الفيصل بيني وبينه»[3].

الحاكمون ورواة الحديث

وكان الحكام، بشكل عام، حريصين على التواصل مع الذين يتصدّون لرواية أحاديث النبيﷺ. وتلك طبعاً طريقة فعالة في ضمان حثّ العامة على طاعتهم، ونسبة ذلك إلى النبيﷺ.

ويدأ ذلك من أيام معاوية وعلاقته مع أبي هريرة واستمر من بعده. فمثلاً ذكر ابن حبان أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك أدّى عن الزهري سبعة آلاف دينار (دَيناً كان عليه)[4].

ولم تعرَف عن هشام بن عبد الملك الكثير من أخلاق الورع والتقوى، ولم

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٣ ص٢٤٢.

(٢) سنن الترمذي ج٣ ص ٣٣٩.

(٣) صحيح البخاري كتاب الفتن ج٩ ص٧٢.

(٤) كتاب المجروحين لابن حبان ج١ ص٤٠.

يكن مشهوراً عنه اهتمامُه بقضاء ديون رعيته من المسلمين. ولكنّ الزهـري مُحـدّثٌ عَلَمٌ ومعـروف[1]. وللخليفة مصلحة في استرضائه. وقد قبلَ عطية الخليفة.

ويبدو أن الزهري كان، خلال فترات عمره الطويل، على علاقة وثيقة متواصـلة مع الملوك الأمويين، وليس مع هشام فقط. فقبل هشام، كان عبد الملك بن مروان قد منحه الأموال وأمرَه بالتفرغ للدراسة، وكان سليمان بن عبد الملك قد عينـه مستشـاراً له، وبعدها أصبح سميراً للخليفة عمر بن عبد العزيز، ومن ثم قاضـياً ليزيـد بـن عبـد الملك، إلى أن قربه هشام أخيراً وجعله مؤدباً لأولاده[2].

ولا بد أن ارتباطات الزهري مع ملوك بني أمية غدت عميقة إلى درجـة أثـارت حوله الشبهات. فقد ذكر ابن أبي الحديد ما يفيد أن الزهري لما خالط سـلاطين بنـي أمية، استنكر الكثيرون ذلك. حتى أن رجلاً ناصحاً له كتب إليه رسالة مفيدة:

«... فقد أصبحتَ بحالٍ ينبغي لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك.

... فقد أصبحتَ شيخاً كبيراً وقد أثقلتكَ نعمُ الله عليك....

وليس كذلك أخذ الله الميثاقَ على العلماء. فإنه تعـالى قـال ﴿لتبيننـه للنـاس ولا تكتمونه﴾. واعلم أن أيسر ما ارتكبتَ، وأخفـّ ما احتملتَ، أنك آنستَ وحشـة الظـالم، وسهّلتَ سبيل الغيّ، بدنـوّكَ إلى مَن لم يؤدّ حقاً ولم يتـرك باطلاً حين أدناك.

اتخذوك ـ أبا بكر ـ قطباً تدور عليه رحا ظلمهـم وجسـراً يعبـرون عليـه إلـى بلائهم ومعاصيهم، وسلّما يصعدون فيه إلـى ضـلالتهم. يُـدخِلون بـك الشـك علـى العلماء، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء...»[3].

ولا عجب، بعد كل ما رواه واستنّه وطبّقـه مـن شـرعية مبايعـة حكـام الظلـم والقهر، أن يكون كلام عبد الله بـن عمـر هـو المفضّـل لـدى السـلاطين والخلفـاء،

---

(١) محمد بن شهاب الزهري هو من أهم رواة الأحاديث لدي الشيخين البخاري ومسلم. ومعظم أحاديثه رواها نقـلاً عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، والذي بدوره رواها نقلاً عن أبي هريرة.

(٢) من «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» ص٢٣، نقلاً عن ابن خلكان والذهبي وابن سعد والأصفهاني.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٧ ص٤٤.

وشخصه هو ما يريدون للعامة أن تتخذه مثالاً وقدوة. وقام فقهاءٌ بالتواطؤ مع هؤلاء الحكام في اعتماد مرجعية ابن عمر. وفيما يلي نص حوار جرى بين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ومؤسس المذهب المالكي الإمام مالك بن أنس:

«... أخبرنا مالك بن أنس قال: قال لي أبو جعفر أمير المؤمنين: كيف أخذتم قول ابن عمر من بين الأقاويل؟

فقلت له: يا أمير المؤمنين: كان له فضل الناس، ووجدنا مَن تقدمنا أخذ به، فأخذنا به.

قال: فخذ بقوله، وإن خالفَ علياً وابنَ عباس»[1].

ولا بد من الإشارة إلى أن عملاء السلطة قد جعلوا حتى عبد الملك بن مروان ـ الذي لم يتورع عن هدم الكعبة أثناء صراعه ضد ابن الزبير ـ فقيهاً! فقد وردَ عن يحيى بن معين «حدثنا يحيى قال: حدثنا أبو معاوية قال حدثنا الأعمش عن ابن ذكوان قال: كان فقهاء أهل المدينة أربعة: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان»[2].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ ص١٤٧.

(٢) تاريخ بن معين / الدوري ج١ ص ١٩١. ويحيى بن معين أستاذٌ للبخاري، وشيخ علم الجرح والتعديل.

إشاعة أن رسول الله بشرٌ يُصيبُ ويخطئ

مقدمة عن الأسباب

«عن عبد الله بن عمرو قال: كنتُ أكتبُ كلّ شيئ أسمعه من رسول الله ﷺ، أريد حفظه.

فنهتني قريشٌ. وقالوا: أتكتب كل شيئ تسمعه ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم في الغضب والرضا؟

فأمسكتُ عن الكتاب.

فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بإصبعه إلى فيه فقال: أكتب. فوالذي نفسي بيده، لا يخرج منه إلاّ حق»[1].

هذه الحادثة التي رواها عبد الله بن عمرو تعبّر عن التيار الأول من أصحاب العقيدة الهزيلة بشخص الرسول ﷺ، والمتمثل ببعض قيادات المهاجرين القرشيين، وبالأخصّ عمر، والتي كانت ترى في النبي ﷺ «مجتهداً «يحق لها أن تخالفه وتعارضَ آراءه، إذا رأت أن «المصلحة» تقتضي ذلك. وهذا التيار لا يعتقد أن الرسول ﷺ معصومٌ إلاّ فيما يتعلق بشؤون القرآن وتبليغ كلام الله. وفيما عدا ذلك، فهو «يجتهد» من عنده، وهو بشرٌ يجوز عليه الزلل والخطأ والنسيان، ويمكن أن يتعرض، كغيره من الناس، لحالاتٍ من الانفعال تقوده إلى نوعٍ من الاندفاع غير المحسوب أو حتى سوء التقدير.

وللأسف فإن بعض العلماء قد انحازوا إلى هذا التيار، من باب إحسان الظن بكبار المهاجرين القرشيين، وبالأخص عمر، والولاء لهم، ولو كان ذلك على حساب

---

(١) سنن أبي داود ج٢ ص١٧٦. ولم يصرّح عبد الله بن عمرو بأسماء الأشخاص من قريش الذين نهوه عن رواية حديث النبي ﷺ. ولكن يمكن التخمين أن عمر بن الخطاب كان هو الذي نهاه، اعتماداً على مواقفه وسيرته.

شخص الرسولﷺ! وعبّرَ عن ذلك الإمام النووي، كما روى ابن حجر، في معرض شرحه لرزية يوم الخميس، حين صرّحَ بأن قرار عمر بمنع النبيﷺ من كتابة وصيته كان صائباً، بل وينمّ عن فقهه! فقال:

«اتفق قول العلماء على أن قول عمر (حسبنا كتاب الله) من قوة فقهه ودقيق نظره»[1].

وأما التيار الثاني من أصحاب العقيدة الهزيلة بشخص النبيﷺ، فهو أكثر جذريةً وخبثاً. ويتمثل ذلك في تيار الحكام الأمويين ممن كانوا هم وآباؤهم أعداءً ألدّاء لرسول اللهﷺ طوال فترة دعوته، ولهم ثاراتٌ قديمة عنده.

ورغم أن التيارين تلاقيا على إشاعة أقوال من شأنها تقليل الدور العظيم الذي لعبته الشخصية النبوية، مقابل تضخيم «المشيئة الإلهية «في مسيرة الإسلام، إلاّ أنه كان هناك فارقٌ جوهري بينهما. فالأول منهما كان مؤمناً حقاً بنبوّة محمدﷺ ورسالته، بعكس الثاني، الذي أخفى حقيقة مشاعره تجاه الرسولﷺ بعد أن أصبح يقطف ثمار كل ذلك الجهد النبوي العظيم.

حديث تلقيح النخل: أنتم أعلمُ بشؤون دنياكم

روى الإمام مسلم «إن النبيﷺ مَرّ بقوم يلقحون. فقال: لو لم تفعلوا لصلح. قال: فخرج شيصاً. فمرّ بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلتَ كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم»[2].

وورد نفس الحديث بلفظ آخر في صحيح مسلم «مررتُ مع رسول اللهﷺ بقومٍ على رؤوس النخل. فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا يلقحونه. يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح. فقال رسول اللهﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئاً. قال: فأخبروا بذلك فتركوه. فأخبر رسول الله بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه. فإني إنما

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج٨ ص١٠٢.

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعا ص٨٩٧

ظننتُ ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن. ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذبَ على الله عز وجل»[1].

«كل مَن يسكن بلاداً يُزرع فيها النخل يعلم أن للنخل ذكراً وأنثى ويلقح طلع نخل الأنثى بطلع نخل الذكر لتثمر، وإلاَّ يصبح تمره شيصاً لا يشتد نواه. وإذا جف تمره أصبح حشفاً لا يصلح للطعام، فكيف خفي هذا الأمر على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو من سكان الجزيرة العربية وأشهر أشجارها النخيل؟ وإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله لم يعلم ذلك كيف لم يخبره الأنصار في المدينة بذلك؟ والصحيح في الأمر أن الغاية من إسناد هذا الخبر إلى رسول الله هو لينسب إليه أنه قال (أنتم أعلم بأمر دنياكم)، ولكي يُروى عنه أن غيره من البشر أعلم بأمور الدنيا من رسول الله صلى الله عليه وآله. ومغزى هذه الرواية والروايات الأخرى معها، فصل أمور الدنيا عن أمور الدين، وفقاً للمقولة المشهورة (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، وأن يبطل جميع سنة الرسول فيما عدا العبادات»[2].

«ولا يخفى أن الغاية من جعل هذا الحديث هي فتح باب المخالفة للنبي صلى الله عليه وآله، بحيث لو أراد الخلفاء وأصحاب السلطة يوماً أن يحكموا على خلاف تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وينقضوا أوامره، فهم يملكون دليلاً. ويستدلون على مخالفتهم بأن النبي صلى الله عليه وآله قد ارتكب خطأً في مسألة تلقيح النخل وبعدها قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم»[3].

الذين لعنهم رسولُ الله

ولم يقتصر الأمر على نسبة الخطأ «الدنيوي» إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، بل جاوز ذلك ووصل إلى حد التشكيك في حُسن أخلاقه صلى الله عليه وآله وتعاملاته!

وقد روى أبو هريرة أحاديثَ تظهر رسولَ الله صلى الله عليه وآله بمظهر السَبّاب اللعّان الذي يؤذي الناس بسوء تعامله!

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعا ص٨٩٦

(٢) نقلا عن كتاب «أحاديث أم المؤمنين عائشة» لمرتضى العسكري ج٢ ص٢٢٢.

(٣) «أضواء على الصحيحين» لمحمد صادق النجمي، ص ٢٥٧.

فقد جاء في صحيح مسلم، باب مَن لعنه النبيّﷺ أو سبّه أو دعا عليه، وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة وأجراً ورحمة، عن أبي هريرة:

«قال رسول اللهﷺ اللهم! إنما أنا بشر. فأيّما رجلٌ من المسلمين سببتُه أو لعنتُه أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة».

وكذلك روى أبو هريرة أن النبيﷺ قال:

«اللهم! إني أتخذ عندك عهداً لن تخلفنيه. فإنما أنا بشر، فأيّ المؤمنين آذيته، شتمته، جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه إليك يوم القيامة»[1].

وأما البخاري في صحيحه فقد روى عن أبي هريرة أنه سمع النبيﷺ يقول «اللهم! فأيما مؤمنٌ سببته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة»[2].

وروى ابن كثير نقلاً عن البيهقي خطبة للنبيﷺ في أواخر أيام حياته جاء فيها:

«... ألا فمن كنتُ جلدتُ له ظهراً، فهذا ظهري فليستقد.

ومَن كنتُ أخذتُ له مالاً، فهذا مالي فليأخذ منه.

ومَن كنتُ شتمتُ له عرضاً، فهذا عرضي فليستقد.

ولا يقولنّ قائل: أخاف الشحناء من رسول الله. ألا وإن الشحناء ليست من شأني ولا من خلقي. وإن أحبكم إليّ من أخذ حقاً إن كان له عليّ، أو حللني فلقيتُ الله عز وجل وليس لأحد عندي مظلمة»[3].

وهكذا فإن هذه الأحاديث تظهر رسولَ اللهﷺ بمظهر الذي يمكن أن يسبّ المؤمنين أو يشتمهم أو يؤذيهم «وهم ليسوا أهلاً لذلك» كما هو عنوان الباب في صحيح مسلم! والأحاديث هذه وأمثالها تصوّر النبيّﷺ على أنه إنسان طائش، يثور لأسباب تافهة، فيعصف ويعربد، ويتفوه بما لا يليق، ثم يتراجع، ويهدأ، ويحاول إزالة

---

(١) هذا الحديث والذي قبله من صحيح مسلم، باب من لعنه النبيﷺ أو سبّه أو دعا عليه، وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة وأجرا ورحمة، ص٩٧٧.

(٢) صحيح البخاري ج٩ ص٩٦ باب قول النبيﷺ من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج٤ ص٤٥٧.

الآثار السيئة لتصرفاته العصبية، ويلتمس لها المبررات.

والسبب من وراء هذا البهتان العظيم هو ببساطة لخدمة حكام بني أمية الذين اغتصبوا الحكم وهم لا يمتلكون أية شرعية، وهم أبناء طغاة قريش الذين عادوا رسول اللهﷺ وآذوه وحاربوه بكل طاقتهم حتى هزموا. وهؤلاء لعنهم رسول اللهﷺ على ما أتوه من بغي وإجرام. ورسول اللهﷺ لا ينطق عن الهوى، بل يلعنهم بلسان رب العالمين. والقرآنُ لعَنَ الكفارَ والظالمين. وطغاة قريش الذين لعنهم رسول اللهﷺ، وعلى رأسهم أبو سفيان، والد معاوية، والحكم بن أبي العاص، جدّ الخلفاء المروانيين من بني أمية، يستحقون تلك اللعنة الإلهية ولا شك.

فجاء أبو هريرة بهذه الأحاديث لكي يخرج معاوية ورهطه من هذه الورطة. وهو هنا يقلب لعنة رسول اللهﷺ لهؤلاء المجرمين إلى فضيلة لهم يوم القيامة![1] وكأن هؤلاء المجرمين بريؤون مسالمون آذاهم رسول اللهﷺ بلا سبب!

ومن جهة أخرى، فلن يعترضَ معترضٌ على مروان بن الحكم[2] أو على معاوية بن أبي سفيان، إذا آلت إليهم الخلافة يوماً ما! فإذا قال لمعاوية قائل: لقد لعَنَ رسول اللهﷺ أباك وأنتَ معه، فكيف تتأمّر على أمّة محمدﷺ؟! فعندئذ يكون لدى معاوية إجابة: لقد دعا رسول اللهﷺ أن تنقلب لعنته زكاة وطهوراً، ودعوات الأنبياء مستجابة! فتلك اللعنة إذن هي بمثابة تزكية نبوية!

يقول جعفر مرتضى[3] عن لعن رسول اللهﷺ لبعض الناس:

---

(١) فمثلا ذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص١٢٥ أن معاوية بن أبي سفيان أجاب مرة مَن استنكر عليه إعلاءَ منصب أبي الأعور السلمي في دولة معاوية وهو الذي لعنه الرسولﷺ يوم غزوة الأحزاب بقوله «أنا أشهد سمعت رسول اللهﷺ يقول: أيما أحد لعنته في الجاهلية ثم دخل في الإسلام، فإن لعنتي عليه صلاة وهي له زكاة».

(٢) وعلى سبيل المثال أورد ابن الأثير في أسد الغابة ج٢ ص٣٤ خبر لعن الحكم بن أبي العاص – جد الخلفاء الأمويين – على لسان أم المؤمنين عائشة، حين غضبت يوما على مروان بن الحكم فقالت له «أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول اللهﷺ لعن أباك وأنت في صلبه». وكذلك روى السيوطي في تاريخ الخلفاء ص٢٤٦.

(٣) «الصحيح من سيرة النبي الأعظم» ج٥ ص٣٢٤.

«... وليس ذلك لأن ذلك سلاح العاجز الذي لا يجد حيلة للتعبير عن مشاعره الثائرة إلاّ ذلك، إذ أنهﷺ لم يكن لينطلق في مواقفه كلها من حالة انفعالية طاغية، ومن اندفاع عاطفي غير مسؤول، بهدف التنفيس عن حقد دفين، وانسياقاً مع انفعالات طائشة...

وإنما يريدﷺ أن يلقّن الناس جميعاً عن طريق الشعور واللاشعور ويؤدبهم ويعلمهم: أن الاعتداء على الأبرياء، والغدر والخيانة، ونقض المواثيق والذمم، وكذلك جميع أشكال الإنحراف وأنحائه.. إن كل ذلك مرفوضٌ جملة وتفصيلاً، ولا بد من تربية الوجدان على الإحساس بقبحه ورذالته ليصبح النفور منه، والابتعاد عنه بصورة عفوية حالة طبيعية، وواقعية ذات جذور ممتدة في أعماق الإنسان، وفي صميم ذاته.

ولا بد من الإعلان بإدانة الإنحراف، انطلاقاً من المثل والقيم الإلهية، بأسلوب اللعن، الذي هو طلب البعد عن ساحة القدس الإلهي... فاللعن إذن أسلوب تربوي بناء، وليس موقفا سلبياً عاجزا ولا مهيناً..

ولأجل ذلك نجد القرآن الكريم لا يزال يؤكد على لزوم التبري من أعداء الله، والتولي لأوليائه، ويعلن الله سبحانه ذلكَ بلعنِ فئات كثيرة، كالكاذبين والظالمين، والبراءة منهم..... قال سبحانه ـ وهو يتحدث عن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى: (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنونـ البقرة ١٥٩).

وبعد ما تقدم، فلا يمكن لنا أن نصدّق أنهﷺ قد لعن أحداً لا يستحق اللعن. وإلاّ لكانﷺ ليس فقط لا ينطلق في تعامله ومواقفه من موقع المسؤولية والإنصاف.. وإنما من موقع العاطفة والطيش والإنفعال، وحاشاه.. فإن ذلك لو صحَ لوجدنا أنفسنا مضطرين لطرح التساؤلات الجدية حول عصمتهﷺ... لا سيما إذا كان لعناً لأحد المؤمنين، فإن لعنَ المؤمن كقتله، أو لاعنُ المؤمن كقاتله، كما روي عنهﷺ».

التشكيك في أحكام الرسول

ولمزيدٍ من التشكيك فيما يقوله الرسولﷺ وفي شخصه الكريم، روى البخاري في صَحيحه عن عائشة أن اليهود سحروا رسولَ اللهﷺ! وهذا النص:

«إن النبيﷺ سُحِر، حتى كان يخيّل إليه أنه صنع شيئاً، ولم يصنعه»[1].

وهذا الحديث يتضمن في طياته منتهى التشكيك في كل ما يصدرعن الرسولﷺ.

ورغم أن ظاهر الحديث لا يذكر شيئاً محدداً وهم فيه رسول الله، إلاّ أنه ربما يكون من المبرر الاستنتاج أن المقصود حقاً من هذا الحديث هو توظيفه لأغراض التشكيك بما صدر عن الرسولﷺ من توجيهات تتعلّق بولاية الأمر من بعده ومكانة آل البيت، وليس حادثة معينة تتعلق باليهود فقط.

ووردت أيضاً أحاديث تشكك في حُسن حكمه وقضائهﷺ: «إن رسول اللهﷺ قال: إنما أنا بشر. وإنكم تختصمون إليَ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحَنَ بحجته من بعض، فأقضي نحو ما أسمع. فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئاً، فلا يأخذه! فإنما أقطع له قطعة من النار»[2].

مثالٌ آخر

ومن المفيد أيضاً ذكر الحديث الذي رواه أنس بن مالك:

«إن رسول اللهﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه. وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت.

فدخل عليها رسول اللهﷺ يوما فأطعمته. ثم جلست تفلي رأسَه. فنام رسول اللهﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك.

قالت: فقلت: ما يضحكك؟ يا رسول الله.

قال: ناسٌ من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر، ملوكاً على الأسرّة، أو مثل الملوك على الأسرّة (يشكّ أيهما قال).

قالت: فقلت: يا رسول الله! ادعُ الله أن يجعلني منهم.

فدعا لها.

---

(١) صحيح البخاري باب هل يعفى الذمي إذا سحر ج٤ ص١٢٣.

(٢) صحيح البخاري باب موعظة الإمام للخصوم ج٩ ص٨٦

ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت: ما يضحكك؟ يا رسول الله! قال «ناسٌ من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، كما قال في الأولى. قالت: فقلت: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت من الأولين.

فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت.»[1].

ومن الصعب جداً التصديق أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجة عبادة بن الصامت فيضحك معها ويستلقي عندها وهي تفلي رأسه حتى ينام بين يديها!

ولقد صُمّم هذا الحديث لغايتين: الأولى إظهار النبي ﷺ بمظهر المتبسّط مع النساء بما يتجاوز حدود الحشمة، والثانية اختراع فضيلة لمعاوية بن أبي سفيان عن طريق نسبِ مقولة إلى النبي ﷺ يمتدح فيها أولئك الذين هم «ملوكٌ على الأسرّة» ويغزون في سبيلِ الله! فالراوي يعلم أن معاوية حوّلَ الأمرَ إلى ملكٍ عَضوض فأرادَ القولَ أن ذلك لا يضيره لأن رسول الله ﷺ تنبّأ بذلك وسُرّ له.

الآخرون أكثر حكمة وعلماً من الرسول!

صلاة رسول الله ﷺ على ابن أبيّ

روى البخاري «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه، فأعطاه. ثم سأله أن يصلّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي.

فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! تصلّي عليه، وقد نهاكَ ربكَ أن تصلّي عليه؟

فقال رسول الله ﷺ: إنما خيّرَني الله فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة. وسأزيده على السبعين.

---

(١) صحيح مسلم باب فضل الغزو في البحر ص٧٣٩.

قال: إنه منافق!

فصلّى عليه رسول الله ﷺ.

فأنزل الله: ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقم على قبره»[1].

ولا يمكن قبول هذا الحديث، لأنه يتنافى مع العقل. فالنص واضحٌ وصريح بأن هناك مَن هو أعلم من النبي ﷺ بالأحكام والتعاليم السماوية، وأدرى منه في معرفة فلسفة الأحكام الإلهية وأسرارها، وأعرف بالمصالح والمفاسد المترتبة على التعاليم الإسلامية. فحسب نص هذا الحديث، نزلت الآية القرآنية تفنّد عَمَلَ رسول الله ﷺ وتنهاه عنه، بينما تؤيّد فكرة شخصٍ غيره، وهو عمر، الذي عرف الحقَ بينما تاه عنه الرسول ﷺ!

ويمكن أيضاً التشكيك في هذا الحديث وردّه عن طريق النقل والسياق أيضاً. فمعروفٌ أن هذه الآيات من سورة براءة نزلت في السنة الثامنة للهجرة[2]، أثناء خروج النبي ﷺ إلى تبوك وقبيل عودته إلى المدينة:

﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهمْ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهمْ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين * فرح المخلّفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحرّ قل نار جهنم أشدّ حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون * فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين * ولا تصلّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة براءة ج٦ ص٨٥ وكذلك ورد الحديث في باب الكفن في القميص الذي يكفّ أو لا يكفّ ومن كفّن بغير قميص ج٢ ص٩٧ مع اختلاف يسير في الألفاظ، ومنها قول عمر «أليس الله نهاك أن تصلّي على المنافقين؟» وأن عمر «جذبه». وأيضا ورد نفس الحديث في سيرة ابن هشام ج٤ ص١٦٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص١٣٢.

(٣) سورة براءة الآيات ٨٠ – ٨٤.

ولكن وفاة عبد الله بن أبيّ كانت في السنة التاسعة للهجرة[1]. وعلى هذا تكون الآية قد نزلت قبل حوالي سنة من سبب نزولها المزعوم. ولذا يمكن القول أنه ليس لهذه الآية أي ارتباط أو علاقة بموت عبد الله بن أبيّ، ولا بعمر بن الخطاب أو اقتراحه.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن نصّ الحديث يحمل تناقضاً صارخاً، مما يرجّح كونه موضوعاً. فحين يقول عمر للرسول ﷺ إن الله قد نهاه عن الصلاة على ابن أبيّ والمنافقين، فذلك يعني أن الآية ﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا﴾ كانت سابقة لحادثة موت ابن أبيّ، وهو ما يتعارض مع نص الحديث الذي يشير إلى أن الآية نزلت في أعقاب ذلك الموقف بين النبي ﷺ وعمر. وإلاّ فكيف عرف عمر أن الله نهى عن الصلاة على المنافقين حتى «يذكّر» النبي ﷺ بذلك؟

وهناك تناقضٌ آخر في نص الحديث: فالرسول ﷺ يجيب عمر بن الخطاب بأن الله قد خيّره بشأن الاستغفار للمنافقين اعتماداً على نص الآية القرآنية. ولكن نص الآية القرآنية جليّ واضحٌ، ومن له إلمامٌ باللغة العربية يدرك أنها لا تحمل أي دلالة على التخيير (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم).

نزول آية الحجاب

«عن عائشة: أن أزواج النبي ﷺ كنّ يخرجن بالليل إذا تبرّزنَ إلى المناصع، وهو صعيد أفيح.

فكان عمر يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل.

فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناكِ يا سودة! حرصاً أن ينزل الحجاب. فأنزل الله آية الحجاب»[2].

وهنا يظهر أن الراوي أراد إعطاء عمر بن الخطاب دوراً مزعوماً، على حساب النبي ﷺ بالذات! فليس عمرُ أكثرَ غيرة من الرسول ﷺ، وليس أعرفَ للصواب

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص١٦٨.

(٢) صحيح البخاري باب خروج النساء إلى البراز، كتاب الوضوء ج١ ص٤٦.

من الخطأ منه. ولا يمكن أن يكون الوحي يترقب إشارة من عمر، أو توجيهاً منه لمواقع الخطأ في المجتمع، حتى يتنزل على النبيﷺ.

وعلى فرض صحة الرواية، وهذا مستبعد، فإن فيها مثلبة لعمر! فلماذا ينادي بصوته الجهوري على زوجة الرسولﷺ وهي خارجة لقضاء حاجتها «قد عرفناكِ يا سودة»؟! هذا تصرفٌ يخلو تماماً من اللياقة، فحتى لو عرفها، فلماذا يتعمد إحراجها؟

قطع شجر النخيل

روى الواقدي في حديثه عن غزوة خيبر، أن الحباب بن المنذر قال: «يا رسول الله إن اليهود ترى النخلَ أحبَّ إليهم من أبكار أولادهم. فاقطع نخلهم.

فأمَرَ رسولُ اللهﷺ بقطع النخل. ووقع المسلمون في قطعها حتى أسرعوا في القطع.

فجاءه أبو بكر فقال: يا رسول الله إن الله عز وجلّ قد وعدكم خيبر. وهو منجزٌ ما وعدك. فلا تقطع النخل.

فأمر منادي رسول اللهﷺ فنهى عن قطع النخل»[1].

وهذه الرواية تظهر أبا بكر أكثرَ حكمة من رسول اللهﷺ، وأكثرَ علماً منه بالحكم الشرعيّ الذي يمنع الإفساد في الأرض، بما فيه قطع الشجر. وأبو بكر هنا يبدو أكثر اطّلاعاً من رسول اللهﷺ على الوعد الإلهي بالنصر، حتى انه يذكّر الرسولﷺ به!

نحرُ إبلِ الجَيش

روى الإمام مسلم في صحيحه:

«قال: لما كان غزوة تبوك، أصابَ الناسَ مجاعة.

قالوا: يا رسول الله! لو أذنتَ لنا فنحرنا نواضِحنا، فأكلنا وادّهنا.

فقال رسول اللهﷺ: افعلوا.

---

(١) كتاب المغازي للواقدي ج ص٦٤٤.

فجاء عمر، فقال يا رسول الله، إن فعلتَ قلّ الظهر! ولكن ادعُهم بفضل أزوادهم ثم ادعُ الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم.

فدعا بنطع فبَسَطه ثم دعا بفضل أزوادهم.

قال فجعل الرجل يجيئ بكف ذرة، قال ويجيئ الآخر بكف تمر. قال ويجيئ الآخر بكِسرة.

حتى اجتمع على النطع من ذلك شيئ يسير.

فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة. ثم قال: خذوا في أوعيتكم.

فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلاّ ملأوه.

قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة.

فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله. لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكّ فيهما، إلاّ دخل الجنة»[1].

وحسب هذه الرواية فإن رسول الله ﷺ قد سمَح لأفراد الجيش بذبح إبلهم لأكلها. ولم يعرف رسول الله ﷺ أن التهام إبل الجيش لن يمكنه من أداء مهامه في الحركة والنقل والقتال. ولكن عمر بن الخطاب فطن لذلك وأدرك عواقبَ هذا القرار الخاطئ، فتدخلَ، وأبلغ الرسولَ ﷺ بأن القرار مُضرّ. وعند ذلك أدرك الرسول ﷺ أنه أخطأ في حين أصابَ عمر. ولم يكتف عمر بذلك، بل قدّم للرسول ﷺ اقتراحاً لما عليه ان يفعله. وطبّق الرسول ﷺ ما قاله له عمر، فحصلت عند ذلك معجزة إلهية حين بارك رسولُ الله ﷺ الطعامَ القليل الذي كان متوافراً، فشبعَ منه كل الناس!

وليس هناك حاجة إلى الكثير من الكلام حول هذه الرواية الغريبة التي يبدو أنها مصممة لإثبات تفوّق عمر بن الخطاب على الرسول ﷺ في حُسن التصرف

---

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان ص٣٨. وقد ورد الحديث في صحيح البخاري ج٤ ص٦٧ كتاب فضل الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو، وفيه أن عمر قال للرسول ﷺ ما بقاؤهم بعد إبلهم؟

والتقدير. فرسول اللهﷺ كان يملك من الذكاء والعبقرية والحكمة والخبرة، عدا عن الرعاية والتسديد الإلهي، ما يجعله يعلم أن الجيش لا يجوز له أن يلتهم الوسيلة التي بها يتنقل ويحمل متاعه، دون الحاجة إلى إرشادات عمر. فالأمر بسيط وبديهي.

وما الذي جعل المعجزة الإلهية تحدث بعد تدخل عمر؟ ولماذا لم يبرك الرسولﷺ على طعام الناس من البداية، حين جاؤوه ليستأذنوا بذبح إبلهم؟

أخشى أن يتكل الناسُ عليها!

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة:

«كنا قعوداً حول رسول اللهﷺ، معنا أبو بكر وعمر، في نفر.

فقام رسول اللهﷺ من بين أظهرنا، فأبطأ علينا، وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا فقمنا.

فكنتُ أول مَن فزع. فخرجتُ أبتغي رسول اللهﷺ، حتى أتيتُ حائطاً للأنصار لبني النجار. فدرتُ به، هل أجدُ له باباً فلم أجد. فإذا ربيعٌ يدخل في جوف حائط من بئر خارجة(والربيعُ الجدول) فاحتفزتُ كما يحتفز الثعلب.

فدخلتُ على رسول اللهﷺ فقال: أبو هريرة؟

فقلتُ: نعم، يا رسول الله.

قال: ما شأنك؟

قلتُ: كنتَ بين أظهرنا، فقمتَ فأبطاتَ علينا. فخشينا أن تقتطع دوننا، ففزعنا، فكنتُ أول مَن فزع، فأتيتُ هذا الحائط، فاحتفزتُ كما يحتفز الثعلبُ وهؤلاء الناس ورائي.

فقال: يا أبا هريرة (وأعطاني نعليه) قال: إذهب بنعليَّ هاتين، فمَن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلاّ الله، مستيقناً بها قلبه، فبشّره بالجنة.

فكان أولَ مَن لقيتُ عمرَ. فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟

فقلتُ: هاتان نعلا رسول اللهﷺ، بعثني بهما. مَن لقيتُ يشهد أن لا إله إلاّ الله مستيقناً بها قلبه، بشّرته بالجنة.

فضَرَبَ عمرُ بيده بين ثديَيَّ، فخَررتُ لإستي. فقال: إرجع يا أبا هريرة.

فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ، فأجهشتُ بكاءً. وركبني عمرُ، فإذا هو على اثري.

فقال لي رسول الله ﷺ: مالك يا أبا هريرة؟

قلتُ: لقيتُ عمرَ فأخبرته بالذي بعثتني به، فضرب بين ثديَيَّ ضربة، خررتُ لإستي. قال: إرجع.

فقال له رسول الله ﷺ: يا عمر ما حَمَلك على ما فعلتَ؟

قال: يا رسول الله بأبي أنتَ وأمي، أبعثتَ أبا هريرة بنعليك، مَن لقي يشهدُ أن لا إله إلاّ الله مستيقناً بها قلبه، بشّرَه بالجنة؟

قال: نعم.

قال: فلا تفعل. فإني أخشى أن يتكل الناسُ عليها. فخلهم يعملون.

قال رسول الله ﷺ: فخلهم.»[1].

وهذه الرواية تظهر عمر بأنه أكثر اهتماماً بشؤون المسلمين، وحرصاً عليهم من رسول الله ﷺ. فعمرُ أدرك أن الناس ربما يصيبهم الاتكال ويتركوا العملَ إذا عرفوا بشارة النبي ﷺ التي ينقلها أبو هريرة، فقرر منع أبي هريرة من القيام بمهمته التي كلفه الرسول ﷺ بها. ومن ثم شَرَحَ عمرُ للنبي ﷺ مخاطر نشر بشارته تلك بين الناس وطلب منه الكف عنها، فوافق الرسول ﷺ على ذلك لأنه عرف مدى حكمة عمر.

وهي رواية عجيبة وفيها انتقاصٌ صريحٌ من شخص رسول الله ﷺ لصالح عمر، الذي لديه كل الحق في رفض ومقاومة تنفيذ أوامر النبي ﷺ لأنه أفضل منه رأياً. وينصاعُ النبي ﷺ لعمر بعد أن يدرك خطأه!

---

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان ص٤٠. ويقتطع دوننا: يصيبه مكروه من العدو. والحائط: البستان المسوّر. وركبني عمر: لحقني.

وأما الحقيقة فهي أن الرواية مصممة لإعطاء الحق للخليفة عمر بن الخطاب بالذات، وغيره من الخلفاء بشكل عام، لمخالفة بعض تعليمات النبيﷺ متى ما شاء، على أساس المنفعة والمصلحة. الرواية تؤسس لهذا المنهج.

وفي سبيل ذلك الهدف، لم يرَ الرواة بأساً في تقويل رسول اللهﷺ قولَ المُعَطِلة (الإيمان في القلب يكفي، ولا داعي للعمل)، ولا في إظهاره بمظهر التابع لعمر.

وليس مفهوماً ما علاقة نعليّ رسول اللهﷺ، الذين أعطاهما لأبي هريرة، بالموضوع كله.

أخلاق النبي قبل البعثة

هناك اتجاهٌ، أمويُ المنشأ، لتصوير رسول اللهﷺ قبل بعثته وكأنه كان رجلاً عادياً كغيره من العرب، سادراً في غيّه وضلاله، مشاركاً قومَه في أخلاقهم وعاداتهم، واستمر على ذلك إلى أن أرسل الله إليه الملاك جبريل بالوحي، فتغيّرَ وأصبح بعد ذلك يتصف بخلُق النبوة!

ومن الأمثلة على ذلك الاتجاه، ما رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى بشأن زيد بن عمرو بن نفيل. فقد ذكر أن زيداً في الجاهلية كان يتبع دينَ ابراهيم ويوحّد الله ويتنزه عن ما تمارسه قريشٌ من طقوس وثنية، فيرفض أن يأكل مما ذبح باسم الأصنام. ثم ذكر ابن سعد حادثة حصلت بين زيد ومحمدﷺ. فقد روى عن عبد الله بن عمر أن الرسولﷺ «لقي زيدَ بن عمرو بن نفيل بأسفل بلد، وذلك قبل أن ينزل على رسول الله الوحي.

فقدّم إليه رسولُ الله سفرة فيها لحم.

فأبى أن يأكل منها.

ثم قال: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم. ولا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه»[1].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٣٨٠.

وحتى الإمام النسائي انطلت عليه هذه الرواية. بل إنه تمادى فزاد عليها تصريحاً جلياً بأن رسول اللهﷺ كان بالفعل يضحي ويذبحُ للأصنام! وقد جاء في روايته على لسان زيد بن حارثة «خرجَ رسول اللهﷺ وهو مُردفي إلى نُصُب من الأنصاب، فذبحنا له شاة، ثم صنعناها له حتى إذا نضجت جعلناها في سُفرتنا...»[1] ثم يذكر كلام زيد له.

وتهدف هذه الرواية إلى تصوير رسول اللهﷺ بأنه كان، كغيره من الناس، لا يأنف أن يأكل مما ذبح باسم الأصنام! وأن زيد بن عمرو بن نفيل كان لديه من فطرة نبذ الشرك بالله ما يفوق محمدﷺ.

الذين "يتنزهون" عن فِعل النبي!

يبدو أن رسول اللهﷺ كان يلاحظ أولئك النفر من أصحابه الذين وصل بهم الاعتداد بأنفسهم وآرائهم إلى حد تجاوز فتاوى الرسولﷺ حتى في شؤون العبادات! فكانوا يترفّعونَ عن التأسّي به والأخذِ برُخَصِه، حتى طفحَ به الكيل فاضطرّ أن يذكرهم بأنه نبيٌّ مرسلٌ من الله!

روى البخاري «قالت عائشة: صَنعَ النبيّﷺ شيئاً فترَخَّصَ فيه.

فتنزه عنه قومٌ.

فبلغَ ذلكَ النبيﷺ، فخطبَ فحمد الله ثم قال: ما بال أقوامٍ يتنزهونَ عن الشيئ أصنعه؟! فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية»[2].

وقال ابن حجر العسقلاني[3] في معرض شرحه لهذا الحديث أنه لم يعرف أسماء هؤلاء الأشخاص الذين قرروا أن فِعلَ الرسولﷺ وسنته لا يليق بهم،

---

(١) «فضائل الصحابة» للإمام النسائي، ص٢٦.

(٢) صحيح البخاري ج٨ ص٣١ باب مَن لم يواجه الناس بالعتاب. وفي رواية اخرى للبخاري في ج١ كتاب الايمان ص١١ باب قول النبيﷺ أنا أعلمكم بالله، أن رسول الله غضبَ من هؤلاء حتى عرف الغضب في وجهه.

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج١٠ ص٤٢٧ وكذلك ج١ ص٦٧.

لأنهم أحرص منه وأكثر فهماً لما هو صائبٌ من العبادات! وقال ابن حجر إن الحافز وراء قول الرسولﷺ هذا، أن البعض من الصحابة رأوا أنه لا يجوز للمرء الصيام إذا أصبحَ جُنباً إلاّ بعد أن يغتسل، رغم علمهم بأن الرسولﷺ قد رخّص في ذلكَ وأباحَه! مما اضطرّه إلى تذكيرهم بأنه هو، لا هم، مَن يعلم أحكامَ الله أكثرَ من غيره.

والغريب أن ابن حجر قد جعل من ذلك الفعل من الصحابة فضيلة لهم! فقال إن ذلك الموقف يشير إلى«شدة رغبة الصحابة في العبادة وطلبهم الازدياد من الخير»، بحيث أنهم لا يريدون رخصة النبيﷺ.

أكذوبة الغرانيق العُلى

وملخص هذه القصة هو أن رسول اللهﷺ جلسَ مع كبار المشركين في مكة، وكان حينذاك يتمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقرّب بينه وبين قومه لأنه شقّ عليه رفضهم لدينه، فأنزل الله عليه سورة النجم، فقرأها، حتى إذا بلغ قوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) وسوَسَ إليه الشيطانُ فألقى على لسانه جملتين مما كان يحدّث به نفسه، فقرأهما ظاناً أنهما من جملة الوحي، وهما (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى)!

ففرحَ بذلك المشركون كثيراً وقالوا إن محمداًﷺ قد ذكرَ آلهتهم بخير. ثم مضى الرسولﷺ في قراءة السورة حتى إذا بلغَ السجدة، فسَجدَ، وسجَدَ معه المسلمون والمشركون أيضاً، إلى درجة أن الوليد بن المغيرة ـ الذي كان طاعناً في السن ـ لم يتمكن من السجود فرفع تراباً إلى جبهته وسَجدَ عليه!

فشاعَ خبر المصالحة بين محمدﷺ وقومه في مكة وما حولها حتى وصلَ إلى المسلمين الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة!

ولكن جبريل جاءه بعد ذلك وأخبره إن تلك الفقرتين ليستا من وحي الله، وقال له «يا محمد ماذا صنعتَ؟ لقد تلوتَ على الناس ما لم آتكَ به عن الله عز وجل! وقلتَ ما لم يقل لك!».

ولما حزن الرسولﷺ كثيراً لهذا الذي حصل، أنزل الله أخيراً نسخاً لتلك الجملتين التين ألقاهما الشيطان على لسانه، فصحّحَ الرسول ﷺ سورة النجم بقوله (ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى. إن هي إلاّ أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن يتبعون إلاّ الظن وما تهوى الأنفس....).

«فسمعَ مَن كان بأرض الحبشة من المهاجرين أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا هم أحبّ إلينا فوجدوا القومَ قد ارتكسوا حين نسخَ الله ما ألقى الشيطان»[1].

وقد أخرج الكثير من المفسرين هذه القصة في معرض شرحهم لآية سورة الحج (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته...)، ومنهم مثلاً الإمام السيوطي[2] في الدر المنثور الذي استفاض فيها بروايات كثيرة جداً وبأسانيد عديدة.

وليس هناك أكثر قبحاً من هذه الرواية. لأنها ببساطة تظهر أن محمداًﷺ هو الذي يخترع الوحي من عنده، فيروي للناس ما يشاء ثم يغيّر ما يشاء وينسب ذلك تارةً للشيطان وتارةً لله!

وما هو معلومٌ بالضرورة من سيرة النبيﷺ، وما هو ثابتٌ ومؤكد، أن رسول اللهﷺ كان ثابتاً في منهاجه، صلباً لا يلين، وخاصة فيما يتعلق بأسس عقيدة التوحيد ونبذ الأصنام.

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٧٧.

(٢) تفسير الدر المنثور للسيوطي ج٤ ص٣٦٧ـ٣٦٨. وقد ذكرَ الإمام البخاري في صحيحه ج٦ باب سورة النجم ص١٧٧ أصلَ القصة وروى سجودَ المشركين وراء النبيﷺ ولكن دون أن يذكر الغرانيق العلى ولا وسوسة الشيطان.

اسقاط السياسي والعسكري على الديني والأخلاقي

إن الله يؤيِّد هذا الدينَ بالرجل الفاجر

جاء في صحيح البخاري عن النبيﷺ أنه «قال لرجلٍ ممن يدّعي الإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضر القتال، قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة.

فقيل يا رسول الله: الذي قلتَ أنه من أهل النار فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات!

فقال النبيﷺ: إلى النار!

قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت، ولكن به جراحاً شديداً. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسَه.

فأخبر النبيﷺ بذلك فقال: الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله! ثم أمر بلالاً فنادى بالناس إنه لا يدخل الجنة إلاّ نفسٌ مسلمة وإن الله ليؤيد هذا الدينَ بالرجل الفاجر»[1].

وقد أورد الواقدي، في معرض كلامه عن معركة أحُد، التفاصيلَ المتعلقة بهذا الحديث النبوي:

«وكان قُزمان من المنافقين. وكان قد تخلّفَ عن أحُد.

فلما أصبحَ عيّرَه نساء بني ظفر، فقلنَ: يا قزمان: قد خرجَ الرجالُ وبقيتَ! يا قزمان: ألا تستحي مما صنعتَ؟ ما أنتَ إلاّ امرأة، خرج قومكَ فبقيتَ في الدار!

فأحفظنه. فدخلَ بيتَه فأخرجَ قوسَه وجُعبته وسيفه ـ وكان يعرف بالشجاعة ـ

---

(١) صحيح البخاري باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ج٤ ص ٨٨

فخرج يعدو حتى انتهى إلى رسول اللهﷺ وهو يسوّي صفوف المسلمين. فجاء من خلف الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول فكان فيه. وكان أول مَن رمى بسهمٍ من المسلمين. فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح، وإنه ليكتّ كتيت الجمل. ثم صار إلى السيف ففعل الأفاعيل

.... فلما انكشفَ المسلمون كسرَ جفن سيفه وجعل يقول: الموت احسن من الفرار! يا آل أوس: قاتلوا على الأحساب واصنعوا مثل ما أصنع!

فيدخلُ بالسيف وسط المشركين حتى يقال: قد قتل. ثم يطلع ويقول: أنا الغلام الظفري!

حتى قتل منهم سبعة، وأصابته الجراحة وكثرت به فوقع. فمر به قتادة بن النعمان فقال: أبا الغيداق! قال له قزمان: يا لبيك! قال: هنيئاً لك الشهادة! قال قزمان: إني والله ما قاتلتُ يا أبا عمرو على دين، ما قاتلتُ إلاّ على الحِفاظ. أن تسيرَ قريشٌ إلينا حتى تطأ سعَفنا.

فذُكر للنبيﷺ جراحته فقال: من أهل النار. فأندبته الجراحة فقتل نفسَه. فقال رسول اللهﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1].

وهذه الحادثة تظهر أنه حتى المنافق، غير المؤمن، ممكنٌ أن تصدر عنه البطولة والشجاعة، وممكنٌ أن يكون مفيداً في نشر وتأييد دين الله، رغم فساد أخلاقه وانحراف مقاصده.

قادة الجيوش وأبطال الفتوحات العسكرية

تتلخّص الإشكالية هنا في أن الكثيرين لديهم صورة طوباوية، مثالية، تشوبها الأوهام، عن بعض شخصيات التاريخ الإسلامي، ناتجة في الأساس عن الخلط بين ما هو سياسي ـ عسكري وما هو ديني ـ أخلاقي.

ولا بد من التوضيح أنه ليس المقصود من هذا البحث الانتقاص من أهمية

(١) مغازي الواقدي ج١ ص٢٢٤.

الفتوحات والانتصارات العسكرية لبعض القادة ذوي الهالة الكبيرة، وإنما هي محاولة للتحليل ووضع الأمور في نصابها، وتقصّي الدور الأموي في تغذية هذا النمط من التفكير

فمن الضروري التأكيد على أهمية الفصل بين ما هو سياسي ـ عسكري من جهة، وما هو أخلاقي ـ ديني من جهة أخرى. بمعنى أن النجاح في المجال السياسي ـ العسكري لا يعكس بالضرورة فضائل أخلاقية ـ دينية لمن حقق ذلك النجاح. بل إنه في الغالب هناك نوع من التعارض بين الأمرين!

فالسياسة والإدارة تحتاج في كثير من الأحيان إلى التضحية بكثير من المبادئ السامية لتحقيق الهدف المنشود والذي هو في النهاية: المصلحة والمنفعة. لأن السياسة هي في الأصل تعاملٌ مع البشر كما هم، وليس كما يفترض أن يكونوا. والإدارة هي تدبير شؤون عامة الناس، وليس الخيّرين منهم فقط. ولا يمكن توقّع وجود سياسة تعتمد على حسن سويّة كل الناس. ولم يكن البشر في أي عصر من العصور جماعة خيّرة متجانسة متآلفة من الصالحين حتى يمكن التوقّع منهم أن يقبلوا جماعياً بمبادئ العدل والخير وانعكاساتها العملية في شؤون الحكم والحياة. ففي الناس دائما أصحاب الأهواء وطلاّب المغانم، وفيهم الأشرار والظالمون، وفيهم السفلة والأوغاد. وكل هذه الأصناف من البشر موجودة في كل مجتمع بنسبة تكبر وتصغر حسب وضع كل بلد.

والقادة السياسيون عليهم أن يتعاملوا مع كل هؤلاء. وعليهم أن يتوقّعوا الأسوأ من كل هؤلاء. وتطبيق مبادئ العدل والمثالية بحرفيّتها يؤدّي في كثير من الأحيان إلى فجوة بين القائد السياسي ورعيّته. والأخطر من ذلك أنه إذا كان الزعيم أخلاقياً في سياسته، وملتزماً بالمثالية في الحكم والإدارة، فإنّه سيدخل في صراع غير متكافئ مع خصومه ـ وهم حتماً موجودون ـ إذا كانوا لا يقيدون أنفسهم بالضوابط والمعايير التي يفرضها الزعيم الأخلاقي على نفسه![1] وفي كل الأزمان كان السياسيون

---

(١) ويمكن تشبيه ذلك اليوم بملاكمين يدخل أحدهما الحلبة ملتزماً بقواعد اللعبة ومرتديا قفّازين، بينما خصمه

الناجحون هم أولئك الذين لا يتورّعون عن تجاوز مبادئ الحق، بل وفي كثير من الأحيان إلغاؤها تماماً، إذا شعروا أن في ذلك إخضاعاً لخصومهم وضماناً لاستمرار منافعهم.

وأما في مجال الحروب والفتوحات، فحدّث ولا حرج! الحرب في حدّ ذاتها فعلٌ وحشيٌ لا إنساني. والحرب لا تعرف الرحمة أو الّلين. وهي صراع بين جهتين لا همّ لهما إلاّ القضاء على بعضهما. وحين يكون الإنسان في مواجهة تتوقّف عليها حياته ومصالحه ومستقبله، فمن السذاجة، بل والغباء، توقّع أن تكون العناصر الأخلاقية السامية هي التي تقوده. وسيجد لنفسه حتماً ــ إن كان أصلاً من ذوي المبادئ والضمير ـ مبرّراً لأي فعل يلجأ إليه مهما كان دنيئا في سبيل الإنتصار على عدوّه.

"شخصنة" الفتوحات والانتصارات

من اللافت للنظر، عند التعامل مع القضايا التاريخية، وجود نزعة ظاهرة لدى الكثير من الرواة والمؤرخين إلى إبراز وتضخيم العامل الشخصي لدى التطرق لقضايا الحروب والصراعات. ويتجلى ذلك بوضوح في حالات الانتصارات العسكرية، حيث تنسب في الغالب تلك الانتصارات إلى شخص القائد أو الأمير، ويتم تهميش دور المقاتلين وكل الظروف الموضوعية الأخرى. وبمرور الوقت، ومع التكرار، تنشأ حالة من الارتباط بين شخص وحَدَث معين، بحيث لا يذكر ذلك الحدث إلاّ ويذكر معه الشخص بعينه دون غيره. ومثال على ذلك القادسية/سعد بن أبي وقاص، أو اليرموك/ خالد بن الوليد.

وهناك جذور أموية لهذه النزعة. فشعور الأمويين بافتقارهم لأي قدر من الشرعية الإسلامية جعلهم يحاولون التعويض عن طريق التركيز على الفتوحات العسكرية والتوسع الاقليمي الذي تم في عهد الدولة الأموية. فحرصوا على تصوير

يحمل بيديه خنجرا! الأول ألزم نفسه بالأصول، بينما لم يتورّع الثاني عن مخالفتها وعن استخدام أي وسيلة ـ غير شرعية ـ للفوز!

تلك الحروب على أنها «جهاد في سبيل الله»، وبالتالي فهم يكونون قادة مجاهدين يسعون إلى رفع راية الإسلام.

ولا شك أبدا في حرص الأمويين على التوسع والفتوحات. وهو الأمر الذي أدى بهم إلى خوض حروب كثيرة ضد الرومان والأفارقة والإسبان وغيرهم. ولا شك أيضا في فعاليتهم القتالية وشراستهم في مواجهتهم لخصومهم من العجم. فمعاوية ومروان وعبد الملك لم يترددوا في خوض حرب أهلية طاحنة ضد الإمام عليّ سُفكت خلالها دماء عشرات الالآف من العرب وأظهروا فيها قسوة وبطشاً قلّ نظيره، وبالتالي فهم وخلفاؤهم لن يترددوا ولو للحظة في مهاجمة العَجَم إن كانت الفرصة سانحة من أجل توسيع ملكهم وسلطانهم، والحصول على منافع جديدة، ولا بأس بعد ذلك في إظهار الأمر على أنه «جهاد».

أي أن الميدان العسكري هو الوحيد الذي يمكن أن يعطيهم بعض الشرعية بنظر عامة المسلمين. ومن هنا كان التركيز على الفتوحات، وبشكل أخص على القادة.

والمواجهة الطويلة التي خاضتها قريش ضد علي بن أبي طالب منذ لحظة وفاة النبيﷺ إلى حين انفراد معاوية والأمويين بالحكم سنة ٤١ للهجرة، تطلبت منهم الحصول على دعم أخلاقي واعتباري يبرر معاداة قريش الجماعية لعليّ، صاحب الخصال الإسلامية التي لا يمكن لأحد أن يقترب منها. فكانت الفتوحات العظمى التي تمّت في عهد الشيخين، وبالأخص عمر بن الخطاب، هي الحل الذي يمكن أن يستندوا إليه في إقناع المسلمين بأن ما قامت به قريش ليس شراً، وان النتائج التي تمخّضت عنها القيادة القرشية لدولة الإسلام كانت باهرة إلى درجة تقنع المسلمين بتناسي الظلم الذي وقع على أهل بيت الرسولﷺ. فتضخيم وتعظيم منزلة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم، اعتماداً على الإنجازات الحربية، يقصد منه بشكل غير مباشر إعطاء هؤلاء نوعاً من الشرعية الإسلامية لموازنة عليّ بن أبي طالب. فهؤلاء جميعاً كانوا خصوماً لعليّ بشكل أو بآخر، وبدرجات متفاوتة.

وبالاعتماد على الغزو والقتال فقط، يمكن اعتبار حتى الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ابن أشرس أعداء النبيﷺ، الفاسق بالنص القرآني، وشارب الخمور، مجاهداً عظيماً! فهو كان له سهمٌ في «الجهاد» وقتال الأعاجم. وهو قاد الجيش الذي هاجم آذربيجان وأرمينيا سنة ٢٦ للهجرة وعاد من هناك ظافراً بعد أن هزمت قواته أهلها[1].

وكان حتى وهو رأس الجيش لا يتورّع عن شرب الخمر، ولم يؤثر ذلك على مسيرة المسلمين الظافرة. فمثلاً روى ابن عساكر عن علقمة أن الوليد بن عقبة، وهو على رأس جيشٍ للمسلمين، كان يشرب الخمر، إلى درجة أن جنوده فكروا في إقامة الحد عليه، ثم تراجعوا من أجل المصلحة:

«... فشرب الوليد الخمرَ، فأردنا أن نحدّه.

فقال حذيفة: أتحدّون أميركم وقد دنوتم من عدوكم، فيطمعوا فيكم...»[2].

وكذلك فإن عبد الله بن سعد بن أبي السرح، المرتد القديم الذي أنقذ في آخر لحظة من حكم الإعدام الذي أصدره عليه النبيﷺ، كانت له صولات في الغزو والقتال.

فهو قاد الجيش الذي توغّل في إفريقية سنة ٢٧ للهجرة حتى وصل القيروان وعاد ظافراً.

ثم إنه غزا النوبة والسودان والحبشة سنة ٣١ للهجرة.

كما انه كان قائد غزوة ذات الصواري البحرية العظيمة التي ألحق فيها المسلمون هزيمة مدوّية بالرومان وأسطولهم البحري سنة ٣٤ للهجرة[3].

فهذا أيضاً يرغب الأمويون أن يصوروه بطلاً إسلامياً فاتحاً.

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٠٧. والمزيد عن سيرة الوليد هذا موجود في ص٣٣٠ من هذا الكتاب.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٦٣ ص٢٣٩.

(٣) يمكن مراجعة أخبار غزواته في تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٩ ص٣٦ـ٣٩.

ومن الضروري التذكير بأن هذا الشخص كان من أخبث رجالات قريش منذ القدم. فبخلاف غيره من سادة قريش الذين رفضوا دعوة محمدﷺ وحاربوه علناً وبكل صراحة، فضّل هو محاربة محمدﷺ بطريقة أخبث والأم! فقد تظاهر بالإيمان بدعوة محمدﷺ وهو مستضعفٌ في مكة، وتقرّب منه إلى أن جعله من الذين يكتبون الوحي القرآني. وبعد ذلك ارتدّ وعاد إلى إخوانه في قريش ليقولَ لهم إن محمداًﷺ كذاب وليس نبيّا: «ما يدري ما يقول! إني لأكتب له ما شئت!».

وبسبب هذا الدور الدعائي الحقير الذي لعبه ابن أبي السرح، قرر الرسولﷺ إعدامه يوم فتح مكة: «قال رسول اللهﷺ: مَن وجد ابن أبي السرح فليضرب عنقه، وإن وجد متعلقا بأستار الكعبة»[1].

وكان المسلمون حريصين جداً على تنفيذ الأمر النبوي بقتله، لولا أنّ عثمان بن عفان خبّأه ثم أتى به إلى النبيﷺ فجأةً ليشفعَ له، فألحّ عليه كثيرا إلى أن أحرجه فتركه وأعرضَ عنه.

وكذلك فإن يزيد بن أبي سفيان كان من الذين لهم دورٌ فاعل في حركة الفتوحات في الشام، حين ولاّه أبو بكر قيادة أحد الجيوش الأربعة التي هزمت الرومان.

ولا بأس من التذكير أن الإبن الأكبر لأبي سفيان، كان يفوق أباه عداءً وبُغضاً للرسولﷺ. فهو كان من القلائل الذين حاولوا المقاومة يوم فتح مكة، فأصرّ على قتال النبيﷺ، رغم علمه باستسلام أبيه:

«... يزيد بن أبي سفيان أسِر يوم الفتح في باب الخندمة. وكان خرج في نفر من قريش يحاربون ويمنعون من دخول مكة. فقتل منهم قومٌ وأُسِرَ يزيدُ بن أبي سفيان...»[2].

وحتى عبيد الله بن زياد بن أبيه، السّفاك الذي قتل الإمام الحسين بن علي وأبادَ

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢٩ ص٣٣ـ٣٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٧ ص٢٥٦.

العائلة النبوية في كربلاء، كان له نصيبٌ في القتال ضد الأعاجم ودورٌ في التوسّع في الفتوحات. روى اليعقوبي عن أحداث أعوام ٥٤ـ٥٦ للهجرة بعد وفاة زياد:

«وصار عبيد الله بن زياد إلى خراسان، فبدأ ببخارى، وعليها ملكةٌ يقال لها خاتون، فقاتلهم حتى فتحها. ثم قطع نهر بلخ، وكان أول عربيّ قطع نهر بلخ، وحاربه القومُ محاربة شديدة، وكان الظفر له»[1].

إلاّ أن المثال الأبرز على دور القيادات الناجحة ذات السلوك الشخصي المثير للجَدل، هما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد.

عمرو بن العاص

فكما هو معلوم، كان لابن العاص دورٌ بارز في معاداة النبيﷺ منذ بدء دعوته في مكة. وهو قد هجاه بالشعر وشهَرَ به، وهو كان مندوبَ قريش إلى النجاشي في الحبشة من أجل استرجاع جعفر بن أبي طالب ومَن معه من المسلمين اللاجئين، وهو كان له دورٌ في تأليب العرب على رسول اللهﷺ يوم أحُد والخندق، وهو كان من قيادات جيش قريش حينها. وبقي ابن العاص على تلك الحال من العداوة حتى الرمَق الأخير، قبيل فتح مكة، حين ضاقت عليه الأرض وشعر بأن محمداً منتصرٌ لا محالة، فقرر هو وخالد بن الوليد اللحاق بالرسولﷺ طوعاً حتى لا يؤخذ عنوة. وفيما يلي قصة إسلام عمرو بن العاص كما رواها هو حسبما جاء في سيرة ابن هشام:

«لماّ انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله اني أرى أمر محمدٍ يعلو الأمور عُلواً منكراً، وإني قد رأيتُ أمراً، فما ترون فيه؟

قالوا: وماذا رأيتَ؟

قال: رأيتُ أن نلحقَ النجاشيّ فنكون عنده، فإن ظهَرَ محمدٌ على قومنا كنّا عند

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٣٦.

النجاشيّ. فإنّا أن نكونِ تحت يديه أحب إلينا أن نكون تحت يدي محمد. وإن ظهَـرَ قومنا فنحن مَن قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلاّ خير.

قالوا: إن هذا لرأي.

قلت فاجمعوا لنا ما نهديه له. وكـان أحـب مـا يهـدى إليـه مـن أرضـنا الأدم. فجمعنا له أدَماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده، إذ جاء عمرو بن أمية الضمري. وكان رسول الله قـد بعثـه إليـه في شأن جعفر وأصحابه.

قال فدخل عليه ثم خرج من عنده.

قال فقلت: لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلتُ على النجاشيّ وسألته إيّاه، فأعطانيه فضربتُ عُنقه. فإذا فعلتُ ذلك رأت قـريشٌ أنـي قـد أجـزأتُ عنها حين قتلتُ رسولَ محمد.

قال: فدخلتُ عليه فسجدتُ له كما كنت أصنع. فقال مرحباً بصديقي، أهـديتَ إليّ من بلادك شيئا؟ قال: قلت: نعم أيها الملك. قد أهديت إليك أدَماً كثيراً ثم قرّبتـه إليه فأعجبه واشتهاه.

ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجـل عدو لنا.فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

قال: فغضبَ ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره. فلو انشـقّت لي الأرض لدخلت فيها فَرَقاً منه. ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننـت أنـك تكـره هذا ما سألته!

قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه النـاموس الأكبـر الـذي كـان يـأتي موسى لتقتله؟

قال: قلت: أيها الملك أكذلك هو؟

قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحـق وليظهـرنّ علـى مَـن خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمتُ أصحابي إسلامي.

ثم خرجتُ عامداً إلى رسول الله لأسلم، فلقيتُ خالدَ بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبلٌ من مكة.

فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال: والله لقد استقام المنسم وإن الرجل لنبيّ، اذهب والله فأسلم، فحتى متى؟

قال: قلت: والله ما جئتُ إلاّ لأسلم.

قال: فقدمنا المدينة على رسول الله فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايعَ. ثم دنوتُ فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخّر.

قال: فقال رسول الله: يا عمرو، بايع فإن الإسلام يجُب ما كان قبله، وإن الهجرة تجُب ما كان قبلها. قال: فبايعته ثم انصرفت»[1].

ولكن رسول الله ﷺ كان يميّز بين المهمات العسكرية، السياسية، والإدارية وبين مهمات الدعوة والتبليغ. وكان لا يمانع أن يستفيد من قدرات القرشيين، المنضوين تحت لوائه كرهاً، وطاقاتهم.

وطبّق رسول الله ﷺ سياسته هذه بالفعل. ومن ذلك أنه أمّر عدوّه القديم، عمرو بن العاص، على سرية بعثها لإخضاع بعض قبائل العرب قرب الشام، عرفت باسم»ذات السلاسل». وكان جيش عمرو بن العاص يضم بصفوفه صحابة كبار مثل سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد[2].

وسبب ذلك التأمير كان مصلحياً بحتاً. فقد كانت تربط عمرو بن العاص علاقة نسَب بقبيلة بلي، المقيمة في تلك المنطقة. فهم أخوال أبيه، ولذا كان من المتوقع أن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٥٠.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج٢ ص٧٧٠.

يسمعوا له بشكل جيد. والمهم أنه لما طلب عمرو بن العاص مَدَداً، أرسل له رسول الله صلى الله عليه وآله بعثاً فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة، دون أن يوصي النبي صلى الله عليه وآله بتغيير قيادة عمرو أو استبداله بواحد من هؤلاء المهاجرين القديمين.

وفعلا استمرّ عمرو بالقيادة، وكان يؤمهم في الصلاة![1]

وهكذا يظهر أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يهمه نجاح المهمة بالدرجة الأولى، ولذا استبقى عمرو بن العاص في المنصب، دون أن يكون ذلك إقراراً منه، على الإطلاق، بأن عمرو بن العاص أفضل في الإسلام من هؤلاء المهاجرين الأولين.

وكذلك فَعلَ أبو بكر حين بَعَث عمرو بن العاص أميراً على طلائع القوات التي أرسلها لفتح الشام فقال له:

«... وقد رأيتَ تقديمي إياكَ على مَن هو أقدم سابقة منك، ومَن كان أعظم غناءً عن الإسلام وأهله منكَ...»[2].

خالد بن الوليد

تمثل غزوة مؤتة مثالاً ساطعاً على التصرف العقلاني المبني على حسابات الربح والخسارة، الذي تميّز به خالد، بالمقارنة مع السلوك العقائدي المبني على العاطفة والتضحية والفداء.

ففي تلك الغزوة، سقط القادة المتحمّسون الثلاثة: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، واحداً تلو الآخر، وهم الذين عيّنهم رسول الله صلى الله عليه وآله في قيادة الجيش قليل العدد الذي أرسله إلى بلاد الشام.

فتصرّفَ خالدُ بن الوليد، بدافع من شخصيته القيادية، بحكمة شديدة، وقرر الانسحاب من الميدان حين رأى أنّ المواجهة محكومة بالفشل. لا شكّ أن ذلك كان سلوكاً مصلحياً صائباً، ولكنه غير عقائدي البتة.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٢٣٩.

(2) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٢ ص٦٦.

وقد أورد ابن اسحق تفاصيل بطولات هؤلاء القادة الذين عينهم رسول اللهﷺ في تلك البعثة:

«ثم مضوا حتى نزلوا معان، من أرض الشام. فبلغ الناسَ أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء، في مئة ألفٍ من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مئة ألف منهم......

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول اللهﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له.

فشجّع القومَ عبدُ الله بن رواحة وقال: يا قوم: والله إن التي تكرهون، للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناسَ بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرة. ما نقاتلهم إلاّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهورٌ وإما شهادة. فقال الناس: صدق والله ابن رواحة!

.... ثم التقى الناس واقتتلوا. فقاتل زيد بن حارثة براية رسول اللهﷺ حتى شاط في رماح القوم.

ثم أخذها جعفر فقاتل بها، حتى إذا ألحَمَه القتالُ اقتحمَ عن فرسٍ له شقراء فعقرها، ثم قاتل القومَ حتى قتل وهو يقول:

يا حبّذا الجنة واقترابها   طيبة وبارداً شرابُها

والروم رومٌ قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إذ لاقيتها ضرابها

... إن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل.... ويقال أن رجلاً من الروم ضربه يومئذٍ ضربة فقطعه بنصفين

... فلما قتل جعفر، أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمتُ يــا نفــس لتنــزلنّــه   لتنـــزلـــنّ أو لتــكـــرهـــنّ
إن أجلبَ الناسُ وشدّوا الرنّه   مــالي أراكِ تكــرهيــن الجنــة

وقال أيضا:

يــا نفس إلاّ تقتــلي تمــوتي   هــذا حمــام الموت قد صُليت
ومــا تمنيتِ فقــد أعــطيتِ   إن تفــعــلي فعلهمــا هُــديتِ

..... ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل»[١].

وقد وصف البخاري ما حصل لجعفر يومئذ. فروى عن ابن عمر أنه:

«وقفَ على جعفر يومئذ وهو قتيل. فعددتُ به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دُبره، يعني في ظهره»[٢] وروى البخاري في نفس الصفحة أيضاً أنه وُجد في جسَد جعفر بضعٌ وتسعون من طعنة ورمية.

وأورد البخاري ردة فعل رسول الله صلى الله عليه وآله على ما حصل بمؤتة كما يلي «خطب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أخذ الراية زيدٌ فأصيب ثم أخذها جعفرٌ فأصيب ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح عليه. وما يسرّني أو قال ما يسرهم أنهم عندنا. وقال: وإن عينيه لتذرفان»[٣].

وأورد ابن اسحق عن أسماء بنت عميس، زوجة جعفر بن أبي طالب، قولها «لما أصيب جعفر وأصحابه، دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وقد دبغتُ أربعين منّا، وعجنتُ عجيني، وغسلتُ بَنيَّ ودهنتهم ونظّفتهم.

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: ائتيني ببني جعفر.

فأتيته بهم. فتشمَمهم وذرفت عيناه.

فقلت: يا رسول الله. بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغكَ عن جعفر وأصحابه شيئ؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص١١ـ١٥.
(٢) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة ج٥ ص ١٨٢.
(٣) صحيح البخاري باب من تأمّر في الحرب من غير إمرة ج٤ ص ٨٨

قال: نعم أصيبوا هذا اليوم.....»[1].

وليس هناك أدنى شك في أن تصرف خالد بن الوليد يوم مؤتة كان سليماً جداً. فليس من المعقول أن يمضي جيش المسلمين في مواجهة غير متكافئة محكومة بالفشل إلى أن يُبادوا عن آخرهم. ولو لم يقد خالدٌ الجيشَ للإنسحاب المنظم من المعركة لكانت النتيجة مقتل معظم أفراد الجيش وفرار البقية فردياً وهيامهم في الجبال والوديان. وشخصٌ قياديٌ بطبعه مثل خالد لا يمكن أن يسمح بذلك. فهو يعتبر أنه قد جاء لإنجاز مهمة وتحقيق هدف. وليس احتمال القتل في ساحات الحرب والمعارك أمراً مستبعداً بنظر خالد، ولكن في جميع الأحوال يجب أن تكون فرصة النجاح في المواجهة موجودة وحقيقية ولها أسس مادية، وهذا ما يقرره القائد الحكيم، وإلا تحوّل الأمر إلى نوعٍ من التضحية بالنفس، لا لزوم له. فالجيوش والمقاتلون يخرجون لا بهدف الاستشهاد والذهاب إلى الجنة بل لتحقيق الانجازات والانتصارات. هذا فكر خالد وتلك فلسفته.

وهذا الفكر والسلوك يختلف تماماً عن فكر وممارسة القادة الثلاثة الذين سبقوه. فهؤلاء كانوا أبطالاً وهو كان قائداً. وهؤلاء كانوا شهداءً وهو كان واقعياً. وهؤلاء لم يروا أمامهم سوى الجنة وهو نظر إلى الدنيا.

*****

والمثال الأبرز على أن سلوك خالد بن الوليد الشخصي لم يكن فيه الكثير من الإلتزام الأخلاقي هو في الحادثة المشهورة والتي تتعلّق بمالك بن نويرة.

فبعد أن فرغ خالد بن الوليد من إخضاع قبائل فزارة وغطفان وأسد وطيئ لسلطة الخليفة الجديد أبي بكر، سار يريد بطاح مكة وبها مالك بن نويرة. وملخّص ما جرى هو أن خالداً رأى زوجة مالك فأعجبته فقرر بكل بساطة إعدام زوجها حتى يتمكن من امتلاكها، على الرغم من أن زوجها وقومَه كانوا مسلمين ومقيمين للصلاة ومقرّين للزكاة!

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص١٧.

وهذا ما حصل، فتم بأمر خالد إعدام مالك بن نويرة، وقام خالد بالدخول بزوجته في ذات الليلة! لم يُراعِ خالد أخلاق الإسلام ولا أهداف الرسالة النبوية ولا تعليمات الخليفة الجديد ولا حتى أخلاق العرب في الجاهلية! ولم ينتظر حتى أن تقضي الأرملة عدّتها! ومن السهل تصوّر شعور تلك المرأة المسكينة وهي ترى نفسها تساق إلى القائد العسكري ليدخل بها وهو قد انتهى لتوّه من قطع رأس زوجها!

وفيما يلي ما رواه بعض المؤرّخين حول هذه الواقعة:

روى اليعقوبي حول موضوع مالك ابن نويرة»... فأتاه مالك بن نويرة يناظره، واتبعته امرأته. فلمّا رآها خالد أعجبته.

فقال: والله لانلت في مثابتك حتى أقتلك.

فنظر مالكاً، فضربَ عُنقه وتزوج امرأته.

فلحق أبو قتادة بأبي بكر فأخبره الخبر. وحلف ألاّ يسير تحت لواء خالد لأنه قتل مالكاً مسلماً.

فقال عمر ابن الخطاب لأبي بكر: يا خليفة رسول الله، إن خالداً قتل رجلاً مسلماً وتزوج امرأته من يومها. فكتب أبو بكر إلى خالد، فأشخَصَه. فقال خالد: يا خليفة رسول الله، اني تأوّلتُ، وأصبتُ وأخطأتُ»[١].

وذكر البلاذري:

«إن مالكا قال لخالد: إني والله ما ارتددتُ. وشهد أبو قتادة الأنصاري أن بني حنظلة وضعوا السلاح وأذنوا. فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر رضي الله عنهما: بعثتَ رجلا يقتل المسلمين ويعذب بالنار»[٢].

وروى ابن كثير والطبري:

«لم يزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرّض الصّديق ويذمره على عزل

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٣٢.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص ١١٧.

خالد عن الإمرة، ويقول إن في سيفه لرهقاً، حتى بعث الصديق إلى خالد بن الوليد فقدم عليه المدينة، وقد لبس درعه التي من حديد، وقد صدئ من كثرة الدماء، وغرز في عمامته النشاب المضمخ بالدماء.

فلما دخل المسجد قام إليه عمر بن الخطاب فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها وقال: أرياءً قتلتَ امرءً مسلماً ثم نزوتَ على امرأته؟! والله لأرجمنَّك بالجنادل!

وخالدٌ لا يكلمه، ولا يظن إلاّ أن رأي الصديق فيه كرأي عمر، حتى دخل على أبي بكر فاعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه ما كان منه في ذلك. وودى مالكَ بن نويرة.

فخرج من عنده وعمر جالس في المسجد. فقال خالد: هلمّ إليّ يا ابن أم شملة! فلم يرد عليه وعرف أن الصديق قد رضي عنه.

واستمر أبو بكر بخالد على الإمرة، وان كان اجتهد في قتل مالك بن نويرة، وأخطأ في قتله»[1].

*****

وقام خالدٌ بالزواج من بنت مجّاعة الحنفي، بعد مقتل عدد كبير من قومه الذين هُزموا في اليمامة. وقد روى الطبري أن أبا بكر كتب له لما بلغه خبر زواج خالد «يا ابن أم خالد: إنك لفارغ تنكح النساء، وبفناء بيتكَ دمُ ألفٍ ومئتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد»[2].

*****

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٥٥. وتاريخ الطبري ج٢ ص٥٠٤. وودى أي دفع الدية. ويبدو أن شعور الازدراء تجاه عمر والذي عبر عنه خالد بقوله: يا ابن أم شملة! له جذور قديمة. فمثلا روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٢ ص١٨٤، أن عمر بن الخطاب، وهو ابن ١٨ سنة، خرج مع والد خالد، الوليد بن المغيرة، إلى الشام كأجير له، وهو يخدمه ويرفع أحماله ويحفظ متاعه ويرعى إبله. وخالد حتما يريد أن يذكر عمر بذلك.

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٥١٩.

وكذلك لم يتورع خالد عن استخدام أسلوب القتل حرقاً بحق أعدائه. ذكر البلاذري عن هجوم خالد على جمع لبني سليم«وجعل خالد يومئذ يحرق المرتدين. فقيل لأبي بكر في ذلك فقال: لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكفار»[1].

*****

ولا بأس أيضاً من التذكير بحادثة سابقة لخالد حصلت أيام الرسولﷺ. وهي ما حصل من قتل في بني جذيمة بأمر من خالد بن الوليد. وهو ما دفع رسول اللهﷺ إلى أن يرفع صوته مُستنكراً ما قام به قائلاً:

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرات!

وفبما يلي النص كما ورد في صحيح البخاري:

«بعث النبيﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا. فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا.

فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيرَه.

فقلتُ والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجلٌ من أصحابي أسيره!

حتى قدمنا على النبيﷺ فذكرناه فرفع النبيﷺ يده فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد. مرتين»[2].

وقد وردت نفس القصة في سيرة ابن هشام بتفصيل أكثر، حيث أن الرسولﷺ بعد فتح مكة:

«بعث فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل، ولم يأمرهم بقتال.

وكان ممن بعثَ خالدُ بن الوليد وأمَرَه أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ج١ ص ١١٦.

(٢) صحيح البخاري باب بعث النبي خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ج٥ ص ٢٠٣.

مقاتلاً...... فوطئوا بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة. فلما رآه القوم أخذوا السلاح.

فقال خالد: ضعوا السلاحَ، فإن الناس قد أسلموا.

قال ابن اسحق: فحدثني بعض أصحابنا من أهل العلم من بني جذيمة، قال: لما أمرَنا خالدُ أن نضع السلاح قال رجلٌ منا يقال له جحدم: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد والله! إنه خالد والله! ما بعد وضع السلاح إلاّ الإسار، وما بعد الإسار إلاّ ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً.

قال: فأخذه رجالٌ من قومه، فقالوا: يا جحدم: أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ووضعت الحرب وأمِنَ الناس. فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه. ووضع القوم.....

فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتّفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم.

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله رفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد........ ثم دعا رسول الله عليّ بن أبي طالب فقال: يا عليّ: أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك.

فخرج عليّ حتى جاءهم ومعه مالٌ قد بعث به رسول الله. فودَى لهم الدماءَ وما أصيب لهم من الأموال، حتى أنه ليَدِي لهم مَيلغةَ الكلب. حتى إذا لم يبقَ شيء من دم ولا مال إلاّ وداه، بقيت معه بقيةٌ من المال فقال لهم عليّ حين فرغ منهم: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يودَ لكم؟

قالوا: لا.

قال: فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله مما يعلم ولا تعلمون.

ففعل ثم رجع إلى رسول الله فأخبره الخبر فقال: أصبتَ وأحسنتَ!

قال: ثم قام رسول الله فاستقبل القبلة قائما شاهراً يديه حتى إنه ليرى مما

تحت منكبيه، يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات»[1].

ومما يلفت النظر في هذا النص، مدى الرعب الذي اجتاح بني جذيمة من شخص خالد بن الوليد والذي عبّر عنه قائلهم:»إنه خالد والله«مرتين.

ويمكن تفسير ما قام به خالد من قتل متعمد لهؤلاء القوم دون أي مبرر إذا عُرفت حادثة قديمة حصلت قبل الإسلام، وتتلخص في رحلة تجارية قام بها نفرٌ من قريش فيهم عفان بن أبي العاص وعوف بن عبد عوف والفاكه بن المغيرة (عم خالد بن الوليد) إلى اليمن، وحصلت خلالها مشكلة مع قوم من بني جذيمة أسفرت عن مقتل عوف والفاكه. وقد حلت المشكلة في حينها بدفع بني جذيمة الدية لقريش[2]، ولكن الوليد بن المغيرة وهو على فراش الموت لم ينسَ أن يوصي بنيه الذين جمعهم حوله قائلاً:

«.... ودم أخي الفاكه بن المغيرة في بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، فلا يفوتنكم»[3].

إذن قام خالدٌ باستغلال المهمة التي تولاّها في الإسلام لتصفية حساب قديم جداً مع بني جذيمة، ونفذ وصية أبيه، ثأراً لعمّه الفاكه، دون مراعاة لتعليمات الرسول ﷺ ولا لسماحة الإسلام.

وقد ذكر الواقدي أن الذين قتلهم خالد من بني جذيمة بلغوا ٣٠ رجلاً، وأنه من شدّة بشاعة ذلك الموقف، رفض الأنصار والمهاجرون الذين كانوا ضمن جيش خالد تنفيذ أمره، فأطلقوا سراح أسراهم.

وذكر الواقدي أن بني جذيمة كانوا مسلمين حقيقيين، لهم مساجد ويقيمون فيها الصلاة، وأنه بسبب ذلك عاب عدد من الصحابة على خالد قرار القتل الذي اتخذه وأصر عليه.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص٦١-٦٢.وميلغة الكلب هي العظمة اليابسة التي يعضها.

(٢) كتاب المنمق في اخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي ص١٤٩.

(٣) كتاب المنمق في اخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي ص١٩٢.

فمثلا قال له أبو أسيد الساعدي «اتّقِ الله يا خالد! والله ما كنا لنقتل قوماً مسلمين».

وقال له عبد الرحمن بن عوف «يا خالد، أخذتَ بأمر الجاهلية! قتلتهم بعمّك الفاكه. قاتلك الله!»[1].

ولكن خالد لم يأبه بأحد، ونفّذ قرار الإعدام بلا شفقة بحق هؤلاء الذين استسلموا لثقتهم بحسن سلوك جيوش الرسولﷺ.

*****

ولم يكن خالد يعرف قيوداً أو محظورات في الحرب. فكل شيء مباح في سبيل الظفر. فمثلاً جاء في سيرة ابن هشام في كلام ابن اسحق عما تلا غزوة حنين «أن رسول الله مرّ يومئذ بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد. والناس متقصّفون عليها. فقال: ما هذا؟

فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد.

فقال رسول الله لبعض من معه: أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفا»[2].

*****

وأخذاً بعين الاعتبار هذه المآخذ والأمثلة العديدة على مسلك خالد بن الوليد، وأيضاً دوره الكبير في الفتوحات والحروب، خاصة في العراق والشام، فإن الباحثَ المنصفَ لا بد له أن يخرج بالنتيجة التالية:

يستحق خالد بن الوليد الثناءَ والتقريظ، والتقدير العظيم، على قيادته الفذة والناجحة للجيوش والقوات، وإدارته للرجال والمقاتلين، وعبقريته المميزة في مواجهة أشرس الأعداء والانتصار عليهم في الميدان، وعلى جرأته وقوته وذكائه. وخالدٌ في هذا المجال، السياسي والعسكري، مَثلٌ أعلى وذروة سامقة.

(١) كتاب المغازي للواقدي ج٣ ص٨٨٠

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص ٨٨

ولكن هذا الحُكمَ لا يجوز أن يمتدّ إلى النواحي الروحية والأخلاقية، ولا الدينية والشرعية. لقد شابت سلوكيات خالد، كشخص، العديد من المخالفات الصارخة لتعليمات الشرع الصريحة، وخالطت سيرته الكثير من المثالب، ولم يكن يتصف لا بالزهد ولا بكثرة الورع والعبادة، ولا بالحس الإنسانيّ المرهف.

فالفضلُ يُذكرُ لأهلِه، وفي موضِعِه.

تم الكتاب بعون الله تعالى

والمؤلف يرحب بآراء وتعليقات القراء الكرام

على البريد الالكتروني التالي

hussamshehadeh@yahoo.com

أهم المصادر والمراجع

- الشيخ العلاّمة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، توفي ٦٣٠ للهجرة، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تصحيح مصطفى وهبي. المطبعة الوهبية ١٢٨٠.
- الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل **البخاري**، توفي ٢٥٦ للهجرة:
  - **الجامع الصحيح**، طبعة دار الجيل، بيروت ـ لبنان.
  - **التاريخ الصغير**، تحقيق محمود ابراهيم زايد، الطبعة الأولى ١٤٠٦، دار المعرفة ـ بيروت.
- محمد بن حبيب **البغدادي**، توفي ٢٤٥ للهجرة:
  - **المنمق في أخبار قريش**، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، ١٩٦٤، مطبعة دائرة مجلس المعارف العثمانية ـ حيدر أباد ـ الهند.
  - **المحبر**، ورقة الأصل الخطية، طباعة ١٣٦١ للهجرة، مجلس دائرة المعارف العثمانية (سابقاً).
- أحمد بن يحيى بن جابر **البلاذري**، توفي ٢٧٩ للهجرة:
  - **أنساب الأشراف**، حققه وعلّق عليه محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ط١، ١٣٩٤ ـ١٩٧٤.
  - **فتوح البلدان**، مطبعة لجنة البيان العربي ـ القاهرة.
- أحمد بن الحسين بن علي **البيهقي**، توفي عام ٤٥٨ للهجرة، **السنن الكبرى**، دار الفكر ـ بيروت.
- الإمام الحافظ أبي عيسى **الترمذي** توفي ٢٧٩ للهجرة، **سنن الترمذي** (وهو الجامع الصحيح) حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٣).
- شيخ الإسلام أحمد بن **تيمية**، توفي ٧٢٨ للهجرة، **منهاج السنة**، اختصره الشيخ عبد الله الغنيمان ـ المدينة المنورة، مأخوذ من موقع البرهان على شبكة الإنترنت.
- د. هشام **جعيط**، **الفتنة**، دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الرابعة ٢٠٠٠.
- الإمام جمال الدين عبد الرحمن بن **الجوزي** القرشي البغدادي، توفي ٥٩٧ للهجرة.
  - **زاد المسير في علم التفسير**، حققه ورتب هوامشه محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٨٧.

- **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، دراسة وشرح وتقديم سعيد اللحام، دار مكتبة الهلال ـ بيروت، ٢٠٠٤.
- الإمام الحافظ العلامة محمد بن **حبان** أبو حاتم البستي التميمي السجستاني، توفي سنة ٣٥٤ للهجرة.
- **صحيح ابن حبان**، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣
- كتاب **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**، تحقيق محمود ابراهيم زايد.
- كتاب **الثقات**، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٣ــ حيدر أباد / الهند. الناشر مؤسسة الكتب الثقافية.
- الإمام الحافظ أبي الفضل شهاب الدين ابن **حجر** العسقلاني الشافعي، توفي ٨٥٢ للهجرة.
- **الاصابة في تمييز الصحابه**،دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت / الطبعة الأولى ١٩٩٥
- **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، الطبعة الثانية، دار المعرفة ـ بيروت.
- عز الدين أبو حامد بن هبة الله ابن أبي **الحديد**، توفي ٦٥٦ للهجرة، **شرح نهج البلاغة**، بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى١٩٥٩
- أبو محمد علي بن **حزم** الأندلسي الظاهري، توفي ٤٥٦ للهجرة، **الأحكام في أصول الأحكام**، تحقيق أحمد شاكر، الناشر زكريا علي يوسف، مطبعة العاصمة ـ القاهرة.
- ياقوت **الحموي**، توفي عام ٦٢٦، **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- الإمام أحمد بن محمد بن **حنبل**، توفي عام ٢٤١ للهجرة:
- **كتاب العلل ومعرفة الرجال**، تحقيق وتخريج د. وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي ـ بيروت الطبعة الأولى. دار الخاني للنشر والتوزيع ـ الرياض.
- **مسند أحمد**، طبعة دار صادر ـ بيروت.
- الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي **الخطيب** البغدادي، توفي ٤٦٣ للهجرة، **تاريخ بغداد**، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧ ــ ١٩٩٧.
- العلامة عبد الرحمن بن محمد بن **خلدون**، توفي ٨٠٨ للهجرة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المشهور ب **تاريخ ابن خلدون**، دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٩٧١.
- د. حامد محمد **الخليفة**، **الانصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف**، ٢٠٠٢ (الناشر غير مذكور).
- **خليفة** بن خياط العصفري، توفي ٢٤٠ للهجرة ، **تاريخ خليفة**، رواية بقي بن خالد، حققه

وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان ١٩٩٣.

- عبد الله بن بهرام **الدارمي**،توفي ٢٥٥ للهجرة، **سنن الدارمي**، مطبعة الاعتدال ـ دمشق.
- سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف **بأبي داود**، توفي ٢٧٥ للهجرة، **سنن أبي داود**، تحقيق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى ١٩٩٠، دار الفكر ـ بيروت.
- أبو حنيفة أحمد بن داود **الدينوري**، توفي ٢٨٢ للهجرة. **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر، ط١ ١٩٦٠، دار إحياء الكتب العربية.
- الإمام أبو عبد الله شمس الدين **الذهبي**، توفي ٧٤٨ للهجرة

ـ كتاب **تذكرة الحفاظ**، صححه عبد الرحن بن يحيى المعلمي. مكتبة الحرم المكي بمكة المعظمة، ١٣٧٤.

ـ **سير أعلام النبلاء**، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ١٤١٣ ـ ١٩٩٣.

- محمود **أبو ريا**: **شيخ المضيرة أبو هريرة**، منشورات مؤسسة الأعلمي ـ بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٩٣.
- السيد **سابق**، **فقه السنة**، ط١ ٢٠٠٣، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
- الإمام الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد **السرخسي** (توفي ٤٩٠ للهجرة)، **أصول السرخسي**، بتحقيق أبي الوفاء الأفغاني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤١٤
- محمد بن **سعد**، توفي ٢٣٠ للهجرة، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت.
- محمد نعمة **السماوي**، **معالم الإنحراف**، دار المرتضى ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٩.
- أبو سعد عبد الكريم بن محمد التميمي **السمعاني**، توفي ٥٦٢ للهجرة، **الأنساب**، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان ـ بيروت، ط١، ١٤٠٨.
- الإمام جلال الدين **السيوطي**، توفي ٩١١ للهجرة:

ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، (وبهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان. تصحيح محمد الزهري الغمراوي ١٣١٤ للهجرة.

ـ **تاريخ الخلفاء**، تحقيق سعد كريم الفقي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣. دار اليقين ـ مصر.

ـ **الديباج على صحيح مسلم**، بتحقيق أبي اسحق الحويني الأثري، الطبعة الأولى، ١٤١٦ للهجرة، دار ابن عفان، السعودية.

- الإمام محمد بن إدريس **الشافعي**، توفي ٢٠٤ للهجرة، **كتاب المسند**، تحقيق مطبعة بولاق الأميرية، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- أبو زيد عمر بن **شبة** النميري البصري، توفي ٢٦٢ للهجرة، **تاريخ المدينة المنورة**،حققه فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ، مطبعة قدس ـ قم.
- عبدالحسين **شرف الدين**، **أبوهريرة**، دار الملتقى، المغرب، توزيع دار الكنوز الأدبية، بيروت.

- عبد الرحمن **الشرقاي**، **علي إمام المتقين**، طبعة دار القارئ ـ بيروت ٢٠٠٢.
- ابراهيم علي **شعوط**، **أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ**، الطبعة السادسة ١٩٩٨، المكتب الإسلامي ـ بيروت/دمشق.
- محمد بن علي بن محمد **الشوكاني**، توفي بصنعاء سنة ١٢٥٠ للهجرة، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**. عالم الكتب.
- محمد بن الحسن **الشيباني**، توفي سنة ١٨٩ للهجرة، **السير الكبير**، شرح الإمام أبي بكر محمد بن أبي سهل السرخسي.
- الإمام أبو جعفر محمد بن جرير **الطبري** (توفّي ٣١٠).

ـ **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، المشهور بتفسير الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر، ١٩٩٥.

- أبو الفضل بن أبي طاهر المعروف بابن **طيفور**، توفي سنة ٣٨٠ للهجرة، **بلاغات النساء**، منشورات مكتبة بصيرتي ـ قم.
- الشيخ محمد **عبده**، شرح **نهج البلاغة**، اعتنى به وراجعه علي أحمد حمود، المكتبة العصرية ـ بيروت، ٢٠٠٢.
- محمد بن صالح **العثيمين**، **عقيدة أهل السنة والجماعة**، ط ٦، ١٤٢٥، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ـ السعودية.
- عبد المنعم صالح العلي **العزي**، **أقباس من مناقب أبي هريرة**، الطبعة الثالثة ١٩٩١، دار المنطلق ـ دبي.
- طاهر آل **عكلة**، **الأنصار**، الطبعة الأولى ٢٠٠١، دار الهادي ـ بيروت.
- الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن **عساكر**، توفي ٥٧١ للهجرة، **تاريخ مدينة دمشق**. دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- مرتضى **العسكري**

ـ **أحاديث أم المؤمنين عائشة**،الطبعة الأولى، ١٤١٨، مطبعة النهضة.

ـ **عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى**، الطبعة السادسة، ١٤١٣، نشر التوحيد.

- حسن **غريب**، **الردة في الإسلام**، دار الكنوز الأدبية، بيروت. الطبعة الثانية ٢٠٠٠.
- الإمام الفقيه ابو محمد عبد الله بن مسلم بن **قتيبة** الدينوري، توفي ٢٧٦ للهجرة

- **الامامة والسياسة** المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الاستاذ علي شيري. الناشر: انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ـ ايران، ١٤١٣.

- **تأويل مختلف الحديث**، تحقيق الشيخ اسماعيل الاسعردي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، توفي ٦٢٠ للهجرة، **المغني**، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري **القرطبي**، توفي ٦٧١ للهجرة، **الجامع لأحكام القرآن** المشهور بتفسير القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٥
- محمد يوسف **الكاندهلوي**، **حياة الصحابة**، دار المعرفة ـ بيروت.
- الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل **ابن كثير**، توفي ٧٧٤ للهجرة:
- **تفسير القرآن العظيم**، تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان ١٩٩٢.
- **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، الطبعة الولى ١٤٠٨ للهجرة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الأولى ١٣٩٦ للهجرة، الناشر: دار المعرفة.
- الحافظ محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن **ماجة**، **سنن ابن ماجة**، حقق نصوصه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.
- الإمام **مالك** بن أنس، **كتاب الموطأ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الأولى ١٤٠٦، دار إحياء التراث العربي.
- حسن بن فرحان **المالكي**، **نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي**، مؤسسة اليمامة الصحفية ـ الرياض. ١٤١٨.
- صفيّ الرحمن **المباركفوري**، **سيرة رسول الله**ﷺ: **الرحيق المختوم**، دار الخير ـ دمشق / بيروت، ط٢ ١٩٩٩.
- ابراهيم **محمود**، **أئمة وسحرة**، الطبعة الأولى ١٩٩٦، دار رياض الريس ـ لندن / بيروت.
- العلامة جعفر **مرتضى** العاملي:
- **الصحيح من سيرة النبي الأعظم**، انتشارات (جامعة المدرسين) ـ قم، ١٤٠٢.
- **المدخل لدراسة السيرة النبوية المباركة**، دار السيرة ـ بيروت.
- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي **المسعودي**، توفي ٣٤٥، **التنبيه والإشراف** (غير مذكور المحقق ولا الطبعة).
- الإمام أبو الحسين **مسلم** بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، طبعة المكتبة العصرية ـ صيدا \ لبنان ـ ٢٠٠٣.
- الإمام يحيى بن **معين** بن عون المري الغطفاني، توفي ٢٣٣ للهجرة، تاريخ ابن معين، برواية أبي الفضل الدوري. تحقيق: عبد الله أحمد حسن، الناشر: دار القلم ـ بيروت.

- تقي الدين أحمد بن علي **المقريزي**، **النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم**، توفي ٨٤٥ للهجرة، تحقيق السيد علي عاشور (غير مذكور الناشر).
- د.عدنان **ملحم**، **المؤرخون العرب والفتنة الكبرى**،الطبعة الأولى١٩٩٨،دارالطليعة ـ بيروت.
- محمد صادق **النجمي**
  - **أضواء على الصحيحين**، مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٩
  - **مناظرة علمية: حوار علمي في الحديث والمحدثين**، مؤسسة المعارف الإسلامية.
- الامام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب **النسائي**، توفي ٣٠٣ للهجرة:
  - **الخصائص في فضل علي بن أبي طالب**، حققه وصحح أسانيده ووضع فهارسه محمد هادي الأميني، مكتبة نينوى الحديثة.
  - **سنن النسائي**، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. طبعة ١٣٤٨/١٩٣٠، دار الفكر ـ بيروت.
  - **فضائل الصحابة**، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- **نصر** ابن مزاحم المنقري، المتوفي سنة ٢١٢، **وقعة صفين**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط١٣٨٢،٢، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.
- أبو محمد عبد الملك بن **هشام** المعافري، **السيرة النبوية**، ضبط وتحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطة. طبعة المكتبة العصرية. صيدا ـ لبنان، ٢٠٠٣.
- أبو الحسن علي بن أحمد **الواحدي** النيسابوري، توفي ٤٦٨ للهجرة، **أسباب النزول**، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة١٩٦٨. الناشر:مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة.
- محمد بن عمر بن واقد، المعروف ب**الواقدي**، توفي ٢٠٧ للهجرة، **كتاب المغازي**، تحقيق د. مارسدن جونس. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٨٩.
- أحمد حسين **يعقوب**
  - **المواجهة مع رسول الله وآله**، الطبعة الثانية ٢٠٠٢، الغدير ـ بيروت.
  - **نظرية عدالة الصحابة**، مؤسسة الفجر ـ لندن.
- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف ب**اليعقوبي**، توفي ٢٩٢ للهجرة، **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر ـ بيروت.

فهرس المحتويات

الكتاب الثاني:

وفاة الرسول وانتقال السلطة ١٧٩

الكتب الثالث:

الكتاب الرابع:

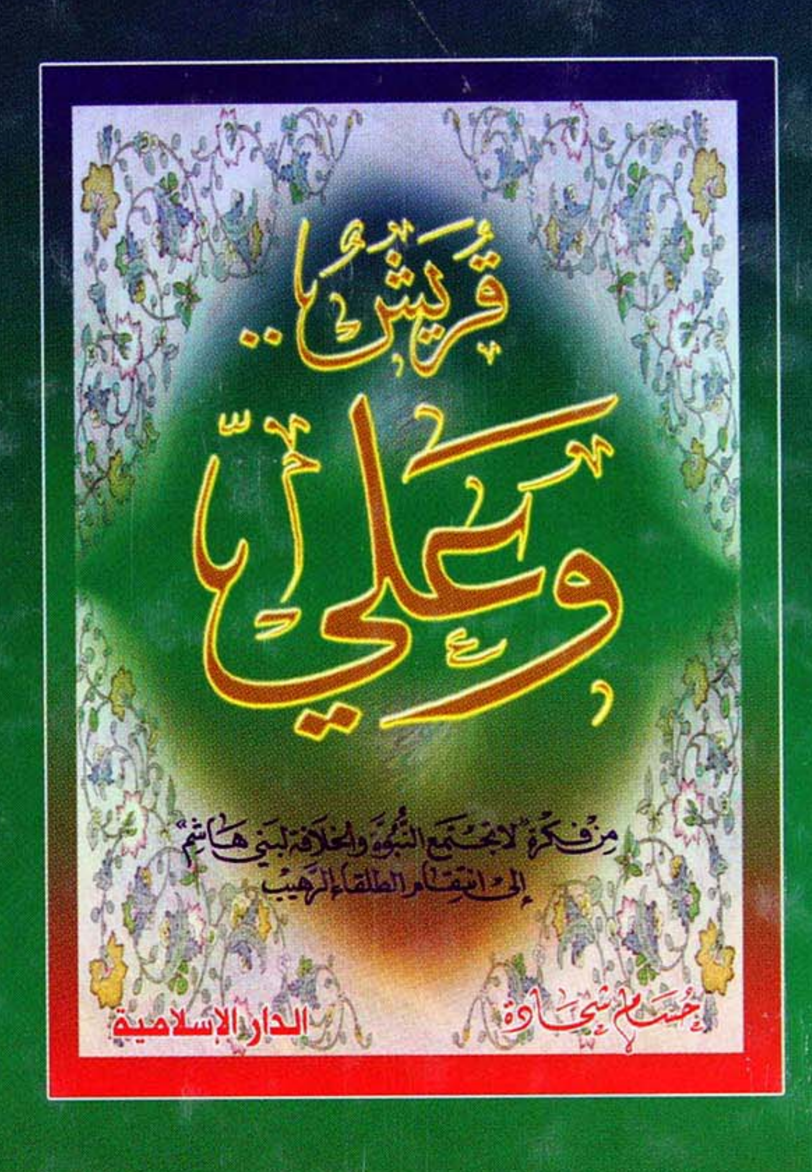
الكتاب الخامس:

الكتاب السادس:

الكتاب الثامن:









حارة حريك - شارع دكاش - مقابل مدرسة الليسيه أميكال مودرن

هاتف: ٠١/٥٥٣٨٦٣ - ٠٣/ ٣٨٩١٦٦ - ص.ب: ١٤/٥٦٨٠

WWW-DARALISLAMIA.COM INFO@DARALISLAMIA.COM